الجزائر في التاريخ

3

العهد الإسلامي

من الفتح إلى بداية العهد العثماني

د. رشيد بورويبة
د. موسى لقبال
د. عبد الحميد حاجيات
د. عطاء الله دهينة
د. محمد بلقراد

وزارة الثقافة والسياحة
المؤسسة الوطنية للكتاب

الجزائر في التاريخ

3

العهد الإسلامي

من الفتح إلى بداية العهد العثماني

د. رشيد بورويبة
د. موسى لقبال
د. عبد الحميد حاجيات
د. عطاء الله دهينة
د. محمد بلقراد

وزارة الثقافة والسياحة
المؤسسة الوطنية للكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

انجز هذا العمل بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية

84 — 54

مقدمة

لقد نتج عن الفتح الاسلامي لبلاد الجزائر قيام حضارة جديدة مكنت من توحيد السكان جميعا على الصعيد الديني والاجتماعي والثقافي .

فقد واجه الفاتحون الأولون من العرب ، علاوة على مقاومة بيزنطية تم قمعها بسهولة مقاومة من قبل بعض الأهالي تغلب العرب عليها بعد معارك عنيفة ، فلم يلبثوا ان نشروا الاسلام في البلاد المفتوحة حتى صار أهل المغرب اكثر الناس اخلاصا في الدفاع عن الدين الجديد ونشره ، ولا ادل على ذلك من اسهام الكثير منهم في فتح الاندلس .

وقد خصصنا هذه الصفحة الجديدة من تاريخ بلادنا بتأليف هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية .

وكان عنوانه : الجزائر في العصر الوسيط واشتمل على ثمانية أبواب . ويخص الباب الاول الجزائر من الفتح الاسلامي إلى تأسيس الدولة الرستمية . قام بكتابة الفصل الأول : د . موسى لقبال ، والفصل الثاني د . عبد الحميد حاجيات .

أما الأبواب الثلاثة التالية فقد كانت عناوينها هكذا على الترتيب :

« الجزائر في عهد الرستميين » « الجزائر في عهد الفاطميين والزيريين » « الجزائر في عهد الحماديين » . وقد عهد الى السيد رشيد بوروبية أن يحرر باللغة الفرنسية الفصول الخاصة بالتاريخ السياسي والنظم الادارية والحياة الاقتصادية والاجتماعية والفنية . وقد اسند تعريب كل هذه الفصول — وما اصعبها من تبعة — الى السيد محمد بلقراد قبل أن يضطلع بتأليف الفصول الخاصة بالحياة الأدبية التابعة للأبواب الثلاثة .

يخص الباب الخامس « تاريخ الجزائر في عهد المرابطين والموحدين » . وقد تناول فيه السيد حاجيات الحياة السياسة والفكرية والسيد دهينة الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية والسيد بوروبية الحياة الفنية .

وبما أن الدولة الزيانية قد حكمت جزء كبيرا من القطر الجزائري مدة تزيد على ثلاثة قرون ، فقد خصصنا لها ثلاثة أبواب من كتابنا: عناوينها : « تاريخ الزيانيين السياسي : الدور الأول » « تاريخ الزيانيين السياسي : الدور الثاني » « الحضارة الزيانية » . وقد قام السيد دهينة بتأليف الباب الأول منها والسيد حاجيات بتحرير الباب الثاني ، أما الباب الثالث فقد اسند تأليف الفصلين الأولين منه وموضوعهما : النظم الادارية والحياة الاقتصادية والاجتماعية الى السيد دهينة وقد الف الفصل الثالث منه السيد حاجيات وخصه بالحديث عن الحياة الفكرية وأسند الفصل الرابع منه الخاص بالحياة الفنية الى السيد بوروبية .

وبجانب الحياة السياسية والعسكرية خصصنا حيزا واسعا لدراسة النظم الادارية والحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية .

ولما كان خطابنا في هذا الكتاب موجها لجمهور المثقفين ، حرصنا كل الحرص على أن يكون مصوغا في أسلوب واضح وتجنبنا أن نحشو صفحاته بالتفاصيل الثانوية ونثقله بإضافة تعاليق وفهارس .

غير اننا إلتزمنا أن نذكر طائفة من المصادر والمراجع أثر كل باب وجدولا فيه احصاء ما يهم ذكره من الحوادث السياسية والاجتماعية والثقافية التي وقعت في القطر الجزائري وسائر أنحاء العالم .

وأخيرا فإن ما يتطلبه هذا النوع من الكتب من توفير المتعة والتشويق للقارىء قد ادانا الى إثرائه بكثير من الخرائط والرسوم والصور لاشهر المباني والتحف التي تركها لنا الأجداد .

الباب الاول

الجزائر من الفتح الاسلامي الى تأسيس الدولة الرستمية

الفصـل الاول

تيار الفتح الاسلامي في شمال افريقيا ونتائجه

د . موسى لقبال

1 ــ المصطلح الجغرافي :

إن الجناح الغربي من الوطن العربي الكبير الذي يشرف في شماله على مياه البحر الأبيض المتوسط ، أو بحر الدوم ، وفي غربه على مياه المحيط الأطلسي ، أو بحر الظلمات ، ويلامس في شرقه وفي جنوبه خط الصحراء ، هو الذي عرف حديثا بشمال إفريقيا ، وبالمغرب الكبير ، أما في القديم فقد تطورت تسمياته حسب العصور ، والأنظمة السياسية والحضارية التي تواردت عليه .

وأقدمها نسبيا إسم (ليبيا) الذي أطلقه لأول مرة مؤرخو الاغريق ورحالتهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ليدل على الأجزاء الشمالية المعروفة والمأهولة من قارة افريقية كلها بحيث أن كلمة ليبيا عندهم كانت ترادف مدلول قارة إفريقيا فيما بعد ، ولذلك يبدو ، تخصيصها بالأجزاء الشمالية ، ضربا من المجاز ، أو التجوز في التسمية كما يقال .

أما سكان ليبيا فهم الليبيون « الليبو » عند قدماء المصريين وقد يميّزون بوصف البيض أحيانا ، حتى لا ينصرف المدلول إلى الليبيين السود وهم الزنوج المجاورون لهم في الجنوب .

ومن نسل هؤلاء الليبيين القدماء ، أحفادهم الليبيون المحدثون أو البربر الذين ارتضوا لأنفسهم اسم (الأمازيغ) أي الرجال الأحرار الذين يرتفع نسبهم إلى مازيغ بن كنعان .

وقد تطور مدلول ليبيا وغدا في نهاية الأمر ، قاصرا على أراضي الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية ، دون بقية الأجزاء الشمالية من بلاد المغرب الكبير .

وفي بداية العصر الروماني في المنطقة ، ظهر في الكتابات اللاتينية للقرن الثاني (ق . م) مصطلح (بلاد الافرى) ، والافرى مجموعة من السكان كانت ذات صلة وثيقة بالقرطاجنيين الفينيقيين بناة قرطاجنة (814 ق . م) ، وأوتيكا (1101 ف . م) (بوشاطر — ولاية بنزرت) التي هي أقدم المراكز الفينيقية في الساحل المغربي .

ويبدو أن صلة الافرى بقيت وثيقة أيضا بالرومان الذين خلفوا قرطاجنة ، ممّا يبرر ورود المصطلح ، ونسبة الأجزاء التي احتلها الرومان إليهم ، والكلمة ليست بعيدة الصلة بكلمة (حفرى) ، أي أثرى ، والانسان الحفري ، أو الأثرى معروف ، ولأن كلمة (أفرى ،أو أفرن) في المدلول المحلي للبربر تعني المخبأ ، أو الكهف ، ولعل ذلك إشارة إلى أن الاسم ربما أطلق لمّا كان يلاحظ من نمط معيّن للمساكن المحلية في ذلك الوقت .

وتلت كلمة الافرى ، أو صاحبتها في العصر ، كلمة (افريقية) ، التي كانت تعني ممتلكات قرطاجنة الفينيقية على الساحل التونسي التي آلت بعد هزيمة القرطاجنيين كشعب ، وتخريب قرطاجنة كعاصمة سياسية سنة 146 ق . م ، إلى الرومان ، وتمتد من (لبدة) الكبرى إلى (الكاف) ، ومن هذه المدينة وحتى نهر ملوية يبدأ إقليم (نوميديا) (الجزائر) ، وكان إقليما مستقلا عن القرطاجيين ، وعن الروكان أيضا ، ومن نهر ملوية إلى طنجة يبدأ إقليم (موريطانيا) (المغرب الأقصى) . وكان هو آلاخر مستقلا عن النفوذ الأجنبي .

وبتطور التجربة الاستعمارية وتقدم النفوذ الروماني في المنطقة ، انمحت بعض الفوارق ، والتسميات ، وعدلت الحدود ، وكثرت الكيانات ، لكن مدلول كلمة افريقية اتسع ، بحيث أصبح في العصر البيزنطي الرومي ، (الرومان المتأخر) يعني كل النطاق الساحلي الذي يمتد من طرابلس إلى طنجة بل إلى سبتة . أما سواحل برقة أو (انطابلس) أي إقليم المدن الخمس (Pentapolis) فكانت ذات وضعية غير مستقرة .

وبهذا المدلول الواسع لكلمة افريقية ، استعملت في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين مثل اليعقوبي ، ابن عبد الحكم والبكري ، وغيرهم .

وفي ابن عبد الحكم المصري (القرن 3 هـ/ 9 م) ، أوثق مؤرخي فتح شمال افريقيا ، ما يفيد حقيقتين :

الأولى : حقيقة أن قرطاجنة كانت قاعدة سلطان افريقية ومقر الحاكم البيزنطي ، الذي كان يعرف بالقائد جرجير ، أو جريجوار ، (ابن نيكيتاس قائد غزو بيزنطة في قرطاجنة وهو هرقل الكبير حاكم قرطاجنة) .

ثانيا : وأن نفوذ هذا القائد ، كان يمتد من طرابلس إلى طنجة ، أي منطبقا على مدلول كلمة افريقية في هذا العصر (1) .

أما البكري (القرن 5 هـ / 11 م) فيرى أن افريقية تمتد شرقا حتى برقة وغربا حتى طنجة الخضراء ، أي تتضمن اعتبار إقليم برقة في إطار إفريقية ، وهو أحد أوضاع هذا الاقليم (2) .

ومنذ القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، ظهر في الميدان الاداري في شمال إفريقية ، إلى جانب مصطلح إفريقية ، مصطلح قديم نسبيا في المشرق ، هو (المغرب) ليدل على ما كانت تدل عليه كلمة إفريقية ، ولقد كان مصطلح المغرب منذ عصر الفتنة بين علي ومعاوية ، يدل على الجزء الغربي من الدولة الاسلامية ، ويتضمن الشام ومصر وما اتصل بهما في مقابل المشرق الذي يشمل العراق ، وايران ، وما جاورهما ، وفي ابن الأثير (القرن 7 هـ / 13 م) ما يؤكد هذه الحقيقة ، فقد أرسل علي بن أبي طالب إلى عامله في الكوفة يقول له : « تجهزوا الى عدوكم من أهل المغرب » (3) . وفي رسالة أرسلها الى ابن عباس في البصرة ، يقول فيها : « قد أجمعنا على المسير الى عدونا من أهل المغرب » (4) .

وبالتدريج ، بدأ التمايز في إطار مصطلح المغرب بين الأجزاء القريبة من المشرق ، والبعيدة عنه بقصد التسهيل ، وهكذا ظهرت مصطلحات جزئية تجمعها كلمة : المغارب الثلاثة ، (الأدنى) ، و (الأوسط) و (الأقصى) ، فالأدنى، وقد يعرف بإفريقية ، يمتد تقريبا من طرابلس إلى بجاية ، والأوسط أو الواسطة ، ويمتد من بجاية إلى نهر ملوية وراء تلمسان ، والأقصى ويمتد من ملوية حتى طنجة ، أما وراء طنجة أو العدوة ، فهي شبه جزيرة إيبريا أو الأندلس ، وكانت أرضا قوطية فلما تمّ فتح المغرب وامتد الفتحْ منه إلى شبه جزيرة الأندلس أصبحت جزءا تابعا لاقليم المغرب ولعاصمته التاريخية وهي القيروان حتى سنة 138 هـ (756 م) . أما منذ هذا التاريخ ، فقد انفصلت سياسيا بإمارتها الأموية الناشئة التي أحياها ، بمساعدة البربر ، عبد الرحمن ابن هشام الملقب بصقر قريش .

ولهذا الارتباط المتعدد الجوانب بين المغرب والأندلس ، جمعهما الاصطخري في خارطة واحدة ، واعتبر المغرب ، مصطلحا شاملا للنصف الشرقي وهو المغرب المعروف ، وللنصف

---

(1) فتوح مصر وافريقية والمغرب ، ص : 246.

(2) المغرب في وصف افريقية والمغرب ، ص : 21.

(3) الكامل في التاريخ ، الجزء الثالث ، ص : 172.

(4) نفسه.

الغربي منه وهو أرض الأندلس(1) .

ومع ابن خلدون (القرن 8 هـ/ 14 م) انضاف مصطلح جديد ، هو (جزيرة المغرب) ، جاء في كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ، والبربر ، ومن حاورهم من ذوي السلطان الأكبر» .

وفي عهد المؤرخ ابن أبي دينار (القرن 11 هـ/ 17 م) ، صاحب كتاب «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» غدت كلمة إفريقية قاصرة المدلول إما على فحص القيران ، أو على امتداد أوسع من ذلك بقليل ، (افريقة في النطق المحلي التونسي) أي انحصر نفوذ كلمة افريقية ،مثلما انحسر نفوذ كلمة المغرب التي أصبحت لا تعني آلآن غير الأجزاء الغربية المتطرفة من شمال افريقية ،وهي المملكة المغربية الشريفية ، وغدت علما بالغلبة عليها في وقتنا ، بينما اختفت مصطلحات المغرب الأدنى والأوسط ، وحلّت محلّها مصطلحات جديدة في عصرنا الحاضر .

ولم تسترجع كلمة افريقية ، مدلولها الواسع ، إلّا بعد نجاح الاكتشافات الجغرافية ، والرحلات الاستعمارية ، التي وسعت أفق المعرفة بأجزاء القارة كلها وغدت افريقيا (بالألف) تعني القارة كلها بكامل أجزائها .

ومع الجغرافيين المحدثين ظهرت مصطلحات (افريقية الصغرى) وتعني شمال افريقية ، و (بلاد الأطلس) نظرا لظاهرة طبيعية وهي سيادة سلسلة جبلية على المنطقة كلها ، تسمى جبال الأطلس ، وهي التي عرفت في النصوص العربية الاسلامية باسم (جبال درن) ،ومنها كتلة أوراس ،معقل ثورة نوفمبر 1954 ، الخالدة ، وكتلة جرجرة التي عرفت قديما بسبب مناعتها ، جبال الحديد ، ثم (شمال افريقة) ، و(بلاد البربر) و (المغرب العربي الكبير) .

2 ـــ المحتوى البشري :

أما السكان القدماء لهذا النطاق الجغرافي من غرب مصر حتى المحيط فهم الأمازيغ ، وهم أقدم العرب في هذه البلاد ، أما الطارئون بعد ذلك عن هذه البلاد فهم بحسب الترتيب التاريخي القرطاجيون ، وهم عناصر فنيقية سامية ، ثمّ الرومان ، والوندال ، والروم البيزنطيون وهم عناصر آرية ، ثم عنصر خليط من أولئك وهؤلاء . كان يدين معظم أفراده بالمسيحية ويأخذ بأساليب الحضارة الرومانية وهم الأفارقة ، أو الأفارق ، وكانوا خدما وزراعا ومثلوا دورا مشبوها ، إد قاوموا الفتح العربي الاسلامي منذ معركة سبيطة (28 هـ) (649 م) .

---

(1) المسالك والممالك ، ص : 33.

أما الأمازيغ (البربر) حسب التعبير المشهور ، فهم بحسب أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية فرعان أو جذمان ، برانس ،وبتر . فالبرانس في معظمهم مستقرون للزراعة والغراسة ولذلك كانوا أكثر احتكاكا بالشعوب ، والحضارات التي تواردت على شمال افريقية ، وأكثر تأثرا بالتيارات الحضارية الأجنبية ،في اللغة والدّين ، فكان منهم المسيحيون ، ولذلك كانوا من أقوى عناصر المقاومة للفتح الاسلامي .

وهم قبائل كثيرة أشهرها : كتامة وصنهاجة ، ومصمودة وزواوة وازداجة وعجيسة ، وهوّارة ، وأوربة ، أما الفرع الثاني وهم البتر ، فرحالة في معظمهم ، وتتوفر فيهم جميع خصائص ومميّزات البدو الرحالة في العالم القديم والوسيط ، ولادراكهم لرابطة النسب البعيدة مع العرب ، وللتشابه في الخصال لم يجد الفاتحون منهم ، مقاومة كبيرة في بداية الفتح وفي مراحله الأولى .

وأشهر مجموعات البتر : زنّاتة ، ولواتة ، ونفوسة ، وأدّاسة ومطغرة ومزاتة ، ومكناسة ، ونحن نعتقد على خلاف آراء بعض المؤرخين ـــ أن البرانس في معظمهم ذوو أصول مشتركة مع عرب الجنوب أي حميرية ، وقحطانية ، وأن البتر في معظمهم ذوو رحم مشتركة أيضا مع عرب الشمال أي مضرية عدنانية ، من قيس عيلان بصفة خاصة ، وكل ذلك يرويه النسابة المحليون ، ويعترفون به ، ويفتخر به الزعماء ، والأمراء مثل أبي الفتح المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد من صنهاجة ، ويوسف بن تاشفين ، مؤسس دولة المرابطين ، وهم من صنهاجة أيضا ، ولهذا فرواد الفتح العربي الاسلامي في المغرب سوف يصطدمون منذ القرن 1 هـ/م ، وبالتحديد منذ أن انتهوا من فتح مصر عقب نجاح عمرو بن العاص ، « قائد فتحها » في عقد معاهدة الاسكندرية 21 هـ/642 م بمقاومة الروم البيزنطيين حكام البلاد ، وبأحلافهم الأفارقة ، ثمّ بحلف البرانس المستقرين ، وأخيرا بحلف البتر المنتقلين ، فما هي دوافع فتح المغربُ ؟ وما هي مراحل العمل ، وردود الفعل المعاكسة له ؟

3 ـــ دوافع الفتح ومراحله الكبرى:

دور عمر بن العاص .

عندما نجح الفتح العربي في مصر ، باب المغرب ، اضطرت الضرورة الحربية والي مصر وقائد فتحها ، عمرو بن العاص ، إلى التوجه بنظرة نحو إقليم برقة المتصل بحدود مصر لتأمين قاعدة الفسفاط في مصر ، وللحفاظ على الحقوق الثابتة للعرب فيها ، ثمّ لدفع بقية المشاريع البيزنطية المضادة للنفوذ الاسلامي في مصر ، والتي قد تنطلق من ولاية افريقية البيزنطية عبر برقة لاسترجاع مصر ، وبلاد الشام ألى حظيرة الدولة البيزنطية .

واقتضت هذه الاستراتيجية أن يسن عمرو بن العاص من موقفه في الفسطاط ستة سوف سحتذي بها كل من جاء بعده على رأس ولاية مصر وهي ارسال البعوث والسرايا

والطلائع ، بهدف كشف المنطقة والاتصال بالسكان ، والتعرف على انماط حياتهم ، ودعوتهم الى الاسلام أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل تجهيز الحملات الكبرى التي يعهد اليها بمهمة الفتح والتمهيد لعملية الاستقرار ، وأول هذه السرايا ، سرية ناجحة قادها قريب عمرو ابن العاص ، عقبة بن نافع الفهري الى برقة ، مركز قبيلة لواته البترية واحلافها ، تلاها بعث قادة عمرو بن العاص نفسه ، وكان يتألف من قوة من الفرسان ، بمعية عقبة بن نافع الذي رجع بأخبار مشجعة من برقة ، وكانت نتيجة البعث الاول والثاني التوفيق في اقرار مبدأ الجزية على قبيلة لواته في برقة وقبائل منطقة زويلة في جنوبها ، وتلا ذلك اقرار نفس المبدأ ، مع قبائل هوارة ، وزواغة ، ونفوسة وغيرها ، في سرت ، وودّان وطرابلس ، وصبراتة ، بحيث أصبح عمرو بن العاص ، على هوامش اقليم إفريقيا البيزنطي ، حيث مركز ثقل الروم لذلك اقتضت الحكمة الاكتفاء بهذه النتائج مؤقتا والعودة الى الفسطاط قاعدة الفتح للاعداد للمرحلة التالية ، وكان ذلك بناء على رأي الخليفة عمر بن الخطاب .

ورغم أن نشاط عمرو بن العاص ، وأعوانه خاصة عقبة ابن نافع ، لم يتضمن معارك كبرى ولم تتضح أثناءه سياسة عربية واضحة للاستقرار ، ولا تأثرت به عقائد السكان في المنطقة فإن أهميته كبيرة ، من حيث أنه تمخض عن :

أ ــ كشف منطقتي برقة وطرابلس .

ب ــ وضمان برقة قاعدة أمامية ثابتة للفسفاط .

ج ــ ووضع نواة الاستقرار ، والاتصال بالسكان ، وذلك عندما أبقى عمرو ابن العاص اثر انسحابه ، عقبة بن نافع في برقة كي يواصل المهمة في الاستطلاع والدعوة الى الاسلام دينا ، أو سلطة سياسية ، وكانت هذه ، بادرة حميدة ، إذ أن بقاء عقبة سيؤكد ولاء برقة وسيبرهن على نية الاحتفاظ بالمنطقة في اطار الحلف ، كنقطة ارتكاز للانطلاق من قرب الى ما جاورها ، ولقد قدّم عقبة من موقعه ، خدمات مشكورة لفائدة المنطقة ، وأمدّ الحملات الكشفية العربية التي استمرت منذ 27 هـ (647 م) بمعلومات مفيدة .

دور عبد الله بن سعد : .

وحملة العبادلة التي انطلقت من الفسطاط سنة 27 / (647) ، بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ــ أخي عثمان من الرضاع ووالي مصر الجديد من قبله ، بعد تنحية عمرو ابن العاص ، تعتبر أهم هذه الحملات الكشفية لاشتراك كثير من الصحابة وأبنائهم فيها ، مثل عبد الله ابن الزبير ، وابن العاص ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن أبي سرح ، ثمّ لأنها

الحملة الأولى التي تجاوزت اقليم طرابلس ، واقتحمت عمق افريقية البيزنطية ، وعسكرت بقرب مركز المقاومة والتجمع في هذه المرحلة الدقيقة ، وهي مدينة سبيطلة ، قاعدة القائد البيزنطي ، الذي عرف بجرجيرا أو جريجوار ، ومن معسكرهم بدأوا نشاطهم في الكشف ، والتعرف على السكان ، والاتصال بالقائد البيزنطي ، لحمله على قبول الاسلام ، أو الجزية .

وعندما فشلت محاولات اقناع جرجير ، نشب القتال ، الذي أسفرت عن نصر اسلامي ، سرعان ما اشتدت وطأته على الروم وأحلافهم الأفارقة ، ونصارى البربر خاصة بعد قتل جرجير ، فطلبوا الصلح مقابل مال كثير ، فرحب ابن أبي سرح بالعرض وأخذ المقابل ، مالا وفيرا ، وانسحب الى الفسطاط عبر برقة أواخر 29 هـ (650 م) ، وذلك لأن ظروفا ضاغطة ألجأته الى قبول ذلك ، والى سرعة العودة ، ومن ذلك خلاف دبّ بين الجند الغانمين ، وبدء حركة النقد لسياسة الخليفة عثمان في الأمصار الاسلامية ، ومنها مصر قاعدة الفتح ، ومركز ولاية ابن أبي سرح ، وقبل الانسحاب ، شرط ابن سرح على الروم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الصلح ردّوه عليهم (1) .

لم يكن في مقدور ابن أبي سرح ان يفعل أكثر من ذلك بسبب ارهاصات «الفتنة الكبرى» التي كان أحد أسبابها ، لذلك ترك افريقية دون وال أو حامية عربية ، أو مركز مستقر يخلد النصر في سبيطلة ، ويتلاءم معه .

وانشغل المسلمون بأحداث الفتنة الكبرى ، وعندما انتهت بعام الجماعة الأول سنة 41 هـ /(661 م) ارجع معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية ورأس الفرع السفياني فيها ، عمرو بن العاص من جديد الى مصر وافريقية مؤقتا تطبيقا لاتفاق سابق بينهما ، فلما توفي عمرو سنة 43 هـ (663 م) خلفه ابنه عبد الله فترة يسيرة ، ثمّ أزيح ، وانتدب معاوية لحكم مصر عقبة بن عامر الجهني ، ولفتح افريقية ، قائد جند مصر ، ورأس العثمانية فيها : معاوية بن حديج السكوني الكندي منذ سنة 44 هـ (664 م) ، برسم تنشيط عملية الكشف في عمق افريقية تمهيدا للفتح الدائم .

دور معاوية بن حديج :

وباسم ابن حديج ترتبط بداية استراتيجية جديدة تقوم على أساس انجاز العمل الكشفي في الأعماق ، استنادا على قاعدة شبه ثابتة في العمق ، بسبب بعد قاعدة برقة .

---

(1) ابن عذاري ــ البيان االمغرب ، ج1 ، ص :8 ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 246 . وما بعدها ، عبد المنعم عامر ــ القاهرة 1961.

وكانت هذه القاعدة عبارة عن معسكر بناه ابن حديج في مكان حصين بجوار مرتفع القرن ، في اقليم يعرف بقمونية «وهو نفس الاقليم الذي سترسى عليه دعائم المصر الاسلامية الأولى في افريقية ، وقاعدة الاسلام وعاصمة المغرب الاسلامي لفترة ، وهي مدينة القيروان ، ولذلك يعتبر عمل ابن حديج ، ارهاصا حقيقيا لما تمّ انجازه فعلا في عهد خلفه على أعمال الفتح في افريقية ، ذلك هو عقبة ابن نافع الفهري ، الذي يستحق لقب الافريقي أيضا لقدم عهده بالأرض وبالسكان ، وللتوفيق الذي ناله ابن حديج في مهمّته في عمق افريقية ، يشير ابن الأثير شيخ مؤرخي المشرق (7 / 13 م) بقوله : «فسكن الناس وأطاعوا ، ثم لم يزل أهل أفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم . الى زمان هشام بن عبد الملك ، حتى دبّ اليهم أهل العراق (1) (أي الخوارج) . وابن الأثير محق في حكمه ، وفي استنتاجه ، لأن حملة ابن حديج أسفرت عن :

أ — كشف معظم أرجاء ولاية افريقية «البيزنطية» .

ب — وعن اقتحام بعض الحصون فيها ، مثل جلولاء .

ج — وعن وضع نقطة الارتكاز في العمق ، التي كانت بمثابة النواة الحقيقية لمدينة القيروان الاسلامية ، مدينة عقبة بن نافع .

عقبة بن نافع :

الرجل العربي الافريقي الذي طوّر وجهة الحرب المغربية بعد الخبرة الطويلة بطبيعة الأرض ، والسكان ، والعلاقات وملامح استراتيجية عقبة الجديدة ، وخلاصة خبرته صاغها في قوله لرجاله : «ان افريقية اذا دخلها أمير تحزم أهلها بالاسلام ، فاذا خرج منها رجعوا الى الكفر ، واني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا تكون عزّا للاسلام الى آخر الدهر .

وأردف القول بالعمل ، بعد الاستحسان ، فركز رمحه في موضع وقال : «هذا قيروانكم» وفي مكان آخر لموضع المسجد وقال : «هذا محرابكم» ، ونجح أخيرا الرأي الذي يجعل القاعدة الجديدة ، بعيدة نسبيا عن البحر ، وعن عمق الصحراء ، لا عن هوامش السباخ ، ليمكن لابل المسلمين أن ترعى في أمان .

---

(1) ابن الأثير — المصدر السابق ، ج3 ، ص : 230 ، ابن عبد الحكم المصدر السابق 260 وما بعدهاز

وقد استغرق هذا العمل العمراني التمديني أربع سنوات (51 ـــ 55 هـ) (671 ـــ 675 م) سبقته وتخللته أعمال ايجابية ، وكرامات لعقبة كوليّ مستجاب الدعاء ، سواء عندما باشر الجند عملية تهيئة مكان المدينة وكان شبه أجمة ، أو عندما احتار القوم بعد بناء مسجد المدينة في موضع المحراب قبلة مساجد افريقية كلها في المستقبل(1) .

وقد أراد عقبة من قاعدته الجديدة ، أن تكون مأوى للجند ولذويهم ومستودعا لذخائرهم ، وحرزا يقيهم الأخطار ، ومقرا لولاة وقادة الفتح في المستقبل ، ومركز انطلاق لانجاز الفتح العسكري ، والثقافي ومنارة للاسلام وللثقافة الاسلامية ، اتضح ذلك في دعائه «اللهم املأها علما وفقهْا وأعز بها الاسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض» . وقد استجاب الله لهذا الدعاء فاطرد نموها ، واتسع فحصها ، وعظم تأثيرها ونفوذها ، وغدت فعلا عاصمة لولاية جديدة هي افريقية الاسلامية ، بعد العناية التي حظيت بها من طرف قادة فتح افريقية بعد بنائها ، فقد جدد حسان بن النعمان مسجدها ، وهو أقدم مساجد افريقية الاسلامية ، وبنى موسى بن نصير دارا لسك النقود فيها وكانت أول مؤسسة تقام فيها ، ورتب يزيد بن حاتم المهلبي الازدى أسواقها وجعل لكل صناعة مكانا .

وأصبحت القيروان في القرن الثاني للهجرة ، مصرا جامعا ، وحاضرة لولاية وأم حواضر افريقية الاسلامية ، وقبلة مسلميها ، فاقت في عظمتها تونس ، المصر الثاني في افريقية ومجد قرطاجنة ، حاضرة أفريقية القديمة .

أما نتائج قيامها في نهاية الطريق الأعظم ، أو الجادة الذي يبدأ من الفسطاط ، فقد أفصح عن بعضها المؤرخ ابن الأثير في قوله : «ودخل كثير من البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود ، بمدينة القيروان ، وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الاسلام فيها» (2) .

ومعنى ذلك سلامة التخطيط للفتح الدائم ، الذي يدين لعبقرية عقبة ، وذكائه واخلاصه ، للاسلام ، ولسكان افريقية ، بحيث لو لم يعزل عقبة عن افريقية ، ولو لم يبعد فجأة عن ميدان الفتوح فيها ، بتأثير الدسائس وتدخلات والي مصر ، مسلمة بن مخلد الانصاري ، صاحب المكانة المرموقة في الحزب الأموي لأمكن لعقبة بعد اتمام بناء قاعته ، أن يحقق نتائج ملموسة لفائدة تقدم الاسلام ، والدولة العربية الاسلامية بمجهودات غير كبيرة ، وربما في فترة ليست بطويلة .

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 262 ، ـــ 265 ، العبدرى ، الرحلة المغربية ، ص : 57 ـــ 68.

(2) الكامل في التاريخ ، الجزء الثالث ، ص : 235.

دور أبي المهاجر دينـار :

وبإبعاد عقبة عن افريقية ، من طرف معاوية بن أبي سفيان ، تبدأ مرحلة جديدة وهامّة في تاريخ مسيرة استراتيجية الفتح العربي في بلاد المغرب ، عموما ، وفي تاريخ مسيرة الفتح ، في المغرب الأوسط ــ بلدنا ــ الجزائر خصوصا .

ذلك أن والي مصر المحظوظ ، مثل كل ولاة مصر بعده ، كان يطمع في سبايا المغرب ، وطرائفه وتحفه ، لذلك رغب أن يراقب النشاط في افريقية مباشرة عن طريق أحد أتباعه ومواليه ، الأثيرين ، وكان هذا المولى هو دينار أبو المهاجر (55 هـ 62 هـ) (675 م ــ 682 م) الذي تسرع فاستهل أعماله في افريقية باهانة عقبة والتضييق عليه ، بدلا من الاستئناس برأيه ، وحفظ كرامته ، فأتاح فرصة لعقبة كي يحقد عليه ، ويتربص به ، ويشكوه لمعاوية وهو يتطلع ألمًا وحسرة على نكران الجميل « فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ، ودانت لي ، ثمّ أرسلت عبد الانصارى فأساء عزلي »(1) ، فلم يسع معاوية في هذا الوضع الحرج الّا أن يعتذر لعقبة ، لمكانة مسلمة بن مخلد في نظام الدولة ، ولكنه وعده خيرا عندما تتهيأ الظروف .

وفي عهد دينار أبي المهاجر مولى الأنصاري ، برزت عدة عناصر جديدة في الموقف أهمها :

أ) كره أبو المهاجر ، الاقامة في القيروان ، لأنها ارتبطت بعقبة وهجرها وحمل الناس على هجرها ، لكنه لم يخربها .

ب) ومع ذلك ولادراكه لأهمية وجود « قاعدة ارتكاز » في المنطقة ، ترتبط بشخصه اختار مكانا لا يبعد عن القيروان ، لوضع أسس قاعدته الجديدة التي عرفت بالنطاق المحلي « تاكيروان » ، وقد تمّ ذلك بالتعاون مع السكان سواء في عملية البناء وفن التعمير ، أو في الدفاع عنها ضد كل طارىء جديد ومعنى ذلك أن أبا المهاجر أراد أن يضع اللبنة الأولى على أساس مساهمة السكان المحليين ، مع الفاتحين ، اتمام عمليات الفتح الاسلامي في المناطق التي لم يشملها حتى الآن ، وفي ذلك تأليف لهم ، وكسب لولائهم ، يسهل بدون شك مهمة الفاتحين في الحاق هزيمة محققة بالروم البيزنطيين ، وبكل من ربط مصيره بهم من المسيحيين

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 266 .

أبو المهاجر وكسيلة واتساع حركة الفتح :

ج ــ ومن هؤلاء «أوربة» وأحلافها البرانس المتأثرون بالحضارة البيزنطية ، وكانت زعامة هذه القبيلة معقودة على كل البرانس في المغرب الأوسط ، وعلى كل من انحاز إليهم من البتر أيضا ، ومظهر وحدتهم ، وعنوان قوتهم ، وزعامتهم ، أميرهم المشهور بسعة علاقاته ، ويسمى كسيلة بن لمزم الأوربي .

د ــ وقد قدر لأبي المهاجر أن يصطدم بأوربة ، وبأحلافها وبزعيمها كسيلة ، ويخرج بنتيجة مشرفة له ، وايجابية بالنسبة لتطور الاسلام ، والحركة الاسلامية خاصة في المغرب الأوسط (الجزائر) .

هـ ــ ذلك أن أبا المهاجر ، بعد اطمئنانه لصداقة السكان المحليين وولائهم بعد اشتراك الجميع ، في ارساء قاعدة تاكيرات ، خرج لارتياد المغرب الأوسط حيث كان كسيلة وجماعته . ويبدو أن اطلاع كسيلة على مجريات الأحداث وسماعه عما يعتزم المسلمون انجازه في المغرب الأوسط ، جعلاه يقدر بسرعة الزحف ، من أقصى نقطة في المغرب الأوسط ، حيث كان يجوس خلال الديار للقاء أبي المهاجر وجموعه من العرب ، والأمازيغ المسلمين ، الذين بدأوا توغلهم في عمق المغرب الأوسط ، وفي صميم أرض قبيلة أوربة وأحلافها . وقد كان اللقاء بين الرجلين قرب تلمسان ، لقاء حاسما اذ أسفر عن هزيمة لأوربة ، وجموع الأحلاف وعن أسر كسيلة .

و ــ لم يشأ أبو المهاجر ، استغلال نصره ، لتحقيق مكاسب مادية أو لاذلال أوربة ، وزعمائها ، وانما اتجه وجهة حسنة عندما دعا الأمير كسيلة الى الاسلام والحلف مع المسلمين ، فأسلم وحسن اسلامه ، واقتدت به قبيلته أوربة وأحلافها جريا على تقاليد هذه العصور ، ولقد غدا هذا العمل كسبا كبيرا للحركة الاسلامية في المغرب الأوسط ، الذي شهدت أرضه ميلاد الصداقة الأبدية مع أبي المهاجر ، وكسيلة ، فأصبحا حميمين ، كالشخص وظله لا يفترقان . والأهم من ذلك ميلاد الأخوة الأبدية بين رواد الفتح ، وسكان المغرب الأوسط ، أو ميلاد التجمع الاسلامي ، أو نواة المجتمع الجديد ، في ظل الاسلام ، والدولة العربية .

ز ــ وقد تمّ ذلك بفضل سماحة أبي المهاجر ، وبعد نظره ، وسعة أفقه السياسي ، وقد ساعدته وضعيته ــ كمولى ــ على سلوك سياسة اللين والمدارة مع المسلمين الجدد لتأليف قلوبهم وهذه مهّدت لميلاد الحلف المشترك ضد العدوّ المشترك وهم الروم البيزنطيون .

وسياسة الحلف كانت ثمرتها طيبة ، اذ مكّنت أبا المهاجر من :

1 ــ ممارسة نشاط عسكري ، ضد شبه جزيرة شريك ، وفحص قرطاجنة كبرى قواعد الروم في افريقية وهذا لم يحصل قبل ذلك .

2 ــ وسهّلت مهمّة الفاتحين في مدن وقلاع المغرب الأوسط التي مروا بها أثناء سيرهم عائدين إلى تاكيروان قاعتهم الرسمية .

3 ــ وشاء أبو المهاجر ــ قبل عودته الى تاكيروان ــ تخليد ذكرى الحلف الأخوي الذي ولد في تلمسان ، فانهمك أعوانه ــ باذنه ــ في حفر ينابيع كثيرة قرب تلمسان ، عرفت في المصادر التاريخية بعيون أبي المهاجر ، ومازالت تعرف بهذا الاسم مع تحريف بسيط ، وتعتبر عيون أبي المهاجر بجوار تلمسان وقاعدة القيروان ، ثم تاكيروان ، ومسجد عقبة ، ثم مدينة تونس ، ودار صناعتها بعد ذلك ، ومدافن رواد الفتح ، ومنها ضريح عقبة ، من الآثار الاسلامية الباقية من عصر الفتح ، أو عصر الفروسية الاسلامية ، أو عصر وحدة إرادة العرب المسلمين يدعونا الى الاعتبار ، والى احياء ما اندثر من القيم ، والصلات .

لقد ظلّت ذكرى أبي المهاجر دينار ، حيّة في النفوس بسياسته الحكيمة ، وبأثاره الباقية ، وبدوره الهام في اسلام المغرب الأوسط ، ثمّ بأتباعه وبأحفاده ، ومن هؤلاء من كان واسع الصلات مع السكان ، واسع الثقافة التاريخية والدينية .

فعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر ، ألف كتابا عن فتوح أفريقية ، تخليدا لعمل وآثار جدّه أبي المهاجر . واسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي ولّي افريقية من طرف عمر بن عبد العزيز ، سهر على خدمة السكان في النواحي المعنوية ، والروحية ، فاستجابوا لخدماته واسلموا في عهد حفيد أبي المهاجر دينار ، ولذلك أجمعت كل مصادر الفتح على وصفه « بأحسن وال ، وأحسن أمير » .

ولنا أن نتساءل كيف أمكن لأبي المهاجر في مدى سبع سنوات (55 ــ 62 هـ) (675 ــ 682 م) أن يحصل على هاته النتائج الحميدة ، في وقت كانت فيه الامبراطورية البيزنطية صاحبة السيادة في افريقية تعد المشاريع لارجاع ما ضاع من نفوذها ومن قبضة ولاتها في قرطجنة التي مازالت حتى الآن عاصمة رومية بعيدة عن خطر المسلمين .

والاجابة ببساطة ، هي سياسته المتسامحة التي أنشأت الحلف ، وأفقه الواسع مع السكان ، ووضوح هدفه الانساني ، وسلامة مقصده تجاه الاسلام ، وسكان البلاد ، بحيث لو لم يفاجأ بعزلة عن افريقية ، مثل سلفه عقبة وبتأثير من شكاويه ، ودسائسه ، لكان في امكانه أن ينطلق بجموع المسلمين وراء تلمسان الى المغرب الأقصى ، حتى طنجة على العدوة الدنيا من أرض المغرب الاسلامي ، ويريح الدولة العربية الاسلامية من المجهودات التي بذلتها ، والتضحيات التي تحملتها ابتداء من ولاية عقبة الثانية الذي عاد سريعا الى افريقية

يأذن من الخليفة يزيد بن معاوية ، الذي لم يكن ملتزما تجاه مسلمة ابن مخلد ، وكان في وضع دقيق بعد وفاة أبيه ، حتّم عليه ارضاء طلائع حزب جديد ، يدين له وحده بالظهور ، وكان عقبة من بين هؤلاء الذين التزموا معه لقاء اعادة اعتباره كرائد لفتح افريقية من جديد .

عقبة مرة ثانية وكارثة تهودة :

ولو أن عقبة بن نافع(1) بعد عودته ــ ارتفع عن مستوى الأغراض الشخصية ، ونسي خلافه القديم مع أبي المهاجر ، وخطط معه ومع كسيلة ، ومع كل من يهمهم أمر تقدم الاسلام في المنطقة لاعتبر رائدا حقا ، ورفيقا حقا بنفسه وبالمسلمين ، لكنه سلك طريقا صعبا فكان الحصاد صعبا أيضا ، وخسره المسلمون في افريقية ، كما خسروا أبا المهاجر ، وخيرة من الصحابة والفاتحين ، أثناء معركة تهودة 64 هـ (684 م) ، ودفن مع أصحابه بجوار بسكرة ، فأصبح مدفنهم مزارا ومحلا للبركة في المغرب الأوسط ، وتخليدا لهذه الذكرى عرفت القرية كلها باسم سيدي عقبة ، حتى وقتنا الحاضر .

وأسوأ نتيجة هي اضطرار المسلمين للتخلي مؤقتا عن القيروان التي سيطر عليها الأمير كسيلة بن لمزم صديق أبي المهاجر دينار . وتوضيح ذلك أن سيدي عقبة ، القائد والصحابي المستجاب الدعاء ، استهل عمله في افريقية ، بارجاع الاعتبار لمدينة القيروان وبانزال النكبة بأبي المهاجر دينار ، وبالأمير كسيلة ، وبكل من اشتبه في ولائه لهما ، فنفر بذلك رجلا مسلما له زعامة ، ووجاهة ، ووزن عند قومه الذين استاؤا لاهانته وانطووا على نية الانتقام ولو بطلب المساعدة من الأفارقة ، والروم الذين كانوا يعدّون الخطط لتصفية نفوذ العرب المسلمين من افريقية والمغرب الأوسط .

ومع ذلك ، ورغم نصح الناصحين ، بأن الاسلام في المغرب الأوسط وفي افريقية يتقدم باطراد ، ويمكن مدّ ظلاله الى المغرب الأقصى ، بجهود المسلمين المحليين ، وعلى رأسهم كسيلة ، الذي أخلص للاسلام وللحلف ، فقد ترك عقبة عاصمة الولاية القيروان ، تحميها حامية على رأسها زهير ابن قيس البلوي ، وخرج في مغامرة ، عبر قلاع ومدن المغرب الأوسط والأقصى وصل في نهايتها الى مشارف المحيط (آسفي) بصعوبة بالغة بسبب خيوط المؤامرة التي بدأت تحاك له منذ فارق القيروان حيث طمست معالم الآبار ، والاحساء ، أمامه ، ونظمت المقاومة ضده في الزاب ، وفي تاهرت ، وفي مضارب مصمودة ، وأثناء العودة حلّت به الكارثة في قرية تهودة ، من اقليم الزاب ، لبقائه مع عدد يسير من أصحابه ، ولنجاح كسيلة في الفرار من قبضته ، وتهيئة قوة من أنصاره ، ومن كل المعارضين للاسلام ، وهؤلاء

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 267 ، ـــ 269 .

هم الذين تحرشوا بعقبة وألجأوه الى معركة غير متكافئة في تهودة (63 هـ — 683 م)، ذهب ضحيتها، هو وأبو المهاجر، وجميع من بقي معهما، وعلى الأثر انجلى المسلمون عن القيروان التي احتلها كسيلة(1) خمس سنوات (64 هـ — 69 هـ) (684 م — 689 م)، كانت بالنسبة للخلافة الأموية، ثم لعبد الملك فترة مشاكل، واضطرابات في المشرق الاسلامي، ومع كل المشاكل، فان افريقية لم تترك في فراغ سياسي، لأن مسلمي المشرق، لم ينسوا اخوانهم مسلمي افريقية والمغرب، فكانوا بمثابة محرك قوى لهمة وعزيمة الخليفة عبد الملك بن مروان الذي استجاب لرأيهم، وكلف نائب عقبة، زهير ابن قيس(2) البلوى المقيم في برقة، بمهمة ارجاع الأمن الى افريقية والقيروان، وتأديب كسيلة، والثائرين معه على السلطة الشرعية في دمشق.

دور زهير بن قيس البلوى والثأر لعقبة في معركة ممس :

فانطلق زهير من برقة، بعد التكليف، على رأس مجموعة كبيرة من العرب المسلمين، ومن الأمازيغ الى افريقية، وكان لقاؤه مع جموع كسيلة بعيدا عن القيروان، أي في سهل (ممس)، بجوار قرية سبيبة، حاسما اذ أسفر عن هزيمة ساحقة لجموع كسيلة، الذي قتل مع كثير من مساعديه، كما شتّت شمل البقية، وانحلت أواصر الحلف بين البرانس، وبقايا الأفارقة والروم.

واثر معركة ممس (69 هـ) (689م) التي كانت ثأرا لكارثة تهودة.

أ — عادت القيروان والمجموعات الاسلامية فيها وفي افريقية، والمغرب الاوسط آمنة مطمئنة.

ب — وتحطمت مقاومة فرع البرانس، وأوربة، وانتهى دورهم، بحيث هاجر بقايا السيوف من قبيلة أوربة الى منطقة الريف (المغربي) وبقوا هناك في غمرة، حتى بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، عندما ظهروا من جديد كحلف يؤيد الحركة العلوية الادريسية التي التجأ رجالها الى المغرب بعد هزيمة (فخ) 169 هـ

ج — وبحسب ظواهر الأمور، كان يمكن لزهير بعد معركة ممس 69 هـ (689 م) أن يوسع نشاطه حتى يضم قرطاجنة عاصمة الولاية البيزانطية، وبما أنه لم يفعل ذلك اعتبارا باضطراب الأحوال وتحرك الروم في أكثر من نقطة للثأر، فان قرطاجنة بقيت مركز التحدي

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق.

(2) ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص : 269.

القيروان والنفوذ العربي الاسلامي في افريقية ، ولكن الى حين ، ولأن مهمة زهير ، كانت بالدرجة الأولى ، تأديب كسيلة ، وتحرير القيروان ، فقد رجع الى المشرق ، بعد انجاز هذه المهمة ، لكن لم يقدر له بلوغ مصر أو دمشق حيث لقي حتفه على ساحل مدينة « درنة » في اقليم برقة سنة 70 هـ (690 م) ، بتدبير خاص من الروم البزنطيين ، وروم صقلية ، وبقايا الأفارقة الذين لم ينسوا بعد هزيمة « ممس » ومصرع كسيلة . وهكذا تشابهت ظروف مصرع زهير بن قيس في درنة ، مع ظروف مصرع عقبة بن نافع في تهودة ، غير ان عقبة قتل بتدبير البرانس وأحلافهم ، بينما قتل نائبه زهير بتدبير الروم .

وهكذا اتجه الفاتحون المسلمون بعد زهير ، اعتبارا بهذا الدرس ، نحو :

1 ــ سياسة احياء الحلف مع الأمازيغ لقهر الروم ، وفتح قرطاجنة .

2 ــ والاعتماد على هذا الحلف لتصفية بقايا جيوب المقاومة المحلية خاصة تلك التي بقيت في مضارب البتر ، وجراوه بصفة خاصة .

3 ــ وصبغ المناطق المفتوحة بصبغة اسلامية باقامة المؤسسات الاسلامية لينمحى اثر النفوذ المعنوى للروم في المنطقة .

4 ــ والاستقرار النهائي في افريقية ، والاهتمام بعاصمتها القيروان .

دور حسان بن النعمان ضد الروم والبتر :

وقد كان حسان (1) بن النعكمان الغساني (74 ــ 85 هـ) (693 ــ 704 م) الذي ولى افريقية بعد زهير بن قيس كفؤا لهذا المهمات الكبيرة التي انجزت في عهده ولهذا يعتبر في نظر المؤرخين .

أ ــ الفاتح الحقيقي للمغرب وافريقية .

ب ــ وواضع أسس النظام السياسي والعسكري والثقافي والاداري في المنطقة .

لقد نجح حسان في جهوده ضد الروم ، فاحتل قرطاجنة 74 هـ (693 م) ، وقضى على عناصر الشغب في ضواحيها ، ولتأكيد الوضع بنى بجوارها مدينة تونس ، لتخلفها في مجدها ، ولتصير مركز جذب واستقطاب ، واستعداد للمستقبل ، بنى دارا لصناعة السفن في تونس بمساعدة ألف أسرة قبطية من البحارة تمّ تهجيرهم بأمر الخليفة عبد الملك ونائبه في

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 269 وما بعدها.

مصر ، أخيه عبد العزيز بن مروان كما وضع نواة مسجد جديد في تونس هو المسجد اعظم ، المعروف بجامع الزيتونة ، الذي سيصبح ثاني المساجد الكبرى في افريقية الاسلامية .

كما وقف أخيرا وبعد جهود مضنية ، ضد حلف البتر وجرواة بزعامة ، امرأة ، تعرف بلقب الكاهنة الزناتية ، أميرة منطقة جبال أوراس وزعيمة الحلف الأمازيغي كله .

وقد تجمع السكان المحليون في هذه المرحلة حول الكاهنة البترية التي قادت المقاومة من معقلها في أوراس ، حتى سقطت في ميدان المعركة عند جبل العنق ، في مكان عرف بئر العاتر ، وأصبح أيضا مشهورا باسم بئر الكاهنة (هو ولاية تبسة) .

وهكذا نستطيع القول : بعد فتح منطقة أوراس وقلاع المغرب الأوسط الحصينة ، الذي تبعه اسلام قبائل البتر ، وجواره بما في ذلك أبناء الكاهنة بأن حسانا قد أشرف على المرحلة الحاسمة والأخيرة لعملية الفتح العربي في افريقية والمغرب الأوسط ، لذلك يستحق بجدارة لقب الفاتح الحقيقي لافريقية والمغرب الأوسط ، لأنه لم يبق بعده كسر مقاومة البتر المحليين ، واحتلال قرطاجنة عاصمة الروم ، الّا غبار قبائل واشتات جماعات لا منجاة لها من التأثر والخضوع آجلا للقوة الجديدة في البلاد .

وهذا الشعور هو الذي حفّز حسانا على اقامة كيان مستقل ، لولاية جديدة هي ولاية افريقية الاسلامية ، وخطواته كانت :

1 — الاهتمام بعاصمة الولاية «القيروان» .

2 — وتجديد مسجد عقبة ، قبلة مسلمي افريقية والمغرب .

3 — وتطبيق مبدأ المساواة بين المسلمين ، في كل شيء ، أي دون فرز بين العرب وغيرهم .

4 — وتطبيق مبدأ اشتراك المسلمين الجدد ، وهم المحليون في مسؤولية الدفاع والتبشير بالاسلام .

5 — واقامة نواة لمختلف الأجهزة الادارية والمالية .

ان هذا الأعمال الكبرى هي التي خلدّت ذكره وأثره ، من جهة ، وسهّلت على منْ جاء بعده ، مهمّة السير على نهجه ودعمه من جهة .

دور موسى بن نصير :

ذلك أن موسى (1) بن نصير (86 — 95 هـ) (705 — 714 م) ، الذي ولى افريقية والمغرب ، بعد استدعاء حسان ابن النعمان الى دمشق ، لم يضف شيئا ، ولم

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 274 وما بعدها.

يمثل جهدا جديدا في افريقية والمغرب الأوسط ، وكل ما فعله هو أنه دعّم المكاسب القديمة في مناطق كانت هادئة ومفتوحة ، وسلك طريق شنّ بعض الاغارات الخاطفة على مضارب بعض القبائل مثل زناتة ، وكتامة وصنهاجة ، لارهابها ، حتى لا تفكر في العودة الى مقاومة المد العربي الجديد ، ولمزيد من الاطمئنان ، أخذ رهائن من وجوه هذه القبائل ، أبقاهم بالقيروان ، وسياسة أخذ الرهائن ، توسع فيها موسى بن نصير ، ونتج عنها كثرة الرهائن وانتهت أمر موسى بتجميعهم في نهاية الأمر ، بمدينة طانجة ، وعهد الى طارق بن زياد النفزي بالاشراف عليهم هناك . كما أمر موسى بن نصير ، بتعيين قراء ومرشدين ومعلمين لهؤلاء الرهائن بحيث أصبحت طنجة مركزا ثقافيا وعلميا ، ونقطة استراتيجسة هامة ، عندها ينتهي النفوذ العربي في المغرب الاسلامي في هذه المرحلة .

ان هؤلاء الرهائن ، أو المرابطين في طنجة ، كوّنوا فيما بعد قوة كبيرة ضمن الجيش الذي عبر مضيق الزقاق لفتح شبه جزيرة ايبريا (الأندلس) ، ومرّ النفوذ العربي الاسلامي الى ما وراء جبال البرانس ، حيث غدت أربونة — قاعدة اقليم سبتمانيا — مركز انطلاق المسلمين الى ما وراءها في حوضي الجارون والرون ، ومعنى ذلك أن استراتيجية مد القواعد والحلف ، ومبادىء المساواة والمشاركة في تحمل المسؤوليات ، قد نضجت ، وآتت أكلها شهيا في نجاح العبور الى الأرض الكبيرة بجهد مشترك للفاتحين «التاريخيين» وهؤلاء الرواد الجدد من بين السكان المحليين الذين كتب عليهم أن يتحملوا أكبر العملية ، وقسطها الأوفى برضا واغتباط .

4 — تيارات ما بعد انتهاء عمليات الفتح :

تميّزت الفترة التي تلت رحيل موسى بن نصير الى دمشق بعد 95 هـ (714 م) ، بالاستقرار الذي مكّن ولاة افريقية والمغرب من القيام بنشاط تغدى ضد دار الحرب ، وبنشاط آخر تبشيري بين الوثنيين والنصارى من السكان المحليين ، وأسهم في هذين النشاطين مجموعة من رجال السيف ، وآخرون من العلماء والدعاة من أهل القلم ، تحت رعاية ولاة افريقية محمد ابن يزيد القرشي ، واسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، ويزيد بن أبي مسلم ، وبشير بن صفوان ، وعبيدة بن عبد الرحمن ، وعبيد الله بن الحبحاب السلولي ولاء ، ومن جاء بعدهم من ولاة .

وكانت النتيجة حسنة بالنسبة لمن رعي هذه الأنشطة ولطلائع المجتمع الاسلامي الجديد في أرض افريقية وبلاد المغرب الذين أدركوا أن الاندماج في الحياة الجديدة يرفع عنهم الجزية ويمتعهم بأراضيهم ويسمح لهم بالاشتراك في الجندية وفي النشاط الثغري ضد دار الحرب ، وحتى بممارسة القيادة ، ويجعلهم نهائيا في مركز مساو مع بقية العرب المسلمين الفاتحين .

وقد لخص عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري الوضع الجديد في رسالة ردّ بها على أبي جعفر المنصور فيما بعد بقوله : «ان افريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها»(1) .

ولا يضير هذا المجتمع الاسلامي الجديد ، اسهامه في الحركات السياسية المذهبية ، وتبنيه لنحل الخوارج الصفرية والاباضية المعارضين لنظام الخلافة الاسلامية في دمشق ، ثم في بغداد ، لأن المنطلق سليم ، والهدف ديني سياسي ، اصلاحي ، كما لا يضيرهم بعد ذلك ، وفي اطار السنة ، عندما أخذوا يناصرون مذهب مالك امام دار الهجرة ، على خلاف أهل الشام الأوزاعية وأهل العراق الأحناف .

ورغم ما كان من حركات احتجاج المسلمين في بلاد المغرب على سياسة الولاة في هذه البلاد ، بسبب تصرفات بعضهم ، تصرف السادة الحكام تجاه مجموعات من الموالي ، واغراق بعضهم في البحث عما يرضي رجال الخلافة من تحف وطرائف توجد في بلاد المغرب ، واعتماد بعضهم على العصبية القبلية القيسة أو الكلبية في تصريف شؤون المجتمع الجديد ، واهتمام بعضهم بتتبع بقايا الأسرات العربية القديمة لتقليم أظافرها ، وتصفية نفوذها مع مواليها ، مثل آل عقبة الفهريين «الأفارقة» ، وآل حديج الكنديين ، وآل دينار الأنصاريين بالولاء ، وآل نصير اللخميين . رغم كل هذا فان خدمات الولاة تعتبر بارزة ومفيدة في ميدانين :

أ ــ ميدان النشاط البحري ضد صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط .

ب ــ وميدان الخدمة الدينية والثقافية في أوساط المجتمع الجديد .

النشاط البحري ومجالاته :

وقد تصدرت النشاط البحري قاعدة تونس الاسلامية وأشرفت عليه بجدارة منذ أن تمّ تجهيزها في عهد حسان بن النعمان ، بمساعدة فنية من والي مصر عبد العزيز بن مروان . وقد لوحظ أن المسلمين ، منذ وقت سابق ألحّوا على جزيرة صقلية بسبب أهمية موقعها الجغرافي بالنسبة لأية قوة صقلية في أرض افريقية ، وقد كانت نقطة هامة في الاستراتيجية البيزنطية الموجهة ضد مراكز النفوذ الاسلامي الجديدة في أرض افريقية .

وقد غدت صقلية ملجأ للروم ، وللأفارقة الفارين من سيوف الفاتحين ، ظهر ذلك جليا بعد سقوط قرطاجنة في أيدي المسلمين ، في عصر حسان ، ولهذا لم يتوان بعض قادة الفتح وولاة افريقية تجاهلها ، فأرسلوا عدّة حملات ألحّت على كثير من مدنها ، ونالت منها

(1) ابن عذارى : البيان ، الجزء الأول ، ص : 76 .

غنائم وتحفا ، ولم يكف المسلمون عنها الّا عندما أصبحت ضمن السيادة الاسلامية ، تمّ ذلك في بداية القرن الثالث الهجري ، أي في عهد الأسرة الأغلبية ، وآلت بعد الأغالبة الى الفاطميين .

وتحوّلت في هذين العهدين الى قاعدة اسلامية ثغرية ثابتة ينطلق منهاالفاتحون للمارسة نشاطاتهم البحرية ضد كريت وغيرها من حصون الروم وجزرهم(1) ، وضد الأرض الكبيرة (أوروبا) وضد قلورية (كلابريا) في جنوب ايطاليا ، وضد روما نفسها .

والملاحظ أن سكانها ربحوا كثيرا من هذه التطورات الجديدة خاصة وان آفاق بلادهم عرفت نشاطات دينية وثقافية واقتصادية مفيدة للفاتحين وللمجتمع الصقلي الجديد . وقد أسهموا في مجموع النشاطات اسهامات معتبرة تدل عليها مخلفاتهم ، وما تضمنته كتب التراجم والطبقات وسير الصقليين .

التيار التبشيري والثقافي :

أمّا خدمات ولاة افريقية في الميدانين الديني والثقافي فتبدو أكثر فائدة وأهمية :

فعقبة بن نافع ضرب أروع الأمثلة في الدعوة الى الاسلام والتبشير به بين قبائل البتر والبرانس ، لواتة ، وزواغة ، ونفوسة ، وهوارة ، وزناتة ولقد ظهر حماسه الديني ، وهدفه التعليمي والتثقيفي في الدعاء الذي دعا به عندما باشر جنده ومساعدوه عملية تنظيف المكان لاقامة قاعدة الاسلام الأولى في افريقية ، وهي القيروان ، «اللهم املأها علما وعمّرها بالمطيعين لك ، والعابدين واجعلها عزّا لدينك ، وذلّا لمن كفر بك ، واعزّ بها الاسلام» .

وهكذا فقد أراد أن تكون المصر الاسلامية الأولى بمسجدها الجامع ، مركز انطلاق المجاهدين ، والدعاة الى مضارب السكان في المغربيين الأوسط والأقصى ، ورباطا للزهاد ، والعباد ، ومركزا دينيا في هذه البيئات المضطربة بالخلط الديني والمذهبي .

وحماسه والتزامه بالمبدإ المقدس : وهو خدمة العقيدة جذب اليه كثيرا من السكان ، فأسلموا وسكنوا حاضرة الاسلام في افريقية وساهموا في الحياة الجديدة .

والنصوص تذكر كيف أن فروع البتر خاصة زناتة كانوا أكثر إقبالا على الاسلام من فروع البرانس المستقرين بسبب تأثر هؤلاء الأخيرين بالتيارات الدينية والحضارية البيزنطية .

---

(1) ابن عذارى : البيان ، الجزء الأول ، ص : 148 — 151 — 152 .

واشتهر بين فرع مغراوة من زناتة المغرب الأوسط زعيمها صولات بن وزمار الذي أسلم ومعه قبيلته منذ عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ، فأصبحوا من مواليه وموالي بني أمية حسب المصطلح الدارج في تلك العصور .

وقد نجح أبو المهاجر دينار مولى الانصار بين فرع البرانس فجذب اليه زعيمة هذا الفرع وهي أوربة التي أسلمت عندما أسلم أميرها المشهور كسيلة بن لمزم ، ومن غير المستبعد أن يكون بعض أحلافها ومشايعيها قد قلدوها في اعتناق الاسلام كما هي العادة في تلك العصور .

كما تمكن عقبة بن نافع أثناء حملته الكبرى من اكتساب فروع من مصمودة في المغرب الأقصى الى الاسلام بدون قتال .

ولئن أساء موته الى سير العمل العسكري في أرض المغرب حيث وقع الجلاء الأول عن قاعدة الفتح مدينة القيروان ، فقد أفاد في حركة الانتشار الديني ، وسهّل عمليات الفتح الثقافي السلمي ، لأن الذي تآمر عليه وقتله هو مسلم مثله ، والدليل : انه رعى قاعدة الاسلام ، ومدينة عقبة فلم يخربها ، ولم يسىء الى مسجد عقبة ، ولا الى المسلمين الباقين بعد الجلاء ، ولم يؤثر عنه ما يشير الى ردّته ، أو عنصريته ، أو تفكير في وضع حدّ للاسلام كدين ، وكثقافة .

وقد ترسم قادة الفتح خطي عقبة ، فحسان بن النعمان بادر باقتحام قرطاجنة لتصفية نفوذ الكنيسة الافريقية ، وباقتحام كتلة الأوراس حيث قبيلة جراوة البترية وزعيمتها الكاهنة دهيا ، الوثنية ، لتصفية أكبر قلاع الوثنية وربما بعض بقايا طقوس اليهودية ، التي تسربت الى منطقة المغرب كتيار مع الفينيقيين ، والرومان ، وقد اشترط على الذين طلبوا الأمان منه ، الاسلام ، واشترك المسلمين منهم في ميدان المسؤولية .

أما مسجد عقبة فقد جدّده حتى بدا على صورة بهيجة وفي عهد موسى بن نصير ، أسلم بقية المصامدة في المغرب الأقصى ، وهو الذي وضع أساس مسجد جامع في تلمسان ، يعتبر أقدم المنشآت الدينية في أقصى نقطة من بلادنا (الجزائرية) ، وأصبحت طنجة في عهده بمثابة رباط ، ومدرسة لتعليم رهائن البربر أصول الاسلام والعربية — وقد التزم بانجاز هذه المهمة سبعة عشر معلما عربيا .

واشتدت حركة التبشير بالاسلام ونشر الثقافة العربية الاسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز الذي رفع شعار المساواة بين سائر المسلمين ، وألغى الجزية عن كل المسلمين ، ورفض امتحان الداخلين في الاسلام بالختان ، ولخص آراءه في قول جامع نصه : «ان الله قد بعث محمدا ﷺ هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولا خاتنا» .

عن نهجه وخطته ساروَالِيهْ على افريقية اسماعيل بن أبي المهاجر الذي ساعده في ... شيشية ، رجال الارسالية العلمية الأولى الى افريقية ، وكانوا من خيرة التابعين ... والرواة ، أفادوا أهل افريقية وبلاد المغرب في أمور دينهم ودنياهم ، وتتلمذ عليهم كثير من السكان نذكر من بينهم قاضي افريقية المشهور في عهد يزيد بن حاتم المهلبي ، وهو عبد الرحمن بن زياد بن انعم المعافري (ت 161 هـ) (777 م) .

وعن طريق هؤلاء العلماء ، ومن وفد بعدهم ، عرف الناس كثيرا من مظاهر الثقافة الاسلامية ، فانتشرت التيارات المشرقية ، ومنها تيار أهل الحديث ، وتيار الفقهاء ، وتيار المتكلمين ، ومذاهب أهل المدينة والعراق والشام ، وطرق الاجتهاد وحياة الزهد ، والتقشف ، وحياة الثغر أو الرباط وأغلب العلماء الذين وفدوا على افريقية أرض الجهاد والرباط بقوا في أرضها يؤدون واجباتهم الثقافية والدينية ، وينسب الى بعضهم بناء مساجد خاصة كانت تقام فيها حلقات علمية وهذه المساجد الخاصة تراها تكثر في افريقية وفي حواضرها ، ويتبارى الناس في بنائها خدمة للّدين ، وللثقافة ، وفي الحق أن دورها كان تدعيما لما كانت تؤديه المساجد التاريخية الكبرى مثل مسجد عقبة في القيروان ، ومسجد الزيتونة في تونس ، ومسجد تلمسان بالمغرب الأوسط ، ومسجد اغمات هيلانه بقرب مدينة مراكش في بلاد المغرب الأقصى ، وفي بعض المصادر التاريخية الافريقية ترد عبارة « سكن افريقية واستوطنها » في كثير من تراجم العلماء والصلحاء والجند الذين حفل بهم كتاب رياض النفوس للمالكي (1) ومعالم الايمان للدبّاغ .

تيار الهجرة الى بلاد المغرب :

وحركة التهجير لعناصر من المشرق الى بلاد المغرب لم تنقطع منذ بدأت حركة الفتح الاسلامي لهذه الديار ، واشتركت فيها عناصر من عرب الشمال ، وأخرى من عرب الجنوب ، من الشام ومصر والعراق ، بل حتى من الجند العربي في خراسان وفي بعض أقاليم فارس ، وحركة الهجرة ، هي احدى مظان حركة الفتح الثقافي والتطعيم الاجتماعي في هذه البلاد .

ويكفي للتدليل على قيمتها وأهميتها في تغيير الوضع الاجتماعي والعرقي ، ان عدد من دخل من المهاجرين والجند في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، بلغ أكثر من مائة ألف نسمة ، هذا فضلا عن عشرات الآلاف التي دخلت مع حسان ، وموسى بن نصير ، وعقبة ، وأبي المهاجر ، وكلثوم بن عياض القشيري ، وحنظلة بن صفوان . ويكفي

---

(1) انظر الجزء الأول منه ص : 66 — 67 .

أن هشاما بن عبد الملك عندما غضب لهزيمة الجند أمام حركة الخوارج الصفرية ، قال : « لأبعثن اليهم جيشا يكون أوله عندهم ، وآخره عندي » ، ونفذ وعده بارسال قوة ضاربة من عرب الشام المضرية ، واليمنية أيضا .

وهذا فضلا عن الآلاف التي دخلت أرض افريقية مع محمد بن مقاتل العكي ، وهرثمة ابن أعين ، في أخريات القرن الثاني للهجرة أي قبيل قيام نظام الأغالبة بافريقية ، بمبادرة من الخليفة العباسي هارون الرشيد .

وتصل حركة التهجير لعناصر من الجند وغيرهم أيضا أوجها في القرن الخامس للهجرة (11 م) ، وهي التي عرفت في التاريخ المغربي ، بتغريبة بني هلال التي طبعت المغرب بطابعه الأبدي الخالد ، طابع العروبة والاسلام فلنضم المغرب العربي الاسلامي ليكوّنا العالم العربي الممتد من المحيط الى الخليج .

ويمكننا على ضوء ما سبق فهم التغيير العميق الذي كان نتيجة لحركة الفتح الاسلامي لبلاد المغرب ، خاصة في النواحي الدينية والثقافية ، والاجتماعية والعرقية .

كما ترشدنا هذه الحركة الى حقيقة عروبة هذه البلاد لحما ودما ولسانا وحضارة ، وربما ترشدنا الى أصول عرب بلاد المغرب من برقة الخضراء الى طنجة البيضاء ، والى انتماءاتهم القبلية والعشائرية ، أما الى مضر الشمالية ، أو الى قبائل اليمن الجنوبية أو الى افناء العرب ، حلفاء أولئك أو هؤلاء .

تيار الرباط أو المثاغرة :

ويجب أن لا ننسى أهمية دور الرباطات والقصور والمحارس التي امتدت على طول ساحل افريقية وبلاد المغرب بدءا من الاسكندرية الى طنجة بل الى أربونة في اقليم سبتمانيا بأرض فرنسا ، في النواحي الدينية والعسكرية والثقافية والاجتماعية .

فالرباط منشأة دينية عسكرية ، اجتماعية ، ثقافية ، تقام على السواحل لمراقبة حركات الأعداء وراء البحر ، وكان يتجمع فيها خيرة المجاهدين والزهاد والعبّاد والعلماء ، وهي بمثابة المدرسة بحكم أنها تشتمل على مساجد خاصة وعلى طلاب العلم والمعرفة ، وبحكم ايوائها لمجموعات كثيرة من الناس حيث يعيشون حياة جماعية ، فهي بمثابة مراكز اجتماعية تؤدي ما تؤديه هذه المراكز من خدمات اجتماعية لسكانها ، في النواحي الثقافية والاجتماعية والمذهبية .

والرباط كان بمثابة مشتل يجمع خيرة الرجال ، ويشرف على تكوين أفضل العناصر ، التزاما بالدّين ، وبالعلم ، وبحياة الزهد والتقشف .

وأشهر هذه الرباطات (القصور) وأقدمها الرباط الكبير المعروف برباط المنستير ، الذي بناه هرثمة بن أعين ، والي افريقية من طرف الرشيد 180 هـ (796 م) ، وما يزال قائما شامخا على ساحل المنستير الى الآن ، وبجواره رابطة أخرى منها سفاقس (المنستير) ورباط البحر ، والطوب (بسوسة) ، وفي جزائرنا ، رباط سيدي بومروان بعنابة ، وفي المغرب الأقصى يوجد رباط سلا وسيدي شاكر ، وماسه ، وتول لمطة ، وأوليل مركز الملح (التجارة الرابحة مع بلاد السودان الغربي) ، ومهد حركة عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين ، ومؤسس نظامهم الشهير ، وقد وصف ابن حوقل رباط سلا بقوله : «الناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها (سلا) ، وربما اجتمع في هذا المكان ، من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون في وقت وينقصون في وقت» .

التيار المذهبي والسياسي :

والذي يلفت النظر حقا في مسيرة حركة الفتح بشقيها العسكري والثقافي ، انها كانت خير فرصة استغلها أرباب المدارس الفكرية والمذاهب الدينية والدعاة الى آرائهم في فلسفة الحكم وتنظيم المجتمع وضبط علاقاته المختلفة .

والدعوة المذهبية ، أو التيار المذهبي في أرض المغرب(1) الاسلامي من أعظم ما شهدته المنطقة في القرن الثاني للهجرة ، كمحصلة لانتشار الاسلام والثقافة العربية الاسلامية ، وكأثر من آثار اختلاف المسلمين حول موضوع الامامة الكبرى (الخلافة) وتعتبر أيضا ثمرة حسنة لجهود رجال مخلصين لدينهم ، ولآرائهم ولأئمتهم ، وهم الدعاة .

حركة الدعـاة :

وأقدمهم في بيئة المغرب الاسلامي : سلمة بن سعد الذي كان يدعو الى مذهب الأباضية ، وعكرمة البربري ، مولى ابن عباس الذي كان يدعو الى مذهب الصفرية ، والحركتان معا خارجيتان وهبيتان ، أهمهما حركة عبد الله بن وهب الراسبي .

وتنسب الروايات الى سلمة قوله : «وددت لو يظهر هذا الأمر (المذهب الأباضي) ولا أبالي بعدها أن تقطع عنقي» . كما تنسب قولا مشابها الى زميله في الدعوة الى مذهب الصفرية التي انقرضت آثارها ، ولم يبق لها أتباع في العالم الاسلامي مثل ، نحلتي الأزارقة والنجدات ، وهذا على عكس الأباضية القريبين من أهل السنة ، ان لم يكونوا مثلهم ، بآثارها الأدبية والمادية ، واتباعها يوجدون في جهات من المغرب والمشرق الاسلاميين .

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص : 293 وما بعدها.

ومن حسن حظ سكان المغرب الاسلامي انهم لم يعرفوا من نحل الشراة غير المعتدلين في الفكر ، وفي النظرة ، الميالين الى المعايشة والسلم مع مخالفيهم .

نشاط الصفرية :

ان النحلة الصفرية سبقت النحلة الاباضية في ميداني العمل الدعائي ، والحربي ، ضد بني أمية ، وعمالهم في المغرب الأقصى أولا ثمّ في المغربين الأوسط والأدنى بعد ذلك بغية التدرج في العمل للوصول الى الهدف النهائي للحركة ، وربما للحركتين معا ، ذلك هو أخذ مدينة القيروان عاصمة الولاية وفرض الوجود الجديد فيها وتطبيق المثل والمفاهيم التي طالما نادى بها أسلافهم في المشرق الاسلامي ، والتي لا تخرج عن سيرة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين في ضرورة الالتزام بمبادىء : المساواة بين المسلمين ، بدون فرق بين الأجناس والألوان ، والشورى كأساس لتصريف شؤون الأمة : والعدل بين جميع المتساكنين .

وفي سبيل تحقيق هذه الاستراتيجية ، تصدر الصفرية وانطلقوا من أقصى المغرب الاسلامي (اقليم طنجة) منذ سنة 122 هـ (740 م) أي في عهد عبيد الله بن الحبحاب والي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وانهكوا قوات الولاية ، والخلافة أيضا ، وكسبوا بزعامة امامهم ميسرة المطغري ، ثمّ خالد بن حميد الزناتي ، عدة معارك أقدمها معركة الاشراف 122 هـ (740 م) ، ثمّ معركة سبو أو بقدورة 123 هـ (741 م) ، وربما معركة في الشلف في نفس السنة ، حيث كان يرابط جند الولاية بقيادة خالد بن حبيب الفهري ، ولحقت قوات الخلافة خسائر جمّة ، ولم يستطع ولاتها الثأر لهزائمهم الّا عندما ولّي الأمر حنظلة بن صفوان الكلبي ، حيث ربح معركتين حاسمتين بجوار القيروان سمّيت احداهما معركة القرن ، والثانية معركة الأصنام سنة 126 هـ (744 م) . ولأهميتها بالنسبة للخلافة ، وللأوضاع المضطربة في الولاية سجد المسلمون شكرا لله عندما سمعوا أخبارها ، وسرّ بها الخليفة هشام ، ونقل عن الفقيه المصري الليث بن سعد قوله : «ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر ، أحب اليّ من غزوتي القرن والأصنام»(1) .

لقد استراحت الخلافة من رؤوس الفتنة وزعماء الشعب عبد الواحد الهواري ، وعكاشة ابن أيوب الفزازي . وهذا بينما نجأ أبو قرة اليفرني الزناتي الى تلمسان ، ليظهر بعد ذلك مع الأحلاف الخارجية ، أثناء حصار طنجة ، والقيروان ، في عهد عمر بن حفص المهلبي 151 هـ (768 م) . ولئن فشل هؤلاء الأحلاف في الاحتفاظ بعاصمة الولاية . كما فشلت ورفجومة الصفرية قبلهم ، في الاحتفاظ بها بسبب شدة ضغوط المسلمين الأفارقة على الخلافة

---

(1) ابن عذارى ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص : 64 .

كي تواصل الجهد لتحرير مدينة عقبة ، فان فلولهم وبقايا السيوف منهم التجأوا الى مكان منعزل في أرض المغرب الاسلامي ، وهو صحراء مكناسة ، حيث حطوا رحالهم ومارسوا حياة اجتماعية ودينية وفق مذهب الصفرية وأخيرا بنوا قاعدة جديدة أو معسكرا صفريا هو الذي عرف في التاريخ بسجلماسة (تافيلالت) سرعان ما أصبحت عاصمة لكيان سياسي مذهبي صفري منذ سنة 140 هـ (757 م) هو دولة بني واسول الوراثية أو بني مدرار ، تكتلت عصبيتهم مكناسة وأحلافها ، وتوجههم الى مراكز التبر في مناطق السودان الغربي .

نشاط الأباضية :

وعندما بدا أن الصفرية فشلوا في تحقيق الهدف المرسوم تحرك الأباضية لتحقيق هذا الهدف ، وهو أخذ القيروان ، وانشاء دولة أباضية ، انما هذه المرة من الطرف الشرقي للمغرب الاسلامي أي من اقليم طرابلس الغرب (صيّاد) ، كان هذا التحرك في الثلاثينات منا القرن الثاني للهجرة ، وفي وقت تراخت فيه قبضة الخلافة الأموية على مقدارات افريقية وبلاد المغرب ، بسبب مشاكلها مع الموالي ، الخرسانية ومع الدعاة الى الرضا من آل محمد في المشرق ، وانعكس الوضع على ولاة افريقية ، فتحداهم بعض الطموحين .

وفي هذه المرة لم يصبح للخلافة الا ظل سياسي خفيف هذا بينما أمسك الأوضاع بيد أسرة عربية قرشية هو عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، فأصبح بمثابة متغلب على الولاية أي من ولاة الاستيلاء . وكانت طرابلس من مشمولات أنظاره ينوب عنه فيها أخوه الياس بن حبيب ، واتخذ مقره مدينة جدّة عقبة بن نافع رحمه الله .

واذا كان الأباضية ، قد اكتفوا مؤقتا بنشاطهم الدعائي ، فان اندحار الصفرية ، حقق فراغا سياسيا ، وعدم تماسك أسرة عقبة ابن نافع . هو الآخر أدخله الأباضية في الانتصار ، فلم يبق أمامهم الّا الفرصة المناسبة للانتقال من فترة الكتمان الى فترتي الظهور والاندفاع .

ولم ينتظروا طويلا ، اذ أن الياس بن حبيب هيأ لهم جوّ الثورة عندما قتل أحد وجهائهم وهو عبد الله بن مسعود التجيبي ، دون أن ينال جزاءه على يد أخيه عبد الرحمٰن رغم مطالبة الأغالبة بذلك .

ولقد كانت ثورتهم في طرابلس شديدة وعامة ، وتولّى قيادة الثورة أمام دفاع الحارث بن تليد ، الذي كان يساعده قاضي الفرقة عبد الجبار بن قيس المرادي .

وقد نكل عبد الرحمٰن بن حبيب بالثوار وبالمتعاطفين معهم ، ويبدو أن سرعة الحسم التي تميّز بها نشاط ابن حبيب في طرابلس ونشوب خلاف بين الحارث بن تليد ، وعبد الجبار ، أدّى في الأخير الى موتهما معا ، وقد أفاد ابن الحبيب بقدرما أساء الى وحدة وتماسك الأباضية الذين انهزموا ، وتفرّقت أراؤهم حول مشكلة الحارث وعبد الجبار ، فأيهما المخطىء ؟ وأيهما المصيب ؟ ، اذا صحّ أنهما تقاتلا ، ولم يقتلا بدسيسة من ابن حبيب واستمرت هذه المعضلة تشغل الأباضية فترة طويلة ، فمنهم من يفصل فيها برأي ، ومنهم من يرجىء الفصل فيها ، لغموض ظروفها ، فيمسك ، ولا يتعرض لذكرها تعففا . وينصرف بجهوده يدعو غيره الى اليقظة ، والالتحام وتنظيم الصفوف وتعبئة النفوس ، للأخذ بثأر الهزيمة والسير قدما نحو تحقيق الهدف المنشود على حساب القوى المتصارعة في الساحة . وقد أتيحت للأباضية فرصة أخرى للعودة الى النشاط الحربي من جديد .

وقد تولى قيادة الزحف مجموعة من علماء الأباضية ، ووجوههم ونبهائهم ، هم ثمرة الارسالية العلمية الاباضية الى البصرة ، هم حملة العلم الخمسة الى أهل افريقية ، وأظهرهم : أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي ، وعاصم بن جميل السدراتي ، واسماعيل ابن درار الغدامسي ، وأبو داوود القبلي النفزاوي .

وقد أصبح أبو الخطاب باتفاق زملائه اماما ورئيسا سياسيا في النظام الجديد الذي عرف بالدولة الخطابية ، ومارس ابن رستم مسؤولية عامل سرت ، وكانت من عيون مدن الدولة وثغورها الهامة . أمّا ابن درار ، فأصبح قاضيا في النظام الجديد وتولى عمرو بن ايمكتن قيادة جيش الدولة ، فلما لقي حتفه على يد ابن الأشعث وليها عاصم بن جميل السدراتي .

وعاصم هذا هو الذي كلف بمهمة تنفيذ المخطط الأباضي ضد مدينة القيروان ، التي استبد بشؤونها صفرية ورفجومة بقيادة عبد الملك بن أبي الجعد اليفرني الزناتي بعد أن أسقطوا نظام الفهريين (136 هـ 140 هـ) (753 م — 757 م) .

ولأن ورفجومة لم يراعوا حرمة مسجد عقبة ، وأساؤوا الى عواطف السكان ، وسلكوا سياسة القسوة والسلب والنهب ، والاعتداء على الحرمات ، فان أبا الخطاب وجدها فرصة ذهبية كي يمثل دور المحتسب التاريخي ولو على حساب اخوانه الصفرية ، فيغيّر المناكر ويعيد الاعتبار الى المقدسات التي نال فيها صفرية ورفجومة ، فأمر عاصما بن جميل بالزحف لاخراج ورفجومة من القيروان ، ذلك الزحف الذي كلّل بالنجاح بعد معركتين حاسمتين قتل في احداها عبد الملك بن أبي الجعد ، وشتت شمل أنصاره في أواخر سنة 140 هـ (757 م) .

ومنذ هذا التاريخ غدا عبد الرحمٰن بن رستم الرجل الثاني في الدولة الخطابية ، نائبا معتمدا من طرف أبي الخطاب في مدينة القيروان ، منها يشرف على شؤون المجتمع الاسلامي السني ، الذي لا يعترف بغير الخليفة العباسي اماما ، ورئيسا وراعيا روحيا .

ورغم أن سياسة الأباضية في هذه المرحلة تجاه المجتمع الاسلامي في افريقية ، ومدينة القيروان ، تميّزت بالحكمة والتعقل والاعتدال كما هي طباعهم ، الأمر الذي ساعد على ايجاد نوع من الهدوء والسلام ، فان جماهير السكان استمروا يضغطون على الخليفة أبي جعفر المنصور الذي ساءه أيضا أن تنفصل افريقية عن سلطانه السياسي والروحي وتصبح تحت توجيه المعارضين لخلافته من الأباضية الخطابية .

لذلك بدأ المجهود الخلافي لارجاع الأوضاع في افريقية الى ما كانت عليه ، وقد كلّل هذا المجهود الذي قاده محمد بن الأشعث الخزاعي والي مصر بمساعدة أبي الاحوص العجلي والأغلب بن سالم التميمي جدّ الأسرة الأغلبية ، كلّل بالنجاح التام في المعركة الضارية التي دارت بجوار سرت سنة 144 هـ (761 م) ، بين قوات الخلاف ، وقوات أبي الخطاب امام الأباضية ، حيث انهزم الأباضية وقتل امامهم أبو الخطاب وأرسل رأسه الى بغداد(1) .

وهذه الهزيمة التي وضعت حدّا لأكبر نظام أباضي ناجح في افريقية ، لم يتقبلها الأباضية ، فاستمروا يناضلون ضد ولاة الخلافة العباسية من آل المهلب بن أبي صفرة الأزدي صاحب الانتصارات الكبرى ضد الخوارج في المشرق .

وهؤلاء الولاة المهالبة خاصة عمرو بن حفص ، ويزيد ابن حاتم وابنه داوود ، بذلوا جهودا مضنية ضد ثوار الأباضية وأئمة دفاعهم أبي هريرة الزناتي ، وأبي حاتم الملزوزي وصالح بن نصير .

أما عبد الرحمن بن رستم فقد وعي درس سرت جيّدا كما وعي دروسا أخرى ، أهمها ما حصل أثناء حصار الخوارج لمدينتي طبنة والقيروان ، وفهم ما حصل أخيرا لأشهر أئمة الدفاع في هذه الفترة ، وهو أبو حاتم الملزوزي الذي حشد أكبر قوة ضد خصمه يزيد بن حاتم المهلبي ، ومع ذلك قتل في معركة جندوبة ، وشتت شمل أنصاره (سنة 155 هـ) (772 م) .

لذلك رأى ابن رستم خليفة أبي الخطاب ، ان النجاة بالنفس والولد الى مكان آمن في مضارب بعض البتر الأباضية في عمق المغرب الأوسط، هو الطريق المفضل مؤقتا انتظارا لفرصة أخرى ، وهكذا استقر بين أظهر قبيلة لماية الأباضية فآوته وأعطته الأمان ، ومدت له حبل الأمل وبعث نظام أبي الخطاب من جديد ، وهكذا بايعه الأباضية اماما (160 هـ) (777 م) ، وعملت لمايه بمعية أحلافها على ايجاد معسكر أباضي جديد فكان اختيار مكان

---

(1) ابن عذارى : المصدر السابق : الجزء الأول ص : 83 ، ابن الأثير ، الكامل ، الجزء الخامس ، ص : 149 ، 150 ، السلاوى الاستقصاء ، الجزء الأول ، ص : 57 :

حصين غني بالينابيع وبالزروع والمراعي ، وضع فيه أساس مدينة تاهرت على وادي وفي سفح جبل جزول المطل على تلول منداس ، وغدت تاهرت (معسكر ابن رستم) عاصمة لأكبر دولة اسلامية أباضية ، شملت بنظرها أباضية المغرب الأوسط ، وطرابلس ، وجبل نفوسة ، والجريد ونفزاوة ، وجربة ، مع ما كان يربطها من علاقات حميمة مع أباضية المشرق وصفرية سجلماسة .

وهذه الدولة تعتبر أيضا ، أقدم الدول المستقلة سياسيا ومذهبيا في اطار المغرب الاسلامي ، سبقت في الظهور نظام الأدارسة في المغرب الأقصى ، ونظام الأغالبة في تونس (المغرب الأدنى) وممّا سبق يتضح كيف :

ـــ أن حركة الفتح الاسلامي منذ القرن 1 هـ (7 م) صيّرت الأجزاء المفتوحة من برقة الى سبتة ما وراءها في شبه جزيرة ايبيريا ، جزءا تابعا للسلطة المركزية وهي سلطة الخلافة العربية الاسلامية في دمشق الأموية ثم في بغداد العباسية .

تيار الانفصاليــة :

بيد أن اندماج سكان هذه البلاد في الوضع الجديد ، وتأثرهم بالتيارات السياسية والثقافية والاجتماعية والمذهبية ، والتي تولدت عن الفتح ، قد أدّى تدريجيا الى تخفيف الطابع المركزي لحكم الخلافة ، ثم الى مرونة في العلاقات مع أجزاء المغرب الاسلامي . وأخيرا الى الاعتراف قسرا بالأمر الواقع الذي فرضته الأحداث على الساحة السياسية والمذهبية بدءا من القرن 2 هـ (8 م) ، وذلك هو ما يعرف بظاهر الانفصالية السياسية والمذهبية عن الخلافة العباسية .

وهكذا ، فالأندلس التي كانت جزءا مكما للمغرب الاسلامي غدت امارة أموية وراثية مستقلة منذ سنة 138 هـ (756 م) .

والمغرب الأوسط اقتطعه الأباضية وأسسوا فيه نظام الرستميين الوراثي المستقل أيضا منذ 160 هـ (777 م) ، والمغرب الأقصى اقتطعه الأدارسة العلويون الزيرية وأسسوا نظام دولة علوية وراثية وهي دولة الأدارسة بفاس منذ 174 هـ (م) وصحراء سجلماسة أصبحت مقرا لدولة صفرية وراثية ، وهي دولة بني واسول منذ 140 هـ (757 م) .

وازاء هذا ، وحفاظا على مصالح الخلافة وعلى هيبتها في بلاد المغرب وحدّا لطموحات هذه الامارات في التوسع السياسي والمذهبي اعترف الرشيد على كره منه بقيام وحدة سياسية مستقلة في افريقية (المغرب الأدنى) تكون تابعة للخلافة سياسيا ومذهبيا وتتولى مهمة مكافحة

هؤلاء المعارضين بالدعوة ، وبالسلاح اذا أمكن ، وتلك هي امارة بني الأغلب العربية الوراثية وعاصمتهم العباسية (القصر القديم) ثم مدينة رقادة ، التي سقطت هي وبقية العواصم الاقليمية الأخرى ، وهي تاهرت ، وفاس وسجلماسة ، في أيدي دعاة الشيعة الفاطميين في نهاية القرن الثالث للهجرة بحيث ضاع الظل السياسي للعباسيين ولغيرهم ، وتأثرت المذهبيات السنية والخارجية وتأكدت الانفصالية السياسية والمذهبية في كامل المغرب الاسلامي الموحد بالقوة ، تحت راية الفاطميين العلويين الذين جعلوه معدا وقاعدة راحة وتموين ، واستعدادا وتجنيد ، في صراعهم السياسي والمذهبي من أجل الظفر بالسيادة العليا في العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ، على حساب بني عمومتهم العباسيين والهاشميين .

الفصل الثاني

الجزائر من الفتح الاسلامي
الى تأسيس الدولة الرستمية

د. عبد الحميد حاجيات

الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية
قبيل الفتح الاسلامي

لقد انتهى العصر القديم بتصدع صرح الامبراطورية الرومانية تحت ضربات شعوب الجرمان وغيرهم . وكانت بلاد المغرب هدفا لاطماع الوندال ، ثم البيزنطيين .

غير أن هؤلاء الغزاة لم يحتلوا القطر كله ، وإنما اقتصرت سيطرتهم على شمال بلاد افريقية وسواحل المغرب الاوسط ومنطقة طنجة . فاتسعت رقعة المناطق المستقلة بالمغرب ، ومعظم سكانها أهاليها من قبائل البربر ، وخاصة في المغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى . وأصبح حكام البيزنطيون والسكان المغاربة التابعون لسلطتهم ، يعتمدون على حصانة مدنهم وقواعدهم العسكرية ، ويعوّلون على قوة جنودهم المرتزقة لصد هجمات القبائل .

وعندما اطل العصر الوسيط على بلاد المغرب ، كان سكان هذه المنطقة يكوّنون مجموعات مبعثرة ، لا تجمع بينها وحدة سياسية . فكانت افريقيا تمثل اغنى المناطق وأكثرها سكانا وعمرانا ، وارقاها حضارة . الا أن اغلب المزارع الكبرى كانت ملكا للعجم من بقايا الرومان وغيرهم . وكان الأهالي المغاربة يعملون في تلك المزارع كأجلاء ، لا ينالون من عملهم المضني الا ما يسد رمقهم ، فكان حظهم لا يختلف كصيرا عن حظ العبيد . اما الفلاحون المغاربة ، فلم تكن لهم اراض وتسعة ثم انهم كانوا مثقلين بالضرائب المتنوعة . وفيما يخص المناطق المستقلة ، فانها كانت تحت سلطة مختلف القبائل القاطنة بها ، والمتنافسة على امتلاكها ، ومعظمها من البدو .

و في مجال الحياة الدينية فيبدو أن المسيحية كانت منتشرة في المدن ، وخصوصا بافريقيا ، وبين العجم والأفارقة ، بينما كانت اليهودية متواجدة في البوادي وبعض المدن ، غير أن الديانة المحلية القديمة ، المتمثلة في أصول وثنية متأثرة بديانات الفنيقيين وغيرهم من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإنها كانت لاتزال منتشرة بين البربر ، في مختلف الأنحاء .

هذا وقد ادى انقسام المسيحيين بالمغرب الى كاثوليكيين ودوناتيين الى القيام حروب دينية بينهم ، ورسوخ العداوة بين الطائفتين . ومما زاد الدوناتيين حقدا على الكنيسة الكاثوليكية أن هذه الأخيرة تحالفت مع الحكّام والأغنياء ، وساهمت مع هؤلاء في اضطهاد الضعفاء والفقراء من الطوائف المنافسة لها ، ومطاردتهم .

وهكذا ، فإن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية بالمغرب كانت ، عند ظهور الاسلام تمتاز بتأزم مزمن ، وتمزق للوحدة القديمة ، نتيجة ما منيت به البلاد من تسلط الغزاه على اغنى اراضيها ، وعلى ثرواتها الطبيعية .

غير أن هذه الأوضاع عرفت تحولا جذريا ، حينما تعرضت هذه البلاد الى الفتح الاسلامي فدخلت في مرحلة جديدة من تاريخها وحضارتها .

الفصل الأول

الفتـح الاسـلامـي

1 ــ مشكل المصادر :

يسود فترة الفتح الاسلامي للمغرب غموض كثير ، يرجع الى اسباب عديدة . وأغلبها يدور حول نوعيّة المصادر المتوفرة لدينا وطريقة عرض الحوادث . ثم أن تدوين التاريخ ، مثل غيره من العلوم ، بدأ بعد هذه الفترة بحوالي قرن ، مما جعل جامعي الأخبار التاريخية ، في القرن الثاني والثالث للهجرة ، يعتمدون على روايات شفاهية . ولا شك أن الرواية الشفاهية معرّضة للمبالغة في التقدير ، ولوضع الأخبار لاغراض مذهبية ، الأمر الذي سبب تضخم الحديث خصوصا ، وقد أدى ذلك الى قيام حركة نقد الحديث ، إبتداء من القرن الثالث للهجرة .

والجدير بالملاحظة أن التاريخ ، في بداية تدوينه ، كان يندرج ضمن الحديث ، ويشكل بابا من كتب الحديث يدعى باب المغازي والسير . ولذا فليس من الغريب أن يصيب التاريخ ما اصاب الحديث عامة من وضع وتضخم .

أضف الى ذلك أن نظرية الناس للتاريخ في فترة نشأة هذا العلم ، لم تكن علمية بأتم معنى الكلمة . وذلك أن الناس كانوا يولعون بالأخبار العجيبة ، التي تثير انتباههم وتسليهم ، وتتجاوب مع عواطفهم وميولهم ، ولا يتحرجون من خلط التاريخ بالقصص ، ومن المبالغة والاسراف في تقدير اعداد الجنود والاسرى والقتلى وغير ذلك .

وقد نتج عن كل ذلك أن ما روي من الأخبار حول الفتوح يحمل طابعا أسطوريا ينبغي التفطن الى ما فيه من غلو ومبالغة ، واستبعاد كل ما وضع لاغراض مذهبية أو سياسية .

2 ــ المرحلة الاستطلاعيّة :

لم يمض أكثر من عشر سنوات على وفاة الرسول ﷺ حتى فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ومصر وبرقة ، واصبحت الدولة العربية الاسلامية الفتية من أعظم دول العالم آنذاك .

ولم يجد المسلمون أمامهم عدوًا اخطر من الامبراطورية البيزنطية ، التي كانت لا تزال تسيطر على مناطق واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، من بينها بلاد اسبانيا والمغرب وصقلية وآسيا الصغرى واليونان وغيرها .

وكانت الفتوح الكبرى ، التي حققها المسلمون في خلافتي أبي بكر وعمر ، تتطلّب الالتفات الى تنظيم شؤون البلاد المفتوحة ، وحل المشاكل الناجمة عن الوضع الجديد . فكان من الطبيعي أن يدخل نشاط الفتوح في مرحلة جديدة ، تتمثل في الانتقال من عملية التوسع الى عملية تدعيم السلطة الاسلامية وارسائها على أسس قوية ، واستيعاب حضارات الشعوب المفتوحة ، ونشر الاسلام بينها .

وعندئذ اقتصر نشاط المسلمين في مجال الفتوحات ، على ارسال غارات استطلاعية في اتجاه الناحية الجنوبية من بلاد افريقية ، قصد التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها ، والاطلاع على قوة الروم فيها .

أ ــ عبد الله بن سعد :

فكانت أولى هذه الغارات ، سنة 27 هـ/ 647 م ، تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي الخليفة عثمان بن عفان من الرضاعة . فتصدى لها جيش للروم يقوده البطريق جرجير . وكان اللقاء بين الجيشين قرب سبيطلة ، فانتصر المسلمون في هذه المعركة واصابوا كثيرا من الغنائم ، ثم عادوا الى مراكزهم بمصر ، وقد اتضح لهم أن غزو بلاد افريقية أمر هيّن ، لضعف جيش الروم بها ، نتيجة الأزمات السياسية والمذهبية المستمرة . كما اتضح أن الروم كانوا يعتمدون في مواجهة الجيش الاسلامي على عناصر أجنبية من المرتزقة ، وأن البربر لم يساهموا مساهمة فعالة في ذلك .

ب ــ معاوية بن حديج :

وفي أواخر خلافة عثمان ، نظمت عملية أخرى بقيادة معاوية بن حديج الذي غزا افريقية سنة 34/655 م .

ثم كانت الفتنة الكبرى ، بعد مقتل عثمان ونشبت الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، فركدت حركة الفتوحات ، الى أن تمت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان . وعندئذ استؤنف نشاط الفتح ، وغزا معاوية بن حديج افريقية سنة 41 هـ/662 م . ثم قاد غزاة ثالثة ، سنة 54 هـ/665 م ، انتهت بفتح مدينة جلولا .

ثم عين معاوية بن حديج واليا على مصر ، واسندت قيادة الجند في جنوب افريقية الى عقبة بن نافع ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص .

ج ـــ عقبة بن نافع :

وواصل عقبة بن نافع نفس النشاط بنفس الاسلوب ، واهم عمل قام به هو تأسيس مدينة القيروان ، حوالي سنة 50 هـ/670 م . وكان من شأن هذا الانجاز المعماري أن يدعم حركة الفتح ويزيدها فعالية ، وأن يسمح للجند بالاستقرار في قاعدة عسكرية تنطلق منها العمليات .

والجدير بالملاحظة أن دولة بني أمية كانت ، في تلك الاثناء ، تخوض حربا كبرى في جبهة اخرى من جبهات القتال . وذلك ان الجيش الاسلامي كان يضرب ، آنذاك ، الحصار حول القسطنطينية عاصمة البيزنطيين (50 ـــ 51 هـ/670 ـــ 671 م) . ويبدو أن معظم الجهود كانت موجهة لتدعيم ذلك الحصار ، وأن معاوية بن أبي سفيان لم يتمكن من ارسال نجدة هامة الى افريقية لمساعدة حركة الفتح بها .

وفي سنة 51 هـ/671 م ، عزل معاوية بن حديج من ولاية مصر ، وعوض بمسلمة بن مخلد . وكذلك عزل عقبة بن نافع وعوض بأبي المهاجر دينار . وقد يكون لذلك علاقة بفشل حصار القسطنطينية وما تلاه من عقد هدنة بين المسلمين والروم ، الأمر الذي اقتضى تعيين قائد جديد لتطبيق سياسة جديدة .

د ـــ أبو المهاجر دينار :

كانت السياسة المنتهجة في افريقية ، قبل ذلك ، من طرف القادة العرب ، سياسة عنف وشدة تجاه الروم والبربر ، على السواء . ولم يكن عقبة اقلهم حماسا واقبالا على الغزو . غير أن فشل حصار القسطنطينية واحراق عدد كبير من قطع اسطول بني أمية اضعف شأن المسلمين في البحر ، وجعل الروم يعودون الى الهجوم في مناطق عديدة . فأصبح معاوية يميل الى سياسة اللين والمداراة ، في معاملته للروم . ويبدو اذن أن تعيين أبي المهاجر يقع في إطار هذا الاتجاه الجديد في العلاقات مع الروم .

والأرجح أن المسلمين التزموا احترام الهدنة مع الروم في آخر عهد معاوية ، ثم بعد ذلك الى عهد يزيد ومروان بن الحكم وقسم من عهد عبد الملك بن مروان . فلم يهاجموهم .

وعلى كل ، فإن سياسة أبي المهاجر انتهجت لأول مرة أسلوب المسالمة والتحالف تجاه البربر وخاصة بربر افريقية ، الذين كانوا قد تأثروا منذ قرون عديدة بما جاء به مختلف الغزاة الأجانب من تأثيرات في مجال اللغة والديانات والاقتصاد وغير ذلك ، وكانت تربط بينهم وبين الروم صلات وثيقة تختلف حسب الظروف ، من علاقات سلمية الى حروب دامية . ولا شك أن الروم ، في تلك الأثناء ، كانوا ، بعدما أصيبوا من هزائم خلال حركة الفتح الاسلامي ، يحاولون التقرب من أولئك البربر وتحريضهم على محاربة المسلمين ، ويعدّونهم بمساعدتهم بالرجال والاسلحة والمال .

والظاهر أن معظم قبائل البربر لم تنخدع لهذه الاغراءات والوعود ، وأنها لم تنس ما تعرضت له من اضطهاد وتعسف في فترات عديدة من تاريخها . فلم تقاوم الفتح الاسلامي ، ولم تتحالف مع الروم لشن الحرب ضد المسلمين الا في ظروف خاصة ونادرة .

وكان على المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم لاستمالة البربر الى جانبهم ، وذلك بأن يضمنوا المساواة في الحقوق والواجبات لمن اعتنق الاسلام ، والحماية لمن بقي على دين النصرانية واليهودية ، والعدل للجميع ، حتى يتضح للجميع أن الفتح الاسلامي ليس مجرد غزو لاستعباد الشعوب وسلب خيراتها ، وإنما هو تحرير لها ومساعدتها على استرجاع كرامتها .

وقد ادرك أبو المهاجر ضرورة انتهاج هذه السياسة لتجنب كثير من المتاعب والشدائد ، فسلك هذا المسلك ، وعامل البربر معاملة حسنة ، فاستمال بعضهم ، من بينهم كسيلة ، رئيس قبيلة اوربة ، من البرانس ، الذي اعتنق الاسلام ، ومنح أبا المهاجر ثقته وصداقته .

وقد ذكرت معظم المصادر أن الفتح الاسلامي تقدم تقدما كبيرا على يد أبي المهاجر وأن هذا الأخير وصل بجيشه الى ناحية تلمسان . وقد سبقت الاشارة الى ما في اخبار هذه الفترة من مبالغة واسراف وهذا الخبر من جملة ما يستبعد صحته ، لان مثل هذه العملية تتطلب اخضاع عدد كبير من القبائل او اعتناقها للاسلام ، ولم ترد تفاصيل ، في كتب التاريخ ، تثبت حصول ذلك فعلا ويبدو أن منطقة نفوذ المسلمين في آخر ولاية أبي المهاجر لم تتجاوز ناحية أوراس .

هذا ولم يهدأ لعقبة بال حتى اقنع يزيد بن معاوية باعادته الى افريقية وعزل أبي المهاجر وذلك في سنة 62 هـ/681 م .

هـ ــ عقبة بن نافع (ثانيا) :

فعاد عقبة الى افريقية ، وهو أشد ما يكون حنقا على أبي المهاجر ، وعزما على الانتقام منه . وكان عقبة شديد الرغبة في منصب قيادة الجند ، فلما عزل وعوض بأبي المهاجر ، وهو من الموالي ، اعتبر ذلك مذلة له ، بعدما حققه من انجازات وبذل من مجهودات .

وسرعان ما أمر بتثقيف أبي المهاجر وكسيلة بالحديد ، وابقاهما في القيود يصحبهما معه اينما انتقل . كما انه لم يرتض السياسة التي سلكها أبو المهاجر تجاه البربر ، وعاد الى عمليات الغزو ، والى اخذ البربر بالشدة والعنف ، ونبذ كل ما اقامه أبو المهاجر معهم من علاقات طيبة ، مرتكزة على اساس الاحترام المتبادل ، والمساواة بين سائر المسلمين في الحقوق والواجبات .

ثم قام عقبة بحركته الشهيرة ، قاصدا فتح المناطق الجنوبية من بلاد المغرب ، غير مكترث بقلة جنوده وكثرة البربر ، أهل تلك المناطق ، وغير آبه بخطر محاولات الروم المنتظرة لاثارة عداء البربر للعرب ، واشعال نار الحرب بين العنصرين .

هذا وقد تحدث المؤرخون والقصاص عن هذه الحركة الكبرى ، فذكروا تفاصيل عديدة حشوا في ثناياها بالاخبار العجيبة والحكايات البطولية ، التي تدعو الى دراسة جدية تؤدي الى التفرقة بين ما هو تاريخي من الأخبار ، وما هو أدبي وأسطوري ، لا قيمة له من ناحية التاريخ مما لا يعتد به في هذا المجال .

وتشير معظم المصادر الى أن عقبة بدأ حركته بفتح بعض مناطق افريقية ، فأذل الروم في باغاية ولميس وغيرهما من المدن والحصون . ثم توجه الى المغرب الأوسط ، ففتح تاهرت جنوبا ثم توغل في بلاد المغرب الأقصى ، فاستولى على طنجة وفتح بلاد السوس الأدنى ، حيث بلغ شاطيء المحيط ، ثم ناحية السوس الأقصى وبلاد مسّوفة ، ثم كرّ راجعا الى افريقية ، بعد أن دوخ مختلف اقطار المغرب ، وقاتل من تعرض له من الأهالي وأباد كثيرا منهم .

وقد اجمع الباحثون على الاعتقاد أن هذه الروايات مبالغ فيها ، وأن عقبة لم يجل في سائر هذه المناطق . فشك الكثير منهم ، اعتمادا على رواية ابن عبد الحكم ، في وصول عقبة الى منطقة طنجة ، وكذلك السوس الأقصى ، بل ذهب البعض الى أنه من الصعب الجزم بامتداد حركة عقبة الى ما وراء حدود المغرب الأوسط . وعلى كل ، فالذي لا مجال للشك فيه ، هو أن عقبة غزا بعض المناطق في الأوراس ، والحضنة والزاب ، وأنه عند عودته من حركته هذه ، مر بناحية بسكرة ، حيث اصطدم بجموع من البربر والروم ، فلقيهم بشجاعة نادرة ، ورغم قلة من معه من الجند وكثرة المهاجمين له وقتل بموضع يدعى تاهودة ، مع كل من كان معه من الجنود (64 هـ/683 م) .

ويروى أن كسيلة كان قد فرّ من أسره قبل المعركة ، وحشد الجموع من قومه ، مستعينا بالروم ، وقاد العملية التي اسفرت عن استشهاد عقبة ورفاقه .

وقد ترتب عن هذه الكارثة نتائج خطيرة ، حيث أن كسيلة استولى على القيروان ، وامتد نفوذه الى كل المناطق التي فتحها العرب قبل ذلك بإفريقية ، وأصبح يترأس دولة مخالفة لهم ، تقيم مقام حاجز بين هؤلاء وبين المسلمين . كما أن الجند الاسلامي تقهقر الى حدود ليبيا ، حيث أخذ يجمع قواه من جديد وينتظر المدد من دمشق .

وهكذا ، كانت سياسة عقبة ، المرتكزة على نظرية إخضاع الأهالي بالقوة والعنف ، سياسة فاشلة ، أدت الى ضياع كل ما إكتسبه الفتح الاسلامي منذ ما يقرب من أربعين سنة . كما أنها كانت تجربة قاسية ، أفادت الحكام الأمويين بضرورة تغيير أسلوبهم في الفتح والسيطرة الى طريقة أكثر لينا ومرونة .

و ــ زهير بن قيس البلويّ :

لما حدثت كارثة تهودة ، كان يزيد بن معاوية مشغولا بإخماد ثورة الحجاز ، التي قامت عقب مقتل الحسين بكر بلاء (61 هـ/680 م) ، وتوفي وجيشه لا يزال يحاصر مكة المكرمة (64 هـ/683 م) . ثم كانت الفتنة الصغرى ، وثورة عبد الله بن الزبير ، فانشغل مروان بن الحكم بالعمل على مواجهة خطرها ، واسترجاع المناطق المؤيدة لابن الزبير ، وبدأ بمصر لاهمية موقعها في استراتجية الصراع بين الخلافة الأموية والامبراطورية البيزنطية ، وكذلك في الصراع الداخلي بين الأمويين والزبيريين وحاول والي مصر الجديد ، عبد العزيز بن مروان ، أن يعالج مشاكل افريقية بما توفر لديه من إمكانيات ، فأمر زهير بن قيس بضبط الأمور في برقة وأمده بما أمكن من الرجال والعتاد للتوجه الى افريقية .

ثم زحف زهير بن قيس ، بما اجتمع لديه من جنود ، الى افريقية ، فلقي كسيلة وقومه بقرية ممس ، قرب القيروان ، فقتل كسيلة أثناء المعركة ، وانهزم اتباعه (67 هـ/686 م) .

والظاهر أن زهير بن قيس لم يكن لديه قوات كافية للتصدي لما كان يتوقع حدوثه من هجمات الروم واحلافهم من الأفارقة والبربر ، فرأى من الحكمة ، بعد أن حقق الانتقام لمقتل عقبة ورفاقه ، أن يغادر القيروان ويعود الى برقة أو مصر . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير ، آنذاك لا تزال قائمة بالحجاز والعراق ، فكانت الأوضاع تقتضي التعجيل بالتصدي لها ، وارجاء شؤون افريقية الى أجل لاحق .

وكان خطر الروم لايزال مخيما على ما بقي تحت سلطة المسلمين من بلاد المغرب . ففي تلك الأثناء قدم أسطول بيزنطي من صقلية ، وشن غارة بحرية على برقة . فنهب الروم وسبوا ، وحملوا الغنائم والسبي الى مراكبهم . ويبدو أن خبر هذه الغارة وصل الى زهير بن قيس وهو على أهبة العودة الى المشرق ، فسلك طريق البحر آملا في ادراك سبي المسلمين ، ولحق بالروم قرب درنة ، ومعه حوالي سبعين فارسا ، فلم يراع كثرة الاعداء ، ودفعه حماسه الى مهاجمتهم ، فقتل وكل من كان معه .

وهكذا يتضح أن البيزنطيين كانوا على علم بصعوبة موقف الأمويين بعد وفاة يزيد واغتنموا الفرصة ، فأخذوا يغيرون على سواحل مصر وبرقة وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون ، قصد استرجاع ما أمكن من ممتلكاتهم السابقة . وقد رأينا أنهم لعبوا دورا حاسما في حوادث افريقية ، وقدموا للبربر المساعدة الفعالة في حادثة تهودة ، ثم عملوا على حماية افريقية بمهاجمة برقة وصدّ المسلمين عنها راجين تثبيط عزائم هؤلاء وابعادهم نهائيا عن المغرب .

ولم يتمكن بنو أمية ، آنذاك ، من التصدّي لهذا العداء ، لانشغالهم بثورة ابن الزبير فركنوا الى مهادنة البيزنطيين ومسالمتهم . ولم يتحقق ذلك الآ سنة 73 هـ/692 م ، حيث قتل عبد الله بن الزبير بمكة ، وانتهت حركته .

وعندئذ ، قرر عبد الملك بن مروان التفرغ لشؤون افريقية ، والعمل على فتحها وطرد الروم منها . فعين حسان بن النعمان الغسّاني قائدا على الجند الاسلامي الذي عزم على إرساله اليها .

3 ـــ فتح المغرب :

تتميز المرحلة الاستطلاعية ، التي سبق عرضها ، بكون نشاط المسلمين فيها عبارة عن عمليات محدودة ، سواء من حيث الزمان ، أو من حيث المكان ، وكذلك فيما يخص اعداد الجنود المشاركة في كل منها . وكل ما ورد في شأن ذلك مما يوهم مزيدا من الأهمية في هذه المجالات مبالغ فيه وينبغي اعادة النظر في تقديره .

وذلك أن الغرض من تلك العمليات لم يكن ، خلال هذه الفترة كلها ، تنظيم حركة منظمة تستهدف فتح بلاد افريقية كلها أو المغرب بأسره . وإنما كان ينحصر في إرسال سرايا استكشافية يعهد اليها بالتسرب في المناطق المجاورة للحدود ، ومحاولة التمركز فيها لتوسيع رقعة البلاد الاسلامية . والدليل على ذلك أن الجيوش الاسلامية لم تستغل انتصاراتها في سبيطلة وجلولة وغيرهما ، بمواصلة الزحف وطرد الروم من افريقية ، ولم توجه نشاطا مكثفا ضد الروم أيام ولاية أبي المهاجر وعقبة وزهير بن قيس ، لما سبق شرحه من خلال دراسة الأوضاع السياسية العامة للعالم الاسلامي ، وتطور صراعه مع الامبراطورية البيزنطية .

فكان نشاط المسلمين في هذه الفترة كلها عبارة عن حركة مد وجزر ، لم تتجاوز بلاد القيروان والزاب غربا ، ولم تتوغل في المناطق الشمالية بافريقية . وكل ما أورده المؤرخون القدماء من امتداد الى قرطاجة شمالا أو الى المغرب الأقصى غربا لا يمكن الأخذ به ، لما يترتب عن ذلك من تناقضات وغموض في عرض تاريخ المغرب ، ولما تكتسيه تلك الروايات من طابع قصصي وأسطوري يتنافى مع المنهجية العلمية في معالجة التاريخ .

ويتضح أيضا ، مما سبق ذكره أن المسلمين واجهوا ، أثناء الفترة الاستطلاعية هذه ، مقاومة من طرف الروم والأفارقة وحلفائهم من البربر زادت عنفا كلما قويت الفتن الداخلية في الدولة الاسلامية ، فلم يتمكن المسلمون من القضاء على تلك المقاومة لضعف إمكانياتهم ، وقلة جنودهم . وبعد مراكز تموينهم في مصر أو برقة ، ولترددهم في إنتهاج سياسة واضحة المعالم تجاه البربر .

هنا وتذكر بعض الروايات أن عناصر من البتر قد اعتنقت الاسلام ، وانضمت الى الجيش الاسلامي ، وخصوصا اثناء حركة زهير بن قيس الى افريقية ، مما يسمح بالتفكير في

وجود صراع قديم بين البتر والبرانس واستعداد أحد العنصرين على مساعدة المسلمين لمواجهة العنصر الآخر .

وعلى كل ، فيبدو أن أنجع سياسة في فتح المغرب كانت تقتضي القضاء على مقاومة الروم وحلفائهم ، واستمالة معظم الأهالي من البربر الى الاسلام ، بانتهاج سياسة مرنة تجاههم . وهذه السياسة هي التي سلكها أبو المهاجر ، قبل ذلك ، وسيسلكها حسان بن النعمان ، فيما بعد .

ا ــ حسان بن النعمان :

لقد عني عبد الملك بن مروان بشؤون إفريقية ، فعين قائدا ماهرا من أهل الشام هو حسّان بن النعمان الغسّاني ، وأرسله على رأس جيش وافر العدد ، وطلب من أخيه عبد العزيز بن مروان ، والي مصر ، أن يزوده بكل ما يحتاج اليه من عتاد ومؤن ومال .

فقدم حسّان الى افريقية سنة 73 هـ/692 م ، ونزل طرابلس حيث إجتمع اليه كل من غادر بلاد افريقية من المسلمين ومن انضم اليهم من البربر . وواصل سيره نحو الشمال ، فاسترجع المناطق التي فتحها المسلمون من قبل . ثم توجه نحو قرطاجة ، فحاول الروم أن يصدوه عنها ، ولكنهم فشلوا في محاولتهم ، واضطروا الى تسليم المدينة صلحا (سنة 75 هـ/694 م) . ثم أرسل حسان السرايا لفتح الحضون والمدن الواقعة على الساحل ، وتابع إخضاع مناطق افريقية التي كان يوجد فيها الروم والأفارقة والبرانس .

وبعد أن أخضع الكثير من نواحي افريقية ، واصل سيره في اتجاه منطقة أوراس ، وكان اندحار كسيلة وجماعته من البرانس ، أثناء حركة زهير بن القيس ، قد فسح المجال لقبيلة من البتر ، تدعى جراوة ، فبسطت نفوذها في المنطقة تحت قيادة إمرأة تعرف باسم الكاهنة .

إننا نجهل الكثير عن الكاهنة ، وقد ذكر البعض أنها كانت على الديانة اليهودية ، غير أن ما روي من أن أحد ابنيها كان من أب نصراني يرجح الاعتقاد أنها كانت نصرانية ، مع تعلقها برواسب الديانات المحلية القديمة المتمثلة في أعمال السحر والتكهن .

وعلى كل ، فإن ذلك يشهد على وجود علاقات وثيقة بين قوم الكاهنة وبعض العناصر التي قاومت الفتح الاسلامي ، من افرنجة وافارقة .

ربما كان عجز الروم عن صد المسلمين ، قد أدى بهذه العناصر الى تعليق آمالهم على الكاهنة وقومها ، وتحريضها على الوقوف في وجه المسلمين والتصدي لهم ، مثلما أدى بهم فشل الروم الى تحريض كسيلة ومساعدته ، والى الاستنجاد بروم القسطنطينية وصقلية .

ولما علمت الكاهنة بتوجه جيش حسان الى منطقتها ، لم تنتظر قدومه ، بل بادرت باقتحام مدينة باغاية ، وطردت أهلها من الروم ومن لم تثق بهم من الأفارقة وخربت المدينة لئلا يتحصن بها حسان .

ثم واصلت طريقها تجاه الشرق ، ولما قربت من وادي مسكيانة إلتقى جيشها بجيش حسان وكان اللقاء شديدا ، فانهزم المسلمون ، وتراجع حسان ومن معه الى ما وراء طرابلس من بلاد برقة .

وكان البيزنطيون قد تأثروا كثيرا بسقوط قرطاجة بين أيدي المسلمين فأرسلوا في تلك الأثناء ، أسطولا قويا تحت رئاسة البطريق يوحنا ، فلم يلاق أية صعوبة في استرجاع المدينة إذ أن حسانا كان قد تراجع بجيشه الى برقة بعد هزيمته على وادي مسكيانة ، فلم يجد الروم بقرطاجة لا حامية لا طاقة لها بمدافعتهم ، فاحتلوا المدينة ، وعاملوا من كان بها من المسلمين معاملة قاسية (76 هـ/695 م) ، وهكذا كانت مقاومة الكاهنة لحسان قد افادت الروم . اذ مكنتهم من العودة الى قرطاجة واسترجاع سلطتهم على معظم مناطق افريقية الشمالية .

وعندئذ ، أدرك المسلمون أن فتح افريقية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالصراع الكبير القائم بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية ، وان لا راحة لهم ، سواء في برقة أم في افريقية أو غيرها من الأمصار المفتوحة ، الا بالتغلب على الروم في البحر ، مثلما تغلبوا عليهم في البر ، فأمر عبد الملك بن مروان بتدعيم الأسطول الاسلامي ، وعهد اليه بالتصدي للأسطول البيزنطي ، ثم كانت المعركة الحاسمة بين الأسطولين ، وكان النصر للمسلمين ، فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط .

وكذلك أمر عبد الملك بإرسال المساعدات الى حسان ، الذي كان مستقرا ببرقة — ولما استكمل هذا الأخير عدته ، اعاد الكرّة نحو افريقية ، وكانت الأوضاع قد تغيرت تغيرا كبيرا ، لصالح المسلمين .

ذلك أن الكاهنة كانت قد أمرت اتباعها باحراق الغابات وافساد المزارع وتخريب القرى ، في نواحي افريقية الجنوبية الخاضعة لسلطتها ، ظنا منها أن ذلك من شأنه أن يثبت هيبة المسلمين ويجعل حدا لرغبتهم في الاستلاء على افريقية . وكانت تلك الأراضي كثيرة الغابات غنية بحبوبها وأشجار الزيتون وغير ذلك . ولا شك أن سياسة تخريب الزراعة هذه بعثت الرعب والهلع في نفوس الأهالي من البرانس والأفارقة وغيرهم ، وجعلتهم ينظرون الى المسلمين نظرة جديدة ويرغبون في قدومهم لانقاذ البلاد من الدمار والخراب .

وهكذا ، كان استقبال أهالي افريقية الجنوبية لحسان وجنده يختلف تماما عن ذي قبل ، فأطاعه أهل قابس من الأفارقة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الجند الاسلامي . كما

أطاعته قفصة وبلاد الجريد ، ودخلت في حمايته . ثم قصد الى قرطاجة وحاصرها حصارا شديدا ، وعندما أراد المسلمون اقتحامها ، فاوضهم الروم في تسليم المدينة ، ووافقوا على ذلك ، ولكنهم غادروها ليلا . حاملين أموالهم ونفائسهم . ولما دخلها المسلمون ، لم يجدوا فيها الا قليلا من سكانها الفقراء والعجزة (سنة 78 هـ/697 م) . فأمر حسان بتخريب المدينة لئلا يعود اليها الروم ، ووجه عنايته الى توسيع مدينة تونس وأنشأ بها دار صناعة لبناء السفن .

ثم تابع حسان نشاطه ، فتوجه الى المناطق التي عاث فيها أتباع الكاهنة فسادا ، ففتحها وكانت الكاهنة قد ضعف شأنها وانفض الناس من حولها ، فألحق بها هزائم كبرى ، ولقيت حتفها أخيرا في جبال أوراس (أواخر سنة 81 هـ/700 ــ 82 هـ/701 م) . وكان لاعمالها التخريبية ، التي دامت خمس سنوات ، نتائج وخيمة في المجال الاقتصادي ، اذ انها جعلت من تلك المناطق الخضراء أراضي جرداء لا ينبت فيها شجر ، ولا تنتج شيئا .

وبهذا تم فتح معظم مناطق افريقية ، بصفة نهائية ، وانتهت المقاومة التي تعرض لها الفتح الاسلامي في هذه البلاد .

واستقر حسان بعد ذلك بالقيروان ، فبذل جهودا كبرى لتنظيم شؤون البلاد ، واقام الدواوين ، وضرب السكة ، وفرض الخراج على أهل الذمة ، فانتظمت الامور ، وانتشر الأمن بعد أن كانت الفوضى ضاربة اطنابها في كل مكان .

وفي أواخر سنة 85 هـ/704 م ، عزل حسان ، فعاد الى دمشق ونصب مكانه موسى بن نصير .

ب ــ موسى بن نصير :

كان لحسان بن النعمان الفضل في تحقيق فتح افريقية ، وارساء قواعدها الادارية والاقتصادية وبعث الطمأنينة بين السكان .

وقد اقتنع الأهالي ، من مختلف الفئات الاجتماعية ، بضرورة احترام النظام الجديد لما تعهد به من حماية أهل الذمة ، وضمان كرامة الانسان ، واقامة العدل ، واقرار المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين من مختلف الاجناس . وكان حسان قد سوّى بين العرب والبربر في الجند واسند بعض المناصب السامية الى البربر كما ضمّ الى الجند عددا كبيرا منهم ، فأصبحوا يساهمون أيضا في فتح المغرب .

وقد ترتب عن فتح افريقية نتائج هامة جدا في مختلف المجالات ففي المجال السياسي فقد الروم قاعدة هامة من قواعدهم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ثم أن انهيار سلطة الروم بافريقية ترك فراغا سياسيا فتح الباب لكل ما كان ساكنا من عداوة واحقاد قديمة بين مختلف الفئات وقد ذكرت المصادر التاريخية أن الخلاف انتشر بين أهالي افريقية آنذاك .

ويبدو أن جانبا كبيرا من هذا الصراع كان يدور حول الاراضي الخصبة التي كان يملكها العجم منذ عهد الرومان ، بعد أن طردوا منها الأهالي الاصليين . والظاهر أن حياة أولئك العجم أصبحت مهددة في بوادي افريقية ، وانهم اضطروا الى الالتجاء في الحصون والمدن . وقد أشار ابن خلدون أن موسى بن نصير أمر بنقل العجم من الاقاصي الى الاداني . وقد يكون هذا الاجراء نتيجة لما تعرض له كبار الملاك ، من هؤلاء العجم ، من خطر هجوم فئات من البربر على مزارعهم ونهبهم امتلاكهم لها . كما تشير كثير من المصادر الى اعتناق بعض قبائل البربر للاسلام ، منذ أول الفتح ، وانضمامها الى الجيش الاسلامي . والغالب على الظن أن تلك القبائل نالت حظا وافرا من المزارع التي تركها العجم . أضف الى ذلك أن قبائل أخرى نزحت الى الغرب فرارا من المسلمين ، مما جعل التوزيع السكاني يتغير بصورة محسوسة في هذه الفترة . وهكذا ، فإن الفتح الاسلامي لافريقية احدث تحولات هامة في التوزيع السكاني بالمغرب ، وسبب تحركات مختلفة لدى العديد من الفئات ، مما أنتج شيئا من الفوضى والاضطراب في كثير من المناطق .

فلما قدم موسى بن نصير الى افريقية كانت المقاومة قد انتهت في هذه المنطقة . وكانت الأوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولا كبيرا ، اذ أن معظم قبائل البربر لم تتخذ موقفا عدائيا ضد المسلمين ، فصالحهم بعضها ، وأسلم البعض الآخر .

وواصل موسى بن نصير نشاط الفتح في اتجاه المغرب الأوسط ، فلم يتعرض لأية مقاومة ، بل صالحه أهل المدن ، راغبين في مسالمته وحمايته . كما أن قبائل البدو قدمت له طاعتها ، وأسلم الكثير منهم ، وخاصة من كانوا على دين الوثنية ، فأخذ منهم الرهائن وضمهم الى الجند . ثم فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى ، بنفس الطريقة ، واستولى على طنجة ، عاصمة المنطقة ، وترك فيها حامية قوية ، تشمل ما اجتمع لديه من رهائن البربر ، ثم عاد الى افريقية .

هذا وقد افاضت المصادر التاريخية في ذكر السبي ووفرة الغنائم التي عاد بها موسى بن نصير ، وبالغت في تقدير عددها . ولا شك أن ذلك الغلو في التقدير راجع الى ما سبق ذكره من ميل الرواة الى حشو احاديثهم بالغرائب والأخبار المثيرة للاعجاب .

ولم تأت سنة 92 هـ/711 م ، حتى تم فتح المغربين الأوسط والأقصى ، شرع المسلمون في فتح الأندلس ، فساهم البربر مساهمة كبرى في ذلك .

والجدير بالملاحظة أن المسلمين أكتفوا ، في هذه الفترة ، ببسط سلطتهم على المدن والقواعد العسكرية الهامة ، وتركوا للبوادي وقبائل البدو نظمها التقليدية . فنتج عن هذه السياسة المرنة ، التي وفرت على المسلمين كثيرا من المتاعب والمشاق ، انتشار الأمن والطمأنينة في البلاد .

غير أن قبائل العرب ، القاطنة في مختلف أنحاء افريقية ، شعرت بخطر الدولة الموحدية على نفوذها في تلك المناطق ، فاجتمعت بظاهر باجة ، وعقدت العزم على محاربة الموحدين ، وطردهم من بلاد افريقية كلها ، مدعية الدفاع عن الأمير يحيى بن العزيز . فتصدى لهم عبد الله بن عبد المؤمن بما كان لديه من جنود الموحدين ، وكان عبد المؤمن آنذاك بمتيجة ، في طريق العودة الى مراكش ، فتوقف عن سيره ، وأرسل جيشه مددا لابنه ، وتم اللقاء بين الفريقين في ناحية سطيف ، فانهزم العرب هزيمة كبرى ، وتركوا ذخائرهم ونساءهم وكثيرا من الأسرى (صفر 548 هـ) ولما وصل عبد المؤمن الى مراكش ، استدعى رؤساء قبائل العرب ، ووعدهم بأن يعيد لهم نساءهم وأموالهم ، فوفدوا عليه ، وقدموا له طاعتهم .

وبعد هذه الحركة أصبح القطر الجزائري كله تحت سلطة الموحدين . وعقد عبد المؤمن لابنه أبي حفص على ولاية تلمسان وعين أبا محمد بن وانودين وزيرا له ، مما يدل على سعة سلطة الوالي وقوتها . كما عقد أيضا لابنه عبد الله على ولاية بجاية واستوزر له يخلف بن الحسين .

ولا شك أن مهمة ولاة الموحدين على تلمسان وبجاية كانت تشمل من جهة ، تدبير شؤون البلاد وجمع الضرائب ، وارسلها الى السلطة المركزية بمراكش ، ومن جهة أخرى ، الحفاظ على سلطة الدولة الموحدية في المنطقة . ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن ، مادام قسم من افريقية الشرقية خاضعا لاحتلال النصارى ، وما دامت مناطق شاسعة منها تحت نفوذ قبائل العرب . فكان الحرص على إبقاء القطر الجزائري تحت حكم الموحدين يقتضي استكمال فتح أقطار المغرب كله .

ج ــ فتح افريقية : كان المغرب الاسلامي يتعرض آنذاك أي في منتصف القرن السادس الهجري ، الى هجمات النصارى من الجهتين : الشرقية ، وتتمثل في استيلاء النورمان على المهدية وبعض موانيء افريقية الغربية ، وتتمثل في غارات الاسبان على أراضي المسلمين بالأندلس . فكان الموحدون عندئذ يتأرجحون بين واجب الجهاد في كلتا الجهتين ، فتتوجه جيوشهم تارة نحو افريقية ، وأخرى نحو الأندلس .

ولما عاد عبد المؤمن من حركته الى بجاية ، واستقر بمراكش ، اضطر الى مواجهة تفاقم الوضع بالأندلس ، حيث قامت ثورات في نواحي مختلفة وازدادت غارات القشتاليين عنفا وخطورة . فصرف عنايته الى تجهيز الجيوش وإرسالها الى الأندلس ، وقمع ما حدث فيها من فتن . وقد تطلب ذلك من الموحدين جهودا كبرى ، شغلتهم عن مواصلة عملية الفتح في بلاد افريقية .

الفصل الثاني

عصر الولاة

1 ـ انتشار الاسلام في المغرب :

كان الفتح الاسلامي يكتسي ، قبل كل شيء ، طابعا دينيا ، بينما كان قدوم الفينيقيين ، قبلهم ، يمتاز بطابعه التجاري ، واستيطان الرومان ومن خلفهم من الوندال والبيزنطيين ، يحمل طابعا عسكريا واستعماريا . وبعبارة أخرى ، فإن المسلمين ، عندما فتحوا الشعب ، كانوا يهدفون بالدرجة الأولى ، الى نشر الاسلام بين الأهالي . فكانوا لا يحاربون الا من كان كافرا ورفض الدخول في الاسلام ، أو من أبى مصالحتهم ، اذا كان على دين اليهودية أو النصرانية .

وكان قادة الجند الاسلامي يعهدون الى البعض العلماء ، ومن كان لهم علم بالدين بتعليم الناس مبادىء الاسلام وقواعده الأساسية . غير أن هذا التعليم كان له أثر محدود ، لأنه كان يقتضي المام المعلمين بلغة البربر ، أو مقدرة الأهالي على فهم اللغة العربية ، وكلا الأمرين كانا منعدمين في أغلب الأحيان ، في المرحلة الأولى من ظهور الاسلام بالمغرب .

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام بين البربر ، بساطة العقيدة الاسلامية ، وملاءمة كثير من القيم التي يدعو اليها للمناخ الأخلاقي السائد بين الأهالي بمجتمع البدو . ولا شك أن هؤلاء كانوا يعيشون حياة تشبه حياة العرب آنذاك ، الى حد بعيد ، سواء في المجال الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي . فلا غرابة أن يعتنق الكثير منهم الاسلام إثر اتصالهم به ، وإن كان انتسابهم الى الدين الجديد ، في الأول ، غير قائم على أسس قوية ، وعلى معرفة عميقة ، وانما كان ، في أغلب الأحيان ، سطحيا . غير أن الشعور الديني لم يفتأ يزداد قوة وعمقا ، بقدر ما تعددت فرص الاحتكاك بالمسلمين ، وبقدر ما انتشر بينهم تعليم الدين واللغة العربية .

أما أهل المدن ، فكانوا يكتّنون فئات مختلفة ، من روم وعجم وأفارقة وبربر وكان من بينهم كثير من النصارى . ويبدوا أن التمسك بالنصرانية كان اشد عند الروم والعجم ، الذين كانوا يشكلون الطبقة الراقية من المجتمع الحضري بالمغرب .

ومن أهم عوامل سرعة انتشار الاسلام بالمغرب ما عرفته المسيحية ، قبل ذلك ، من فتن وحروب دينية واضطهاد لبعض المذاهب من طرف الحكام ، الامر الذي جعل كثيرا من الأهالي يعرضون عن الديانة المسيحية ، أو يكتفون بانتماء رمزي اليها ، من دون أن يمارسوا طقوسها بصفة منتظمة ، ومن دون أن يتعمقوا اسرارها . ثم أن الاسلام لم يلغ ما ورد في الديانات السماوية السابقة ، بل جاء متمما لها . فكان اعتراف الاسلام بصحة هذه الديانات وتضمن القرآن والحديث لكثير من قصص الأنبياء والرسل ، وتعرضها لكثير من المسائل الاعتقادية ، وتناولهما أياها بطريقة منطقية سليمة ، مما ساعد على دخول الأهالي في الاسلام ، وسهل الانتقال من النصرانية الى الدين الجديد .

وعلى ضوء هذه الملاحظات ، يتضح أن انتشار الاسلام السريع كان نتيجة عوامل عديدة ، اجتمعت في هذه الفترة ، ودفعت معظم أهالي المغرب الى اعتناق هذا الدين الداعي الى المساواة والعدل والعطف على الفقراء والعبيد . كما يتضح أن أهالي المغرب لم يسلموا كرها ، وإنما أسلموا طوعا وعن رغبة صادقة .

أما ما قيل حول ارتداد البربر ، وما روي حول ذلك من أخبار ، فإن ذلك كان مجرد استنتاج لما روجه القصاص والرواة من أقوال حول امتداد الفتح الى مختلف مناطق المغرب ، منذ عهد أبي المهاجر دينار وعقبة بن نافع ، وما ورد في هذا الشأن من أخبار وروايات مبالغ فيها . وقد ظهر مما سبق أن فتح المغرب كان تدريجيا ، وأن المقاومة المسلحة التي كانت مقتصرة على الروم وغيرهم من العجم وحلفائهم من البربر ، لم تتجاوز حدود بلاد افريقية ، ولم تتواصل الى عهد حسان بن النعمان الا لانشغال المسلمين بتنظيم شؤون أقطار المشرق الاسلامي ، ومواجهة ما قام فيه من فتن وثورات .

هذا وقد حافظ بعض النصارى واليهود على ديانتهم وخصوصا في المدن ، فلم يصبهم أذى ، بل كانوا يتمنعون بحماية المسلمين ، مقابل ادائهم لضريبتي الجزية والخراج ، وقد بقيت هذه الفئات متواجدة في كثير من أنحاء المغرب قرونا عديدة ، كما تشهد على ذلك المصادر التاريخية ، مما يدل على روح التسامح التي سادت تحت الحكم الاسلامي .

2 ــ التنظيم الاداري والمالي :

بدأ التنظيم الاداري والمالي في عهد حسان بن النعمان ، الذي أنشأ الدواوين ، وخصوصا ديوان الجند وديوان الخراج . والظاهر أنه أبقى استعمال اللغة اللاتينية في الادارة ، لكثرة انتشارها في المدن آنذاك اذ أنها كانت لغة الادارة منذ عهد الرومان ، ولكنه أضاف الى جانبها اللغة العربية ، ولا سيما بالقيروان ، حيث كانت الجالية العربية وافرة العدد .

وبعد حسان ، اصبحت بلاد افريقية ولاية مستقلة اداريا عن مصر ، فكان موسى بن نصير أول وال على افريقية وأقطار المغرب الأخرى التي تم فتحها في عهده . وقد عين موسى بن

عمر عمالا في أهم المدن ، تنحصر مهمتهم في جباية الضرائب ، والسهر على أمن السكان . فكان له عمال في كل من تونس وقابس وطرابلس وطبنة وتلمسان وطنجة والغالب على الظن أن سلطة المسلمين كانت أنفذ في المدن منها في البوادي والقرى ، وانما كانت تشمل تقريبا المناطق التي كانت من قبل تحت سلطة الروم . أما المناطق الأخرى ، فالظاهر أنها بقيت تتمتع بنظمها التقليدية ، فلم يتغير الأمر فيها بالنسبة للعهد البائد الا من حيث استجابة أهاليها للدعوة الاسلامية ، بصفة جماعية . وكانت هذه المناطق تشمل بلاد السهوب والنواحي الجنوبية في المغرب الأوسط ، ومعظم نواحي المغرب الأقصى .

وكانت ضريبة الخراج تخص أهل الذمة ، دون المسلمين . وقد يكون اعفاء الذين اعتنقوا الاسلام منها ، احد الحوافز التي دفعت كثيرا من البربر الى الدخول في الاسلام ، وخصوصا أولئك الذين كانوا على دين الوثنية ، أو الذين لم تكن تربطهم بالنصرانية أو اليهودية صلة وثيقة لضعف عقيدتهم ، أو لجهلهم وعزلتهم عن المجتمع الحضري .

وقد أقبل البربر بصفة جماعية على الاسلام أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز (99 — 101 هـ/718 — 720 م) ، التي ساد فيها العدل والتسامح والمساواة ، فتضاءل عدد النصرانية واليهودية بالمغرب ، بقدر ما عظم نفوذ الاسلام .

غير أن نجاح الدعوة الاسلامية قد أدى ، من جهة أخرى ، الى نقص كبير في موارد بيت المال ، حيث أن عدد أهل الذمّة تضاءل الى حد بعيد ، وأصبحت ضريبة الخراج لا تشكل مصدرا هاما لاموال الدولة ، كما كان الأمر قبل ذلك . وقد أدرك أمراء بني أمية وولاتهم ، ضرورة اجراء اصلاح على النظام الجبائي ، يقضي باشراك الأهالي المسلمين ، في البلاد المفتوحة ، في أداء ضريبة الخراج ، على غرار أهل الذمّة . ويبدو أن المسلمين من البربر قد استاؤوا من هذا الاجراء واعتبروه اهانة لهم ، اذ أنه جعلهم في منزلة أهل الذمّة .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن سلطة الولاة ، في المغرب ، كانت محدودة كما سبق ذكره ، وخصوصا في المغرب الأوسط والأقصى ، حيث كانت منحصرة في المدن الرئيسية . أما معظم قبائل البربر ، التي كانت تتمتع ، في عهد الروم ، باستقلال يتجسم في اعفائها عن اداء الضرائب ، فانها كانت لاتزال تحافظ على هذا الامتياز ، نظرا لدخولها في الاسلام إبان الفتح . واذا كان من السهل ، نسبيا ، توظيف الخراج على الأهالي المسلمين في المدن الخاضعة لسلطة الولاة وفي بعض أرياف افريقية ، وتنظيم جبايته ، فإن تعميم هذه العملية في باقي المناطق من أقطار المغرب كان أمرا شاقا جدا ، يتطلب اخضاع سكان تلك المناطق ، وإرغامها بالقوة على أداء هذه الضريبة .

ثم أن تعميم توظيف الخراج هذا ، لم يدخل في حيز التنفيد الا بعد خلافة عمر بن عبد العزيز . والظاهر أن ما حدث من محاولة تعميمه ابتداء من ولاية يزيد بن أبي مسلم كان على نطاق محدود ، اذ أن ولاية افريقية عرفت ، منذ بدايتها ، أزمة اجتماعية وسياسية شملت الجند العربي ، وتتمثل في الصراع القديم بين اليمنية والمضرية ، الذي عم أرجاء العالم الاسلامي آنذاك ، وكان من أهم عوامل سقوط الدولة الأموية .

3 ـــ مظاهر الصراع بين اليمنية والمضريّة بالمغرب :

لقد دعا الاسلام العرب الى جعل حدّ لما كان فرق بينهم منذ عهد بعيد ، من أحقاد وعصبية . فاجتمعت كلمتهم في عصر النبوة والخلافة الراشدة . غير أن تحول الخلافة الاسلامية الى نظام وراثي ، على يد بني أمية ، وما نتج عن ذلك من فتن وحروب ، قد أعاد العصبيات القبلية الى الوجود ، واحيا التكتلات القديمة ، وخصوصا بعد مقتل الحسين بن علي ، وسخط أهل الحجاز على يزيد بن معاوية ، وقيام ثورة عبد الله بن الزبير ، فانقسم جند بني أمية الى يمنية ، مؤيدة لبني أمية ، والى مضرية ، مناهضة لهم . وقوي العداء بين الطرفين ، مما كاد يؤدي الى انقراض الدولة الأموية آنذاك ، ولم ينقذها الا ما أوتي مروان بن الحكم وذووه من حكمة ودهاء وكفاءة سياسية .

غير أن بذور العداء والعصبية بقيت كامنة في صدور افراد وزعماء كل فئة . وقد ازدادت الضغائن والاحقاد شدة لما ظهر من تفضيل الخلفاء والولاة بعضها على بعض بالاكثار منها في الجند ، أو تعيين قادة الجند أو العمال من بين رجالها . وقد عمت الاحقاد مختلف العناصر ، فنشأ العداء ، مثلا بين قريش والانصار ، وشمل حتى الموالي من الشعوب المنتسبة بالولاء الى قبائل العرب . فكان لتعيين أبي المهاجر دينار ، مولى الانصار ، مثلا وقع سيىء في نفس عقبة بن نافع الفهري ، مما جعله يغضب ويستاء لهذا القرار ، ويأبى الا أن ينتقم لما اعتبره نيلا من كرامته ونبله . ثم أن اعادة يزيد لعقبة في امارة جند افريقية ، تمت بعد مقتل الحسين بقليل ، ولا يستبعد انها كانت تهدف ، بالدرجة الأولى ، الى إرضاء أهل الحجاز ، وفي آن واحد ، الى ابعاد بعض عناصر الجند من أهل الحجاز ، رغبة في التخفيف من حدة سخط إهل الحجاز ، وتفادي قيام ثورة بهذه المنطقة . وكانت تصرفات عقبة تجاه أبي المهاجر تعكس إثر عودة ظاهرة العصبية القبلية وانتشارها بين سائر الفئات .

ثم لما فشا الترف بين خلفاء بني أمية وغيرهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ، وساد حب الاكثار من العبيد والجواري وتشييد القصور ، أصبح بنو أمية يعمدون الى تعيين ولاة من صنائعهم ويطلبون منهم تزويدهم بالتحف والأموال والجواري ، وكان موسى بن نصير من هؤلاء ، فعمل على ارضاء الأمراء الأمويين بما قدم لهم من هدايا ثمينة ، وابقى لنفسه ثروة ضخمة ، وحاول تأسيس إمارة من بيته ، فعين أبناءه على مناطق المغرب والأندلس .

وبعد نكبة موسى بن نصير ، تعرض ابناؤه الى غضب سليمان بن عبد الملك ، فأمر والي افريقية ، محمد بن يزيد القرشي ، بمطاردتهم وقتلهم ، ففعل .

ثم كانت ولاية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، أيام عمر بن عبد العزيز ، فكانت عهد مساواة وعدل ، توقفت فيها محنة آل موسى بن نصير ، وعادت الأمور الى نصابها .

ولكن سرعان ما تغير الوضع ، إثر وفاة عمر بن عبد العزيز ، فقام خلفه يزيد بن عبد الملك بعزل والي افريقية ، وعين مكانه يزيد بن أبي مسلم ، مولى الحجاج بن يوسف وعهد اليه بمطاردة آل موسى بن نصير واستصفاء أموالهم . وما رواه ابن عبد الحكم من أنه قتل بتدبير من عبد الله بن موسى بن نصير يدعو الى التساؤل عن السبب الحقيقي لقتل يزيد بن أبي مسلم ، ويحث على الاعتقاد أن ارجاع مقتله الى غضب البربر مجرد افتراض لا يستند على شيء مقنع ، والحكاية الغرض منها ابعاد التهمة عن عناصر الجند الموالية لآل موسى بن نصير ، الناقمة للوالي المقتول .

ومما يؤيد هذا الاعتقاد أن سياسة ولاة بني أمية تجاه أهالي المغرب لم تعرف تغيرا ملحوظا في عهد الوالي الجديد ، بشر بن صفوان الكلبي ، الذي انحصرت جهوده في القضاء نهائيا على نفوذ آل موسى بن نصير ومحوه ، وتعيين عمال على المناطق كانوا مثله من اليمنية .

وتوفي بشر بن صفوان في أواخر سنة 109 هـ/727 م . فعين هشام بن عبد الملك واليا من المضرية ، هو عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي . فقدم الى افريقية في ربيع الأول سنة 111 هـ/يونيو 728 م ، فأخذ عمال بشر بن صفوان وأصحابه ، فحبسهم وأغرمهم وعذب بعضهم وكان من بين هؤلاء أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، الذي قال في ذلك ، يلوم الخليفة الأموي :

أفأتم بني مروان قيساد ماءنا	وفي الله ان لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
تعاميتم عنا بعين جلية	وانتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

ويروى أن هشام بن عبد الملك ، لما بلغه هذا الخبر ، عزل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (شوال 114 هـ/نوفمبر 732 م) ، وعين مكانه عبيد الله بن الحبحاب ، مولى بني سلول وعهد اليه بتهدئة الجوّ في أوساط الجند .

وكان عبيد الله بن الحبحاب رجل علم وفصاحة ونبل ، فلم ير وسيلة لحل المشكل القائم بين عناصر الجند أحسن من ابعاد بعضهم عن مقر ولايته ، وتكليفهم بمهمة اتمام الفتح الى مناطق المغرب التي لم يتوغل فيها المسلمون الى ذلك العهد . اضف الى ذلك أن عمليات

الفتح كانت تدر على بيت المال بالغنائم المختلفة ، من أموال وتحف وعبيد وجوار ، فكان إرسالها الى الخليفة الأموي أنجع السبل لارضائه والبقاء في ولاية افريقية .

وقد اسند عبيد الله بن الحبحاب مهمة فتح بلاد السوس ، من المغرب الأقصى ، الى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، فغزاها واخضعها ، وعاد منها بالغنائم والسبي . ثم توجه بالجيش الى صقلية ، فتابع فتحها .

ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى اندلعت ثورة ميسرة المشهورة ، في شمال المغرب الأقصى ، تحت شعار مذهب الخوارج الصفرية .

4 ــ حركة الخوارج بالمغرب قبل تأسيس الدولة الرستمية :

يبدو مما سبق أن المشاكل التي تعرض لها معظم ولاة افريقية من جراء الصراع القائم آنذاك بين فئات الجند ، قد شغلهم عن بسط سلطتهم في مناطق عديدة من بلاد المغرب الأوسط والأقصى ، التي بقيت تتمتع باستقلالها ، كما أنها جعلت جهودهم في تعليم الدين الاسلامي للأهالي محدودة جدا .

غير أن نشر تعاليم الاسلام لم يكن وقفا على عمال بني أمية وولاتهم ، بل كان يقوم به أيضا كل من شاء من رجال الدين والعلم ، ثم أن البربر أنفسهم ، بعد أن أسلموا ، أصبحوا يتفقهون في الدين ، وأخذ بعضهم يساهمون في نشر الاسلام بين إخوانهم من مختلف القبائل فكانوا أحسن عون لبث الدعوة الاسلامية في المغرب ، لانهم كانوا يجيدون لغة البربر ، ويستطيعون شرح تعاليم الاسلام لهؤلاء بلغتهم .

ومما يجدر الاشارة اليه أن الصراع المذهبي ، الذي قام ابّان الفتنة الكبرى ، وأدى الى نشأة أهم الفرق السياسية الاسلامية ، من شيعة وخوارج وسنيين ، كان عاملا هاما من عوامل انتشار الاسلام بين أهالي المغرب ، اذ أن بث المذاهب السياسية بينها ، الناتج عن منافسة الفرق على كسب الأنصار ، كان يقتضي تعميق الشعور الديني لدى السكان وتعليمهم مبادىء الاسلام ، ومن بينها نظرية نظام الحكم .

وبينما كان تعليم الناس دينهم الجديد يجري في المناطق الخاضعة فعلا لسلطة الدولة الأموية بصورة طبيعية ، مع الالحاح على ضرورة طاعة أولي الأمر ، أي الخلفاء الأمويين وعمالهم ، بعد ثبوت شرعية تعيينهم ، فإن دعاة الفرق المعادية لهم كانوا يتوغلون في المناطق التي لم تكن خاضعة لهم ، وينشرون فيها تعاليم الاسلام ، مع شرح نظريتهم السياسية واثبات شرعية معارضتهم للأمويين .

وكانت الأسبقية في ذلك ، بالمغرب للخوارج الصفرية ، الذين قدموا اليه في أوائل القرن الثاني الهجري ، وقد حدد ابن الأثير تاريخ الدعاة الخوارج الى المغرب في سنة 117 هـ/735 م ، أي أثناء ولاية عبيد الله بن الحبحاب .

وكانت الأوضاع السياسية آنذاك ، في سائر العالم الاسلامي ، تمتاز بتزايد سخط الشعوب المفتوحة على ولاة بني أمية ، وسياستهم الموجهة أساسا نحو ارضاء الخلفاء ، بتزويدهم بالأموال والعبيد وغير ذلك ، والاعتماد على العنصر العربي وما التحق بهم من الموالي في تسيير شؤون المناطق الخاضعة لسلطتهم . وقد شعر زعماء الأحزاب المناهضة لبني أمية ، من شيعة وخوارج ، بتدهور الأوضاع في مختلف الأنحاء ، فراحوا يبثون دعوتهم فيها ، ويؤلبون شعوبها ضد بني أمية . في هذا الاطار تندرج دعوة الخوارج في المغرب .

وقد لقيت هذه الدعوة ميدانا خصبا في مناطق عديدة من بلاد المغرب ، ويلاحظ أن هذه المناطق كانت لا تخضع فعلا لسلطة بني أمية ، وأن معظم سكانها من قبائل البدو ، كما أن أغلب هذه النواحي تمثل بلاد المغرب التي كانت مستقلة في عهد الوندال والروم .

ومما ساعد على انتشار مذهب الخوارج في هذه المناطق ، تقارب نظريته في مسألة الامامة ، المبنية على مبدأ الاختيار ، ونظام تعيين اشياخ القبائل فيها .

أضف الى ذلك أن شروع ولاة بني أمية في تنفيذ مشروع توظيف الخراج على الرعايا المسلمين ، والرجوع عن مبدأ المساواة بين سائر الفئات ، بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد سببا غضب الأهالي وسخطهم .

فكان لتحريض دعاة الخوارج صدى عميق في كثير من المناطق وخصوصا في جبل نفوسة ، وناحية قابس ، وبعض الجهات في مناطق أوراس ، وفي المغرب الأوسط والأقصى . وكان ظهور حركتهم وبداية نشاطها على يد الصفرية ، وذلك انطلاقا من ثورة ميسرة ، سنة 122 هـ/740 م .

والذي يجب الاشارة اليه ، باديء ذي بدء ، أن ثورة الخوارج بالمغرب لم تكن ردة وخروجا عن الاسلام ، بل الحقيقة انها قامت باسم الاسلام ، وأنها تنتمي الى مذهب من مذاهبه السياسية ، فهي قبل كل شيء ، امتداد لحركة الخوارج المنبثقة من المشرق ، ونزعة استقلالية لبعض الفئات من أهالي المغرب ، التي أثبتت استقلالها منذ تقلص ظل الامبراطورية الرومانية ووجدت في هذا المذهب حلا يمكنها من التوفيق بين تمسكها بالدين الاسلامي وأنفتها من الخضوع لسلطة ولاة بني أمية . وقد نجحت مهمة دعاة الخوارج بين هذه الفئات الى حد بعيد ، لانها كانت تعتمد على الاشادة بمبدأ المساواة في الحكم ، وفي الحقوق والواجبات وتحريض الأهالي ضد الحكام الأمويين وعمالهم ، الذين حادوا عن هذه المباديء منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم .

وتنص المصادر التاريخية أن بعض دعاة الخوارج قدموا من العراق ، وحاولوا نشر دعوتهم سرا في بعض الأوساط ، وأن جماعة من أهل افريقية ، يبلغ عددها خمسة رجال ، توجهوا الى البصرة للمزيد من العلم والتّفقه ، ثم رجعوا الى افريقية ، وأخذوا يباشرون الدعوة بين الأهالي ، وسموا حملة العلم . ومن بينهم الامام أبو الخطاب وعبد الرحمن بن رستم .

هذا ومن الطبيعي أن يعمل هؤلاء الدعاة على تكوين الانصار ، وارسال بعضهم الى المناطق النائية ، حيث تقل مراقبة الولاة لنشاطهم ، وحيث يسهل القيام بحركة موفقة . وكان من أشهر الدعاة الذين أرسلوا الى المغرب الأقصى ميسرة المدغري .

ولم تصف المصادر ميسرة وصفا يمكننا من استتضاح معالم شخصيته واستبانة الدور الحقيقي الذي لعبه في الثورة التي سميت باسمه . فلم تذكر أين ولد ونشأ ، كما انها لم تشر الى نوعية النشاط الذي قام به ، هل كان نشاطا عسكريا فحسب ، أو هل كان يشمل نشر الدعوة الصفرية . والذي نعرف عنه أنه قدم من القيروان ، وقاد الثورة في ناحية طنجة . أما عبد الاعلى بن جريج الافريقي ، الرومي الأصل ، فقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون أنه كان مقدم الصفرية من الخوارج في انتحال مذهبهم ولم تذكر المصادر هل قدم مع ميسرة من افريقية ، أم هل كان من سكان طنجة . أما تعيينه عاملا على طنجة فقد يكون لارضاء أهل المدينة ، الذين كان أغلبهم من أبناء الروم والأفارقة .

وعلى كل فيبدو أن انتشار مذهب الخوارج في المغرب الأقصى ، وربما في المغرب الأوسط ، كان على يد اتباع هذا المذهب من الأفارقة والبربر ، وأن نجاح هذه الدعوة يرجع ، علاوة على ما كانت تتضمنه من قيم سامية ومباديء ديمقراطية ، الى صدورها على يد رجال من البربر وبلغتهم .

ثم كان توجه ميسرة ، بعد استيلائه على طنجة ، الى ناحية السوس الأدنى ، واستيلاؤه عليها ، وقتله عاملها اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، ثم عودته الى طنجة ، ومعه انصار جدد ينتمون مثله الى جماعة البتر . وعندئذ ، رأى ميسرة أن يدعو لنفسه بالخلافة فنصب نفسه إماما على جماعة الصفرية ، ولا يستبعد أن يكون موقف أهل طنجة من إمامة ميسرة يتسم ببعض التخوف والحذر ، لما كان يتصف به من التشدد في المسائل الدينية ، والاسراف في التقشف ، مما جعله يشتهر بلقب الفقير .

وكان رد فعل والي إفريقيا ، عبيد الله بن الحبحاب ، أن أرسل جيشا بقيادة خالد ابن أبي حبيب الفهري ، ومعه وجوه أهل افريقية من قريش والأنصار وغيرهم ، الى ناحية طنجة . فتصدى له ميسرة بجموعه ، وكان اللقاء قرب طنجة ، فاشتد القتال بين الفريقين ، ولم يتمكن خالد من قهر جماعة الصفرية .

وهنا تختلف الروايات ، فبعضها تجعل هزيمة الجيش العربي على يد ميسرة ، ثم تشير الى عودة هذا الأخير الى طنجة ، فمقتله من طرف اتباعه وتعويضه بخالد بن حميد الزناتي ، وبعضها تذكر أن ميسرة ترك القتال قائما بين الجيشين ، وعاد الى طنجة ، فقتله اتباعه لتغيره عما بايعوه عليه ، وعينوا خلفا له خالد بن حميد الزناتي ، ثم أن هذا الأخير توجه الى ميدان المعركة بجموع أخرى ، وانقض على جيش خالد ، فأباده ، وسميت المعركة وقعة الأشراف (123 هـ/741 م) .

وهذا الاختلاف ليس هاما . وانما الأهم هو معرفة سبب قتل ميسرة ، وما نقم عليه أهل طنجة . أما ما قيل في شأن تغير سيرته ، فقد يكون ذلك ما سبق ذكره من تشدده وتقشفه ، اذ لم يؤثر عن ميسرة انه تخلى عن مبادىء الصفرية ، كما يمكن أن يكون تدبير مقتله ناتجا عن تخوف أهل طنجة من خطر البتر ورغبتهم في التخلص من ميسرة ، الذي كان يمتاز بشخصية قوية ، وحماس شديد .

والذي يؤيد هذا التفسير هو أن ثورة الصفرية بناحية طنجة تحولت ، بعد وفاة ميسرة ، الى حركة ذات نزعة استقلالية لاغير ، وانها انحصرت في صد جيش افريقية الذي قدم تحت قيادة كلثوم بن عياض القشيري الوالي الجديد ، والحاق الهزيمة به ، وقتله (في أواخر سنة 123 هـ أو أوائل سنة 124 هـ/741 م) ، على وادي سبو .

ثم سكنت عاصفة هذه الثورة بانشغال ولاة افريقية عن شؤون المغرب الأقصى وانصرافهم الى مواجهة خطر خوارج المغرب الأوسط وافريقية . ولم يسمع بعد ذلك ذكر لصفرية شمال المغرب الأقصى ، فلم يشاركوا في مختلف الحروب التي خاضها الخوارج ، اثر ذلك ، ضد ولاة افريقية .

وكان لوقعة الأشراف أثر عميق في مختلف مناطق المغرب الأوسط وافريقية التي انتشر فيها مذهب الخوارج . فثارت جماعة الصفرية في ناحية قابس ، بزعامة عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، ودارت معارك عديدة بينهم وبين جيوش القيروان ، هزمت هذه في بعضها . ثم كان اللقاء الحاسم بينها وبين والي افريقية الجديد ، حنظلة بن صفوان ، قرب القيروان ، في معركتي القرن والأصنام (125 هـ/743 م) .فهزم فيها الصفرية هزيمة كبرى ، اضعفت من شأنهم وكسرت من شوكتهم .

وفي هذه الأثناء ، بلغ الصراع بين اليمنية والمضرية اشده في الشام ، وأصبح أمراءبني أمية ، المتنافسون على الخلافة ، يعتمدون على أحد الفريقين في طلبهم للعرش فقامتخلافة الوليد بن يزيد (125 — 743/126 — 744 م) على سواعد المضرية ، وحاربهاليمنية ،وأيدوا منافسة يزيد بن الوليد ، فقضوا على خلافة الوليد . وعندما وصل نبأ وفاته اليافريقية ، غادرها معظم قادة أهل الشام متوجهين الى المشرق .

وعندئذ قدم عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس ، فنزل تونس ، والتفت حوله المضرية ، وطلب من حنظلة بن صفوان أن يخرج من القيروان ويغادر افريقية ، فلم يجد هذا الأخير بدّا من الاستجابة الى طلبه .

وبتغلب عبد الرحمن بن حبيب على افريقية انتهت سلطة بني أميه عليها . وأصبح من الصعب على أسرة الفهريين أن تقضي على حركة الخوارج في سائر مناطق المغرب ، فبذلت ما أمكن من الجهود لابعاد خطرهم عن القيروان وبلاد افريقية . وتمكن عبد الرحمن بن حبيب من اخماد .ثورة الأباضية في ناحية طرابلس وقابس سنة 131 هـ/749 م ، ثم قصد الى نواحي تلمسان سنة 135 هـ/753 م ، وشتت جموع بني يفرن ومغيلة ، الثائرة بها تحت شعار الصفرية .

وقد اكسب هذا الاستقرار النسبي عبد الرحمن بن حبيب شيئا من الغرور ، فرجع عن البيعة لابي جعفر المنصور ، الخليفة العباسي ، وأعلن خلعه ، معربا بذلك عن عزمه على تأسيس إمارة مستقلة ، على غرار الامارة الأموية بالأندلس .

ولكن سرعان ما تعكر الجو بالقيروان ، حيث قتل عبد الرحمن بن حبيب من طرف أخويه الياس وعبد الوارث (137 هـ/755 م) ثم قام حبيب بن عبد الرحمن يطالب بثأر أبيه ، وقتل عمه الياس (138 هـ/756 م) أما عبد الوارث فانه التجأ الى ناحية أوراس ، حيث أجاره عاصم بن جميل شيخ ورفجومة ، وهم بطن من قبيلة نفزاوة ، وكانوا على مذهب الصفرية .

وعندئذ رأى عاصم بن جميل وقومه أن الفرصة سنحت لهم للسيطرة على الموقف بافريقية وليحققوا ما لم تتمكن من تحقيقه ثورات الصفرية السابقة . فتظاهروا لحمايه عبد الوارث ومن كان معه من أنصار الياس أخيه ، وبالعمل على صد حبيب بن عبد الرحمن عنهم وعن أهل القيروان . ولكنهم ، بعد أن هزموا حبيبا ، توجهوا صوب القيروان استولوا عليها ، وساموا اهلها الذلّ .

ثم توجه عاصم بن جميل الى قتال حبيب ، بعد أن استخلف على القيروان عبد الملك ابن أبي الجعد اليفرني ، فهزمه أولا قرب قابس ، ثم انتصر عليه حبيب ، وقتل عاصم . فقصد حبيب الى القيروان ، وخرج عبد الملك بن أبي الجعد للقائه ، فهزمه ، وقتل حبيب (محرم 140 هـ/مايو 747 م) . وتمادت ورفجومة في عيثها وتعسفها بالقيروان ، ولكن سيطرتها لم تدم الا حوالي سنة وبضعة أشهر . وذلك أنها تعرضت الى هجوم أباضية طرابلس من هوارة وزناتة بقيادة أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري . فانهزمت ورفجومة ، وقتل عبد الملك بن أبي الجعد وكثير من اتباعه ، واستولى أبو الخطاب على القيروان (صفر

141 هـ/يونيو 758 م) جاعلا حدا لنشاط الصفرية بافريقية ، ثم عين عبد الرحمن بن رستم عاملا عليها ، وعاد الى ناحية طرابلس لمواجهة الجيوش العباسية ، فهزمت مرتين .

وكان تدخل أباضية جبل نفوسة وطرابلس في هذه الحوادث فاتحة عهد جديد في نشاط الخوارج بافريقية والمغرب الأوسط ، اذ أصبح نفوذ الأباضية يتزايد بهما ، بينما أخذت حركة الصفرية تضعف شيأ فشيأ ، وقد يكون انتشار الأباضية في كثير من المناطق ، بعد هذا التاريخ ، راجعا الى اعتدال آرائها ، وميلها الى مسالمة الطوائف الأخرى .

ثم قدم محمد بن الأشعب ، والي مصر بجيش قوي ، لاخماد الثورة ، فهزم أبا الخطّاب وجموعه ، ثم قصد الى القيروان ، فغادرها عبد الرحمن بن رستم متوجها الى المغرب الأوسط حيث أسس مدينة تاهرت (144 هـ/761 م) . ورغم بقاء عناصر كثيرة من جماعات الأباضية في جبل نفوسة ، فان ضغط ولاة افريقية جعل حركة الخوارج تحوّل جهودها الى المغرب الأوسط ، وتزداد فيه قوة وتدعيما ، الأمر الذي دعا ابن الأشعب الى تعيين الأغلب ابن سالم التيمي عاملا على طبنة ليقف في وجه الخوارج ويردّ هجماتهم ، كما أنه أمر ببناء سور القيروان .

أهم الأحداث التي وقعت في العالم من الفتح الاسلامي للمغرب وتأسيس الدولة الرستمية

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	647 — 27 غارة عبد الله بن سعد				
					649/29 غزو جزيرة قبرص من طرف المسلمين
	655/34 غارة معاوية بن حديج الاولى				
					650/30 تاولجة الامبراطور الصيني كاوتسونغ
				656/35 بداية خلافة علي ابن أبي طالب	
	662/41 غارة معاوية بن حديج الثانية			657/36 معركة صفين	
	665/45 غارة معاوية بن حديج الثالثة			661/40 بداية ابن أبي سفيان	669/49 بفتح الصينيون كوريا
	669/49 غارة عقبة بن نافع				650-651/ 670 — 671 حصار القسطنطينية من طرف المسلمين
	670/50 تأسيس مدينة القيروان			671/51 تولية مسلمة ابن مخلد على مصر	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الأندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	675/55 عزل عقبة بن نافع وتولية أبي المهاجر				
				680/60 بداية خلافة يزيد بن معاوية وثورة عبد الله ابن الزبير	
	682/62 عزل أبي المهاجر وتولية عقبة بن نافع للمرة الثانية				
				680/61 مقتل الحسين بكربلاء	
683/64 مقتل عقبة بن نافع				683/64 بداية خلافة مروان الأول	
	686/67 تولية زهير بن قيس			684/64 ثورة المختار بالعراق	
				685/65 بداية خلافة عبد الملك بن مروان	
	692/73 تولية حسان بن النعمان				
	694/75 فتح قرطاجة من طرف حسان بن النعمان			691/72 تأسيس قبة الصخرة بالقدس	
	695/76 سقوط قرطاجة بين أيدي البيزنطيين			694/75 تولية الحجاج بالعراق	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	697/78 فتح قرطاجة من طرف المسلمين				
				698/79 تأسيس مدينة واسط بالعراق	
701/82 مقتل الكاهنة					701/82 مولد الشاعر الصيني لي تاي بو
	705/86 تولية موسى ابن نصير			705/86 بداية الوليد بن عبد الملك وبداية تأسيس المسجد الأموي بدمشق	
707/88 حملة موسى ابن نصير على المغرب الأوسط		707/88 فتح مدينة سبتة على يد موسى بن نصير			
					710/91 نارا عاصمة البان
			771/92 فتح الأندلس على يد طارق بن زياد		711/92 مولد الشاعر الصيني توفو
					712/94 تولية الامبراطور الصيني هيوان تمنونغ
				718/99 بداية خلافة عمر ابن عبد العزيز	
				719/101 وفاة الشاعر عمر ابن أبي ربيعة	
					725/106 فتح مدينة ناربون من طرف المسلمين
				728/110 وفاة الشاعرين جرير والأخطل	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
				732/114 وفاة الشاعر الفرزدق	732/114 معركة بواتيي
		740/122 ثورة ميسرة			
				735/117 وفاة الشاعر (ذو الرمّة)	
		741/123 وقعة الأشراف			
	743/125 انتصار حنظلة ابن صفوان على الصفرية				
	749/131 إخماد ثورة الأباضية على يد عبد الرحمن بن حبيب				
				743/125 بداية خلافة الوليد بن زيد	
				748/131 وفاة واصل ابن عطاء	
	755/137 مقتل عبد الرحمن بن حبيب				751/133 معركة سمر قند
				757/140 وفاة ابن المقفع	756/138 تولية الامبراطور الصيني سوتسونغ
	758/141 استيلاء أبي الخطاب على القيروان				
	761/144 فتح القيروان من طرف محمد ابن الأشعث				

الباب الثاني

الجزائر في

مراجع الفصل الثاني للباب الأول

ـــ ابن أبي دينار القيرواني : **المؤنس في أخبار افريقية وتونس** ، تونس ، 1967

ـــ ابن عبد الحكيم : **فتوح مصر والمغرب** ، نشر عبد المنعم عامر ، القاهرة ، 1961

ـــ البلاذري : **فتوح البلدان** ، القاهرة ، 1959

ـــ الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** ، القاهرة ، 1939

ـــ ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** ، القاهرة 1303 هـ

ـــ البكري : **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب** (من كتاب المسالك والممالك) .
نشر دي سلان ، الجزائر ، 1911

ـــ ابن عذاري : **البيان المغرب في أخبار المغرب** ، بيروت ، 1947 ـــ 1950

ـــ ابن خلدون : **كتاب العبر** ، بيروت ، 1957

ـــ الدباغ : **معالم الايمان في معرفة أهل القيروان** ، تونس ، 1902

ـــ الرفيق : **تاريخ افريقية والمغرب** ، تونس ، 1968

ـــ فيليب حتي : **تاريخ العرب** ، بيروت ، 1953

ـــ لقبال موسى : **المغرب الاسلامي من بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج** ، قسنطينة 1969

CH.A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, T. II, Paris, 1961.

الباب الثاني

الجزائر في عهد الرستميين

الفصل الاول

التاريخ السياسي في عهد الرستميين

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

اثناء فترة ما بين 144 — و — 761/196 — 908 انقسمت بلاد الجزائر الى ثلاث مناطق : المنطقة الوسطى تحت حكم الرستميين المنطقة الغربية كانت خاضعة قرة ثم لمحمد بن خزر .

ثم ابتداء من 789/175 صارت تابعة للادارسة .

المنطقة الشرقية حكمها في البداية ولاة لبني العباس . ثم ابتداء من سنة 800/184 صارت ملكا لدولة الاغالبة .

وهكذا يمكن القول بان بلاد الجزائر حكمها ابتداء من سنة 800/184 ثلاث دول اهمها الدولة الرستمية . لان عاصمتها تاهرت كان موقعها في بلادنا بينما كانت فاس حاضرة ملك الادارسة ، وكانت القيروان عاصمة بني الاغلب .

ومما هو معروف ان الاحداث السياسية التي جرت في حاضرة دولة هي اهم من التي وقعت على مسرح اقليم بعيد ، ويولي المورخون للأولى اهمية اكبر في كتبهم .

وهكذا معرفتنا لتاريخ المملكة الرستمية هي ادق منها لتاريخ اقاليم الجزائر التي كانت تحت حكم الادارسة والاغالبة لذلك خصصنا ستة اقسام لدراسة التاريخ السياسي للدولة الرستمية ، وقسمين فقط للتاريخ السياسي للمناطق الواقعة شرقي وغربي المملكة الرستمية .

1 — تاسيس مدينة تاهرت وولاية عبد الرحمن بن رستم :

ا — تأسيس مدينة تاهرت :

اعتمادا على قول ابي زكريا والدرجيني كان رستم ابو عبد الرحمن يعلم ان سلالته ستمارس الحكم في المغرب .

غادر العراق في رفقة زوجه وولده ، وكان يريد الاتجاه الى المغرب ولما وصل الى مكة او الى مكان غير بعيد عنها توفي ، ولقى عبد الرحمن وامه حجيجا من المغاربة في مكة تزوج واحد منهم بأرملة رستم ، وذهب بها هي وابنها الى القيروان فتلقى عبد الرحمن العلم في مدينة القيروان ، ثم رحل الى المشرق ، وحضر دوروس ابي عبيدة في صحبة آخرين من شباب المغرب ، ومن بينهم ابو الخطاب ، وبعد تكوينهم العلمي ذهبوا الى ناحية طرابلس حيث انعقد اجتماع شارك فيه مشيخة من بربر الناحية . وبايعوا ابا الخطاب بالامامة ، وتمكن هو واصحابه من الاستيلاء على طرابلس في بداية سنة 140/ماي 757 . ولما بلغه ما ارتكبته ورفجومه من جور في مدينة القيروان خرج اليهم وتمكن من الاستيلاء على المدينة سنة 758/141 ثم توجه الى طرابلس واستعمل عبد الرحمن بن رستم — رحمه الله — على القيروان .

ارسل عامل مصر الجديد جيشين لمحاربة ابن الخطاب . فانهزما ، فتولى قيادة جيش ثالث تمكن من قهر جنود ابي الخطاب . فهكذا ابو الخطاب هو واثنا عشر الف من اصحابه اما عبد الرحمن بن رستم الذي كان قد غادر القيروان لمساندة ابي الخطاب فقد اضطر الى القفول ،لأن جنوده تشتتوا لما بلغهم نعي ابي الخطاب .

ثم توجه عامل مصر الى المغرب الاوسط ، روى ابو عبيد البكرى ان عبد الرحمن هرب بأهله وما خف من ماله — وأضاف : فاجتمعت اليه الاباضية ، واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا موضع تاهرت اليوم ، وهو غيضة أشبه ، ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لا شعراء فيه ، فقال البربر : نزل تاقدمت ، تفسيره : الدف ، شبهوه بالدف لتربيعه . من هنا اشتق اسم تاقدمت الذي تتسمى به تاهرت احيانا ، ويخبرنا ابن خلدون من جهته بأن عبد الرحمن بن رستم احتمل اهله وولده ولحق باباضية المغرب الاوسط . ويواصل كلامه بقوله : « ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم ، فاجتمعوا اليه وبايعوا له بالخلافة وائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي امارتهم ، فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل قزول السياح على تلول منداس ، واختطوها على وادي مينه النابعة منه عيون بالقبلة ويمر بها وبالبطحاء الى ان يصب في وادي شلف . فأسسها عبد الرحمن واختطها سنة اربع وأربعين ومائة (761/144 — 762) . فتمدنت واتسعت خطتها الى ان هلك عبد الرحمن .

وروى أبو زكريا والد رجيني أن عبد الرحمن وجماعة المسلمين اتفقوا ان ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا وحصنا للاسلام . فأرسلوا الروافد في الأرض فرجعوا فدلوهم على تاهرت ، فاتفق جمهور المسلمين مع أهل تاهرت القديمة على أشياء معلومة أن يأخذوها من غلتها

يروى لنا أبو زكريا بعد ذلك الاسطورة التالية : وقد كانت قبل ذلك غياضا عامرة بالوحوش والسباع والهوام ، فلما اتفقوا على عمارتها امروا مناديا ينادى الى من بها من الوحوش والسباع ان «اخرجوا ، فانا أردنا عمارة هذه الأرض» .

وأجّلوا لها ثلاثة أيام . وبلغنا انهم راوا بها وحشا تحمل اولادها في افواهها خارجة منها فكان ذلك مما رغبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وانشائها ، ثم انهم اطلقوا فيها النيران واحرقت النيران ما عليها من أشجار ، وقد عمدوا الى اصول تلك الاشجار ودوحها ، فغسلوها ، فصاروا يدفنون الجيش تحت اصول تلك الاشجار . فلما جنهم الليل طرقت الخنازير تلك الاشجار فصاروا يحفرونها حتى اتت على آخرها حيث شمت ريح ذلك الجيش ، فلما أصبحوا وجدوها كلها مقتلعة .

هذه هي الظروف التي تأسست فيها تاهرت .

نحاول الآن ان نشرح لماذا اختار عبد الرحمن بن رستم هذا الموقع لبناء حاضرته لنلاحظ اولا ان ناحية السرسو قد سكنت منذ أقدم الاحقاب ، ومما يدل على انها سكنت منذ عصر ما قبل التاريخ الصور الصخرية التي عثر عليها في كاف بوبكر ، والهياكل العظيمة البشرية وما وجد من آثار في كولو مناتا (سيدي حسني الحالية) والمقبرة الميغاليتية الموجودة بمشرع صفا .

ان منطقة تاهرت بقيت مسكونة في عصر الفتح الاسلامي ومما يدل على ذلك وقوع حادثين خطيرين فيها ، الاول رواه ابن خلدون ، هو : المعركة التي نشبت بين عقبة بن نافع الفهري (اق . هـ . 62/63 — 683) وبين أمراء البربر في ناحية تاهرت التي كانت مسرحا لانتصار القائد العربي .

الحادث الثاني رواه ابن الاثير وهو وصول محارب من جند ابن الاشعث عامل افريقية الى تاهرت ، وكان هذا المحارب يدعى ابن شاجح انتقض على ابن الاشعث ولجأ الى تاهرت حيث — كما يقول ابن الأثير — بلغت عدة عسكره عشرين الفا .

ان هذه المنطقة التي اختارها عبد الرحمن بن رستم سبقه اليها قوم اسهموا في تنمية قيمتها ويمكننا ان نتساءل لماذا اهمل عبد الرحمن بن رستم المدينة العتيقة الواقعة قريبا من تيارت

الحالية ، والتي كانت محصنة بقلعة وبجدارين ضخمين . وكانت تتمتع بموقع حصين ممتاز ليستقر على مسافة ثمانية كيلومترات غربي المدينة القديمة ؟ قد نسلم بأن الامير الرستمي الأول الذي كان يهدف الى المزيد من النفوذ والاعتبار الشخصي اختار موقعا بكرا جديدا لم يسبق اليه ليؤسس فيه عاصمة املا في تخليد ذكره كما صنع سلفه من قبل عقبة بن نافع المؤسس لمدينة القيروان وادريس الاول المختط لمدينة فاس ، ولكن هذا التعليل لا يشرح الا شرحا جزئيا اختيار الموقع . ونحن نميل — مع جورج مارسى الى الظن ان هذا الاختيار سببه انشغال البال بهدف عملي هو اشبه باهتمام المهندسين المعماريين البناة للمدن الحديثة ، وهو — بشكل خاص — أقرب الى رغبة المسلمين المعنيين بتشييد المدن والامصار ، وهي رغبة التقرب من الماء وتزويد سكان الحواضر ، حقيقة بينما لاتتلقى المدينة البيزنطية الرى الا من واد صغير مؤقت تمده عين الطلبة بالماء كانت تاهرت الرستمية غنية بالماء كما يذكر البكرى ذلك في الفقرة التالية : «وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه . وهو في قبليها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تأتش ، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها» .

ان هذا الموضع الريان لم يكن في الواقع خاليا تماما من السكان بل كان ملكا لطائفة من الاسر المراسية والصنهاجية ، ان البكري الذي افادنا بهذا الخبر الاخير يزيدنا بيانا في قوله : ارادهم عبد الرحمن على البيع ، فأبوا فوافقهم على ان يؤدوا اليهم الخراج من الاسواق ويبيحوا لهم بنيان المساكن ، فاختلطوا وبنوا .

«وأم عبد الرحمن بن رستم الصلاة يوم الجمعة الذي اعقب قدومه ووقع هذا الاجتماع في الهواء الطلق ، ووسم بحادث كاد يكون له عواقب وخيمة ، قال البكري في هذا الصدد : فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على اسد ظهر فيه . وقتل هناك . فقال عبد الرحمن بن رستم : هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب ابدا ، وابتدا وامن تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا او قطعوا خشبة من تلك الشعراء وكتب ابو زكريا من جهته بصدد بناء المسجد ثم انهم عمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما ارادوا ان يبنوها انتخبوا اربعة امكنة واقترعوا عليها ايها يجعلونه للمسجد الجامع .

وبعد تأسيس مسجدها صارت تاهرت مسرحا للأحداث التالية : الاسهام في الثورة على عمر بن حفص هزار مرد وبيعته اماما للرستميين والتدابير التي اتخذها قبل وفاته .

ب — اسهام عبد الرحمن بن رستم في الثورة على عمر بن حفص هزار مرد عامل افريقية :

سنة 768/151 ثار بربر طرابلس على عامل افريقية عمر بن حفص هزار مرد وانتصروا على الجنود التي ارسلها الوالي لمحاربتهم بعد استيلائهم على طرابلس وواصلوا مسيرتهم حتى ضربوا الحصار على مدينة القيروان .

ولما راى البربر الذين كانوا ساكنين في الجهة الاخرى من الاقليم هذه الحوادث بدأوا يتحركون وجمعوا اثني عشر عسكرا جندوها منهم ، وظهروا في ان واحد تحت اسوار طبنة ، وضربوا الحصار فيها على عمر بن حفص وكان من بينهم ابو قرة من تلمسان ومعه اربعون الف محارب ، وعبد الرحمن بن رستم بجيش قدره بعضهم بخمسة عشر الف مقاتل ، وبعضهم بستة آلاف محارب . اما عمر بن حفص الذي لم يكن معه سوى خمسة عشر الفا وخمسمائة مقاتل فقد اصر — رغم ذلك — ان يخوض المعركة ، ولكن مستشاريه صرفوه عن ذلك . فعرض عمر اذ ذاك على ابي قرة مبلغا عظيما من المال قدره ابن خلدون بأربعين الف درهم ، وابن الأثير بستين الف درهم فلما رفض ابو قرة قبولها عرض عمر بن حفص جزاءا من هذا المبلغ على اخى ابي قرة فقبل هذا هبته . ولما تفرق عن ابي قرة جنوده تقهقر ، وعند ذلك حمل عمر بن حفص بجيشه على عبد الرحمن بن رستم الذي كان في تهوذة ، فانهزم عبد الرحمن ، والتحق فورا بتاهرت

ج — بيعة عبد الرحمن بن رستم :

ذكر ابو زكرياء والدرجيني ان ابن رستم بويع بالامامة في تاهرت سنة 776/160 — 777 او في 778/162 — 779 — اما ابن الصغير المؤرخ المعاصر لبني رستم فقد بين لنا من جهته الاسباب التي ادت الى انتخاب عبد الرحمن بن رستم اماما .

قال : « لما نزلت الاباضية مدينة تاهرت وارادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم فقالوا : قد علمتم انه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في احكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ، ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي اليه زكاتنا ويقسم فينا . وقالوا بعد ما تشاوروا : ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه . وقد كان الامام ابو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه امركم فان عدل فذلك الذي اردتم ، وان سار فيكم بغدر العدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه » فأجمعوا رايهم على ذلك ، ثم نهضوا اليه بأجمعهم وقالوا : يا عبد الرحمن رضيك الامام في ابتدائنا ونحن الان نرضى بك ، ونقدمك على انفسنا ، فقد علمت انه لا يصلح امرنا الا امام نلجأ اليه في امورنا ، ونحكم عنده في ما ينوب من اسبابنا . فقال لهم : ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه لتستطيبوا الي ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم » .

فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك ، وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم ، وقدموه على انفسهم ، والقوا اليه بأيديهم .

د ـ التدابير التي اتخذها عبد الرحمن بن رستم قبل وفاته .

ذكر ابو زكريا انه لما حضرت الوفاة عب الرحمن رحمه الله جعل الامامة شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، احدهم مسعود الاندلسي ، وكان فاضلا فقيها ورعاً من شيوخ المسلمين ، وابو قدامة يزيد بن فندين اليفوني وعمران بن مروان الاندلسي وعبد الوهاب بن عبد الرحمن وابو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي ومصعب ابن سدمان .

وقد ذكر الدرجيني كل الاشخاص الذين ذكرهم ابو زكريا باستثناء الاخير .

2 ـ امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن :

(168 ـ 784/208 ـ 823)

الاحداث التي وسمت بها امامة عبد الوهاب هي : بيعة عبد الوهاب ـ عقد السلم بين بني رستم وبين عامل افريقية ـ قدوم جيش من افريقية الى تاهرت ـ الافتراق الاول ـ مقاومة الواصلية ـ سفر عبد الوهاب الى جبل نفوسة وحصار مدينة طرابلس ـ الافتراق الثاني .

ا ـ بيعة عبد الوهاب :

راينا ان عبد الرحمن بن رستم جعل الامامة شورى في ستة نفر لتعيين خلفه ولما توفي اجتمع الستة نفر لانتخاب الامام الجديد ولكنهم اختلفوا في ذلك ، اراد بعضهم ان يرشح للامامة مسعودا الاندلسي . واراد غيره ان يعين عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، فمكثوا حوالي شهر يديرون الرى فيما بينهم . ثم ان العامة مالت الى مسعود . فبادروه ليبايعوه فهرب لهم واستخفى ، ولما بقي مختفيا بادر اهل الشورى لتوليه عبد الوهاب ، قال ابو زكريا : « لما سمع مسعود بتركهم لمبايعته وارادتهم مبايعة عبد الوهاب خرج مبادرا ليكون اول من يبايع عبد الوهاب هو » . وقال الدرجيني : لما اراد الناس مبايعة عبد الوهاب تقدم مسعود الاندلسي ليبايعه ، فعارضه ابن فندين واصحابه القول ، فقالوا : نبايعه على شرط ان لا يقضي امرا دون جماعة معلومة ، فقال لهم مسعود : لا نعلم في الامامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فترك ابن فندين واصحابه الشرط ، فتقدم مسعود فبايع عبد الوهاب وبايعه الناس بعد ذلك بيعة عامة .

هذه هي الظروف التي بويع فيها عبد الوهاب بالامامة .

ب ــ عقد السلم بين ابن رستم ووالي افريقية :

يخبرنا ابن خلدون ان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت رغب سنة 787/171 ــ 788 في موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم ، ويضيف قائلا : ان روح بن حاتم لما تلقى هذا الاقتراح قضى القضا الاخير على شوكة البربر فاستكانوا للغلب واطاعوا للدين . فضرب ألاسلام بجرانه .

ج ــ قدوم جيش من افريقية :

قال ابن عذارى : ان هرثمة والى افريقية زحف بجيش كثيف حتى نزل تاهرت ، فخرج اليه ابن الجارود الذي كان حكم القيروان سبع سنين ، فهزمه هرثمة ، واضاف ابن عذارى قائلا : وطاعت البربر لهرثمة وانصرف راجعا الى القيروان .

د ــ الافتراق الاول :

يقول ابن الصغير : ان سبب الافتراق الاول هو ان القبائل البدوية مثل زناتة وسدراتة تعودت الانتجاع في ضواحي مدينة تأهرت في اشهر الربيع ، وفي سنة افتراق اجتمعوا ببعض الوجهاء وعليه القوم فأطلعوهم على تذمرهم من ابتزاز القاضي وصاحب الشرطة وصاحب بيت المال الأموالهم ، ورغبوا اليهم في ان يطلبوا من الامام ان يعزلهم وسيتعيض عنهم بغيرهم فاجابوهم الى طلبهم . فاستقبلهم الامام وطلبوا اليه ان يعزل الموظفين الثلاثة .

فقال لهم : اصنعوا ما بدا لكم وولوا واعزلوا من تريدون وبعد انصرافهم جاء جلساء الامام للاجتماع به ، واقنعوه بأن البدو اذا تم لهم عزل الموظفين الثلاثة لا يلبثون ان يهاجموا الامام نفسه ، ونصحوا له ان يشركهم في الاجتماع بالبدو . فلما اجتمعوا أعاد البدر المطالبة بعزل الموظفين ، فأجاب جلساء الامام بأن عزلهم في حاجة الى اقامة الدليل وانه يكفي ان يخبر اولو الأمر بأكلهم اموال الناس بالباطل او بتقرير من قبل المتهمين لهم . فأفحم البدو وقالوا : ما هكذا كان عقدنا مع الامام بالامس ، ما هو الا راى حدث اوامر ابرم ، ثم خرجوا من المدينة وتوجهوا الى الكدية المعروفة بكدية النكار ، وحلفوا انهم لن يدخلوا المدينة الا ان يعزل من طالبوا بعزله ويحاكم الامام عبد الوهاب على مرأى ومسمع من الناس ، فزحف عبد الوهاب بجيشه عليهم وهزمهم .

وعلى حسب قول ابي زكريا والدجيني ان المحرض على الثورة هو يزيد بن فندين احد رجال اهل الشورى الذين عينهم عبد الرحمن بن رستم ، اغتاظ يزيد فندين لعدم توليته الامامة . آثر عبد الوهاب بها طمعا في ان هذا يحابيه لما بينهما من قرابة ، ولم يعهد عبد الوهاب اليه بأي شيء من شؤون الحكم ، فصار ابن فندين ينتقصه ويزعم ان ولاية عبد الوهاب اسندت اليه على شرط ان لا يقضى دون جماعة معلومة . فقررت جماعة المسلمين ان تعرض القضية على مشايخ الاباضية في مكة المكرمة .

واجاب هؤلاء بان الشرط في الامامة وهو ان لايقضي الامام امرا دون جماعة معلومة مخالف لعرف المسلمين . كان ذلك ايضا راى احد المشايخ من مصر يدعي شعيب بن المعروف الذي اعتزم الرحلة الى تاهرت ، ولما وصل اليها ذهب للقاء الامام واستصوب رايه . ثم توجه نحو ابن فندين وحاول ان يصنعه بمسالمة عبد الوهاب ، ولكن ابن فندين واصحابه اطمعوه في الامارة فانحاز اليهم وآزر ابن فندين واصحابه على الامام ، وتسمّى المخالفون للامام بالنكاره ظهارهم انكار امامته ، وسموا ايضا بالنجوية ، حاول الفكار اغتيال عبد الوهاب .

سلموا له تابوتا تم الاتفاق على ان يحتفظ به وديعة لهم عنده . وضعوا فيه شخصا سيفه معه لقتل الامام . راى عبد الوهاب في سلوكهم ما يثير الارتياب ، فأحبط مؤامرتهم ، وجرى بالقتل من اختبأ في التابوت وبيت الفتك بعبد الوهاب .

وانتهز النكار فرصة عياب الامام من المدينة وحاولوا الدخول فيها ولكن افلح بن عبد الوهاب صدهم عن ذلك بقوته وشجاعته ، وقتل في المعركة ابن فندين وكثير من اصحابه .

ثم ان شعيب بن المعروف — لما انهزم القوم — هرب الى مدينة طرابلس . ثم ان بقية اصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل انسحبوا من المدينة واجتمعوا بكدية سميت كدية النكار ولم يرعوُوا عن كيدهم وباطلهم ، فلما ظفروا بميمون بن الوهاب ومثلوا به ، فجمع الامام جيشا وزحف عليهم لقتالهم وهزمهم .

هـ — محاربة الواصلية :

احس الواصلية ببعض الفرقة في صفوف الاباضية ، فانتهزوا الفرصة واشتدت حركتهم وكانوا على مذهب المعتبرية انسحبوا من تاهرت والتحقوا بالجبال المجاورة لها ، واعلنوا معارضتهم للامام ، وكان من بينهم شاب شجاع طويل القامة بطل لايقاوم له شيء ، وكان ابن سيدهم وعمدتهم ، وفيهم رجل منتحل للمناظرة .

وجرت بينه وبين الامام مناطرات كثيرة ارسل عبد الوهاب الى اهل نفوسة يطلب منهم المعونة ، فأرسلوا اليه اربعة رجال اشتهروا بالعلم والشجاعة ، فكان مهدي من بينهم مشتهرا بفن المناظرة ، ولما تعارض الشاب المعتزل انتصر عليه مهدي ، وبعد ذلك قتل الواصلية تقتيلا .

و — رحلة عبد الوهاب الى جبل نفوسه وحصار مدينة طرابلس :

اراد الامام عبد الوهاب المسير الى الحج ، فمضى متوجها الى جبل نفوسة ، فقالوا له : يا امير المؤمنين لسنا ندعك تمضي مخافة عليك من المسودة ان يأخذوك ويحبسوك . فتتعطل امور المسلمين وحدود الله » . فأرسل الامام رسلا الى خوانه من اهل المشرق ، وكان

المقدم في ذلك العصر في الفضل والعلم والورع ابا عمرو الربيع وابن عباد ، فاجاب الاول : «ان من كان مثلك في العناية بامور المسلمين وتجمل اما نتهم ، وخاف على نفسه من المسودة ان يفتكوا به ينبغي له ان يستأجر من يحج عنه ويحافظ على حياته . لان امان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه» .

فعدل عبد الوهاب عن الحج ، واقام في جبل نفوسة سبع سنين ضرب الحصار اثناءها على مدينة طرابلس

ز ـ الافتراق الثاني :

حسبما ذكر ابن الصغير وقع الافتراق الثاني في ولاية عبد الوهاب الذى يدعوه ابن الصغير افتراق هوارة . وقع للاسباب التالية : انه كان لأحد رؤساء البربر ابنه جميلة خطبها لنفسه رجل من الأوس فأحابوه لذلك .

ولكن رجلا من قبيلة هوارة معاديا للاوس ذهب للقاء الامام وبين له ما قديناله من الفوائد في مصاهرة لواتة . وحثه على ان يخطب الفتاة الجميلة ، فامتثل عبد الوهاب لنصحه فخطبها ورضى اهلها به زوجا لأبنتهم ، ولما علم رئيس الاوس بذلك قال : اختطف منى بمناوراته المعادية فتاة خطبتها لأتزوجها ، ورضى اهلها بمصاهرتي فانتزعها منى بسلطانه ، فلا بقيت بأرض هوبها .

فارتحل هو واشخاص من قبيلة حتى نزل بوادى هوارة وبينه وبين المدنية قرابة بضعة اميال .

حمل عبد الوهاب على عزيمة وانتصر عليه بعد المعركة ضروس وحسبما ذكره ابو زكريا والدرجينى ان الذي اثار الافتراق الثاني هو خلف ابن السمح بن عبد الاعلى الوزير الاسبق لعبد الوهاب الذى ولاه الامام على طرابلس بطلب من نفوسه .

ولما توفي السمح اتفق العامة من الناس على ان يولوا على انفسهم خلف ابن السمح من دون ان يستشيروا الامام . وهذا رغم معارضة الوجهاء لهذا التعيين ، فلما علم عبد الوهاب بذلك ارسل كتابا الى نفوسه يذكر لهم فيه ان توليتهم لخلف غير شرعية وانه لاينطر اليها بعين الرضى ، وارسل رسله الى خلف وحملهم كتابين اليه ، احدهما فيه عزل خلف . وفي الآخر توليته عاملا . وامره ان يسلموا له اولا الكتاب الاول وينطروا ماذا يكون موقفه منه .

فان قرأه واعتزال عن امور المسلمين واطاع امامه ولم تكن له رغبة في الامارة دفعوا له الكتاب الثاني الذي فيه توليته ، فبعد اطلاعه على الكتاب الاول الذي فيه عزله ابي الاعتزال واعتزوا ستكبر . وولي عبد الوهاب ابا الحسن بن ايوب عاملا على جبل نفوسة ، وتوفي ابو

الحسن بعد توليته بقليل . وأرسل الامام الى نفوسه ان يختاروا افضلهم وولاهم بأمور المسلمين يسمونه له فيستعمله عليهم . فاختاروا ابا عبيدة ، فأمره الامام بقبول الامارة فامتثل للامر مكرها . فلما سمع خلف بتولية ابي عبيدة ثاروا ستكبر واطلق الغارات على نفوسه انصار العامل الجديد ونشبت معركة بين الفئتين وامتد لهيبها الى موت خلف الذي توفى في ولاية افلح .

3 ـــ امامة افلح بن عبد الوهاب :

ان جماعة المسلمين لما توفى عبد الوهاب بتاهرت اتفقوا باجماع على تولية افلح الامامة خلفا لابيه يوم وفاة عبد الوهاب . تلقب افلح بالخليفة وبقي اماما مدة اثنين واربعين سنة استلفت الانظار بشجاعته وفرط حرارته في القتال في حياة ابيه كما تدل على ذلك الاخبار التي استقيناها من كتاب سير الأئمة وأخبارهم تأليف ابي زكريا يحي بن ابي بكر وكتاب ابن الصغير في ذكر بعض اخبار الأئمة الرستميين ، ذكر ابو زكريا ان الامام عبد الوهاب ـــ رضي الله عنه ـــ خرج ذات يوم لبعض حاجته ، فبادر يزيد بن قندين واصحابه اهل المدينة واستغفلوهم حين سمعوا بخروج الامام منها ليدخلوها عليهم على غفلة من اهلها . فقامت الصيحة في المدينة . فابتدرهم اهل المدينة من كل مكان فصادف ذلك افلح واخته تضفر رأسه . وقد ضفرت له شق رأسه وبقي الشق الآخر لم يضفر .

فأخذ سلاحه . فابتدرهم فوجدوهم على باب المدينة وقد كادوا يدخلون . فوقف افلح على بابها فنشبت احدى رجليه في الصفا ، فسلخ رجله الى العرقوب . وصار يتقى بدرقته ويضربونه حتى لم يجد في درقته ما يتقي به ، فرمى بها فعمد الى باب المدينة فاقتلعه ، فصار يتقي به ، فتمالك اهل المدينة ويزيد بن قندين مقابل افلح بن عبد الوهاب على باب المدينة ، وعلى راسه بيضتان يضرب الناس يمينا وشمالا ، فقصده افلح فضربه على ام رأسه بالسيف فقده والبيضتين والراس ، ونشب السيف في عمود الباب باب المدينة ، فخر بن قندين مريعا ، فأحس أفلح بن عبد الوهاب رضي الله عنه في يده بعض الشدة حين ضربه ، فظن ان ذلك كله (من صلابة) راسه ، فقال له : ما قوى راسك يا بربر(ى) يا مشؤوم » .

..... ـــ ثم ان اهل المدينة اجتمعوا بعدد كبير على ان يرد الباب كما كان اولا ، فلم يقدروا عليه ، فقالوا لافلح : اردد ما نزعت ، فقال : ردوا غيظي آنفا (كذا) ارد لكم :

وذكر ابن الصغير من جهته ان الامام عبد الوهاب اصابته ريح ، ولم يمكنه ان يسهم بنفسه في خوض المعركة التي نشبت بين جموع الامام وجيش بني اوس .

بقي الامام في محمل على راحلته ، ثم جالت الخيل ، وكان قتال شديد له غبار سد ما بين الخافقين ، *وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا واقلبا ، فاذا صرف نظره ذات اليمين راى فارسا* فيقول : ــ من الفارس هذا ؟ قد جعل الناس ، فيقال له : ابنك افلح ، واذا صرف بصره ذات اليسار راى مثل ذلك فيقول : من الفارس ؟ فيقال له : ابنك افلح ، قالوا واذا صرف بصره في القلب راى مثل ذلك فيقول : من الفارس ؟ فيقال له : ابنك افلح . قال : لقد استحق افلح الامامة .

وسمت امامة افلح بمتابعة قتال خلف بن السمح وارسال سفارة الى السودان وافتراق نفاث بن نصر ورحلة ابي اليقظان الى الحج

أ ــ متابعة قتال خلف بن السمح :

لما بلغ خلف بن السمح تعين عبد الوهاب وتوليه افلح الامامة شرع في شن الغارات على اصحاب ابي عبيدة عبد الحميد والى نفوسة ، فانتصروا على رجال خلف ، ثم ارسل ابو عبيدة الى خلف فقال له : « فاذ فعلت ما فعلت فلماذا الحرب ؟ كن في حيزك واكون في حيزي .

فأبى ذلك خلف ، وامر اصحابه ان لا يفتروا عن الغارات على اهل طاعة ابي عبيدة ورعيته ثم ان خلفا ارسل الى ابي عبيدة رسولين بخلع ولاية افلح واثبات ولايته هو ، فأبى ابو عبيدة ذلك ، واندلعت بعد ذلك معركة حامية الوطيس بين الفئتين ، فانتصر فيها جيش أبي عبيدة وانهزمت فئة المعتدين ، فأوهن الله شوكة خلف حتى مات فى غية بعدما تفرق عنه اكثر اصحابه ولم يعد خطرا يهدد كيان الامامة الرستمية .

ب ــ ارسال سفارة الى السودان :

ورد في كتاب ابن الصغير انه كان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة وكان وسيما جميلا جوادا سمحا ، وكان قد وفد (سفيرا) على ملك السودان بهدية من قبل افلح بن عبد الوهاب ، فأعجب ملك السودان بما رآه من هيبة ابن عرفة وجماله وفروسيته اذا ركب الخيل فهز يديه وقال لابن عرفة كلمة معناها : انت حسن الوجه حسن الهيبة والافعال .

ج ــ افتراق نفاث بن نصر :

بعد وفاة ابي يونس وسيم النفوسي عامل قنطرارة (في ناحية الجريد) استعمل افلح ابنه سعيدا عليها خلفا لابيه ارسل ابو يونس سعيد ابنه الى الامام ليتعلم عنده العلم في تاهرت هو

ونفاث بن نصر ، وقد شعر نصر بخيبة الأمل لما فاتته ولاية قنطرارة التي هو من اهلها وصار يطعن في الامام ويتهمه بأنه يضيع امور المسلمين ويزيد في الخلفة ويلبس الطرطور ويخرج الى الصيد ويصلي بالاباشير . ارسل اليه الامام ليأتيه ، فأبى وتمادى في استنقاص الامام ، وزعم ان الخطبة بدعة ، رحل نفاث الى بغداد ، وبعد قفوله منها اوى الى جبل نفوسة حيث كان هناك شرذمة من الناس على مذهبه حسبما ذكره ليفيسكي .

د ــ رحلة ابي اليقظان بن افلح الى الحج :

ان ابا اليقظان الذي اشتهر بالورع الح على ابيه الامام ليأذن له في الرحلة الى البقاع المقدسة لاداء فريضة الحج ، ذكر ابن الصغير ان رسل بني العباس عثروا عليه هنالك ، وكانوا قد ارسلوا الى الحجاز للبحث عنه .

القى القبض على ابي اليقظان وحمل الى بغداد وزج به في السجن ، ولما بلغ الخبر افلح ابن عبد الوهاب اغتم غما شديدا ، وقد ذكر ابن الصّغير أن أفلح قضى بقية حياته كئيبا لا يطيب له ذكر مقام ولا يهنأ له منام لما اصيب في قرة عينه ونخبة بنيه الى أن وافته منيته والناس عنه راضون وبحسن سيرته يتحدثون .

4 ــ امامة ابي بكر بن افلح :
(250 ــ 864/254 ــ 865 ــ 868 ــ 869)

ا ــ توليه ابي بكر اماما :

اجتمع الاباضية فور وفاة افلح في غياب أبي اليقظان سجين بغداد واتخذوا اخاه ابا بكر رئيسا لهم ، ولكن للمرة الأولى منذ تأسيس الدولة الرستمية لم تتلق تولية الامام الجديد رضى كل المشايخ الاباضية باجماع ، حيث ان أحدا منهم عبد العزيز بن اوزجعل يصيح بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسه ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم ، فيختارون من هو اتقى وارضى . ان منشىء هذه التحفظات ــ حسبما ذكره ابن الصغير هو ان الامام الجديد لم تكن له غيرة على المسائل الدينية كغيرة اسلافه عليها ، وانه كان مغرى بلذائذ الحياة ــ متساهلا في السماح لعبث الأهواء بنفسه ، وكذلك في اول ولاية ابى بكر كان الحكم في الواقع في قبضة محمد بن عرفة الذي ــ كما مربنا سابقا ــ كان قد ارسله الامام افلح سفيرا لدى ملك السودان والذي كان يتمتع بشعبية كبيرة لدى سكان مدينة تاهرت .

ومن جهة اخرى — كما ورد ذلك في كتاب ابن الصغير — كان محمد بن عرفة اخت أو بنت اجمل منه خطبها ابو بكر ودخل بها . وهذا حقيق بتوثيق عرى الصداقة بينه وبين محمد بن عرفة ، ان بني رستم وحاشية ابى بكر كانوا يحسدون محمد بن عرفة ، ولكنهم كانوا كاتمين لعدواتهم له ، وبقيت الحالة هكذا حتى رجع ابو اليقظان من الشرق .

ب — رجوع ابي اليقظان :

وقع التعارف بين ابي يقظان واخى الخليفة العباسي اثناء مقام ابي اليقظان في بغداد في نفس السجن ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة . ولما اعتلى رفيق ابي اليقظان عرش الخلافة بعد اغتيال الخليفة السابق اطلق سراحه وعامله معاملة كريمة واراد ان يوليه عملا في المشرق، ولكن ابا اليقظان ابى ذلك ، واستأذن في القفول الى بلده فأذن له الخليفة في الانصراف .

جاء في كتاب ابن الصغير ان ابا اليقظان كان يركب الى اعلى مسجد في المدينة فيجلس فيه ، فمن تكلم اليه من الناس العمال والقضاة واصحاب الشرطة نظر في ذلك نظرا شافيا وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم قدره او صغر ، ولم تأخذه في الله لومة لائم إذا كان يريد بعمله وجه الله — ويواصل ابن الصغير روايته لاخبار ابى بكر الامام واخيه ابي اليقظان قائلا : فاذا كان آخر النهار اتى باب اخيه ابى بكر ، فان وجده جالسا دخل عليه واعلمه بما حدث في يومه من خير وحكم . وان لقيه مشتغلا قال لمن علم انه يصل الى حرمته : **اقرأ على الامير السلام وقل له : اصبحت مدينتك اليوم هادية ، وامست هادية —**

ويزيدنا ابن الصغير بيانا فيقول : واذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى **اقصاها ، ويحكم في الامر الضروري ويأمرهم اذا حدث ان يوافوا داره .... فاذا كان بالغداة غدا الى باب اخيه ، فان وجده جالسا اعلمه بما كان في المدينة من حدث ان كان حدث او هدوء ان كان هدوء .»**

وهكذا بعد رجوع ابى اليقظان الى تاهرت كان اعظم وجوه تاهرت هم الامام ابو بكر ومحمد بن عرفة وابو اليقظان ، ولما كانت عناية ابى بكر بإدارة ملكة ضعيفة لم يلبث الصراع ان نشب بين محمد بن عرفة وبين ابى اليقظان . حسبما ورد في كتاب ابن الصغير ان محمد بن عرفة كان في دوى وصوت عال لا ينظر ابى اليقظان في حزبه ولا في طائفته ولا في الناحية التي هو بها ، ولا ينظر بهيبة له او اجلال او حذر منه ، وكان محمد بن عرفة اذا اتى باب ابى بكر لم يتحرج اكان ابو بكر في مجلسه ام في حرمته ، وبعكس ذلك كان ابو اليقظان يعيش عيشة تقشف ولم يدخل قط في منزل ابى بكر الا اذا اذن له اخوه بذلك ، ان طبيعتين بينهما هذا الاختلاف لم تلبثا ان تجابهتا . ان ابا اليقظان — الذي كان مؤيدا من قبل عشيرته وحاشية ابى بكر الامام — كان ينتظر ان تسنح الفرصة الاغراء ابى بكر — بمحمد بن عرفة .

روى ابن الصغير ان ابا اليقظان وجميع اخوان ابى بكر واعمامه كانوا لا يدخلون على ابى بكر الا باستئذان : فاجتمعوا به يوما فقالوا له : انك ذاهب ونحن ذاهبون . قال : وكيف ذلك ؟ قالوا له : ما نحسب انك تعلم مجيء ابن عرفة اذا جاء فيمن يجيء . ولا انصرافه اذا انصرف فيمن ينصرف . ولا اجتماع الناس عند بابك اذا جاء ولا خلوه اذا انصره . فلما سمع ابو بكر قولهم اراد ان يعلم ذلك ، ففتح طاقا في اعلى قصره يقابل الناحية التي يأتي منها محمد بن عرفة ، فلما كان بالغداة جالسًا في الطاق اذ تحرك محمد بن عرفة من قصره ، فبادر الناس اليه من كل جانب ، واقبل وبين يديه امم وخلفه امم وعن يمينه امم وعن شماله امم حتى اتى الباب ، فنزل ابى بكر من طاقه الى مجلسه وقد هاله ما رأى ، ثم دخل محمد فخلا معه مليا ثم انصرف ، فصعد ابو بكر الى الطاق ، فاذا بالامم التي اقبلت قد انصرفت وبقي بابه خاليا ، فاضطرب ابو بكر اضطرابا شديدا مما رأى ، فعزم على الفتك به ، ومحمد بن عرفة في ذلك كله اسلم الناس صدرا واكثرهم له حبّا .

ج ــ مقتل محمد بن عرفة :

روى ابن الصغير ان ابا بكر ارسل الى محمد بن عرفة قائلا له : قد اردت الخروج بالغداة الى جنان الامير واردت الخلوة فيه والقيام به الى آخر النهار مع صرف الحشم عنى والعبيد . واحب ان تأتي بالغلس مفردا فنصطحب جميعا ، فامتثل محمد بن عرفة لارادة الامام فلما كان قبيل الصبح ركب محمد بن عرفة من غير ان يعلم احد من حاشيته وعبيده حتى اتى باب الامام ، وعلم ابو بكر بمجيئه ، فسارا جميعا حتى اتيا موضع منتزههما بجنان الامير فأقاما يومهما ذلك ، فلما غربت الشمس قال ابو بكر له : تعال نصلى المغرب ، فلما أحرم محمد بن عرفة اشار ابو بكر لغلامه ان : امض الى ما امرتك ، فضربه بحربة كانت بيده بين كتفيه ، فخر ساقطا ميتا ، فقال ابو بكر لغلامه : احمله على فرسه وركب فرسه ومشى بين يدى الغلام ، والغلام خلفه حتى اتى جبلا انقسم نصفين له هوة عظيمة ، فقال ابو بكر للغلام : القه في المهواة . فألقاه فيها ، والتحق ابو بكر بقصره ولما أبطأ محمد بن عرفة عن اهله ارسلوا رسولا يستقط خبره لعله في قصر الامير ، فقال لهم ابو بكر انه لم يره ، فبحثوا عنه حتى اتوا الموضع الذي كان فيه مصرعه .

فرفعوه الى اعلى الموضع ودفنوه ، ولحق الناس من الجزع مالم يلحقهم في قتيل قبله . وبعد هذا القتل بقليل نشبت في تاهرت حرب اهلية استمرت اكثر من سبع سنين

د ــ الحرب الأهلية :

كانت اهم مراحل هذا الحرب هي ثورة ابن الوالية ــ غارة العجم على حيّ العرب والجنود ــ الصراع بين العجم من جهة وبين العرب والجنود واصحاب ابى بكر من جهة

اخرى ــ استقرار ابن مصالة في تاهرت ــ الاشتباكات الناشبة بين هوارة ولواته ــ اعلان ولاية ابى اليقظان اماما على الرستميين .

1 ــ ثورة محمد بن الوالية :

لما اكد له عيونه ان الظروف مواتية صعد الى اعلى مكان في المدينة وامر بدق الطبول وبالثورة على ابى بكر . ولما اخبر ابو بكر بذلك قاد جيشه وزحف على العصاة ، فنشبت حرب ضروس بين الطائفتين .

2 ــ هجوم العجم على حي العرب والجنود :

اغتنم العجم اي الاجانب فرصة المعركة التي اندلعت نارها بين العرب والجنود وبين كتائب ابى بكر . وصمموا على الزحف على الحي الذي احتله العرب والجنود وعلى الاستيلاء على المدينة وعلى السلطان قاوم سكان هذا الحي العجم مقاومة عاتية ، وبعثوا رسولا الى العرب والجنود الذين كانوا يحاربون ابا بكر ليحذروهم من الخطر الذي يهدد اسرهم ومساكنهم . عقد العرب والجنود الصلح مع ابى بكر واصحابه

3 ــ الصراع بين العجم من جهة وبين العرب والجنود وأصحاب ابى بكر من جهة اخرى ــ

زحف العرب والجنود واصحاب ابى بكر على العجم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وبقي ابو اليقظان اخو ابى بكر ونفوسه على الحياد حتى اضرم العرب والجنود النار في حي فيه بيوت لنفوسة ، فانحازوا اذ ذاك الى العجم ، ولكنهم انهزموا . وبقي ابو بكر في قصره من غير ان يمارس الحكم .

4 ــ استقرار ابن مصالة في تاهرت :

اجبر العجم وابو اليقظان ونفوسة الذين انتصر العرب والجنود عليهم على مغادرة تاهرت . واستقر فيها محمد بن مصالة مع لواته وهوارة

5 ــ اشتباكات بين هوارة ولواته :

اضطرت هوارة ولواته الى مغادرة تاهرت بعد الاشتباكات التي نشبت بين الطرفين .

6 ــ اعلان ولاية ابى اليقظان اماما على الرستميين .

اتصل لواته الذين اخرجوا من تاهرت بأبي اليقظان ، والتحق به ايضا سكان تاهرت المخلصين لقضية وعدد كبير من الاباضية . واعلنت ولايته اماما على الرستميين .

5 ــ امامة محمد أبي اليقظان
(254 ــ 868/281 ــ 894 ــ 69 ــ 95) .

أ ــ وصف أبي اليقظان

يذكر ابن الصغير الذي عرف ابا اليقظان انه كان مربوع القامة ابيض الرأس واللحية وكان زاهدا ورعا ناسكا ، وكان اذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من ادم مستقبل الباب البحري . وله سارية تعرف به وجلس اليها . ولم يكن غيره يجلس اليها ، ويذكر ابن الصغير ايضا ان نفوسة الجبل كانت مفتونة بأبي اليقظان حتى انها اقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما اقامت النصارى عيسى بن مريم وان اكثرهم كان لا يحج الا باستئذانه وكان اذا ضرب سرداقة واتته وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطه ، وشأنهم التهليل والتكبير من اول الليل الى الفجر . فاذا اصلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الأرض فناموا .

ويذكر ابو زكريا ان نفوسه كانوا ينظرون الى باب داره كأنه باب مسجد . وكانوا يسهرون حوله لجراسته ، بعضهم يصلي ، وبعضهم يقرأ القرآن ، وبعضهم يتذكرون في علوم الدين وكان ابو اليقظان يسلك سلوك مستقيما ، وكان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، كما تدل على ذلك القصة التي استقيناها من ابن الصغير . قال : ومما يذكر عن ورعه وتقشفه ان رجلا يكني بأبي سابق كان خادما لأبي اليقظان ، وكان يتولى عكف فرسه . قال لى احمد ابن بشير قال لي ابو سابق : خرج ابو اليقظان يوما الى منزله الذي كان خارج تاهرت وابطأ في انصرافه الى ان دخل الليل قال ابو سابق : فحططت عن الفرس وربطته على مدرته ، وخرجت لاتي له بعلفه من عند حريف لي . فألقيته قد اغلق الباب . فملت الى بيت المال ففتحته واخذت منه علف الفرس . وعلقت عليه . ثم رجعت الى موضعي من القصر . واذا بأبي اليقظان قد افتقدني مرة بعد اخرى ، وكان يستريح الى ويسالني عن اخبار الناس . فقال : ما حبسك وما ابطأ بك فأعلمته خبر الحريف وعيبته الحريف ، ومجيئى الى بيت المال واخذى العلف منه فقال : هاه يا ابا سابق . والله لاقام محمد ولا اكل ولا شرب حتى تمضي وترد في بيت المال ما اخذته منه قال : فمضيت في ليلتي تلك حتى اتيت حريفي ، واخرجته من داره واخذت منه علف الفرس . ثم مضيت ونزعت المخلاة عن الفرس . فكلت سابقي واتممت ما اخرجت من بيت المال ورددته فيه . وعلقت ما بقي على الفرس ، ومضيت اليه فأصبته جالسا ينتظرني فقال : ما وراءك يا ابا سابق ؟ فأعلمته بما صنعت . فقال لي : احسنت اما الان فاجلس . ولمامات ابو اليقظان فكل شيءوجد له من العين في تركته سبعة عشر دينارا .

ب ــ مواصلة الحرب الاهلية :

لما ولي محمد ابو اليقظان الملك شرع في شن الحملات على تاهرت واستمر في قتال ابن مصالة سبع سنين من دون ان ينتصر احد الطرفين على الاخر . فطلب الامام الجديد

النجدة من اخوانه في جبل نفوسة . فأمدوه بالرجال والعتاد . ولما صار على راس جيش عظيم ، زحف على تاهرت واستقر عربي المدينة وارسل رسله الى سكانها مطالبا لهم بتسليم انفسهم . وكانوا قد سئموا من الحرب . فأوقفوا الحرب ، متأكدين من عفو ابي اليقظان . وشرعوا في تجديد بناء دار الامام التي هدموها من قبل . ولما تم بناؤها دخل ابو اليقظان المدينة .

ج ــ سطوة زوجة ابي اليقظان وابنه ابي حاتم في آخر ولايته :

حسبما ذكره ابن الصغير كان لأبي اليقظان زوجة تسمى غزالة وكانت مالكة لامورن وحشمه . وكان ابنه فتى شابا . وكان يجمع الفتيان الى نفسه ، فيطعم ويكسي . فلما كان في بعض الاعياد وابو اليقظان في قصره لم يحضر المصلي مع الناس حملته العوام على درقة ونادت بطاعته . فلما اتصل الخبر بأبي اليقظان قال لأمه : احذري يا غزالة فقد اصبح اليوم ابنك باغيا .

د ــ وفاة أبي اليقظان !

ذكر ابن الصغير ان ابا اليقظان توفي سنة 281/894 — 95 .

6 ــ انهيار الدولة الرستمية :

أ ــ ولاية ابي حاتم :

روى ابن الصغير ان ابا اليقظان مات وابناه جميعا غائبان : يقظان بالموسم وابو حاتم قد كان اخرجه ابوه في جيش مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل قد اقبلت من الشرق وفيها اموال طائلة . فبينا أبو حاتم في القوافل قد خرج اليها بلغة نعي ابيه . وذلك ان اباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان دون القبائل . فنادوا لاطاعة لأحد الا لأبي حاتم . فلما وصل ابو حاتم الى باب المدينة ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره . فما وصل المسجد الجامع الا وقت الظهر . فأصعدوه المنبر وبايعوه ... وحملوه على الايدي والاعناق حتى اوصلوه الى داره . ثم ارسلوا الى القبائل فبايعته . فلما تمت بيعة ابي حاتم خلت به عشيرته واخوته واعمامه وبنو اعمامه ومواليه ، فأحبوا ان يجعلوا له حجابا وهيبة . وابت العوام ذلك . وارادت الدنو اليه في كل الاوقات على ما كانت تعرف قبل امارته . وكانت مشايخ البلد من غير الاباضية قد استولوا عليه . منهم رجل يعرف بأبي مسعود وكان كوفيا فقيها بمذاهب للكوفيين . ومنهم شيخ يعرف بأبي دنون . وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفي . ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من اهل الفقه ولكن كانت له رئاسة في البلد ومحبة عند العوام .... وكان لأبي حاتم رجلان من خلاصته من اهل المدينة من اهل الحرب والنجدة وهما : محمد بن رباح ومحمد بن حماد وكاناهما أول من بايعه بالامامة . وكان جريئين بلغا الغاية

في الجرأة حتى قالا يوما لأبي حاتم ـــ وكان ابوه قد لامه على شيء : «خل بيننا وبينه نحن ندخل عليه فنقتله . ويصير الأمر اليك» . فاستنكر ابو حاتم قولهما . واتصل به انهما قد قالا لمشايخ اهل المدينة مثل ما قالاه في ابيه .

فخشي منهما على نفسه . فأمر بهما . فأخرجا من المدينة فثار أهلها عليه .

ب ـــ ثورة أهل تاهرت :

ارسل المبعد ان محمد بن رباح ومحمد بن حماد رسلا الى تاهرت للتنديد بما حل بهما من الظلم . ولم يزالا يرسلان رسولا بعد رسول الى من في المدينة من اخوانهما ويقولان لهم : ترضون ان يكون مثلنا ينفى من البلد بلا جناية كانت منا ؟ فاتفق اخوانهما هؤلاء على ان يرسلوا اليهما فيدخلوهما على رضى الراضي وسيخط الساخط . فما شعر ابو حاتم الا والتكبير عليهما في المدينة . ففزع لذلك وارتاع . وعلم انها لبست بدار قرار خرج من المدينة . وخرج معه من وجوه اهل البلد نحو مائة رجل .

ج ـــ زحف ابى حاتم على تاهرت :

ثم ان ابا حاتم ـــ لما خرج من المدينة ـــ اجتمعت لواته كلها اليه . فأعطى الاموال وحمل على الخيل . فاجتمعت قبائل الصحراء اليه ما عدا الحصن المعروف بـ تلاغمت وأهل الصفرية . فانهم مالوا الى المدينة . ثم جمع ابو حاتم جموعه وزحف الى المدينة من ثلاثة مواضع : من القبلة والمشرق والمغرب . ولم يتمكن من الدخول الى المدينة .

ولما راى أنصاره ان رجلا من اهل المدينة قتل ظلما اجتمعوا وقالوا : «نحن انما قمنا لمحاربة هؤلاء القوم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . واذا كان يقتل بيننا رجل بغير حق فامضوا بنا الى ابى حاتم لندخله يقتل القاتل واشياعه ويحكم فيمن بقي كيف يشاء» . وارسلوا بذلك الى ابى حاتم . فقال : «لا أفعل الا ان تدفعوا اليّ مشايخكم ومن اثار هذه الفتنة منكم . فاجتمع وجوه اهل المدينة وقالوا : «ان القبائل والاباضية لا يكفون عن حربنا ما لم يكن عندنا رئيس من الرستميين على المذهب الاباضي . وقد علمتم ان يعقوب بن افلح مصارم لابن اخيه منذ زمان . وان ابا حاتم منذ ولى ترحل يعقوب ونزل بزواغته . فلم يدخل الرستمية جمعا . ولا أعان ابن اخيه برأي ولا غير ذلك . فأرسلوا الى يعقوب بن افلح .

د ـــ ولاية يعقوب بن افلح :

لما اجمع أهل المدينة على يعقوب بن افلح وارسلوا اليه وادخلوه المدينة وعقدوا له بالولاية انكسرت شوكة الاباضية ودخل عليه جماعة منهم ورجعت اليه جماعة من لواته .

واستمرت الحرب بين يعقوب بن افلح وابن اخيه ابى حاتم . الا انها ضعفت وخمدت نارها .

هـ ــ الهدنة بين ابى حاتم وابى يعقوب :

لما نزل ابى يعقوب المزاننى بجميع مزاتة حول البلد ــ وكان رئيس القوم مشت اليه القبائل وقالوا : «لو عقدت الهدنة بين هذين الفريقين وحثثتم على قبولها الى مدة معلومة .....» .

سعي ابو يعقوب وبذل وسعه في ذلك حتى افلح في تحبيب السلم الى الفريقين . فعين كل طرف حكما يمثله في المفاوضة وانعقد الاتفاق بين الطرفين على ان يعتزل الحكم كل من ابى حاتم ويعقوب بن افلح مدة اربعة أشهر ليتمكن الخصوم اثناءها من التعايش والتزاور فما بينهم والاختلاف الى المدينة وضواحيها . كل ذلك في امن وسلام ووئام . فتم العقد على ذلك . واستعذب الناس حياة الأمن والاطمأنينة وراحة البال . وصاروا يودّون لو سيتتب الأمن والسلام الى الأبد .

و ــ وساطة محمد بن دبوس وأخيه احمد :

روى ابن الصغير ان الناس بينما هم ذات يوم في عيد من اعيادهم اقبل رجلان من المدينة لم يكن في البلد اذ ذاك اوسع منهما جاها ولا أكثر عشيرة ولا اطيب نفسا ، يقال لأحدهما محمد والآخر احمد . وكلاهما يدعى بابن دبوس . طلبا الى كل الناس الراغبين في السلم ان يصعدوا الى الكنيسة . وكانت دارهما تعرف بالكنيسة . ذكر ابن الصغير ان الناس جميعا استجابوا لدعوة الرجلين ويمموا شطر منزلهما ما عدا يعقوب وشيعته وبعض مشايخ معادين لأبى حاتم .

فلما اظلم الليل ركب محمد وأحمد فرسيهما وخرج قاصدين نحو ابى حاتم . فبينما هو في منزله وقصره في نهر مينة دخل عليه محمد واحمد وجماعة الناس فقالوا : قم فاركب الساعة» فخرج معهما وليس معه احد من عشيرته ولا من رجاله . فلم يصبح الا على باب المدينة وبادر اليه الناس اجمع .

ز ــ رجوع ابى حاتم الى تاهرت :

لما دخل ابو حاتم مدينة تاهرت حظى من قبل الناس جميعا بالحاوة والتقدير والتعظيم ، سواء كانوا من الاباضية او من غيرهم ، لأنه استشارهم جميعا لدى تعيينه الموظفين فيما يخص خطة القضاء وبيت المال والشرطة .

وهكذا ولى ابو حاتم قاضيا وأمينا لبيت المال ورجلين على الشرطة رضى الناس جميعا بولايتهما . وتمكن من اصلاح الأمور في المدينة . قال ابن الصغير : حمل الناس على الواضحة . وخاف النطف وامن البرىء وشردت السراق وقطاع الطريق وامنيت السبل ، ومشى الناس بعضهم الى بعض» .

ح ـــ مقتل ابى حاتم :

ذكر لنا ابن عذارى ان ابا حاتم قتله ابناء اخيه يقظان سنة 906/294 ـــ 907 . ويتفق ابو زكريا مع ابن عذارى في هذا الشأن لأنه ذكر ان دوسرة ابنة ابى حاتم التجأت مع احدى اخواتها الى الحجاني بعد مقتل ابيها وخيانة ابناء يقظان على الرغم من ان المؤرخين لم يذكرا اسباب مقتل ابى حاتم . ويمكن القول بان ابا حاتم طغي وتجبر في الفترة الأخيرة من امامته . ذكر ابن الصغير ان الرعية « نقموا على ابى حاتم اخذه ناسا بالتهمة وضرب السوط على الظنة »

ط ـــ آخر امام رستمي :

روى ابن عذارى ان يقظان ولي الامامة بعد مقتل ابى حاتم وقتله ابو عبد الله الشيعي مع جماعة من اهل بيته في شوال سنة 296/جوان ـــ جويليت 908 . وبه انقطع ملك بني رستم من تاهرت في هذا التاريخ .

وقد ذكر ابو زكريا من جهته ان ابا عبد الله الشيعي : أرسل رسله الى يقظان وبنيه ان : اخرجوا اليّ فلما قدموا عليه قال : كيف قتلتم اميركم وسلبتم لأنفسكم ملكه ؟ فأمر به وبنيه فقتلوا عن آخرهم .

واتفق هكذا المؤرخان ابن عذارى وابو زكريا على ان يقظان هو الذي كان اماما في تاهرت لدى وصول الفاطميين اليها . ولكن ابا زكريا اضاف ان يعقوب بن افلح لما سمع باقبالهم خرج من المدينة قبل وصولهم اليها بقليل . قال : وذكر بعض اصحابنا ان يعقوب ابن افلح لما سمع باقبال الحجاني خرج من تاهرت متوجها الى ورجلان .

وقد يتساءل المرء : ماذا كان شأن يعقوب في تاهرت ؟ اكان اماما ؟ ذلك ما يحتمل افتراضه . ألم نرى من قبل ان تاهرت كان لها ـــ في فترة من الزمن ـــ امامان : ابو حاتم ويعقوب بن افلح . وفي هذا الوضع كان ربما كان يعقوب مهيمنا على تاهرت لأن ابا زكريا اخبرنا ان يعقوب غادرها بزمن قليل قبل وصول الفاطميين اليها بينما كان يقظان فيها . قال

أبو زكريا : فأمر به وببنيه فقتلوا عن آخرهم ويمكن القول أيضا بأن تاهرت لم يكن فيها الا امام واحد . وهو يقظان الذي غادرها قبل وصول الجيش الفاطمي اليها بقليل .

والذي يدعونا الى الافتراض الثاني هو ان ابن عذارى لا يتحدث عن يعقوب بن افلح الذي لم يرجع الى الحكم بعد ما قام بتجربة فاشلة عنه ما كان على راس المجتمع الاباضى .

وقد رأيناه وهو يغادر تاهرت عند اقتراب الفاطميين فرارا منها بدل ان يقاتلهم او يتحالف معهم رجاء الاحتفاظ بملكه . وقد رأيناه أيضا وهو يأبى ان يلي الحكم الذي عرضه عليه اهل ورجلان اما يقظان — خلافا لما فعله يعقوب بن افلح — فقد امتثل لأمر ابى عبد الله الشيعي وذهب للقائه املا منه في بقائه اماما على المدينة .

وايّا ما كان فان ثم امرا لامرية فيه وهو ان تاهرت لم تقع منها اي مقاومة للجيش الفاطمي . وذلك لاسباب شتى .

اولا — ان جماعة الاباضية كانت منقسمة الى ثلاثة احزاب احدهما كان مؤيدا لدو سرة ابنة ابى حاتم التي كانت مصممة على الثأر من قاتل ابيها ، ولو بالاستعانة بالفاطميين قال ابو زكريا : وعدته (الحجانيّ) من نفسها ان هو اخذ بثأر ها ان تتزوجه .

الحزب الثاني هو حزب يقظان وابنائه .

والحزب الثالث كان على رأسه يعقوب بن افلح .

ومن جهة أخرى ان عناصر الشعب التي لم تكن تدين بمذهب الاباضية قامت بدور خطير في شأن الملك فقد اغتنمت فرصة ضعف الرستميين للاستلاء على الحكم في تاهرت .

يقول ابو زكريا : فلما كان (الحجاني) بقرب منها خرج اليه وجوه اهلها من المخالفين والشيعة والواصلية ومن بها من الصفرية وتلقوه . وشكوا اليه الامارة ووعدوه العون من انفسهم على جميع الرستميين وأمروه باستئصال نأفتهم وتوهين شوكتهم .

امارات العلوين في المغرب الاوسط ايام الرستميين . لقد نشأت دولة الرستميين في مناطق الهضاب العليا من جنوب الجزائر وشملت السهوب الصالحة للرعى وبعض المناطق الواقعة جنوب حوض وادى شلف . اما معظم اراضي التل الزراعية . فانها كانت تابعة لامارة بني يفرن الصفرية عربا ، ولامارة مغراوة في ناحية شلف على الخصوص .

وقد ضعف شأن الصفرية بعد وفاة ابى قرة المغيلي . فملكت مغراوة تلمسان . ثم قدم ادريس الاكبر بعد بثّ دعوته بالمغرب الاقصى . فدخل تلمسان صلحا ، سلمها اليه محمد ابن خزر المغراوي تقديرا واحتراما لنسبه الشريف . وبايعه بالامامة . (789/173) وبنى ادريس مسجد اقادير . ثم غادرها في اوائل سنة 790/174 ، وترك عليها محمد بن خزر وكان لادريس اخ يدعى سليمان قيل انه نجامعه في معركة فخ (786/169) . فلما بلغه نجاح دعوة اخيه بالمغرب الاقصى قدم من المشرق ثم استقر بتلمسان ، بعد وفاة اخيه بقليل . وبايعه اهلها ، وقبائل المناطق المجاورة . ولما توفي خلفه ابنه محمد . وقيل ان سليمان لم يقدم الى المغرب ، وانه قتل في معركة فخ ، وان ابنه محمد هو الذي قدم الى تلمسان ، وبايعه اهلها بالامارة . وفي عهده استفحل امر ابن عمه ادريس الثاني ، فاستدعاه محمد ليساعده على اخضاع بعض القبائل في ناحية تلمسان ، وعلى توسيع امارته من الجهة الشرقية فأجاب ادريس طلبه ونهض متوجها الى المغرب الاوسط (815/199) . وتمكن الاميران من بسط نفوذ الامارة في مناطق عديدة . وخصوصا في ناحية شلف وما جاورها . فاتصلت حدود الامارة بحدود دولة الاغالبة . وعقد صلح مع هؤلاء عينت فيه الحدود بين الدولتين . ثم عاد ادريس الثاني الى عاصمته (818/202) تاركا ابن عمه محمد بن سليمان على امارة تلمسان .

هذا ، ويبدو ان نجاح دعوة الادارسة وأبناء عمهم السليمانيين في شمال المغرب الاوسط كان ناتجا عن عوامل عديدة . منها تراجع مذهب الخوارج الصفرية في هذه المنطقة . وتقلص ظل اتباعه من مغيلة — وانتقال زعامة زناتة إلى مغراوة وحرص القبائل الزناتية في هذه الناحية على الانضمام الى مذهب سياسي متميز عن نظام الخوارج من جهة ، وعن نظام العباسية من جهة اخرى . الامر الذي يمكنهم من الحفاظ على استقلالهم السياسي ومن تجنب الخضوع لسلطة كل من الرستميين والاغالبة .

ويلاحظ في هذا الصدد ان مدينة تلمسان اصبحت منذ قيام حركة الخوارج في المغرب — قاعدة تحتل مكانة خاصة لموقعها الاستراتيجي الهام ، وللدور الكبير الذي صارت تلعبه — سواء في المجال الاداري والعسكري والتجاري او في مجال التطور المذهبي ، بعد حركة الفتح الاسلامي كنقطة اتصال بين المغرب الاقصى وبلاد افريقية .

فغدت بمثابة عاصمة للمناطق الشمالية من المغرب الاوسط .

ويضاف الى ذلك ان موانى تنس وهنين ورسكول (وهي رشقون الحالية) كانت أيضا كثيرة العمران وقد استوطنها في القرن الثالث الهجري تجار اندلسيون ، فازدهرت وقويت العلاقات التجارية من القطرين .

وقد عين محمد بن سليمان ابناءه على الاعمال التابعة لتلمسان فأقام ابنه عيسى بأرشكول ، وابنه ادريس بناحية جراوة الواقعة في الساحل قرب مصب وادي ملوية . وكذلك ابنه ابراهيم بتنس وابنه الحسن باحدى المناطق المجاورة لبلاد الرستميين .

ولما توفي محمد بن سليمان بقي كل واحد من ابنائه اميرا على منطقته . ثم خلفه فيها ابناؤه فأصبحت هذه المنطقة عبارة عن امارات صغيرة . لا تتجاوز في بعض الاحيان المدينة الواحدة وما وإلاها من الاراضي ومن جهة اخرى ، فقد انضاف الى ابناء محمد بن سليمان امراء آخرون من العلويين استقروا في المناطق الشرقية ، فكانت ناحية متيجة خاضعة لسلطة ابناء محمد بن جعفر بن الحسن وكانت امارة هاز الواقعة شرقي متيجة ــ في اتجاه المسيلة ــ تابعة لحمزة بن لحسن بن سليمان بن الحسن بن علي الذي اسس سوق حمزة . (البويرة حاليا) فكانت هذه المدينة اقصى ما وصلت اليه امارات العلويين بالمغرب الاوسط .

وقد عرفت هذه الامارات كلها تقدما ما ملحوظا خلال القرن الثالث الهجري في المجال الاقتصادي والمعمري حيث ازدهرت المدن ونمت التجارة وكثر الرخاء وعم الامن . ومن المدن التي أسسها هؤلاء العلويون أيضا سوق ابراهيم ، في ناحية شلف . اسسها بعض احفاد ابراهيم بن محمد بن سليمان ، ومدينة جراوة ، قرب وادي ملوية على مسافة ستة أميال من البحر . اسسها ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان سنة 872/259 . وكذلك تنس الجديدة ووهران ، ويروي ان تأسيسهما كان على يد بعض التجار الاندلسيين . الاولى سنة 875/262 ، والثانية سنة 802/290 .

وهكذا فإن امارات العلويين هذه قد جمعت شتات معظم اهالي شمال المغرب الاوسط ، وحققت ترقيتها وتقدمها في نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة الرستمية تمثل الكيان الذي انصهرت فيه كثير من قبائل البتر وزناتة البدوية القاطنة في جنوب المنطقة . فكانت كل هذه المجموعات نواة لجزء كبير من الجزائر الحالية .

7 ــ الجزائر الشرقية في عهد الرستميين :

تعاقب ولاة على حكم الجزائر الشرقية اثناء فترة ما بين تأسيس تاهرت ووصول الفاطميين اليها .

وابتداء من سنة 800/184 حكمها امراء دولة بني الاغلب .

أ ــ الجزائر الشرقية في عهد الولاة :

راينا كيف اضطر محمد بن الاشعث الخزاعي (143 ــ 761/148 ــ 766) عبد الرحمن بن رستم الى مغادرة القيروان والى اختطاط مدينة تاهرت . اما الحوادث الاخرى التي وقعت في عهد ولاة افريقية بعد ابن الاشعث فهي :

توليه الاغلب سالم عامل طبنة على راس افريقية ـــ المعركة التي نشبت بين ابي قرة وعمر بن حفص عامل القيروان وبين عبد الرحمن بن رستم وعمر بن حفص ـــ السلم التي تم عقدها بين ابي حاتم والى افريقية وبين بني رستم ـــ تعيين ابراهيم بن الاغلب والي طبنة اميرا على افريقية . اثناء غياب محمد بن الاشعث استولى عيسى بن موسى على حكم القيروان مدة اشهر . فأمر المنصور الخليفة العباسي الاغلب ابن سالم بوضع حد لجور عيسى بن موسى . وبعد انتصاره عليه عين بن سالم عاملا على افريقية ، واغتنم الحسن بن حبيب فرصة وجود الاغلب بن سالم في الزاب فاستولى على القيروان فعهد الخليفة العباسي الى احد رجاله بحثه على الاستسلام . ولما اخفق الرجل في اقناعه حمل هذا عليه وهزمه ، واستولى الاغلب بن سالم من جديد على القيروان فلجأ الحسن بن حبيب الى تونس وجند فيها جيشا وتوجه الى القيروان فلقى كلا الخصمين حتفهما في المعركة التي نشبت بينهما .

تحدثنا في دراستنا حول التاريخ السياسي للدولة الرستمية عن المعارك التي نشبت بين ابي قرة وعمر بن حفص وبين هذا وعبد الرحمن بن رستم ، كما تحدثنا عن السلم الذي تم عقده بين ابي حاتم وبني رستم .

اما توليه ابراهيم بن الاغلب والى طبنة على راس افريقية فقد تمت في الظروف التالية . ان محمد بن مقاتل بن حكيم العكي ولي افريقية وقدم اليها ، فأقام بالقيروان ولم تحمد سيرته . فثار عليه عامله بتونس ، فانخذل العكى . فقام بنصرته عامل الزاب ابراهيم بن الاغلب الذي امر الرشيد بولايته على افريقية . وعزل ابن مقاتل ، واستقل ابراهيم بالامارة . وهكذا اسس ابن الاغلب الدولة الأغلبية سنة 800/184 .

ب ـــ الجزائر الاغلبية :

ان اهم الاحداث الجديرة بالذكر في العهد الاغلبي هي :

الجملة العسكرية التي سنها محمد الثاني في الحضنة ـــ فتك ابراهيم الثاني بأعيان الزاب وبلزمه وصول ابي عبد الله الشيعي الى بلاد كتامة .

1 ـــ الحملة العسكرية في الحضنة :

نشبت حملة عسكرية ، في عهد محمد الثاني ابن احمد ابي الغرانيق (250 ـــ 864/261 ـــ 875) ، في الحضنة بقيادة محمد ابي حفاجة ، انتصر فيها الجيش انتصارا عظيما ، ووصل الى تهوذة وبسكرة وطبنة . ثم بفضل مساعدة خيالة قلعة بلزمة بلغ الجيش مدينة اربة قرب المسيلة الحالية ، وقهر بني كرمان . وهم بطن من قبيلة هوارة . ولما اقترب ابو خفاجة منهم لجاؤا الى جبالهم وبعثوا اليه بطاعتهم . فلم يقبلها منهم .

انهزم القائد الأغلبي لتخلي حي بن مالك عن نصرته وكانت خيالة قلعة بلزمة تحت قيادة هذا ، فلم يجد القائد بدا من اللجو الى طبنة .

2 ـــ فتك ابراهيم الثاني بأعيان طبنة وبلزمة :

فتك ابراهيم الثاني ابن الاغلب الامير (265 ـــ 289 ـــ 902) بسكان الزاب . روى ابن الاثير انه استدرج الى بلاطه الوجهاء منهم ، واستقبلهم استقبالا رائعا ، واهدى اليهم هدايا سنية . ثم فتك بأكثرهم حتى اطفالهم ، وحملهم على عجل ، والقاهم في حفر اعدها من قبل . وصنع مثل ذلك بأعيان بلزمه .

وكانت هذه المدينة تحتل موقعا ممتازا في نظام تحصين الدفاع عن الدولة لأنها تعد مرصد يشرف على ناحية الحضنة .

وكان يحتلها اعقاب جند افريقية الذين كانوا متصلين بالسكان المجاورين لهم ، ومتأثرين بروح المعارضة التي اشتهر بها هؤلاء ، متظاهرين بالعداء للأمير الأغلبي .

استقدم الأمير وجوه بلزمة الى قصره ، فأتاه قوم منهم ، فكساهم وحملهم واحسن اليهم ، وولاهم الولايات . فتساربوا اليه ، وجعل يفعل ذلك فيهم حتى اجتمع منهم عنده نحو سبعمائة في قول ابن عذارى ، وقد كان انزلهم برقادة في مكان ادار عليه سورا ، وجعل عليه بابا . فلما اجتمعوا ويقن انه لايأتيه من بلزمة غيرهم اغلق عليهم الباب في الليل من خارج ، واحاط عليهم بجيش جعل قيادته لابنة محمد ، وامر بقتلهم عن آخرهم .

وقد جر هذا القتل على بني الاغلب عواقب وخيمة . حتى صار لا يمكن الدولة الاغلبية ان تعتمد على قلعة بلرمة .

وقد اندلعت اثر الاغتيال ثورات عديدة في افريقية في النواحي التي كان يسكنها أبناء الجند ، حتى ان ابراهيم الثاني صار يرى ان ملطته كثرت مهاجمتها في كل المناطق الاغلبية باستثناء الساحل وطرابلس .

3 ـــ قدوم ابي عبد الله الشيعي ومقاومته لبني الأغلب :

قدم ابو عبد الله الشيعي ، في منتصف ربيع سنة 280 مستهل شهر جوان 893 ، اي في عهد ابراهيم الثاني ، بصحبة طائفة من اعيان قبيلة كتامة ، الى ايكجان ، حيث قام بدعوة الناس الى اعتناق المذهب الشيعي . وافلح في اقناع بطون عديدة من قبيلة كتامة ، وادخالهم في الدين الجديد واستعان بهم للاستيلاء ، على ميلة وسطيف وعلى الزاب وباغية ويفاش ، وعلى الاربس ورقادة والقيروان . واستطاع ابو عبد الله هكذا ان يقضي قضاء مبرما على دولة بني الاغلب .

الفصل الثاني

الحضارة في عهد الرستميين

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

1 ــ الحياة الدينية :

أ ــ في دولة الرستميين .

تمتاز دولة الرستميين بانتماء السكان فيها الى فرق دينية شتى . عاش بعضهم مع بعض في سلام ووئام .

ان الائمة الرستميين واغلبية سكان مدينة تاهرت كانوا اباضيين . وشكلوا في ولاية عبد الرحمن بن رستم فرقة واحدة . وانقسموا في ولاية عبد الوهاب الى اباضية ووهبية والى نكار وخلفية . وتسمى الاولون وهبية لانحيازهم الى حزب عبد الوهاب الامام في الصراع الذي نشب بينه وبين النكار . وكانوا يذهبون الى ان القرآن مخلوق وان اهم الواجبات الدينية هي الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان والحج الى بيت الله الحرام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكانوا يسمون اهل المذهب واهل الدعوة . وسمي النكار بهذا الاسم لانكارهم امامة عبد الوهاب . وكانوا يجتمعون ويتناجون ، فسموا النجوية ، وسموا ايضا الشغبية لادخالهم الشغب في الاسلام . وسموا الملحدة حين الحدوا في اسماء الله تعالى قال وذروا الذين يلحدون في اسمائه . سيجزون ما كانوا يعملون (الاعراف : 180) . وسموا النكاث لنكثهم بيعة الامام بغير حدث . اما الخليفة فهم فرقة اصحاب خلف بن السمح الذين ثاروا على عبد الوهاب لامتناعه من توليته على طرابلس ، بينما كان النفاثية من اتباع نفاث بن نصر الذين ثاروا على ذات الامام .

وكان في تاهرت من غير الاباضية فرقة خارجية اخرى هي الصفرية . وكان في عاصمة الرستميين ــ بجانب الفرق الخارجية ــ الملكية والمعتزلة ، ويدعون ايضا الواصلية ، ومسيحيون ويهود .

لا يذكر المؤرخون الاباضيون وجود اليهود في تاهرت . ولكن المصادر اليهودية تشهد بان يهودا بن قريش عاش في تاهرت حوالي 900/287 .

الناحيتان : الغربية والشرقية في بلاد الجزائر .

ب ــ في الناحية الغربية من بلاد الجزائر :

ان اباقرة الذي حكم مملكة تلمسان كان صفريا ، ويحتمل ان اغلبية سكان تلك الناحية كانوا على مذهبه . ولا ندرى ماذا كان مذهب محمد بن خزر . ولكن نعرف أن المذهب السني كان سائدا غربي البلاد في الجزائر في عهد الادارسة .

ج ــ في الناحية الشرقية :

ان ولاية افريقية وبني الاغلب كانوا تابعين للخلفاء العباسيين في بغداد . وكانت اغلبية السكان ، شرقي بلاد الجزائر من اهل السنة والجماعة وعلى مذهب الامام مالك . ولكن عدد كثيرا من قبيلة كتامة اعتنقوا المذهب الشيعي فور قدوم ابي عبد الله الشيعي اليهم .

2 ــ النظام الاداري والعسكري :

كان الامام الرستمي يعتبر رئيسا روحيا وزمنيا في ذات الوقت وكان عليه ان يكون خير قدوة لكافة المسلمين ، متحليا بالفضل والورع والزهد في متاع الحياة الدنيا ، كما يبينه ابن الصغير في النص التالي الذي يروي لنا زيارة سفراء العراق لتاهرت قال : فمضى القوم حتى اتوا المدينة ونزلوا المصلى الذي به اليوم قبر مسالة . فأناخوا جمالهم ، ووضعوا احمالهم ، وتقدموا مع القادمين معهم حتى دخلوا من الباب المعروف بباب الصفا يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها . واصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلمو على الغلام فرد السلام ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال : نعم فقالوا له : استأذن لنامنا منه واعلمه انا رسل اخوانه اليه من البصرة . فرفع الغلام راسه الى سيده وقد علم انه سمع كلامهم ، فقال : قل للقوم يصبرون قليلا .

ثم اقبل على ما كان عليه من اصلاح عمله حتى انقض . والقوم ينظرون اليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم حتى نزل عن سطحه الى داره . فغسل ما كان بيديه من أثر

الطين . ثم توضأ وضوء الصلاة . فاذن للقوم ، فدخلوا عليه ، فوجدو رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليس بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره .

ومما تمتاز به الدولة الرستمية عن غيرها من الدول المجاورة طريقة تعيين الامام الذي كانت تنتخبه جماعة من مشايخ الاباضية من اهل الخير والصلاح ممن يمتازون بالتضلع في العلم والتبريز في الدراية بشؤون الدين واصوله العقائدية والفرعية .

هؤلاء هم الذين يختارون الامام الاصلح لادارة شؤون المسلمين ويراقبون سلوكه وطريقته في تسيير اعمال الدولة ، وهو متربع على سدة الحكم . وينطرون في قضية عزله من دون تردد ان هو حاد عن طريق الحق .

وكان الامام يستعين على الاضطلاع بشؤون الدولة بوزير او وزيرين وبعامل يلي شؤون الاقاليم البعيدة وبقاض وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة ومحتسب . ولم توجد في الدولة الرستمية ، في الواقع ، حياة بلاط وقد تعلقت عهدة الامام ايضا بتعيين وال على راس جماعة الاباضية في جبل نفوسة وافريقية الجنوبية حتى طرابلس الغرب — وكان الوالي يحكم الاقليم باسم الامام يلي جباية الضرائب وتعبئة الجنود ، عند مسيس حاجة البلاد اليها .

ان الامام يعين الوالي مبدئيا فقط لان تعيينه يعهد به في الواقع الى المشايخ . وكان القاضي في تاهرت هو الشخصية العليا بعد الامام . كان يتمتع بالنفود الاكبر الجارى حتى على الاعيان . وكان حكمه يعم كل الميادين التي ينص عليها القرآن .

من بين القضاة الذين امتازوا بالعدل والنزاهة محكم الهواري ومحمد بن الشيخ . روى ابن الصغير في هذا الصدد انه لما توفي احد القضاة اجتمعت الشراة وسألوا الامام افلح ان يولي القضاء من يستحقه . فقال لهم : اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم ثم اعلموني به اجبره لكم ، واعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم .

فقبلوا امرهم ، فلم يرتضوا احد منهم . واجمع رأيهم على محكم الهوارى الساكن بجبل اوراس فأتوا الى افلح بن عبد الوهاب فقالوا : قد تدافعنا هذا فيما بيننا . فلم نرتض احد منا . وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهوارى الساكن بجبل اوراس لخاصتنا وأعامتنا وديننا ودنيانا . فقال فلح : ويحكم دعوتم الى رجل كما وصفتم في ورعه ودينه . ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف شرفه . وان كان ليس احد منكم يجب ان يظلم . ولكن تحبون أن يجرى فيكم لحقوق على وجهها بلانقص لاغراضكم ولا امتهان لانفسكم . قالوا : فانا لانرضى لقضائنا احدا غيره .

فقال الذي حدثني اخبرني ان اشد الناس بولاية محكم على افلح اخوه ابو العباس . فقال افلح : اما اذ ابيتم غيره بعد نصيحتي فيكم فابعثوا رسلكم اليه على بركة الله .

فخرجت الرسل بكتاب من افلح وكتاب من الشراة في داخل كل كتاب منهما ، بعد اثبات بسم الله العظيم ، اما بعد فقد نزل بالمسلمين امر لاغني بهم عم حضورك ، وهم منتظرون لقدومك ، ولا يسعك التخلف فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم ، ليجتمع رايك ورايهم على ما فيه صلاح المسلمين .

فلما ورد كتاب القوم على محكم ورسلهم اتى الى دابة به وركبها واخذ كساه وعصاه . ثم توجه نحو القوم حتى اتى البلد وقصد المسجد الجامع ونزله . فابتدر اليه اصحابه ، فاحاطوا به وقالوا : «ان فلان بن فلان القاضي توفي . وقد اجمع راي المسلمين ورأي الامام عليك . واعلم انك مهما تخلفت عما دعوناك اليه كنت المسؤول عن كل دم يراق بغير حاله ، وكل فرج يوطأ بغير وجهه . فاتق الله ولا تخالف الامام والمسلمين عما دعوك اليه . فانك ان خالفتنا اجبرناك . وان اطعتنا شكرناك» . فقال لهم :

ان الحق مر أمر من شرب الدواء . ولا يشرب الدواء الا كرها . وانتم مرفهون ابناء نعم وغيري أحب لكم مني وقد نصحتكم فاقبلوا نصيحتي .

وذكروا كلاما يطول . ثم قال : فاذا ابيتم الا هذا فارجعوا الى امامكم فأعلموه بما اعلمتم به ، وشاوروه في امروركم» . فقالوا : «قد فعلنا» . فقال : «على بركة الله» . فأنزلوه في الدار المعروفة بدار القضا . فاشتروا له خادما صفرا ، واجروا عليه من بيت المال قوته . وسار فيهم السيرة التي املوها منه ورجوها عنده . فبينما هو على ذلك من امره اذ تنازع ابو العباس اخو افلح المشير له والمرغب فيه ، وصهر الامام افلح في ارض . فارتفعا الى افلح ابو العباس اخوه والآخر صهره . فقال لهما افلح : كلا كما يعز علي . ولكن ارتفعا الى محكم» . وكان ابو العباس يحب ذلك لتقديمه لمحكم وايثاره اياه وكان الأخر يكره ذلك . ويحب ان لو كان امرهما عند افلح فاغتنم ابو العباس كلام افلح وبادر الى بغلة له شهباء هملاجة . فركبها وكان صاحبه على رمكة بطيئة المشي :

فأنني ابو العباس محكما فوجده خاليا في سقيفة داره ولم يرمع ابي العباس احدا ، فاجلسه محكم الى جنبه واقبل عليه يحدثه وخصمه تخلف على دابته فبينما هما كذلك اذ اقبل خصمه حتى نزل على باب دار محكم فلما راى ابو العباس خصمه قد نزل نادى باسم جارية محكم ، فاستسقاها ماء ليرى خصمه دالته على القاضي ليردعه بذلك . فلما صار القدح الى الجارية قال الخصم في نفسه : الى من احاكم ؟ خصمي جالس الى جنب القاضي ، ويستسقي الماء من داره وانا ملقي على باب الدار ، لا يلتفت الي ولا ينظر نحوى . قال ثم

حانت منه التفاته فاذا بالرجل جالس فقال : ما بالك يا هذا ؟ وما قصدك ؟ فقال له : جئت خصما لأبي العباس ، فوجدته جالسا الى جانبك . فجلست موضعي هذا .

قال : فغضب محكم على ابي العباس ، فقال : «يا ابا العباس تأتي مع خصمك فتجلس الى جنبي دونه وتستقي الماء من داري على يد جاريتي .

يا غلام خذ بيد ابي العباس واقعده مقعد خصمه ، ولا يبرح وخذ بيد خصمه واقعده الي ومر الجارية فلتسقه ماء» . ففعل الغلام ما امره به ، فخرج ابو العباس مغضبا حتى دخل على اخيه افلح ، فلما رآه قال له : «مالك وما عراك ؟» قال : «نزل بي من هذا الهوارى الشر الجافي مالم ينزل باحد» . فقال : «وما ذلك ؟» فقص عليه القصة من اولها الى آخرها فلما فرغ من كلامه قال له : «يا ابا العباس قد كنت اعلمتك بهذا من قبل ، والصواب ما فعل ، والحق اولى ان يؤثر ، ولو فعل غير هذا لكان مداهنا . قال ابن الصغير : فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الاباضية ، فأعجبهم واسروا به» .

اما القاضي الرستمي الثاني الذي امتاز بتصلبه فهو محمد بن الشيخ الذي غد الى ابي اليقطان يوما فرمى اليه خاتمه وقمطره .

فقال : «ول على قضائك من تريد» . فقال له : «ما بالك وما عراك ؟» فقال له : «ما نقمت عليك شيئا ، ولكن نقمت على بنيك» فقال : «ما بال بني ؟» قال : «خليتهم عالة على الناس» فغضب ابو اليقطان مما استقبله به ولم يرد عليه شيئا .

ان ابن الصغير الذي روى هذا الحادث تابع روايته قائلا : «قلت يوما بسليمان مولى محمد بن عبد الله : « ما السبب الذي كره منه محمد بن عبد الله القضا حتى القى الخاتم والقمطر . وشافه ابا اليقطان بما شافهه به ؟» فقال : «نعم اجرك الله يابني» .

انما نحن ذات ليلة جلوس بعد العشاء الاخيرة وكان كثير ما يؤثرني لحوائجه على غيرى فبينا نحن كذلك اذ دق علينا الباب دقا عنيفا فقال لى يا سليمان قم فاني خشيت ان يكون حادث من قبل السلطان قال ففتحت الباب فاذا انا بجارية منبهرة ومعها صقلبي معه سراج قال فقلت ما بالك ايتها المراة فقالت القاضي اريد فرجعت اليه واعلمته فقال ادخلها فادخلتها فلما مثلت بين يديه قال لها ما بالك أيتها المرأة وما جاء بك هذه الساعة فقالت نعم دخلت على الساعة خدام من قبل زكرياء ابن الامير واخذوا ابنتي من بين يدي فقلت لابني قم فاتبعهم فقال اخاف ان اردت ذلك ان يقتلوني وان لم يقتلوني خفت ان يدسوا على عاملا من عماهم او لصا من لصوصهم فيقتلوني قال فسقط القاضي كالمغشي عليه ثم افاق فقال لي يا سليمان قم ثم قام فقال لى خذ سراجك ولا يشعر بك احد وتقلد سيفا واعطني عصاى

الزكاة قال فسار وسرت معه والجارية معنا حتى اتينا قرب الدار فقال لى يا سليمان غيب السراج لئلا يشعر بنا احد قال فسترته فقال لى دق الباب دقا لطيفا فاذا فتح الباب فاظهر السراج فلما راى صاحب الدار واهل الدار القاضي ارتاعوا ارتياعا شديدا وقالوا فما بال القاضي اعزه الله وما جاء به فقال لى يا سليمان اصعد الى اعلى الدار واحذر ان ينزل احد من جوانب الدار ففعلت قال ثم اقبل بتخلل بيوت الدار بيتا بيتا

وموضعا موضعا فلم ير شيئا ثم صعد اعلى الدار والمراة معه فلم يجد شيئا قال ثم عطف على صاحب الدار فقال له اهل رايت زكريا بن الامير او كان معك اليوم ؟ فقال : نعم كان اليوم عندي ، فلما كان الليل اتى بفرس فركبه قال : هل تعرف له موضعا قال : لا اصلح الله القاضي ، فسقط في يده . ثم لم يصبر الا ان وصلها الى دارها ثم انصرفنا الى دارنا . فما نام تلك الليلة حتى اطلع الفجر . فغدا بخاتمه وقمطره والقاه الى صاحبه تدل هذه القصة دلالة واضحة على ان القاضى كان محترما مكرما مهيبا جدا في تاهرت ولما كان عسيرا عليه ان يبت كل القضايا بنفسه صار يستعين بالمحتسب وصاحب الشرطة ، وكان هذا الاخير يحافظ على الامن داخل المدينة ويراقب سلوكات الناس وقد كان له اعوان تحت امره يتجولون فى المدينة لزحر الناس عن الفجور وشرب الخمر والسرقة وغيرها من الاجرام ويقومون بدوريات ليلا ويلقون القبض على السكارى واللصوص والمتشردين وكان المحتسب يعهد اليه بمراقبة الموازين والكماييل والاسعار وقمع الغش والتدليس وغير ذلك من الجرائم .

روى ابن الصغير ان ابا اليقظان امر قوما من نوفسة يمشون في الاسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... فان رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه . وان رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها وان رأواقذرا في الطريق امروا من حول الموضع ان يكنسه .

ان اكبر شخصية في تاهرت بعد الامام والقاضي هو صاحب بيت المال المسؤول عن الشؤون المالية . وصف ابن الصغير عمل الجباة الذين في خدمته وكيف كانوا يجمعون الضرائب . وكيف كان الامام يوزعها . قال ابن الصغير : يخرجون في اوان الطعام فيقبضون اعشارهم في هلال كل .... من اهل الشاة والبعير . يقبضون ما يجب على اهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء ، وبيعت الشاة والبعير . فاذا صارت اموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم . ثم نطر في باقي سائر المال . فاذا عرف مبلغه امر باحصاء من في البلد وقيما حول البلد . ثم امر باحصاء الفقراء والمساكين ، فاذا علم عددهم امر باحصاء ما في الاهداء من الطعام . ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة ، فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ، ثم دفع في كل بيت بقدر ذلك ، ويؤثر بأكثر ذلك اهل الفاقة من مذهبه ، ثم ينطر الى ما اجتمع

من مال الجزية وخراج الاراضي وما اشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته واصحاب شرطته والقائمين بأمروه ما يكفيهم في سنتهم . ثم ان فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين ، وعلاوة على الموظفين الذين سبق ذكرهم كان في تاهرت اشخاص آخرون غير ذوى اختصاصات دقيقة ، ولكنهم قاموا بأدوار ذات اهمية اساسية في ادارة المدينة أولئك هم : التجار والاغنياء ورؤساء القبائل والمشائخ وكانت تاهرت هي العاصمة السياسية والادارية وكانت في نفس الوقت قاعدة عسكرية محصنة بسور من حجر ذات قصبة محكمة التحصين قادرة على ان تصمد لكل هجوم يأتيها من الخارج ، وكان سكانها مصممين جميعا كرجل واحد على حمايتها مستعدين لمواجهة اى خطر ليصبحوا جنودا وابطالا وسندا مستمرا لجيش المدينة ، ذكر ابن الصغير ان حرس تاهرت كانوا لا يفتأون ساهرين على اسوارها وان الامام الاول كان ذاخيالة مجهزة تجهيزا قويا وان الامام الثاني عد في عسكره الف فرس ابلق وان افلح خلفه كان له حرس خاص ، وكان صاحب شرطته اذا تخلل المدينة لافتقادها لم يجسر ان يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبة .

ويذكر ابن الاثير من جهته ان عبد الرحمن بن رستم ضرب الحصار على مدينة طبنة بجيش عدده خمسة عشر الف جندي وقد عرفنا بفضل ابن الصغير ان اسلحة الرستميين كانت تشتمل على سيوف ورماح ودرق وانه كان لجنودهم علام خافقة وكانوا يلبسون الخوذ والدروع ويضربون الطبول لحشد الجنود .

3 ـــ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تاهرت :

أ ـــ الحياة الاقتصادية :

كانت تاهرت مقرا لحياة اقتصادية مزدهرة . ذكر ابن الصغير ان نمو مدينة تاهرت كان سريعا في ولاية الامام الاول عبد الرحمن بن رستم حتى ان سفراء العراق تعجبوا من تطور الاحوال في المدينة التي وسعت حدودها الخارجية توسيعا كبيرا واوت عددا اكبر من السكان . فقال في هذا الصدد : ليس احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وامانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قيل : هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصرى وهذه لفلان القروي . وهذا مسجد القرويين ورحمتهم وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل الى بلد السودان الى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة .

عرفت تاهرت في عهد افلح بن عبد الوهاب ازدهارا عجيبا كما بينه ابن الصغير في قوله :

«وكان افلح قد عمر في امارته مالم يعمر أحد ممن كان قبله وشمخ في ملكه وابتنى القصور ، واتخذ بابا من حديد وبني الجفاف واطعم فيها ايام الجفاف ، وعم الرخاء في عصره ، وكثرت الاموال والمستغلات واتته الرفاق والوقود من كل الامصار والافاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة واجروا الانهر» .

وابرز اليعقوبي الذي عاش في القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى من جهته اهمية تاهرت الاقتصادية فقال : ... والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق المغرب» .

وهكذا لم تكن تاهرت حسبما ذكره جورج مارسي مدينة ، بل كانت عبارة عن احياء متجاورة حيث تعايش سكانها المنتمون الى اصل واحد ، وقد كانوا ذوي ادوات صالحة للأستعمال في شؤونهم الشخصية وضرورية لحياتهم العمومية حيث كان تدخل الجيران بينهم جديرا بأن يثير مشاجرات .

ذلك ما يوضح سبب وقوع ثورات عديدة في تاهرت ابتداء من ولاية الامام الثاني كما سبق ان ذكرنا ذلك .

لانعرف شيئا كثيرا عن الحياة التي كان يعيشها سكان تاهرت ، وكيف كانوا يتغذون ويكتسون وماذا كان اثاثهم .

نعرف ان الامام عبد الرحمن بن رستم كان تغذى بقرص مسخنة ملتوتة بسمن ، كان ينام على حصير فوقه جلد ، وان الامام يعقوب بن افلح كان قوته اللبن وانه كان لابي اليقظان سرادق انني به من العراق . ونعرف ايضا انه كان يوزع على الفقراء حبوب وزيت واكسية وجباب من صوف وفراء .

أن موقع تاهرت الممتاز هو منشأ ازدهارها ، قد كانت نقطة التقاء القوافل القادمة اليها من كل بلاد العالم العربي . وكانت نقطة اتصال بين البدو الرعاء وبين المقيمين المزارعين منهم وكانت تاهرت مجالا لنشاط تجاري كبير ، وكان فيها حبوب التل واصواف الصحراء وجلودها وتمورها يحملون الحبوب، والمنتوجات المستوردة من الاندلس على القوافل الى السودان وكانت ترجع منه بالتبر والرقيق والجلود .

ولازدهار تاهرت مصدر آخر هو كثرة متابعها وخصوبة ضواحيها . وكان داخلها منابع شتى صالحة لرى اتينها علاوة على نهر مينة ونهر تاتش ، وكان لها مراع غنية بالكلاء حيث تكثر العناية بتربية المواشي من الغنم والبقر والابل .

ب ـــ الحياة الاجتماعية :

وقد كثر سكان تاهرت واختلفت فيها عناصرهم واجناسهم كما سبق ان ذكرنا ذلك وكان بجانب الاسر المراسية والصنهاجية التي تم استيطانها لها قبل وصول عبد الرحمن بن رستم اليها ومدة اسر اخرى من لماية من اقدم احلاف زناتة وسدراتة وهوارة ولواته وزواغة ونفوسة الجبل التي كانت من أوفى أنصار الرستميين ، وقد سكن تاهرت ايضا قوم من القيروان ومن بسكرة والكوفة ومن فاس الذين اعتبروا عنصرا ذا خطر من العناصر التي استوطنت تاهرت وكان فيها شرذمة من العرب الذين منهم السمح بن عبد الله وزير عبد الوهاب الذي ولي عمل طرابلس من بعد .

وكان من بين السكان جنود من جيش القيروان الاغلبي الذين نشب الخلاف بينهم وبين اميرهم فلجأوا الى تاهرت وانخرطوا في حرس الامام وكان في المدينة عدد قليل من اهل الاندلس وعدد كبير من الرقيق ومن المسيحيين الذين من اشهرهم بكر بن واحد ومن اشهر فرسان المغرب في عصر ابي حاتم .

4 ـــ الحياة الادبية والفنية :

ا ـــ الحياة الادبية : (1)

ينبغي ان نذكر ان ائمة الدولة الرستمية في تاهرت الذين استهان اكثرهم تماما بشؤون الحياة الدنيا والذين كان همهم الوحيد فيها الظفر برضى ربهم كانوا معنيين عناية كبيرة بالعلوم الدينية . وكان اغلب العلماء الذين توفروا على دراستها عاشوا عيشة الورع والزهد والتقشف متبلغين بقبضة من شعر مقلق او ببضع تمرات منهمكين ليل نهار في العبادة والتحنث .

قال ابو زكريا عن بني رستم « كان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الاصول والفقه والتفسير وعلم اختلاف الناس وعلم النحو والاعراب والفصاحة وعلم النجوم . واضاف قائلا : وبلغنا ان بعضهم قال : معاذ الله ان تكون عندنا امة لا تعرف منزلة يبيت فيها القمر . ومن بين الائمة الرستميين الذين امتازوا بغزارة العلم نذكر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وافلح بن عبد الوهاب وابا اليقطان .

قال ابو زكريا متحدثا عن الامام عبد الوهاب : بلغنا ان عبد الوهاب ـــ رضي الله عنه ـــ سمر ذات ليلة هو واخوه ليتعلمان مسائل الفرائض ، فلم يصبحا الا وهما يورثان اهل المشرق واهل المغرب . وكانا في سمرهما يقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى اتى عليها .

(1) تأليف : د. محمد بلقراد

وذكر بعض اصحابنا ان عبد الوهاب بعث الف دينار الى اخوانه من اهل المشرق بالبصرة ان يشتروا له بها رقا ، ويجعلوا من انفسهم الجير والاقلام وعولة الكتاب ، واخذوا في النسخ فنسخوا له اربعين حملا من كتب ، فبعثوا بها اليه ، فلما جاءته نشرها وقراها حتى اتى على آخرها بأجمعها فقال : الحمد الله ، ليست منها مسألة ليست عندي الا مسألتين لو سئلت عنهما لقستهما الى نظائرهما من المسائل . ولصادفت ما ذكره في الكتاب وروى ابن الصغير انه كان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسه الجبل لان نفوسه كتبت اليه في مسائل اشكلت عليها ، فاجابها عن كل مسألة ممال سألت عنه» . وقال : قعدت عليه اربع حلق يتعلمون عنه فنون العلم قبل ان يبلغ الحلم ، وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما . وروى لنا ابو زكريا القصة التالية :

وذكروا عنه انه قعد ذات ليلة هو واخته ، فقال لها : هلم نحسب ماذا يذبح في السوق غدا اولا ان شاء الله . فحسب فقال لها افلح : ان «اول ما يذبح في السوق بقرة صفراء في بطنها عجل ذو غرة في جبهته . فقالت له : صدقت ، هي البقرة الصفراء ، وفي بطنها عجل غير الذي رايته هو طرف ذنبه ابيض تعممه على جبهته فخلته ابيض الجبهة ذا غرة وانما ذلك طرف ذنبه .

وقد كان الامام الخامس ابو اليقطان مشهورا هو ايضا بعلمه ، فقد الف عدة كتب ليجيب المخالفين . نقل الشيخ بكرى فقرة من رسالة لأبي اليقطان رواها البرادى في كتابه الجواهر المنتقاة ، ان ابا اليقطان قال ما معناه .

ان القرآن كلمة الله هو حقيقة ملموسة في نفسه ولا يمكن ان يكون الا الله نفسه — او جزءا من الله او شيئا اخر غير الله — اذا قلنا أن نعترف أن القرآن هو الله لزم حينئذ ان نعترف له بنفس صفات الابدية والقدرة والخلق ... الخ — وبالتالي يجب ان يعبد ، وذلك مستحيل .

اذا قلنا ان القرآن هو جزء من الله يصير الله تعالى حينئذ ممكن الانقسام الى اجزاء ، وذلك مستحيل اذن ان القرآن ليس هو عين الله جزء من الله بل هو منفصل عنه ، فليس امامنا حينئذ الا حالتان اما ان يكون قديما فهو اذن سرمدى مثل الله . واما ان يكون مخلوقا فاذا استحال ان يكون سرمديا من غير ان يكون جزءا من الخالق فلا يكون الا حقيقة غير الله ويكون الله هو الذي خلقها وقد اتخذت هذه الرسالة موضوعا لدراسة مفيدة في اللغة الايطالية عنوانها : وثيقة قديمة اباضية حول خلق القرآن رسالة الامام الرستمي محمد ابي اليقظان نشرتها فانا كريمونيزى .

كان ابو اليقظان معروفا بورعة العميق الشديد بمثل ما كان دقيق المحاسبة لنفسه في استقامة سلوكه كما بينا ذلك فيما سبق ان اصالة تاهرت — فيما يخص العلوم الدينية — كانت كامنة في تواجد ممثلين لكل الفرق في هذه المذينة ، نرى الصفرية واليزيدية والنكار والمعتزلة بجانب الاباضية حتى السنية مثل المالكية .

وكان الاباضية يدعون في اغلب الاوقات اتباع الفرق الاخرى لحضور ندوات كان كل مشارك فيها حرا للدفاع عن وجهة نظره وعن مذهبه — وكان يشترط في الشيخ الاباضي ان يكون متضلعا في معرفة اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث والفقه وعلم العقائد وتاريخ الخليفتين الاولين وتاريخ صحابة الرسول (ص) .

ان اشهر اباضي في علم الكلام والمناظرات الخطابية من دون ماريب كان مهدي النفوسي الذي عاش في عهد عبد الوهاب ، كان رجلا شديد الورع زاهدا في حطام الحياة الدنيا كما يدل على ذلك ما ذكره ابو زكريا ، قال : بلغنا ان مهدي حين كان بتاهرت خرج ذات مرة عن اصحابه ، فتغيب عنهم ، ولم يدروا اين توجه . فلما جنهم الليل وقرب عشاؤهم انتظروا حتى ايسوا منه واكلوا حاجتهم وافضلوا له عشاءه ، فكانوا كذلك اذا قبل اليهم مهدي ، فقالوا له : اين تغيبت ؟ ومن اين جئت ، وقد برد عشاؤك ؟ — فقال لهم : اني رددت الى دين الله سبعين عالما من اهل الخلاف في غيبوبتي عنكم .

فتقدم الى عشائه ، فصادف عجينا عجنوه لغدائهم ، فكشف عنه ، فصار يأكل . فلما كاد يشبع قال لاصحابه كأن عشاءكم الليلة لم يطبخ ولم يطب . وقد وجدت فيه طعم العجين . قال بعضهم : لعلك انما صادفت عجين غدائنا .

ففتشوا . فوجدوا العجين هو الذي صادف . وقال لهم مهدي : حمدت الله على ثلاث ، واحدة انني اذ اقدم الطعام ما ابالي اى طعام كان . فاني اقضي منه حاجتي والثانية : اذا اخذت غفوة من النوم اجتزيت بها . والثالثة : لست اتخوف مخالفا على نفسي ان يغلبني في حجة الا ان ركنت في دين الله .

حسبما ذكر ابن الصغير كانت المناظرات بين فقهاء الفرق المختلفة متسمة باللياقة والملاطفة — قال : ان الفقهاء تناجبت المسائل فيما بينهم وتناظرت اشتهت كل فرقة ان تعلم ما خلفتها فيه عاقبتها ومن اتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة .

ولكن قد يقع مع هذا ان المناظرات الخاصة بقضية اساسية ذات صلة بالعقيدة كالتي اثارت الصراع بين الاباضية والمعتزلة في عهد عبد الوهاب ربما كانت تنتهي بمعارك دامية ، فقد روى لنا ابو زكريا هذا الحادث في سيرة ، قال : ان الامام — رضي الله عنه — بعث الى رئيس المعتزلة وسيدهم بأنه سيخرج اليهم في اليوم الفلاني وضرب لهم اجلا ....

فاعتذر الامام إلى المعتزلة ودعاهم الى ترك ما به ضلوا ، فأعذر اليهم في الحجة ، فأبوا الا مناصبته ، فسألوا المناظرة ، ثم أن الامام رضي الله عنه امر بالصفوف . فصفت والواصلية قد صفت صفوفها ، فخرج مهدي للمناظرة بين الصفين ومن معه من اصحابه وجماعة المسلمين ، فخرج معهم الامام بوجوه اصحابه ، فخرج الفتى المناظر من المعتزلة ووجوه المعتزلة معه ... فخرج مهدى وتقدم الى الفتى المعتزلي ...

ثم انهما جرت بينهما وجوه من المناظرة ، والناس يعملون ما يقولان ، فلم يفلح احدهما على صاحبه ، ثم انهما دخلا في فنون العلم فخفى ذلك عمن حضرهما ، غير ان الامام يعلم ما يقولان حتى صار كلاهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الامام وعند غيره ، فما كان اوشك ان علبه مهدى ... فلما افترقا من المناظرة وقد افلح عليهم مهدي خرج الفتى المعروف بالشجاعة من المعتزلة فطلب المبارزة ... فخرج (ايوب) الى الفتى فاقتتلا مليا وتضاربا قليلا . فحمل عليه ايوب بن العباس فضربه فقتله ... .

فلما رات الواصلية ابن رئيسها وعميدها وفارسها الذي يحمي عنها صريعا ولوّا منهزمين بعد ما حمي الوطيس واشتدت الحرب واستمر القتل في المعتزلة وبجانب مهدي النفوسي ينبغي ان نذكر من بين المتكلمين المشهورين اسحاق بن عبد الملك الملشوني وابا مرداس مهاصر وعيسى بن فوناس ومحمد بن بكر والقاضي محمد بن ابي شيخ وابا عبيدة .

ان اسحاق بن ابي عبد الملك الملشوني (حوالى الخمسينات من القرن الثالث الهجرى والستينات من القرن التاسع الميلادي) .

كان شيخ امراء بني الأغلب ونديم بلاطهم اسحاق بن ابي عبد الملك الملشوني نسبة الى ملشون قرية من قرى بسكرة قرب تهودة ، كان اسحاق وابوه عالمين يحمل عنهما العلم ، كان اسحاق عالما ثقة مؤرخا ثبتا ذا دراية واسعة بعلم التاريخ ، اخذ عن والده وعن مشايخ بلده ، جالس الامام سحنون بن سعيد صاحب المدونة (160 — 240) بالقيروان ، واخذ كلاهما عن الاخر ، قال ابو العرب : سمعت بعض المشايخ ممن كان يروى البدئي من الأخبار يحدث عن اسحاق بن ابي عبد الملك الملشوني ان عقبة بن نافع كان معه في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وان عقبة جمع وجوه اصحابه واهل العسكر . فدار بهم حول مدينة القيروان ، واقبل يدعو لها ويقول في دعائه اللهم املاها علما وفقها وعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك . وأعز بها الاسلام . وامنعها من جبابرة الارض قال : فتلك معصومة من كل جبار عنيد» .

روى البكرى ان اسحاق بن ابي عبد الملك الملشوني قال : لم يدخل افريقية نبي قط ، واول من دخلها بالايمان حوارى عيسى بن مريم عليهما السلام .

ذكر المالكي في الرياض ان ابا العرب قال : ان امراء بني الاغلب كانوا يرسلون الى اسحاق فيكون عندهم في شهر رمضان فيحدثهم بالعجائب حتى يقطع بهم طول النهار . وكان ربما جالس سحنون بن سعيد ، وكان الشيخ ابو القاسم بن شيلون الفقيه — ض — يروي فيما يرويه ان سحنون بن سعيد دخل على محمد بن الاغلب الامير اول يوم من شهر رمضان ، فألفى الامير خاليا ، فقال له : اراك ايها الامير خاليا . فقال : نعم انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه ، وتركنا ما كان لغير الله عز وجل . فقال سحنون : فأين انت ايها الامير من اسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الامم السالفة والاعوام الماضية . فأمر محمد بن الاغلب باحضاره ، وكان يحضر عند محمد بن الاغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان .

وعاش ابو مرداس مهاصر في عهد الامام عبد الوهاب ذكر الدرجيني انه راى خطا من غير قصد امراة مكشوفة الراس فصام سنة كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده ، وانه فرغ ماء وضوئه ، فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة ابيات من جيرانه ، فلما لم يجد راى ان قام غدره ، فعدل الى التيمم .

روى ابن الصغير ان عيسى بن فرناس كان شديد الورع . ومما امتاز به انه كان يقابل الامام ابا اليقظان حين جلوسه في المسجد .

وان محمود بن بكر كان رجلا من العرب وكان اخص الناس بالامام ابي اليقظان وكان غالبا فيهم وكان مدارهم الذي يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم ويرد على الفرق في مقالاتهم ويؤلف الكتب في الرد على مخالفهم .

وان القاضي محمد بن الشيخ كما مر بنا ذلك آنفا — لم يتردد في تسليم استقالته من خطة القضاء للامام ابي اليقظان بسبب اختطاف احد ابنائه لفتاة .

وذكر ابن الصغير قصة ابي عبيدة والامام ابي اليقظان فقال : «وكان منهم رجل يعرف بأبي عبيدة الاعرج كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالعلم مسلمون له في الورع اذا اختلفوا في امر من الفقه او من الكلام صدر واعن رايه ... وكان قليل الدخول على أبي اليقظان ولم يكن يجمعه واياه سوى المسجد الجامع ... فضرب يوما ابو اليقظان سرادقه لحدث اراده . وعلم الناس بخروجه فخرج اليه الفقهاء والقراء . وضربوا ابنيتهم حول سرادقه خلا ابي عبيدة . فبينما الناس ذات يوم جلوس اذ اقبل ابو عبيدة راكبا على دابة . فقال الناس : هذا ابو عبيدة قد اقبل متفقدا الامير مسلما عليه . فأعلموا بقدومه ابا اليقظان . فلما دخل عليه ادناه الى نفسه فقال : ما جاء بأبي عبيدة الينا متفقدا ام مسلما ام ماذا ؟ فقال ابو عبيدة : اصلح الله الامير . ما جئت مسلما ولا متفقدا غير ان جارة لي خرج ولدها البارحة في طلب معاش له ولها . فأخذه صاحب حرسك وحبسه ، فأتتني الغداة

باكية شاكية تسألني ان اسألك في اطلاق ولدها » . فأمر (ابو اليقظان) بأن يطلق كل من حبس تلك الليلة اجلالا لابي عبيدة . ثم سلم وانصرف .

ومما ذكر ابن الصغير ايضا عن ابي عبيدة انه قد اشهر بمروءته وحسن ادبه وان المغرب كله كان مفتونا بهذا الرجل حتى ان من كان من الاباضية بسجلماسة يبعثون اليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء .

علاوة على المتكلمين والفقهاء كان في تاهرت ادباء وشعراء ومؤرخون وعلماء يهود . يقول ابن الصغير « ان ابا بكر الامام كان يحب الآداب والاشعار واخبار الماضين . » اما ما يخص الشعراء فنذكر الامام افلح وزيديت الملوشية وبكر بن حماد وسعيد بن واشكل واحمد بن فتح التاهرتي .

ان الامام افلح تنسب اليه ابيات في مدح العلم وهي :

العلم ابقى لاهل العلم آثارا	**يريك اشخاصهم روحا وابكارا**
حيٌّ وان مات ذو علم وذو ورع	**ما مات عبد قضى من ذاك او طارا**
وذو حياة على جهل ومنقصة	**كميت قد ثوى في الرمس اعصارا**
لله عصبة اهل العلم ان لهم	**فضلا على الناس غيابا وحضارا**

وقد ذكر لنا المؤرخون بجانب اسم الامام افلح اسم شاعرة وهي زيدبت الملوشية التي عاشت في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي . وقد ذكرها الشماخي .

اما بكر بن حماد فيعتبر اكبر شاعر في عصر الرستمين . ترجمة بكر بن حماد التاهرتي (200 — 815/296 — 908) هو ابو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن اسماعيل الزناتي ولد ونشأ في تاهرت وتعلم فيها . ثم رحل الى القيروان لمواصلة تكوينه في الادب والشعر والفقه والحديث واصول الدين . سمع من سحنون بن سعيد القيرواني صاحب المدونة (160 — 777/240 — 854) ومن عون بن يوسف الخزاعي .

روى المالكي قال : قال بكر بن حماد : « لما فرغت من قراءة كتبي على عون — وهي كتب ابن وهب — قلت له : يا ابا محمد كيف كان سماعك من ابن وهب ؟ قال : ما اخذت كتبه منه الا قراءة . قرأت عليه انا وقرأ علي ، ولو كانت اجازة لقلت : انها اجازة » ثم رحل الى البصرة سنةسبع عشرة ومائتين ، فأخذ الحديث فيها عن مسدد بن مسرهد المحدث (228 — 842 — 843) وعن الحافظ عمر بن مرزوق (238/224 — 839) وجماعة من العلماء واخذ فنون الادب والشعر وعلوم العربية عن ابن الاعرابي (150 — 767/231 — 845) . وعن الرياشي العباس بن الفرج بن علي (177 — 793/257 — 871) . وعن ابي حاتم السجستاني البصري المتوفي سنة

862/248 وغيرهم . ولقي من الشعراء في ذلك الوقت دعبل بن علي الخزاعي (148 — 765/246 — 860) وحبيب بن اوس ابا تمام الطائي (188 — 804/231 — 846) وعلي بن الجهم (ت 863/249) ، وشعراء آخرين . وقد ذكر اكثر الدارسين لترجمة بكر بن حماد انه لقي في المشرق طائفة من الشعراء . منهم مسلم بن الوليد (ت 823/208) . والحقيقة انه لم يلقه قط لأنه رحل الى المشرق بعد وفاة صريع الغواني بتسع سنين يقول احمد المقرى التلمساني في النفح ان قاسم بن اصبغ (247 — 862/340 — 851) البياني القرطبي محدث الاندلس سمع بالقيروان من احمد ابن يزيد المعلم ومن بكر بن حماد . وان ابا عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافرى الاندلسي المالكي (ت 993/283) سمع بالمغرب من بكر بن حماد ومحمد بن وضاح وقاسم ابن اصبغ .

وقد ورد في كتاب المعالم ان بكر بن حماد كان ثقة عالما بالحديث ورجاله شاعرا فصيحا وورد فيه ايضا انه كان فقيها فاضلا جليلا ثقة مأمونا ثبتا صدوقا اماما حافظا وشاعرا مفلقا . ترجم ابو بكر الملكي لبكر بن حماد واورد له كثيرا من الشعر في رثاء ابنه وفي الزهد وقال : سعي به الى ابراهيم بن احمد الامير . فخرج هاربا من القيروان يريد تاهرت بلده . فلما صار ببساطة خرج عليه قطاع الطريق ، فقتل ولده عبد الرحمن وجرح هو جرادات ، فما زال في بطنه نتق منها الى ان مات سنة (908/296 — 909) وهو ابن ست وتسعين سنة .

رحل بكر بن حماد الى بغداد ولقي المعتصم العباسي ومدحه ، فوصله بصلات جزيلة ، وله ابيات الى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الذي هجا الخليفة . قال :

ايهجو امير المؤمنين ورهطه — ويمشي على الارضي العريضة دعبل ؟
اما والذي ارسى ثبيرا مكانه — لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن امير المؤمنين بفضله — يهم فيعفو أو يقول فيفعل

وعاتب ابو تمام الشاعر بكرا على ذلك ، وقال له : « قتلته والله يا بكر . » فاستمر بكر في انشاد قصيدته هذه الى ان قال :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي — لسانك مخذور وسمك يقتل . »
واني وان صرفت في الشعر منطقي — لأنصف فيما قلت فيه واعدل .

ومن شعره الجيد الرائق الجميل قوله في مدح الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهجو عمران بن حطان وعبد الرحمن بن ملجم :

قل لابن ملجم ــ والاقدار غالبة — هدمت ــ ويلك ــ للاسلام اركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم — واول الناس اسلاما وايمانا
واعلم الناس للقرآن . ثم بما — سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره — اضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه ــ على رغم الحسود له — مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا — ليثا اذا لقي الاقران اقرانا
ذكرت قاتله ــ والدمع منحدر — فقلت : سبحان رب الناس سبحانا
اني لأحسبه ما كان من بشر — يخشى المعاد ، ولكن كان شيطانا
اشقى مراد اذا عدت قبائلها — واخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر النافة الاولى التي جلبت — على ثمود بأرض الحجر خسرانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله — ولا سقى قبر عمران بن خطانا
لقوله في شقي ظل مجترما — ونال ما ناله ظلما وعدوانا
«ياضربة من تقي ما اراد بها — الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوى أورثته لظى — مخلدا قد اتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته — الا ليصلي عذاب الخلد نيرانا

قال احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي يمدح ابا العيش بن ابراهيم بن القاسم :

قبح الاله اللهو الا قينة — بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في — وجناتها ، والكشح غير مفاض
في شكل مرجي ونسك مهاجر — وعفاف سني وسمت اباض
تاهرت انت خلية وبرية — عوضت منك بصرة فاعتاضي
لاعذر للحمراء في كلفي بها — او تستفيض بأبحر وحياض
ماعذرها والبحر عيسى ربها — ملك الملوك ورائض الرواض

وقال بعض شعراء تاهرت من قصيدة :

فراغ الهوى شغل . ومحيى الهوى قتل — ويوم الهوى حول ، وبعض الهوى كل
وجود الهوى بخل . ورسل الهوى عدى — وقرب الهوى بعد . وسبق الهوى فضل

سقى الله تاهرت المنى وسويقة ... بساحتها غيثا يطيب به المحل
كأن لم يكن ـ والدار جامعة لنا ... ولم يجتمع وصل لنا ـ لا ـ ولاشمل
فلما تمادى العيش وانشقت العصى ... تداعت اهاضيب النوى وهي تنهل
سلام على من لم تطق ـ يوم بيننا ... سلاما . ولكن فارقت . وبها شكل
وما هي آماق تفيض دموعها ... ولكنها الارواح تجرى وتنسل .

وقال سعيد بن واشكل التيهرتي في علته التي مات منها بتنس :

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر ... واصبحت عن دار الاحبة في اسر
واصبحت عن تيهرت في دار معزل ... واسلمني مد القضاء من القدر
إلى تنس دار النحوس . فانها ... يساق اليها كل منتقص العمر
هو الدهر والسياق والماء حاكم ... وطالعها المنحوس صمصامة الدهر
بلاد بها البرغوث يحمل راجلا ... ويأوى اليها الذيب في زمر الحشر
ويزحف فيها العام في كل ساعة ... بجيش من السودان تغلب الوتر
ترى اهلها صرعى دوى ام ملدم ... يروحون في سكر ويغدون في سكر

ان اقدم مؤرخ رستمي عرفناه هو ابن سلام بن عمرو او ابن سلام بن عمر الذي سكن تاهرت سنة 854/240 . وقد كان حياسنة 873/260 ـ 874 . والف كتابا لم يصل الينا ولا نعرف عنوانه ، ومن حسن الحظ ان الشماخي نقل منه في سيرة جملا يصف فيها المؤلف رسوخ الاسلام في جبل نفوسه ويذكر تاريخ الائمة الاباضية الاوائل ابي الخطاب المعارفي وابي حاتم الملزوزي وتاريخ ما كان بينهم وبين اخوانهم من صلات في المشرق في عهد ولاية الامام عبد الوهاب .

وقد استقى ابن سلام بن عمرو معلوماته التي ضمنها الفصل الاول من كتابه حول رسوخ الاسلام في جبل نفوسه من ابي صالح النفوسي الذي لقيه في توزر سنة 854/240 ـ 855 . ان أشهر مؤرخ في تاهرت ـ بعد ابن سلام بن عمرو ـ هو ابن الصغير مؤلف كتاب عنوانه « ذكر بعض الاخبار في الائمة الرستمين » . ويعتبر كتابه هذا الى الآن اقدم وثيقة وصلت الينا حول تاريخ اباضية افريقيا الشمالية علاوة على مقتطفات من كتاب ابن سلام بن عمرو . وقد كان المؤرخون من اباضية المغرب ينظرون الى كتاب ابن الصغير المالكي بعين الاهتمام والتقدير . ولا سيما اثنان منهم ، وهما : البرادي في كتابه : « الجواهر المنتقاة » والشماخي في سيره . وقد تحدثا عن كتابه كثيرا وذكرا عنه اخباراشتي في مواضع مختلفة من كتابيهما .

ولم يقف ابن الصغير من اباضية تاهرت — ولا سيما الرستميين منهم — اى موقف عداء . على الرغم من وجود فقرة في كتابه يعرب فيها عن مخالفته للمذهب الاباضي ، وكان يختلف الى مسجد في حي الرهادنة وعاش في فترة من ولاية ابي اليقظان ومدة من امامة ابي حاتم .

ويغلب على الظن انه الف كتابه في ولاية هذا الاخير ، حوالي سنة 903/290 . الف ابن الصغير المالكي كتابه في التاريخ ويتسم اسلوبه فيه بالميل الى ذكر النوادر أكثر من عنايته بالتاريخ ، يقول موتيلنسكي بحق عن كتابه انه : دراسة وافية لتاهرت الاباضية في حياتها الداخلية » .

وقد استعان ابن الصغير في تأليف كتابه بأخبار رواها عن اشخاص شتى من معارفه عاشوا في تاهرت ، وكان اكثرهم اباضيين رووا عن اسلافهم ، ولا يذكر المؤلف اسم المروى عنه الا نادرا . على انه ينبغي ان نذكر واحدا منهم بشكل خاص كان يدعى احمد بن بشير ، وكان من رجال الحديث في مدينة تاهرت . وكتاب ابن الصغير مصدر سنّي غاية في الأهمّية الفه صاحبه المالكي

وليس لدينا ما يشير الى اصل المؤلف او نشأته ، وكل ما نعرفه عنه انه قام بتاهرت في العصر الرستمي الاخير كشيخ من شيوخ المالكية . وكان له نشاط بارز في المساجلات والمحاورات التي شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة اذ يصور في تاريخه جدله في المسائل الفقهية والدينية مع رؤساء الاباضية والمعتزلة ، كما نعلم من تاريخه انه كان يعمل تاجرا ويملك منذ شبابه دكانا في حي الرهادنة بتاهرت على ان اهميته كمؤرخ محقق نابه جديرة بان ينظر اليها كل مطالع خبير لكتابه بعين التقدير والاعجاب . اما اسلوبه في تاريخه للدولة الرستمية فانه يتسم بالصدق والوضوح والبلاغة وجمال التعبير . ونثره مرسل في متناول كل الناس ولا مبالغة في القول بان تاريخ ابن الصغير يعد بحق اهم مصدر عن دولة بني رستم . فهو معاصر لاحداث العصر الرستمي الاخير وشاهد عيان لها ، كما استمد معلوماته عن بني رستم الاوائل من معاصريه من شيوخ الاباضية وغيرهم . ولكونه سنيا ملكيّا كشف لنا عن كثير من اسرار عصره مما تغاضى عنه مؤرخ الاباضية ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التي تتعصب للامامة الرستمية . ومما يلفت الانتباه ان ابن الصغير التزم بالموضوعية في تاريخه . إذ كثيرا ما ابدى اعجابه بسيرة الراشدين من الائمة الرستميين ، ولم يثنه خلافه المذهبي عن الاشادة بسياساتهم . ولم يقدرلابن الصغير ان يشهد نهاية دولة بني رستم . مما يرجّح انه مات في اوائل التسعينات من القرن الثالث الهجري اذ يقف تاريخه عند امامة ابي حاتم يوسف بن محمد المتوفي سنة 906/294 — 907 . بجانب الآثار التي ذكرناها والتي الفت بالعربية آثار اخرى يحق القول بأنها دونها في القيمة ، وهي التي الفها اصحابها

باللهجة البربرية . واقدمها في الزمان ما دبجه يراع مهدى النفوسي الذي سبق ان تحدثنا عنه . وقد فند فيها مزاعم فرقة النفاثية ويرقى تاريخ تأليفها الى النصف الاول من القرن الثالث الهجري .

ومن بين العلماء الذين آثروا تحرير تصانيفهم باللهجة البربرية ذكر الدرجيني منهم ابا سهل الفارسي الذي كان فصيحا بلغة البربر ، وقد كان ترجمان جده افلح وقيل بل كان ترجمان خاله يوسف الامام . قيد له اثنى عشر كتابا في المواعظ وفيها جمل من تواريخ اهل الدعوة .

قد اشتهرت تاهرت ايضا بمن سكن فيها من العلماء والمتكلمين اليهود الذين كانوا متصلين اتصالا مباشرا بالأوساط العبرية البابلية .

وقد انجبت الحركة الدينية اليهودية المغربية في تاهرت اكبر عالم تغوى هو يهودا بن قريش التاهرتي الذي كان يحسن العربية والعبرية والبربرية والارامية والفارسية وكان عالما بها كلها متضلعا فيها وهو واضع اساس علم اللغة المقارن بابداعه منهجية جديدة لدراسة اللغة العبرية مقارنا لها باللغتين الساميّتين المشبهتين لها وهما الارامية والعربية .

هذا فيما يتعلق بالحياة الادبية في المملكة الرستمية اما ما يخص ناحية القطر الجزائري التي كانت تحت هيمنة الاغالبة فقد اشتهر بها : ابراهيم بن الاغلب (140 ــ 757/196 ــ 812) فقد كان ثاني الاغالبة ولاة افريقية لبني العباس .

كان ابوه الاغلب قد وليها 148 ــ 765/150 ــ 767 فقتله ثائر ــ كان الرشيد ولاه بلاد الزاب ــ وابن العكي على افريقية كان ابراهيم بن الاغلب فقيها اديبا شاعرا خطيبا ذا راى ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكايدها جرىء الجنان طويل اللسان لم يل افريقية احسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه ــ كان ابراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب هذا له جلاجل ام ولده لمانه منه ، قال الليث يوما : ليكونن لهذا الفتى شأن . وكان لابراهيم فضائل جمة ومآثر حسنة طاعت له قبائل البربر وتمهدت افريقية في ايامه .

كان له مع راشد (ت 804/188) امير المغرب مولى ادريس الحسني مواقف ومحاربة . وكان راشد قد علا امره . وكان الاغالبة في القيروان يتتبعون اخبار الدولة الادريسية الناشئة في جوارهم ويبعثون بالاموال للقضاء على ادريس (الرضيع) وكانت لهم يد في قتل ابيه بالسم ، فما زالوا على ذلك الى ان تمكن ابراهيم بن الاغلب من دس بعض البربر لراشد ،

فقتلوه غيلة في وليلي بعد نشوء ادريس وتسلمه عرش ابيه بقليل ، وهو القائل — وقد خلف اهله بمصر عند التحاقه بالزاب :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة الا وذكرك يثني دائبا عنقي
ولا ذكرتك الا بت مرتفقا ارعى النجوم كان الموت معتنقي

وقال لدى دخوله القيروان قائما بنصرة ابن العكي وهرب تمام بن تميم امامه :

لو كنت لا قيت تماما لصال به ضرب يفرق بين الروح والجسد
لكنه حين شام الموت يقدمني ولى فرارا وخلى عن البلد
ان يستقم نعف نعف عما كان قدمه وان يعد بعدها في غدرة نعد

احمد سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم . بن عقال التميمي الذي توفي حوالي سنة 874/260 فكان من رجالات بني عمه الأغالبة . وتولى عمل الزاب ثم طرابلس سنين طويلة وله بها اخبار وآثار ووقائع مشهورة .

ثم ولي جزيرة صقلية . فاقام بها مدة . وقهر الروم البيزنطيين . وله في بر العدوة الطليانية ، بلاد قلورية ، فتوحات مشهورة . وكان في الادب والجود بمكان رفيع وفي مدحه يقول بكر بن حماد التاهرتي . وقائله :

زار الملوك . فلم يغد فياليته زار ابن سفيان احمدا
فتى يسخط المال الذي هو ربه ويرضى العوالى والحسام المهندا

توفي احمد بالقيروان عن سن عالية . ومن شعر احمد قوله يفتخر :

قربوا الابلق . واني اعرف الخيل العتاقا
وعليها اصرع الأبطال طعنا واعتناقا
اخطب الارواح والأنفس بالرمح صداقا
واروى من نجيع الهام اسيافا رقاقا
تنقع الاعداء في النقع حميما وغساقا
فاذا ما دارت السلم بما نبغي وفاقا
وازحنا كل ما كان شقاقا ونفاقا
اصطبحناها سلافا وشربناها اغتباقا
وادرنا الكاس بالسراح على الشرب دهاقا

ب ــ النشاط المعماري والبحوث الاثرية :

اتفق المؤرخون على القول بان تاهرت شاهدت ــ فور اختطاطها ــ نشاطا معماريا قويا . ذكر ابن الصغير ان اهل تاهرت ــ في عهد عبد الرحمن بن رستم : « شرعوا في العمارة والبناء ، وإحياء الموات وغرس البساتين واجراء الانهار واتخاذ الارجاء ... ليس احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم . » وانك « لا ترى دارا الاقيل : هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين . » .

وان إباضيّي العراق ــ في رحلتهم الثانية الى تاهرت : « وجدوا الامور قد تبدلت واحوال المدينة والاشياء قد حالت ، وذلك انهم نظروا الى قصور قد بنيت والى بساتين قد غرست والى ارحاء قد نصبت . » .

وان حصنا يعرف بتاليت كان في طرف لواته ، وان ابا حاتم كان له قصر على نهر مينة . وانه اقيم مسجد في الرهادنة .

روى ابو زكريا يحيى بن ابي بكر في كتاب سير الائمة واخبارهم ان الفاطميين لما وصلوا الى تاهرت اكتشفوا مئذنة ملئت بالكتب . وان الناس ــ في عهد عبد الوهاب انزلوا (القاضي) في الدار المعروفة بدار القضا وان افلح في ولايته : ابتنى القصور واتخذ بابا من حديد « وانه لما شبت نار الحرب الاهلية في ايام ابي بكر » شرعوا (العرب والجند) في بناء الحصن ، حتى استدار حصنهم . وركبوا له ابوابه وعلته ابراجه ، « وان كان في ايام ابي اليقظان بيت مال ودار للزكاة ومسجد جامع ــ وانه كان لرجل من تاهرت محمد بن حماد ــ على بعض اميال من المدينة منزل يقال له الثلث ، قد جمع الاشجار والانهار والمزارع والنخل والقصور » .

قام جورج مارسي ودوسوس لامار في شهر سبتمبر 1945 ــ ببحوث آثارية على مقربة من تاهرت ، ونشرت في المجلة الافريقية لسنة 1946 مكنتهما من وضع رسم هندسي افتراضى الهدف منه اخراج جزء من سور المدينة من الارض والقصبة وخزان ومطامير وكسر خزف كان لمدينة تاهرت ــ حسب رايهما ــ شكل مستطيل اضلاعه المتوازية غير متساوية ، وابعاده : 1100م من الشرق الى الغرب و 700 الى 800م من الشمال الى الجنوب وكان للقصبة شكل مستطيل مشتملة على مساحة مسورة طولها 30م وعرضها 33,65م . ابعاد القصبة 65م على 35,65م .

في الجدار الشمالي باب يؤدي الى القصبة والى بهو طوله 510م وعرضه 246م . على جانبيه مصطبتان ويفضي الى فناء بعداد 20م 50م . يحيط بجهاته الاربع قاعات ذات اشكال مختلفة . في قرارة الفناء سلمان يرقيان الى الطابق الاول .

يشتمل الخزان على ثلاثة احواض رئيسية ذات شكل مستطيل ومتلاصقة وجدرانها مبنية باحجار ملتحمة بالملاط ومدهونة بطلاء كثيف ، وقد اكتشف عدة مطامير قريبة من القصبة .

ان كسر الخزف التي تم العثور عليها في تاهرت تدل على ان الرستميين كانوا يستعملون اواني جد بسيطة مثل القلل والجرار واباريق الفخار والاطباق والمصابيح وان حسنها كان يتمثل في خطوطها المتوازية التي ترسم عليها بآلات شبيهة بالمشط هذه هي النتائج التي انتهى اليها جورج مارسي ودوسوس لامار .

ان كوكبة من الباحثين تنتمي الى مركز الابحاث في الهندسة المعمارية والتعمير هي معنية منذ عامين بنقل صورة لانقاض تاهرت . وفي نيتها نشربحوثها في القريب العاجل .

أهم االأحداث التي وقعت في العالم في عهد الرستميين

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
761/144 762 تأسيس مدينة تاهرت	262/144 تولية محمد ابن الاشعث الخزاعي			762/145 763 تأسيس مدينة بغداد	762/144 وفاة الامبراطور الصيني سو تسونغ
	765/148 تولية الاغلب ابن سالم التميمي			767/150 وفاة أبي حنيفة	
768/151 معركة طبنة					770/153 وفاة الشاعر الصيني توفو
	768/151 تولية عمر بن حفص وثورة أهل طرابلس			775/158 تولية الخليفة العباسي المهدي	771/154 تولية شارلمان ملك الافرنج
776/160 تولية عبد الرحمن ابن رستم	772/155 تولية يزيد ابن حاتم				772/155 مولد الشاعر الصيني بوكيوني
784/168 تولية عبد الوهاب ابن عبد الرحمن				785/169 تولية الخليفة العباسي الهادي	778/162 غزو الامبراطور شارلمان لاسبانيا
787/171 788 عقد الصلح بين الرستميين وروح ابن حاتم	787/171 788 تولية روح ابن حاتم	789/172 تولية ادريس الأوّل	789/172 تولية هشام ابن عبد الرحمن	786/170 تولية الخليفة العباسي هارون الرشيد	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	790/174 تولية نصر بن الحبيب المهلبي	790/174 تولية أبي منصور اليسع على سجلماسة			794/178 بداية فترة هيان الأولى باليابان
	793/177 — 794 تولية الفضل بن روح	791/175 — 792 قتل ادريس الاول	796/180 تولية الحكم ابن هشام	795/179 وفاة الامام ملك ابن انس	
ابن الحاتم	795/179 تولية هرثمة بن الاعين		800/184 بداية انتشار المذهب المالكي	801/185 وفاة سيبويه	800/184 تعيين شارلمان كامبراطور الغرب
	797/181 تولية محمد بن مقاتل العكي	802/186 تولية ادريس الثاني		803/187 قتل اسرة البرامكة ببغداد	802/186 تأسيس امبراطورية كمير بالكامبوج
	800/184 تولية ابراهيم ابن الاغلب			805/189 وفاة الكساعي	
		808/192 تأسيس مدينة فاس		809/193 تولية الخليفة العباسي الامين	807/190 تأسيس مدينة هامبروغ
	812/197 توليت ابن العباس عبد الله بن ابراهيم			810/194 وفاة ابي نواس 813/198 توليت الخليفة العباسي المأمون	820/204 أول غزوات نومانية بفرنسا
	817/201 تولية زيادة الله الاول			817/201 تأسيس الدولة الساماتية 820/204 وفاة الامام الشافعي	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
824/208 تولية افلح ابن عبد الوهاب	836/221 تولية علي الاول بن محمد	824/208 تولية مدرار المنتصر بسجلماسة	822/206 تولية عبد الرحمن بن الحكم	832/217 تأسيس بيت الحكمة ببغداد	826/210 يفتح المسلمون جزيرة كريت
	838/223 تولية ابي عقال ابن ابراهيم	828/213 تولية محمد ابن ادريس الثاني	852/238 تولية محمد ابن عبد الرحمن	833/218 تولية الخليفة العباس المعتصم وتأسيس مدينة سامرّا	831/216 يفتح المسلمون بالرمو عاصمة جزيرة صقلية
	849/234 تولية يحي الاول بن محمد		861/247 تولية الخليفة العباسي المستنصر	835/220 يؤسس ابن طولون الدولة الطولونية بمصر	840/225 يفتح الاتراك مانغوليا
	856/242 تولية ابراهيم احمد		862/248 تولية الخليفة العباسي المستعين	836/221 تأسيس مدينة سامرا	843/228 تقسيم الامبراطورية الكارولنجية بمدينة فردون
				نحو 840/226 وفاة الخوارزمي	846/231 يغزو المسلمين مدينة روما ووفاة الشاعر الصيني بوكيوني
				843/228 وفاة ابي تمام	
				846/231 بداية تأسيس مسجد سامرا	
				847/232 تولية الخليفة العباسي المتوكل	
				855/241 وفاة الامام ابن حنبل	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
864/250 — 865 تولية ابي بكر ابن افلح 868/254 — 869 تولية ابي اليقظان 875/262 تأسيس مدينة تنس 893/280 وصول ابي عبد الله الشعي ببلاد كتامة	863/249 تولية زيادة الله الثاني 864/250 865 تولية ابي الغرانيق محمد الثاني 875/261 تولية ابي اسحاق ابراهيم الثاني	863/249 تولية يحيى الثاني بن يحيى 866/252 تولية علي الثاني ابن عمر بفاس 867/253 تولية ميمون ابن مدرار بسجلماسة 876/263 877 تولية محمد بن ميمون بسجلماسة 883/270 — 884 تولية اليسع ابن المنتصر	871/257 وفاة المؤرخ ابن عبد الحكم 875/261 وفاة مسلم 886/273 تولية المندر ابن محمد 888/275 تولية عبد الله ابن محمد	864/250 تأسيس امارة زيدية بطرستان 866/252 تولية الخليفة العباسي المعتز 867/253 تأسيس دولة بني الصخار في سمستان 868/254 تأسيس الدولة الطولونية بمصر 869/255 تولية الخليفة العباسي المهتدي ووفاة الجاحظ 870/256 تولية الخليفة العباسي المعتمد ووفاة البخاري 874/261 تأسيس الدولة السّمانية بخراسان 876/263 877 نهاية الدولة الطولونية بمصر 892/275 تولية الخليفة العباسي المعتضد	869/255 يفتح المسلمون جزيرة مالطا 875/261 هي تسونغ الامبراطور الصيني وقتل التجار المسلمين بكانتون 885/272 يحاصر النورمان مدينة باريس 893/280 تولية سيميون كامبراطور بلغاريا

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
894/281 895 تولية ابي حاتم					898/283 بداية فترة ميان الاخيرة او فترة فوجيوارا
902/289 سقوط مدينة ميلة بين يدي ابي عبد الله الشيعي 903/290 تأسيس مدينة وهران	902/289 تولية ابي العباس عبد الله الثاني				900/287 احتلال المجر لاوروبا الوسطى وبداية حضارة تيهوا نيكو بالبيرو
904/291 سقوط مدينة سطيف بين يدي ابي عبد الله الشيعي 906/292 907/293 سقوط ناحية الزاب بين يدي ابي عبد الله الشيعي	903/290 تولية زيادة الله الثالث	905/292 تولية يحيي الرابع			
906/294 — 907 تولية يقظان آخر امام رستمي 908/296 سقوط تاهرت بين يدي ابي عبد الله الشيعي		908/296 سقوط سجلماسة بين يدي ابي عبد الله الشيعي			908/295 نهاية دولة تانغ في الصين

ذكر المصادر والمراجع باللغة العربية

ـــ ابن الاثير ، **الكامل في التاريخ** ، دار الكتاب العربي 1967/1387 ،

ـــ **ابن خلدون كتاب العبر** ، **الجزء** السادس ، دار الكتاب اللبناني 1959 .

ـــ ابن خراد اذ به ، **كتاب المسالك** ، الجزائر ، 1948 .

ـــ ابن رسنة ، **كتاب الاعلاق النفسية** ، الجزائر ، 1948 .

ـــ ابن الرفيق ، **تاريخ افريقية والمغرب** ، تونس ، 1968 .

ـــ ابن الصغير ، **أخبار الائمة** ، نشرة وترجمة الى اللغة الفرنسية مونيلينسكي ، في اعمال المؤتمر الدولى الرابع عصر للمستشرقين باريس ، 1908 ص : 1323 .

ـــ ابن عبد الحكم ، **فتوح افريقية والاندلس** ، الجزائر ، 1948 .

ـــ ابن عدارى المراكشي ، **البيان المغرب في اخبار المغرب** ، مكتبة مادر ، بيروت ، 1950 .

ـــ ابن الفقيه الهمذاني ، **كتاب البلدان** ، الجزائر 1948 .

ـــ ابو زكريا ، **كتاب سير الائمة واخبارهم** ، تحقيق اسماعيل العربي ، الجزائر 1979/1389

ـــ البرادي ، **الجواهر المنتقات** ، نسخة مطبوعة على الحجر ، القاهرة ، 1300 .

ـــ البكرى ، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ، باريس 1965 .

ـــ الدرجيني ، **كتاب المشائخ بالمغرب** ، تحقيق ابراهيم طلاى .

ـــ الشماخي ، **كتاب السير** ، نسخة مطبوعة على الحجر ، القاهرة ، 1301 .

ـــ عبد الرحمن الجيلالي ، **تاريخ الجزائر العام** ، المطبعة العربية الجزائرية 1954/1373 .

ـــ عبد الحميد حاجيات ، تاريخ الادارسة من خلال نظم الدور العقيان للتنسي ، مجلة التاريخ عدد : 9 ـــ 10 .

ـــ محمد الطالبي ، **تراجم اغلبية مستمرجة من مدارك القاضي عياض** ، تونس ، 1968 .

ـــ النويرى ، نهاية الارب ـــ انني نشر منتحبات منها .

الباب الثالث

الجزائر في عهد الفاطميين والزيريين

الفصل الاول

أصل الفاطميين وملحمة أبي عبد الله الشيعي

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

1 ـــ اصل الفاطميين:

ما يزال الخلاف قائما وحادا ، في العصر الحاضر ، حول اصل الفاطميين . يدعي انصارهم انهم من نسل فاطمة الزهراء ـــ رضى الله عنها ـــ بنت محمد بن عبد الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بينما خصومهم الذين يسمونهم العبيديين وبني عبيد ، يتهمونهم بادعاء انتسابهم الى اهل البيت .

نحن لا نريد ان نعرض لدراسة تاريخ حركة الفاطميين في المشرق دراسة مفصلة بل نكتفي بتلخيص ذلك فحسب .

ترشح الخلافة ـــ بعد مقتل الامام علي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، ثلاثة من ابنائه . وهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ـــ ولى الحسن ـــ رضي الله عنه ـــ الخلافة مدة ستة اشهر وخمسة ايام ثم خلع نفسه وسلم الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان .

اما الحسين ـــ رضي الله عنه فقد ابى ان يبايع يزيد بن معاوية . بالخلافة فنشب قتال بين الحسين واتباعه وجيش يزيد في كربلاء . فاستشهد الحسين (61/680 ـــ 681) وكان ابناؤه صغارا . فانضم الشيعة الى محمد بن الحنفية الذي قاوم بني امية طويلا . وانتهى امره بتسليم الخلافة الى عبد الملك بن مروان (26 ـــ 646/86 ـــ 705 ولما ولي بنو العباس الخلافة حاول الشيعة ان يبايعوا جعفر الصادق (80 ـــ 700/148 ـــ 765) بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بالخلافة .

وفي هذه الأثناء بالضبط سنة 762/145 — 763 يعزي الى جعفر الصادق . سادس الأئمة الاثنى عشر عند الامامية — ارسال داعيين هما : الحسين بن القاسم ابو سفيان وعبد الله بن على الحلواني لنشر الدعوة الشيعية الاسماعيلية السرية في بلاد المغرب . وينسب اليه قوله لهما : « بالمغرب ارض بور . فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » .

وبعد وفاة جعفر الصادق انقسم الشيعة الى اسماعيلية وهم الشيعة السبعية فرقة تشبه فرقة الاثنى عشرية في تشيعها المتطرف لآل البيت ، وتتفق معها في سلسلة الائمة الى الأمام السادس . وهم : علي — الحسن — علي زين العابدين محمد الباقر جعفر الصادق .

وقد ظهر الخلاف بين الفرقتين عقب وفاة الامام اسماعيل فجأة في حياة والده جعفر الصادق الذي عينه اماما سابعا ليخلفه . فلما مات له اسماعيل نقل خلافة الامامة الى ابنه الآخر : موسى الكاظم فبايعه فريق من الاشياع واعتبوه امامهم السابع وانتهوا في سلسلة أئمتهم الى الامام الثاني عشر ، وهو محمد المهدى ابن الامام الحسن العسكرى الذي اختفى فجأة يوم وفاة والده الشاب سنة 260هـ 873 — 874م . فهؤلاء هم الشيعة الاثناعشرية . وينتمي اصل الفاطميين الى اسماعيل (ت 760/143) . فاشتد نشاطهم بشكل خاص بعد ما اخبر الشيعة الاثناعشريون ان امامهم الثاني عشر توفي وانه المهدى وانه لا يظهر الا في آخر الزمان . واعلن الاسماعيلية ظهور المهدى المنتظر الوشيك الوقوع . وارسلوا دعاة الى كل أقطار العالم الاسلامي اما الداعي المرسل الى المغرب فهو ابو عبد الله الشيعي .

2 — ملحمة ابي عبد الله الشيعي :

ولد ابو عبد الله الشيعي بالكوفة ، واعتنق الاسماعيلية في العراق وكان في اول امره صوفيا . وعرف بالمحتسب لممارسته خطة الحسبة في مدينة البصرة . وكان عارفا بأساليب التعليم وكان في بدء حياته اثناء عشريا . ثم اعتنق الاسماعيلية محتذيا في ذلك ابا علي كبير دعاة الاسماعيلية وقد التحق ابو عبد الله بأبي علي في مصر بصحبة اخيه ابي العباس الذي اعتنق المذهب الاسماعيلي مثله . ومن مصر انتقل ابو عبد الله الى اليمن ليتلقى اساليب الدعوة عن ابن حوشب . ثم اتجه الى مكة ليتصل بحجاج من كتامة طلبوا منه ان يرافقهم الى بلادهم ، وهكذا وصل ابو عبد الله سنة 893/280 الى ارض كتامة التي يحدها من المغرب وادى الصومام ووادي القصب . ومن الشرق الوادي الكبير ومن الجنوب شط الحضنة وجبل اوراس .

أ ــ أبو عبد الله الشيعي في مدينة ايكجان :

استقر ابو عبد الله في مدينة ايكجان ، وقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار حول موقعها ذكر محمد مرمول في اطروحته التي عنوانها : «السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في المغرب» ان ايكجان تقع في منطقة سطيف ، على مسافة ميلين من قرية بني عزيز (شفرول ــسابقا» . ونشر عدة صور شمسية تمثل ــ في نظره ــ السور الشرقي لمدينة ايكجان وبقيا برج من ابراجها ونهجا من انهجها الرئيسية .

وذكر محمد طالبي ــ من جهته ــ في كتاب الفه حول بني الاغلب ، اعتمادا على بيانات ذكرها القاضي النعمان ، ان ايكجان كانت قرب ميلة ، وقال : «ان ابا عبد الله الشيعي لما اعرب عن رغبته في الذهاب الى الحمام ، اجابه احد الحاضرين : ان الحمام في ميلة . وهو جد قريب منك» .

واضاف طالبي قائلا : «ان مصير ايكجان وحتى حياتها يبدوان لنا مرتبطين ارتباطا وثيقا بقلعتها» .

ان كلا من مرمول وطالبي لم يطلع احدهما على ما ابداه الاخر من راى حول الموضوع ، لان كتاب مرمول نشر بعد صدور اطروحة طالبي . ولم يذكر مرمول كتاب طالبي من بين المراجع التي اعتمد عليها .

والجدير بالذكر ان مدينة ايكجان تقع ــ في خريطة نشرها طالبي ــ على مسافة 37 كم في السمال الشرقي من سطيف . وعلى 41 كم ، في الشمال الغربي من ميلة . فهي اذن اقرب الى سطيف منها الى ميلة .

وربما كان الاتصال بميلة اسهل منه بسطيف . لذلك كان ينبغي ان تقوم دراسة تويوغرافية علمية للمنطقة تشمل الموقع الذي يفترض وجود ايكجان وميلة وسطيف فيه وايا ما كان فان ابا عبد الله ، فور وصوله الى ايكجان ، شرع في الحديث عن آل البيت واستعراض مناقبهم وكراماتهم . ولم يبح بشيء من مشاريعه السياسية الا لأقرب الناس اليه . وقد انشغل بال عامل ميلة من ذلك . وطلب من بني سكتان الذين كان قد نزل ابو عبد الله في ضيافتهم ان يسلموه له . فأبوا . فأرسل اذ ذاك الامير الاغلبي ابراهيم الثاني الى صاحب ميلة رسولا حمل اليه امره بالقيام بواجبه ، فانتهز ابو عبد الله هذه الفرصة ليدعوه الى الدخول في الدعوة وخدمتها . ولما ابى اخذ ابو عبد الله في التنديد ــ بأسلوب عنيف ــ بسياسة الدولة الاغلبية وبما فيها من ظلم . واخبر بوشك رجوع المهدى الذي كان يأمل منه ان يقيم حدا لما آلت حالة البلاد والعباد اليه من الفساد .

فأقلقت هذه الدعاية ، في الوقت نفسه ، ولاة ميلة وسطيف وبلزمة ورؤساء قبائل كتامةالذين صارت سلطتهم مهددة وبعد تردد عميق استعد يبان بن سقلان ــ وكان احدا من وجهاء بني سكتان ذوى الحظوة الرفيعة ــ الذي كان عرضه الأشد الضغوط من قبل خصوم ابي عبد الله ــ استعد لترك الشيعي . فاذا بالحسن بن هارون ، احد رؤساء بني غشمان الغشمي يصل الى ايكجان ويقترح على ابي عبد الله الداعي ان يضعه تحت حماية ويسير به الى تازروت .

ب ــ أبو عبد الله الشيعي في تازروت :

التحق ابو عبد الله بتازروت بعد استشارته لأتباعه وحصوله على رضاهم . وتازروت قرية صغيرة على مقربة من ميلة لم يعين بعد موقعها .

اعدت تازروت ــ المدينة المقدسة لدى الفاطميين ــ استقبالا حارا لابي عبد الله واتباعه . وقد حاول خصومه اقصاءه مستغلين التنافس الناشب بين الحسن بن هارون الغشمي وأخيه الاكبر محمود .

وبعد اطلاع ابي عبد الله عى جلية امر طلب هذا من انصاره ان يسلبوا من محمود سلاحه . هذا الذي لم يكتف بتسليم شركائه ، بل اسهم في مقاومة المتآمرين . ولقي حتفه اثناء ذلك ، وبعد مصرعه التحق كثير من القبائل بصفوف بني غشمان . فبادر ابو عبد الله حينئذ بخصوص معركة الهجوم .

وبعد ما ذهب شيخ مزاتة الى الامير الاغلبي ابراهيم الثاني ليقدم اليه ولاءه واحترامه خربت خيألة ابي عبد الله ارضه ولما شاهد الاعداء ، ذلك تحالفوا وأحاطوا بتازروت ، فبادر ابو عبد الله ــ قبل ان يهلك هو واصحابه تحت العدد الكبير من خصومه ــ الى الهجوم ، وانقض بغته على ناحية ميلة ، وهزم خصومه ، واحرق ديارهم ، واستولى على املاكهم . ولكنه احترم نساءهم فكان هذا التصرف منه سببا في ميل خصومه اليه . وهجم بعد ذلك على قطاع سطيف وتكلل سعية بنصر باهر .

ثم ان مزاتة قد ابيدوا عن آخرهم لانهم لم يكن لهم موقع حصين يلجأون اليه .

وقد مكنت هذه الحملات العسكرية المتعددة اتباع ابي عبد الله من الاستيلاء على غنائم ضخمة وفور رجوع ابي عبد الله الى تازروت بني قصرا جعله مقرا لاقامته وسكنا لاتباعه . ان تازروت دار الهجرة التي كان انصار الداعي يلوذون بها اذا نقصهم الشعور بعدم الامن ين قومهم وذويهم .

ان عبد الله الشيعي قويت سلطته شيئا فشيئا باستثناء ثلاث قلاع ذكرناها من قبل . وذكرنا من كان ساكنا حولها من الناس . وانضمت قبائل كتامة كلها الى حزبه . وشرع أبو عبد الله حينئذ في تنظيم شؤونه ، فوحد البطون الذين كانوا عزماءه من قبل بالحث على احترام الشعائر الدينية والاداب الاسلامية . فقسم بلاد كتامة الى سبع مناطق ، ووضع على رأس كل منطقة منها رئيسا عسكريا دعاه « مقدما » ورئيسا سياسيا سماه « داعيا » مواصلا تكوين اتباعه تكوينا سياسيا وعسكريا . وكان سر نجاحه في عمله كامنا في انه كان مثالا حسنا للورع . وكان سلوكه مستقيما . وكان يستهين بمظاهر الغنى والترف . ولم يجد الطمع سبيلا الى نفسه ، فلم يأخذ قط شيئا من الغنائم .

ج ــ غزو ميلة :

بعدما ادخل ابو عبد الله اكثر قبائل كتامة في حزبه قرر ان يهجم على ميلة قبل ان يمدها الامير الاغلبي بالعدد والعتاد .

انه كان لهذه المدينة بقلعتها خطورة استراتيجية عظيمة . فاستغل ابو عبد الله التنافس الناشب بين بني سليم ورئيسهم موسى بن عباس بن عبد الصمد حاكم المدينة وبين بني ربيعة الذين زعيمهم الحسن بن احمد بن كيب المعروف اكثر بلقب ابن خنزير حاول الداعي ان يتصل بهذا ليدعوه الى اعتناق الاسماعيلية . وبعدما اضعف ابو عبد الله قوة القبائل الساكنة حول القلعة استطاع ان يستولي على هذه ، فطلب موسى بن عبد الله الامان وسلم من القتل ، وافلح ابنه ابوابراهيم في اللحاق بافريقية مع بعض اصدقائه . ومنح الداعي ولاية ميلة لابي يوسف مكتوم بن دبارة الاجاني الذي كان من اول بني كتامة الذين اعتنقوا مذهب الشيعة .

د ــ الصراع بين ابي عبد الله الشيعي وابي عبد الله الاحول :

لما بلغ خبر سقوط ميلة الامير الاغلبي جند جيشا وجعل قيادته لابنه ابي عبد الله الاحول . وكان في الجيش كل اعداء الداعي الذين لجؤوا الى افريقية . وبلغ عددهم اثنى عشر الفا . غادر الجيش افريقية في ذى القعدة 289/ اكتوبر ــ نوفمبر 902 . ولكثرة من التحقوا بالجيش ، اثناء الطريق ، من الرجال تضاعف عدده عند وصوله الى سطيف . وقد التحقت به حاميات سطيف وبلزمه والقبائل التي عاشت في حمايتها .

انتهت المعركة الاولى بقتل عدد كبير من جنود الشيعة ، وبعد هذا الانتصار انسحب الجيش الاغلبي الى باغاية ، وتحصن بها . واستأنف الهجوم في فصل الشتاء . وفي اثناء

الاشتباكين الاولين بين الجيشين انهزم الداعي . ولكن تمكن من الانسحاب الى تازروت ، ومنع سقوط الثلج الجيش الاغلبي من مطاردة العدو . وانتقل الجيش الشيعي من تازروت الى ايكجان . وصل الجيش الاغلبي الى تازروت التي اخلاها اهلها واقدوا فيها النار . ثم وصل الى ميلة بعدما غادرها اهلها ، فخيم الجيش خارجها ريثما يقع الهجوم على ايكجان . امر الداعي بقتل ابي عبد الله موسى بن عباس عامل ميلة القديم الذي اتهم بارسال ابنه لطلب المساعدة من الامير الاغلبي . وامر بالقاء جثته في مطمورة قمح في ايكجان .

استأذن ابن موسى الذي كان في صفوف جيش افريقية ان تذهب للبحث عن جثة ابيه والاتيان بها . ذهب على راس سرية خيالة . فوجد القرية خالية ولكنه لمح فرقة مرافقة لحمولات عليها عتاد ، ومتوجهة الى ايكجان فهجم عليها وقتل فأرسل كلا للمعسكرين العون لجنوده ، وبقيت المعركة بينهما متساوية مدة طويلة ولكن عند المغرب تقهقة الجيش الاغلبي ، لان عددا كبيرا من وحداته قرر ترك المقاومة واضطر ابو عبد الله الاحول الى ان يرجع الى افريقية .

وفي 20 من جمادى الاولى من العام التاي /20 ابريل 902 ، حمل حملة ثانية ووصل الى سطيف ، ثم الى ارض ملوزة حيث تم انتصاره على الداعي . فعسكر ابو عبد الله الشيعي من جهته على ارض لهيصة وانتهت المعركة التي استمرت طوال النهار بانتصار الشيعة وفي اليوم التالي انسحب ابو عبد الله الاحول ، بعدما خذله جنوده الى سطيف ، ثم الى طبنة التي اتخذها مركز قيادته . وكان يأمل ان يتلقى فيها مساعدات . ولكن طرأت احداث من الخطورة بمكان في افريقية . فقد اغتيل الامير الاغلبي عبد الله الثاني . واستدعى ابو عبد الله الاحول من طبنة ، ولقي نفس المصير الذي اودى بحياة ابيه .

هـ ــ غزو سطيف :

في رمضان 290/ اغسطس 903 اعتلى زيادة الله الثالث الذي فتك بأبيه عرش الامارة ، وعاش عيشة انحلال وتهالك في الملذات ومعاقرة الخمر ، فانتهز ابو عبد الله الشيعي هذه الفرصة ، فارسل الدعاة الى كل ارجاء المنطقة للاعلان بظهور المهدى في الايام القابلة القريبة . وصار يشنع بأسلوب عنيف على الامير الجديد ، قبح سلوكه فجمع زيادة الله ، لاجهاض مشاريع الداعي ، أكابر فقهاء افريقية جميعا ليعلنوا الجهاد على ابي عبد الله .

فلعنوه من على كل منابر المملكة الاغلبية فلم ينل ذلك من نشاط الداعي قلامة ظفر وفي النصف الثاني من سنة 903/291 ــ 904 ضرب الشعي الحصار على سطيف . فخرج علي بن حفص بن عسلوجة على المحاصرين ، وحمل عليهم حملات اجبرتهم على الانسحاب ، وبعد شهر ، واثر تعبئة كل جنوده اعاد ابو عبد الله الكرة . وحاول عامل

سطيف اولا ان يقاتل الجنود الشيعية خارج القلعة ، ولكن لما راى المهاجمين يكتسحونه بعددهم انسحب الى ما وراء الاسوار ، وبعد ذلك بأيام قلائل توفي هو وابنه . فغمر الحامية وهن العزيمة . فطلبت تلامان وحصلت عليه ، باستثناء من كان غير جدير بالعفو عنه فدخلت الجنود الشيعية المدينة حوالى آخر سنة 291/ اكتوبر نوفمبر 909 .

و ـــ انتصار كيونه :

لما علم زيادة الله بسقوط سطيف ارسل كل الجنود الجاهزة لديه لقتال الداعي ، واسندت قيادة هذا الجيش الذي بلغ عدده اربعين الف جندي الى الأمير ابراهيم بن حبشي . فلم تكن له أي خبرة بفن الحرب ، وحوالى شهر رجب 293/ ماي ـــ جوان 905 وصل الجيش الى قرية واقعة على ارض اجانة .

وكانت القرية تدعى كيونه او اكبونة واعين الكرمة . والتي ـــ حسبما ذكره محمد مرمول ـــ قد تكون واقعة على مسافة 15 ميلا غربي مدينة قسنطينة ، فلقي الجيش كتيبة استكشاف شيعية ، فانقض عليها ابراهيم بن حبشي في الحال قبل ان يتأكد هل جنوده على استعداد لخوض المعركة . ولما علم الداعي بذلك القى بكل قواته في حومة الوغى واثخن في الفتك باكثر القوات الاغلبية ، واستولى على مغانم ضخمة فقفل ابراهيم بن جبشي الى القيروان ، ولجأ ما بقي من فلول جيشه المنهزم الى طبنة .

ارسل زيادة الله ، بعد هذه النكبة ، رسالة دورية الى نواحي مملكته كلها ليدعوا الناس جميعا الى شن غارة شعواء على المتمردين وقد وجه الخليفة العباسي نفسه نداء الى سكان افريقية يحثهم فيه على مديد المساعدة لأميرهم في المعركة التي شنها للدفاع عن مذهب اهل السنة والجماعة وتشكل جيش جديد ، وصار الامير يسلم قدحا من ذهب معادلا لقرابة خمسين دينارا لكل جندي ، فارتفع عدد الجنود المنخرطين في الجيش ارتفاعا كبيرا . وانحاز الجيش الاغلبي الى الاربس . اما ابو عبد الله الشيعي فبدل ان يغزو افريقية اختار ان يبدأ بالزاب الذي كانت طبنة عاصمته مهد الدولة الاغلبية ومدينة من اهم المدن الحصينة في مملكتهم . صمدت طبنة اكثر من سنة لغارات كتامة . ثم شنوا هجوما قويا مدعوما بآلات حربية ، روى ابن الاثير انهم قدموا امامهم ابراجا متحركة ضد اسوار المدينة ، وحفروا حول برج وجدار ، وهدموا سور المدينة بعد معركة ضارية ، فلجأء الحامية الى القلعة ولكن واحدا من مجانيقها كان معطلا عن السير ، فطلبت الأمان ، فمنع لها ، واستولى ابو عبد الله الشيعي على المدينة في نهاية ذي الحجة 21/293 اكتوبر 906 . وعامل سكان الزاب معاملة كريمة ، ورد لهم ما كان اخذه الجباة منهم من ضرائب غير شرعية . ثم لحق بايكجان ، وعقد ليحي بن سالم اميرا على طبنة .

ثم حان دور بلزمة قد همتها غارة الجيش الشيعي ، وبعد حملات تمهيدية عليها لاتلاف غلال المناطق المجاورة لها شن عليها غارة قوية مدعومة بألات حربية . اما القلعة المجهزة بالمجانيق فقد صمدت صمودا شديدا ، ولما هلك رئيسها حي بن تميم ونفدت اقواتها حتى اكل سكانها جلود الدرق . وطلبت الامان رفض طلبها ، وقدم ابو عبد الله ابراجا متحركة قذف منها مشاعل موقدة ، واحرق بها المدينة ، واعدم السكان جميعا بحد السلاح ، الا النساء والاطفال . ونهبت القلعة وهدم سورها ، وسقوط بلزمة اعقبه سقوط دار ملول التي فتحت ابوابها اللشيعة ، فانتقم منها زيادة الله الثالث ، جمع جيشا فيه اثناعشر الف مقاتل ، وامره باتلافها ، ولما كان الجيش قافلا هزمته سرية شيعية ، وهجم ابو عبد الله بعد ذلك على تيجس . فبعد غارة فاشلة تم الاستيلاء عليها بسبب استراك عاملها في تدبير مؤامرة مع الشيعة ، لأنه اعتنق المذهب الشيعي ومنح الاذن لسكانها باخلائها وحمل اموالهم .

اتصل اعيان مدينة باغاية بالداعي ، وعرضوا عليه تسليم القلعة ولما تقدم الداعي امام المدينة لجأ اميرها الى الأربس ، وقد كان شعر من قبل بالمؤامرة ، فتح السكان ابواب القلعة في شعبان 294/ ماي — جوان 907 .

ز — نهاية بني الاغلب :

حمل ابو عبد الله على مجانة بعد احتلاله للزاب ومجانة مدينة واقعة شرقي مسكيانة ، اخفق الهجوم الأول وانسحب الجيش الشيعي الى ايكجان ، ولكن الهجوم الثاني الذي انطلق من تبسه كلل بالنجاح . لأن عامل المدينة المحصنة تقدم نحو الغزاة وقتل مع من اعوزهم الوقت الكافي ليلجأوا الى القلعة ، وبعد ذلك بقليل تنازع سكان مدينة كرناية وسكان قصر الافريقي . فطلبوا الاعانة من ابي عبد الله ، فبادر بارسال جيش لنهب مدينة عدوهم ، ولما راى امير مدينة تيفاش تساقط المدن الحصينة التي حولها الواحدة تلوا الأخرى التحق بحزب الشيعة ، ولما اخبر احد رجال الاستعلامات ورجلان من الاعيان جيش الداعي بالوضع السائد ارسل الشيعي خمسمائة فارس للاستيلاء على القلعة ، وفر عامل المدينة فذهب السكان لاستقبال ابي عبد الله الذي منحهم الامان .

والتحق مقدم مدينة قالمة بالجيش الشيعي بحيث استطاع ثلاثمائة فارس ان يستولوا على قلعتها ، وصدر رد فعل من قبل الامير الأغلبي الذي ارسل اثنى عشر الف فارس الى تيفاش ، فسقطت في قبضتهم ، ولم يحاول ابو عبد الله ان يستردها ، ولكنه ذهب لضرب الحصار على مدينة حيدرة العتيقة التي يسميها القاضي النعمان « ميدرة » وابن الأثير « مدبرة »فاستولى عليها بسهولة ، ولكن الامان الذي وعد به السكان لم يمنع جنده من الفتك بهم والاستيلاء على كل اموالهم ، جمع ابو عبد الله وجهاء كتامة ولامهم على عدم امتثالهم لأوامره .

ومن هناك ذهب الى القصرين التي ارسلت طاعتها ، ثم صعد نحو الشمال حيث اضطره جيش اغلبي الى الانسحاب الى القصرين ثم الى ايكجان ، فأدى هذا الانهزام طائفة من القبائل الى الاستهانة بشأنه والتخلي عنه ، فقضى عليهم بكل قساوة واستولى على اموالهم ، ثم خرب قسطيلية ، اما قفصة فقد سلمت له كل اموال وممتلكات بني الاغلب حتى تسلم من النهب والدمار ، ثم التحق الداعي بايكجان ، وقد حاول عبثا زيادة الله الثالث ان يسترد باغاية لان قلعتها قد وصل اليها المدد قبل فوات الاوان .

قرر ابو عبد الله الداعي في جمادي الثانية 25/296 فبراير 909 ان ينتهي في امره الى حل ، فغادر ايكجان وتوجه الى باغاية واستولى على شقبانرية ، (مدينة الكاف الحالية» ثم واصل المسير الى الاربس ، وهي من اقوى قلاع افريقية .

وقد نشبت آخر معركة خاضها بنو الاغلب على سهل يقع في جنوبها ، وقد ابتسم لهم الحظ وساهدهم الغلب مقدار ساعة من زمان ، وكان ابو عبد الله يراقب من مرصده ما يجري من احداث على ساحة الوغي ، فشعر بحرج الموقف ، فأرسل مائة وخمسة وسبعين مقاتلا من خيرة جنده عراة تماما حاملين كل واحد منهم ترسا ورمحين ، واختلطوا بصفوف العدو وحملوا على خيالته من الخلف ، واثاروا بينهم الذعرو الهلع . فأنهزم الجيش الاغلبي وقتل سكان اللاربس عن آخرهم شرقتل .

ويوم الاثنين 24 جمادى الثانية 20/296 مارس 909 نهب الجيش الشيعي رقادة ، وهي خالية من سكانها ، وفر زيادة الله الثالث وحاول ابراهيم بن ابي الأغلب ان يلي الحكم بعده . فلم يستطع ان يواصل المقاومة لخلويده من المال والجند فولى وجهه شطر المشرق ، ودخل ابو عبد الله الشيعي القيروان ، ولم يستطع رغم كل المحاولات التي بذلها ان يجميها من الذهب الذي حل بها من قبل الجند .

وهكذا استطاع ابو عبد الله ان يقضي على دولة بني الاغلب بعد مقاومة مريرة استمرت سبع سنين .

وبعد ما عني بتنظيم الدولة التي تمكن من الاستيلاء عليها رحل لتخليص المهدى من اساره في سجلماسة حيث كان سجينا ، واثناء مسيرة الى سجلماسة استولى على تاهرت كما سبق ان ذكرنا ذلك من قبل في تاريخ بني رستم ، ولما وصل الداعي الى سجلماسة شن غارة على اميرها اليسع بن ميمون بن مدرار واخرج المهدي من سجنه ، واعلن خلافته في سجلماسة .

ثم في ايكجان حيث سلم له ابو عبد الله كل الكنوز التي جمعها ، ثم دخل هو والخليفة المهدى دخول الظافرين المنتصرين مدينة رقادة يوم 20 ربيع الثاني 6/297 يناير 910 — وبهذا التاريخ بدأت خلافة الدولة الفاطمية .

الفصل الثاني

تاريخ الجزائر السياسي في عهد الفاطميين

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

أ ـ خلافة عبيد الله المهدي : (297 ـ 910/322 ـ 934)

تم الاعلان رسميا بخلافة عبيد الله المهدى يوم الجمعة 21 شعبان 7/297 يناير 910 في غد يوم وصوله الى مدينة رقادة .

وقعت في عهد خلافة عبيد الله المهدى حوادث شتى ، وقع بعضها في المغرب الاوسط او ، كما يسمى الآن ، بلاد الجزائر ، ووقع بعضها الآخر في سائر ارجاء الامبراطورية الفاطمية . نذكر بتفصيل ما يهم منها بلاد الجزائر ونذكر غيرها باختصار ، من بين اهم الاحداث : حملة محمد بن خزر على تاهرت وغزو الفاطميين لوهران ومقتل ابي عبد الله الشيعي وثورات كتامة وثورة سكان تاهرت وثورة سكان الجنوب الشرقي من افريقية وصقلية واختطاط مدينة المهدية والحملات العسكرية على مصر وغزو نكون وسجلماسة وموت مصالة ابن حبوس وحملة ابن خزر على تاهرت وغارة ابي القاسم على بن خزر واختطاط مدينة المسيلة والصراع بين الفاطميين وبني أمية وموت والي تاهرت يصال بن حبوس حميدين يصال بن حبوس على موسى بن ابي العافية .

1 ـ حملة محمد بن خزر على تاهرت وغزو الفاطميين لوهران :

لما استولى ابو عبد الله الشيعي على تاهرت ولى عليها دواس بن صولات اللهيمي ونائبا عنه وهو ابراهيم محمد اليمني المدعو الهواري والملقب بالسنيد الصغير . ففي السنة التي ولي فيها المهدي الخلافة واجه غارة زناتة على تاهرت ، روى ابن عذارى ان الخليفة الفاطمي ارسل لمقاومتهم جيشا تحت قيادة الشيخ الكبير ، فانتصر عليهم وحملهم خسارات فادحة . اما غارة

الفاطميين على وهران التي وقعت في السنة نفسها فقد روى ابن خلدون ان جيش المهدى الذي انطلق من تاهرت تلقى الاعانة من قبل بني مسقن ، فاخذت المدينة عنوة واحرقت .

2 ــ مقتل ابي عبد الشيعي :

لما ولي عبيد الله الحكم شرع في ممارسة كل شؤون الامبراطورية بنفسه دون اي استشارة لابي عبد الله الشعي الذي كان عبيد الله مدينا له بتربعه على عرش الخلافة . دبر ابو عبد الله بايعاز من اخيه ابي العباس مؤامرة للاطاحة بالمهدي ، فلما اطلع هذا عليها امر بقتل ابي عبد الله واخيه ابي العباس يوم 15 جمادي الثانية 18/298 فيفري 911 .

3 ــ ثورة كتامة :

ان مقتل ابي عبد الله الشيعي واخيه الذي اعقبه قتل عدة اشياخ من وجهاء كتامة اثار اضطرابات اجتماعية بالغة الخطورة في بلاد القبائل الصغرى مهد الحركة الفاطمية وكان على رأس الثورة شاب اسمه كادو بن معارك ويلقب بالمارطي واعلن الثوار بأنه المهدى وادخلوا في حزبهم سكان الزاب ، هزم المتمردون الجيش الفاطمي الاول وانطلق الجيش الثاني بقيادة الامير ابي القاسم من رقادة في رمضان سنة 299/ ابريل ماي 912 ، وامكنه ان يحرر قسنطينة والمدن الاخرى التي استولى عليها رجال كتامة والقى القبض على كادوين معارك ونقل الى رقادة وقتل فيها .

4 ــ ثورة سكان تاهرت :

روى ابن عذارى ان سكان تاهرت ثاروا على الفاطميين اثناء سنة 911/299 ــ 912 واجبروا واليها دواسا على اللجوء الى تاهرت القديمة بينما قتل رجاله البالغ عددهم قرابة الف نسمة ، ودعوا محمد بن خزر الزناتي الى الانخراط في حزبهم ، وعينوا واليا على تاهرت خلفا لدواس . ذكر ابن عذارى ان شقاقا نشب بينهم وبين محمد بن خزر فانصرف عنهم والتحق بمنزله ارسل عبيد الله قوات ضخمة الى تاهرت وصلتها يوم 30 محرم 27/299 سبتمبر 911 وتمكنت من الدخول الى المدينة يوم الثلاثاء 4 صفر 299/ فاتح اكتوبر 911 ، وكان قمع الثورة شديدا عزل دواس وقتل في رقادة ، وولي مثالة بن حبوس امير على تاهرت .

5 ــ ثورة سكان الجنوب الشرقي من افريقية وصقلية :

ثار هوارة الجنوب الشرقي من افريقية على المهدى واستولوا على مدينة طرابلس فأرسل عبيد الله ابنه ، فأفلح في تحريرها .

ان سكان صقلية ــ من جهتهم ــ لما بغي عليهم ابن ابي خنزير امير جزيرتهم ثاروا عليه فعزله عبيد الله من منصبه وولى مكانه على بن عثمان البلوى .

ولكن تبديل الوالي لم يطمئن الخواطر وامتدت الثورة الى كل الجزيرة ، فقد اتخذت هذه عاملا سنيا عليها وهو ابن قرهب ، ولكن اعيان صقلية سلموه الى المهدى بعد اقل من عامين ، فولى عليهم عاملا جديدا ملأ الجزيزة رعبا وهلعا .

6 ــ اختطاط المهدية :

ثم ان المهدى لم يشعر بالأمن وهو في رقادة ، فخرج يرتاد موضعا على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة ، فلم يجد موضعا احسن ولا احصن من موقع المهدية ، وهي شبه جزيرة كهيئة كف متصلة بزند فبناها وجعلها دار ملكه . ذكر ابن خلدون ان بناء المهدية قد تم سنة 918/306 ــ 919 .

7 ــ غزو مصر :

شن ابو القاسم بن المهدى حملتين على مصر ، وقعت الاولى في جمادي الثانية 301/ جانفي 914 وفشلت .

وفي الحملة الثانية تم الاستيلاء على الاسكندرية في ذي القعدة 306/5 ابريل 919 ولكن طول مكث أبي القاسم في الاسكندرية مكن العباسيين خصومهم من ايصال النجدة الى مصر ومهاجمة القوات الفاطمية والانتصار عليها فاضطر ابو القاسم ان يتقهقر وينسحب الى افريقية عبر برقة ووصل الى المهدية في شهر رجب 309/ نوفمبر 921 بعد غيبة طويلة .

8 ــ غزو نكور وسجلماسة :

ولما تغلب عبيد الله كتب الى اهل المغرب يدعوهم الى الدخول في طاعته والتدين بامامته ، وكتب بمثل ذلك الى سعيد بن صالح امير نكور ، وفي اسفل الكتاب ابيات كثيرة منها :

فان تستقيموا استقـم لصلاحكـم وان تعدلوا عني ارى قتلكم عدلا
واعلو بسيفـي قاطعـا لسيوفكـم وادخلهـا عفـوا وأملاءهـا قتـلا

فأجابه شاعرهم فقال :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
ومـا انت الا كافـر ومنافـق تميل مع الجهال في السنة المثلى
وهمتنـا العليـا لديـن محمـد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فكتب عبيد الله الى مصالة قائده على تاهرت يأمره بالنهوض الى مدينة نكور ومحاربة سعيد بن صالح . فاستولى مصالة على المدينة وقتل سعيد بن صالح يوم الخميس 3 محرم 25/305 جوان 917 ، وبعدما اقام ستة اشهر في نكور قفل الى تاهرت . وفي سنة 921/309 غزا مصالة مدينة سلجماسة وانتهت اموالها وقتل بها احمد بن مدرار .

9 ــ موت مصالة بن حبوس :

وفي سنة 924/312 خرج مصالة بن حبوس من تاهرت الى زناتة فقهر بلدهم وقتل وسبى ، واخرج خيلا الى بعض نواحي ابن خزر ، وكان فيها اكثر حماته ووجوه رجاله ، وبقي مصالة في نفر من اصحابه ، فبلغ ذلك ابن خزر ، فقصد نحو مصالة ودارت بين الفريقين حرب عظيمة قتل فيها مصالة وانهزم اصحابه يوم الجمعة 19 شعبان 21/312 نوفمبر 924 . وبعد مصرع مصالة عين عبيد الله اخاه خلفا له .

10 ــ حملة ابن خزر على تاهرت :

شن محمد بن خزر المغراوى حملة على تاهرت سنة 926/314 ــ 927 . ولكنها منيتْ بالفشل ، ولاذ هو ــ اثرها ــ بالفرار ، فأرسل عبيد الله المهدى موسى بن محمد الكتامي وجماعة من قادته لملاحقته واقتفاء اثره .

11 ــ حملة ابي القاسم بن المهدى على ابن خزر :

وفي السنة التالية ارسل عبيد الله جيشا برئاسة ابنه ابي القاسم لمطاردة ابن خزر فلاذ هذا بالفرار الى الصحراء واقام ابو القاسم قرابة شهر في تاهرت .

12 — اختطاط مدينة المسيلة :

اختلط ابن المهدى مدينة المسيلة عند قفوله من هذه الحملة . روى ابن حماد ان ابا القاسم كان ممتطيا فرسه فخط بطرف رمحه موقع سور المدينة ، وعهد الى على بن حمدون ببنائها وتحصينها وتجميلها وملئها بالميرة . وسميت هذه المدينة بالمحمدية تشريفا لمن تولى اختطاطها .

13 — الصراع بين الفاطميين وبني امية :

بويع الامير الأموى القرطبي بالخلافة سنة 929/316 ولقب « بالناصر لدين الله » ليتم التناقض بين الخلافة السنية وخلافة الفاطميين الشيعية .

استولى — سنة 931/319 — بنو امية اصحاب مليلة منذ 927/314 على سبتة ، ذلك ما ادى موسى بن ابي العافية بن خزر ومغراوة وبني يفرن الى الاعتراف بخلافته ونبذ خلافة عبيد الله المهدى .

ان المدن الجزائرية التي تضررت اكثر بسبب هذا التنافس هما تاهرت ولاسيما وهران اللتان — اذا اقترب منهما الفاطميون — اعترفتا بتبعيتهما لهم . واذا رجعوا الى افريقية : اعرضتا عنهم .

14 — موت يصال بن حبوس والى تاهرت :

توفي يصل بن حبوس سنة 931/319 وكان على راس مدينة تاهرت خلفا لاخيه مصالة بن حبوس ، وقد عين سكان تاهرت على ابن مصالة خلفا له على المدينة ، واخبروا عبيد الله بذلك ، فولى هذا حميد بن يصال اميرا عليها ، وصل الأخير الى تاهرت في ذى الحجة 319/ ديسمبر 931 جانفي 932 على راس قوات عسكرية ضخمة .

15 — حملة حميد بن يصال على موسى بن ابي العافية :

: ارسل عبيد الله حميد بن يصال واليا على تاهرت لقتال موسى بن ابي العافية الذي كان مواليا لبني أمية افلح والى تاهرت بعد مناوشات قليلة — في مفاجأة موسى اثناء هجوم شنة عليه ليلا .

ب ــ خلافة ابي القاسم محمد القائم بأمر الله : (322 ــ 934/334 ــ 946)

ولي ابو القاسم محمد الخلافة بعد وفاة ابيه عبيد الله المهدى وتلقب بالقائم بأمر الله اختصت خلافته بثورة سكان تاهرت ــ واختطاط اشير ــ وبحملة كان من ميسور القائد الفاطمي وحميد بن يصال على تاهرت ــ ولاسيما بثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد .

1 ــ ثورة سكان تاهرت :

ثار سكان تاهرت ــ سنة 934/324 على الولى المدينة ابي مالك يعمر اسن بن ابي شحمة وعينوا مكانه ابا القاسم الاحدب بن مصالة بن حبوس .

2 ــ اختطاط اشير :

بعد انتصار زيري بن مناد شيخ صنهاجة على زناتة في ناحية مغلية بين فاس ومكناسة سمح القائم الخليفة الفاطمي له بأن يختط مدينة اشير الواقعة على جبل تيطري على عشرة اميال من عين بسيف . ان هذه القلعة ــ التي نتحدث عنها بالتفصيل في الفصل الخاص بالحياة الفنية ــ تلفت الانتباه بموقعها الاستراتيجي الممتاز .

3 ــ حملة ميسور القائد الفاطمي على تاهرت :

بعد رجوع ميسور من حملته على المغرب الاقصى التي اخضع فيها مدينة فاس مر على تاهرت ليعاقب سكانها على ثورتهم وامر بقتل الوالي الذي عينوه عليها من تلقاء انفسهم . وولى عليها داود بن ابراهيم العجيسى مكانه .

4 ــ احتلال حميد بن يصال لتاهرت :

احاز حميد بن يصال والي تاهرت سابقا الى الأمويين واستولى عليها عنوة سنة 939/328 وكان في صحبته الخير بن محمد واخو الخير هذا وعمه ويعلى بن محمد الافراني . وهلك حمزة اخو الخير اثناء المعارك التي شبت نارها قبل غزو المدينة .

5 ــ ثورة ابي يزيد :

كان ابو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة بني يفرن ، اخذ العلم عن ابي عمار الضرير احد مقدمي الاباضية ومن فرقة النكار ، وكان ابو يزيد معلم صبيان في توزر وتاهرت حيث علم عقائد الفرقة ، وكان يكره الفاطميين الذين قضوا على دولة بني رستم ، وشرع في

مقاومتهم مقاومة شديدة وضايقه اتباع الخليفة القائم ، فرحل الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولما رجع الى المغرب سنة 937/326 قيل انه القى عليه القبض واطلق سراحه بعد فترة وجيزة ، ومر فى رحلته بورقلة واقام فيها فترة من زمن ثم استقر في جبل اوراس حيث خطط حركته . وكان ابناؤه الاربعة في عونه . وجند جيشا وكان هدف ثورته القضاء على دولة الفاطميين .

ان سلوكات هذا الرجل الاعرج الذي تلقب بصاحب الحمار اثار قلقا شديد للخليفة القائم ، فعهد الى عامله على المسيلة على بن حمدون ان يضع حدا لنشر ابي يزيد . ولكن سكان جبل اوراس صاروا كلهم مسامع لفصاحة لسانه وسحر بيانه فانتصروا على قائد الخليفة واستولوا على معسكره . فازداد ابو يزيد بفضل هذا الغلب نشاطا وحماسا وكثر اتباعه وانصاره ، فواصل غاراته المظفرة واستولى على تبسة وعلى الاربس وعلى باجة وعلى مدينة القيروان ، وفي اقل من نصف سنة احتل افريقية كلها ما عدا سوسة والمهدية ولما وصل الى اسوار هذه ضرب الحصار عليها طوال شهور عديدة ، واثناء هذا الحصار توفي الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله .

ج ــ خلافة اسماعيل المنصور بنصر الله : (334 ــ 946/341 ــ 953)

لما توفي القائم ولى ابنه اسماعيل الخلافة بعده وكتم موت ابيه خشية وقوع الفتنة بين : جنود الدولة الذين حاصرهم ابو يزيد ، وكانت مدة خلافة اسماعيل المنصور الخليفة الفاطمي الثالث سبع سنين . استمر فيها قتال ابي يزيد الثائر ــ وشنت اثناءها حملة على تاهرت ومقاتلة الفضل بن ابي زيد .

1 ــ مواصلة قمع ثورة أبي يزيد

تولى الخليفة اسماعيل قيادة الجيش بنفسه في محاربة صاحب الحمار لتحقيق الانتصار عليه وحرص على المبادرة بشن غارة شعواك عليه ، ولكنه ــ بدل ان يهجم على خصمه في المهدية حيث حشد هذا اكثر جنوده شن اسماعيل حملة على سوسة حيث ارسل سرية خيالة ودعمها بجنود حملها الاسطول الفاطمي بحيث اصبح اتباع ابي يزيد وكأنهم بين فكي ملزمة . وانهزموا للمرة الاولى منذ نشوب الثورة ، وانسحبوا من سوسة والمهدية يوم 21 شوال 24/334 ماي 946 . ولجؤوا الى القيروان فضايق اسماعيل جنود المتمردين وزحف على القيروان وحاصرها . ووعد سكانها بالامان لاستمالة قلوبهم . وبعد معارك عنيفة كبد ابا يزيد هزيمة قاسية واضطره الى الالتحاق بالمغرب الاوسط ، فلجاء صاحب الحمار الى جبل سالات قرب بوسعادة حيث كان له مساعدات متينة لدى بني برزال .

وبعد ما توقف المنصور في المسيلة ولى وجهه شطر بلاد صنهاجة وتسلم وهو متوجه اليها استسلام محمد بن خزر — وكان من وجوه مغراوة الاقوياء ، ولما وصل بلاد صنهاجة استقبله زيري بن مناد واخوته الذين اتحفهم الخليفة بصلات فاخرة ، وهناك اعتراه مرض لازمه مدة شهرين فحاصر عدوه ابو يزيد المسيلة ، فاستأنف المنصور المسير اليها لنجدتها ، ولما علم ابو يزيد بوصوله لجأ الى جبل كيانة الواقع في الشمال الشرقي من المسيلة .

حيث بنيت قلعة بني حماد من بعد (1007/398) ومن ثم كان صاحب الحمار يرسل جنوده الى السهول للسلب والنهب وكان المنصور يتقدم من جهته ولكن ابا يزيد كان لا يفارق قمم الجبال مكتفيا بالهجوم على مؤخرة العدو عند انسحابه ولكن الاخير غير اتهاهه فجأة فنشبت المعركة وانتهت بهزيمة ابي يزيد وأفلت بشكل عجيب وخلف اكثر من عشرة آلاف قتيل على حومة الوغى فلاحقه المنصور .

وفي 18 رمضان 25/335 مارس 947 نشبت معركة جديدة بين الخصمين . فانهزم ابو يزيد مرة اخرى وتسلق الجبل مع من بقي من جنده . واخذ يدحرج الصخور على مطارديه . ونشبت معارك عنيفة استمرت شهورا طويلة في حركان يشتد اكثر فأكثر ، والحاصل ان الحصن الذي لجا اليه ابو يزيد تم الاستيلاء عليه يوم 22 محرم 15/336 جوليت 947 ، ولكن هذا تمكن من الفرار مع بعض اتباعه ، بعدما اصيب بجراح وانهكه القتال ، فسقط في وهدة حيث عثر عليه جنود الفاطميين . وسلموه للمنصور ، فأمر بعلاجه معالجة جيدة حتى يؤتى به حيا الى القيروان ، ولكن على الرغم من ذلك توفي ابو يزيد متأثرا بجراحه يوم 27 محرم 20/336 جوليت 947 .

2 — حملة المنصور على تاهرت :

لما انتهى المنصور من قضية صاحب الحمار ولى و جهه شطر تاهرت ليعاقب حميد ابن يصال الذي احتل المدينة باسم الأمويين ، وتوقف في سوق حمزة (بويرة الحالية) حيث امده زيرى بن مناد بالنجدة ، فخلص المدينة .

ذكر ابن خلدون ان المنصور عين يعلى بن محمد الافراني واليا عليها وجعل من جهة اخرى زيرى بن مناد اميرا على صنهاجة كلها وعلى بلادها .

3 — حملة المنصور على الفضل بن ابي يزيد :

دخل المنصور مدينة القيروان يوم الخميس 27 جمادي الثانية 5/336 يناير 948 — وشرع فورا في اعداد الحملة على الفضل ابن ابي يزيد . وقد كان هذا اغار على طبنة وبسكرة ، ولما علم الفضل بوصوله اعتصم بجبل كيانة حيث لقي حتفه .

د ــ خلافة المعز لدين الله في المغرب : 341 ــ 953/361 ــ 972 .

ولي المعز لدين الله معد ابو تميم الخلافة الفاطمية بعد وفاة ابيه المنصور : اهم الاحداث التي وقعت في خلافته :

غارة زيرى بن مناد على تنس وخضوع جبل اوراس . حملة جوهر على المغرب الاقصى ــ اختطاط مدن الجزائر ولمديه ومليانة ــ ثورة زناتة في جبل اوراس ــ غزو مصر ــ انتصار بلقين بن زيرى على مغراوة ــ الصراع الناشب بين جعفر بن علي وزيرى بن مناد ــ انتقال الفاطميين الى مصر .

1 ــ غارة زيري بن مناد على تنس وانقياد جبل أوراس

ذكر ابن خلدون ان زيري بن مناد هجم على يحيى بن محمد الامير الادريسي على تنس سنة 953/342 ــ 954 ، فلجأ هذا الى الخير بن محمد بن محمد بن خزر شيخ قبيلة مغراوة ورحل الى الأندلس ثم ظهر من جديد في المغرب في العام التالي وفي السنة نفسها شبت الحملة الفاطمية على جبل اوراس التي ادت الى انقياد هوارة وبني كملان ومليلة .

2 ــ حملة القائد جوهر على المغرب الاقصى :

استمر الصراع بين الفاطميين وبين بني امية بعنف اشد في خلافة المعز وفي سنة 956/344 شن الاسطول الفاطمي غارة على مرفاء المرية ، وبعد ذلك بثلاث سنين رحل القائد جوهر الى المغرب الاقصى على راس جيش قوى ازداد قوة عبر الطريق بانضمام قوات عسكرية اليه تحت امة زيرى بن مناد شيخ صنهاجة وجعفر بن علي بن حمدون عامل المسيلة .

اعلن محمد بن خزر شيخ مغراوة ويعلى بن محمد عامل تاهرت وافكان طاعتهما : لجوهر ، ولما نهب بنو يفرن مؤخرة جيش جوهر قتل جنود كتامة يعلى بن محمد اميرهم في افكان . ومن هذه المدينة واصل الجيش الفاطمي زحفه على فاس فصمدت وانتصرت وكان احمد بن بكر الجذامي عاملا عليها ، فالتحق جوهر اثر ذلك بسجلماسة . وقد كان الفتح ابن واسول عاملها تخلى عن تبعيته للفاطميين ، ولما استولى جوهر عليها زحف من جديد على فاس وانتصر عليها بحيلة اهتدى اليها زيرى بن مناد ، فأعلن المغوب الاقصى تبعيته للفاطميين ما عدا طنجة وسبتة .

وبعد الانتصارات الباهرة التي احرز عليها جوهر دخل رقادة دخول الابطال المظفرين الغالبين في شهر رجب 349/ آب ــ سبتمبر 960 . وتعين زيري بن مناد واليا على مدينة تاهرت مكافأة له على ما قدم من خدمات عظيمة .

3 ـــ اختطاط مدن الجزائر والمدية ومليانة :

بعدما اضيفت تاهرت الى مناطق نفوذ زيري بن مناد اذن زيري لبلقين ابنه باختطاط المدن الثالث الجزائر والمدية ومليانة .

4 ـــ غزو مصر :

بعد رجوع جوهر القائد الفاطمي من المغرب الاقصى اسندت اليه قيادة جيش عظيم وعهد اليه بغزو مصر . وتمت الحملة بالانتصار بفضل تنظيمها تنظيما دقيقا ، وتم الاستيلاء الفاطمي على الفسطاط عاصمة مصر في شعبان 358/ جوان جوليت 969 .

5 ـــ ثورة في جبل اوراس :

وفي السنة ذاتها جابه المعز ثورة ابي خزر الزناتي في جبل اوراس فزحف الخليفة بنفسه على المتمرد . فلجأ هذا الى الجبال بعدما تفرق عنه جنده ، ولما وصل المعز الى باغاية عهد الى بلقين ابن زيري بن مناد بملاحقة الهارب ، ولكن بلقين لم يعثر له على اثر ، ولم يسمع احد بخبر من اخباره طوال اشهر ، وفي السنة التالية جاء الى المعز وعرض طاعته وانقياده عليه ، فأجرى عليه الخليفة جراية .

6 ـــ انتصار بلقين بن زيري على مغراوة :

وفي 15 ربيع الثاني 15/360 فيفري 971 زحف بلقين بن زيري في ناحية تلمسان على مغراوة واميرها محمد بن الخير ، وكانت المعركة عنيفة وانتهت بانتصار بلقين الصنهاجي ، وسقط من مغراوة ثلاثة آلاف مقاتل وسبعة عشرا أميرا في حومة الوغي ولما احاط العدو بمحمد بن الخير وهو في قلة من اتباعه انتحر .

فأضاف هذا النصر للفاطميين مجدا على مجد ، وليطهر المعز ما لهذا النصر من القيمة العظيمة عقد مجلسا لاستقبال وفود المهيئيين من رعاياه . وبعد ما استولت البلبلة على مغراوة فترة من زمان سبب هلاك اميرهم جمعوا امر هم من جديد وامروا عليهم ابنه الخير .

7 ـــ الصراع بين جعفر بن علي بن حمدون وزيرى بن مناد :

شعر جعفر بن علي والى المسيلة بالحسد لزيرى بن مناد وابنه بلقين على انتصارهما الباهر وعلى المكانة العالية التي حظيابها لدى المعز فلم يول اى مساعدة لصنهاجة في الصراع

الناشب بينهم وبين زناتة . ولما كان المعز حريصا على وحدة الامبراطورية الفاظمية استدعى بلقين بن زيرى وجعفر بن علي ليحاول ان يصلح ذات بينهما قبل التحاقه بمصر التي تم فتحه لها ، ويبدو ان اللقاء الذي جرى بينهما سرا كان لقاء صاخبا ، وكان جعفر يطمح — كما قيل — ان يكون اميرا على المغرب كله بينما كان المعز يكتفي بمنحه الامارة على افريقية فحسب ويمنع بلقين سائر ممتلكات الفاطميين في المغرب .

ولما دعا الخليفة جعفر بن علي للمثول بين يديه لتعيينه — من دون ماريب — عاملا على افريقية ابي ان يستجب لدعوة المعز . فدعاه هذا ثانية للحضور بين يديه ، وارسل اليه — لهذه الغاية — غلامه فرجا ولما كان هذا على مرحلة من المسيلة كان جعفر الذي خاف ان يلقي عليه القبض — قد فارق المدينة مع اسرته حاملا معه كل أمواله ، وذهب في رفقة اخيه يحي ليلتحق بزناتة . واعلن ولاءه لبني امية القرطبيين ، فرحب زناتة به وجعلوه قائدا عليهم فرحل زيري بن مناد لمهاجمتهم في رمضان 360/ جوان — جوليت 971 ولكنه لقي حتفه في المعركة نشبت قرب تاهرت .

فخلفه ابنه بلقين رأسا لصنهاجة ، وعزم على ان يثار لنفسه وبعد ما فتك بعدد كبير من زناتة في نواحي طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة توجه الى تاهرت ولاحق اعداءه حتى سجلماسة فارتاع اميرها واعلن ولاءه للفاطميين .

والقى القبض على الخير بن محمد وقتله ، ثم رجع بلقين الى اشير ، فكافأه المعز باقطاعه ممتلكات بني حمدون اى المسيلة والزاب ، وبعد ذلك بقليل في محرم 361/ اكتوبر — نوفمبر 971 دعاه للمثول بين يديه وطلب اليه ان يعامل زناتة معاملة رفيقة طيبة .

فاستقبل بلقين استقبالا فاخرا من قبل المعز الذي غمره بالشكر والثناء ونزع خلته والبسه اياها ونزع سيفه وقلده به وخلع عليه وعلى رفقائه خلعا فاخرة ، واهدى لهم اربعين جوادا محلاة بسروح فاخرة ، فوهب بلقين للخليفة — من جهته — الفى بعير لحمل امواله الى مصر، وبعد ذلك بشهور عقد المعز لبلقين على المغرب وافريقية — ما عدا طرابلس قبل استقراره بالقاهرة .

الفصل الثالث

تاريخ الجزائر السياسي في عهد بني زيري

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

ان بني زيري الذين خلفوا الفاطميين بعد رحيلهم الى مصر ينتمون الى قبيلة صنهاجة التي كانت تعدل من حيث العدد ثلث سكان المغرب الاصليين وبلغ عدد بطونها سبعين ، وكان من اكبرها خطرا تلكاته ، ومنها دولتا بني زيري والحماديين ولمتونة ومسوفه ومنها دولة المرابطين .

يذهب تسابو البربر الى ان صنهاجة بن برنس بن بر — خلافا للمؤرخين العرب كالطبري والكلبي — الذين ينسبونها هي وكتامة الى قبيلة حمير التي استقلت بالحكم في اليمن حتى سنة 525 ، وابتداء من هذا التاريخ رحزحها الحبش عنه وخلفوها فيه ، ويذهب النويري الى القول بأن اقدم ممثل لهذه القبيلة تربع على عرش الامارة في المغرب هو المثنى بن المسور اخبره كاهن بأن ابناءه سيؤسسون فيه دولة قوية ، والشخص الثاني الذي ورد ذكره في كتاب النويرى هو مناد بن منقوش الذي اشتهر بالكرم ، اخبره احد الحجاج انه سينجب ابنا يقوم بدور عظيم في تار يخ المغرب وهذا الابن هو زيري بن مناد الذي فاق اقرانه منذ صباه بقوته وشجاعته ولفت الانظار بهيمنته الفائقة عليهم ، ولما بلغ مبلغ الرجال شن غارات شتى على بلاد زناتة وحمل على حصن مغيلة بين فاس ومكناس وقد اثار حسد كثير من وجوه قبيلته وقاتلوه ، ولكن انتصر في المعارك التي شنوها عليه واستأنف غاراته على زناتة ، ولفرط ما لمع نجم مجده في الآفاق — كما سبق ان ذكرنا ذلك من قبل — سمح له القائم الخليفة الفاطمي باختطاط مدينة اشير ، وقد لاحظنا ايضا الدور العظيم الذي مثله في عهد المنصور والمعز الخليفتين الفاطميين ، وقد كان ابنه بلقين الذي خلفه بعد موته على راس صنهاجة هو ايضا من اعظم وجهاء قومه .

وكان المعز ــ قبل انتقاله الى مصر وبعد غزوه لها ــ استخلف بلقين بن زيري على افريقية والمغرب ، وهكذا تأسست دولة بني زيري وحكم منها اربعة امراء بلاد الجزائر بلقين بن زيري والمنصور بن بلقين وباديس بن المنصور والمعز ابن باديس حتى سنة 1018/408 وهو تاريخ تأسيس الدولة الحمادية سنفسح المجال للكلام عن الاحداث التي جرت في الجزائر كما سبق ان صنعنا في تاريخ الفاطميين ، وسنوجزه ايجازا عن الحوادث التي تم تمثيلها على مسرح الاقطار الاخرى التي هيمن عليها بنو زيري .

أ ــ ولاية بلقين بن زيري : (361 ــ 972/374 ــ 984)

ففي سردانية ذات الرياض الغناء الجميلة المشهورة بفواكهها وورودها وياسمينها الواقعة في شمال جلولا والتي كانت على مسيرة يوم غربي القيروان عقد المعز الخليفة الفاطمي لبلقين بن زيري على المغرب يوم الاربعاء 20 ذى الحجة 2/361 اكتوبر 972 ووصله بالخلع الفاخرة وانفذ امره في الجيش والمال واطلق يده في الاعمال وجباية الخراج وادارة الاقاليم وسلم له الخاتم ، وكناه المعز ابا الفتوح وسماه يوسف ابن زيرى ولقبه خليفة امير المؤمنين المعز لدين الله .

اقام المعز اربعة اشهر في سردانية ثم ولى وجهه شطر مصر ورافقه بلقين حتى جنوب قابس ثم فصل الى القيروان بأمر من الخليفة فاستقبله السكان بالترحيب واستقر في قصر المعز في صبرة المنصوريّة واتسم عهد بلقين بحملة على المغرب الاوسط وتعيين عبد الله ابن الكاتب واليا على افريقية ونشوب ثورة خلف بن خير ، وحمله على المغرب الاقصى .

1 ــ الزحف على المغرب الاوسط :

غادر بلقين حاضرته في شعبان 364/ ماي ــ جوان 973 على راس جيش من صنهاجة وكتامة ، ولما وصل الى باغاية عين لها واليا وتابع مسيرته ، وبلغه ــ هو في الطريق ان سكان باغاية ثاروا على الوالي الجديد وهزموه واعتصموا وراء اسوار المدينة . فارسل بلقين سرية لمحاربتهم ، ولما استعد للحاق بهم ومعاقبتهم بلغة ان سكان تاهرت طردوا عامل مدينتهم ، فتوجه اليها واستولى عليهت عنوة في رمضان 362/ جوان ــ جوليت 973 ، وقتل الرجال واستعبد النساء والاطفال ، ولما هم بالمسير الى باغاية اخبر باحتلال زناتة لتلمسان ، ففر هؤلاء قبل ان يصل اليهم فاستسلمت له المدينة بعدان حاصرها طويلا فعفا عن المتمردين ونقلهم الى اشير حيث بنوا مدينة جديدة سموها تلمسان حسبما : ذكره ابن الاثير . ولما سمع خليفة القاهرة بمواصلة بلقين المسير صوب غرب البلاد امره بالقفول الى القيروان .

2 ــ تعيين عبد الله بن الكاتب على افريقية :

واثناء اقامة بلقين في المغرب الاوسط بلغة نعي امير القيروان جعفر بن تمرت الذي توفي في جمادى الثانية 363/ فيفري ــ مارس 974 فعين عبد الله بن محمد الكاتب خلفا له على المدينة ، وكان بلقين تهدده بالقتل لويرفض ، وبعد فترة قصيرة نشبت معركة بين الوالى الجديد وبين زيادة الله بن القديم ، وكان المعز قبل رحيله الى مصر عهد الى زيادة الله بجباية الضرائب ، وانتهى الشقاق بموت خصم الوالي ، وكان بلقين في المغرب الاوسط وابى ان يتدخل في النزاع حتى لا يقف موقفا معاديا لشخص عينه الخليفة ، ولكن يبدو انه كان منحازا للوالى الجديد .

3 ــ ثورة خلف بن خير واستسلام باغاية :

اثار موت زيادة الله بن القديم ثورة قبائل تمثي انضمت الى حزب خلف بن خير فلفت عامل افريقية انتباه بلقين فزحف الامير على المتمردين وحاصر الحصن الذي لجأ اليه خلف واستولى عليه وقتل طائفة من السكان ونفى الآخرين ولكن خلف بن خير افلح في الافلات منه ولجأ الى بلاد كتامة ، فسلمه هؤلاء اليه لان بلقين تهددهم بالقتل ان أورْهُ او نصروه وبعد ذلك ارسل رسلا الى سكان باغاية يأمرهم بالاستسلام . والا يكن مصيرهم مصير خلف بن خير ، فامتثلوا واخلوا المدينة ، فهدمت وخربت باستثناء ضاحيتها ، والتحق بلقين بعد ذلك ما بافريقية في بداية سنة 365/ آخر 975 .

4 ــ الزحف على المغرب الاقصى :

وبعد رجوعه الى افريقية بثلاث سنين شرع بلقين ، يوم الاربعاء 24 شعبان 27/368 مارس 979 ، في الاستعداد للزحف الذي اداه الى المغرب الاقصى ، وكان على راس ستة آلاف فارس ، فاستولى على فاس وعلى سجلماسة ، ولكنه ابى ان يهجم على سبتة بسبب العدد والعُدد التي تلقتها من الاندلس ، فحمل حينئذ على مدينة البصرة وعلى بلاد برغواطة وعلم اثناء طريقة ان سجلماسة سقطت في قبضي زناتة ــ فرجع القهقرى ، وقبل ان يصل اليها مرض وتوفي يوم الاحد 21 ذى الحجة 25/373 ماي 984 .

ب ــ عهد المنصور بن بلقين :

كان المنصور في اشير لما بلغه نعي ابيه ، وفيها بايعه اكابر وجهاء المملكة في حفل مشهود بهر الحاضرين ما رأوا فيه من ابهة السلطان وعظمته وروائه ، وهناك ايضا القى

كلمات هي خالدة على الدهر ، قال : «ان أبي وجدى اخذ الناس بالسيف قهرا وانا لا آخذهم الا بالاحسان ، وما انا في هذا الملك ممن يولي بكتاب ويعزل بكتاب لاني ورثته عن آبائي واجدادي ورثوه عن آبائهم واجدادهم حمير» .

وصل المنصور الى رقادة يوم الاثنين 19 رجب 16/374 ديسمبر 984 واستقبله سكان القيروان بالترحيب ، ويوم عيد الفطر فاتح شوال 25/374 فيفري 985 ، ام الناس في صلاة العيد بالمصلي ، وكان مرتديا لباسا فاخرا وراكبا على سرج مزين بالجواهر والاحجار الكريمة .

وفي صبرة ـ المنصورية تسلم المنثور الاجازة التي قلده بها العزيز الخليفة الفاطمي الامارة على افريقية والمغرب ، فعقد لعمه ابي البهار على تاهرت ولأخيه يطوفت على اشير . واتسمت مدة امارته بحملة على المغرب الاقصى والقضاء على والى افريقية وثورة كتامة واستسلام سعيد بن خزرون وثورة ابي البهار .

1 ـ حملة على المغرب الاقصى :

ارسل المنصور سنة 984/374 ـ 985 اخاه يطوفت على راس جيش لقهر فاس وسجلماسة اللتين تخلصتا من تبعيتهما لامارة بني زيري فور وفاة بلقين ـ بينما كان يطوفت على مقربة من فاس انهزم في معركة نشبت بينه وبين زيري بن عطية الزناتي ولجأ الى تاهرت ولما سمع المنصور بهزيمة اخيه رحل الى اشير وارسل منها جيشا بقيادة عبد الله بن محمد الكاتب الى تاهرت حيث كان يطوفت والتحق كلا الاخوين بأشير ، وعدلا عن شن الغارات على المغرب الاقصى .

2 ـ مقتل والي افريقية عبد الله بن محمد الكاتب :

كان عبد الله بن محمد الكاتب يتمتع بحظوة كبيرة في افريقية حتى اداه ذلك الى تعدد اعدائه وصارت هيمنته على البلاد اوسع لما عينه الخليفة الفاظمي داعيا ، وطلب من الامير الزيرى المنصور ان يقيم حفلا يستقبل فيه عبد الله الكاتب من قبل الامير واسرته ومن اكابر وجوه الدولة الدعوة او يمين ولائهم للاسماعيلية والخليفة الفاظمي ، فامتثل المنصور ، وظن والى افريقية انه بعد ذلك في امان ، ولكن هذا الامتياز الجديد الذي حصل عليه عبد الله الكاتب اداه الى حتفه ، استشاط اقارب الامير غيظا وحقدا على الوالى ، واغروا المنصور بالقضاء عليه واتهموه بأنه كان يضمر الاستيلاء على الحكم ، فأراد المنصور ان يبقى عليه ويترفق به ، فطلب اليه ان يستعفى من منصب ولايته ، وان يحتفظ الا بالخاتم

والكتابة — فأبى عبد الله الكاتب ذلك . فقتله المنصور وادى مقتل عبد الله الكاتب الجنود المتشيعين الى نهب القيروان واغتصاب اموال السكان . وكان سببا في ثورة قبيلة كتامة .

3 — ثورة كتامة :

ان كتامة الذين نصروا الفاطميين وايدوهم الى ان جلسوا على عرش الخلافة كانوا يهدفون من وراء ذلك الى الحصول على مكانة ممتازة ، والى اعفائهم من الضرائب ، ولكن جباة بني زيري دخلوا بلاد كتامة سنة 986/376 — 987 ، وطالبوا الناس بدفعها ، مع انهم لم يطالبوا قط بذلك من قبل ، وبعد ذلك بقليل جاء ابو الفهم حسن من القاهرة ارسله الخليفة الفاطمي داعيا فاستقبله يوسف بن عبد الله الكاتب الذي كان نائبا عن ابيه في حكم القيروان في غيابة واكرم وفادته ، وكان يوسف في جولة في المغرب الاوسط وفي صحبة المنصور ، فأخبر أبو الفهم يوسف برغبته في الذهاب الى كتامة ليدعوهم الى اعتناق مذهب الشيعة ، فكتب يوسف الى أبيه يسأله ماذا يفعل في هذا الأمر فأجابه ابوه قائلا : له : « امنحه ما يريد ، ودعه يذهب الى حيث يريد » . فأمتثل يوسف لأمر ابيه ، واعان ابا الفهم على اضطلاعه بمهمته بكل ما في وسعه ، ابو الفهم الى كتامة ومعه مال كثير ونجح نجاحا باهرا في اقناعهم بوجاهة ما دعاهم اليه واعتناقهم التشيع ، فلما بلغهم خبر مقتل والى افريقية عبد الله الكاتب التحقوا بحزب ابي الفهم وافلحوا تحت قيادته في الاستيلاء على حصنى ميلة وسطيف ، فتخوف المنصور من تطور الحوادث وعزم على عقاب المتمردين وعلى اخبار العزيز بذلك ، فأرسل اليه رسولين لاخباره بالامتناع من اى هجوم على ابي الفهم .

فأوسع الامير الزيري رسولى الخليفة العزيز سبا وشتما ، وسجنهما ظلما الى ان غادر افريقية على جيش قوى في شهر شوال 377/ جانفي — فيفري 998 . ولم يصل الى كتامة — والرسولان معه الا في بداية سنة 378/ ربيع 988 ، ولما وصل الى ميله واوشك ان يحمل على حصنها خرجت النساء والاطفال ليتضرعوا راجين عفوه ، قيل ان المنصور امام هذا المنظر ذرفت عيناه الدموع وامر بالعفو عن السكان . ونقلهم الى باغاية ، فنهبت ميلة وخربت ثم وصل الامير الى سطيف حيث كان حشد ابو الفهم كل جيشه فكان للأمير الغلب والنصر المبين على عدوه ، ففر هذا الى جبل وعر واعتصم فيه ، فتوصل المنصور الى القبض عليه . فألقاه بين نساء حرمه . فأوسعنه نتفا للحيته وضربا ولكما حتى اشرف على الهلاك وافلح الامير في تخليصه من عقابهن الشديد ولكن احد رجاله بقربطنه . فقطعت كبده وطبخت والتهمت ، ومزق غلمان المنصور رجثته وأكلوها . وقتل عدة دعاة من الشيعة وعدة اشياخ من كتامة ، ولا سيما والى ميلة .

عين الامير الزيري ابا زعبل واليا على ميلة ، والتحق بأشير ومنها اطلق رسولي الخليفة اللذين ارتعدت فرائصهما من الرعب بسبب المناظر الفظيعة التي عايناها . وقالا للعزيز ! « رجعنا من عند شياطين آكلين للحوم البشر ، ليست لهم أي انسانية » .

وفي السنة التالية حمل رجال كتامة السلاح من جديد لما سمعوا نداء ابي الفرج الذي كان يدعي انه حفيد القائم ثاني الخلفاء الفاطميين . فأقلق ابا زعبل نائب المنصور في ميلة وسطيف ولشدة فزعه طلب من الامير امداده بالنجدة ، فجمع المنصور جيشا تحت قيادته وبعد معركة ضارية هزم المتمرد الذي لاذ بالفرار الى جبل واعتصم فيه . فوجدوه مختبئا في كهف وسلموه الى الامير فقتله .

ثم رحل هذا بعد ذلك الى اشير وترك جنود او جباة لجمع الضرائب ومضايقة السكان ولم تفسد هذه الحوادث — حسبما يبدو — علائق ما بين بني زيري والفاطميين . لأن خليفة القاهرة أرسل الى المنصور هدايا كثيرة من بينها فيل ضخم .

4 — انقياد ابن خزرون :

ولكثرة ما اغدق ابن ابي عامر الحاجب الاندلسي من صلات فاخرة على زيري بن عطية ، رئيس مغراوة ، شبت نار الحسد في فؤاد سعيد بن خزرون بن فلفل بن خزر حتى تخلى عن ولائه لبني امية والتحق بأشير .

حيث كان المنصور . فأكرم الامير الزيري وفادته ووعاملة معاملة كريمة . روى ابن عذارى انه قال يوما : ياسعيد هل تعرف من اكرم مني ؟ قال : نعم . قال : ومن هو ؟ قال : انا . قال له المنصور : ولم ذلك ؟ قال : لأنك جدت علي بالمال ، وجدت أنا عليك بنفسي ، لما كان المنصور واثقا بصداقته اسند اليه امارة طبنة . وزوج ورو ابن سعيد باحدى بناته . فاستولى المنصور بهذا السلوك الكريم على قلوب عدة قبائل زناتية فأرسلت اليه وفودا كثيرة وهدايا فاخرة ، وبعد وفاة سعيد بن خزرون خلفه ابنه فلفل على امارة مدينة طبنة .

5 — ثورة ابي البهار :

ثار ابو البهار على ابن عمه المنصور لما اهانه هذا في كرامته فغادر تاهرت في الاتجاه الغربي والتحق بمعسكر زيري بن عطية امير فاس الذي كان مواليا لبني امية : التحق المنصور بتاهرت . وبعدما نهب المدينة منح الامان سكانها وجد في اقتفاء اثر الهارب حتى قطع سبع عشرة مرحلة بعد تاهرت ، ولما احس الجيش بنقص في مؤنة رجع الامير ادراجه واسند امارة تاهرت الى اخيه يطوفت والتحق بأشير ، وانتهزت زناتة الفرصة السانحة لاحتلال مناطق تلمسان ووهران وشلف .

ولم تلبث المنافسة ان اثارت الخلاف بين زيري بن عطية وابي البهار فالتحق ابو البهار بتاهرت وطلب الى ابن اخيه يطوفت ان يشفع له الى المنصور ليعفو عنه . فقبل الامير الشفاعة . واستقبل ابا البهار بالترحيب في المنصورية يوم 15 شعبان 5/382 اكتوبر 993 وعاملة معاملة كريمة .

وبعد ذلك بثلاث سنين توفي المنصور يوم الخميس 3 ربيع الاول 26/386 مارس 996 فخلفه ابنه باديس الذي كان ولي عهده منذ سنة 991/382 — 992 .

ج — عهـــــد باديس بن المنصور : (386 — 996/406 — 1016)

ولي ابو مناد باديس ناصر الدولة الامارة ارثا بعد وفاة ابيه فور بلوغه سن الثانية عشرة وكان في سردانية لما وافاه نعي ابيه . وفيها عقد مجلسا لاستقبال التعازي والتهاني . ثم التحق بصرة — المنصورية بعد ما أقام اياما بسوسة والمهدية . واقر يطوفت وفلفل بن سعيد الأول واليا على تاهرت والثاني على طبنة وأسند امارة اشير والمسيلة الى عمه حماد بن بلقين .

اهم الاحداث التي اتسم بها عهد باديس هي :

قتال زيري بن عطية تمرد فلفل بن سعيد — ثورة اعمام ابي باديس حملة حماد على زيري بن عطية — قتال باديس لفلفل بن سعيد . قضية طرابلس — اختطاط قلعة بني حماد — ثورة حماد على باديس .

1 — قتال زيري بن عطية :

كان زيري بن عطية المغراوى واليا على فاس من قبل بني امية قرطبة . فشب نزاع بينه وبين ابن ابي عامر ، فعزل عن منصبه ، وبعد ما لجأ الى الصحراء اعتزم ان يقتطع ملكا لنفسه في المغرب الاوسط وشرع في حصار تاهرت في بداية 389 — ديسمبر 998جانفي 999 . فكتب يطوفت والى المدينة باديس يطلب منه نجدة ، فأرسل اليه جيشا بقيادة والي افريقية محمد بن ابي العرب الكاتب ، ولما مر هذا على اشير طلب الى حماد بن بلقين ان يرافقه هو جنده . فانضم الجيشان الى جيش يطوفت في فاتح جمادي 399/ فاتح يناير 1009 اما زيري بن عطية فقد كان معسكرا على مرحلتين من تاهرت . فشبت معركة ضارية بين الفريقين وانتهت بانتصار زيري بن عطية . لان جنود حماد — كما قيل — تشتتت بسبب شح قائدهم ، واحتذى الآخرون خذوهم وتركوا على الميدان الخيام والاموال والاسلحة ، وخسرت صنهاجة عددا كبيرا من القتلى والاسرى ، ولجأت فلول الجيش المهزوم الى اشير على جناح السرعة . اما زيري بن عطية فقد استولى على تاهرت .

دعت هذه الهزيمة باديس الى الانتقام فجمع جيشا ثانيا بقيادته والتحق بالمسيلة ثم بأشير المحاصرة من قبل زيري بن عطية .

ولما اقترب الجمعان احدهما من الآخر انسحب الاخير ، فدخل باديس اشير وولى وجهه شطر تاهرت التي كان الزناتي قد تخلى عنها ، واحتفظ باديس بيطوفت عمه واليا عليها .

2 ــ تمرد فلفل بن سعيد :

انتهز فلفل بن سعيد والي طبنة فرصة غياب باديس فثار ونهب ضواحي المدينة واستولى على تيجس وحاصر باغاية اياما معدودات ، وبعد رجوع باديس من اشير اثر حملته على تاهرت ارسل جيشا بقيادة ابي زعبل لقتال فلفل ابن سعيد .

3 ــ ثورة اعمام ابي باديس :

كان باديس في المسيلة مع عم ابيه ابي البهار وكان محتفلا باداء صلاة عيد الفطر لسنة 15/389 سبتمبر 998 ــ 999 حين بلغه ان اعمام ابيه وهم ماكس وزاوى ومقنين وعزم قاموا بثورة في اشير . اما ابو البهار فقد قر لما خشى ان يتهم بتواطئه مع اخوته ، وتمكن يطوفت من الافلات من اشير والالتحاق بباديس في المسيلة .

4 ــ حملة حماد على زيري بن عطية :

انتهزت زيري بن عطية فرصة اندلاع ثورة اشقاء جد بايس فعسكر في منطقة تاهرت ، فأرسل باديس جيشا بقيادة حماد بن بلقين لمحاربته ــ فشبت معركة ضاربة على وادي مينة على مسافة عشرين فرسخا جنوبي تاهرت . وهناك ايضا كان حظ حماد الهزيمة . وافلح زيري بن عطية في الاستيلاء على بلاد واسعة تشمل بشكل خاص اقاليم تلمسان وتاهرت وشلف وتنس ، وحاول ان يستولى على اشير فحال حماد بينه وبين ذلك مرض زيري ابن عطية اثناء الحصار وولى وجهه شطر المغرب من جديد وتوفي اثناء الطريق ، اما ابو البهار الذي التجأ اليه بعد ثورة اخوته فقد التحق بالمعسكر الزيري بعد موته .

5 ــ قتال باديس لفلفل بن سعيد :

انطلق باديس من المسيلة ووصل الى بلزمة ، حيث علم ان فلفل بن سعيد كان قتل ابا زعبل وهزم جيشه وزحف على القيروان توجه نحو باغاية ودخلها يوم 18 شوال 12/389

اكتوبر 999 تقدم سكان المدينة نحوه ووصفوا له المصائب والمحن التي كابدوها من قبل فلفل اثناء الحصار الذي دام خمسة واربعين يوما .

بعدما اقام فيها اثنى عشر يوما ، استأنف ملاحقة فلفل ومر بمرمجنة . هجم عليه خصمه لأنه كان له جنود اكثر عدد ، فامتنع باديس عن القتال . وفي 10 ذى القعدة 23/389 اكتوبر 999 هجم فلفل هجوما جديدا . ولكنه انهزم انهزاما قاسيا ، فقد قيل انه خسر تسعة الاف رجل .

بعد هذا الانتصار الباهر الذي كان باديس مدينا باعظم قسط منه للشجاعة التي ابداها اثناء المعركة دخل الى المنصورية بعد عشرة ايام ولما ان ثلاثة من اعمامه كانوا قد انضموا الى حزب فلفل استأنف المسير في فاستح رجب 7/390 جوان 1000 ، ولما اقترب من عمي ابيه زاوى وعزم هربا منه ، لجأ الاول الى شنوة ، ومنها التحق بالاندلس حيث اسندت اليه ولابنائه مناصب من الاهمية بمكان ــ اما ما يخص ماكسن وابناءه فقد رافقوا فلفل بن سعيد الى ان التجأ الى الصحراء ، والتحقوا بعد ذلك بالمغرب الاوسط حيث قتلهم حماد بن بلقين .

6 ــ قضية طرابلس :

ارتكب والى طرابلس ضروبا شنيعة من ابتزاز اموال الناس وخشي ان يقع عليه العقاب الشديد من قبل باديس فكاتب الخليفة الفاطمي الحاكم ليعرض عليه تسليم المدينة وليسمح له بالاستقرار في القاهرة .

فرضي الحاكم بذلك واسند ولاية طرابلس الى غلامه ابي الحسن يانس فأرسل باديس جعفر بن حبيب فهزم يانس ، ولكن السكان منعوه من الدخول الى المدينة . وفي هذه الاثناء توجه فلفل بن سعيد الى طرابلس واستولى عليها بتواطؤ مع سكانها واعرب عن ولائه للخليفة الفاطمي ، فلم يعترف به ، بل ارسل واليا آخر اضطره فلفل الى القفول الى مصر وطلب اثر ذلك من خليفة قرطبة ان يحميه ، ولكنه مات سنة 1008/399 ــ 1009 فخلفه اخوه ورو ، ولما بلغ الخبر باديس زحف على طرابلس ، فطلب ورو ، الامان ، فأمنه باديس وغمره بكرمه واحسانه حتى اسند اليه الولاية على نفزاوة .

وفي سنة 1010/401 ــ 1011 تخلى ورو بن سعيد عن ولائه لباديس ولجأ الى جبل نفوسه ، وواصل مواصلة مستمرة مناوشته لمدينة طرابلس .

7 ــ تأسيس قلعة بني حماد :

في سنة 1007/398 ــ 1008 اختط حماد بن بلقين قلعة بني حماد المبنية على مرتفعات جبل المعاضيد وواقعة على مسافة 36 كم شمال شرقي المسيلة التي نتحدث عنها حديثا مفصلا في الفصل الخاص بالحضارة الحمادية .

8 ــ ثورة حماد على باديس :

ان اختطاط حماد لقلعته زاده مجدا على مجد فأثار ذلك حسد شيوخ صنهاجة ، وحاولوا ان ينالوا من منزلته لدى الأمير الزيري واتهموه بالسعي للاستيلاء على الحكم ــ فطلب باديس اليه ــ اما ليحد من نفوذه او ليختبر وفاءه له ــ ان يتنازل عن ثلاث مناطق الشرق الجزائري وهي قسنطينة وتيجس وقصر الافريقي ، فلم يستجب لطلبه وثار عليه وتخلى عن تبعيته للفاطميين واعترف بولائه للخلافة العباسية .

وفي 11من ذى الحجة 22/405 جوان 1015 زحف باديس على راس جيش قوى لقتال حماد ، بينما سعى هذا للاستيلاء على باجة . وحض سكان تونس على الفتك بالشيعة وعلى الدفاع عن مذهب اهل السنة والجماعة . فقتلوا عددا كبيرا منهم ، فأثارت هذه الحادثة قلق الامير الزيري لأنها حقيقة بتعريض صلات ما بينه وبين الفاطميين للفساد ، وفي هذه الاثناء مات المنصور بن باديس الذي كان حماد عزم ان يتنازل له عن المناطق الثلاث الواقعة في القطاع القسنطيني .

حزن باديس على موت ابنه حزنا شديدا ، فكانت حماد باديس ليلفت نظره الى ان لاداعي لمتابعة القتال بعد وفاة المنصور ولكن باديس اصر على مواصلته ، فاتجه نحو الغرب وولى حماد وجهه نحو اشير فمنعه واليها من الدخول اليها ، فالتحق بتاهرت ، بينما احتل باديس ميلة وزحف اخوه كرامة على قلعة بني حماد وخرب طائفة منها ، فطلب عدد كبير من سكانها من باديس الامان ، فأمنهم فانتقم ابراهيم اخو حماد منهم بقتل نسائهم واطفالهم الى هنا لم يقع بعد قتال بين الجيشين جيش باديس وجيش حماد والمعركة الاولى التي نشبت بينهما هي التي كان مسرحها وادي شلف .

كان الجيشان معسكرين على ضفتي نهر واصل ، وهو رافد من روافد نهر شلف وفي صباح يوم وصول باديس عبر النهر وانقض بغته على حماد ونشبت معركة ضاربة اسفرت عن انتصار الامير الزيري ، فر حماد في خمسمائة جندي افلتوا من القتل ولم يتابعهم جيش باديس لاشتغاله عن ذلك بالاستيلاء على الغنائم . والتحق حماد بقلعة مغيلة ثم لاذ بقلعة حماد . وبعد ايام قلائل قضاها في الاستجام خرج من ملجئه للتزود بالملح والحبوب رجع باديس الى

كان الجيشان معسكرين على ضفتي نهر واصل ، وهو رافد من روافد نهر شلف وفي صباح يوم وصول باديس عبر النهر وانقض بغته على حماد ونشبت معركة ضارية اسفرت عن انتصار الامير الزيري ، فر حماد في خمسمائة جندي افلتوا من القتل ولم يتابعهم جيش باديس لاشتغاله عن ذلك بالاستيلاء على الغنائم . والتحق حماد بقلعة مغيلة ثم لاذ بقلعة حماد . وبعد ايام قلائل قضاها في الاستجام خرج من ملجئه للتزود بالملح والحبوب رجع باديس الى المسيلة وصلها في 28 جمادى الاولى 13/406 نوفمبر 1015 وكتب ابراهيم اخو : حماد اليه رسالة يدلي اليه فيها بمعاذير حماد مستعرضا كل الخدمات التي اضطلع بهاله . فأجابه باديس عن رسالته ، ووقع بعد ذلك تبادل رسائل بين الطرفين ، ولكنها لم تؤد الى التصالح بينهما امر باديس بضرب الحصار على قلعة بني حماد ، وكان قد مضى عليه ستة اشهر منذ بدئه ، وكانت المدينة على وشك الاستسلام لما قضى الأمير الزيري نحبه فجأة ، فولى الجيش عند ذلك وجهه شطر القيروان من جديد ، وكان حماد حاضرا عند رحيله وشاهد النظام والانضباط سائدا عليه ، فقال لأخيه ورفاقه : «مثل هؤلاء يخدم الملوك ، وصلت انا الى افريقية في ثلاثين الف فارس ، ما منهم الا من احسنت اليه وانعمت عليه فعدت الى القلعة وما بقي معي الا اقل من ستمائة . وانا بين اظهرهم ارجى . وهذا ميت اطاعوه كما كان حيا» .

بينما كان الجيش الزيري قافلا الى افريقية عهد الى كرامة اخي باديس بالرحيل الى اشير لتعبئة جنود جدد ، فذهب على رأس سبعة آلاف جندي فحمل عليه حماد في الف وخمسمائة مقاتل وانتصر عليه روى ابن الاثير ان طائفة من جنود كتامة نهبوا الكنز الذي ذهب له كرامة واضطر هذا الى الرجوع الى اشير فضرب حماد الحصار عليها واستدعى كرامة ودفع اليه مالا ويسمح له بالالتحاق بافريقية وبعد ذلك احتل حماد مدينة اشير وقتل ما لا يحصى عدا من السكان الذين انضموا الى الحزب الزيري ولكنه لم يعثر قط على من استولوا على كنز كرامة .

د ـــ عهد المعز بن باديس حتى مولد الدولة الحمادية :

لما توفي باديس خلفه ابنه المعز على عرش الامارة ولما يبلغ بعد تسع سنين كانت ولايته بالمهدية وبيعته بها ....

... خرج المعز بالبنود والطبول ، فنزل اليه الناس يهنئوونه جميعا وبايعوه وهنأوه وعزوه وابتهلوا بالدعاء له .

واستقبل المعز الجيش الزيري لدى قفوله من المغرب الاوسط في محرم 407/ جوان ــ جويليت 1016 .

اتسمت بداية عهده بقتل الشيعة ومواصلة قتال حماد بن بلقين ومولد الدولة الحمادية .

1 ــ قتل الشيعة :

بعد وصول المعز الى صبرة ــ المنصورية رحل في اليوم التالي الى القيروان حيث وقع الفتك بالشيعة . ذكر ابن الاثير ان المعز ــ اثناء زيارته للقيروان ــ مر امام جماعة من الناس فسأل : من هؤلاء ؟ فقيل له : هم من الرافضة الذين يشتمون ابا بكر وعمر . فقال المعز : رضي الله عن ابي بكر وعمر ، فانقضت العامة على حي في القيروان كان يدعي بدرب المعلي ، حيث كان يسكن الشيعة فقتلوا منهم ونهبوا مساكنهم . وذكر ابن عذارى ان المعز رُبّي في حجر وزيره ابي الحسن بن ابي الرجال وكان ورعا زاهدا ، وكانت افريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف مذهب السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله لها ، فحرض ابن ابي الرجال المعز في بعض الاعياد الى المصلي في زينته وحشوده فكبا به فرسه ، فقال عند ذلك : ابو بكر وعمر فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره ، فبادروا اليه ليقتلوه فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من اهل القيروان ، فوضع السيف في الشيعة فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف .

روى ابن خلدون ان المعز « كان منحرفا عن مذاهب الرافضة ومنتحلا للسنة ، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار الى قتل من وجد منهم ، وكبابه فرسه ذات يوم ، فنادى مستغيثا باسم ابي بكر وعمر فسمعته العامة ، فثاروا لحينهم بالشيعة . وقتلوهم ابرح قتل . وقتل دعاة الرافضة يومئذ » .

ولم يقتل الشيعة في القيروان فحسب بل لقوا ذات المصير في المهدية وفي مدن اخرى من افريقية .

ذكر ابن الاثير ان الخليفة الفاطمي لم يعتب على المعز لذلك بل وصل اليه منه سجل خاطبه فيه بشرف الدولة وخلع فاخرة من لباسه ، ولكن ابن خلدون ذكر ان خلفاء الشيعة بالقاهرة امتعضوا لذلك ، وخاطبه وزيرهم ابو القاسم الجرجاني محذرا .

2 ــ مواصلة قتال حماد بن لقين :

بعدما ساد الهدوء افريقية استأنف المعز من جديد الحرب على حماد في 22 صفر 18/408 جوليت 1017 ــ وكان حماد قد استولى كما سبق ان ذكرنا ذلك من قبل على

اشير بعد رحيل الجنود الزيرية ووطد جبهته بهيمنته على المسيلة ومحاصرته لباغاية ــ ولما اقترب المعز منه فك الحصار عنها وركض الجيش الزيري في اثره فقتل عددا كبيرا من جنوده واستولى على غنائم كثيرة ، واسر ابراهيم اخو حماد في المعركة واصابت حمادا جروح وتخلى عنه اكثر جنوده .

ذكر ابن الاثير ان حمادا لما وصل الى القلعة الحمادية ارسل رسولا الى المعز ليقول له : «ان حمادا يعترف بخطئه ويرجو العفو عنه» .

فأمر المعز ان يرسل اليه ابنه رهينة ودليلا على صدقه في قوله . فأجاب حماد بأنه سيرسل ابنه القائد عندما يتسلم من اخيه ابراهيم ما تعهد به المعز ازاءه وذلك طبقا للصيغة المصطلح عليها المستعملة بين الطرفين . فاجتمع ابراهيم بالمعز وحصل منه على ما كان يرجوه من وعد . وأخبر اخاه بذلك ، وفي الوقت نفسه اعرب لأخيه عن اعترافه بكرم المعز وسخائه .

التحق المعز بالمنصورية يوم 30 جمادي الاولى 25/408 اكتوبر 1017 واطلق سراح ابراهيم ووصله بخلع فاخرة واموال طائلة وخيل وسروج مطرزة بالذهب .

فلما علم حماد بما وقع ارسل ابنه القائد في 15 شعبان 5/408 جانفي 1018 ــ فأكرم المعز وفادته ــ ذكر ابن ابي دينار انه كان يمنحه كل يوم ثلاثة الاف درهم وخمسة وعشرين قفيزا من شعير لعلف دواب اتباعه ، وتسلم القائد وذووه مائة خلعة سنية وثلاثين من اناث الخيل بسروج مطرزة بالذهب وثيابا لا حصر لها .

وبعد المفاوضات التي جرت بين المعز وحماد دخلت في حيازة حماد مناطق المسيلة وطنية والزاب واشير وتاهرت وكل ما سيتطيع ان يبسط عليه هيمنته من اقاليم المغرب . واسند المعز للقائد ولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وبلاد دزواوة ومقرة ودكامة وبلزمه وسوق حمزة وهكذا ابعد الاتفاقات الحمادية الزيرية تم الاعتراف لحماد بامارته المستقلة على المغرب الاوسط ولكن يبدو انه تخلى عن مناطق قسنطينة وقصر الافريقي وتيجس التي كانت سببا في نشوب حرب شب لهيبها بينه وبين باديس . لأن هذه المدن لا وجود لها بين التي اقطعها هو حماد وابنه القائد .

وايا ما كان فابتداء من سنة 1018/408 انقسمت صنهاجة الى دولتين : الدولة الزيرية التي حكمت افريقية ، والدولة الحمادية التي بسطت امارتها على المغرب الاوسط .

الفصل الرابع

الحضارة الفاطمية والزيرية

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

أ ــ النظم الادارية والعسكرية :

كان على راس الامبراطورية الفاطمية خليفة كان يستعين في ممارسة اشغاله بولي العهد وعدة اشخاص من وجوه البلد يقلدون مناصب عالية . وولي العهد كان في اغلب الاحيان الابن الاكبر للخليفة ، وكان يتمتع بامتيازات واسعة على نحو ماتم لأبي القاسم .

واعلى منصب في الخلافة الفاطمية هو منصب الحجابة . وكان حاجب الخلفاء الثلاثة الاولين وبداية خلافة الرابع هو جعفر بن علي .

ويأتي بعده حامل الشمسة الذي كان يسر بجانب الخليفة ليحميه من حر الشمس ، ذكر ابن حماد ان الشمسة تميز العبيديين من غيرهم من الملوك ، وذكر وصفها في قوله : « تشبه الشمسة درقة مثبتة على طرف رمح ــ وكانت مؤلفة في جملتها من مجوهرات ثمينة واحجار كريمة غالية الثمن .

وهي تعجب الناظرين وتسحر الباهم بحسنها وجمالها ، وهي نوع من الحلمى الرفيع القيمة الرائع الرواء وصفها المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا .

ففي ولاية المهدي كان حامل الشمسة هو مسعود الفتى ثم غرس الفتى ، ثم في عهد المعز غافي الفتي .

وبجانب الحاجب وحامل الشمسة كان صاحب بيت المال والقاضي ، ولي القضاء في عهد الخليفة الاول ابو جعفر المروزى واسحاق بن المنهال ومحمد بن محمود القمودي ومحمود بن عمران النفظي الذي استعيض عنه باسحاق بعد ما ردت اليه حظوته ، احتفظ القائم باسحاق بن المنهال قاضيا وعين بعد وفاته بديلا له احمد بن الوليد ، وكان محمد بن ابي المنصور قاضي المنصور ، وخلف الاخير عبد الله بن هشام . وفي عهد الفاطميين كانت بلاد الجزائر منقسمة الى أقاليم .

وكان كل واحد منها يحكمه وال ، واهمها اقاليم تاهرت والمسيلة وأشير وتلمسان ووهران وميلة وسطيف . إن اقاليم تاهرت وتلمسان ووهران كانت ذات اهمية بسبب قربها من الاندلس والصلات التجارية المهمة التي كانت تصل هذه بتلك وكانت تعترف تارة بسيادة الفاطميين وتارة بسيادة بني امية ان جعفر بن علي بن حمدون كان يحكم المسيلة ، وكانت أشير يحكمها شيخ صنهاجة : زيري بن مناد .

وحكمها بعده إبنه بلقين . ان ميلة وسطيف كانتا اهم مدينتين محصنتين في بلاد كتامة وقد إستمرت المدن المذكورة سابقا على تمثيلها دورا هاما في عهد بني زيري ، وتضاف اليها قلعة بني حماد التي صارت من بعد حاضرة دولة الحمديين .

والذي ينبغي ملاحظته ايضا الاهمية التي تتمثل في حصون قسنطينة وتيجس وقصر الافريقي التي طلب باديس الى حماد ان يسلمها له والتي كانت السبب في نشوب حرب بينهما . ان مدن الجزائر كانت كلها خاضعة للأمراء الزيريين الذين كانوا خلائف لأئمة القاهرة الفاطميين .

ان الجيش قام — في عهد الفاطميين — بدور جد خطير لأنه كان يحافظ على الامن داخل الاقاليم الخاضعة ، وكان هو الوسيلة التي تمكن من غزو اقاليم اخرى في العالم الاسلاي لم تدخل بعد في حيازتهم . وفعلا كان عبيد الله والخلائف الذين ولواالحكم بعده يعتبرون دائما افريقية قاعدة عسكرية جاهزة للانطلاق منها لغزو المشرق والمغربين الاوسط والاقصى لتحقيق وحدة العالم الاسلامي لصالحهم ، لأجل ذلك منذ عهد الخليفة الفاطمي الاول وجهت حملتان لغزو مصر . ولما لم تكلل كلتا هما بالنجاح وجه عبيد الله نظره نحو المغرب الاوسط والاقصى .

ولما استنفد قتال ابي يزيد بن كيداد نشاط الخليفتين الفاطميين الثاني والثالث لم يمكنهما ارسال حملات الى المشرق .

ولكن الخليفة الفاطمي الرابع المعز افلح ، في آن واحد ، في اخضاع مصر وكل المشرق على سبيل التقرب .

وكان الخليفة ــ او ولي العهد يلي قيادة الجيش او يليها قواد اكفاء بشكل خاص .

وجه الخليفة عبيد الله حملة على تاهرت وهجم ابنه ابو القاسم مرتين على مصر ومرة على زناتة وكان الاخير ان يقمع في عهده ثورة ابي يزيد ، ولكنه لم يل ــ فعلا ــ قيادة الجنودولكن ابنه المنصور ــ خلافا لأبيه ــ كان قائدا عسكريا بارعا حارب شخصيا رجل الحمار وابنه ايوب وسكان تاهرت .

اما المعز لدين الله فلم يشارك في الحملات العسكرية ولكنه كان بارعا في اختيار قواد ذوى قيمة كبيرة مثل جوهر الذي غزا مصر وجعفر بن علي بن حمدون والي المسيلة وزيري بن مناد وبلقين ابن زيرى شيخي صنهاجة .

ان الجيش كان مؤلفا بشكل خاص من جنود افريقية وكتامة وصنهاجة ومن العبيد الذين كانوا يشكلون حرس الخليفة الشخصي . ان الأسلحة الفردية المستعملة كانت السيف والرمح والقوس والدرق قد كان الفاطميون يستخدمون احيانا ماكينات حربية مثل الابراج المتنقلة والمجانق لقذف الاحجار .

ان بني زيري الذين حكموا افريقية والمغرب باسم الفاطميين وجهوا حملات عديدة على المغربين الاوسط والاقصى .

ان اميرهم الاول بلقين بن زيري قضى اكبر فترة من ولايته في ميادين الحرب وتوفي اثناء حملته على المغرب الاقصى . وكان ابنه المنصور على راس جيش عهد اليه بقمع ثورة كتامة وثورة عمه ابي البهار وكان الامير الزيري الثالث باديس على راس جيش استهدف قمع ثورات فلفل بن سعيد وعمه حماد اما القواد الذين كانت اسماؤهم اكثر في الذكر والشهرة فهما يطوفت وحماد بن بلقين اللذان كثيرا ما هزم جيشهما ، وكان الجيش الزيري مؤلفا بشكل خاص من صنهاجة . وفعلا ان عددا كبيرا من رجال كتامة رافقوا الفاطميين الى مصر والذين لم يكونوا قد ذهبوا ثاروا في عهد المنصورتلبية لدعوة الداعي الشيعي ابي الفهم . وكان ايضا في صفوف الجيش عبيد شكلوا الحرس الشخصى للأمير .

ب ــ الحياة الاقتصادية :

ذكر ابن حوقل الذي زار افريقية والمغرب في القرن العاشر ان الامبراطورية الفاطمية اشتهرت بثرواتها وان مجموع الضرائب ــ 947/336 ــ 948 ــ ارتفع في جملته الى ما بين سبعمائة وثمانمائة الف دينار .

اما ما يخص بلاد الجزائر فقد كان اهم مواردها الفلاحة وتربية المواشي . وفي الميدان الفلاحي كانت تنتج الحبوب والكروم والفواكه والنباتات النسيجية .

وكانت فلاحة الحبوب موجودة على مجموع التراب الجزائري وبشكل خاص في اقاليم عنابة وباغاية وطبنة ودكامة ونقاوس ومرسى الدجاج والجزائر وبرشك وتنس وتلمسان .

وقد لوحظ وجود الكروم في المسيلة وبرشك ونقاوس وأكثر الفواكه ذكرا هي : سفرجل المسيلة ومرسى الدجاج والخضراء (عين الدفلة الحالية) وبرشك وتنس وتبين مرسى الدجاج ومدينة الجزائر وتجانه قرب تنس وبندق ولوز نقاوس وتمور بسكرة التي كان يحتفظ بنوع منها لعبيد الله المهدي .

وكانت النباتات النسيجية تزرع في عنابة وطبنة والمسيلة وكان الكتان موجودا في عنابة والقطن في المسيلة ، والكتان والقطن في طبنة . وكانت عنابة والمسيلة ومدينة الجزائر وطبنة وتاهرت اشهر المناطق بتربية المواشي ، وكانت في عنابة والمسيلة تربية الخراف والثيران والدواب ، وكانت عنابة تنتج الخيل أيضا واشتهرت مدينة الجزائر بثيرانها وخرافها وكانت طبنة علية بقطعان الخراف والثيران ، ثم افتقدت بسبب الحروب التي اتلفت السكان والمواشي .

واشتهرت تاهرت بدوابها القوية وخرافها وثيرانها وبغالها .

لنذكر من بين موارد بلاد الجزائر عسل وسمن مدينة الجزائر وتاهرت وعسل برشك ، واسماك نهر مسكيانة الرخيصة الثمن لكثرتها ومناجم حديد وفضة مجانة التي اشتهرت ايضا بأحجار الطواحين وملح بسكرة الذي اختص بشهرة كبيرة حتى صار خلائف الفاطميين يتخذون منه ملح اطعمتهم واشتهرت بلاد الجزائر بكثرة طرقها ومسالكها واهمها ما كان يؤذي من المسيلة الى القيروان والى قفصة عن طريق مقرة وطبنة وبسكرة وتهودة ، وما كان يصل تيجس بالمسيلة عن طريق قسنطينة وميلة وسطيف والمسيلة بفاس عن طريق اشير وتنس وتاهرت وتلمسان ، وباغاية بطبنة عن طريق بلزمه ونقاوس . ومجانة بعنابة عن طريق تيجس كانت المرا فىء الجزائرية الرئيسية هي وهران وارشقول وتنس وبرشك والجزائر ومرسى الدجاج وجيجل ومرسى الخرز .

وكان اهمها تنس ومرسى الخرز . وتحدث ابن حوقل عن الأول فقال : «تنس هي اعظم المدن حيث ترسو السفن الاسبانية وتأتي ببضائعها ، ومنها تقلع الى شواطىء اخرى ، ومنها يحصل الملك على موارد كبيرة مثل الخراج وهو ضريبة عقارية والجزية والذكوات والرسم المضروبة على الباضائع في حالتي استيرادها وتصديرها» .

اما ما يخص المرفأ الثاني وهو مرسى الخرز فقد اشتهر بكونه مركزا لصيد الاسماك فمرجاته من النوع الرفيع وقد تخصصت خمسون قاربا في الشهر للبحث عنه ويركب كل قارب عشرون رجلا .

روى ابن حوقل انه كان لملك المغرب عمال عهد اليهم بمراقبة صيد المرجان وموظف سياسي وهو مشرف مالي يجبي الرسوم المضروبة على الغلال وكان التجار يخصون هذا النوع من التجارة بأموال طائلة صادرة من بلاد شتى ويتعاملون مع خبراء في شراء المرجان وبيعه .

وقال ابن حوقل ايضا انه لم يرسمكا اكثر دسومة وسمنا من سمك مرسى الخرز . وبلغ من قساوته انه يكاد احيانا لا يستطيع احد ان يأكله .

ح ـ الحياة الدينية :

بينما عاشت الفرق الدينية المختلفة في عهد بني رستم في وئام وسلام انتقل الوضع الى خلاف ذلك في عصر الفاطميين وسبب ذلك ان الفاطميين ارادوا أن يفرضوا على كل الناس بالعنف مذهبهم الشيعي وارسلوا الدعاة لنشره . ذكر ابن حماد ان عبيد الله المهدى امر بترك صلاة التروايح اثناء شهر رمضان وبصوم يومين قبله .

وامر أيضا بتغيير عبارة الأذان في الصباح وذلك بحذف عبارة «الصلاة خير من النوم»وبزيادة عبارة : «حي على خير العمل بحمد وعلي هما خير البرية» .

والحاصل أن العبيديين ابطلوا الحج الى بيت الله الحرام في السنة السابعة عشرة من امامتهم .

ومن ناحية اخرى مما اسر به ابو عبد الله الشيعي قلوب الرعية الغاؤه عنهم الضرائب المخالفة للشريعة بينما اثقل عبيد الله المهدي كواهلهم بالمغارم الفادحة .

ان ابن حوقل رغم تشيعه استعرض انواعها لنا فقال : كان على الناس ان يؤدوا العشر والصدقات والمراعي والجوالي وهي الجزية والمراصد وهي رسوم على المرور او العبور والاعشار الواجب أداؤها في المرافىء على الواردات والصادرات مثل ما هي واجبة على الفضة المصدرة والمسكوكة نقودا .

ولذلك استهدفوا العداوة اهل السنة والاباضية فثار هؤلاء تلبية لنداء ابي يزيد مخلد بن كيداد واستولوا على القيروان بتواطىء مع سكانها السنيين ، ولكن بعد قمع ثورة صاحب يبدو انه لم تقع معارضة قوية لمناهضة الحركة الشيعية . فبدأ المنصور متسامحا أكثر من جده فألغى منع أداء الحج مما أدى سكان تاهرت وورقلة وسدراته والسنين من سكان افريقية الذين يعيشون مع الفاطميين في سلام ووئام ، ولكن في دولة بني زيري بدأنا نشعر بنوع من المقاومة للفاطميين والشيعة في آن واحد فرأينا كيف فتك المنصور بوالي افريقية بعد توليته داعيا من قبل خليفة القاهرة وبأي قساوة قمع لمرد أبي الفهم الداعي الشيعي في بلاد كتامة .

ولاحظنا في عهد باديس ان اول شيء فاه به حماد بعد ثورته على ابن اخيه انتقاضة على الفاطميين وولاؤه لبني العباس ، وليستميل مشاعر وتقدير خليفة بغداد الذي يدين بمذهب اهل السنة والجماعة حرض سكان تونس على الفتك بالشيعة .

اشتد ما شب من قتال بين اهل السنة والشيعة اشتدادا قويا في عهد المعز فقد كان هو نفسه سنيا مقتنعا ، فقد ضرى الفتك الشديد بشيعة القيروان والمهدية وعدة مدن اخرى من افريقية بعد توليه الامارة بقليل .

اما ما يخص بلاد الجزائر فيبدو ان شيعة بلاد كتامة لم يصبهم اى اذى من انتقاض حماد بن بلقين على الفاطميين لأنه لم يقع عليهم اي قمع فيما نعلم ، ولم يصب اباضيو أقاليم تاهرت وورقلة وسدراته بسوء من جراء عقائدهم الدينية .

د ــ الحياة الادبية :

ان اشهر شعراء عهد الفاطميين والزيريين هو محمد بن هانيء الاندلسي (320 ـ 362/932 ـ 973» .

1 ــ حياته :

هو محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الاندلسي ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية سنة 320هـ/932 ــ وكان يكني بأبي القاسم ، ويقال له ابن هاني الاندلسى تمييزا له من الحسن بن هانىء الحكمي وهو ابو نواس .

قال غير واحد من الؤرخين ان نسبة ينتهي الى المهلب بن ابي صفرة الأزدى . وكان هاني ابو الشاعر من قرية من قرى المهدية بافريقية ، وكان ايضا شاعرا أديبا انتقل الى الاندلس فولد له محمد بمدينة اشبيلية ونشأ بها ، ولم يذكر احد من المؤرخين شيئا عن حياة هانيء هذا ولا بعضا من شعره .

وأول من اتصل به ابن هاني من اهل الدولة صاحب اشبيلية الذي لم تذكر المصادر اسمه ولعله كان واليا لها من قبل الناصر الأموي أعزه الأمير وأكرمه وصار عنده ذا مكان ومنزلة ، وأقام معه زمانا وسبب مفارقته اياه أن أهل اشبيلية نقموا على الأمير وأساءوا القول فيه لاقامه الشاعر عنده لشيوع تمسكه بمذهب الفاطميين بالمغرب واتهام الناس له بمذهب الفلاسفة حتى هموا بقتله فأشار عليه صاحب اشبيلية بالغيبة عن البلدة مدة ينسى فيها خبره اجمع المؤرخون على ان ابن هاني فارق الاندلس وعمره يومئذ نحو سبعة وعشرين عاما . ولا يوجد شيء من شعره الذي نظمه في بلده الاندلس سواء كان في مدح أمير اشبيلية أم في أي

موضوع آخر . مع أن الشاعر أقام عند الأمير زمانا . ولذلك قيل أن شعر ابن هاني اشتهر في الغربة ، ولم يشتهر في وطنه . بل اشتهر في المغرب ومصر وذلك بعد خروجه من الاندلس . غادر محمد بن هاني الاندلس والتحق بالمغرب الاقصى ولقي القائد جوهرا .

فامتدحه ، ثم التحق بجعفر بن علي بن حمدون الاندلسي وكان بالمسيلة عاصمة الزاب واليا عليها مع اخيه ابي زكريا يحيى الذي كان معاونا له ، فقصدهما ابن هاني ومدحهما بقصائد كثيرة تعد من عيون الشعر وتملأ ثلث ديوان الشاعر فبالغا في اكرامه والاحسان اليه ، وسارت اشعاره فيه وفي اخيه ، فلم يزل عندهما في ارغد عيش واعز جانب الى ان نمي خبره الى المعز لدين الله . فطلبه منهما ، فوجهاه اليه في جملة طرف وتحف بعثا بها اليه كان ابو القاسم افضلها عنده ، فأقام عند المعز بالقيروان وامتدحه بغرر المدائح وعيون الشعر فأقام عنده وهو منعم مكرم الى ان ارتحل المعز الى مصر ، وكان يفضله على سائر الشعراء الذين كانوا عنده ، كما يشير الى ذلك قوله :

فما تكامل من قبلي لمرتقب — اذنا ، ولا لخطيب ما تكامل لي ولما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو ان نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » وفي سبب وفاة ابن هاني اقوال كثيرة .

2 — شعره :

اكثر شعر ابن هاني في المدح لان ذلك كان الغرض الاول من شعره مدح في بلده صاحب اشبيلية ، وبعد خروجه من الأندلس صار شاعر بني حمدون في المسيلة ، مدح جعفر بن علي وأخاه يحيى وابنه ابراهيم ولكن أكثر أمداحه خصها بالمعز لدين الله الفاطمي فكان شاعره وشاعر دولته ، وله قصائد في الرثاء والهجاء والوصف ، ولكنها اقل شعره شهرة وذيوعا . غير ان هذه القصائد الطويلة في مدح الأمراء اشتملت على جميع اعراض الشعر من مدح وهجاء وحماسة ونسيب ووصف جاء كل ذلك منبثا في اثناء كلامه ، هو شاعر طرق جميع انواع الشعر . واجاد فيها واكثر هذه الاعراض المديح والعزل والوصف اما الغزل فقد جاء فيه بأرق المعاني واخفها على النفس وان كرر ما ذكر في شعر غيره من المعاني المعروفة الا انه يمتاز بحسن صوغ تلك المعاني ونظمها في اسلوب ساحر .

مما جعل لهذه المعاني صبغة خاصة كأنها جديدة في نوعها .

كان لا يعمد الى وصف حقيقة من الحقائق حتى يلجأ الى الخيال . فاذا وصف جيشا سائرا اثر الامير قال : انه سدا لأفق حتى اخفى الشمس واصبح كأنه لجة لا يقدر احد على خوضها واذا مدح الامراء مدحهم بفضائل شتى مع كثير من المبالغة ولم تكن له

عناية بتحري الحقائق في شعره . وغايته الوحيدة رفع شأن الممدوح أيا كان . يصف الرجل بما ليس فيه وكأنه جمع صفات الكمال وحده ويجعله كل شيء في الوجود فيقول :

هو علة الدنيا ومن خلقت له … ولعلة ما كانت الاشياء
ليست سماء الله ما ترأونها … لكن ارضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره … واطاعه الاصباح والامساء

يذكر لنا الدكتور محمد اليعلاوى في كتابه . « شاعر شيعي من المغرب : محمد بن هاني » ان الشعر الذي نظمه ابن هاني في المسيلة يمدنا بمعلومات شتى حول بني حمدون : جعفر بن علي واخيه يحي وابنه ابراهيم بن جعفر امراء المسيلة عاصمة الزاب . ويطلعنا ايضا عن المحيط الذي عاش فيه هؤلاء الأمراء ويصف لنا كيف مرت حياتهم في فترة ازدهار حضارتهم اللامعة في المسيلة .

3 ــ حياة البلاط في المسيلة عاصمة الزاب :

ان شعر ابن هاني يجعلنا نتخيل ان جعفر بن علي كاد يكون اميرا مستقلا على الزاب ــ لان ابن هاني في الشعر الكثير الذي نظمه في بني حمدون لم يتعرض فيه لذكر المعز ولا لتبعية جعفر له . لأن الشاعر كان بعيدا عن المشاكل التي اثارتها الحياة في عاصمة الخلافة . ويضفي ابن هاني على بني حمدون في شعره ألقاب الملوك . فهو يقول لجعفر :

جزيل الندى والبأس تصدر كفه ــ … وقد نازلت ألفا . وقد وهبت الفا
وما سدد الاملاك من قبل جعفر … ولا أنكروا نكرا ولا عرفوا عرفا

ويقول ليحي :

لنا مثل يحيى ، والبرية كلها … له خول حتى الملوك العباهل

وحتى لابراهيم بن جعفر :

لا ارى كابن جعفر بن علي … ملكا لا بسا جلالة ملك

ان هذه الالقاب الملكية التي يطلقها ابن هاني على جعفر ويحيى كانت لدنه احط وأقل من لقب امام أو خليفة .

وهكذا يدعو جعفر بن علي ملك الزاب في قوله :

ويا ملك الزاب الرفيع عماده … بقيت لجمع المجد ، وهو فريق

ثم يقول له بعد ذلك انه يد المنصور :

وكنت يدا لمنصور ، منصور هاشم　　لدى البطش اذ أيدى القوارس سوق

وربما يستخدم ابن هاني من غير تمييز لقب « ملك » او لقب « امير » اى عامل ولاية او قائد جيش — وهكذا يلقب جعفر بن علي بلفظين في بيت في قوله له :

فما انس لا أنس الأمير اذا غدا —　　يروع بمرأى ملكه ويروق

فان شبه استقلال أسرة بني حمدون يظهر جليا للعيان في الحياة الواقعية ، وكانت متمثلة في حياة البلاط الراقية الفاخرة التي نسمع اصداءها لدى المؤرخين ولدى ابن هاني الذي يرينا تزاحم وفود القبائل على باب جعفر بن علي كما لو كان خليفة بغداد : يقول ابن هاني :

ورايت حولي وفد كل قبيلة　　حتى توهمت العراق الزابا

وتشبيه الزاب بالعراق الذي كان مضرب الامثال في الحضارة الراقية قد استعمله الشاعر في قوله :

تبغدد منه الزاب حتى رأيته　　يهب نسيم الروض فيه فيستجفى

وقد يعبر ابن هاني عن اعجابه بالزاب وبسمو منزلة بني حمدون فيقول في مدح جعفر :

خليلي اين الزاب مني وجعفر　　وجنات عدن بنت عنها وكوثر
اتى الناس افواجا اليك كأنها　　من الزاب بيت او من الزاب محشر

ويقول لابراهيم بن جعفر الذي كان يستقبل الزائرين من الشعراء العفاة :

فكأنا — صبية الاذن — نلقي —　　دونه المشرفي هز لبتك

وربما يخاطب ابن هاني الامير يحيى داعيا له الى شيء من اللهو والترفية عن النفس وإراحتها — حينا بعد حين — من عناء حياة الجد والتزمت والصرامة في قوله له :

فبا لسعى للعليا يشاد بناؤها　　وفي اللهو أيضا راحة النفس والفكر
ولا خير في الدنيا اذا لم يفز بها　　مليك مفدى في اقتبال من العمر
الا انعم بأيام ألذ من المنى　　تحلت بآداب أرق من السحر

من قوله في مدح جعفر بن علي :

وما لجود شيئا كان قبلك سابقا ... بل الجود شيء في زمـانك حادث
نظمت رقيق الشعـر فيك وجزلـه ... كأنـي بالمرجـان والـدر عابث
حلفت يمينـا اننـي لك شاكـر ... واني — وان برت يميني — لحانث

ومن قوله يمدحه :

الهدنفـان من البريـة كلهـا ... جسمـي وطـرف بابلـي احـور
والمشرقـات النيـرات ثلاثـة ... الشمس والقمـر المنيـر وجعفـر

ومن قوله في الغزل :

قمـن في مأتـم علـى الشاق ... ولـبسن السواد في الاحـداق
وبكيـن الدمـاء بالعنـم إلـرط ... ب المقنـي ، وبالخـدود الرفـاق
ومنحـن الفـراق رقـة شكـوا ... هن حتـى عشقت يوم الفـراق
حاربتهـم نوائب الدهـر حتـى ... آذنـوا بالفـراق قبـل التلاقـي
ودنـوا للـوداع حتـى ترى الأجـ ... ـياد فوق الأجيـاد كالأطـواق
يوم راهـنت في البكـاء عيونـا ... فتقـدمت في عنـان السبـاق
امنع القلب ان يذوب ومن يمـ ... ـنع جمـر الـغضا عن الاحـراق

ومن قوله في الجد والعبرة :

انـا ، وفـي آمال انفسنـا ... طول ، وفـي اعمارنـا قصر .
لنـرى بأعيننـا مصارعنـا ... لو كانت الألبـاب تعتبـر
أي الحيـاة الـذ عيشتهـا ... من بعـد علمـي أننـي بشر
خرست لعمـر اللـه — السننـا ... لمـا تكلـم فوقنـا القـدر

من بين الشعراء الذين عاشوا في عهد الفاطميين والزيريين — علاوة على ابن هاني الاندلسي الذي تحدثنا عنه — عبيد الله المهدي وابو عبد الله الشيعي وجعفر بن فلاح الكتامي وابو زكريا يحي بن على بن حمدون وابو مضر الطبني وحفيده محمد بن يحيى وابن حوقل وعبد الكريم النهشلي وابن ابي سهل الخشني وابو نوح السعيد بن يخلف المزاتي وابو سهل الفارسي ابو عمران موسى بن زكريا المزاتي واحمد بن قاسم التاهرتي اماما يخص عبيد الله المهدي فقد سبق في التريخ السياسي للفاطميين ان ذكرنا له مقطوعة شعرية وقد ورد في كتاب البكرى مقطوعة شعرية من نظم ابي عبد الله الشيعي وهي :

من كان مغتبطا بلـن حشيـة فحشيتـي واريكتـي سوجـي
من كان يعجبـه ويبهجـه نقـر الدفـوف ورنـة الصنـج
فأنـا الـذي لاشيء يعجبنـي الا اقتحامـي لجـة الوهـج
سل عن جيوشي اذ طلعت بهـا يوم الخميس ضحـى من الفـج

واراد بالفج فج زيدان المطل على مدينة طبنة .

ومما امتاز به ابو زكريا يحيى بن علي في أسرة بني حمدون موهبته الشعرية ، فهو من بينهم الوحيد الذي رويت له مقطوعة من الشعر الجيد ، رواها ابن الأبار في الحلة السيراء ، قال ابو زكريا يحيى يصف فرسا كريما :

ومتممـا في خلقـه لم يبـخس عارى الأديم ، من الملاحة مكتس
صلت اليه الخيل ، فهو امامهـا وهو المقدم عندها في الانـفس
وكـأن لون أديمـه من سوسن وكـأن لون لجامـه من نرجس

وكان جعفر بن فلاح الكتامي المتوفي سنة 971/360 من قبيلة كتامة واحد قواد المعز ابي تميم الفاطمي ، وكان شجاعا مظفرا ، سيره المعز مع القائد جوهر لافتتاح الديار المصرية ، فلما دخلاها بعثه جوهر الى الشام ، فامتلك مدينة الرملة (بفلسطين) في ذى الحجة سنة 358/ اكتوبر 969 . ثم قصد دمشق فامتلكها في شهر المحرم سنة 359/نوفمبر 969 ، وأقام بها الى ان قتل يوم الخميس 6 ذى القعدة سنة 31/360 اغسطيس 971 ، قتله الحسن بن احمد القرمطى (278 — 891/366 — 976) الملقب بالأعصم وكان من الشجعان الدهاة وله شعر .

قال ابن تغرى بردى في نجومه : «كان جعفر بن فلاح الكتامي اديبا شاعرا فصيحا كتب مرة الى الوزير يعقوب يقول له :

ولـى صديـق ما مسنـى عدم مذ نظـرت عينـه الـى عدمـي
اعطـى وأغنـى ولـم يكلفنـي تقبيـل كف له ولا قدم .

وقال ابن الأبار في الحلة : «هذا من رجال الدولة العبيدية ... ولم يقع الى من خبره ما اذكره هاهنا سوى امتداح ابي القاسم بن هاني اياه وحسبه بذلك نباهة ، وكفاه ... ووجدت منسوبا اليه :

ويـوم كأن الغيـم تحت سمائـه حكى مقلتي سحا ، ولم يحكني ضنى
كأن الغـوادي بالمثانـي نضحنـه والبسته ثوبا من الخز أذكنـا» .

وقال ابن خلكان في الوفيات : «كان جعفر رئيسا جليل القدر ممدوحا وفيه يقول ابو القاسم محمد بن هانىء الاندلسي الشاعر المشهور :

كانت مساءلــة الركبــان تخبرنــي عن جعفـر بن فلاح اطيب الخبـر
حتى التقينا ، فلا والله ما سمعت اذني بأحسن ممــا قد رأى بصرى

ابو مضر محمد بن حسين الطبني : (ت 1004/394) .

ولد ابو مضر الطبني في طبنة عاصمة الزاب ، وانتقل الى الاندلس سنة 937/325 ، روى ابن حيان له في المقتبس مقطوعات كان يلقيها في المحافل الرسمية على نحو ما كان يقع عند حلول اعياد الفطر والاضحى قال ابن حيان : وفي عيد الاضحى في العام (970/360) جلس فيه الخليفة الحكم على السرير بقصر الزهراء ..... للتهنئة ..... وظلت الخطباء والشعراء خلال ذلك ترتجل القول وتنشد الشعر ، فكان من أحسن ذلك قول أبي مضر محمد بن حسين الطبني في شعر طويل يقول فيه :

نظر الالـه الـى البريـة رحمـة فاختـار افضلهـا لهـا وتخيـرا
ملك اقـام العـدل في اسامـة سوقا ، فصار الحق فيـه متجـرا
لم يجر طيب ذكـره في مجلـس الا حسبت به الهـواء تعطـرا
ملأ العبـاد سنـاؤه وثنـاؤه عدلا فأكسد مسكهـا والعنبـرا
لا يبتغـى السارى دليـلا نحـوه فالبـدر من لألائـه قد اسفـرا
يجلـو ظلام الليـل نور جبينـه فكـأن مرتتـق الدجنـة فجـرا
لا زالت الايـام اعظـم حظهـا في الدهـر ان تطـوى لديك وتنشوا
قرت عيـون المسلميـن بغـرة زهـراء تسلكهـم سبيـلا ازهـرا
ابصارهـم تجلـو سرور اظاهـرا وقلوبهـم تجنـى سرورا مضمـرا
فلـو آن أركـان السريـر كواكب يشرقن لا ستحققت منهـا اكثـرا
غيـر النكيـر ، وانت شمس للهـدى ان تغتدى شمس الضحى لك منبرا

وقال محمد بن يحيى بن ابي مضر الطبني في الغزل :

لا يبعد الله من قد غاب عن بصرى ولم يغب عن صميم القلب والفكر
اشتاقه كاشتيـاق العيـن نومتهـا بعـد الهجود وجدب الارض للمطر
وعاتبونـي علـى بذل الفؤادلـه وما دروا اننـي اعطيتـه عمـرى

وذكره الحميدى في الجذوة وانشد له شعرا يخاطب به ابا محمد بن حزم ، وذكره الضبي في البغية وروى له مقطوعة محي اولها وبقي منها قوله :

ولـو آن الديـار ينهصهـا الشو ق اتـاك البـلاط كالمستغـيث
كن كما شئت صاحبا لي ، فاني ليس لى غيـر ذكركـم من حديث
لك عندي ــ وان تناسيت ــ عهد في صميم الفـؤاد غيـر نكـيث

وعبد الكريم النهشلي الذي توفي سنة : 1014/405 ــ 1015 .

كان شاعر باديس بن المنصور ، وكان لغويا وعالما بأيام العرب واشتهر بشكل خاص بكتابة الممتع في صناعة الشعر ــ ومن شعره مقطوعة في وصف الفيل يقول فيها :

اضخـم هنـدى النجـار تعـده ملوك بني ساسان ان نابها دهـر
من الورق لا من ضربة الورق يرتعي اضاح ، ولا من ورده الخمس واالعشر
يجيء كطـود جائـل فوق اربـع مضبرة لمت كمـا لمت الصخـر
له فخـدان كالكثيبيـن لبـدا وصدر كما اوفى من الهضبة الصدر
ووجـه به آنف كرا ووق خمـرة ينال به ما تدرك الأنمـل الـعشر
وجنبان لايروى القليب صداهمـا ولـو انـه بالقـاع منهـرت حفـر
واذن كنصف البرد تسمعه الندى خفيا وطرف ينفض العـنت مزور
ونابـان شقـا لا يريـد سواهمـا قناتيـن سمراويـن طعنهمـا نثـر
له لون ما بيـن النهـار وليلـه اذا سقسق العصفور او غلس الصقر

ابن ابي سهل الخشني ، ابو عبد الله عبد العزيز بن ابي سهل الخشني الضرير . من شيوخ الحسن بن رشيق في الأدب ، قال عنه : « كان مشهورا بالنحو والغة جدا ، مفتقرا اليه فيهما ، بصيرا بغيرهما من العلوم . وكان شاعرا مطبوعا . سلك طريقة ابي العتاهية في سهوله الطبع ولطف التركيب ولا غناء لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه ، مات سنة 1015/406 ــ 1016 وقد زاد على السبعين ، ولد في بداية الثلاثينات من القرن الرابع الهجرى . من شعره قوله :

ولست كمن يجزي على الهجر مثله ولكنني ازداد وصلا على الهجـر
وما ضرني اتـلاف عمـرى كلـه اذا انلت يوما من لقائك في عمري

وقوله :

العيـن من وجـهك في لهـو والقـلب من صدك في شجـو
تـاصف الـحسن الـذي حزتـه لم يفتقـر عضو الـى عضو
ولـم يفـد منك محب سوى قلب شج في جسد نضو

زيارة ابن حوقل لبلادنا في عهد الفاطميين : غادر ابن حوقل بغداد يوم رمضان 15/331 ماي 943 ووصل الى المهدية سنة 947/335 بعد حصار ابي يزيد للمدينة . وزار الأندلس والمغرب الأقصى وغانا والمدن الرئيسية يمدنا عما يراه ويشاهده بمعلومات نفيسة بشكلا عام وعن الحياة الاقتصادية والاجتماعية بشكل خاص .

قضى ابو نوح السعيد بن يخلف المزاتي شبابه في ناحية الزاب وعاش حوالي 961/350 — 962 .

كان ابن ابي سهل الفارسي شاعرا ومؤرخافي النصف الاول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادى وكان يسكن في مرسى الدجاج او مرسى الخزر ، وألف اثني عشر كتابا باللهجة البربرية عن تاريخ الاباضية في المغرب .

وكان ابو عمران موسى بن زكريا المزاتي محدثا وفقيها مشهورا وعاش في النصف الاول من القرن الخامس الحادى عشر الميلادي ، والف كتابا في الفروع في اثنى عشر جزءا بمساعدة ستة شيوخ آخرين كلفوا بنقل الكتاب .

ابو القاسم الوهراني : (... — بعد 1009/400)

عبد الرحمان بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمداني الوهراني ابو القاسم ، يعرف بالتجاني وبابن الخراز — عالم بالحديث ورجاله . من كبار الفقهاء . مشارك في كثير من العلوم ، من اهل وهران رحل في طلب العلم فسمع من علماء افريقية ومصر والحجاز والعراق وخراسان والجبل ونيسابور وبلخ . وتفقه بأبي بكر القطيعي (273 — 368هـ) وبأبي بكر الابهرى (289 — 375هـ) . ودرس على الابهرى كتبه سنين مع اصحابه . واقام في رحلته نحو عشرين عاما . وعاد ثم دخل الاندلس فروى عنه الامامان الحافظان : ابن عبد البر (368 — 463هـ) وابن حزم (384 — 456هـ) له رسالة في سيرة شيخه ابي بكر الأبهرى اعتمد عليها مترجموه .

احمد بن قاسم التاهرتي : (309 — 921/396 — مارس 1006) .

احمد بن قاسم بن عبد الرحمن (بن محمد التميمي) التاهرتي البزاز . ابو الفضل . ولد بتاهرت ، واتى مع ابيه صغير الى الاندلس سنة 317 وكان ابوه من جلساء بكر بن حماد التاهرتي وممن اخذ عنه .

قاله أبو محمد علي بن احمد وقد روى عنه ابو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن ابى حاج فقيه القيروان . وقال ابو عمر بن عبد البر : سمع ابو الفضل التاهرتي من ابن ابي دليم وقاسم بن اصبغ ووهب بن مسرة ومحمد بن معاوية القرشي وابي بكر الدينورى ، وكان ثقة

فاضلا اختص بالقاضي منذر بن سعيد البلوطي (273 ــ 886/355 ــ 966) نسبة الى فحص البلوط بقرب قرطبة قاضي قضاة الاندلس في عصره وكان فقيها خطيبا شاعرا فصيحا كثير التاليف سمع ابو الفضل منه تآليفه كلها ، قال ابن عمر : وقد لقيته وسمعت كثيرا منه قال ابو عمر : حدثنا احمد بن قاسم بكتاب صريح السنة لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . وبكتاب فضائل الجهاد له وبرسالته الى اهل طبرستان عن ابي بكر احمد بن الفضل الدينورى عن الطبري قال ابو الوليد بن الفرضي : قرأت عليه كثيرا من روايته عن قاسم وغيره ، وسألته عن سنة ومولده فقال لى : ولدت سنة 309 هـ قال ابو الوليد وتوفي رحمه الله بقرطبة ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادي الاولى سنة 396 هـ وصلى عليه قاضي الجماعة ابو العباس بن ذكوان . (المتوفي سنة 1022/413) قاضي القضاة بالأندلس .

د ــ الحياة الفنية :

ان ثلاث مدن لعبت ــ في الميدان الفني ــ دورها في عهد الفاطميين والزيريين وهي المسيلة وأشير وسدراتة ، شيد بنو حمدون بعاصمتهم المسيلة قصورا عديدة تغني بها ابن هاني الاندلسي في شعره فذكر قصرا يمتاز بقبابه العالية المطلة على ناحية الزاب ومجلسا قارنه بأيوان كسرى وقصور اليمن . ومن دواعي الأسف اندثار هذه المباني الشهيرة التي لم يبق منها شيء بخلاف آثار مدينة أشير عاصمة بني زيري الموجودة بالقرب من عين بوسيف فإنها ما تزال ماثلة للناظرين وعبرة للمعتبرين .

زار النقيب رودي ناحية أشير سنة 1908 واكتشف بها ثلاثة مواقع مختلفة منزه بنت السلطان وياشير او الأشير ، وبنية .

يقع منزه بنت السلطان على نحو 10 كلم شمالي الشمال الشرقي لعين بوسيف وهو عبارة عن حصن مشيد بالكاف الاخضر على قمة صخرة مينعة يبلغ طولها 272م وعرضها 25م وارتفاعها 1300م يحيط بها مبني بالحجر يبلغ سمكه مترين . وداخل السور برج وبناء مستطيل وصهريج وبئر .

ان البرج على شكل نصف دائرة ، وهو عبارة عن غرفة واحدة يبلغ طول البناء المستطيل 30م وعرضه 15م ، ويحتوى على اربع غرف وصحن ويبلغ طول ضلع الصهريج 10م وعمقه 1,5م . اما البئر المتصلة به فهي اسطوانية الشكل ويبلغ قطرها 2,52م وعمقها 1,50م .

وتقع ياشير او الأشير على نحو 12 كلم شرقي الشمال الشرقي لعين بوسيف ويحيط بها سور سمكه متران ، وليس فيها الا قطع من القرميد الاجر والفخار . اما بنية الكائنة على مسافة 2500 متر شرقي ياشير ، ففيها سور من الحجر سمكه سمك السورين الآخرين وانقاض بناء مستطيل طوله 21م وعرضه 19م يقول النقيب رودى انه كان حماما .

اما جورج مارسي فذهب الى انه كان مسجدا .

ولكن اهم المباني التي عثر عليها في ياشير هو القصر الذي اكتشفه قولفان على مقربة من موقع ياشير .

ان هذا القصر المشيد بالحجر يحيط به سور مستطيل طوله 72م وعرضه 40م ندخل اليه من باب بارز يشبه باب مسجد المهدية ، ويرجع عهده ــ هو الآخر الى العهد الفاظمي وليس غريبا ان يكون قصر اشير بناه مهندس من افريقية ارسله الخليفة الفاطمي القائم الى زيري بن مناد .

ويؤدى هذا الباب الى صحن كبير طوله 35م وعرضه 33م يحيط به رواق ما تزال قواعده ماثلة للعيان ، والى اربعة حصون صغيرة موزعة حول الصحن الكبير . اما الفرق التي تحيط بالصحون الخمسة فهي مختلفة الشكل ويمتاز هذا القصر ايضا بتناظره التام الذي يذكرنا بالقصور التي بناها خلفاء بني أمية بالشام .

اما مدينة سدراته الواقعة على 14 كلم جنوبي ورقلة فقد شيدها الرستمين بعدما طردهم ابو عبد الله الشيعي من تاهرت .

اشتهرت هذه المدينة بحضارة مزدهرة تدل على ذلك الأطلال التي عثر عليها علماء الآثار فقد قام هؤلاء فيها بأبحاث .

منهم لارجو سنة 1878 ، وطارى سنة 1880 ، وبلانشي عام 1898 ، وفوشى عام 1942 ، وبشكل خاص مرغريت فان برشم التي قامت في سدراتة بحفريات على جانب من الأهمية ونشرت حول هذا الموضوع عدة ابحاث قيمة تجعلنا نتصور بسهولة كيف كانت مدينة سدراتة في عهدها الذهبي . ان الاستطلاع الجوى الذي قامت به مرغريت فان برشم سنة 1950 بين لها وجود آثار مدينة له طول كيلو مترين اثنين على عرض كيلومتر واحد . وكانت هذه المدينة عبارة عن قرى متعددة وبساتين فسيحة .

ان هذه المدينة التي يقول عنها المؤرخون انها كانت متكونة من 125 قرية وتستقي من 1051 عينا بقي منها اطلال مسجد وعدة بيوت وقصر جدرانه مزينة بالجص المنقوش نستطيع ان نشاهد منه قطعا بمتحف الآثار بالجزائر ، وبمتحف ورقلة .

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
909/290 تولية دوامو بن صولات علي تاهرت	909/296 تولية المهدي عبيد الله				
909/297 هجوم محمد ابن خزر على تاهرت					
909/297 سقوط مدينة وهران بين يدى الفاطميين	911/298 قتل ابي عبد الله الشيعي				
			912/300 تولية عبد الرحمن الثالث		
911/298 زيري بن مناد امير صنهاجة		911/305 سقوط مدينة نكور بين ايدي الفاطميين		302/301 915 — 914 اول هجوم فاطمي على مصر	
911/299 — 912 ثورة اهل تاهرت		921/304 — 922 سقوط سجلماسة بين ايدي الفاطميين		917/305 309 — 302 921 — 913 ثاني هجوم فاطمي على مصر	
921/309 — 922 وصول الداعي الفاطمي مونب ابن سليمان الى تاهرت		922/310 — 923 ظهور حاميم ببلاد غمارة		922/310 923 تعذيب الحلاج ببغداد 923/311 — 924 وفاة الطبري	921/309 تأسيس اول دولة تشيكية
924/312 تولية مصالة ابن حبوس على تاهرت				925/313 وفاة الفيلسوف والطبيب الرازي	925/313 هجوم التورمان على فرنسا احتلال المجر لوادي وون ووصول البلغاريين امام القسطنطينية
925/313 تأسيس مدينة المسيلة					
926/314 هجوم ابن خزر على تاهرت					

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
927/315 اقامة ابي القاسم بن عبيد الله بتاهرت		927/315 — 928 قتل حميم قرب تطوان			
			929/316 مبايعة عبد الرحمن الثالث بالخلافة	929/317 وفاة العالم البناني	
				929/317 سقوط مكة بين ايدي القرامطة	
931/319 حميد بن يصال على تاهرت	934/323 تولية الخليفة الفاطمي القائم	931/319 سقوط مدينة سبتة بين ايدي الامويين			
			931/319 وفاة ابن مسرة بقرطبة	934/323 المسلمون يغزون مدينة جنوى	
934/323 ثورة اهل تاهرت	944/332 ابو يزيد يحتل مدينة القيروان	935/324 — 936 سقوط مدينة فاس بين يدي القائد الفاطمي ميسور		936/324 المغول يفتحون مدينة بيكين	
936/324 تأسيس مدينة أشعر	945/333 ابو يزيد يحاصر مدينة المهدية		936/324 تأسيس مدينة الزهراء	944/333 سقوط مدينة حلب بين يدي سيف الدولة	
946/335 وصول الخليفة المنصور الى المسيلة	946/334 تولية الخليفة الفاطمي المنصور وسقوط مدينة القيروان بين يديه		940/328 وفاة ابن عبد ربه	945/334 بنو بوية يحتلون بغداد	
947/336 وفاة ابي يزيد	952/341 تولية الخليفة الفاطمي المعز	951/340 وصول الرحالة ابن حوقل الى سجلماسة		950/339 وفاة الفيلسوف الغرابي	

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
			955/344 تأسيس مدينة المرية		955/344 انتصار الامير الجرماني اوطون الاول على المجر
				956/345 وفاة المسعودي	
		960/349 فتح فاس من طرف جوهر وزيري بن مناد	961/350 تولية الخليفة الاموى الحكم		
				965/354 وفاة المتنبي	
				967/356 وفاة ابن الفرج الاصفهاني	966/355 مبايعة اوطون الاول كامبراطور
				969/358 القائد الفاطمي جوهر يفتح مصر	
971/360 انتصار صنهاجة على زناتة بناحية تلمسان				970/359 تأسيس القاهرة	
971/360 قتل زيري بن مناد			973/363 — 974 وفاة محمد بن يوسف الوزاق		
	972/362 تولية الامير الزيري بلقين		975/365 تولية ابن ابي عامر كا حب	972/362 وصول الخليفة الفاطمي المعز الى القاهرة	975/364 افتكاك امبراطور كانوج بالهند
	974/364 وفاة القاضي النعمان		977/366 مبايعة الخليفة الاموى هشام ابن الحكم		976/365 تولية الامبراطور البيزنطي بازيل الثاني
		979/368 بداية غزو بلقين للمغرب			

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
984/373 تولية الامير الزيري المنصور بمدينة اشير	985/375 — 986 تأسيس قصر صبرة المنصورية	984/373 وفاة الامير الزيرى بلقين			980/369 بداية عهد فلاديمير ملك كياف بروسيا
989/379 — 990 ثورة ابي البهار عم الامير الزيرى المنصور			991/381 مولد ابن حزم	تولية الملك الفرنسي هوغ كابي	989/376
		991/383 المنصور يعفو عن ابي البهار		991/381 وفاة العالم الشيعي ابن بابوية	991/381 هجوم اهل الدانمارك على انكلترا
999/389 هجوم زيري ابن عطية على تاهرت وثورة اعمام الامير الربرى المنصور		996/386 تولية الامير الزيري باديس ابن المنصور		991/383 تأليف فهرست ابن النديم	
1000/391 انتصار حماد بن بلقين على عمه ماكس				999/389 محمد الغزنوى يحتل خراسان 1000/390 محمود الغزو الهند للمرة الاولى	999/389 الامبراطور اوطون الثالث يختار مدينة روما كعاصمة
		1001/391 وفاة زيرى بن عطية			1000/390 بداية الحضارة التولتيكيه بالمكسك

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
			1001/391 وفاة المنصور ابن ابي عامر		
1107/398 1008 تأسيس مدينة قلعة بني حماد				1008/398 وفاة الهمذاني صاحب المقامات	
				1010/400 الفردوسي تؤلف كتاب «الشاهنامة»	1010/400 النورمان يغزون ايطاليا الجنوبية للمرة الأولى
1015/405 ثورة حماد بن بلقين على الامير الزيرى باديس				1012/403 — 1013/ وفاة الباقلاني	
1016/406 معركة شلف وانهزام حماد ابن بلقين	1016/406 تولية الامير الزيرى المعز ابن باديس				
1016/406 حصار قلعة بنى حماد وفاة الامير الزيرى باديس	1017/408 عقد الصلح بين المعز بن باديس وحماد ابن بلقين		1015/406 — 1016 فتح قرطبة من طرف علي بن حمود		

اهم المصادر والمراجع باللغة العربية
الخاصة بالجزائر في عهد الفاطميين والزيريين

ـ ابن ابي دينار ، **المؤنس في اخبار افريقيا والمغرب** ، تونس ، 1967

ـ ابن ابي زرع الفاسي ، **كتاب الانيس المغرب بروض القرطاس** ، فاس ، 1973

ـ ابن الاثير ، **الكامل في التاريخ** ، دار الكتاب العربي ، 1909/1387

ـ ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر 1927

ـ ابن حوقل ، **كتاب صورة الارض** ، ترجمة .... باريس 1965

ـ ابن خلدون ، **كتاب العبر** ، دار الكتاب اللبناني ، 1939

ـ ابن خلكان ، **وفيات الاعيان وابناء الزمان** ، القاهرة ، 1948

ـ ابن عذارى ، **البيان المغرب في اخبار المغرب** ، مكتبة صادر ، بيروت 1950

ـ البكرى ، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ، باريس 1965

ـ القاضي نعمان ، **كتاب افتتاح الدعوة** ، تونس 1975

ـ لقبال موسى ، **كتامه**

ـ مرمول ، **السجاسة الداخلية**

ـ النويرى ، **نهاية الارب** . أعني بنشر منتخبات منها .

ch. BOUYAHIA, La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides

M. CANARD, Une familles des partisans, puis d'adressans des Fatimides, en Afrique du Nord, Melariges d'Histoire et d'Archeologie de l'Occident musulmanes, T. II ; PP. 33-49

L. GOLVIN, de Maghrib Central à l'époque des Zirides, Paris, 1962.

Ibn. KHALDOUN, Histoire des Berberes, trad. des 3 lame.

H.R. IDRIS, La Berbérie Orientale sous les zirides, Paris, 1962.

R. Le TOURNEAU, La révolte d'Aba Yazid au Xe siècle, Cahiers de Tunisie, N°2.

M. TABLI, l'ouriat aghlabide.

الباب الرابع

الجزائر في عهد الحماديين

الفصل الاول

التاريخ السياسي

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

رأينا من قبل كيف تأسست الدولة الحمادية التي وليت الامارة في بلادنا من 1017/408 حتى 1157/552 وقد تعاقب تسعة أمراء على رأس المملكة الحمادية طوال قرن ونصف تقريبا . وهم :

حماد بن بلقين ـــ القائد بن القائد محسن بن القائد ـــ بلقين بن محمد الناصري بن علناس ـــ المنصور بن الناصر باديس بن المنصور ـــ العزيز بن المنصور ـــ يحيى بن العزيز .

1ـــ عهد حماد بن بلقين : (408ـــ1017/419ـــ1028) .

رجع الى القلعة القائد بن حماد الذي كان أرسله أبوه رهينة الى المعز بعد انعقاد الاتفاق مع الأمير الزيري والاعتراف باستقلال الدولة الحمادية . وقد توطّدت السلم التي تم انعقادها بين الأميرين بتزويج المعز أخته أم العلو بعبد الله بن حماد . وبهذه المناسبة أقيمت حفلة رائعة بتاريخ اليومين الأول والثاني من شعبان 8/415 ـــ 9 أكتوبر 1024 .

وبعد ذلك بأبع سنين توفّي حماد في نزهة في تازمرت قريبا من قلعة بني حماد .

2) ـــ عهد القائد بن حماد : (419ـــ1028/446ـــ1054) .

بعد وفاة حماد خلفه ابنه القائد بدون صعوبة .

ان أهم الأحداث السياسية التي وقعت في عهد القائد بن حماد هو : انقطاع العلاقات الزيرية ـــ الفاطمية . ولذلك قسمنا دراستنا لعهد الأمير الحمادي الثاني الى ثلاثة

أقسام : القائد قبل انقطاع العلاقات الزيرية ـــ الفاطمية ـــ انقطاع العلاقات الفاطمية ـــ الزيرية ـــ موقف القائد من انقطاع العلاقات الفاطمية ـــ الزيرية .

أ) ـــ القائد قبل انقطاع العلاقات الفاطمية ـــ الزيرية

ذكر المؤرخون ان القائد كان رجلا صارما قاسياً . قتل ابنه من دون أن نعرف سبب ذلك . وبعدما ولي الامارة عين أخاه يوسف عاملا على المغرب ، وأخاه وقلان عاملا على سوق حمزة (بويرة الحالية) ثم دشن ممارسته للحكم بشن حملة على والي فاس حمامة بن المعز بن زيري بن عطية . ولكن الجيشين لم يلتقيا . لأن القائد الذي كان أكرم من أبيه دفع أموالا طائلة لجنود عدوه ليخونوه . فاطلع والي فاس على جلية المكيدة . وخشي الهزيمة . فخضع للقائد . والتحق بفان وتم ذلك سنة 1038/430 ـــ 39 وفي سنة 1040/432 ـــ 41 حارب القائد الأمير الزيري المعز فحاصر المعز قلعة بني حماد مدة سنتين فطلب القائد العفو من الأمير الزيري فعفا عنه وقفل الى افريقيا .

ب) انقطاع العلاقات الفاطمية ـــ الزيرية .

من أسباب انقطاع العلاقات الفاطمية ـــ الزيرية ضعف الفاطميين وازدهار الحياة في افريقية والنفوذ الذي كان المعز يتمتع به ، وكره أهل افريقية للمذهب الشيعي وتمسكهم بمذهب أهل السنة والجماعة .

تم انقطاع العلاقات الفاطمية الزيرية بين 1041/433 ـــ و ـــ 1054/446 وأعقبه اعلان المعز ولاءه للخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي أرسل الى أمير افريقية التقليد والخلع . ولما اطلع خليفة القاهرة المستنصلا على موقف المعز الجديد من الفاطميين تهدد الأمير الزيري بشن حملة عسكرية عليه ان هولم يرجع عن رأيه فأبى المعز الا امضاء ولائه لخليفة بغداد . وكاناليازوري وزير الخليفة الفاطمي يكره المعز فاقترح على الخليفة المستنصر بعث بني هلال وبني سليم الى افريقية ليتخلص منهم ويعاقب المعز عقابا شديدا . فوافقه الخليفة فاتصل اليازوري بأمراء بني هلال وبني سليم فأهدى لهم هدايا فاخرة . وأعطى كل عسكري بعيرا ودينارا . وقال لهم : «قد اعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون» .

فاصطدم بنو هلال وبنو سليم بالجيش الزيري في مكان يعدعى حيدران بين قابس والقيروان يوم عيد الأضحى سنة 13/443 أبريل 1052 فاسفرت المعركة التي استمرت يومين عن هزيمة جيش افريقية الذي يقال ان عدد جنوده كان ثلاثين ألف مقاتل ، بينما كان عدد الاعراب ثلاثة آلاف .

ج) ــ القائد بن حماد وانقطاع العلاقات الزيرية ــ الفاطمية :

ذكر ابن خلدون في تاريخ القبائل العربية ان المعز قبل معركة حيدران « بعث بالصريخ الى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حماد فكتبه كتيبة من ألف فارس سرحهم اليه » . واما في تاريخ الدولة الحمادية فقد ذكر ان المعز لما خلع طاعة الفاطميين راجع القائد طاعتهم . ولقبوه شرف الدولة . ان صحت الروايتان نرى ان القائد اعان المعز في أول الأمر ثم بعد معركة حيدران خضع للسلطة الفاطمية . ولكن رواية ابن خلدون الثانية تخالف رواية ابن الخطيب الأندلسي الذي قال في كتاب اعمال الاعلام : ان القائد بن حماد خلع السلطة الفاطمية وخضع للعباسيين الى ان توفي ونرى من جهة أخرى ان المعز لما خضع من جديد ــ سنة 1054/446 ــ 55 ــ للفاطميين لجأ ممثل الخليفة العباسي الى قلعة بني حماد وذلك يدل على ان الأمير الحمادي كان آنذاك يخضع للعباسيين . نحن اذن أمام روايتين متناقضتين لا تسمحان لنا أن نعرف بالضبط كيف كان موقف الحماديين عند انقطاع العلاقات الزيرية الفاطمية . واياما كان فقد توفي القائد بعد معركة حيدران بثلاث سنين وذلك في تاريخ شهر رجب 446/أكتوبر 1054 .

3) ــ عهد محسن بن القائد :

عين القائد ، قبل وفاته ، ابنه محسناخلفا له على عرش الامارة . ولكن عهد الأمير الحمادي الثالث لم يطل أكثر من تسعة أشهر .

أهم الأحداث التي وقعت في عهد محسن بن القائد : ثورة عمه يوسف بن حماد ــ قتل أعمامه : مديني ووقلان ومفاد وتميم ــ ثورة ابن عمه بلقين بن محمد ــ وقع هذا الحادث الأخير للأسباب التالية :

كتب محسن إلى بلقين بن محمد يستدعيه فسار اليه ، فلما قرب منه أمر محسن رجالا من العرب أن يقتلوه فاعلموا بما أمرهم به محسن فاستعد بلقين لقتاله وجمع جنودا وقتله .

4) ــ عهد بلقين بن محسن : (447 ــ 1055/454 ــ 1062) .

بعدما فتك بلقين بن محمد بمحسن دخل قلعة بني حماد واستولى على الحكم في ربيع الثاني 447/يونية 1055 .

شاهد المغرب الأوسط في عهد بلقين بن محمد الأحداث التالية :

دخول بني هلال في المغرب الأوسط ــ وصول ممثل الخليفة العباسي الى القلعة ــ حملة بلقين بن محمد على زناتة ــ ثورة أهل بسكرة ــ غزو بلقين بن محمد للمغرب الأقصى .

أ) ـــ دخول بني هلال في المغرب الأوسط :

استولى بنو على القيروان بعد انتصارهم على الجيش الزيري في حيدران ، ثم واصلوا مسيرتهم نحو المغرب الأوسط . فشن بنو حماد عليهم حربا شديدة دفاعا عن حوزته . واوعزوا الى زناتة بمدافعتهم أيضا لأن زناتة المغرب الأوسط خافوا ان يقع لهم مثلما وقع لاخوانهم بافريقية الذين كانوا طردوا من أراضيهم ولاذوا بالفرار الى ناحية المسيلة للخلاص منهم . وانتهى الصراع بانتصار بني هلال على زناتة . واضطروهم الى الفراب نحو المغرب الأقصى . فاستقر بنو هلال في الزاب حيث تم اتفاق بينهم وبين بني حماد . فحافظ الحماديون على المدن وتركوا الأرياف لبني هلال .

ب) ـــ وصول ممثل العباسيين الى قلعة بني حماد :

لما خضع المعز بن باديس من جديد للفاطميين ، اضطر ممثل الخليفة العباسي : أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدريمي الى مغادرة المهدية ولجأ الى سوسة . فلم يحسن اليه أهلها . فسار الى قلعة بني حماد وشارك في عدة غزوات بجانب بلقين بن حماد الأمير الحمادي .

ج) ـــ حملة بلقين بن محمد على زناتة :

انتصر بلقين انتصارا عظيما على زناتة سنة 1058/450 بمساعدة رجال من بني هلال انحازوا الى جزبه من الاثبج وعدى . فقد أظهر الأمير الحمادي براعة كبيرة في تسيير الحرب ، وعرف كيف يستغل عوامل كادت تكن عليه ، فجعلها تعمل لصالحه . وهكذا ، بدل أن يكون بنو هلال خصومه وأعداءه ، على نحو ما وقع بين المعز وبينهم ، اتخذ بلقين منهم حلفاء كانوا عونا له على زناتة .

د) ـــ ثورة أهل بسكرة :

كانت بسكرة في عهد بلقين بن محمد بين يدي أسرة بني رمان الذين كانوا يملكون ـــ حسبما ذكره ابن خلدون ـــ عامة ضياعهم . وكان لمقدمهم جعفر بن أبي رمان شهرة وجاه . فثار جعفر هذا على بلقين بن محمد سنة 1058/450 ـــ 1059 . فسير الأمير الحمادي اليه جيشا بقيادة الوزنم خلف بن أبي حيدرة . ففتح الجيش الحمادي بسكرة عنوة والقى القبض على شيوخ بني رمان وذهب بهم الى قلعة بني حماد . فقتلهم بلقين جميعا . ثم أسند امارة بسكرة الى أسرة بني سندي .

هـ) ـــ غزو بلقين بن محمد للمغرب الأقصى :

قال ابن خلدون ان بلقين كان «كثيرا ما يردد الغزو الى المغرب» لأنه كان بلغه

«استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصادمة فنهض نحوهم سنة اربع وخمسين وفر المرابطون الى الصحراء . وتوغل بلقين في ديار المغرب ونزل بفاس» . ورجع الى المغرب الأوسط .

ومقتل بلقين بن محمد :

كان لبلقين أخ اسمه مقاتل لما مات مقاتل اتهم بلقين ناميرت زوجة مقاتل بقتله فقتلها . فأخذ الناصر بن علناس أخو ناميرت بثأرها وقتل بلقين عند رجوعه من المغرب الأقصى في تسالة وهي قرية جنوبي وهران فاتح رجب 454/ظظ جويلية 1062 .

5)ــ عهد الناصر بن علناس: (454ــ 481/1062ــ 1089).

بعدما قتل الناصر بن علناس بلقين بن محمد تمكن من محالفة بعض زناتة وبني هلال وصنهاجة الذين كان جيش الأمير الحمادي يتألف منهم . وسار سيرا حثيثا الى قلعة بني حماد . وفور وصوله اليها شرع في تنظيم الدولة الحمادية فقسمها ستة أقسام وعقد لأقاربه عليها . أما أعمامه كباب ورمان وخزو وبلبار فأسند اليهم ، على الترتيب ، امارة مليانة وحمزة ونقاوس وقسنطينة . وعقد لابنه عبد الله على مدينة الجزائر ومرسى الدجاج .ولابنه يوسف على أشير .

أهم الأحداث التي وقعت في عهده هي :

ثورة أهل بسكرة ــ تولية وزير جديد ــ حملة علي بن رقان على قلعة بني حماد خضوع ثلاث مناطق من افريقية للناصر ــ هجوم الحماديين على افريقية الزيرية ــ اختطاط مدينة بجاية ــ حملة ثانية على افريقية ــ الصلح الحمادي ــ الزيري ــ قتال زناتة ــ عقد اتفاق بين الناصر والباب غريغوار السابع ــ قتال المنصور بن الناصر لزناتة . وفاة الناصر .

أ) ــ ثورة أهل بسكرة :

اغتنم بنو رمان فرصة مقتل بلقين بن محمد . فاستبدوا بأمر بلادهم وخلعوا طاعة بني حماد فعهد الناصر الى وزيره خلف بن أبي حيدرة بقمع هذه الثورة . زوى ابن خلدون انه « غزاها (بسكرة) عنوة ، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائهم الى القلعة . فقتلهم الناصر وصلبهم» .

ب) ــ قتل الوزير خلف بن أبي حيدرة وتولية أبي بكر بن أبي الفتوح مكانه :

ذكر ابن خلدون ان شيوخ صنهاجة أخبروا الناصر بأن خلف بن أبي حيدرة بعد قتل بلقين ــ كان «أراد تولية معمر أخي بلقين ــ وشاورهم في ذلك» فقتل الناصر وزيره وولى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح المعروف بأبي بكر بن أبي الفتوح .

ج) ــ هجوم علي بن رقان على قلعة بني حماد :

بعد قتل خلف بن أبي حيدرة وتولية أبي بكر بن أبي الفتوح قام الناصر برحلة تفقدية في غربي مملكته . هجم علي بن رقان على تاقربوست وهوجبل قلعة بني حماد ولما وردت هذه الأخبار على الناصر رجع من المسيلة . قال ابن خلدون «وعاجلهم ، فسقط في أيديهم وغزاها عنوة وذبح علي بن رقان نفسه بيده» .

د) ــ اعلان ثلاث مناطق من افريقية بولائها للناصر :

أدى الزحف الهلالي الدولة الزيرية الى ضعف نفوذها . فخلعت ثلاث مناطق من افريقية بصفاقس وقسطيلية وتونس سلطتها منها وأعلنت ولاءها للناصر . وأرسل أمير صفاقس حمو بن مليل اليه رسالة خضوع مرفقة بهدية فاخرة . وأرسل سكان قسطيلية اليه وفدا يعترف للأمير الحمادي بامارته عليهم . وجاء وجوه مدينة تونس بدورهم اليه يرجون منه أن يعقد لوال يختاره هو على مدينتهم . فاستقبل طلبهم استقبالا حسنا وأسند امارة تونس الى عبد الحق بن عبد العزيز ابن خراسان .

هـ) ــ هجوم الحماديين على افريقية :

خرج الناصر سنة 1065/457 في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدى والأثبج وكان الأمير الزيري تميم أرسل من جهته الى أمراء بني رياح ، فأحضرهم اليه . وقال لهم : «أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر . ولا يقاتل منه في البر الا أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا . وانما جمع الناصر العساكر اليكم» فقالوا له : «الذي تقوله حق ونحب منك المعومة» فأعطاهم المال والسلاح . فجمع أمراء بني رياح جموعهم . وتحالفوا مع زغبة وسليم . واتفقوا جميعا على محاربة الناصر . فالتقى الجمعان بسبيبه فاهزم الناصر . ذكر ابن عذارى انه قتل من أصحابه خلق كثير ونهبت أمواله ومضاربه وقتل أخوه القاسم بن علناس . ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن القاسم ضحى بنفسه في سبيل أخيه قال للناصر : «أقيم على الجيش ، وانج بنفسك» هلك القاسم ، وبلغ عدد القتلى أربعة وعشرين ألفا .

ذكر ابن خلدون أن الناصر لحق بالقلعة في فل من عسكره لم يبلغوا مائتين وعلل ابن خلدون هزيمة الناصر في سبيبة بقوله :

«ان زناتة غدرت الناصر ، وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسيسة ابن المعز بن زيري بن عطية واغراء تميم بن المعز» .

و) ــ اختطاط بجاية :

ان بني هلال الذين اشتدت شوكتهم بعد معركة سبيبة صاروا يشكلون خطرا على

كيان الدولتين الحمادية والزيرية . لذلك أرسل الناصر باشارة من وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح رسولا الى تميم يعرض عليه اصلاح ذات البين وتزيين العلاقات بين الدولتين . فقبل تميم هذه المبادرة ، وأرسل سفيرا هو محمد بن البعبع الى الناصر . وفور وصول السفير الى قلعة بني حماد سلم كتاب تميم الى الناصر ، وانفرد بالأمير الحمادي وقال له : « يا مولاي ان الوزير أبا بكر لا يخطىء عن تميم من أمورك شيئا . وأشير عليك بوسيلة تمكنك من امتلاك المهدية وغيرها » .

وأشار عليه السفير باختطاط مدينة بجاية واتخاذها دار ملك له . وسار الناصر مع الرسول الى بجاية . فأراه ابن البعبع موضع البناء والمدينة ودار السلطان وغير ذلك فأعجب الناصر برأي ابن البعبع . وأمر من ساعته بالشروع في البناء ، والعمل . ورجع السفير الى افريقية وأخبر تميم بن المعز بكل ما قام به في قلعة بني حماد .

ولما بلغه خبر بناء بجاية عقب مسير ابن البعبع الى الناصر وحضوره معه فيها ثارت الشكوك في نفسه . وكان أول سؤال وجهه تميم الى سفيره عن بناء مدينة بجاية . فقد عظم عليه أمرها . وصار يرى فيها منافسا خطيرا لمدينة المهدية . واتهم رسوله بمشاركته في قضية قرار ابن عمه الناصر الرامي الى تحويل حاضرته من القلعة الى بجاية . ولكن الرسول أنكر أن يكون له أي علم بذلك الأمر . وكتب البعبع الى الناصر بما جرى بينه وبين تميم من حديث قيامه بسفارته في القلعة وسلم الناصر كتاب ابن البعبع الى الوزير أبي بكر فشكر هذا سلوكه وقال : «انه نصح وبالغ في الخدمة» ومضى الوزير الى داره . وكتب نسخة طبق الأصل من كتاب الرسول ، وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول الى تميم . ومعه رسالة يشرح له فيها تطور الأمور من أولها الى آخرها . فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك . ووجد فيه ما يلقي ضوءا على نشاط سفيره . وجعل على منزله من الحرس في الليل والنهار من حيث لا يشعر واستدعاه بالضبط في الوقت الذي تلقى فيه رسالة من الناصر اطلع عليها تميم وتأكد بها من خيانة ابن البعبع . فأمر به فقتل .

ز) ــ حملة حمادية جديدة على افريقية :

كانت تونس أعلنت ولاءها للأمير الحمادي . فحاصرها تميم مدة عام وشهرين ، واستولى عليها ، واستسلم واليها ابن خراسان فحمل ذلك الناصر على هجوم جديد على افريقية وضرب الحصار على مدينة الاربس ، واستولى عليها سنة 1067/460 — 1068 ودخل مدينة القيروان حيث خضع له واليها القائد ابن ميمون . وبعد انصرافه عنها ورجوعه الى قلعة بني حماد أرسل تميم جيشا الى القيروان ففر القائد ابن ميمون واليها الى المملكة الحمادية .

ح) ــ الصلح الحمادي ــ الزيري :

ان تميم ابن المعز أراد الصلح مع الناصر من جهة لأنه كان خائفا من بني رياح الذين كانوا تغلبوا على زغبة وطردوهم من افريقية سنة 1073/466 ــ 74 وصاروا يشكلون خطرا كبيرا على مملكته . ومن جهة أخرى ــ حسبما ذكره ابن عذ ارى لأن افريقية كانت أصابتها مجاعة عنيفة ووباء عظيم مات فيه خلق كثير . ولا نعرف من هو الأول الذي فكر في الصلح وماذا كان محتوى الاتفاق الذي تم بين الأميرين الحمادي والزيري . ولكننا نعرف أن تميم بن المعز ، بعد الصلح زوج ابنته بلارة بالناصر .

ذكر بن عذارى أنه « جهزها اليه من المهدية في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر » . قال ابن الأثير في هذا الصدد ان الناصر حمل : « ثلاثين ألف دينار . فأخذ تميم منها دينارا واحدا ورد الباقي » . وحدثنا حسن حسني عبد الوهاب في ذات الموضوع ان الناصر ، لما أوى الى الأميرة بلارة « ورأى من عقلها وعلو همتها وكرم شمائلها ملكت شغاف قلبه ، وأحبها حبا شديدا ، وابتنى لها بقلعة بني حماد وبجاية قصورا شامخة وأحاط بها الحدائق الأنيقة ، فيها الروح والريحان ، ومن كل فاكهة زوجان ، ومن تحتها الأنهار الدافقة ، والأزهار الشائقة ، وجلب اليها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، اكراما واحتفاء بزوجه الأميرة بلارة . واختصت الأميرة لاقامتها ايوانا بقلعة بني حماد اشتهر لذلك باسمها . وهو قصر بلارة »

ط) ــ محاربة زناتة .

ذكر ابن خلدون أن أول من قاتل الأمير الحمادي هو المنتصر خزرون الزناتي فكان المنتصر خرج من مصر في أيام الفتنة التي وقعت بين الترك والمغاربة فوصل الى طرابلس فوجد فيها قبيلة بني عدى التي كانت طردت من افريقية من قبل الأثبج وزغبة فرغبهم في بلاد المغرب وصار بهم حتى نزل المسيلة وفتح أشير فخرج اليه الناصر ففر المنتصر الى الصحراء ولكنه كان من حين الى آخر يخرج منها ويغزو ناحية الزاب فطلب منه الناصر الصلح واقطعه ضواحي الزاب ولكنه في نفس الوقت أمر عروس بن سندي رئيس بسكرة بان يمكر بالمنتصر ولما وصل المنتصر الى بسكرة رحب به عروس بن سندي و « أحمد نزوله وأشار على حشمه عند انسكاب المنتصر على الطعام فبادروا مكبين لطعنه وفر أتباعه وأخذوا رأسه وبعثوا به الى الناصر فنصبه ببجاية وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عظة لغيره » .

وبجانب المنتصر بن خزرون هناك أمراء زناتة آخرون قتلوا في هذه الفترة من عهد الناصر . منهم : أبو الفتوح بن حبوس أمير المدية ومعنصر بن حماد من ناحية الشلف فكان معنصر هجم على مليانة وقتل شيوخ بني ورسفان فكاتبهم الناصر وأخبرهم بأنه « كان

مشغولا عنهم من شأن العرب » فهم بنو ورسفان على معنصر بني حماد وقتلوه « وبعثوا برأسه الى الناصر فنصبه على رأس القصر » .

ى) ــ عقد اتفاق بين الناصر والبابا غريقوار السابع .

كان تميم بن المعز يغزو الساحل الايطالي ويعين مسلم صقلية في محاربتهم للنورمان فأراد البابا الصلح مع الأمير الحمادي لئلا يساعد الناصر تميم بن المعز في محاربته للمسيحيين .

ك) ــ محاربة المنصور بن الناصر لبني هلال وزناتة .

بدأ المنصور بن الناصر يمثل دورا هاما في أواخر عهد أبيه وقام بغارتين على زناتة الذين كانوا تحالفوا مع بني هلال غزا المنصور ــ في الغارة الأولى قبلتين زناتيتين وهما غمرت ومغراوة المتحالفتين مع الأثبج . وكانت تلك القبائل الثلاث تغير على ناحية الزاب . وأما الغارة الثانية التي قام بها المنصور فكانت موجهة لقتال قبيلة بني توجين المتحالفة مع بين عدية الهلاليين .

ل) ــ وفاة الناصر :

وبعد هذه الغارات التي شنها المنصور توفي الناصر في بجاية سنة 1088/481 ــ 1089 بعدما ولي الامارة بعد مدة سبع وعشرين سنة .

6) ــ عهد المنصور : (481 ــ 1089/498 ــ 1105) .

كانا المنصور الأمير الحمادي السادس ابن عشر سنين لما خلف أباه الناصر على عرش بني حماد وأم المنصور هي الأميرة الزيرية بلارة وقد بلغ المجد على صغر سنه بالانتصار على زناتة . في حياة أبيه وذكر ابن الأثير أن المنصور أتته كتب الملوك ورسلهم بالتعزية بعد وفاة أبيه والتهنئة بالملك . منهم « يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز وغيرهما » . وقال ابن الخطيب من جهته «ان المنصور كان قائما على أمره حميد الخلال ضابطا للأمور يكتب ويشعر ويذهب في أموره مذهب ابن جعفر المنصور من رفع الثياب والتحفظ على القليل من الأشياء» .

بقي المنصور سنتين في القلعة . ثم انتقل الى بجاية . ذكر ابن خلدون «انه كان مولعا بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد . وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين . فبنى في القلعة قصور الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون» . بقي المنصور سبع عشرة سنة على العرش الحمادي وشاهد المغرب الأوسط في عهده أحداثا عديدة منها : ثورة بلبارو آبي يكني بقسنطينة ومحاربة المرابطين وبني رمانو ووصول أمير الهرية الى المغرب الأوسط وغزو زناتة وناحية بجاية .

أ ـ ثورة بلبار وأبي يكني بقسنطينة :

رأينا فيما سبق ان الناصر بن علناس كان ولى أخاه بلبار على قسنطينة ذكر ابن خلدون ان بلباز ثار «لأول دولة المنصور» فكلف الأمير الحمادي أبا يكني بن محسن بن القائد بقمع ثورة بلبار فألقى بو يكني عليه القبض وأرسله الى القلعة فولي المنصور أبا يكني على قسنطينة وبونه . فولى أبو يكني من جهته أخاه وقلان على بونه ثم ثار على المنصور سنة 1094/487 بقسنطينة . وأرسل أخاه من بونة الى تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونه فأرسل معه ابنه أبا الفتوح بن تميم لتسلم المدينة فسيّر المنصور جنده الى بونه وأخذوها عنوة والقوا القبض على أبي الفتوح وأرسلوه الى المنصور فاعتقله بالقلعة .

وبعد فتح بونه توجه الجيش الحمادي الى قسنطينة فخرج أبو يكني منها ولجأ الى قلعة بجبل أوراس وتحصن بها وتولى مليصل بن الأحمر الأمر بها وأخبر المنصور بأنه يمكنه من قسنطينة على مال يبذله فاستولى عليها المنصور . وأما ابويكن فكان يهجم من حين الى آخر على قسنطينة فسير المنصور اليها جنده فحاصروا قلعته وغزوها عنوة وقتلوه .

ب ـ محاربة المرابطين وبني ومانو :

ان المرابطين الذين كانوا غزوا المغرب الأقصى تحت قيادة أميرهم يوسف بن تاشفين هجموا سنة 473 ـ 1081/474 ـ 1082 على الناحية الغربية للملكة الحمادية وغزوا على التوالي تلمسان وتنس ووانشريس وناحية وادي شلف والجزائر ثم عادوا الى المغرب الأقصى بعدما تركوا جيشا بتلمسان تحت أمر محمد بن تينعمر المسوفي وأما بنو ومانو وبنو يلومي فقد ذكر ابن خلدون أن هاتين القبيلتين كانتا من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة . ولما غلب بلقين بن زيري على مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط وأجازهم الى المغرب الأقصى .

بقيت هاتان القبيلتان بموطنهما واستعملتهم صنهاجة في حروبها وفي عهد الناصر عظم أمر بني ومانو بالمغرب الأوسط وكان «بينهم آل حماد صهر فكانت احدى بناتهم زوجة الناصر والأخرى عند المنصور» .

ولكن بعدما فتح المرابطين تلمسان تحالف بنو ومانو وبنو يلومي معهم وشبت بينهم وبين الحماديين حرب طويلة فسار اليهم المنصور في جيوشه وخرب قلاع بني ومانو وتغلب على والي تلمسان حتى اضطر الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين الى طلب الصلح .

ج ـ انتصار عبد الله بن المنصور على المرابطين وبني ومانو :

فاستأنف المرابطون وبنو ومانو هجوماتهم على المملكة الحمادية فسير المنصور اليهم جيشا تحت قيادة ابنه عبد الله فاضطر المرابطون الى الفرار الى المغرب الأقصى ثم هجم عبد

الله على بني ومانو وفتح حصونهم وعفا عن أهلها ورجع الى أبيه وبعد ذلك بقليل حاصر المرابطون وبنو ومانو وبنو يلومي مدينة الجزائر وخربوا أشير فغزا المنصور بلاد بني ومانو فهزمه ماخوخ الزناتي واتبعه الى بجاية فقتل المنصور زوجته أخت ماخوخ لدى وصوله الى قصره .

د ــ غزو المنصور لتلمسان :

وفي شوال 496/ يولية 1102 . توجه المنصور نحو تلمسان في جيش عدده عشرون ألف مقاتل مؤلف من صنهاجة وبني هلال وزناتة . فوصل الى وادي صفصاف على قرابة 4 كم غربي تلمسان وأرسل مقدمته الى عاصمة تاشفين بن تينعمر (تلمسان) أما الوالي المرابطي فقد كان غادر تلمسان فلقيه المنصور بتسالة وهزمه فلجأ تاشفين الى جبل الصخرة ففتح المنصور مدينة تلمسان يقول ابن خلدون : « فخرجت اليه حوّا زوجة تاشفين أميرهم متذممة راغبة في الابقاء متوسلة بوشائج الصنهاجية . فأكبر قصدها اليه وأكرم موصلها وأفرج عنهم صبيحة يومه وانكفا راجعا الى حضرته بالقلعة » .

وفي سنة 1104/497 اصطلح يوسف بن تاشفين مع المنصور وليسترضيه عزل تاشفين بن تينعمر .

هـ ــ وصول أمير الهرية الى المغرب الأوسط :

بعدما فتح المرابطون اشبيلية وعزل أميرها المعتمد بن عباد فر أمير الهرية معز الدولة ابن صمادح من الأندلس ولجأ الى المملكة الحمادية قال ابن خلدون « فنزل على المنصور وأقطعه تدلس ، وأنزله بها » .

و ــ محاربة المنصور لزناتة وقبائل ناحية بجاية :

في السنين الأخيرة من عهده قام المنصور بقتال زناتة قال ابن خلدون « وشردهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط » . ثم قام المنصور بقتالْ قبائل ناحية بجاية فلجأت الى جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المعز » .

وبعد هذه الأحداث بقليل توفي المنصور بني الناصر الأمير الحمادي السادس في ربيع الثاني 498/ ديسمبر 1104 ــ جانفي 1105 بعدما ولي الامارة مدة سبع عشرة سنة فخلفه ابنه باديس .

7 ــ عهد باديس بن المنصور : (1105/498) والعزيز بن المنصور (498 ــ 515 أو 1105/518 ــ 1121 ــ 1122 أو 1124 ــ 1125 .

بعد وفاة المنصور خلفه ابنه باديس على العرش الحمادي فكان باديس حسبما قال ابن

خلدون : « شديد البأس ، ظيم النظر . نكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه الأول ولايته وخرج من القلعة الى بجاية ، فنكب هشاما عاهل بجاية » وذكر ابن الخطيب ان باديس « كان شديد البأس عظيم السطوة سريع البطش » وذكر أيضا انه (باديس) ألقى رجلا صالحا الى الأسود فبات ليلته معها وأصبح ولم تعد عليه » وذكر تاريخ وفاته وسببها فقال : « وكانت وفاته ثالث عشر ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ويقال ان أمه سمته ، لأنه كان يهددها ويتوعدها » فلم يل الامارة الا سبعة أشهر .

كان باديس عزل أخاه العزيز عن بجاية وغربه الى جيجل . وبعد وفاته أرسل القائد على ابن حمدون رسولا الى العزيز . فرجع الى بجاية وخلف أخاه باديس على العرش الحمادي .

ذكر ابن الخطيب في القسم الثالث من أعمال الأعلام ان العزيز « كان حسن الخلق معتدل الطريقة » . وذكر أيضا أنه : « هو الذي استوطن بجاية . ومن بعد ولايته شرعت القلعة في الخراب » وأضاف قائلا ان العزيز « كاتب ملوك زهانة وسالمهم فكانت أيامه أعيادا لحسنها وجمالها » . وأخبرنا ابن خلدون ان العزيز « صالح زناتة ، وأصهر الى ماخوخ فأنكحه ابنته » وان العلماء كانوا : « يتناظرون في مجلسه » . والأحداث الهامة التي وقعت في عهد العزيز هي : زواج العزيز من ابنه الأمير الزيري يحيى ــ الغزو الحمادي لافريقيا . غزو بني هلال لقلعة بني حماد ــ مرورا بين تومرت بالمغرب الأوسط غزو قلعة زرعة .

أ ــ زواج العزيز بابنة الأمير الزيري يحيى :

ذكر ابن عذارى ان العزيز تزوج ، سنة 1115/509 ــ 1116 بدر الدجى ابنه الأمير يحيى الذي خلف أباه تميم على عرش افريقية سنة 1108/501 .

ب ــ الغزو الحمادي لافريقية :

ذكر ابن خلذون ان العزيز أغار على افريقية مرتين . أرسل أسطوله في الغارة الأولى الى جزيرة جربة « فنزلوا على حكمه وأخذوا بطاعته » وأما الغارة الثانية فوقعت سنة 1120/514 فنازل الجيش الحمادي تونس التي كانت خرجت من طاعة بني حماد سنة 1116/510 ــ 1117 . وخضعت للأمير الزيري تميم بن المعز وبعد تدخل جيش العزيز صالح صاحب تونس أحمد بن عبد العزيز الخرساني الأمير الحمادي وأخذ بطاعته .

ج ــ هجوم بني هلال على قلعة بني حماد :

ذكر ابن خلدون ان بني هلال هجموا على قلعة بني حماد « فاكتسحوا جميع ما وجدوه وبظواهرها ، وعظم عيثهم » . ولكن قاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد » . ثم بعث العزيز من بجاية جيشا تحت قيادة ابنه يحيى والقائد على بن حمدون الى قلعة بني حماد

« فوصل الى القلعة وسكن الأحوال وقد أمن العرب واستعتبوا فاعتبوا . وانكفا يحيى راجعا الى بجاية في عسكره » .

د ــ مرور ابن تومرت بالمغرب الأوسط :

ولد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية بناحية السوس بالمغرب الأقصى بين سنة 471 و 1078/491 و 1098 وامتاز منذ صغره بحبه للعلم . وحوالي سنة 1106/500 قام برحلة الى المشرق حيث أخذ العلم عن أعظم علماء مصر والشام والعراق . ثم رجع الى المغرب الأقصى ولفت الأنظار باهتمامه بالوعظ والارشاد ونقد أعمال الناس .

هـ ــ غزو قلعة زرعة :

ذكر ابن خلدون ان بروكسن كان في أول الأمر من أولياء العزيز ابن المنصور . ولكن بعد حرب نشبت بين بني حماد وبني هلال « نسب الى نفسه الاقدام ، والى العزيز العجز » ثم خاف بروكسن من انتقام العزيز فلجأ الى قلعة زرعة التي كان استطاع أن يستولي عليها . فأرسل الأمير الحمادي جيشا بقيادة غيلاس فألقى القبض على بروكسن وأتى به الى المغرب الأوسط . وكان غزو قلعة زرعة آخر حملة شنها العزيز في عهده . سنة 1121/515 ــ 1122 . كما جاء في العبر أو سنة 1124/518 ــ 1125 كما ذكر ابن عذارى .

8 ــ عهد يحيى بن العزيز : 515 أو 518 ــ 1121/547 ــ 1122 أو 1124 ــ 1125 ــ 1152 .

لما توفي العزيز خلفه ابنه يحيى على العرش الحمادي . ذكر ابن خلدون ان يحيى كان « مستضعفا مغلبا للنساء مولعا بالصيد » . وقال ابن الخطيب عن الأمير الحمادي التاسع والأخير انه كان « فاضلا حليما ، فصيح اللسان والقلم ، مليح العبارة ، بديع الاشارة » .

ان أهم الأحداث التي وقعت في هذا العه هي : الهجوم على المهدية ــ هجوم زيري على مركب حمادي ــ غارة نورمانية صقلية على جيجل وبرشك مساعدة حمادية للمرابطين زيارة يحيى بن العزيز لقلعة بني حماد ــ قمع ثورة توزر ــ استحداث السكة الحمادية ــ وصول الأمير الزيري الحسن الى المغرب الأوسط ــ غزو المملكة الحمادية .

أ ــ الهجوم على المهدية :

أرسل ــ سنة 1128/522 ــ جيش حمادي ــ تحت قيادة ابن المهلب الى المهدية وخيم عند أسوار المدينة ، وانسحب ، حسبما يبدو ، من دون أن يخوض أي معركة . وشن

قائد يحيى بن العزيز ، في السنة نفسها ، هجوما على تونس ، واستولى عليها وألقى القبض على واليها أحمد بن عبد العزيز ، وولى بدله عليها كرامة بن المنصور عم يحيى بن العزيز .

وفي سنة 1135/529 أو في السنة التالية لها شنت غارة أخرى على المهدية عقب خلاف نشب بين يحيى بن العزيز والأمير الزيري الحسن ، وحاصر بنو حماد المدينة من البر والبحر ولكن الحسن خرج على رأس رجله وتمكن من قهر خصومه والاستيلاءعلى سبعة من مراكبهم ومن جهة أخرى أحدق أسطول زيري مؤلف من عشرين مركبا ــ بالأسطول الحمادي . ولكن الحسن أمر باطلاق سراحه . وبعد وصول المدد الى الحسن اختار جيش يحيى بن العزيز أن يلتحق ببجاية .

ب ــ هجوم زيري على مركب حمادي :

وصل مركب حمادي الى الاسكندرية بهدية أرسلها يحيى بن عبد العزيز الى صاحب مصر وكانت العلاقات ــ اذ ذاك ــ بين الأمير الزيري الحسن الخليفة الفاطمي سيئة ذلك ما دفع صاحب ديوان الاسكندرية الى منع زيري كان بمينائه عن السفر بينما أذن بالاقلاع لسائر المراكب « في جملتها المركب الحمادي ببضائع عظيمة لها شأن وأثمان للتجار وهدية الى صاحب بجاية فعمل عليه الحسن وأخذه وأمر بتفريغه وبقي المركب فارغا حتى جاءت صدمة أكتوبر فانكسر » فأخذ الزيريون خشب المركب الحمادي المنكسر وأنشأوا منه مركبا جديدا . ولكن لسوء حظهم أخذه أمير البحر الصقلي جرجي في السنة نفسها عندما هجم على مرسى المهدية واستولى على جميع ما كان فيه من المراكب .

ج ــ هجوم صقلي على جيجل وبرشك :

ذكر ابن الأثير ان الأسطول الصقلي هجم على مدينة جيجل سنة 1143/537 فهرب أهل المدينة الى الأرياف والجبال « فدخلها الافرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأحرقوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة » . ثم ركبوا البحر وعادوا الى صقلية . وأضاف صاحب الكامل في التاريخ ان في سنة 1145/539 هجم الأسطول الصقلي على مدينة برشك الواقعتين تنس وشرشال . فقتل الفرنج « أهلها وسبوا حريمها وباعوه بصقلية على المسلمين » .

د ــ مساعدة حمادية للمرابطين :

ضرب عبد المؤمن ــ الذي كان خلفا لابن تومرت ــ والخليفة الموحدي الأول ــ الحصار في تلمسان على المرابطين فطلبوا النجدة من يحيى بن العزيز فأرسل اليهم جيشا هزمه الموحدون .

هـ ــ زيارة يحيى بن العزيز لقلعة بني حماد :

ذكر ابن خلدون ان يحيى قام برحلة الى قلعة بني حماد «لافتقادها ونقل ما بقي بها» . وقع ذلك سنة 1148/543 ــ 1149 .

و ــ قمع ثورة أهل توزر :

ذكر ابن خلدون ان ابن فرقان ثار على يحيى بتوزر فسير اليه الأمير الحمادي جيشا تحت قيادة الفقيه مطرف بن علي بن خزرون فأخذ مطرف مدينة توزر عنوة وألقى القبض على ابن فرقان وأوصله الى يحيى فسجنه في مدينة الجزائر الى أن هلك في معتقله وقبل قتله .

ز ــ استحداث السكة :

ذكر ابن خلدون ان يحيى بن العزيز قام باستحداث للسكة «ولم يحدثها أحد من قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين» . فوضع اسم الخليفة العباسي المقتفي مكان اسم صاحب مصر . فوصف لنا صاحب «كتاب العبر» دينارا مضروبا باسم العباسيين يحمل تاريخ 1149/543 . مما يدل على ان الاستحداث كان تم في تلك السنة .

ح ــ وصول الأمير الزيري الى المغرب الأوسط :

بعد استيلاء رجار الثاني ملك صقلية على المهدية رغب الأمير الزيري الحسن في المسير الى بلاط الخليفة الفاطمي الحافظ . فاشترى مركبا لرحلته . فسمع بذلك أمير البحر جرجر الصقلي . فجهز أسطولا لملاحقة الأمير . فعدل هذا عن وجهته الاولى واعتزم المسير الى عبد المؤمن الخليفة الموحدي . فأرسل ثلاثة من أبنائه الى يحيى بن عبد العزيز لتجديد المعاهدة التي بينهما واستئذانه في عبور بلاده الى عبد المؤمن . فأذن له يحيى فسار اليه . فلما وصل أبي يحيى ان يجتمع به . وسيره مدينة الجزائر . وفرض عليه فيها اقامة جبرية .

ط ــ غزو المملكة الحمادية :

بعد استيلاء عبد المؤمن بن علي على المغرب الأقصى ، شرع في غزو المغرب الأوسط فاستولى ــ بالتعاقب ــ على مدينة الجزائر وبجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة . تم ذلك سنة 1143/547 وفي هذا التاريخ تم أداء اليمين له من قبل يحيى بن العزيز وارسال الأمير الحمادي الأخير الى مراكش حيث عومل معاملة كريمة . وتوفي في سلا سنة 1161/557 .

الفصل الثاني

النظم

د. رشيد بوروبة

تعريب: د. محمد بلقراد

كان على رأس الدولة الحمادية أمير يخضع تارة للفاطميين وتارة للعباسيين . وكان هذا الأمير في أول الأمر يسير بنفسه أمور مملكته . ثم عين وزيرا وأنشأ ادارة مركزية . وسمى القضاة والولاة ونظم الجيش والأسطول .

1) الوزيـر : ان أول وزير حمادي ذكره المؤرخين هو وزير محسن بن القائد الذي قتل عندما اعتلى بلقين بن محمد العرش . ولكننا نجهل اسمه بينما نعرف أن وزير بلقين ابن محمد كان يسمى خلف بن أبي حيدرة . فكان من دون ماريب وزير سيف حيث أننا نراه يقمع ثورة أهل بسكرة . فقتله الناصر عندما ولي الأمر وعيّن مكانه أبا بكر بن أبي الفتوح الذي كان وزيرلا قلم لأنه عهد اليه بالمراسلة بين الناصر وتميم بن المعز . فقتله الناصر كما قتل باديس وزير أبيه المنصور عبد الكريم بن سليمان .

ولم يذكر المؤرخون وزيرا للأمير العزيز . ولكن القائد علي بن ميمون الذي نصبه على العرش ربما كان هو الذي قام مقام وزير . أما وزير يحيى بن العزيز فقد كانت له سلطة مطلقة لأن يحيى ـــ حسب تعبير لسان الدين الخطيب «كان مولعا بالصيد . مغرما به ، كلفا بالملهين ... فكان يستلقي في بيته على الفرش ... ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد فلا يزال كذلك الى أن ينام ثم يغتدي الى الصيد» .

2) الادارة المركزيـة : لا نعرف الا شيئا قليلا عن الادارة المركزية الحمادية . فكانت مشتملة بكل تأكيد على ديوان انشاء كان على رأسه كاتب وعلى ديوان بريد .

ان أول كاتب عثرنا عليه أثناء بحوثنا هو كاتب الناصر بن علنّاس الذي قتل في معركة سبيبة والذي لم يذكر المؤرخون اسمه ولكنه ربما كان أخا للناصر . وكان للعزيز كاتب اسمه عمر ابن فلفول حدثنا عمه ابن القطان . فبقي ابن فلفول كاتبا في أيام يحيى بن العزيز كما ذكره

العماد الاصفهاني عن ابن بشرون الذي أفادنا بأسماء كتاب آخرين كانوا في خدمة الأمير الحمادي الأخير . وهم : أبو عبد الله محمد الكاتب الذي كاتب أمراء بني هلال باسم يحيى ليطلب منهم المساعدة بعد فتح الموحدين لبجاية .

وابن أبي المليح الطيب الذي كان في آن واحد كاتبا وشاعرا وطبيبا .

وأبو القاسم عبد الرحمٰن الذي كان قاضيا في قسنطينة في عهد العزيز وبجانب ديوان الانشاء كان للحماديين بلا ريب ديوان بريد . وربما استعملوا حمام الزاجل مثل الزيريين مثل ما استعملوا الاشارات بالمرايا . والدليل على ذلك هو أننا كنا نجد في بجاية برجا اسمه شوف الرياض في أعلاه آلة بالمرايا تستعمل للمراسلة مع بروج وأبنية مشيدة في المدن الأخرى للمملكة .

3) القضــــاة : قد رأينا أن حمادا كان يحكم بنفسه في قضايا رعيته . ولا نعرف متى عين أول قاض حمادي . كما أننا لا نعرف أسماء القضاة الذين عينهم الأمراء الحماديون قبل عهد العزيز . أما في عهده فنعرف بفضل البيدق اسم قاضيين حماديين : أبو القاسم بن عبد الرحمٰن الذي ذكرناه عندما تحدثنا عن كتاب يحيى بن العزيز — وعبد الرحمٰن بن الحاج الصنهاجي قاضي بجاية . وبجانب ذلك يخبرنا البيدق بأمرين يتعلقان بالقضاء الأمر الأول هو أن مناديا كان ينادي بالحدود التي كانت تطبق على المجرمين . والأمر الثاني هو أن قاضي قسنطينة لم يكن يطبق الحدود الشرعية لأنه كان يقضي على القاتل وعلى السارق بالسوط بدل أن يقضي على الأول بالاعدام وعلى الثاني بقطع اليد .

4) الـــولاة : كان الولاة — في أغلب الأحيان — من أسرة الأمير . وكان عددهم يختلف من أمير الى آخر ذكر لنا المؤرخون اسم واليين عاشا في عهد القائد بن حماد . وهما أخواه يوسف والي المغرب ووقلان والي سوق حمزة . وتحدثوا عن ثالث كان في عصر محسن وهو بلقين بن محمد والي افريون أو أكريون . ولم يذكروا أسماء ولاة بلقين بن محمد .

أما في عصر الناصر بن علناس فكان المغرب الأوسط ينقسم الى ست ولايات مليانة — حمزة — نقاوس — قسنطينة — أشير الجزائر ومرسى الدجاج اللتان تكونان ولاية واحدة . فكانت الولايات الأربع الأولى تحت قيادة كباب ورمان وخزروبلبا اخوة الناصر . وكانت الولايتان الأخيرتان تحت أمر ابني الأمير عبد الله ويوسف . وبجانب هذه الولايات مناطق أخرى كانت تابعة للمملكة الحمادية وهي قسنطينة أي ناحية توزر التي كانت تحت أمر الصنهاجي يوسف بن خلوف وتونس التي كان واليها عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان . وبسكرة التي كان على رأسها بنو رمان ثم بنو سندي وصفاقس التي كانت تحت أمر حمود ابن مليل . وذكرنا أن تونس خرجت من طاعة الناصر بعد معركة سبيبة . وذكرنا أن القائد ابن

ميمون صاحب القيروان خضع للناصر سنة 1067/460 — 1068 . كما لاحظنا أن الناصر عين في أواخر عهده واليا على ورقلة لا نعرف اسمه . وفي أيام المنصور بعد ثورة بلبار والي قسنطينة وتعيين أبي يكنى مكانه أصبحت بونة خاضعة لبني حماد وتحت أمر وقلان أخي أبي يكني لا نعرف متى ألحقت بونة بالمملكة الحمادية . ولكن نعرف أن قراصنة بيزا غزوها سنة 1034/426 وملكوها مؤقتا وأن الأمير الهلالي أبا مسعود غزاها حوالي سنة 1058/450 — 1059 وفي عهد باديس كان لبجاية وال اسمه سهام فتك به الأمير الحمادي عندما غادر القلعة ورحل الى بجاية . وكان على رأس ولاية الجزائر العزيز بن المنصور الذي نفي بأمر من باديس أما في عصر العزيز فقد أخبرنا البيدق بأن قسنطينة كانت تحت أمر ابنه سبع الذي بقي واليا عليها في أيام يحيى بن العزيز حتى وصول الأمير الزيري الحسن الى المغرب الأوسط . ثم في أواخر عهد يحيى نجد سبع بن العزيز في بجاية . بينما كان اخوته الحسن والقائد وجوش والحارث على رأس قسنطينة والجزائر وقلعة بني حماد وبونة . ونلاحظ أيضا أن تونس أصبحت في عهد يحيى تحت قيادة ولاة من الأسرة الحمادية وهم : كرامة بن المنصور وأبو الفتوح بن كرامة ومحمد بن أبي الفتوح ومعد بن المنصور .

5) الجيش :

أ — قادة الجيش : كانت وحدات الجيش الحمادي تحت قيادة الأمير نفسه أو أحد أفراد عائلته أو قادة يعينهم الأمير .

في بداية الدولة الحمادية كان الجيش تحت أمر حماد وكان حماد يستعين بأخيه ابراهيم وبقائد اسمه عباد صادق . قاد القائد الجيش الذي حارب زناتة وأرسل ألف جندي للأمير الزيري المعز عند الزحف الهلالي من دون أن نعرف اسم القائد الذي ولي قيادتهم .

وكان بلقين بن محمد على الجيش الذي قاتل زناتة والمرابطين وأرسل جيشا لقمع ثورة أهل بسكرة من دون أن نعرف اسم القائد الذي قاده .

قاد الناصر الجيش الذي أخرج علي بن رقان من قلعة بني حماد والجيشين اللذين هجما على افريقية . وعهد الى وزيره خلف بن حيدرة باخماد ثورة أهل بسكرة والى ابنه المنصور بن الناصر بقتال زناتة الذين كانوا تحالفوا مع بني هلال .

وكان الأمير المنصور على رأس الجيش الذي حارب المرابطين وبني ومانو . وعهد الى الى أبي يكني بقمع ثورة بلبار بقسنطينة . ولكننا لا نعرف اسم القائد الذي قام باخماد ثورة أبي يكني وأخيه وقلان .

ويبد أن العزيز بن المنصور لم يقد بنفسه الجيش الذي هجم على افريقية في عهده وشارك في معركة نشبت بين الحماديين وزناتة في صحبة بروكسن ولكن — حسب

بروكسن ــ اتسم تصرف العزيز بشيء من الجبن وربما لم يشارك في أي قتال بعد هذه التجربة الفاشلة لأننا نرى الجيش الذي عهد اليه بمعاقبة بني هلال على هجومهم على قلعة بني حماد تحت قيادة ابنه يحيى والقائد علي بن حمدون والجيش الذي أرسل لمحاربة بروكسن اللاجىء الى قلعة زرعة تحت أمر غيلاس .

أما يحيى بن العزيز فيبدو أنه لم يشارك في أي معركة بعد توليه الأمر فقد سلّم الجيش لقادته .

هكذا نرى أن الجيش الذي حارب الموحدين كان تحت أمر طاهر بن كباب حسب ابن خلدون أو تحت قيادة ميمون بن حمدون على قول البيذق وأن الجيش الذي هجم على المهدية للمرة الأولى كان تحت أمر ابن المهلب وأن الجيش الذي غزا تونس كان تحت قيادة مطرف بن خزرون حسب ابن عذارى أو مطرف بن حمدون كما ورد في كتاب العبر . وأن الجيش الذي حاصر المهدية للمرة الثانية كان تحت قيادة مطر حسب ابن أبي دينار أو علي ابن حمدون على قول ابن عذارى أو مطرف بن علي بن حمدون كما جاء في كتاب العبر . أو مطرف بن حمدون كما ورد في ابن الأثير .

ب) **تشكيلة الجيش** : في بداية الدولة الحمادية كان الجيش يشتمل على جنود من قبائل صنهاجة وعبيد يكونون حرس الأمير .. ثم ابتداء من عصر بلقين بن محمد أدخل الأمراء الحماديون وحدات زناتية وهلالية في صفوف جيوشهم . وكان عدد العساكر الذين يشاركون في القتال يتراوح بين عشرين ألفا وثلاثين ألفا . نعرف ــ مثلا ــ أن حماد كان على رأس ثلاثين ألفا جندي عندما ثار على الأمير الزيري باديس . وأن الناصر خسر أربعة وعشرين ألف جندي في معركة سبيبة وأن المنصور هجم على بني ومانو في عشرين ألف جندي .

ج) **الأسلحـة** : استعمل بنو حماد السيف والرمح والترس نعرف ــ مثلا ــ أن حمادا ترك على ساحة القتال عشرة آلاف ترس بعد معركة وادي شلف . وأثناء الغزو كان الجنود يعيشون تحت الخيام . وكان لحماد خيمة كبيرة اسمها « فازة السلام » يستقبل فيها ضباطه .

د) **الأسطـول** : كان للأسطول الحمادي نشاط كبير بعد اختطاط مدينة بجاية . لأن هذا البناء كان مأمونا وواقعا في ناحية غنية بالغابات والحديد .. مما مكن أهلها من انشاء عدد كبير من المراكب التجارية والحربية . وبعد ادخال بونة في المملكة الحمادية في عهد المنصور بن الناصر أصبح بنو حماد يملكون دارين لصناعة المراكب . وبدأ الأسطول الحمادي يمثل دورا في الحروب التي نشبت بين المغرب الأوسط وافريقية في عهد العزيز بن المنصور . وهكذا أمكنه فتح جزيرة جربة .

أما في ايام يحيى بن العزيز فقد اسهم الأسطول في حصار المهدية وقام بغزو بيزا وجنوة .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

أجمع المؤرخون والرحالة العرب على القول بأن المغرب الأوسط عرف حياة الرخاء والازدهار في عهد بني حماد في ميادين فلاحة الحبوب وتربية المواشي والصيد والغابات والصناعة والتجارة .

1 ـ الفلاحة : عنى في مملكة بني حماد بفلاحة الحبوب والكروم والبقول والزيتونوالفواكه والنباتات النسيجية والطبية ونباتات أخرى مختلفة .

وكان لبني حماد اهتمام ملحوظ بفلاحة القمح والشعير المنتشرة في المغرب الأوسط كله . وبشكل خاص في نواحي قسنطينة وقلعة بني حماد وباغاية وطبنة وبونة وجيجل وسطيف وبجاية والجزائر وشرشال وبرشك وبنطيوس ومتيجة .

وكانت فلاحة الكروم شائعة في الغدير ونقاوس وطولقة والقل وجيجل والخضراء (عين الدفلة الحالية) وقرية بني وازلفن قرب تنس وشرشال .

ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن عنب جيجل كان يحمل الى بجاية وكان شجر الزيتون موجودا في بسكرة وطولقة وبنطيوس .

ويخبرنا الرحالة ان فلاحة البقول كانت حول المدن . ولكن في أغلب الأحيان لا يذكرون أسماء الخضر المزروعة . ولم نعثر أثناء أبحاثنا الا على نوع واحد وهو البصل فكان يزرع في قرية بني وازلفن . كان المغرب الأوسط غنيا بالفواكه في عهد بني حماد كما نرى ذلك

عند مطالعة كتب الرحالة . يقتصرون أحيانا على ذكر الفواكه من دون أن يذكروا أسماء الأنواع المزروعة . وأحيانا يخبروننا بأسماء أنواع الفواكه مثل التمور والتين والسفرجل والجوز واللوز والتفاح .

ومن النباتات الطبية التي كانت تنبت في المملكة الحمادية : عاقر فرحا . وهو الكافورية أو حشيشة الحمى وتوجد بناحية سوق حمزة ونباتات تنبت في جبل أمسيون ببجاية . ذكرها الادريسي وهي : القنطوريون الكبير والأفسنتين والحضض والسقو لوفندوريون والزراند والبرباريس والقسطون .

وينبت بناحية قلعة بني حماد نبات اسمه الفلون يشربه أهلها ليتحصنوا من ضرر العقارب .

علاوة على أنواع النباتات التي ذكرناها كان الزعفران موجودا في العصر الحمادي بمجانة . والنيل المزروع بالغدير والحناء والكمون الموجودان بقرية بني وازلفن قرب تنس .

أ) **الغابـات** : كانت الغابات موجودة بشكل خاص في ناحيتي بونة وبجاية حيث ينبت شجر الصنوبر الذي يستخرج منه الزفت والقطران .

وبجانب غابات بونة وبجاية ذكر البكري غابات بجبال الرحمٰن قرب مدينة القل . فيها أشجار خشبها قابل للخرط ولا سيما بمكان يسمى مرسى الخراطين كما ذكر غابات بمدينة زانة على مرحلة من بونة من جهة الشرق حيث شجر الزان الذي كان يجلب الى افريقية .

ب) **تربيـة الحيوانـات** : كان الفلاحون في عهد بني حماد يربون البقر والغنم والخيل والبغال والابل والنحل . كان البقر بجيجل والجزائر وبونة والمسيلة وطبنة وتاهرت وتدلس والغنم بالجزائر والمسيلة وطبنة وتاهرت . والخيل بالمسيلة وطبنة وتاهرت والبراذين . وهي جنس من الخيل بتاهرت والابل في الجنوب والنحل في بونة وجيجل والجزائر وتاهرت وقسنطينة وشرشال .

فكان بقر وغنم جيجل وتدلس يصدر . وذكر الادريسي أن بالجزائر العسل والسمن كثيرا «وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم» وأن بقسنطينة العسل «كثير وذلك السمن يتجهز به منها الى سائر البلاد) وان بتاهرت من انتاج البراذين والخيل كل حسن . وأما البقر والغنم فكثيرة بها جدا . وكذلك العسل والسمن» .

ج) **صيـد السمـك** : كان السمك يصاد على الساحل الحمادي كله . لا نعرف أسماء أنواع السمك التي كانت تصطاد ولكن نعرف ــ بفضل الادريسي ــ أن مدينة جيجل «بها الحوت الكثير العدد المتناهي في الطيب والقدر» وأن المسيلة «على نهر فيه ماء كثير ... وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته . وأهل المسيلة يفتخرون به . ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه . وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل الى قلعة بني حماد» .

ويذكر الادريسي أيضا صيد المرجان بدينة مرسى الخرز (القالة الحالية) وأنه يوجد منه فيها شيء كثير وأن عمدة أهلها على صيده وأنه أجل جميع المرجان الموجودة بسائر الأقطار.

2 ــ الصناعة :

أ ــ المعادن : كان المغرب الأوسط غنيا بالمعادن في عهد بني حماد . كان الحديد بمجانة وبونة وبجاية . والفضة والرصاص والاثمد بمجانة . والنحاس بجيجيل والجص بمتوسة قرب بجاية . وبجانب هذه المعادن نذكر اللازورد في جيجل والملح الذي يقول عنه البكري أنه كان قرب بسكرة : « جيجل ملح يقطع منه الملح كالصخر » .

ب ــ صناعة السفن : كانت صناعة السفن موجودة ببجاية وبونة ومرسى الخرز قال الادريسي : أنه كان ببجاية : « دار صناعة لانشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي » وذكر صاحب كتاب الاستبصار : أنه كان ببجاية « داران لصناعة المراكب وانشاء السفن » .

ولاحظ البكري أنه بمرسى الخرز « تنشأ السفن والمراكب الحربية التي تغري بها الى بلاد الروم » .

ج ــ صناعة النسيج : ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن أهل بجاية كانوا متخصصين في صناعة العمائم وكانت ملابس غريبة أخرى تصنع ببجاية . ذكرها البيذق .

أما صناعة النسيج بقلعة بني حماد فقال صاحب كتاب الاستبصار أن العاصمة الحمادية الأولى كانت مشهورة بأكسيتها التي كانت «ليس لها مثيل في الجودة والرقة» كما أخبرنا ياقوت أن القلعة كانت مشهورة بالألباد والملابس الجميلة والأقمشة المزركشة .

3 ــ التجارة :

أ ــ المراكز التجارية : ان أهم المراكز التجارية الحمادية كانت ببجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة وتاهرت والمسيلة والجزائر . قال صاحب كتاب الاستبصار : ان بجاية « مرسى عظيمة يحط فيها سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الاسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها » .

وكانت قلعة بني حماد هي الأخرى مركزا تجاريا هاما لا سيما قبل اختطاط مدينة بجاية . ذكر البكري ــ وهو يحدثنا عنها ــ أنها « تمصرت عند خراب القيروان انتقل اليها أكثر أهل افريقية . وهي اليوم مقصد التجارة . وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » .

أما ما يخص المراكز التجارية الأخرى فقد قال الادريسي ان مدينة قسنطينة بها «أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات مع العرب» . وقال : «ان مدينة تاهرت بها ناس جمل من البربر . ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة» . وقال عن المسيلة أنها «عامرة بالناس والتجار» . وعن الجزائر أنها «عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة . وصناعتها نافقة ..» .

ب ــ الطـــرق : في العهد الحمادي كانت عدة طرق تخرج من بجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة وأشير وغيرها من مدن المغرب الأوسط .

ذكر الادريسي أن بجاية «قطب لكثير من البلاد» وكان يقدر المسافات التي يقطعها المسافر الذي يغادر العاصمة الحمادية الثانية بالمراحل وبعدد أيام السير وأحيانا بعدد الأميال التي بين بجاية وبين القرى والمدن فقال : «ان من بجاية الى ايكجان يوم وبعض يوم . ومن بجاية الى بلزمة مرحلتان وبعض . ومن بجاية الى سطيف يومان . ومن بجاية وباغاية أيام . وبين بجاية وقلعة بشر أيام . وهي من عمالة بسكرة وبين بجاية وتيفاش مراحل . وبين بجاية وقالمة مراحل . وبين بجاية وتبسة أيام . وبين بجاية وطبنة مراحل» .

ثم يصف لنا الادريسي الطريق التي تؤدي من بجاية الى قلعة بني حماد ويفيدنا بأسماء القرى التي تمر بها .

كانت ثلاث طرق رئيسية تخرج من قلعة بني حماد بالاضافة الى الطريق التي تؤدي الى بجاية . اثنتان تتجهان نحو القيروان والثالثة نحو تنس . وكانت خمس طرق تخرج من المسيلة . طريقان تؤديان الى القيروان والأخرى الى تاهرت وسطيف وتنس . وكانت أربع طرق تخرج من أشير اثنتان منهما تؤديان الى تنس . وطريق تتجه الى مرسى الدجاج وطريق تؤدي الى الجزائر .

ج ــ المراسـي : كان بين بونة وبجاية المراسي التالية : مرسى الخروبة ومرسى ابن الألبيري ورأس الحمراء ومرسى تكوش ومرسى الروم ومرسى استورة وتاسقدة (سكيكدة الحالية) والقل وجزائر العافية وحصن المنصورية ومرسى سبيبة . وكانت المراسي بين بجاية وتنس : مرسى الدجاج وتمادفوس والجزائر ومرسى جنابية ومرسى الذبان ومرسى البطال وشرشال وبرشك .

د ــ العملـة والأسعـار : ذكر ابن خلدون أن كل الحماديين استعملوا العملة الفاطمية ما عدا يحيى بن العزيز . وكانت العملة الفاطمية من نوعين : عملة ذهبية تشتمل على الدينار أو المثقال ونصف الدينار وربع الدينار وثمن الدينار . وعملة فضية تحتوي على الدرهم ونصف الدرهم أو القيراط وربع الدرهم وثمن الدرهم والخروبة (أو الخرنوبة) وهي جزء من ستة عشر من الدرهم . أما في عهد يحيى بن العزيز فكان الحماديون يستعملون العملة العباسية . قال ابن خلدون يصف دينارا عباسيا :

ان سكة يحيى في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه . فدائرة الوجه الواحد : «اتقوا يوما ترجعون فيه الى الله. ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» . والسطور : «لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور» . ودائرة الوجه الآخر : «بسم الله الرحمٰن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة» وفي سطوره : «الامام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي» وبجانب العملة الفاطمية والعباسية كان بنو حماد يستعملون العملة المرابطية والدليل على ذلك هو أن المهندس الذي قام باصلاح جامع سيدي أبي مروان بعنابة في هذه السنين الأخيرة عثر على عدد كبير من الدنانير المرابطية .

أما فيما يخص الأسعار فلم نجد الا معلومات قليلة . نعرف — مثلا — ان الكساء كان يساوي ثلاثين دينارا بقلعة بني حماد . وان العمائم المذهبة كانت تساوي خمسمائة دينار وستمائة دينار ببجاية . وان الصانع على تعميم عمامة من هذا النوع يأخذ دينارين أو أكثر . كما نعرف أن وسقا من تمور قسطيلية يباع بدرهمين وأن قنطار من عنب الغدير يساوي درهما . وان كمية الفليون التي يحتاج اليها من أراد أن يتحصن من ضرر العقارب سنة كاملة كانت تساوي درهمين في قلعة بني حماد .

هـ — الأوزان والمكاييل والمقاييس : كانت الأوزان الرئيسية هي المثقال والدرهم والصنجة والوقية والرطل والقنطار كان وزن المثقال يعادل وزن الدينار الذي كان يتراوح بين 4'21 غ و 4'25 غ وكان الدرهم المستعمل للوزن يزن 7/10 (سعة أعشار) المثقال . وكانت الصنجة من الزجاج . وأثناء الحفريات التي أجريت بقلعة بني حماد عثر الأثريون على صنوج . منها صنجة باسم الخليفة الفاطمي الحاكم ، ليست لنا معلومات حول الأوقية التي كانت مستعملة في المملكة الحمادية ولكن أخبرنا المقدسي أنها كانت تساوي في تونس جزءا من اثني عشر من الرطل واثني عشر درهما .

أما ما يخص الرطل فقد كان منه أنواع شتى : الرطل الفلفلي أو الرطل العادي لوزن الفلفل في تونس وباغاية والرطل العادي لوزن اللحم وسائر الأشياء ، ما عدا الفلفل . فكان رطل اللحم يساوي عشرة أرطال فلفلية بتونس وعشرين رطلا فلفليا في باغية . فكان في مديني تونس وباغاية رطل اللحم ورطل عادي لسائر الأشياء فكان رطل اللحم يساوي ثلاثة أرطال عادية تقريبا في تنس وكان رطل اللحم يساوي سبعا وستين أوقية والرطل الآخر اثنتين وعشرين أوقية . أما في تاهرت فكان رطل اللحم يساوي خمسة أرطال عادية .

أما ما يخص القنطار فكان منه نوعان بمدينة تاهرت : قنطار لوزن الزيت وسائر البضائع المحلية والقنطار الفلفلي لوزن الفلفل وسائر البضائع المجلوبة وكان القنطار من النوع الأول يساوي قنطارين غير ثلث من النوع الثاني .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية والدينية

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

1) الحياة الاجتماعية :

أ ـــ المـــدن :

كان للمدن الحمادية أسوار تحيط بها . وكانت هذه الأسوار من الحجر بقلعة بني حماد وأشير وقسنطينة وميلة وباغاية وتيجس وبلزمة ونقاوس وتبسة . ومن الأجر بمجانة . ومن الحجر والآجر ببجاية . ومن الحجر والجير بتيفاش ومن الطوب بطولقة وبنطيوس والمسيلة ومن التراب بمدينة برشك . وكان لأسوار المدن أبواب يختلف عددها فكان لبجاية سبعة أبواب وخمسة لتنس وطبنة وأربعة لتاهرت وثلاثة لقلعة بني حماد وبسكرة وبابان لميلة وقسنطينة . وكان لبعض المدن مثل باغاية والمسيلة سوران ولبعضها الآخر مثل بسكرة وطولقة وبنطيوس أسوار مطوقة بخنادق .

وكان لبعضها ربض على نحو ما في باغاية وطبنة وتهودة وبلزمة وميلة وبسكرة . وكانت المقابر غالبا خارج المدن وقريبة من أبوابها . وكان للمدن الحمادية مسجد أو أكثر وأسواق وحمامات كما في سائر بلاد الاسلام . وكانت المدن تستهلك مياه العيون والجباب والصهاريج والآبار والجداول والأنهار .

ب ـ السكـــان :

قل وصول بني هلال الى المغرب الأوسط كان سكان هذه الناحية في أغلبيتهم ينقسمون الى تلكاته وكتامه وزناتة . وكانت تلكامه قبيلة بني حماد تسكن ناحية المغرب الأوسط التي تمتد من شرشال الى مرسى الدجاج . ومن وادي شلف الى القبائل الكبرى ومن وادي شلف الى البيان ناحية الحضنة وتتولى الأمر في أشير ومليانة والجزائر والمدية وحمزة والمسيلة غير أنه سنة **1120/514** أصبحت أشير تحت سلطة الثعالبة ، فرع من قبيلة معقل .

كانت كتامة أعانت الفاطميين حتى استولوا على الحكم في المغرب وكانت تسكن ناحية القبائل الصغرى الحالية . وقد استوطنوا بشكل خاص جبال بجاية قبل اختطاط الناصر الحمادي لهذه المدينة وسطيف والقل وجيجل وايكجان وقسنطينة .

ذكر الادريسي أن : « قبيلة كتامة تمتد عمارتها الى أن تجاوز أرض القل وبونة . وفيهم كرم وبذل طعام لمن قصدهم أو نزل بأحدهم . وهم أكرم الرجال للأضياف حتى استهلوا مع ذلك بذل أولادهم للأضياف النازلين بهم . ولا تتم عندهم الكرامة البالغة الا بمبيت أبنائهم مع الأضياف ليتلقوا منهم الارادة . ولا ترى كتامة بذلك عارا . ولا ترجع عن ذلك البتة ويواصل الادريسي حديثه قائلا : « ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب الا نحو أربعة آلاف رجل . وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا » .

من قبائل كتامة بنو زلدوي أو بنو زندوي كانوا ساكنين في الجبال المشرفة على جيجل ويمتازين بشجاعتهم وحبهم للحرب .

تحدث الادريسي عنهم فقال : « لهم منعة وتحصن . وهم أهل خلاف وقيام بعض على بعض . والجبايات التي تلزمهم لا تؤخذ منهم الا بعد نزول الخيل والرجال عليهم في تلك النواحي . ومن عوائدهم التي هم عليها أن صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضعه الى موضع غيره الا وهو شاكي السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللمطيّة » .

وأما القبائل الزناتية فكنا نجدها بالمسيلة وبسكرة وجبل أوراس ونقاوس وطبنة وباغاية وسطيف وعلى الطريق التي تؤدي من أشير الى تنس بين برشك وشرشال وبين تاهرت وتلمسان .

وكانت القبائل الزناتية الرئيسية هي هوارة التي كانت تسكن بجبل أوراس والغدير وتهوذة وناحية المسيلة ومكناسة الموجودة بجبل أوراس .

وتهودة ونقاوس وأوربة بناحتي نقاوس وبونة الحديثة وسدراتة . بالمسيلة وبسكرة . ومزاتة بالمسيلة وباغاية وبنو زنداج بالمسيلة ومغراوة وعمرت بناحية الزاب وبنو برزال بالمسيلة وسطيف

وطبنة . ولواتة بجبال بجاية وربيعة بين برشك وشرشال ومطغرة على الطريق التي تؤدي من تنس الى أشير . وبنو يلومي في ناحية شلف وعدة قبائل أخرى من زناتة كانت تسكن بين تلمسان وتاهرت أفادنا الادريسي بأسمائها وهي : « بنو مرين وبنو ورطغير وبنو زير وورتيد وماني وأومانو وسنجاس وغمرة ويلومان وورماكسين وتجين وورشفان ومغراوة وبنو راشد وتوطلاس ومنان وزقارة وتيمني » . وأضاف الادريسي الى أسماء القبائل الزناتية التي كانت تسكن بين تلمسان وتاهرت الملاحظات التالية : « وهم زناتة أصحاب هذه الفحوص . وهم قوم رجالة طواعن ينتجعون من مكان الى مكان غيره . لكنهم متحضون . وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل . ولهم عادية لا تؤمن ولهم معرفة بارعة وحدق وكياسة ويد جيدة في علم الكتف ولا يدري أن أحدا من الامم أعلم من زناتة بعلم الكتف » .

تلك هي تشكيلة سكان المملكة الحمادية في عهد حماد والقائد ومحسن . أما في عهد بلقين بن محمد فقد وصلت قبائل بني هلال منهم الأثبج الذين سكنوا ناحية الزاب وقلعة بني حماد والجزائر .

وجشم الذين كانوا في الجزائر وبنو عدى الذين نزلوا بناحية شلف . وكانت هذه القبائل تولت الأمر في الأرياف بعد الاتفاق الذي أبرم بينهم وبين بني حماد . ثم في عهد يحيى ابن العزيز أصبحوا يحكمون في المدن بجانب بني حماد . وبالاضافة الى قبائل تلكاتة وكتامة وزناتة وبني هلال عدد قليل من عرب الفتح والجند العربي منهم قريش بتهودة ويمنيون وقيسيون بطولقة وبنة جرف ينطيوس وكان أصلهم من الفرس . وعساكر الجند بميلة . كما نجد طوائف أخرى . منهم أندلسيون بالجزائر ومرسى الدجاج وتنس وبونة وقيروانيون بتنس ونصارى ويهود بقلعة بني حماد وبجاية وعبيد في صفوف الجيش الحمادي هذا ما يخص تشكيلة سكان المغرب الأوسط في عهد بني حماد أما ما له صلة بحياتهم فانها كانت في أغلب الأحيان مضطربة بسبب الحروب التي نشبت بين الحماديين وبني هلال وبين زناتة وبني هلال داخل البلاد وبين الاطاليين والصقليين من جهة وبني حماد من جهة أخرى على ساحل البلاد . ذكر الادريسي في هذا الصدد أن سكانها « قليل . وربما فرّ عنها أكثر أهلها في زمن الصيف ومدة السفر خوفا من قصد الأساطيل اليها » .

وان سكان القل في أيام سفر الأسطول يدخلون الى الجبال ولا يبقون فيها شيئا من آثارهم . وانما يبقى في القل في زمن الصيف الرجال فقط » . وقال متحدثا عن مدينة جيجل : « ولما ظفر بها أسطول الملك المعظم رجّار ارتفع أهلها الى الجبل على بعد ميل من المدينة وبنوا هناك مدينة حصينة فاذا كان زمن الشتاء سكنوا المرسى والساحل . واذا كان زمن الصيف ووقت سفر الأسطول نقلوا أمتعتهم وجملة بضائعهم الى الحصن الأعلى البعيد من البحر . وبقي الرجال باليسير من التجائر في الضفة يتجرون . وهي الى الآن خراب مهدمة الديار ، مثلمة الأسوار ، ليس بها ساكن ، ولا بقربها قاطن » .

2) الحياة الدينيـــة :

تعايشت ، في عهد بني حماد ، في المغرب الأوسط ، طوائف شتى من الناس ، اختلفت مللهم وأجناسهم من شيعة وسنية وأباضية ونصارى ويهود .

أ ــ الشيعـــة :

ان كتامة الذين كانوا قد ساعدوا الفاطميين على غزو المغرب كانوا اعتنقوا المذهب الشيعي . لذلك يمكن القول بأن السكان في بلاد القبائل الصغرى كانوا في أغلبيتهم شيعة . ولكن لما غزا الفاطميون مصر وغادروا افريقية رافقهم عدد كبير من كتامة . ولم يبق منهم الا عدد قليل ، نحو أربعة آلاف ، حسبما ذكره الادريسي .

ب ــ أهل السنة والجماعـة :

يبدو أن أغلبية زناتة من أهل السنة والجماعة لأنهم كانوا في أول الأمر في خدمة الخليفة الأموي الأندلسي كما كانت كتامة في خدمة الفاطميين . ذكر البكري وجود أهل السنة في بنطيوس وطولقة التي كان سكانها يمنيين وقيسيين لم يذكر مذهبهم . وكان سكان بسكرة على مذهب أهل المدينة . بينما كان أهل تهوذة على المذهب الحنفي .

ج) الاباضيـــة :

كان الأباضية في باغاية وتهوذة احدى مدن بنطيوس وكانوا في سدراتة قرب ورقلة لجأ بنو رستم الى سدراتة بعد غزو الفاطميين لتاهرت .

و) النصـــارى :

كان النصارى يسكنون قلعة بني حماد وبجاية . يقول ماص لا ترى أن لهم كنيسة بقلعة بني حماد سنة 1114/507 وسبق أن ذكرنا أن العلاقات بين الناصر والبابا غريغوار السابع كانت طيبة .

هـ) اليهـــود :

كان اليهود بقلعة بني حماد ، ولا سيما بعد غزو بني هلال للقيروان . وكانوا يمتهنون التجارة والطب والصياغة ، أو كانوا مستشارين ، خبراء في الشؤون المالية .

والجدير بالذكر أن طوائف شتى من الناس ، من شيعة وسنية وأباضية ونصارى ويهود عاشوا ، في عهد بني حماد في المغرب الأوسط في سلام ووئام . وسادت بينهم العلاقات الطيبة الحسنة ، على الرغم من اختلاف مللهم وأجناسهم .

الفصل الخامس

الحياة الادبية

د. محمد بلقراد

1) الشعـــر :

من بين الشعراء المشهورين في عهد بني حماد . منهم ابن النحوي وعبد الجبار بن حمديس والحسن بن رشيق وأبو الحسن الطبني وعبد الملك أبو مروان الطبني وابن قاضي ميلة . وابن الزيب وعمر بن فلفول وعلي ابن الزيتوني وحمد بن البين ويوسف بن المبارك وعلي ابن مكوك القطيبي وابن أبي المليح الطبيب وعلي الطبيب وابن الباذوخ الطبيب وحماد بن علي الملقب بالبين وابن سلامة والقليعي الأصم والقلعي الطميش وابن لادخان الطبني والاشوني وعمارة الشريف .

أ) ابن النحـــوي : (433 — 1041/513 — 1119) .

أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف . اشتهر بابن النحوي التوزري القلعي نسبة الى قلعة بني حماد . قرأ ببلده وبالقيروان ثم دخل المغرب وطاف في أنحائه واستقر أخيرا بقلعة بني حماد سنة 494 وتصدر للتدريس . وكان لا يقبل من أحد شيئا . وانما يعيش من دخل ضيعة له بتوزر . وهو من كبار العلماء العاملين ممن قصر حياته على نشر العلم والعمل به وتدوينه .

قال ابن الأبار : أخذ صحيح البخاري عن اللخمي وأخذ عن المازري وأبي زكريا الشقرطاسي وعبد الجليل الربعي ، وكان عارفا بأصول الدين والفقه يميل الى النظر والاجتهاد . له تآليف . حدث وأخذ عنه . وروى عنه القاضي أبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي . ومن نظمه قصيدته الموسومة بالمنفرجة قال فيها :

اشتـــدى أزمـــة تنفرجـــي	قد آذن ليــــلك بالبلـــج
وظـــلام الليـــل له سرج	حتـــى يغشاه أبـــو السرج
وسحـــاب الخيـــر له مطـــر	فاذا جاء الابـــان تجـــي
وفوائـــد مولانـــا جمـــل	لسروح الأنـــفس والمهـــج
ولهـــا أرج محـــي أبـــدا	فاقصد محيـــا ذاك الأرج
فلربمـــا فاض المحيـــا	ببحـــار المـــوج من اللجـــج
والخلـــق جميعـــا في يده	فذو سعـــة وذوو حرج
ونزولهـــم وطلوعهـــم	فالـــى درك وعلـــى درج
ومعايشهـــم وعواقبهـــم	ليست في الـــمشي علـــى عوج
حكـــم نسجت بيـــد حكـــمت	ثم انـــتسجت بالمنـــتسج
فاذا اقـــتصدت ثم انعـــرجت	فبمقـــتصد وبمنعـــرج
شهـــدت بعجائبهـــا حجـــج	قامت بالأمـــر علـــى الحجـــج

ب) ابن حمديس الصقلي : (447 — 1055/527 — 1133) .

مولده ونشأتـــه :

ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي في بسرقوسة بجزيرة صقلية . وبقي هناك الى سنة 1088/471 ثم هاجر الى بلاد الأندلس ونزل بمدينة اشبيلية وعاش بها في حاشية المعتمد بن عباد ومدحه في كثير من شعره . ولما نكب ابن عباد ونفي الى مدينة اغمات لم يستطع ابن حمديس البقاء في الأندلس . ولحق بالمعتمد في منفاه بالمغرب . ورثاه وهو حي ولازمه حتى أدركته منيته . ثم اتجه ابن حمديس الى افريقية وأخذ ينتقل بين مدنها يمدح ليعيش فمدح ملوكها من بني زيري وأقربائهم من بني حماد وظل على هذه الحال الى أن وافاه أجله بمدينة بجاية سنة 1133/527 .

شعره وخصائصـــه :

ان الحوادث الاجتماعية والسياسية والحياة العقلية التي وقف عليها ابن حمديس وشاهدها كانت سببا في تهذيب خياله وفكره حتى جعلت له صبغة خاصة في شعره فكان بعيد الغور في تفكيره وخياله ، كثير التأمل في الحياة ومظاهرها . تملأ نفسه ذكريات أيامه الماضية وحبه لبلاده والأهوال التي ابتلي بها وقد ظهر ذلك في شعره فتجده أحيانا باكيا متألما . وحينا فرحا مسرورا . ولكن قرارة نفسه كانت مملوءة بأنواع الآلام من حوادث الأيام فشعره مرآة لحياته النفسية ومشاهداته وآرائه . أما أسلوبه ففيه الصيغة الفنية الشخصية التي تميز الشاعر المتفنن من غيره . فهو فضلا عن رقته ورصانته اللفظية ومناعته الخفية نظمه من الشعر المطبوع الذي يصل الى النفس بدون حجاب ويجذب الأفئدة اليه وهو على ما به من

صناعة واحتوائه على كثير من المحاسن اللفظية لا تكاد تلمح فيه ذلك فهو في جملته سلس رقيق . ليس فيه تعقيد ولا خفاء في المعنى . وأكثر أساليبه البلاغية مستملح دقيق . ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة من وصف ومدح وغزل ومجون ورثاء وشكوى ودعابة وعبرة وغير ذلك .

قال ابن حمديس يصف قصر المنصور الموسوم بقصر النجم :

أعليت بين النجم والدبران ... قصر بناه السعادة بان
فصح الخورنق والسدير يحسنه ... وسما بقمته على الايوان
فاذا نظرت الى مراتب ملكه ... وبدت اليك شواهد البرهان
أوجبت للمنصور سابقة العلى ... وعدلت عن كسرى أنو شروان
قصر يقصر وهو غير مقصر ... عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة ... تعشى العيون بشدة اللمعان
لا يرتقي الراقي الى شرفاته ... الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كي ترى ... شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوسية ... محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نار نجها ... فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحمر ... جعلت صوالجها من القبضان
ان فاخر الاترج قال له : ازدجر ... حتى تحوز طبائع الايمان
لي نفحة المحبوب حين يشمني ... طيبا ولون الصب حين يراني
مني المصبع حين يبسط كفه ... فبنان كل خريدة كبناني
والماء منه سبائك فضية ... ذابت على درجات شاذ روان

ج) الحسن بن رشيق : (390 — 1000/463 — 1071) .

الحسن بن رشيق ، أبو علي الشهير بالقيرواني لطول اقامته بمدينة القيروان في خدمة ملوكها . أديب من كبار الأدباء كاتب وشاعر وناقد وباحث ومؤرخ — ولد بالمسيلة (المحمدية) وتعلم صناعة الصياغة على والده رشيق . ثم مال الى علوم الأدب والتاريخ . فأخذها عن علماء بلده .

رحل ابن رشيق الى القيروان سنة 1015/406 — 16 بعدما قال الشعر وطلب العلم والأدب . أخذه عن علماء بلدته المسيلة وحينما آنس من نفسه قدرة على التفوق في الشعر والأدب آثر أن يتوجه الى أفق أوسع فولى وجهه شطر القيروان دار العلم والأدب في ذلك الحين . تلقى ابن رشيق تكوينه النهائي في القيروان بعد تكوينه الأول لقي بها كبار العلماء

تقـول : أنشدنـي طورا واخبرنـي	اني اذا حضرتنـي ألـف محبـرة
«هذي المكارم لا قعبان من لبـن»	يا حبـذا السن الاقـلام ناطقـة

قال ابن بسام : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام وحملة ألوية الأقلام من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر . أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة وانتشار شمل الطاعة . وأنا خوافي في ظلها . ولحقوا بسروات أهلها وأبو مضر أبوه زيادة الله ابن علي التميمي هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع بالأندلس صوته بنباهة سلف.م . ورد في المغرب لابن سعيد المغربي أن الحجاري ذكر أن عبد الملك كان اماما في علم الحديث ووصفه بالبخل المفرط . كان يترك أهل داره يأكلن الخبز بلا ادام فاذا طلبوا الادام حرد عليهم وقال : هذه عادة سوء فخنقوه .

و) ابن قاضي ميلـة :

أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة . هو أحد أدباء الجزائر وفقهائها الاعلام . اشتهر بابن قاضي ميلة . وقد ذكره الحسن بن رشيق وأثنى على أدبه كثيرا فقال : انه شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة الزجر والعيافة ويسلك طريق ابن ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات . ويريد بذلك أنه كان يميل الى القصص الشعري وينحو فيه نحو عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي . كما أثنى عليه ابن بسم . وبالغ في وصفه ابن فضل الله العمري في كتابه الكبير مسالك الابصار . وعرض له ابن خلكان وتحدث عن قصيدته القائلة الطويلة النفس وقال : «فأحببت اثباتها لحسنها وغرابتها» .

وقد علق ابن رشيق عليها بقوله : «لو أن هذا الشعر لمن تقدم ذكره كابن ربيعة ومن سلك مسلكه لاستجيد لهم وذكروا به . وقدم على كثير من أشعارهم . ولا عيب الا فانه متأخر» وهذه القصيدة في أسلوبها الجديد وحوارها الطريف وروحها القصصية المحبوكة أجمل حبك وأرشقه درة من درر الجزائري الفائق في هذا العصر .

من قول ابن قاضي ميلة في قصيدته :

ولمـا التقينـا محرميـن وسيرنـا	بلبـيك ربـا والركـائب تعسف
نظـرت اليهـا والمطـي كأنهـا	غواربهـا منهـا معـاطس رعـف
فقـال : أما منكن يعـزف الفتـى	فقـد رابنـي من طول ما يتشوف
أراه اذا سرنـا يسيـر حذاءنـا	وتوقـف اخفـاف المطـي فيوقـف
فقـلت لتربيهـا : أبلغاهـا بأنـي	بهـا مستهـام . قالتـا : نتلطـف
وقـولا لهـا : يا أم عمـرو أليس ذا	منى والمنى في خيفه ليس يخلف
تفـاءلت في أن تبذلـي طارف الوفا	باذ عن لي منك البنان المطـرف

وفي عرفات ما يخبر أنني ، بعارفة من عطف قلبك أسعف
وأما دماء الهدى فهي لناهدي يدوم رأي في الهدوى يتألف
وتقبيل ركن البيت اقبال دولة لنا وزمان بالمودة يعطف
فأوصلتا ما قلته . فتبسمت وقالت : أحاديث العيافة زخرف

ز) ابن الزبيب : (380 — 990/430 — 1039) .

الحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي الشاعر الكاتب النسابة الافريقي التاهرتي أصلا القيرواني طلبا للأدب ، المعروف بابن الزبيب ويعرف أيضا بالقاضي التاهرتي . وكنيتة أبو علي . قد اعتنى به أبو عبد الله القزاز القيرواني وكان يحبه حتى بلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر وانتسب . وله في ذلك كتاب مشهور . وربما انتفع ابن الزبيب بتلقيه العلم من عبد الكريم النهشلي يقول الدكتور منجي الكعبي في هذا الصدد : «واذا أضفنا ما نعرفه من أن القزاز توفي سنة 413 هـ وان النهشلي توفي سنة 405 هـ أدركنا أن ابن الزبيب أدرك الرجلين في طور طلب العلم من أطوار حياته . وأحرى به — وق تتلمذ للقزاز — أن يكون تتلمذ للنهشلي أيضا الأكبر سنا من القزاز» .

قال ابن رشيق عن ابن الزبيب : «كان شاعرا مقدما قوي الكلام خبير باللغة» . ويقول الدكتور ياغي أن لابن الزبيب «قصيدة يمدح بها محمد بن أبي العرب . ويتخذ ابن رشيق من هذه القصيدة شاهدا على الحذق والقوة والاندفاع وجزالة اللفظ والمجانسة» ويفيدنا الدكتور منجي الكعبي بأن «شاعرية ابن الزبيب فيها مشابه كثيرة من شاعرية النهشلي من حيث قوتها وجزالة ألفاظها وفخامة عباراتها وروعة أسلوبها المحكم المتين وما تعكسه في معانيها ومبانيها من خبرة واسعة بأساليب الشعر القديم» ويستنتج الدكتور منجي من ذلك أنه «ينبغي أن يكون ابن الزبيب تلميذا للنهشلي ... فلا يمكن أن تنفي التلمذة والأستاذية بينهما مطلقا بحكم المعاصرة واللقاء وفارق السن الكبير» : ويذهب الدكتور ياغي الى أننا نستطيع أن نعد من شيوخه (شيوخ ابن رشيق) ابن الزبيب القاضي . ومما ذكره ابن رشيق عنه أنه قال فيه : «حدثني حماد من أصحابنا . قالوا : سألنا عبد الكريم : من أشهر أهل بلدنا في الوقت فبدأ بنفسه وثنى بابن الزبيب» .

ح) أبو حفص عمر بن فلفول :

جاء في جريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ذكر جماعة من الأدباء أوردهم عثمان بن بشرون المهدوي الكاتب في كتابه «المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر» منهم الفقيه أبو حفص عمر بن فلفول . قال : هو كاتب السلطان بتلك البلاد : يحيى بن العزيز الحمادي وخالصته وصاحب سره وله اليد الطولى في الانشاء الدال اعجازه فيه على البلاغة المؤدية لسحره في نثره .

قال : أنشدني له الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي عند الاجتماع به في جزيرة صقلية :

وقالوا : نأى عنك الحبيب فما الذي ... تراه اذا بان الحبيب المواصل
فان أنت أحببت التبصر بعده ... ولم تستطع صبرا فما أنت فاعل
فان الهوى ـ مهما تمكن في الحشى ... وحل شغاف القلب ليس يزايل
فكم رام أهل الحب قبلك سلوة ... وزادهم عنها هوى متواصل
فقلت ألا للصبر مفزع عاشق ... وللصبر أحرى بي ، وان غال غائل
سأصبر حتى يفتح الله في الهوى ... بوصل حبيب طال فيها الطوائل

ط) علي بن الزيتني :

الذي يعد شاعر المغرب الأوسط وأديبه وألمعيه وأريبه وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع وقد صار شعره غناء .

وأورد من شعره قوله في ذم المركاز :

لا أكل المركاز دهري ولو ... تقطفه كفي بروض الجنان
لأنه أشبه فيما يرى ... أصابع المصلوب بعد الثمان

وقوله من قصيدة في مدح بعض القضاة :

نهاه عن محارمه نهاه ... وقربه لخالقه تقاه
وقال الله ليس سواي رب ... ولا لشريعتي أحد سواه
هو البر العطوف على البرايا ... وبالايتام يرحم من أتاه
وشد به عرى الاسلام حتى ... رأينا النجح وانعقدت عراه
أمين . عدله غمر البرايا ... فما يخشى على أحد قضاه
فسيح خطوه في كل علم ... ومن ذا يقتضي أبدا خطاه
أبى شانه طلب المعالي ... ومن يحصي ثناه أو نداه
لقد ظهرت يد علقت نداه ... ومن ناواه قد تبت يداه

ي) محمد بن البين :

قال ابن بشرون ـ وهو يحدثنا عنه ـ : أورده الرشيد بن الزبير في كتاب الجنان من الأندلسيين . ولم أعرفه الا منه وأورد له :

جعلوا رضا بك ـ كي يحرم ـ راحا ... ورأوا به قتل النفوس مباحا
نشروا عليك من الذوائب حندسا ... فملأته من وجنتيك صباحا
ومتى أحسوا منك طيفا طارقا ... ملأوا أعنتهم الي رياحا

ضربوا عليك من القتام سرادقا — ركزوا اشعاع الشمس فيه رماحا
وجعلوا ظلام الليل بالصبح الذي — قسموه بين جيادهم أوضاحا
وأتوا بغدران المياه جوامدا — قد فصلوها ملبسا وسلاحا

ومن شعر محمد بن البين قوله :

برود قد خلقن علي حتى — حكين الصبر في يوم الوداع
فجددها . ليشهد كل راء — باتني من هباتك باتساع
وحمل عاتقي ثقل المعاني — فاني بالتحمل ذو اضطلاع

ك) يوسف بن المبارك

ذكر ابن بشرون : أنه من موالي بني حماد . وله في مدائحهم من الشعر ما انسحب عليه ذيل حماد . من ذلك قوله :

هناكم النصر ونيل النجاح — في يومكم هذا يسمر الرماح
فأنتم الصيد الكرام الالي — شادوا العلى بالنائل المستماح
ما منكم الا همام حوى — مناقبا جلى ومجدا صراح
لا ترهبون الدهر أعداءكم — وتمنعون العرض من أن يباح
وتبذلون الرفد يوم الندى — وتسعرون الحرب يوم الكفاح
وترفعون الجار فوق السهى — وتكرمن الضيف مهما استماح
لازلتم تجنون زهر العلى — في معرض العز بحد الصفاح

ل) علي بن مكوك التطيبي :

ذكر ابن بشرون أنه أورد له الأبيات :

ألا ليت شعري هل من الدهر عودة — ليقرب ناء ليس يدري له أين ؟
تكدر صفو العيش مذ جد بيننا — وأي التذاذ لا يكدره البين ؟
لغل الذي يبلى ويشفى من الأسى — يعيد الذي ولى . فكل به هين
غدوت من الأيام في حال عسره — تطالبني دينا . وليس لها دين

م) ابن أبي المليح الطبيب :

ومنهم ابن أبي المليح الطبيب . ذكر العماد أنه طبيب ماهر وكاتب شاعر في بلاط بني حماد . ورويت له مقطوعات جالة للحب . سالبة للب . وله من قصيدة عيدية في الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي يصف جنائبه وقضاء حق الغليد وواجبه .

وجالت به جرد المذاكـي كأنهـا عذارى . ولكـن نطقهـن تحمحـم
بصفـراء كالتبـر العتيـق صقيلـة ودهمـاء يتلوهـا كميـت وأدهـم
وأشقر لو يجري ـ وللبرق جهده لكـان له يوم الرهـان التقـدم
وقـام لواء الـنصر يتبـع رايـة بها العـز معقـود عليهـا متمـم
فلمـا قضى حق الصلاة معظمـا ثنى والهـدي في وجهـه يتـوسم
فلا زال يقضي نفلـه وفـروضه ويـرد علاه بالمدائـح معلـم

ن) علي الطبيب :

وقد ورد في كتاب : «أخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلي بن يوسف القفطي ذكر طبيب آخر يدعى علي الطبيب الذي قال عنه القفطي أنه طبيب افريقي مرتزق بالطب في الدولة الحمادية وأن له شعرا وأدبا وروى له مقطوعة قال فيها :

يا جملة الحسن هب لي منك احسانا انـي أحـببك اسرارا واعلانـا
أصبحت عبدك . لا أبغي بكم بدلا ولا أحب سواك الدهـر انسانـا

س) ابن البذوخ الطبيب : (1180/576) :

أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي الطبيب ولد بالقلعة أو في ضواحيها .

عاش ابن البذوخ في عصر العزيز بن المنصور وأخيه يحيى وكان يجتمع بأبي الفضل بن النحوي التوزري في القلعة وربما يكون تتلمذ له وأخذ عنه بعض العلوم . يذكر الصفدي أنه اطلع على انتاجه الطبي . فوصفه بالخبرة بالأدوية المركبة والمفردة ويحسن النظر والبحث في الأمراض ومعالجتها .

ذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان له اعتناء بعلم الحديث وقرض الشعر ونظم الأواجيز وعمر عمرا طويلا ربما يكون قد ولد في التسعينات من القرن الخامس الهجري وأنه توفي بدمشق سنة خمس أو ست وسبعين وخمسمائة .

ومن شعره قصيدة كبيرة له في ذكر الموت والمعاد يقول في أواخرها :

نعـوذ بالله من شر الحيـاة ومـن شر الممات . وشر الانس والجان
ان الشيـوخ كأشجـار غدت حطبا فليس يرجى لهـا توريـق أغصان
لم يبق في الشيخ نفع غير تجربة وحسن رأي صفـا من طول أزمـان
يا خالـق الخلـق يا من لا شريك له قد جئت ضيفـا لتقرينـي بغفـران
مولاي مالي سوى التوحيد من عمل فاختـم به منعمـا يا خيـر منـان

ع) حماد بن علي الملقب بالبين :

ذكر عثمان بن بشرون الصقلي شاعرا رائع الشعر عاش في عصر بني حماد . ولا نعرف من أخباره شيئا الا القصيدة المذكورة في كتاب العماد الاصفهاني . وهذا الشاعر هو حماد ابن علي الملقب بالبين . قال :

لمن أشتكي ما أراب من الدهر ... وقد ضاق بي عن حمل أيسره صدري
وقل الذي يجدي التشكي وأي من ... أرجيه في يومي لقاصمة الظهر ؟
أراني قد أصبحت في قطر باجة ... غريبا وحيدا في هوان وفي قهر
فقيرا لمن قد كنت أغنى بنيله ... وأنعم في أيامه مدة العمر
أرنق عيشا كدر الدهر صفوة ... وصيره بعد انجبار الى كسر
وعهدي به روضا أريضا وجنة ... مذللة الأكتاف رائقة الزهر
وان رمت أن أغدو لأهلي عاجلا ... بلا مهل في أول الركب والسفر
ثناني عنه عمل الثغر وانثنى ... يقابلني بالعنف منه وبالزجر
وقال : اقتنع . واقنع برزق تناله ... بلطف . لعل اليسر يذهب بالعسر
وأطرق اطراق البغاث لدى الصقر ... كأن لم أكن اذ ذاك منه على ذكر

ف) عبد الله بن سلامة :

أبو محمد أصله من بجاية التحق بأرض الكنانة وأقام في مصر والصعيد والريف .

رحل الشاعر ابن سلامة الى مصر وتجول في مناكبها وأقام في أماكن شتى من أرجائها . فلم ير أينما حل وارتحل ما يخفف من غلواء بؤسه وشقائه الذي انقض عليه من غربته ووحشته فتضاعف بؤسه بما حل به من فقر وحرمان واستهانة الناس بشأنه وقساوة قلوبهم على المحاويج والمعوزين مثله . وما كان أشدها ألمه من أن أواصر الجوار والانسانية والأخوة والكرم وما أشبه ذلك لا معنى لها في عرف هؤلاء القوم فلم يجد بدا من أن يطلق عليهم ما في كنانته من سهام هجائه وسخره قبل أن يفارقهم . فقال :

لحرمة الضيف لو كنتم ذوي كرم ... وحرمة الجار لو كنتم ذوي حسب
لكنكم يا بني اللخناء ليس لكم ... فضل ولا أنتم من طينة العرب
كم لا زال على حال أساء بها ... منكم . وأغشى على الفحشاء والريب
لا تركن لكم أرضا بكم عرفت ... فأجنت البوم يأوى أخبث الخرب
وما مقامي بأرض تسكنون بها ... مني يطيب . ولكن حرفة الأدب

ص) القلعي الأصـــم :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم . من قلعة بني حماد . ذكره ابن الزبير في مجموعه وقال : كان جيد الشعر وأزى زناد الفكر . لكنه منحوس الحظ . منحوس الجد . ورد الى الاسكندرية ومصر . وأقام بها زمانا لا يجد من يروي ظمأته . ولا يسد خلته وعاد الى المغرب في غير أوان سفر المركب فسار راجلا نعله مطيته . وزاده كديته . الى أن وصل الى قوم يعرفون ببني الأشقر من طرابلس الغرب . فامتدحهم بالقصيدة الميمية التي أولها « ترى فاض شؤبوب من الغيم ساجم . وعظموا جائزته . ولم أدر ما فعل به بعد ذلك من قوله من قصيدته الميمية في مدح بني الأشقر :

ترى فاض شؤبوب من الغيم ساجم وأومض مشبوب من ابرق جاحـــم
وما الندى والوقت بالصيف حائم وماذا ألسنا والجو بالليل فاحـــم
ومــا هذه مزن ومــاذي بوارق ولكنهــا ايمانكـــم والصوارم
بني الأشقر استعلوا بحق على الورى كما لم تزل فوق الكعوب اللهاذم
مشيتم الى العليا . وطار سواكم فلـم تبلغ الأقدام فيهـا القــوادم
وأوقع من تلقـاه من طار للعلـى اذا لم يكن ريش الجناح المكارم
وفي ذا الحمى المأمول يا من خائف وفي ذا الندى المعسول ينقع حائم
عضدتم على احسابكم بفعالكـم كما عضدت أس البناء الدعائـم
تغار على مس الدروع جسومكم غلائـل فيهـا للنظـار مراقب
تتوجتـم بالبيض حتـى تخيلت بأنكم حرمتموهـا ـ العمائـم
ولـم تحضا منكم بالبنـان خواتـم مذ اتفـقت أيديكـم والقوائـم
ومـا اختلـفت أقوالكـم وفعالكـم مذ اتفـقت أراؤكـم والعزائـم
على كل أرض من نداكم ميـاسم وفـي كل ناد من ثناكـم مواسم
وليتم على طلميثة وهـي معلـم لكم بالندى والبأس فيها معالـم
فان لم أعـدد في قريض كناكـم وأسماكـم فليفتقـد ذاك لائـم
ويغنى اشتهار البيت عن ذكر أهله ويغنى عن اسم المسك بالشم ناسم

ق) علي بن اسماعيل القلعي المعروف بالطميش :

لعله أبو الحسن علي بن اسماعيل بن خلف الكندي الوراق المعروف بابن الوفاء . نزيل مصر . اشتغل بالوراقة والوعظ . وله كتاب « ذخائر الواعظين وسراسر العاملين » وكان شاعرا ناثرا . ومن شعره :

أغضبت ربي على علـم بسطوتـه على العصاة وما أغضبت شيطاني
آثرت نفسي على دينــي لشقوتهـا يا ويح نفسي ـ لقد فازت بخسران

من قصيدة منسوبة اليه :

لقد صانكم قلبي . ودمتم على الجفا ويزداد حبا كلما زدتم قلى
ولو ذقت حتفي في الهوى من رضاكم لما اخترت عنه ما بقيت تنقلا
وزنت مهاتي بالبقا عند غيركم فألفيت موتي عندكم لي أفضلا

ر) العدل أبو الفضل بن لادخان عطية بن علي الطبني القيرواني : (.. — 1137/532 — 1138) .

هو عطية بن علي بن عطية بن علي بن الحسن بن يوسف القرشي الطبني القيرواني . كان أحد الشهود ببغداد . وهو ظريف كيس له نظم سلس حسن الشعر رقيقه غامض المعنى دقيقه . يقول العماد : قرأت في الذيل للسمعاني يقول : لا أدري ولد بالمغرب أو بمكة في مجاورة ابه بها . وانتقل من مكة الى بغداد وسكنها الى أن توفي بها سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة قال : أنشدنا الشيخ الأجل أبو الحسين عبيد الله بن علي المعمر الحسيني غير مرة أنشدني أبو الفضل بن لادخان الشاهد لنفسه :

قالوا التحى وانكشفت شمسه وما دروا عذر عذاريه
مرآة خديه جلاها الصبا فبان فيها ضوء مدغيه

ان خده أصبح شفافا . فانعكست عليه صورة خصلات الشعر المتدلية عليه وقرأت من مدائح ابن جهير الوزير لابن لادخان من قصيدة فيه :

أراك من معجزات السعد اسعادا جد أعاد لك الأفلاك حسادا

ومن قوله فيها :

وليلة بت من بعد النعيم بها أشقى وأكثر أعوالا وتعدادا
وموقف من سليمى لست أذكره ألا رأيت لجيش الشوق امدادا
بيضاء تخطر في ثوب الصبا مرحا كما تمايل خط البان وانادا
ظلت تساقط در الدمع والهة والوجد ينهب أرواحا وأحسادا
بكيت في أثر من أهوى وصحت فما عاج الحمول . ولا حاد بهم حادا
راحوا بشمس سحاب النقع يسترها والمشرفية لا يعرفن اغمادا

أبو الحسن الأشوني الجزائري : (توفي سنة 1142/537 — 1143) .

روى عنه عبد الواحد بن حبيب اللخمي الجزائري . وكان نحويا لغويا أديبا حافظا تاريخيا . استملى منه ابن الحبيب المذكور «أماليه الأدبية» المنسوبة اليه . فأملاها من ذكره

وهي أمال نبيلة مفيدة شاهدة بفضل حفظ وجودة اختيار وحسن تصرف . وقد أودعها جملة وافرة من منشأته نظما ونثرا . ومن أحسن ما روى له محمد بن عبد الملك المراكشي من شعره مقطوعته التالية التي وصف فيها حاله حين دخل الجزائر :

يا ويـــح ناء شط عن أحبابـــه ... وسقـاه طول البعـد مر شرابـــه
قذفت به أيدي النوى في معشر ... لم يحفلـوا ظرا بعظـم مصابـــه
يمسي ويصبـح هائمـا متحيـرا ... قد عضه صرف الزمـان بنابـــه
مازال يجعلـــه دريئـــة سهمـــه ... حتـى غزاه بشريـــه وبصابـــه
أم الجزائـر كي يصادف ملطفـا ... يكسو الـذي يشكوه من أوصابــه
فاذا الأنـام غذوا بشـدي واحـد ... في كل قطـر آهل بسحابـــه
لا يطمع السبروت فيمـا عنـده ... كالفقـر لا ترجـى شراب سرابـه
حقـا لقـد ذهب الكرام من الورى ... لم يبـق الا كل جلـف جابـــه
ان كان جار علـي دهـر جائـر ... فالدهـر أغـرى باللبـيب النابـه
ورفلت في سمـل الثياب فلم يضع ... شرف المنهنـة مستـرت قرابـــه
حر كساه العـدم ثوب خمولـــه ... وكأنمـــا قارون في أثوابـــه

عمارة الشريف الحسني أبو الطاهر :

كان حيا بعد 1189/585 ذكره الغبريني في عنوان الدراية وأثنى عليه وقال : «ومن يجب أن يذكر ... الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحيى الشريف الحسني لعلمه وشرفه ... له علم وأدب وفضل ونبل — قضى في بعض النواحي ببجاية . كان متقدما في علم العربية والأدب . وله تأليف في علم الفرائض منظوم وتواشيحه في نهاية الحسن . وبها يضرب المثل ... وقد ذكر لي أن شعره قد جمع في ديوان» هـ وروى له مقطوعة شعرية وهي قوله :

سلام كعرف المندل الرطب في الجمر ... والا كما هب النسيم على الزهر
فللـــه در مقالتيـــن بعبـــرة ... تعبر فوق الخد عن كامـن السر
وقد راعني ايماض برق بذي الغضا ... كما ابتسم الزنجي عن بهج الثغر
بدا لي أن الليـل أورى زنـــاده ... ولا نار الا نور برق له يسري
ونـار أكبـادي أكابـد حرهـا ... وقلب سليم قلب في لظى جمـر
ومـا طائـر فوق الـغصون مسرح ... كمن بات مقصوص الجناحين في وكر
فلم أنس توديـع البنيـن مصفـدا ... وأصغرهم يجري وأدمعـه تجـري

2 ــ النثر الفنــي :

اشتهر بالبراعة في النثر الفني الحسن بن رشيق وأبو حفص عمر بن فلفول وأبو محمد الكاتب المعروف بابن دفرير وأبو القاسم عبد الرحمٰن القالي ــ وأبو علي ابن الزبيب ــ

أ ــ أبو حفص ابن فلفـول :

ذكرناه سابقا في زمرة الشعراء . وقد اشتهر كاتبا في دولة يحيى بن العزيز ــ ذكر البيذق أن ابن فلفول كان يشغل هذا المنصب منذ عهد العزيز .

ب ــ ابن رشيق الكاتب :

ترك لنا ابن رشيق آثارا توضح لنا طريقته في الكتابة وهي العمدة وقراضة الذهب وما حفظه لنا ابن فضل الله العمري من أجزاء من أنموذج ابن رشيق في شعراء عصره .

ترينا هذه الآثار ان ابن رشيق الذي كان مفتونا في شعره بالترصيع وزخارف البديع ومفاتن التصنيع قد انصرف عن ذلك كله في نثره مما تشتمل عليه تآليفه الثلاثة التي ذكرناها ولعل ابن رشيق كان يفرق في ذلك بين كتابة الأبحاث وبين الكتابة الأدبية . فكان في الأبحاث معنيا بالفكرة يلتمس لها أقرب السبل وأسهلها في التعبير عنها . واذا تناول موضوعا أدبيا صرفا استخدم ما كان له من قدرة على التحسين والترصيع ومحاسن البديع . كتب ابن رشيق تحت عنوان باب العتاب فقال يبين حقيقة العتاب : العتاب وان كان حياة المودة وشاهد الوفاء فانه باب من أبواب الخديعة يسرح الى الهجاء ، وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء فاذا قل كان داعية الألفة وقيد الصحبة ، واذا كثر خشن جانبه ، وثقل صاحبه . وللعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مختلفة فمنه ما يمازجه الاستقطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف وقد يعرض فيه المن والاجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف .

وقد كتب رسالة الى أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي بدأ بها رسالة قراضة الذهب فقال : أما بعد . امتع الله اخوانك ببقائك . وكفاهم الأسواء فيك . وجعلني من بينهم الفداء لك ، واسأل الذي شرح للعلم صدرك وعمر بالذكر قلبك ، وبسط بالحجة لسانك ، وبالخير يدك ، وقرن بالسداد قولك ، وبالتوفيق عملك ، أن يجري مناظرك في حسن الأدب على رسمك ، ويجعل الانصاف كما توثر حكما بينك وبين خصمك .

ج ــ أبو عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دلرير :

فذكر أنه أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية . وأورد له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادي . وقد فر من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد بعض أمراء العرب بتلك الولاية

« كتابنا ــ ونحن نحمد الله على ما ساء وسر رضى بالقسم وتسليما للقدر . وتعويلا على جزائه الذي يجزى به من شكر . ونصلي على النبي محمد خير البشر . وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر . وبعد فانه لما أراد الله أن يقع ما وقع بقبح آثار من خان في دولتنا وضع . استفز أهل موالاتنا الشيطان وأغرى من اصطفيناه وأنعمنا عليه الكفران . فأتوا من حيث لا يحذرون ورموا من حيث لا ينصرون . فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ويفر من مصل خفيف الى حية صماء حتى بغت مكرهم وأعجل عن التلاقي أمرهم . ورد وبال أمرهم اليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة . وملنا الى مظنة الا منه . وبعثنا في احياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ونستنفر من كنا نراه للمهم عدة . وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر . ويثنى عليهم الحاضر » .

د ــ أبو القاسم عبد الرحمٰن القالمي :

من كتاب الدولة الحمادية له من رسالة ولما كنت في مضمار سلفك جاريا . ولنا مواليا وفي قضاء طاعتنا متباهيا رأينا أن نثبت مبانيك ونؤكد أواخيك . ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك . تميزا لهم عن الاكفاء ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء . فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر . فأنت به جدير . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور .

هـ ــ ابن الزبيــب :

ومن آثار أبي علي بن الزبيب رسالة بعث بها الى الوزير الكاتب أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم (وهو ابن عم أبي محمد مؤلف طوق الحمامة) في قرطبة وفيها نقد للحالة الفكرية في الأندلس واشادة بازدهار تلك الحالة في القيروان وافريقية وفيها ما يدل على ثقة أهل افريقية بما وصلوا اليه من مكانة في العلم والأدب والحضارة العمرانية والفكرية المزدهرة ويذكر فيها كاتبها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسيرة ملوكهم . قال ابن الزبيب في رسالته : كتبت يا سيدي وأجل عددي ــ كتب لك الله السعادة ، وأدام لك العز والسيادة ــ سائلا مسترشدا وباحثا مستخبرا . وذلك أني فكرت في بلادكم اذ كانت قرارة كل فضل ومنهل كل خير ونبل ومصدر كل تحفة وغاية آمال الراغبين ونهاية أماني الطالبين ان بارت تجارة فاليها تجلب وان كسدت بضاعة ففيها تنفق مع كثرة علمائها ووفرة أدبائها وجلالة ملوكها . ومحبتهم في العلم وأهله . يعظمون من عظمة علمة . يرفعون من يرفعه أدبه . وذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته . وعظمت في الحروب نكايته . فشجع الجبان . وأقدم الهيبان ونبه الخامل . وعلم الجاهل ونطق العيي . وشعر البكي . واستنصر البغاث وتثعبن الحفاث . فتنافس الناس في العلوم . وكثر الحذاق بجميع الفنون . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط . من أجل أن علماء الأمصار دونوا

فضائل أمصارهم . وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم . وأخبار الملوك والأمراء . والكتاب والوزاراء . والقضاة والعلماء . فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين . يتجدد على مر الليالي والأيام . ولسان صدق في الآخرين . يتأكد مع تصرف الاعوام وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كل امرىء منهم قائم في ظله لا يبرح . وراتب على كعبه لا يتزحزح يخاف ان صنف أن يعنف . وان ألف أن يخالف ولا يوالف . لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده . ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه . ولا بل قلما بمناكب كتابه ووزرائه ولا سود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه . على أنه لو أطلق ما عقل الاغفال من لسانه . وبسط ما قبض الاهمال من بيانه . لوجد للقول مساغا ولم تضق عليه المسالك . ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكن هم أحدهم أن يطلب شأو من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق بقدح ابن مقبل بكظم دغفل . ويصير شجا في حلق أبي العميثل . فإذا أدرك بغيته . واخترمته منيته دفن معه أدبه وعلمه . فمات ذكره . وانقطع خبره ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس . فألفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدد طول الأمد فان قلت أنه كان مثل ذلك من علمائنا وألفوا كتبا لكنها لم تصل الينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لأنه ليس بيننا وبينجم غير روحة راكب أو رحلة قارب لو نفث من بلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور فضلا عمن في الدور والقصور » .

فأجاب أبو المغيرة بن حزم ابن الزبير بجوانب طويل ذكر ابن بسام طافة منه في الذخيرة وبعد ذلك ألف أبو محمد بن حزم الظاهري رسالة طويلة ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس أتى بها المقري في كتابه نفح الطيب .

3 — النقد الأدبي :

أشهر الأدباء الذين امتازوا ببراعتهم في النقد الأدبي في هذا العصر هو الحسن بن رشيق في كتابه العمدة .

ابن رشيق الناقد وكتابه العمدة :

يقول أحمد أمين أن ابن رشيق نقل في كتابه العمدة فن النقد من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين الى نقد للشعر عامة .

وذكر ابن خلدون في عدة مواضع من مقدمته قال في موضع منه بعد ذكر أن قرض الشعر وصنعته لابد له من النشاط وفراغ الخاطر : « ذكر ذلك ابن رشيق في كتابه العمدة . وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاء حقها . ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » ثم قال بعد بقليل : « وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق » .

موقف ابن رشيق من قضية اللفظ والمعنى تحدث الأدباء والنقاد والعلماء في القديم والحديث عن هذه القضية ــ وقد أعرب ابن رشيق عن رأيه بهذا الصدد في كتابه العمدة فقال :

اللفظ جسم ، وروحه المعنى . وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بعضه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ ، وجرية فيه على غير الواجب ، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع كما أن الميت لم ينقص من شيء في رأي العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى . لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة .

4 ــ العلوم الدينيــة :

ينبغي أن نذكر في ميدان العلوم الديني مروان أبا عبد الملك البوني وأبا علي الحسن بن علي المسيلي وعبد الحق البجائي وأبا بكر محمد بن لحسن الأنصاري الميروقي وأبا القاسم البسكري وابن الرمانة وأبا عمار الكافي وأبا العباس البوني .

أ ــ مروان البوني : (توفي سنة 1047/439 ــ 1048) .

أبو عبد الملك مروان بن محمد الأسدي البوني ــ أصله من الأندلس رحل منها ودخل القيروان وطلب العلم بها . ثم استقر ببونة (عنابة) فسكنها ونسب اليها وبها توفي ــ وكان فقيها محدثا وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ ــ ورد هذا في بغية الملتمس للضبي . رقم 1341 وجاء في الديباج المذهب لابن فرحون أن مروان البوني كان من الفقهاء المتفننين ذكره صاحب الصلة أخذ عن أبي محمد الاصيلي والقاضي أبي المطرف وعبد الرحمن بن فطيس . وأخذ عن أبي الحسن القابسي وأحمد بن نصر الداRودي . ويذكر صاحب الديباج عنه أيضا أنه كان رجلا حافظا فذا في الفقه والحديث وأنه كان رجلا صالحا مات قبل الأربعين وأربعمائة . وأن له تأليفا في شرح الموطأ مشهورا حسنا رواه عنه حاتم الطرابلسي وابن الحذاء .

ب ــ أبو علي الحسن بن علي المسيلي :

الشيخ الفقيه القاضي العالم العابد المتقن المحصل الامام أبو علي ــ كان يسمى أبا حامد الصغير . جمع بين العلم والعمل والورع . له المصنفات الحسنة . منها التذكرة في علم أصول الدين قال عنه أحمد بابا أنه كتاب حسن . ومنها النبراس على منكر القياس . يقول

عنه التنبكتي أنه كتاب جسن ماريء في الكتب الموضوعة في هذا الشأن مثله . وكتاب في علم التذكير سماه التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادىء والغايات يقول عنه أحمد بابا أنه كتاب جليل سلك فيه مسلك احياء الغزالي . ولي قضاء بجاية .

ودخل عليه الموارقة وهو قاضيها . فألجأوه لبيعتهم وأكرهوه مع غيره عليها . وكانوا يتلثمون ولا يبدون وجوههم فامتنع من البيعة فقال : لا نبايع من لا نعرف أهو رجل أم امرأةفكتشف له الميورقي وتأخر عن القضاء وبقيى على دراسة العلم واحتاج اليه الناس فى امر دينهم وكان يقول ــ اذا أشير اليه بالتفرد في العلم والتوحد فى الفهم (أدركت ببجاية سبعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن على المسيلي) انتهى باختصار من كتاب نيل الابتهاج . لأحمد بابا الالتنبكتى والمراد بالموارقة بنو غاينة المرابطون احتلوا جزيرة ميورقة هجموا على بجاية سنة 581 /1185 واحتلوها والناس في صلاة الجمعة .

جـ ــ عبد الحق البجائي : (514 ــ 1120/582 ــ 1186) .

هو عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الاشبيلي البجائي أبو محمد الخطيب ببجاية . فقيه محدث مشهور حافظ زاهد فاضل أديب شاعر . له تواليف حسان .

قاله الشبي الذي ترجم له في البغية وقال أيضا : «قرأت عليه بعضها (بعض تصانيفه) وناولني أكثرها» .

وكان رحمه الله متواضعا متقللا من الدنيا . وكان لا يدخل قال أيضا : «قرأت عليه بعضها (بعض تصانيفه) وناولني أكثرها» .

وكان رحمه الله متواضعا متقللا من الدنيا . وكان لا يدخل بجاية أحد من الطلبة الا سأل عنه ومشى اليه وآنسه بما يقدر عليه يقول الضبي : «صحبته مدة مقامي ببجاية وسامرته» .

ويقول ابن الزبير في صلة الصلة : كان رحمه الله من أهل العلم والعمل ... عاكفا على الأشتغال بالعلم جادا في نشره واذاعته وكان شاعرا مطبوعا يزاحم فحول الشعراء ... اقتصر على باب الزهد وما يرجع اليه ــ ومن شعره قوله :

يا آمن الساحـــــة لا يذعـــــــر	بيـــن يديك الفـــــزع الأكبــــر
وهـــذه النـــفس لهـــا حاجـــة	والعمـــر عن تحصيلهـــا يقصر
وبيـــن أطبـــاق الثـــرى منـــزل	ينزلـــه الأعظـــم والأحقـــر
يتـــرك ذو الفخـــر به فخـــره	وصاحب الكبـــر به يصغـــر

هـ المنقول

د ــ محمد بن الحسين الأنصاري : (توفي سنة 1126/520) .

أب بكر محمد بن الحسين الأنصاري الميورقي يقول ابن الأبار في العجم : رحل حاجا فسمع بالاسكندرية من أبي عبد الله الرازي وأبي بكر الطرطوشي وبمكة من أبي الفتح البيضاوي وأبي نصر النهاوندي . وعاد الى الأندلس فحدث بغير بلد منها بتجوله وأخذ عنه الناس . وامتحن بالقبض عليه مع أبي الحكم بن برجان وأبي العباس بن العريف . وتخلص دونهما . فقصد المشرق ثانية وأقام بمدينة بجاية برهة في هربه من المغرب . وحدث بها سنة 537 هـ . ومن الآخذين عليه في بجاية عبد الحق البجائي .

هـ ــ أبو القاسم البسكري : (403 ــ 1012/465 ــ 1072) .

الشيخ أبو القاسم بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل الهذلي المغربي البسكري . أخذ العلم عن مشيخة بلده . ثم رحل لطلب العلم سنة خمس وعشرين وأربعمائة فطوف في مشارق الأرض ومغاربها فقرأ على مشايخ أصبهان منهم الحافظ أبو نعيم أحمد عبد الله الأصبهاني وغيره ودخل بغداد فقرأ بها على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي وحضر بنيسابور سنة ثمان وخمسين دروس أبي القاسم القشيري في الأصول وأبي بكر بن منصور وغيرهما قال عنه ابن الجزري : لا أعلم أحد في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ولقي من لقي من الشيوخ . له كتاب الكامل في القراءات . قال : ألفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت فيه مصنفاتي كـ «الوجيز الهادي» .

و ــ ابن الرمامة : (478 ــ 1085/567 ــ 1171) .

محمد بن علي بن جعفر بن أحمد بن محمد القيسي أبو عبد الله المعروف بابن الرمامة ــ فقيه من القضاة . ولد بقلعة بني حماد روي عن أبي الفضل ابن الفحوي بالقلعة وتفقه عليه . وأخذ عن أبي اسحاق ابراهيم بن حماد وخاله أبي الحسين علي بن طاهر بمدينة الجزائر . وأبي حفص التوزري ببجاية وغيرهم . ورحل الى الأندلس طالبا للعلم فلقي أبا محمد ابن عتّاب وأبا الوليد بن رشد وأبا بحر الأسدي فحمل عنهم وسمع منهم ثم انتقل الى مدينة فاس بالمغرب وولي قضاءها سنة 1143/536 وحدث بها ودرس وأخذ الناس عنه . وكان فقيها عاكفا على كتاب أبي حامد الغزالي الموسوم بـ «البسيط» . أخذ عنه أبو ذر الخشني وأبو القاسم ابن بقي وأبو الحسن بن المفضل .

له من الكتب : تسهيل المطلب في تحصيل المذهب والتقصي عن فوائد التقصي والتبيين في شرح التلقين .

ز ــ أبو عمار عبد الكافي : القرن السادس الهجري توفي قبل 1174/570 ــ 1175 .

حيــاتـــه :

هو أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي من تناوت . وهي قرية من قرى وارجلان في سدراتة العاصمة الأباضية بعد تاهرت الواقعة جنوبي بلاد الجزائر .

يرى المستشرق ليفيسكي أن أبا عمار أكثر مؤلفي الأباضية علما ولا يعلم شيء ذو بال عن نشأته . وغاية ما يعلم عنه أنه نشأ في وارجلان في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي وكانت وارجلان في ذلك العصر مزدهرة في ميدان المعارف الدينية وغير الدينية ، أخذ العلم في تلك المدينة عن أستاذه الكبير المتكلم الأباضي أبي يعقوب يوسف الوارجلاني وبعدما روى من معارف شيخه أبي يعقوب ارتحل الى تونس ودرس هناك عن أساتذة كثيرين وكانت تونس في عهد الموحدين في غاية من النشاط العلمي والثقافي . أخذ علوم اللسان العربي وآدابه والعلوم الاسلامية المختلفة . وكانت أسرة أبي عمار ذات ثراء وغنى . ويذكر الدرجيني أن سبب سفره الى تونس التي أقام بها أعواما للدراسة يعود الى أمرين : الأول : ابتعاده عن شواغل الأهل . والثاني : أنه أراد اصلاح لسانه وتقوية ملكه في اللسان العربي بالابتعاد عن اللسان البربري الذي كان يتحدث به أهل بلده في وارجلان . والواقع أن كتابه الموجز يشهد له بقوة الأسلوب وجزالته وصفاء عربيته ومكانة ألفاظها ودقة دلالتها على معانيها .

مؤلفاتــه :

يعتبر أبو عمار من الذين أحيوا المذهب الأباضي تأليفا وتعليما وهو من أعظم مؤلفي الأباضية مقدرة على الجدل والنظر وأكثرهم عمقا في التفكير وتنظيما للمذهب في نسق عقلي دقيق متماسك .

وهو لا يقل عن متكلمي المعتزلة والأشاعرة والشيعة مقدرة على التأليف واحاطة بالمذهب ودفاعا عنه ونصرة له . ينسب الى أبي عمار أنه ألف كتاب الاستطاعة ــ وقد أشار في آخر كتابه الموجز الى أن الاستطاعة تستحق أن يفرد لها كتاب وأغلب الظن أن كتاب الاستطاعة مفقود .

ويعزو له البدر الشماخي كتاب شرح الجهالات الذي يوجد نسخة منه مخطوطة في دار الكتب المصرية خطها ردىء جدا وبها شطب ولا تكاد تقرأ وهذا الكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة في العقائد وغيرها على طريقة المذهب الأباضي .

وينسب الى أبي عمار أيضا ثبت بأسماء شيوخ الأباضية وتراجمهم ويعتبره صاحب كتاب الأباضية في موكب التاريخ من مؤرخي الأباضية ومن أهم مؤلفات أبي عمار كتاب الموجز في علم الكلام . نسبه اليه البدر الشماخي في السير حيث وصف أبا عمار بأنه آية في علم الكلام . وبأنه ألف فيه : الموجز في الرد على كل من خالف الحق في جزءين كما نسبه اليه الدرجيني (1271/670) في طبقاته فقال : «وهو الذي أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحاضرين والآتين» .

ونقل عنه عبد العزيز المصعبي اليسجني في كتابة : معالم الدين ونسبه اليه أيضا ابراهيم أبو اليقظان في كتابة المخطوط «الأباضية في شمال افريقية» عند ترجمته له فقال : صاحب كتاب الموجز في علم الكلام في جزئين ناقش فيه فرق المذاهب الاسلامية وشبهها وحاج فيه كثيرا من الدهريين وناقشتهم في سائر مقالاتهم الزائفة المحرفة بحججه الدامغة وبأسلوبه الرشيق الحكيم . اقتبسنا جل هذه المعلومات التي ذكرناها عن أبي عمار عبد الكافي من كتاب الدكتور عمار طالبي الذي عنوانه «آراء الخوارج الكلامية الموجز لأبي عمار عبد الكافي الأباضي» .

ح ـ البـوني : (522 ـ 1128/622 ـ 1225) .

أحمد بن علي بن يوسف تقي الدين أبو العباس البوني صوفي من أشهر المصنفين العرب في العلوم الخفية . وكان اماما متصوفا فلكيا رياضيا ألف تصانيف عديدة في علم أسرار الحروف والأسماء وغير ذلك . وكتبه لا تزال مستعملة حتى اليوم لدى المشتغلين بالسحر والطلسمات . رحل الى المشرق واستقر بالقاهرة الى أن توفي . تدل تصانيفه على خصوبة في الانتاج ونضج في التفكير وتبحر في الدراية . وكان سلوكه متحليا بالاستقامة والورع والصلاح وخشية الله تعالى . وقد انتشر صيته في مشارق الأرض ومغاربها وكان مدينا بشهرته لفضله وسعة علمه . وكان معنيا في انتاجه الخصب بالاحاطة والشمول في عرض المسائل وتفسيرها والاستقصاء في توضيحها وذكر الدقائق والتفاصيل . وكان معنيا أيضا بتجويد الصياغة والتأنق في العبارة . وكثيرا ما كان يستخدم السجع بحظ وافر من البراعة والتوفيق ولم يأل جهدا في اسداء النصائح لقارىء كتابه شمس المعارف حتى لا تكن قراءته مدعاة لمعصية الله . ويبدو أن أكبر كتبه هو كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف في علم السيمياء .

ومما يدل على المكانة السامية التي احتلها البوني بعصاميته بين العلماء والمفكرين في القديم اقتران اسمه في بحوث أشهر الدارسين بأسماء لامعة في سماء العلم والفكر والتصوف .

ذكر ابن خلدون في مقدمته في فصل واحد منها ثلاث مرات بصدد حديثه عن علم أسرار الحروف .

من تصانيفه : قوت الأرواح ومفتاح الأفراح ــ كتاب الحروف والعدد وخواصمها ــ المشهد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى مواقف الغايات في أسرار الرياضات . رتب فيه أطوار الرياضات على ثلاثة أقسام . الأول : رياضات السالكين . الثاني : رياضات المريدين ، الثالث : رياضات العارفين .

4 ــ النحـو واللغـة :

ومن العلماء الذين اهتموا بالنحو واللغة أبو القاسم يوسف البسكري وقد ذكرناه في باب العلوم الدينية ويحيى بن عبد المعطي التحوي برع في علم اللغة زيادة على العلوم الدينية وعبد الحق البجائي الذي ألف كتابا في اللغة عنوانه «الواعي» .

ومن العلماء الذين اهتموا باللغة والنحو أبو علي الحسن بن علي بن طريف النحوي التاهرتي . تخرج على أئمة علماء الأندلس وكبار أساتذتها في القرن الرابع الهجري . يقول عنه القاضي عياض المغربي أبو الفضل في كتاب الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) : «شيخ بلدنا في النحو مشهور بالصلاح وله سماع من الفقيه حجاج بن المأمون والفقيه بن سعدون والفقيه مروان بن عبد الملك والقاضي ابن سهل وأبي محمد بن أبي قحافة . وأخذ عن أبي تمام القطيني وغيره بالأندلس . وسمع أخيرا من شيخنا القاضي أبي علي والقاضي أبي عبد الله بن عيسى وغيرهما . ودرس عمره النحو ببلده . وأخذ عنه جماعة من شيوخنا . وتوفي رحمة الله عليه تاسع ذى الحجة في سنة احدى وخمسمائة ــ درست عليه كثيرا من كتب الأدب والنحو وقرأت عليه كتاب «علوم الحديث» للحاكم أبي عبد الله حدثني به عن الفقيه ابن سعدون عن أبي بكر المطوعي عن الحاكم وقد ذكرته قبل . وحدثني أيضا بكتاب «مشكل الحديث» للامام أبي بكر ابن فورك . عن الفقيه حجاج بن قاسم المأموني عن أبي بكر المطوعي عن أبي بكر بن فورك . وقرأت عليه كثيرا من كتب النحو والأدب : «الجمل» لأبي القاسم اسحاق الزجاجي . و «الواضح» للزبيدي و «الكافي» لأبي جعفر النحاس . وكثيرا من كتاب «المقتضب» للمبرد . وكتاب «آداب الكاتب» لابن قتيبة و «الايضاح» للفارسي وكتاب «فصيح الكلام» لثعلب . وقرأت عليه أكثر كتاب «الأمالي» لأبي علي (القالي) . وسمعت عليه كثيرا من «الكامل» للمبرد . وغير ذلك ...» .

ويقول الدكتور يحيى بوعزيز في مجلة الأصالة عدد 19 للتعريف بيحيى بن عبد المعطي النحوي ما نصه : «وفي ميدان النحو وقواعد اللغة برز يحيى بن عبد المعطي النحوي . وهو من قرى جبال جرجرة وقد رحل الى المشرق . وولاه الملك المعظم شؤون جامع دمشق ثم طلب منه الملك الكامل بمصر ليقوم بالتدريس هناك . فالتحق بها واعتكف على القاء الدروس . وتخرج على يديه عدد من رجال الثقافة . ويشتهر بمؤلفاته الكثيرة . أشهرها «الفيته في النخو» وقواعد اللغة التي شرحها عدد من العلماء . وله الى جانبها عدد من الكتب والشرح

مثل : « الفصول والعقود والقوانين » في النحو و « حواشي على أصول ابن السراج » في النحو . و « شرح على كتاب الجمل » للزجاجي في النحو . ومنظومات أخرى في اللغة والعروض والحديث . كلها تعتبر ذخرا ورصيدا في التراث الفكري العربي .

وقد توفي ابن معطي عام 1231 م/628 هـ وعلى غراري فعل ابن مالك النحوي الأندلسي تقليدا له . فوضع ألفية في النحو .

أما أبو الحسن الأشوني الجزائري فقد كان من النحاة وقد تحدثنا عنه سابقا كشاعر (ق) .

5 ـ التاريخ :

من أشهر المؤرخين في عهد بني حماد أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني . (ت 471/1078 ـ 79) لم يرد في كتب التراجم القديمة غير الأباضية ذكر لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني . أما كتب التراجم الأباضية التي عرضت لسيرته فهي تعود كلها الى أصل واحد وهو طبقات أبي العباس الدرجيني المتوفي سنة 670/1271 ـ 1272 .

وقد وضع الدرجيني أبا زكريا يحيى ضمن علماء الطبقة العاشرة (450 ـ 500/1058 ـ 1106 ـ 1107) يقول في كتاب طبقات المشائخ بالمغرب : « ومنهم أبو زكريا يحيى بن أبي بكر وأخوه أبو يحيى زكريا ـ رحمهما الله ـ كانا من الأفاضل المقتفين آثار الأوائل . لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية . وطرق البر ناهجة والصلاحية . وطلب علوم المذهب وسير من تنسك أو ترهب . ولهما في العلوم النظر أطول باع بأدبه ذات اقناع وحجج تملأ القلوب والأسماع . وتغنى عند المحاضرة ما لا تغني المشرفية عند القراع فكانا مراد الفارين على تباعد الدارين » . ألف أبو زكرياء يحيى تصنيفه الشهير الموسوم بـ « كتاب سير الأئمة وأخبارهم » . يعرفنا المؤلف فيه بعدد من مراكز اشعاع المذهب الأباضي مثل قنطارة وقفصة ووارجلان وتاهرت وما جرى فيها من نشاط في التعليم والجدال والاجتهاد والافتاء وما أشبه ذلك . ويترجم في مؤلفه لعدد من أئمة المذهب ومشايخه . ويذكر أعمالهم وفضلهم وتقشفهم وورعهم وحرصهم الشديد على العدل والتمسك بشعائر الدين الحنيف . وهو في ذلك يتحدث عن شخصيات معاصرة له أو قريبة العهد به . وهو جدير بأن نثف بما يرويه من للأخبار عن قوم هو منهم ونيته الخالصة أن يسجل سير مشائخ أباضيين ليكونوا خير قدوة للناس .

والحاصل أن كتاب سير الأئمة لا يستغنى عنه في التعريف بالعالم الأباضي بشكل عام . وبالأوساط الأباضية في المغرب بشكل خاص .

وكتاب سير الأئمة وأخبارهم في طبعته الأخيرة بتحقيق الدكتور اسماعيل العربي المنشور بالجزائر 1979 يحقق وينشر بالعربية لأول مرة على الرغم من مضي أكثر من تسعة قرون على تأليفه . ولكنه مع ذلك معروف لدى القدماء والمحدثين من الدارسين لشؤون الأباضيين الدينية والسياسية . فان المستشرق الألماني ادوارد ساخا و (واخاو) يخبرنا أن الكتاب قد اعتمده المشارقة مصدرا للأخبار ذات الصلة بأباضية المغرب . وكان كتاب السير المصدر الأساسي (مع سير أبي الربيع الوسياني الذي هو تحت الطبع) الذي استقى منه الدرجيني مادة طبقاته (ولا سيما الجزء الأول منه الذي يشتمل على عشرات الصفحات الملخصة أو المقتبسة حرفيا من كتاب السير) . وكذلك استفاد منه ونقل كثير من روايات أبي زكريا أبو الربيع الوسياني الذي عاش في القرن السادس الهجري في سيره .

ويبدو أن البدر الشماخي لم يطلع على نص كتاب السير . ولكنه مع ذلك ينقل عنه كثيرا بواسطة طبقات الدرجيني . وقد استفاد منه كثيرا سليمان الباروني في كتابه الأزهار الرياضية الذي أرّخ فيه لتاهرت وللأئمة الرستميين . وكتاب أبي زكريا هو المصدر الأباضي الأول والوحيد الذي يمكن بواسطته وضع صورة متكاملة الجوانب للدولة الرستمية . وهو أيضا من المصادر التي لا يمكن كتابة تاريخ المغرب دون الاستعانة بها . وفعلا فان المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا عن المغرب منذ ترجمة كتاب السير الى اللغة الفرنسية بعنوان : «تاريخ أبي زكريا» سنة 1878 م بقلم ماسكراي انما أخذوا مادتهم الأساسية عن تاريخ تاهرت من هذا الكتاب . ومما ينبغي أن يعنى به الدارس أن يقارن بين رواية أبي زكريا يحيى الأباضي وبين رواية ابن الصغير المالكي مؤلف رسالة «ذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستميين» .

6 ـــ الطـــب :

من بين الأطباء الذين ذاع صيتهم في العصر الحمادي ابن المليح الطبيب وعلي بن الطبيب وابن البذوخ القلعي . وقد سبق ذكرهم عند حديثنا عن الشعراء .

الفصل السادس

الحياة الفنية

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

ان نشاطا كبيرا قد بذل في ميدان الفنون ليس فقط في مدن المملكة الحمادية مثل قلعة بني حماد وبجاية وقسنطينة . بل حتى في المدن التي أستولى عليها مؤقتا بنو زيري مثل عنابة وسيدي عقبة . وقد أدى هذا النشاط الى تشييد عدة أبنية عسكرية ودينية ومدنية . كما نتج عن ذالك عدة إنجازات ذات منفعة عمومية وصنع تحف شتى اكتشفت اثناء حفائر أثرية .

1 ـــ الفن المعماري العسكري :

أما في ميدان الفن المعماري العسكري فإن المباني الحمادية تشمل الأسوار المحيطة بالمدن وشوف الرياض في بجاية وسور وبرج المنار قلعة بني حماد . أمّا سمك سور بجاية فهو يتراوح بين 1,70 متر ومترين ونصف وعلوه يسمو الى ما بين 4 أمتار و 6 أمتار أما الواجهة الممتدة على طول الساحل فقد فتح في جدارها باب يدعى باب البحر ويؤدي الى سفن المرفإ . وما يزال يثير العجب بمنظره حتى في هذه الأيام أمّا شوف الرياض أو موصد الأجنة فقد كان يحرس أبواب المدينة الثلاثة التي منها باب البنود في قسمه الأعلى جهاز ذو مرايًا تمكن من الاتصال بأبراج مبنية في المدن الرئيسية من المملكة الحمادية وكانت الأضواء تستعمل ليلًا . ولأجل ذلك سمي هذا البناء بالمنار .

ان سور قلعة بني حماد يمتد على محيط طوله سبعة كم وهو مبنى باحجار وفتح فيه ثلاثة أبواب لم يبق منها الا واحد وهو باب الأقواس . ولقصر المنار قاعدة طول ضلعها 20 مترا زينت واجهاته بمشاكيها نصف دائرية القعر وللقصر قاعتان احداهما فوق الأخرى .

القاعدة السفلى مستطيلة كانت سجنًا أو دكانا والقاعة الأخرى على شكل صليب توجت بقبة .

أ) العمارة الدينية :

بنى بنو حماد مساجد في بجاية وسلالة وقلعة بني حماد وقسنطينة ان مساجد بجاية وسلالة قد محاها الزمن من الوجود . وقد بقي في قلعة بني حماد أطلال المسجد الجامع الكبير وأنقاض مسجد صغير متصل بقصر المنار .

ان ثلاث حملات من الحفريات كانت ضرورية للكشف عن المسجد الكبير الذي مئذنته كانت وحدها بادية للعيان وهو بناية ذات شكل مستطيل طولها 63,20 متراً وعرضها 53,20 متراً ستشتمل على بيت الولاة وفناء لم يبقَ منه الّا قواعد الجدران والسواري وتستلفت مئذنتها الأنظار لارتفاعها الى عنان السماء بعلو 24,70 متراً وطول ضلع قاعدتها 6,50 أمتار ويختص الوجه الجنوبي منها بنقوش عليه ذات ثلاثة ألواح عمودية .

ان اللوحة المركزية تشتمل فوق مدخل البناية على لوحة من حجر منحوت وعلى حتية ذات خميسة فصوص منضدة . أمّا اللوحتان الجانبيتان فكل واحدة منهما مجهزة بمشكاة ذات قعر نصف أسطواني فوقها مشكاتان ذواتا قعر مسطح .

ان مسجد قصر المنار الذي أخرجناه الى النور في شهر سبتمبر 1968 طوله 160 متر وعرضه 120 متر يزينه محراب ذو حصيصة تتمثل في قوسه المتحفي والذي يذكر بقوس قبّة الصخرة ببيتِ المقدس وأخدوده وشريطه المضفر وكتاباته المتشابكة المزينة بآيات قرآنية .

أمّا الجامع الكبير القسنطيني فقد بني في عهد يحيى بن العزيز سنة 1135/530 كما تدل على ذلك الكتابة التي تزين داخل المحراب .

شيد هذا المسجد بأعمدة وتيجان أخذت من المباني العتيقة . ويمتاز بمحرابه المكلل بقبيبة نصفية مخددة وحنيته وحافته المستطيلة المزينة بكتابات كوفية مشبكة وبقسمه العلوي المؤثث بزجاجية حولها عناصر هندسية وأقواس مطلية الفصوص . كما يمتاز بنوافذه المخرمة وأبوابه الأربعة المصنوعة من الخشب المنقوش والمزخرفة بعناصر هندسية ونباتية بجانب المساجد التي بناها بنو حماد مسجد آخر بناه في ذلك العصر الأمير الزيري المعز في عنابة وهو مسجد سيدي أبي مروان .

وبقي هذا المسجد محتفظًا بمظهره الجميل جدا عند غزو فرنسا للجزائر ان الرسوم الحجرية المعزوة للوسور وويلد ورسوم بير بروجر تمكننا من أن نتصور كيف كان المسجد قبل تحويله الى مستشفى وقبل بناء طابق أول فوق بيت الصلاة ان القبتين اللتين كانتا تعلوان طرفي

اللاطة الوسطى فقدتا . ولكننا احتفظنا بمجموعة غنية من رؤوس السوارى الاسلامية والقسم الأسفل من المئذنة الزيرية الذي له قيمة كبيرة حيث أننا في استطاعتنا أن نرى في ذلك بيتًا للصلاة مزيناً بمحراب له شبه بمحراب برج خلف في سوسة بني في العصر نفسه وكذلك باب ضريح سيدي عقبة فان تاريخ بنائه يرجع الى عصر المعز . ويغرى عدد كبير من الناس بزيارته فهو مزين برسوم هندسية وغصون ملتوية وأوراق منقوشة بدقة كبيرة تجعله يعتبر من روائع النقش الخشبي .

ب) العمارة المدنية :

بنى بنو حماد عدة قصور في بجاية وقلعة بني حماد لم يكد يبقى شيء من قصر اللؤلؤة وقصر أميمون . وقصر الكوكب ــ هذه القصور التي يتحدث عنها المؤرخون والتي وصفها ابن حمديس في أشعره .

يتغنى ابن حمديس بجمال قصر المنصور الذي لا نظير له وبارتفاعه وباستقبال الضيوف ويقول عنه :

قصر لو أنك قد كحلت بنوره — أعمى لعاد الى المقام بصيرًا
نسير الصبيح مع المليح بذكره — وسما ففاق خورنقا وسريرًا

ويقول :

فاذا نظرت الى مراتب ملكه — وبدت اليك شواهد البرهان
أوجبت للمنصور سابقه العلى — وعدلت عن كسرى أبو شروان

ويقول :

واذا الولائد فتحت أبوابه — جعلت ترحب بالعفاة صريرًا

ثم يصف الشاعر الأبواب والصحون والشرفات ويصف براعة رجل الفن الحماديين :

عضت على حلقاتهن ضراغم — فغرت بها أفواهها تكشيرًا
ومصفح الأبواب تبرا نظروا — بالنقش بين شكوله تنظيرًا
تبدو مسامير النضار كما علت — فلك النهود من الحسان صدورا
بمرخم الساحات تحسب أنه — فرش المها وتوشح الكافورا
واذا نظرت الى غرائب سقفه — أبصرت روضا في السماء نضيرا
وضعت به صناعة أقلامها — فارتك كل طريدة تصويرا

ثم أقبل ابن حمديس على وصف رياض في وسطها بركة تحيط بها تماثيل ضراغم يسيل الماء من أفواهها فقال :

وضراغم سكنت عرين رئاسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها	وأذاب في أفواهها البلورا

اكتشف علماء الآثار في قلعة بني حماد ثلاثة قصور قصر المنار قصر البحر وقصر السلام .

يتألف قصر المنار من عدة أبنية بعضها بجانب بعض . في البناء الأوسط باب بارز مزين بمشاك نصف دائرية القعر وواجهة مزينة بست مشاك مسطحة القعر على كل جانب من الباب ثلاث مشاك .

عند دخولنا القصر نجد سلما على اليسار كان يؤدي الى قاعات الطابق الأول . وعلى اليمين ممر يؤدي الى صحن مربع يحيط به من جهاته الأربع رواق حوله قاعات مختلفة الشكل وكان الصحن مفروشا ببلاط أبيض والأروقة بآجر أحمر . لم يبق من البناء الشرقي الا قاعة مفروشة بالرخام تطل على ودي فرج .

أما البناء الغربي فيتكون من صحن مربع منقوش ببلاط أبيض مازلنا نشاهد آثاره . وفي وسطه حوض من الحجر رائع الجمال مزين بأربعة أسود . وحول الصحن رواق مفروش بقطع خزفية بيضاء وخضراء حيث تتناوب المربعات مع المضلعات السداسية الأضلاع . ومن الجهات الغربية والشمالية والجنوبية تحيط بالرواق قاعات مختلفة الشكل من بينها المسجد الصغير الذي سبق ذكره . والقاعة الشرفية للقصر . يبلغ طول هذه القاعة 13,5 م وعرضها 5,95 م وهي مفروشة بقطع من الخزف بيضاء وخضراء تحتوي على قسمين بينهما درجة يساوي ارتفاعها سبعة سم على حافتها عمودان ويحتوي كل عمود على قاعدة مزينة بقولبات وجذع يبلغ ارتفاعه 3,71 مكون من ثلاث قطع وتاج من الحجر المنقوش رائع الجمال يحتوي على طوق مزين بزوايا حمراء وزرقاء وعلى صفين من أوراق الأكنتس وعلى صفين من المحالق ووسادة .

وكانت جدران بيت الصلاة مزينة بزخرفة غنية ما زالت تظهر آثارها والجدار الشمالي الذي وصل الينا في حالة أحسن من غيره كان يحتوي على ألواح مستطيلة من الرخام فوقها شريط مزين بعناصر هندسية منقوشة في الحجر وطنف من الرخام محلى بعناصر نباتية ، ولوحة جصية مزينة بزخارف ملونة هذا ما يخص البناء الغربي أما البناء الشمالي فلم ينته اكتشافه وتحتوي القاعات التي عثر عليها على ثلاث مجموعات ذات اتجاهات مختلفة .

وقصر البحر الذي لم نكتشف منه الا القسم الشرقي والحوض الكبير يتكون من واجهة مزينة بمشاك مسطحة القعر على يسار الباب ونصف دائرية القعر على يمينه . ومن باب بارز طلبي الشكل وصفين من القاعات المستطيلة متجهة من الجنوب الى الشمال ورواق مفروش

بالآجر الأحمر يحيط بالحوض الكبير الذي كانت تلعب فيه الزوارق حسبما ذكره صاحب «كتاب الاستبصار» .

أما قصر السلام فيتكون من صحن مربع طول ضلعه 15 م يحيط به أربع غرف وحجر صغيرة مختلفة .

ج) الأشغال العمومية :

احتفظت قلعة بني حماد بآثار جباب وأحواض وجسرين الجباب في صحن الجامع الكبير وقصر البحر وبجانب قصر المنار ان الجب الأول مستطيل الشكل يبلغ طوله 11,75 م وعرضه 5,80 م وعمقه 2,80 متر . ويحتوي الجب الثاني على حوض أسطواني الشكل يبلغ قطره الداخلي 11,85 م وثلاث غرف مغطاة بقبو مهدي الشكل كانت تزود بالمياه بواسطة قناة واقعة تحت الأرض أما الجب الثالث فيشتمل على حوضين متوازيين يبلغ طولهما 13,85 م وعرضهما 3,50 م وعمقهما 2,50 م بينهما جدار يبلغ سمكه مترا واحدا ويبلغ عدد الأحواض ثلاثة : يقع حوضان بالقرب من قصر المنار والثالث في القسم الجنوبي للمدينة .

الحوض العلوي لقصر المنار مستطيل ، ويبلغ طوله 4,90 م وعرضه 1,30 م وعمقه 4,90 م والحوض السفلي مربع يبلغ طول ضلعه 6,65 م تزين داخله مشاك نصف سطوانية الشكل أما الحوض الثالث فمستطيل الشكل يساوي طوله 12 م وعرضه 6 م وعمقه مترا واحدا . وجدرانه محصنة بدعائم نصف أسطوانية الشكل يساوي قطرها مترا واحدا .

احتفظنا بآثار جسرين احدهما في القسم الغربي للمدينة فوق الوادي الموجود بين جبل قرين وقصر السلام .

والآخر المدعو جسر سيدي عيسى ، جنوبي المدينة .

5) التحف التي تم العثور عليها أثناء الحفريات التي قام بول بلانشي بين 15 و 25 أفريل 1897 والقائد دوبيلي عام 1908 ، والأستاذ لوسيان قولفان بين سنة 1950 و 1956 ثم من 1960 الى 1962 والأستاذ رشيد بورويبة بين 1964 — 1972 عثر على تحف مختلفة معروضة بمتحف قسنطينة ومتحف سطيف ومتحف الآثار بالعاصمة ، وبمتحف قلعة بني حماد .

نذكر من بين هذه التحف أسود من رخام أو حجر ، وأعمدة من حجر أو من رخام وتيجان أعمدة منقوشة في الحجر والرخام والآجر والجص وشواهد قبور وأحواض من حجر وقطع من الفخار ونقودا فاطمية وموحدية وصنوجا وحليا من أنواع شتى .

أهم الأحداث التي وقعت في العالم في عهد بني حماد

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
1018/408 حماد بن بلقين أمير مستقل المغرب الأوسط					
				/1020/411 1021 بداية خلافة الطاهر	
	/1021/412 1022 وفاة القزاز				
			1027/418 يؤلف ابن حزم طوق الحمامة		
	/1022/413 1023 وفاة محرن بن خلف				
1029/415 زواج عبد الله ابن حماد بأم العلو أخت المعز					
			1029/420 سقوط الدولة الأموية بالأندلس وبداية فترة ملوك الطوائف		
	1027/418 وفاة الرقيق				
					1031/422 فتح مدينة مرو على يد السلجوقيين
1029/419 وفاة حماد وولاية القائد					
	1035/426 وفاة ابن أبي رجال			1036/427 بداية الخلافة المستنصر	
			1038/429 وفاة ابن سينا		
	/1039/430 1040 وفاة ابن عمران الفاسي				

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
/1054/446 1055 وفاة القائد وتولية محسن	1040/432 1041 وفاة أبي بكر بن عبد الرحمن			/1048/440 1049 وفاة البيروني	
1055/447 وفاة محسن وتولية بلقين ابن محمد	/1051/443 1052 بداية الزحف الهلالي ومعركة حيدران		1064/456 وفاة ابن جزم	1055/447 وصول السلجوقيين الى بغداد	
/1058/450 1057 وصول ممثل الخليفة الى قلعة بني حماد	1065/457 معركة سبيبة	1060/452 تأسيس مدينة مراكش	1066/458 وفاة ابن سيدا	1058/450 وفاة أبي العلا المعري	
1062/454 توليت الناصر بن علناس		1062/454 غزو بلقين بن محمد للمغرب الاقصى ومقتل	1068/460 وفاة ابن شرف	1060/452 وفاة ناصر خمرو	1060/452 بداية فتح صقلية وانكلترا من طرف النورمان
1068/460 تأسيس مدينة بجاية		1067/459 فتح فاس من طرف يوسف بن تاشفين			1064/456 وفاة ابن رشيق 1073/465 بداية عهد البابا غريغوار السابع

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الأندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
			/1076/469 1077 وفاة ابن حيان	1076/468 بداية تشييد قلعة دمشق	1075/468 فتح غانة من طرف المرابطين
	/1087/480 1088 هجوم أهل بيزا وجنوى على المهدية		/1078/471 1079 وصول ابن حمدين		1088/481 تأسيس جامعة بولونيا بإطاليا
/1088/481 1089 وفاة الناصر وتولية المنصور			/1086/479 1087 معركة الزلاقة	1088/481 تأسيس المسجد السلجوقي بأصفهان	1091/484 يحتل النورمان صقلية
			/1088/481 1087 يغزو يوسف بن تاشفيم الأندلس للمرة الثانية	1092/485 وفاة مالك شاه	
				1093/486 الفرج الشيرازي	
				1094/487 وفاة الوزير بدر الجمالي	1099/492 سقوط القدس بين أيدي الصليبيين
1016/409 تأسيس المسجد الكبير بالجزائر			/1090/483 1091 يغزو يوسف بن تاشفين الأندلس للمرة الثالثة		1100/494 وفاة روجار الأول وتولية روجار الثاني
			1092/485 خوض الأندلس للسلطة المرابطة		
			1094/487 وفاة البكري		

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
1103/496 فتح تلمسان على يد المنصور	**1108/501** وفاة تميم وتوليه يحي				
1105/498 وفاة المنصور وتوليه باديس ووفاة باديس وتوليه العزيز	**/1115/509** **1116** وفاة يحيى وتوليه علي	**/1106/500** **1107** وفاة يوسف بن تاشفين			
1117/511. إقامة ابن تومرت ببجاية وملالة واتصاله بعبد المؤمن	**1121/515** وفاة علي وتوليه الحسن		**1125/519** وفاة ابن زهر		
				1126/520 وفاة عمر خيام	
1121/515 وفاة العزيز وتوليه يحيى	**1128/522** هجوم حمادي على المهدية	**1121/515** ثورة ابن تومرت			**1127/521** تغادر دولة سونغ الصين الشمالية وتستقر بنانكير
		1129/524 وفاة المهدي ابن تومرت وبداية خلافة عبد المؤمن			
1136/530 تأسيس المسجد الكبير بقسنطينة والمسجد الكبير بتلمسان	**1135/529** وفاة ابن أبي صلت وهجوم حمادي ثان على المهدية				

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
1143/537 هجوم صقلي على جيجل وبرشك		/1142/537 1143 وفاة علي بن يوسف	1139/533 وفاة ابن خفاجة وابن باجة		1131/535 تأسيس معبد القصر ببالرمو
	/1146/541 1147 فتح طرابلس من طرف النورمان		1145/539 1146 نهاية الدولة المرابطة		
	/1148/543 1149 فتح المهدية من طرف النورمان ونهاية الدولة الزيرية .	/1148/543 1149 وفاة القاضي عياض	1145/540 مولد ابن جبير	1144/538 وفاة الزمخشري	
/1152/547 1153 فتح المملكة الحمادية على يد عبد المؤمن			/1146/541 1147 خضوع اشبيلية للموحدين		/1153/548 1154 وفاة روجار الثاني وتوليه فيوم ونهاية تأليف كتاب الادريسي
/1153/548 1154 معركة سطيف					

أهم المصادر والمراجع باللغة العربية

الخاصة بالباب الرابع

ـــ ابن أبي دينار ، **المؤنس في أخبار افريقيا وتونس** ، تونس 1967 .

ـــ ابن أبي زرع الفاسي ، **كتاب الأتيس المظرب بروض القرطاس** ، فاس 1973 .

ـــ ابن بسام ، **الذخيرة في محاسن الجزيرة** ، القاهرة ، 1939 ـــ 1942 و 1945 .

ـــ ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، دار الكتاب العربي ، 1967/1387 .

ـــ ابن حماد ، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** ، الجزائر ، 1927 .

ـــ ابن حمديس ، **ديوان** ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية 1921 .

ـــ ابن الخطيب ، **(لسان الدين) كتاب أعمال الاعلام** ، تقديم رابح بونار ، الاصالة عدد خاص ببجاية .

ـــ ابن خلدون ، **كتاب العبر** ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1961 .

ـــ ابن خلكان ، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان** ، القاهرة 1948 .

ـــ ابن رشيق ، **ديوان** ، دار الثقافة ، بيروت .

ـــ ابن رشيق ، **العمدة في صناعة الشعر** ، القاهرة 1925 .

ـــ ابن عفاري المراكشي ، **البيان المغرب في أخبار المغرب** مكتبة صادر ببيروت 1950

ـــ ابن القطان ، **كتاب نظم الجمان المطبعة المهدية** ، تيطوان .

ـــ الادريسي (الشريف) **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** الجزائر 1957/1376 .

ـــ البكري ، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** باريس 1968 .

— بورويبة (رشيد) **الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها** الجزائر 1977/1397 .

— البيذق (أبو بكر الصنهاجي) **كتاب أخبار المهدي ابن تومرت إعتنى بنشره في بروفنسال** ، باريس 1928 وعبد الحميد حاجيات الجزائر 1974/1394 .

— التجاني ، **رحلة** ، المطبعة الرسمية ، تونس 1908 .

— العماد الأصفهاني ، **جريدة القصر وجريدة العصر** دار النهضة مصر للطبع والنشر ، النجالة مصر .

— الغبريني ، **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية** الجزائر 1389 — 1970 .

— **كتاب الاستبصار في عجائب الأبصار** ، فينا 1852 .

— المراكشي ، (عبد الواحد) **المعجب في تخليص أخبار المغرب** القاهرة 1948/1368 .

— ياقوت ، **معجم البلدان** ، القاهرة .

أهم المراجع باللغة الفرنسية
الخاصة بالباب الرابع

L. de Beylie, La Kala des Béni Hammad, Paris 1909.

R. Bourouiba, L'art religieux musulman en Algérie, Alger, 1974.

Ferand, Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Constantine, 1869.

H.R. Idris, La Berbérie orientale sous les Zirides, Paris, 1962.

L. Galvin, Le Maghreb Central à l'époque des Zirides, Paris, 1957.

Recherches archéologiques à la Qal'a des Banû H'ammad, Paris 1965.

A. Lezira, Le minaret de la Qal'a des Bani H'ammad, Bulletin d'archéologie Algérienne, t. II, 1968.

G. Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1957.

الباب الخامس

الجزائر في عهد المرابطين والموحدين

الفصل الاول

تاريخ المغرب الاوسط السياسي في عهد المرابطين

د. عبد الحميد حاجيات

1) الأوضاع السياسية في المغرب الأسلامي قبيل ظهور المرابطين :

من أهم مميزات القرن الرابع الهجري ، بالنسبة للعالم الاسلامي ، تزايد ضعف الخلفاء العباسيين ببغداد ، وقيام دولة الفاطميين بإفريقية ومنافستهم للعباسيين في الخلافة ، وخصوصا بعد استيلائهم على مصر وعلى معظم أنحاء المغرب . وقد هب الأمويون ، أمراء الأندلس ، الى مساعدة القبائل المستقرة في المغربين الأقصى والأوسط ، وأغلبها من زناتة ، ومدّها بالأسلحة والأموال لرد هجمات الفاطميين وأنصارهم من صنهاجة . فأدى ذلك الى نشوب حروب طاحنة بين الفريقين تخللت القرن الرابع كله .

ومن أهم نتائج الحروب الطاحنة التي قامت بين الصناهجة وزناتة ، منذ أواخر عهد الفاطميين بإفريقية الى أوائل القرن الخامس الهجري ، نزوح عدد كبير من بني يفرن ومغراوة ، وغيرهم من قبائل زناتة . الى المغرب الأقصى ، بعد استيلاء صنهاجة على أراضيهم في المغرب الأوسط ، فأسسوا إمارات عرفت بعض الازدهار ، في المدن التجارية الكبرى ، مثل فاس وسلا وسجلماسة . وقد أدى ذلك النزوح الى ضعف الحركة التجارية بالمغرب الأوسط وتناقص النشاط التجاري الذي كان يربط تاهرت وتلمسان ببلاد السودان ، عبر سجلماسة والصحراء . أما الحركة التجارية التي كانت قائمة بالمغرب الأقصى ، وكانت تصل بين الأندلس وبلاد السودان ، فانها ازدادت أهمية لاستقرار عدد كبير من التجار وحراس التجارة من زناتة في المغرب الأقصى .

وكان أهالي الصحراء الغربية البدو يستفيدون أيضا من هذا النشاط التجاري ، إذ أن القوافل كانت تمر بمنطقتهم ، وكان يعهد إليهم بحراستها وإبلاغها الى أصحابها في النواحي

المجاورة لبلادهم . وأشهر قبائل الصحراء الغربية ، التي كانت تمارس هذا النشاط ، كدلة ولمتونة ، وكانت تنتمي الى مجموعة صنهاجة . وكان من شأن اتصال هؤلاء بتجار المناطق الشمالية ، واحتكاكهم بهم ، أن إعتنقوا الاسلام ، منذ القرن الثالث الهجري ، وساهموا ، بعد ذلك ، بنشره فيما جاورهم من بلاد السودان .

غير أن الأوضاع تغيرت في أوائل القرن الخامس الهجري . وذلك أن دولة الأمويين بالأندلس تعرضت الى أزمة سياسية خطيرة إنتهت بانقراضها سنة 1016/407 وقيام دويلات عديدة مكانها ، في مختلف مدن الأندلس ، فقل إهتمام الأندلسيين بشؤون المغرب . وفيما يخص بلاد إفريقية ، فإن دولة صنهاجة ، التي خلفت الفاطميين بها ، قد أصيبت أيضا بداء المنافسة بين أمرائها ، والحرب الأهلية ، فانقسمت الى إمارتين ، هما إمارة بني زيري ، في الناحية الشرقية ، وإمارة بني حماد في الناحية الغربية من إفريقية . هذا وقد تواصلت الحروب بين صنهاجة وزناتة مدة ، إلا أنها أصبحت أقل حدّة ، وخصوصا لما ظهر خطر الهلاليين ، وبدأت هجماتهم على بلاد إفريقية . وذلك أن أمراء بني زيري عزموا على التخلص من التبعية للفاطميين ، وقطعوا الدعوة لهم سنة 1048/441 فكان ردّ فعل هؤلاء يتمثل في إرسال قبائل بني هلال وسليم الى إفريقية ، واقطاعهم ما يمتلكون فيها من أراض ومدن فتلا ذلك صراع مرير بين أمراء صنهاجة ، من بني زيري وبني حماد ، وبين قبائل العرب الهلالية . فتعرضت المناطق الجنوبية الى غزو العرب ، وكان من أخطر حوادث هذا الصراع خراب القيروان . سنة 1057/449 .

وفي تلك الأثناء ، وقعت حوادث أخرى لا تقل أهمية عن تلك ، في أقصى الجانب الغربي من شمال افريقيا ، حيث بدأت غارات المرابطين على جنوب المغرب الأقصى . فكان ظهورهم حادثا هاما جدا في تاريخ المغرب الاسلامي ، أدى الى تحول جذري في الأوضاع السياسية بهذه المنطقة . فمن هم المرابطون ؟ وما هي الخطوط العريضة لقيام حركتهم وانتشارها في رقعة واسعة من بلاد المغرب الاسلامي ؟

2) من هم المرابطون ؟

لقد نشأت دولة المرابطين في منطقة الصحراء الغربية ، الواقعة جنوب وادي درعة ، مما يلي المحيط الأطلسي ، والمتصلة شمالا ببلاد المغرب الأقصى ، وجنوبا ببلاد السودان . وكانت تقطن تلك المنطقة قبائل من صنهاجة ، أهمها لمتونة وكدالة ومسوفة ، تجمع بينهما أواصر الجوار واللغة والديانة والعادات والتقاليد ، كاستعمال اللثام ، ولذا سموا بالملثمين ، والتزام عيشة البدو .

وقد عنيت هذه القبائل ، منذ عهد بعيد ، بحراسة تجارة السودان . وأسست مدينة أوداغشت ، شمال بلاد غانة ، وجعلت منها مرحلة هامة للقوافل التجارية وللتبادل التجاري ، فكان لهم نفوذ كبير في المنطقة . غير أن دولة غانة لم تلبث أن قاومت نفوذهم هذا ، منتهزة فرصة قيام الفتن بين قبائل الملثمين ، وتصدع صرح وحدتهم السياسية ، فاستولت على مدينة أوداغست سنة 1040/432 ، فضعف شأن الملثمين بصورة محسوسة ، سواء في المجال السياسي أو في المجال الاقتصادي .

وفي تلك الأثناء ، كانت حركة المرابطين قد بدأت ، على شكل دعوة تهدف الى الاصلاح الديني ، أشرف عليها فقيه يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي ، كان قد قدم به من سجلماسة أحد أشياخ قبيلة كدالة ، إسمه يحيى بن إبراهيم الكدالي ، عند عودته من الحج ، حوالي سنة 1036/427 ، بغرض تعليم قومه مسائل دينهم ، وحملهم على عقيدة أهل السنة الصحيحة ، وعلى الامتثال لأوامر الله واجتناب المحرمات . فأقام يحيى بن ياسين في قبيلة كدالة بعض السنوات ، ممارسا مهمته بجد وحماس .

ويبدو أن التفاف الناس ، من كدالة ، حول عبد الله بن ياسين ، المصلح الديني ، ويحيى بن إبراهيم ، الرئيس السياسي ، قد أدى الى جمع كلمة الملثمين ، وبعث مجموعة قبائلهم . وذلك بعد أن قامت قبيلة لمتونة ، وبسطوا نفوذهم على المنطقة ، الى أن توفي يحيى ابن إبراهيم سنة 1048/440 .

وبعد أن توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي ، حدثت مشاكل خطيرة بين بعض وجهاء قبيلة كدالة وعبد الله بن ياسين ، لم تشرحها المصادر ، ولم تحاول إيضاحها ، لقلة الأخبار الواردة في شأنها . والغالب على الظن أن عوامل هذا الصراع تتصل بقضية تنظيم السلطة السياسية ، واصطدام نظرية عبد الله بن ياسين التي تريد أن يكون هو صاحب السلطة المطلقة دون غيره ، بنظرية وجهاء كدالة ، التي تعتبر أن السلطة السياسية من إختصاصهم ، وأنه يتعين تنصيب خلف منهم ليحيى بن إبراهيم ، هذا بالاضافة الى ما ثبت عن عبد الله بن ياسين من تشدد في الحدود ، وأخطاء في بعض فتاويه الشرعية ، وتناقض في أحكامه ، الأمر الذي أدى الى «عزله عن الرأي والمشورة» من طرف كبراء كدالة وطرده ، وهدم داره ونهبها .

وعندئذ توجه عبد الله بن ياسين الى قبيلة لمتونة ، مستجيرا بشيخها يحيى بن عمر اللمتوني ، الذي استقبله أحسن استقبال وأيد دعوته ، وساعده على الانتقام من وجهاء كدالة ، الذين تسببوا في طرده .

وهنا نجد اختلافا كبيرا في الأخبار التى أوردها المؤرخون ، فمنهم من ذكر أنه شكا الى شيخه واجاج بن زلو ، بسجلماسة ، وأن هذا الأخير أرسل أشياخ كدالة «وأعلمهم أن من

خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر ، وأمر عبد الله بالرجوع اليهم (البكري) . ومنهم من ذكر أن عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر اللمتوني وأخاه أبا بكر ، اتجهوا مع نفر قليل من الأوفياء الى رباط في جزيرة لم يوضحوا مكانها ، ولعلها تقع في مصب نهر صينغال ، «منفردين للعبادة» (ابن خلدون) ، ولما تسامع الناس بانقطاعهم في هذا الرباط أخذوا يلتحقون بهم ، ويقبلون على دعوتهم ، الى أن بلغ عددهم حوالي ألف شخص ، فقرر عبد الله بن ياسين انهاء العزلة ، وعاد الى بلاد الملثمين ، ففرض عليها سلطته ، وقضى على خصومه من كدالة ، واستأنف حركته الرامية الى نشر الدعوة الى الاصلاح الديني بين قبائل الصحراء الغربية .

وسواء ثبتت الرواية القائلة باتجاه عبد الله بن ياسين ورفاقه الى رباط للعبادة وجهاد النفس ، أم ثبت ما يخالف ذلك من الأخبار فإن الملثمين قد اتخذوا شعارا لهم الجهاد في سبيل القضاء على البدع والأباطيل، والذوذ عن الاسلام في ربوع المغرب الاسلامي ، وبذلك استحقوا أن يطلق عليهم اسم المرابطين .

3 ــ تأسيس دولة المرابطين :

لما رأى عبد الله بن ياسين أن أتباعه أصبحوا يشكلون قوة لا يستهان بها ، ند بهم الى غزو أطراف الصحراء . فتوجه يحيى بن عمر اللمتوني الى المناطق الشمالية ، واستولى على ناحية درعة ، وترك فيها أخاه أبا بكر ، ثم استولى على سجلماسة ، سنة 1053/445 ، بعد أن إستغاث به أهلها ضد الأمير مسعود بن وانودين ورجاله من قبيلة مغراوة الزناتية . ونهض عبد الله بن ياسين الى الجنوب ، فاستولى على مدينة أوداغست سنة 1054/446 ، ونتج عن هاتين العمليتين أن أصبحت طريق التجارة الرابطة بين المغرب الأقصى والسودان عبر الصحراء الغربية تحت نفوذ المرابطين .

وعاد يحيى بن عمر من سجلماسة بعد أن ترك فيها حامية قليلة ، ثم زحفت مغراوة على المدينة وقتلوا من كان بها من المرابطين ، فطلب عبد الله بن ياسين من الملثمين أن يعودوا الى غزو سجلماسة ، ولكن قبيلة كدالة امتنعت من ذلك ، وتوجهت الى منطقتها الواقعة بساحل المحيط الأطلسي . وعندئذ سار يحيى بن عمر الى بلاد لمتونة لحمايتها من هجوم كدالة ، ولكن هؤلاء حاصروه في جبل لمتونة ، وهزموه ، وقتلوه (سنة 1056/448) .

أما عبد الله بن ياسين ، فإنه استقر مدة بتامدولت ، الواقعة في ناحية درعة بين نول وسجلماسة ، لحشد الجيوش . ولما بلغه نبأ وفاة يحيى بن عمر ، قصد الى سجلماسة ، فاستولى عليها مرة ثانية ، وأخذ فيها البيعة لابي بكر بن عمر اللمتوني ، ثم قدم اليها هذا الأخير من درعة . وفي سنة 1057/449 ، قام بغزو جنوب المغرب الأقصى ، واستولى على

غزا المصامدة ، في ناحية السوس الأقصى ، سنة 1058/450 ثم توجه عبد الله بن ياسين الى ناحية تامسنا لغزو قبيلة برغواطة ، فقتل في إحدى المعارك ، بمكان يدعى كوريفلت ، سنة 1058/450 ، بينما غزا أبوبكر بن عمر ناحية تادلا ، فاستولى عليها ، وقتل أمراءها من بني يفرن ولقوط بن يوسف المغراوي ، أمير أغمات سابقا ، وتزوج إمرأته زينب بنت إسحاق النفزاوية ، وكانت مشهورة بجمالها وذكائها .

ثم واصل المرابطون حرب برغواطة ، وعينوا خلفا لعبد الله بن ياسين رجلا يدعى سليمان بن عدو ، فقتل أيضا في إحدى المعارك ، سنة 1059/451 . ثم لم يعين المرابطون له خلفا ، وانحصرت الرئاسة في أمراء لمتونة .

وكان على أبي بكر بن عمر أن يتصدى لقبيلة برغواطة ، وينتقم لعبد الله بن ياسين . وقبل التوجه الى بلاد تامسنا ، سار الى السوس الأقصى ، فأتم فتح هذه المنطقة ، وأخضع أهلها المصامدة ، ثم استعان بهم لقتال برغواطة ، ودارت بين الفريقين معارك عديدة أحرز فيها المرابطون على بعض الانتصار ، ثم عاد أبو بكر بن عمر الى مقرّ إمارته باغمات .

ويرى بعض المؤرخين أن حركة المرابطين هذه قد أقلقت الأمير الحمادي بلقين بن محمد ، فقدم بجيشه الى المغرب الأقصى ، في صفر 454/فبراير 1062 ، وزحف الى فاس ، معربا عن عزمه على إثبات سيادته على تلك المناطق ، فصالحه أمير فاس ، معنصر المغراوي ، وأعلن طاعته له . ثم عاد الأمير الحمادي الى بلاده . غير أن المرابطين لم يتوقفوا في مسيرتهم نحو الشمال فأرسل أبو بكر بن عمر إبن عمه يوسف بن تاشفين الى بلاد فازاز ، وهي المنطقة الجبلية الواقعة شمال تادلا ، فحاصر قلعة مهدي بن توالا ، وكان أمراؤها من زناتة ، ولم تغن حصانة القلعة وشجاعة حماتها ، فاستولى عليها سنة 1069/461 ، وعاد وقد أكسبه هذا الفتح شهرة كبرى .

وضاقت مدينة أغمات بالملثمين ، فأمر أبو بكر بن عمر بتأسيس مدينة جديدة ، سميت مراكش ، سنة 1070/462 . وبينما كان يشرف ذات يوم على أعمال البناء اذ بلغه نبأ قيام فتنة في الصحراء ، وحدوث اضطرابات خطيرة بين لمتونة وكدالة ، وقيل مسوفة ، فقرر التوجه الى الجنوب لتهدئة الحال ، وجعل حد للشقاق قبل أن يستفحل أمره . وقيل أن زوجته زينب لم ترغب في الذهاب الى الصحراء ، فطلقها عند انصرافه . وتزوجها يوسف بن تاشفين بعد أشهر العدة ولما غادر أبو بكر بن عمر أغمات ، استخلف يوسف بن تاشفين ، وترك له الحكم في المناطق الشمالية .

وتفرغ يوسف بن تاشفين لمواصلة أعمال البناء بمراكش ، وعني أيضا بتقوية جيشه ، فاضاف اليه فرقة من الرمادة ، واقتنى كثيرا من العبيد . وجعلهم حراسا له . وفي سنة

1072/464 ، سار بجيشه الى ناحية ملوية ، فأطاعته قبائلها ، ثم عاد الى مراكش ، حيث واصل تدبير أمور الدولة ، وضرب السكة باسم أبي بكر بن عمر . وعندما أقبل هذا الأخير من الصحراء ، في سنة 1072/464 ، شاهد من قوة يوسف بن تاشفين ، وعزمه على البقاء في منصب الامارة ، ما جعله يقرر الرجوع الى الصحراء وترك الامارة الى يوسف بن تاشفين .

ويعتبر عهد يوسف بن تاشفين عهدا حافلا بالفتوح والانجازات استطاعت دولة المرابطين فيه أن تنتقل من طور النشأة الى طور التوسع والازدهار . ومن أبرز الانتصارات التي حققها يوسف بن تاشفين ، القضاء على إمارة فاس المغراوية ، سنة 1075/467 ، ثم اخضاع الريف والاستيلاء على طنجة سنة 1078/470 ، ثم فتح بلاد المغرب الأوسط ، وضم الأندلس الى دولة المرابطين .

4 ـ استيلاء المرابطين على المغرب الأوسط :

كان المغرب الأوسط آنذاك يخضع لسلطة الأمير المغراوي العباس بن بختي ، من أبناء يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر . كان مقر إمارته بمدينة تلمسان . وكانت هذه الامارة تتعرض من حين لآخر الى هجمات أمراء بني حماد فتقاومها بما استطاعت من قوة أو تصالحها .

وقد رأى يوسف بن تاشفين أن ملكه لن يتم الا بالقضاء على آخر أمارة زناتية آنذاك ، وهي أمارة تلمسان ، فأرسل القائد مزدلي ، سنة 1080/472 ، بجيش من المرابطين لغزوها ، فتصدّى لمحاربته الأمير يعلى بن العباس المغراوي ولكن هدا الأخير هزم وقتل . ثم عاد القائد مزدلي الى مراكش . وفي سنة 1081/473 ، نهض يوسف بن تاشفين بجيوشه قاصدا المغرب الأوسط ، ومارا بنواحي ملوية والريف ، فاستولى على جرسيف ، ثم مليلة ونكور ، فوجدة وبلاد بني يزناسن ، ثم مدينة تلمسان ، بعد أن قتل أميرها العباس بن بختي وكثيرا من رجاله من مغراوة . واختط بجانب تلمسان الغربي مدينة جديدة سميت تاجرارت ، يعني المحلة ، ثم ترك بها حامية من المرابطين تحت قيادة محمد بن تينعمر المسوفي .

ثم واصل يوسف بن تاشفين سيره شرقا ، فاستولى على وهران ، ثم تنس . ثم توجه نحو جبل وانشريس ، واخضع أهاليه . ثم سار الى منطقة شلف واحتلها . وأخيرا استولى على مدينة الجزائر (1082/474) . وعندئذ أصبحت حدود مملكته محاذية لمملكة بني حماد ، وأصبح المغرب الأوسط كله تحت سلطته . ثم قفل راجعا الى مراكش سنة 1083/475 ، وتفرغ لانقاذ الأندلس من خطر النصارى فهزم هؤلاء في معركة الزلاقة الشهيرة (1086/479) .

5 — دولة المرابطين في المغرب الأوسط :

كانت تلمسان وما يليها من بلاد المغرب الأوسط ، في عهد المرابطين ، بمثابة حاجز يفصل بين المغرب الأقصى ومملكة بني حماد ، يرد هجمات هؤلاء أحيانا ، وتنطلق منه الغارات الى بلاد الزاب وغيرها أحيانا أخرى . وكان قدوم بني هلال وسليم وغيرهم الى بلاد افريقية وتغلبهم على كل من بني زيري وبني حماد وحلفائهم من أغلب المعارك . من أهم العوامل التي جعلت بني حماد وغيرهم من قبائل المنطقة الغربية من إفريقية يرغبون في التوسع نحو الغرب . وربما فكروا ، أحيانا في نقل عاصمتهم الى المغرب الأوسط ، لانقاذ دولتهم من موقفها الحرج . ولذا فلم يمنعهم انشغالهم بمدافعة زحف الهلاليين من الاهتمام بحوادث المغرب الأوسط ، وتوجيه انظارهم نحوه .

ثم أن العرب كانوا ، كثيرا ما يتنافسون على امتلاك الأراضي ، في نواحي الجنوب . فشبت الحروب بينهم ، وأخذ بعضهم يلجأون لتعزيز قواهم ، الى التحالف مع بعض قبائل البربر ، من أجل محاربة منافسيهم من العرب . وهكذا ، تعرضت بلاد الزاب الى غارات عديدة ، شنها بنو توجين ومغراوة وغيرهم من زناتة المغرب الأوسط ، متحالفين مع بعض قبائل العرب ، ويبدو أن المرابطين كانوا ينظرون الى هذه الغارات بعين الرضى ، إذ أن من شأنها أن تزيد مملكتهم سعة ، وأن ترغم الحماديين على إتخاذ موقف الدفاع ، عوض القيام بدور الهجوم والغزو .

هذا وقد تصدى الناصر الحمادي (454/481/1062/1088) وابنه المنصور (481 — 1088/498 — 1105) لهذه الغارات ، فوفقا في أغلب الأحيان في ذلك . وقد ذهب المنصور الى أبعد من ذلك ، فاستولى على مدينة الجزائر — ولكن سرعان ما قدم والي تلمسان ، محمد بن تينعمر اليها ، مع حلفائه من بني ومانو وبني يلومى ، من زناتة ، وحاصرها ، فقتل أثناء ذلك ، وولي مكانه أخوه تاشفين ، فتوجه الى أشير وخربها ثم عاد الى تلمسان . وعندئذ ، غزا المنصور الحمادي بلاد بني ومانو للانتقام منهم ، ولكنه انهزم أمام ماخوخ ، أمير بني ومانو ، وعاد الى بجاية .

وهكذا يبدو أن بلاد المغرب الأوسط عرفت ، في عهد المرابطين ، استقرارا نسبيا ، لم يكدر صفوه الا في مناسبات قليلة ، ناتجة غالبا عن تحرك بعض قبائل العرب نحو بلاد الزاب وما يليها من المناطق ، وما نتج عن ذلك من ضغط على قبائل زناتة التي كانت تقطن تلك النواحي سابقا ، واضطرت الى النزوح الى جنوب المغرب الأوسط ، بحثا عن أراض جديدة ، فأصبحت بعضها تحتل مكانة هامة على مسرح تاريخ هذه المنطقة ، مثل بني ومانو وبني يلومي .

والظاهر أن المرابطين لم يولوا كل عنايتهم لقضايا المغرب الأوسط واكتفوا بالتحالف مع هذه القبائل الزناتية ، واستعمالها للدفاع عن حدودهم الشرقية . وذلك أنهم كانوا قد أخذوا على عاتقهم حماية الأراضي الاسلامية بالأندلس ، وصد النصارى عنها . وقد استمر جهادهم في الأندلس مدة طويلة ، وتطلب منهم جهودا جسيمة جعلتهم يرسلون اليها معظم قواهم ، وينفقون عليها أموالا طائلة ، مما أضعف سلطة المرابطين في كثير من مناطق المغرب الأوسط . ويشهد على ذلك نجاح غارة المنصور الحمادي على تلمسان سنة 1103/496 ، حيث فتح المدينة ، ولم ينسحب منها الا بعد أن خرجت اليه حوّاء ، زوجة واليها تاشفين بن تينعمر وتوسلت اليه بالقرابة الصنهاجية ، فأفرج عن المدينة وعاد الى بلاده .

ثم عقد الصلح بين الدولتين سنة 1104/397 ، وعين يوسف بن تاشفين القائد مزدلي واليا على تلمسان ، مكان تاشفين بن تينعمر لارضاء المنصور الحمادي . وبقي السلم قائما بين الدولتين الى إنقراضها . ولما تعرضت دولة المرابطين الى هجوم الموحدين ، طلب تاشفين بن علي المساعدة من الحماديين ، وهو محاصر بتلمسان ، فأرسلوا جيشا لاغاثته ، ولكن هذا الأخير هزم بمكان يدعى الصخرتين ، خارج تلمسان ، فكان ذلك بداية انتصارات عبد المؤمن بن علي .

هذا وقد استفاد المغرب الأوسط من عودة الاستقرار السياسي ، فنشطت التجارة بين مختلف أقطار المملكة وكانت بلاد المغرب الأوسط تحتل مركزا هاما بين بلاد السودان وبين الأندلس وجنوب أوربا الغربية واسترجعت تاهرت بعض أهميتها . أما تلمسان فلا شك أنها أصبحت أهم مدن المغرب الأوسط بعد تأسيس تاجرارت ، وبعد أن استقر فيها ولاة المغرب الأوسط من المرابطين ، فازدهرت تجارتها ويلاحظ نفس الازدهار في المجال المعماري ، حيث بني المرابطون مساجد هامة بتلمسان وندرومة والجزائر . وشيدوا القصور والمنازل الفخمة بتاجرارت وغيرها ، وكذلك في المجال الثقافي ، رغم ما امتاز به ذلك من ضيق الافق الفكري ، والتشدد في التمسك بالفروع ونظرية أهل الحديث في العقيدة . وكان ذلك بمثابة انطلاقة صالحة في المجال الحضاري ، تلتها أدوار مشرقة في عهد الموحدين ، ثم الزيانيين .

الفصل الثاني

تاريخ الجزائر السياسي في عهد الموحدين

د. عبد الحميد حاجيات

تحتل الدولة الموحدية مكانة هامة في تاريخ المغرب الاسلامي وذلك أن سلطتها امتدت ، لاول مرة ، الى سائر أجزائه ، فكان لها ، من جراء ذلك ، أثر بالغ في تطوره السياسي . وقبل التعرض الى تاريخ الجزائر في عهد الموحدين ، ينبغي علينا أن نستعرض باختصار نشأة هذه الدولة وتطورها .

1 ــ دعوة المهدي ابن تومرت : ظهرت دعوة ابن تومرت حوالي سنة 515 هـ في منطقة السوس الأقصى ، التي كان يسكنها المصامدة ، وهم مجموعة قبائل من البرانس ، كانوا قد عرفوا الاسلام منذ أجيال عديدة ، ولكن معرفتهم هذه كانت لا تزال سطحية لقلة انتشار العربية بين أهلها .

وكان لابن تومرت ، منذ صغره ، ميل كبير للدراسة والعبادة فحفظ القرآن في قريته ، ثم رحل حوالي سنة 501 هـ الى الأندلس ثم الى المشرق ، لطلب العلم ، فدرس على كثير من العلماء الأجلاء ، ولقي في بغداد بعض تلامذة الغزالي ، فاطلع على كثير من مؤلفات هذا الأخير ، مثل كتاب «أحياء علوم الدين» و «المستصفى» في أصول الفقه ، وغيرها . وقد عني ابن تومرت ، على الخصوص بالعلوم الدينية ، من عقائد وتفسير وحديث وأصول وفقه وغير ذلك . ولا يستبعد أنه ادرك ، أثناء تنقله عبر أقطار المشرق العربي ، ما أصاب تلك البلاد من بلايا ، نتجت عن اختلاف المسلمين وتشتت شملهم ، وأخطرها هجمات الفرسان الصليبيين القادمين من أوربا الغربية . كما لا يستبعد أن غيرته على الاسلام جعلته يفكر في إصلاح ما أدخل فيه من بدع وعادات فاسدة ، والعمل على تدعيم صفوف المسلمين وتوحيدها ، لتتمكن من صد عدوان النصارى .

وبعد أن قضى حوالي عشر سنوات بالمشرق ، قفل ابن تومرت راجعا الى بلاده ، مارا بالاسكندرية ، ثم طرابلس ، فالمهدية وتونس وقسنطينة ، ثم حل ببجاية ، عاصمة بني حماد آنذاك واستقر بقرية قربها تدعى ملالة ، حيث وقع لقاؤه برفيقه المشهور عبد المؤمن بن علي الكومن ، الذي أعجب بعمله وأرائه وانضم الى رفاقه . ثم واصل ابن تومرت سيره ، مع جماعته ، نحو الغرب ، عبر متيجة ، فوانشريس ، حيث التحق برفاقه عبد الله محسن الملقب بالبشير . ثم مر ابن تومرت ورفاقه بتلمسان ، وفاس ، وأخيرا بمراكش ، عاصمة الأمراء المرابطين ، وهو في كل المدن التي مرّ بها يقوم بتغيير المنكر ، وبالتدريس في المساجد ، معرضا نفسه تارة لغضب الناس والعمال ، وتارة للطرد والتهديد . ويذكر بعض المؤرخين أنه لقي الأمير علي بن يوسف بمراكش ، وناظر جماعة من علماء بلاطه في قصره ، فأفحمهم ، وأن هؤلاء شعروا بخطر هذا الرجل ، فحذروا الأمير منه ، ولكن هذا الأخير إكتفى بطرده من عاصمة ملكه .

ولم يجد ابن تومرت سبيلا للقيام بمهمته الأخلاقية والدينية الا في بلاد السوس الأقصى ، وسط قومه المصامدة . غير أن ما رآه أثناء عودته ، من أعراض الأمراء المرابطين وعمالهم وفقهاء دولتهم عن تغيير المنكر ، وما لقيه من جانبهم من تقاعد عن اصلاح المجتمع ، وما شاهده من فشو اللهو والجهل في البلاد ، كل ذلك جعله يضيف الى المهمة الدينية التي أقدم عليها ، مع رفاقه ، جوانب اعتقادية وتشريعية وسياسية أخذها عن بعض المذاهب الاسلامية .

غير أن ابن تومرت لم يصرح في أول الأمر ، بالجانب السياسي من دعوته ، وإنما بدأ بالاصلاح الديني ، أي تغيير المنكر ، وتعليم الناس العقيدة الاسلامية الصحيحة . ولم يتأخر عن نشر مباديء علم الكلام بين عامة الناس ، مخالفا في ذلك الغزالي وغيره من العلماء . وكان ابن تومرت يمتاز بفصاحة نادرة ، ومهارة فائقة في اقناع مواطنيه ، فألف لهم بلغتهم البربرية عقيدة في التوحيد ، واهتم بتلقينهم ما يجب معرفته فيما يخص أركان الاسلام ، وبتحسين اخلاقهم . وكان المصامدة آنذاك ، مثل معظم سكان الجبال ، أهل بساطة وسذاجة و «من طباعهم خفة سفك الدماء» . فعمد ابن تومرت الى عدة وسائل لتمكين دعوته في نفوسهم ، ومنعهم من سفك الدماء وجعلهم آلة مسخرة لتنفيذ تعليماته والخضوع لطاعته .

ثم انتقل الى تينمل ، شمال منطقة السوس الأقصى ، وجعلها مقرا لدعوته ، لما كانت تمتاز به من مناعة الموقع وحصانته . وهناك صرح بدعوته ، وبايعه الناس على الطاعة ونصرة الاعتقاد الصحيح ، الذي هو التوحيد ، وفق نظرية المعتزلة ، وحماية المرابطين ، الذين سماهم المجسمين ، لفساد عقيدتهم ، وعلى أساس العمل لنيل سعادة الآخرة والنجاة من عذاب جهنم . وادعى ابن تومرت أنه المهدي المنتظر الذي يأتي لنشر العدل في الأرض بعد أن ملئت

جورا ــ ملما ادعى ذلك عبيد الله مؤسس دولة الفاطميين ــ وأنه من نسل على بن أبي طالب ، وأن إسمه محمد بن عبد الله ، وادعى أيضا العصمة ، وهي من مقتضيات المهدوية .

ويبدو أن ابن تومرت كان يدرك جيدا أن إدعاءاته مما يصعب تصديقه في ظروف عادية . فبدأ بارسال دعاة من أصحابه الى رؤساء القبائل ، قصد اقناعهم واستمالتهم الى جانبه . ثم عني بجمع الأحاديث المروية في شأن المهدي المنتظر ، ومنها ما ينص بظهوره في المغرب ، واستدل بها على صحة زعمه ، مدعيا أنه مؤيد من عند الله وأن الله سينصره على أعدائه .

وبعد أن تمت البيعة ، سنة 515 هـ بتينمل ، صرف ابن تومرت عنايته لتنظيم حركته سياسيا وعسكريا . فرتب أتباعه حسب الدور الذي لعبوه فيها ، وحسب منزلتهم الاجتماعية ، وصنفهم الى طبقات مختلفة ، أعلاها أهل العشرة ، ويليهم أهل خمسين ، ثم أهل سبعين ، الخ .... وأسند الى كل من هذه الفئات ما يناسبها من الاختصاصات وقد أشار الى ذلك ابن القطان بقوله : «وكانوا (أي الموحدين) اذا قطعوا الأمور العظام ، يخلون بالعشرة ، لا يحضر معهم غيرهم ، فاذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا ، وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره رضي الله تعالى عنه» . .

أما النشاط العسكري ، فإنه اتخذ اتجاهين رئسيين : أولهما اخضاع قبائل السوس الأقصى التي لم تعلن بيعتها لابن تومرت ، وثانيهما التصدي للقاء جيوش المرابطين ، وشن الغارات على الحصون التي كانت تستقر بها حامياتهم .

وقد تمكن ابن تومرت ورفاقه من إنجاح الاتجاه الأول ، حيث أنهم قضوا على تشتت المصامدة السياسي ، وجمعوا شملهم في كيان سياسي موحد . وفيما يخص الاتجاه الثاني ، فقد بذل ابن تومرت جهودا كبرى ، قصد محاربة جيوش المرابطين ، والتصدي لهم في المناطق المجاورة للسوس الأقصى . فجهز جيشا لمحاربتهم في ناحية أغمات وغيرها . وكانت المعارك سجالا ، ينتصر فيها الموحدون تارة ، وينهزمون تارة أخرى ، غير أن هذه الحروب كانت عبارة عن مناوشات لم تبلغ درجة قصوى من العنف والشدة . ثم كانت معركة البحيرة الشهيرة ، سنة 524 هـ ، وفيها مني الموحدون بهزيمة كبرى ، قتل أثناءها قائدهم البشير الونشريسي ، وعدد كبير من الأتباع ، وجرح عبد المؤمن ، وعاد كل الموحدين الى جبلهم .

وكان ابن تومرت قد أصيب بمرض حين سير الجيش في إتجاه مراكش . وعندما بلغه نبأ الهزيمة إشتد مرضه ، ومات بعد ذلك بقليل .

2 — تأسيس دولة الموحدين : لقد كانت وفاة ابن تومرت حادثا خطيرا بالنسبة للموحدين ، يخشى منه تصدع صرحهم ، وتفكك وحدتهم ، واختلاف كلمتهم . وقد رأى رفاقه المقربون إخفاء موته على الأتباع ، وتدبير شؤون الدولة باسمه ، ريثما تسمح الظروف بايجاد حل لمشكل خلافته .

والظاهر أن هذه المرحلة الانتقالية دامت ثلاث سنوات تمكن أثناءها المقربون من رفاق ابن تومرت من مواصلة الجهود لبسط نفوذ الدولة الفتية بين القبائل المجاورة للسوس الأقصى ، ومن الاتفاق على تعيين خليفة للمهدي ، هو عبد المؤمن بن علي . وكان على هذا الأخير أن يواصل الحركة التي دعا اليها ابن تومرت ، والتي كانت ترمي الى تأسيس دولة جديدة ، هي دولة الموحدين . وكان ذلك يقتضي القضاء على دولة المرابطين ، أولا ، ثم العمل على توسيع الدولة الموحدية في إتجاه اقطار المغرب الاسلامي الأخرى .

أ — انهيار دولة المرابطين : وقد أظهر عبد المؤمن كفاءة حربية مكنته من مقاومة جيوش المرابطين سنوات عديدة ، وإبعاد خطرهم على أتباعه بملازمة الجبال ، بينما كان المرابطون يفضلون اللقاء في السهول ، ويلازمونها .

وفي سنة 535 هـ ، بدأت حركة الموحدين الكبرى ، بقيادة عبد المؤمن ، عبر مناطق المغربين الأقصى والأوسط ، استولوا خلالها على بلاد تادلا وفازاز والريف ، وكلها مناطق جبلية وكان تاشفين بن علي ، بعد وفاة أبيه سنة 537 هـ ، يباشر بنفسه قيادة جيوش المرابطين .

ثم توجه الموحدون نحو المغرب الأوسط ، وحلوا بقرية تاجرا ، مسقط رأس عبد المؤمن . وقد ذكر ذلك البيذق في كتابه فقال : «ثم رحلنا الى أغبالوا متاع بني يزناسر ، وهرب أهله ، وامتنعوا أن يوحدوا ، فرحلنا منه الى ندرومة ، بلاد كومية فوحدوا ، فرحلنا الى تاجرا ، فميزنا فيها .»

ويبدوا أن المبادرة في هذه المسيرة كانت لعبد المؤمن ، الذي طبق طريقة حربية محكمة ، كانت تتضمن خطتين رئيسيتين : أولاهما تنحصر في ملازمة الجبال والاعتصام بها ، الأمر الذي كانت تقتضيه قلة العتاد الحربي والخيل ، بينما كان المرابطون يلازمون السهول ، لوفرة خيلهم وعتادهم وجنودهم ، فكان من الصعب عليهم أن يقتحموا المواقع التي كان يعتصم بها الموحدون والخطة الثانية كانت ترمي الى الابتعاد عن مراكز قوة المرابطين وعن عاصمتهم ، قدر الامكان ، والتوغل في بلاد المغرب الأوسط ، التي يصعب فيها تموين الجيش وتنقله .

أضف الى ذلك أن الموحدين إغتنموا كل ما سنح من الفرص أثناء هذه المسيرة الكبرى . فمن ذلك أن فتنة حدثت بين لمتونة ومسوفة ، إثر وفاة علي بن يوسف ، فلحق كثير من رجال مسوفة ومن بينهم يحيى بن إسحاق ، المعروف بانجمار ، والى تلمسان ، بعبد المؤمن وهو بالريف .

ومن ذلك الصراع الحاد ، الذي قام بالمغرب الأوسط بين قبيلتي بني يلومي ، حلفاء المرابطين ، وبني ومانو ، على زعامة زناتة بتلك المنطقة . فاستغاث بنو ومانو بعبد المؤمن ، فأمدهم بعسكر من الموحدين ، بقيادة يوسف بن وانودين ، وتوجهوا الى ناحية الهضاب العليا الواقعة جنوب وانشريس . فأجلبوا على أراضي بني يلومي وحلفائهم من بني عبد الواد وبني توجين وغيرهم ، وأخذوا كثيرا من الغنائم والسبي . وعندئذ استنجد بنو يلومي بالمرابطين ، فأمدوهم بجيش كان يقوده الربوتير ، قائد فرقة النصارى . وتوجه هؤلاء الى منداس ، في ناحية السرسو ، حيث انضم اليهم حلفاؤهم من زناتة ، وأغاروا بدورهم على بلاد بني ومانو ، فاسترجعوا الغنائم والسبي ، واعتصم ابن وانودين وجماعته بجبال سيرات ، وطلبوا النجدة من عبد المؤمن ، فبعث اليهم المدد ، والتحقوا بجيشه بعد أن بدد واشمل المرابطين وحلفائهم .

وهكذا أسفرت هذه العملية عن هزيمة المرابطين وأنصارهم في المنطقة الشرقية من ولاية تلمسان الأمر الذي منع تاشفين بن علي من استقدام حلفائه من زناتة ليتقوى بهم ، وشغله عن توجيه كل قواه لمحاربة جيش عبد المؤمن .

وتمادى الخليفة الموحدي في تطبيق نفس الطريقة ، أثناء إقامته بتاجرا ، فأرسل عسكرا ، بقيادة إبن زجو ، في إتجاه المناطق الساحلية بناحية وهران ، فأغاروا عليها ، وغنموا وسبوا كما أنه بعث عسكرا آخر ، بقيادة يوسف بن وانودين ، الى بلاد مديونة ، الواقعة غربي تلمسان وجنوبها ، فتصدى له محمد بن يحيى بن فانو ، والى تلمسان ، ولكن هذا الأخير انهزم وقتل مع كثير من رجاله .

ولا شك أن هذه الانتصارات ، مع ما حظي به عبد المؤمن من تأييد قومه كومية وبعض قبائل زناتة ، قد دعم جيشه وعزز قواه بشكل ملحوظ ، وجعله لا يخشى لقاء العدو . وعندئذ توجه بجيشه صوب تلمسان ، ونزل بمكان خارجها من جهة المرتفعات الواقعة جنوب المدينة ، يدعى بالصخرتين ، بينما نزل تاشفين بن علي ورجاله شمال شرقي المدينة ، قرب وادي اصطفصيف (أو الصفصيف) ولازم كل فريق موقعه ، من دون أن يقدم على مناجزة الفريق الآخر .

وفي تلك الأثناء ، وصل جيش لبني حماد ، أرسله الأمير يحيى بن العزيز مددا للمرابطين ، بقيادة طاهر بن كباب . فتعجب هذا الأخير من تقاعد المرابطين عن مهاجمة الموحدين ، وبعثه غروره واقدامه على اقتحام موقعهم بالصخرتين ، ولكنه مني بهزيمة كبرى ، قتل أثناءها مع عدد كبير من جنوده (539) . وكان لهذا الحدث أثر سيىء في نفوس المرابطين ، فتوجه تاشفين بن علي بجيشه الى وهران ، جيث كانت قد وصلت أساطيل قادمة من الأندلس . وكان تاشفين عازما على الجزاز الى الأندلس اذا ما فشلت مطاردته للموحدين

في تلك المناطق . ولكنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه وتوفي ليلة 27 رمضان سنة 539 هـ ، عندما غادر الحصن الذي لجأ اليه بوهران ، قاصدا الى شاطىء البحر ، وممتطيا فرسه ، فسقطت به من أعلى جرف .

وكان لوفاة تاشفين بن علي أثر هام في سير الأحداث بعد ذلك إذ سرعان ما استولى الموحدون على وهران ثم تلمسان ثم غادروا المغرب الأوسط ، وحاصروا مدينة فأس مدة تسعة أشهر ، ثم احتلوها ، وكذلك مكناسه وسلا ، وأخيرا مراكش ، التي فتحت في شوال 541 هـ ، بعد حصار دام حوالي 11 شهرا . بسقوط مراكش ومقتل إسحاق بن علي بن يوسف ، آخر أمراء المرابطين ، إنقرضت دولة الملثمين .

ب ــ سقوط دولة بني حماد : ثم استقر عبد المؤمن بمراكش بضع السنوات ، قضاها في تنظيم شؤون البلاد . وقمع بعض الثورات التي قامت في السوس الأقصى ، وفي ناحية تامسنا وما جاورها ، كما عني بشؤون الأندلس ، وكان المسلمون يعانون فيها من خطر النصارى ، فأرسل عبد المؤمن العساكر للوقوف في وجه العدو ، وصده عن أراضي المسلمين ، ولاخضاع أمراء الأندلس الذين لم يدخلوا في طاعته . وفي سنة 545 هـ ، انتقل الى سلا ، وهناك قدمت وفود الأندلسيين لمبايعة وتسليم الأمر اليه .

ثم وجه عبد المؤمن أنظاره نحو بلاد المغرب الأوسط وافريقية . وكانت أحوال بني زيري وبين حماد قد ساءت الى أقصى حد من جراء تغلب العرب الهلاليين على معظم بلادهم ، وظهور خطر النصارى القادمين من صقلية ، الذين استولوا على المهدية سنة 1149/543 م ثم على صفاقس وسوسة وأصبحوا يهددون باقي سواحل افريقية .

وفي أوائل سنة 547 هـ نهض عبد المؤمن بجيوش الموحدين متجها نحو سلا ، ثم سبتة ، موهما أنه يقصد الى الأندلس ثم عدل عنها الى بلاد المغرب الأوسط يريد افتتاح ما بقي منها ، وأسرع في السير لأخدها على حين غفلة ، فاستولى على مليانة ، ثم الجزائر . ثم توجه الى بجاية فملكها ، وفرّ الأمير يحيى بن العزيز الحمادي الى عنابة ، عن طريق البحر ، ثم الى قسنطينة .

ووجه عبد المؤمن جيشا بقيادة إبنه عبد الله ، الى قلعة بني حماد ، ففتحها عنوة ، وقتل الموحدون كثيرا من أهلها وخربوها ، وجمعوا الغنائم والسبي .

وأرسل عبد المؤمن جيشا اخر الى قسنطينة وعرض الموحدون على يحيى بن عبد العزيز الحمادي الأمان في نفسه وأهله ، فأذعن لهم وسلم المدينة صلحا ، وسار الى بلاط عبد المؤمن ، فألحق هذا بحاشيته ، ورحب به وأكرمه ، وبذلك إنقرضت دولة بني حماد .

غير أن قبائل العرب ، القاطنة في مختلف أنحاء افريقية ، شعرت بخطر الدولة الموحدية على نفوذها في تلك المناطق ، فاجتمعت بظاهر باجة ، وعقدت العزم على محاربة الموحدين ، وطردهم من بلاد افريقية كلها ، مدعية الدفاع عن الأمير يحيى بن العزيز . فتصدى لهم عبد الله بن عبد المؤمن بما كان لديه من جنود الموحدين ، وكان عبد المؤمن آنذاك بمتيجة ، في طريق العودة الى مراكش ، فتوقف عن سيره ، وأرسل جيشه مددا لابنه ، وتم اللقاء بين الفريقين في ناحية سطيف ، فانهزم العرب هزيمة كبرى ، وتركوا ذخائرهم ونساءهم وكثيرا من الأسرى (صفر 548 هـ) ولما وصل عبد المؤمن الى مراكش ، استدعى رؤساء قبائل العرب ، ووعدهم بأن يعيد لهم نساءهم وأموالهم ، فوفدوا عليه ، وقدموا له طاعتهم .

وبعد هذه الحركة أصبح القطر الجزائري كله تحت سلطة الموحدين . وعقد عبد المؤمن لابنه أبي حفص على ولاية تلمسان وعين أبا محمد بن وانودين وزيرا له ، مما يدل على سعة سلطة الوالي وقوتها . كما عقد أيضا لابنه عبد الله على ولاية بجاية واستوزر له يخلف بن الحسين .

ولا شك أن مهمة ولاة الموحدين على تلمسان وبجاية كانت تشمل من جهة ، تدبير شؤون البلاد وجمع الضرائب ، وارسلها الى السلطة المركزية بمراكش ، ومن جهة أخرى ، الحفاظ على سلطة الدولة الموحدية في المنطقة . ولم يكن ذلك بالأمر المهيّن ، مادام قسم من افريقية الشرقية خاضعا لاحتلال النصارى ، وما دامت مناطق شاسعة منها تحت نفوذ قبائل العرب . فكان الحرص على إبقاء القطر الجزائري تحت حكم الموحدين يقتضي استكمال فتح أقطار المغرب كله .

ج ــ **فتح افريقية** : كان المغرب الاسلامي يتعرض آنذاك أي في منتصف القرن السادس الهجري ، الى هجمات النصارى من الجبهتين : الشرقية ، وتتمثل في استيلاء النورمان على المهدية وبعض موانيء افريقية الغربية ، وتتمثل في غارات الاسبان على أراضي المسلمين بالأندلس . فكان الموحدون عندئذ يتأرجحون بين واجب الجهاد في كلتا الجبهتين ، فتتوجه جيوشهم تارة نحو افريقية ، وأخرى نحو الأندلس .

ولما عاد عبد المؤمن من حركته الى بجاية ، واستقر بمراكش ، اضطر الى مواجهة تفاقم الوضع بالأندلس ، حيث قامت ثورات في نواحي مختلفة وازدادت غارات القشتاليين عنفا وخطورة . فصرف عنايته الى تجهيز الجيوش وإرسالها الى الأندلس ، وقمع ما حدث فيها من فتن . وقد تطلب ذلك من الموحدين جهودا كبرى ، شغلتهم عن مواصلة عملية الفتح في بلاد افريقية .

وفي سنة 553 هـ ، كانت هزيمة أبي يعقوب بن عبد المؤمن بظاهر إشبيلية ، أمام جيش النصارى ، وقتل فيها كثير من أشياخ الموحدين والحفاظ ، فأمر عبد المؤمن بالنهوض للجهاد ، وحشد الجيوش ، ثم توجه بهم الى سلا . وهناك بلغه خبر هزيمة إبنه عبد الله ، والي بجاية ، أمام تونس ، وفشل محاولته لانقاذ هذه المدينة من سيطرة النصارى ، وكان يحكمها أحمد بن خراسان ، الذي عينه النورمان عاملا عليها من قبلهم .

وعندئذ قرّر عبد المؤمن السير الى افريقية ، مفضلا القضاء على الاحتلال النورماني بها قبل استفحاله . وبدأ بضرب الحصار حول تونس ، ثم افتتحها عنوة (جمادي الآخرة 554 هـ) ثم قصد الى المهدية ، معقل النورمان الرئيسي بافريقية ، فحاصرها الموحدون برا وبحرا ، مدة بضعة أشهر ، وأغاروا أثناء هذا الحصار ، على مختلف نواحي افريقية الشرقية ، ففتحوا سوسة وقابس وطرابلس وجبل زغوان وصفاقص وقفصة وبلاد الجريد وفي محرم 555 هـ استسلم نصارى المهدية ، فدخلها الموحدون صلحا .

وباستيلاء عبد المؤمن على المهدية ، أصبحت افريقية كلها ، وسائر بلاد المغرب الاسلامي ، تحت سلطة الموحدين ، وثم تأسيس دولتهم ، وتوحيد جميع أقطار المغرب، لاول مرة في التاريخ تحت سلطة مغربية واحدة .

ولا شك أن هذا الحادث يكتسي أهمية عظمى بالنسبة لتاريخ المغرب ، بصفة خاصة ، ولتاريخ العالم الاسلامي بصفة عامة . إذ أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية في العالم الاسلامي ، الذي كان يعاني ، منذ أكثر من نصف قرن من خطر الحروب الصليبية . وأصبحت آمال المسلمين تتوجه نحو هذه الدولة الجديدة القوية ، وترجو منها أن تدافع عن حوزة الاسلام ، وتساهم مساهمة فعالة في رد عدوان الصليبيين .

3 ــ الجزائر في عهد الموحدين : لم يتمكن عبد المؤمن بن علي من تحقيق مشروعه الكبير ، الرامي الى تحطيم قوة الاسبان وجعل حد لعدوانهم على أراضي المسلمين بالأندلس ، وذلك أنه توفي في جمادي الأخرة سنة 558 هـ بسلا ، وهو يتأهب للجواز الى الأندلس . وبقي الجهاد ضد النصارى الشغل الشاغل للموحدين طيلة عهد يوسف بن عبد المؤمن (558 ــ 580 هـ) ،
ثم يعقوب المنصور بن يوسف (580 ــ 595) وإبنه الناصر (598 ــ 610 هـ) وكان لانشغال الموحدين بشؤون الأندلس أثر بالغ في تطور الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط وافريقية وخصوصا ابتداء من عهد يعقوب المنصور .

ويبدو أن الموحدين واجهوا مشاق كبرى في المجال المذهبي . وذلك أن دعوتهم لم تحظ بتأييد عدد كبير من فقهاء المالكية ، نظرا لتباين الآراء في مجالات الاعتقاد والسياسة

والتشريع ، الأمر الذي سبب في كثير من الأحيان إنتشار الثورات والفتن ، وجعل الأهالي يلتحقون بصفوفها بكثرة فكان ذلك من أهم أسباب ضعف الموحدين .

وأول ثورة هامة قامت بافريقية هي التي دارت رحاها في ناحية قفصة ، وعمت بلاد الجريد ، وانضم اليها كثير من عرب رياح ، ودامت حوالي سنتين (574 — 575 هـ) ولم تنته هذه الثورة الا بعد أن توجه الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن بنفسه ، بجيش قوي ، الى تلك المنطقة ، وأخضعها بمشقة . غير أن أخطر ثورة واجهها الموحدون هي ثورة بني غانية ، التي نتج عنها انفصال افريقية ثم المغرب الأوسط عن سلطة خلفاء الموحدين .

أ — ثورة بني غانية : في شعبان 580 هـ أي بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بأيام قلائل ، قدم علي بن غانية وأخوه يحيى من جزيرة ميورقة بجيش يتألف من أربعة الآف من بقايا المرابطين وأسطول يتركب من 32 قطعة ، متوجهين نحو بجاية .

وصادف ذلك وجود يعقوب المنصور في الأندلس ، وغياب والي بجاية ، أبي الربيع ، عن المدنية ، مع الحماية الموحدية ، في اتجاه مراكش للمشاركة في حفلة البيعة للخليفة الجديد فاحتل بنو غانية بجابة بسهولة ، ثم هزموا أبا الربيع ، الذي رجع نحو بجاية لصدهم . ثم احتلوا مدينة الجزائر ، والمدية ، ومليانة .

وهنا توقف زحف بني غانية نحو الغرب ، وغيروا اتجاههم والغالب على الظن انهم اتصلوا باخبار عودة يعقوب المنصور الى مراكش ، وتأهبه لمطاردتهم . فانطلقوا نحو الجنوب الشرقي ، وحاصروا قلعة بني حماد ، وأخذوها ، ثم حاصروا قسنطينة ، وطال حصارهم لها .

أما يعقوب المنصور ، فإنه جهز جيشا يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وأرسله بسرعة تحت قيادة ابن عمه أبي زيد بن أبي حفص ، كما أمر أسطولا بالتوجيه الى سواحل المغرب الأوسط لمساعدة الجيش . وعندما وصل خبر قدوم جيش الموحدين الى مدن المغرب الأوسط ، ثار السكان ضد بني غانية ، واعانوا الموحدين على استرجاع الجزائر ومليانة وبجاية (صفر 581 هـ) وعندئذ ، أفرج علي بن غانية عن قسنطينة ، وفرّ الى جنوب افريقية ، فاستولى على توزر ، في بلاد الجريد بعد أن حاصرها وقطع نخيلها (582 هـ) ثم على قفصة . واستقر علي بن غانية بمنطقة الجريد وجنوب افريقية الشرقية ، ومنها أصبح يهدد النواحي الشمالية ، مثل ناحية القيروان .

غير أن الأحوال ساءت في بجاية ، حيث قلت المواد الغذائية ، وانتشرت الفوضى ، وعمت الأمراض والوباء . فاستدعى أبو زيد ، وعين مكانه أبو عبد الله ، أخو يعقوب المنصور . وأمام خطورة الموقف ، طلب الوالي الجديد من أخيه الخليفة أن يقدم بنفسه الى

افريقية ، على رأس جيش آخر ، للقضاء على ثورة بني غانية . وكان هؤلاء قد استمالوا الى جانبهم عرب رياح والاثبج وغيرهم وأصبحوا يهددون افريقية كلها .

ولم يتأخر يعقوب المنصور عن تلبية طلب أخيه ، فجهّز جيشا قويا ، وغادر مراكش في شوال 582 هـ ، متجها نحو افريقية فلما بلغ تونس ، ارتحل علي بني غانية وحلفاؤه الى ناحية قفصة ، حيث انتصر على جيش أرسله يعقوب المنصور لمحاربته (ربيع الأول 583 هـ) ثم سار الخليفة الموحدي بنفسه على رأس جيشه ، نحو الجنوب للقاء بني غانية ، فكانت المعركة الحاسمة قرب قابس ، وكان النصر فيها حليف الموحدين (شعبان 583 هـ) . ثم استولى هؤلاء على بلاد الجريد كلها وقفصة (في ذي القعدة 583 هـ) ، فالتجأ بنو غانية الى الصحراء ، وعاد يعقوب المنصور الى تونس ، ثم الى مراكش .

وبعد ذلك ، عرفت بلاد افريقية فترة أمن وطمأنينة دامت أعواما عديدة . وفي بداية عهد الناصر ، عادت الفتن في افريقية ، وعاد يحيى بن غانية ، الذي خلف أخاه بعد وفاته ، الى جنوب افريقية ، وأصبح يهدد المناطق الشمالية ، ثم استولى على قابس وصفاقص وبلاد الجريد والقيروان والمهدية ، وأخيرا تونس (ربيع الثاني سنة 600 هـ) . وأصبحت افريقية كلها في قبضته ، ما عدا قسنطينة وبجاية . فكان على الموحدين أن يعالجوا الأمر بجد ويقوموا برد فعل قوي .

وبدأ هؤلاء بتنظيم حملة موفقة ، في اتجاه الجزائر الشرقية ، منبع قوة بني غانية ، فاحتلوا ميورقة ومنورقة ، وقضوا بذلك على مصدر هام لقوة يحيى بن غانية . ثم جهز الناصر جيشا ضخما وعززه بأسطول قوي ونهض بنفسه الى افريقية ، في أواسط سنة 601 ، ومرة أخرى ، خاض بنو غانية الحرب ضد جيش الخليفة الموحدي ، وهزموا هزيمة كبرى ، واستسلمت المدن التي كانوا يحتلونها . وأخيرا التجأ يحيى بن غانية الى الصحراء ، وعاد الناصر الى تونس ، فأقام بها مدة ، ثم غادرها في شوال 603 هـ ، عائدا الى مراكش . وقبل مغادرته لتونس ، عين الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي ، واليا على افريقية ، وسوغه أمرها ، واختيار ولاتها وجنودها ، وكلفه بالقضاء على بني غانية وحلفائهم .

وقد وفق بعد ذلك الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص في مطاردة ابن غانية ، فهزمه هزيمة كبرى على ضفة وادي شبرو ، قرب تبسة (ربيع الأول 604 هـ) ولم يجسر ابن غانية مهاجمة تلك المناطق بعد ذلك .

وقد نتج عن ذلك أن إضطر بنو غانية الى تحويل تحركاتهم نحو المغرب الأوسط ، بغية استلاب الخيرات وتخريب المدن . ففوجيء الموحدون بغارة يحيى بن غانية على سجلماسة وعيثه بها نهبا وتخريبا . ثم قصد الى ناحية تلمسان وتحالف مع بعض القبائل الزناتية القاطنة

جنوبها . وكان السيد أبو عمران موسى ، والي تلمسان ، قد خرج الى تلك القبائل يدعوها الى الطاعة ، ففاجأه ابن غانية وهزمه وقتله مع جميع من كان معه ، وأصبح يهدد تلمسان . فتوجه حينا والي فأس ، السيد أبو زكريا يحيى ، الى تلمسان بالمدد ، وأقام بها لحمايتها ، الى أن وصلها الوالي الجديد ، أبو زيد بن يوجان ، مغ جيش قوي . وعندئذ عدل يحيى بن غانية عن اقتحام المدينة ، وأغار على تاهرت ، فنهبها وعاث فيها فسادا وخربها (605 هـ) ثم تابع سيره نحو جبل نفوسة ، جنوب افريقية . فتصدى له والي افريقية في معتصمه بجبل نفوسة وهزمه هزيمة كبرى قضت على آماله وبعثت الارتياح في نفوس الأهالي (606 هـ) .

والتجأ يحيى بن غانية الى واحة ودان ، ولم يغادرها طيلة ولاية عبد الواحد بن أبي حفص ، ولم يجسر على العودة الى غاراته التخريبية الا بعد وفاة هذا الأخير في محرم سنة 618 هـ وأخطر حركة قام بها بعد ذلك هي التي قادته في أواخر سنة 623 هـ الى ناحية قسنطينة ، ثم الى بجاية فتدلس ، ثم الى متيجة ، فخرب ناحيتها ، وكانت من أغنى مناطق المغرب وأخصبها . وهب عبد الرحمن بن منديل ، أمير مغراوة لصد هجومه فهزم ابن منديل وقتله ابن غانية صبرا ، واستولى على عاصمته مليانة ، ثم على الجزائر .

وفي أواسط سنة 624 هـ نهض الشيخ أبو محمد عبد الله والي افريقية ، لمطاردة ابن غانية وأتباعه من هوارة ، فسار الى بجاية ، وأصلح شؤونها ، ثم الى مليانة وغيرها من المدن واقتفى أثر ابن غانية نحو الجنوب الغربي . ثم عاد والي افريقية الى تونس (رمضان 624 هـ) بعد أن أعاد الأمن في ربوع المغرب الأوسط .

وبعد ذلك تلاشى أمر يحيى بن غانية ، وقل ناصره ، وبقي يرتاد بعض مناطق المغرب الأوسط الى أن توفى سنة 631 هـ قريبا من مليانة . وكانت الأوضاع السياسية قد تطورت ، آنذاك ، تطورا كبيرا ، من جراء ضعف الخلفاء الموحدين ، الذي أدى الى تصدع صرح دولتهم ، وانقسام اجزائها .

ب ــ تأسيس إمارة الحفصيين : يرجع تأسيس الامارة الحفصية بالدرجة الأولى ، الى اختلاف عقائدي قام بين والي افريقية الحفصي وبين الخليفة الموحدي إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (624 ــ 629 هـ) وكان هذا الأخير قد دعا لنفسه بالخلافة ، وهو بالأندلس ، وبايعه أشياخ الموحدين . ثم رجعوا عن بيعتهم وعينوا خليفة آخر هو يحيى المعتصم .

وعندئذ اشتد غضب إدريس المأمون ، ولجأ الى طلب مساعدة ملك قشتالة . ثم أجاز الى المغرب قاصدا الى مراكش ، فدخلها بعد أن هزم يحيى المعتصم ، وانتقم من الأشياخ الذين نكثوا بيعته ، فقتل زهاء مائة منهم . وأعلن بطلان رسوم المهدي والعصمة وأمر الناس

الذين نكثوا بيعته ، فقتل زهاء مائة منهم . وأعلن بطلان رسوم المهدي والعصمة وأمر الناس في سائر الأنحاء باعتبار ذلك بدعة يجب تركها وازالتها . والظاهر أن هذا الاعلان ، الذي كان يهدف الى تحطيم أسس الدعوة الموحدية ، يشكل خطوة حساسة في الصراع حول النفوذ السياسي ، الذي كان قائما بين الخلفاء من أبناء عبد المؤمن وبين أشياخ الموحدين ، منذ وفاة الناصر .

وفي تلك الأثناء خلع أبو زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص والي افريقية ، طاعة المأمون ، وبايع يحيى المعتصم (اوائل سنة 627 هـ) واتخذ لقب أمير ، محققا بذلك أولى خطوة نحو استقلاله .

وفي سنة 628 هـ ، استولى الأمير أبو زكرياء على قسنطينة ، ثم على بجاية ، وأصبح بذلك نفوذه يشمل افريقية كلها . وفي 7 صفر 633 هـ ، أسقط أبو زكرياء في الخطبة الدعاء الى الخليفة الموحدي . وبعد وفاة يحيى المعتصم ، بويع أبو زكرياء الحفصي بالامارة ، وذكر إسمه في الخطبة بعد المهدي . فتم انفصال افريقية عن الخلافة المومنية .

ج ـــ **تأسيس إمارة بني زيان** : لقد تقلص ظل الموحدين أيام إدريس المأمون ، في المغرب الأوسط ، فلم يبق لهم فيه نفوذ الا في مدينة تلمسان ، حيث كان واليها السيد أبو سعيد عثمان ، أخو المأمون ، يحاول إنقاذ الموقف بها . وكانت قبائل زناتة قد استولت على أغلب النواحي . فكان أولاد منديل من قبيلة مغراوة ، قد احتلوا ناحية شلف ومدنها الهامة ، ومليانة وشرشال وبرشك وتنس ، واختطوا ، في ذلك العهد ، مازونة . وأسس بنو توجين إمارة أخرى تشمل جبل السرسو ، وجبل وانشريس كله وملكوا المدية مدة . وكان بنو راشد قد استقروا في الجبل الذي أصبح يحمل إسمهم ، وأهم مدنه قلعة بني راشد .

أما بنو عبد الواد ، فإنهم انتهزوا فرصة ضعف الموحدين ، وما أصاب المغرب الأوسط من فوضى واضطراب أيام هجوم بني غانية وعبثهم في مناطقه ، فبسطوا نفوذهم على ناحية تلمسان . ولم يقوموا بزحف موحد ومنظم ، بل كانت كل فصيلة من القبيلة تحتل احدى المناطق . وتم ذلك سنة 623 هـ ، تحت قيادة جابر بن يوسف . ولم يقدم بنو عبد الواد على اقتحام مدينة تلمسان آنذاك .

غير أن الظروف السياسية هيأت لهم الجو لتحقيق ذلك ، فكان الخلاف الذي وقع في صفوف الموحدين سببا في انهيار سلطتهم وانتشار الفتن في سائر النواحي .

وشعر والي تلمسان ، السيد أبو سعيد عثمان ، بالخطر فحاول أن يقضي على نفوذ بني عبد الواد قبل أن يستفحل أمرهم ، وقبض على أشياخهم واعتقلهم . وشفع فيهم إبراهيم

بن اسماعيل اللمتوني ، أحد رجال الحامية ، فردت شفاعته فثار ضد الوالي وأطلق سراح أشياخ بني عبد الواحد ، واعتقل السيد أبا سعيد مكانهم . وقيل أنه كان يريد الانتصار لابن غانية .

وحدث أن دعا إبراهيم هذا أشياخ بني عبد الواد لوليمة ، ولكن هؤلاء لم يثقوا به ، ورأوا في تلك الدعوة مكيدة تحاك ضدهم ، فقبضوا عليه ، واستولوا على تلمسان بدون حرب (627 هـ) بدعوة إدريس المأمون .

وبايعتهم نواحي تلمسان كلها ، الا مدينة ندرومة ، فتوجه اليها أميرها جابر بن يوسف ، وحاصرها ، ولكنه قتل أثناء الحصار بسهم أصابه 629 هـ) .

فخلفه إبنه الحسن في الامارة ، ولكنه استقال عنها ، بعد ستة أشهر ، وتركها لعمه عثمان بن يوسف (أوائل سنة 630 هـ) فساءت سيرته ، وأخرج من المدينة ، في شهر رجب 631 هـ .

ثم عين زكدان بن زيان في منصب الامارة (وزيان هو ابن عم جابر بن يوسف) ولم يبايعه من بني عبد الواحد بنو مطهر ، الذين استعانوا ببني راشد وحاربوه . وأخيرا قتل زكدان خارج تلمسان في 24 ذي القعدة سنة 633 هـ .

فخلفه أخوه يغمراسن بن زيان ، فكان أول أمير أعلن استقلاله بتلمسان ، ويعتبر عهده بداية الدولة العبد الوادية أو الزيانية ، ونهاية عهد الموحدون بالمغرب الأوسط .

الفصل الثالث

التنظيم الاداري في عهد المرابطين والموحدين

د. عبد الحميد حاجيات

1 ــ التنظيم الاداري في عهد المرابطين :

كانت الدولة المرابطية في عهدها الأول ، حينما انتهى يوسف بن تاشفين من إنشائها وتوضيع قواعدها إمارة يتسمى منشؤها بالأمير . وعقب انتصار الزلاقة تسمى يوسف « بأمير المسلمين وناصر الدين» وهو اللقب الذي أصبح من بعده لقبا لملوك المرابطين . وهذا الى اعتراف العاهل المرابطي بطاعة الخليفة العباسي . وهو إجراء لم يتعد الحدود الشكلية من الدعوة للخليفة العباسي في الخطبة مع الأمير وذكر إسمه في السكة .

ثم غدت الدولة المرابطية مملكة وراثية منذ إختيار يوسف ولده عليا لولاية عهده في سنة 496 هـ/1102 م ، وحذا حذوة في ذلك علي فاختار ولده تاشفين لولاية عهده في سنة 533 هـ/1138 م ، واختار تاشفين ولده إبراهيم لولايه عهده في سنة 539 هـ/1145 م ، وهو في وهران يخوض مع الموحدين آخر المعارك الحاسمة .

ولم يكن العاهل المرابطي يتقيد في هذا الاختيار لولاية العهد بشروط معينة وانما كان يجري وفقا لمشيئة الملك القائم ، فيختار من ولده من يراه أهلا لخلافته .

وكانت عمالات المغرب أو ولاياته ، وهي نحو ثمانية ، مراكش ، وسجلماسة ، ودرعة ، ومكناسة ، وبلاد فازاز ، وتلمسان ، وطنجة ، وسبتة ، تخصص لابناء الأمير وقرابته . أما الأندلس فكانت تنقسم في عهد الدولة المرابطية الى خمس ولايات هي : اشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية . وكانت سرقسطة قبل سقوطها في أيدي النصارى في سنة 512 هـ/1118 م تعتبر ولاية سادسة . واتخذ المرابطون في البداية قرطبة مركزا لحكومتهم بالأندلس . وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده لولده علي ولما تولى علي الملك أمر بنقل قاعدة الحكم

الى غرناطة فلبثت كذلك حتى سنة 526 هـ وفي هذا العام عين أمير المسلمين علي بن يوسف ولده الأمير تاشفين واليا لقرطبة وأمره أن يجعل منها « داره وسكناه ومقر مثواه » وهكذا غدت قرطبة مركز الحكم المرابطي مرة أخرى ، واستمرت كذلك حتى سنة 539 هـ/1144 م ، وهي السنة التي اضطرت فيها قواعد الأندلس ومنها قرطبة بالثورة على المرابطين .

وكانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس وقفا على الأمراء والقادة المرابطين ولا سيما ذوي القربى منهم . وكان في مقدمة هؤلاء بعض أقطاب القادة المرابطين الأوائل ، الأمير سيرين أبي بكر اللمتوني فاتح اشبيلية ثم واليها محمد بن الحاج والي بلنسية ثم سرقسطة ومن بعد يحيى بن غانية والأمير أبو محمد مزدلي والي قرطبة وهو من أبناء عمومة يوسف وولداه محمد وعبد الله والأمير محمد بن عائشة ولد يوسف ومحمد بن فاطمة والي اشبيلية وعبد الله بن تينغمر والي قرطبة وهو ابن أخت علي بن يوسف . أما مناصب القضاء في القواعد الكبرى فقد تركها المرابطون للأندلسيين وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين من يستطيع الاضطلاع بهذه المناصب في بلد الأندلس وامتاز قضاته بغزير علمهم ، وقد كان أولئك القضاة الأندلسيون يتمتعون لدى العاهل المرابطي بكثير من النفوذ ، ولهم كلمة مسموعة في كثير من الشؤون الهامة ، وكانوا في نفس الوقت رسله لتدعيم هيبته ونفوذه لدى الشعب الأندلسي ، وكان من أبرز نماذج أولئك القضاة رجال مثل أبي الولد بن رشد وأبي القاسم بن حمدين . وقد تولى كلاهما قضاء قرطبة . ثم كان أولئك القضاة فيما بعد حينما اضطربت شؤون الدولة المرابطية ، هم قادة الثورة ضد المرابطين في مختلف القواعد وهم الذين تولوا حكم المدن الثائرة حتى مقدم الموحدين .

أما عن الكتابة فإن الدولة المرابطية كانت منذ بدايتها تعتمد في شؤون الكتابة على الكتاب الأندلسيين . فكان كاتب يوسف بن تاشفين حتى قبل أن يعبر الى الأندلس أندلسي من أهل المرية هو عبد الرحمن بن اسباط ولما توفي خلفه في منصب الكتابة أبو بكر ابن القصيرة وهو يومئذ من أئمة البلاغة بالأندلس ثم كتب بعد وفاة يوسف عن ولده علي . وكان بلاط مراكش عهد علي بن يوسف يضم الى جانب ابن القيصرة طائفة من أقدار الكتاب الأندلسيين في هذا العصر مثل أبي القاسم بن الجد وأبي بكر بن عبد العزيز البطليوسي المعروف بابن القبطرنة وابن عبدون وأبي عبد الله بن أبي الخصال وغيرهم . وقد كان من الطبيعي أن تعتمد الدولة المرابطية التي نشأت في مهاد البداوة والتقشف في شؤون الكتابة ولا سيما بعد افتتاح الأندلس على اقطاب البلاغة من الكتاب الأندلسيين وأن يكون أولئك الكتاب ألسنتها لدى الشعب الأندلسي الذي اعتاد على أساليب الكتابة العالية .

2 ـــ التنظيم الاداري في عهد الموحدين

لم يكن تنظيم الدولة الموحدية التي تضم المغرب وجزءا من الأندلس بالأمر المهين بالنسبة لعبد المؤمن ، هذا من ناحية : أنه يجب توحيد عدد كبير من الامارات المستقلة . ومن ناحية أخرى أن المؤسسات التي أعطاها المهدي الى المجتمع الموحدي المتاخم لجبال الأطلس الأعلى المغربي لا تناسب إمبراطورية بهذا الوسع ولنرى أولا ما هي الحالة السياسية التي كانت سائدة في افريقية وفي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس غداة الغزو الموحدي . ففي افريقية كان نرمنديو صقلية قد تمكنوا من طرد آخر أمراء الزيريين من المهدية واستولوا على مدن سوسة وصفاقس وطرابلس وقابس . واعتصم بنو هلال بالنوادي بينما مكث بنو خراسان بتونس وأقام بنو الورد ببنزرت وبنو بروغسان بالزرعة وبنو علال بتبرية وبنو لخم بجبل زغوان وبنو عيذ بالاربس .

وكان المغرب الأوسط بين أيدي الحماديين وبني هلال الذين تمكنوا من الانتشار في ربوعه . ولقد احتل الحماديون المدن بينما استولى بنو هلال على البوادي .

أما الجزء الغربي من المغرب فكان تحت سلطة المرابطين وقبائل زناتة مثل بنو ومانو وبنو الومي وبنو عبد الواد .

أما عن الحالة في الأندلس فكانت متدهورة ، فبعد الأنهزام الأرن لد ابطين في المغرب تم طرد الولاة المعينين من قبل مراكش وحل محلهم مؤسسوا السلالات الحاكمة المحلية مثل ابن عياض وابن مردنيش ببلنسية ومرسية والرميمى بالمرية وابن هموشك بجيان . ولم يبق تحت سلطة المرابطين سوى قرطبة وغرناطة واشبيلية .

ولندرس الآن وبإيجاز ما هي المؤسسات الموحدية في عهد ابن تومرت ؟ فعلى رأس هذه الطائفة كان المهدي هو الرئيس الديني والدنيوي وكان يتمتع بنفوذ كبير أمام الموحدين . كان يساعده في الحكم مجلسان : مجلس الخمسين وهو مجلس يضم ممثلي كل القبائل ومجلس العشرة أو الجماعة . وهو مجلس يتكون من أقدم أصحاب المهدي . وكانت لبعض أعضاء الجماعة مهام خاصة : كان أبو إبراهيم الخزراجي يقوم بمهمة العدل وكان أبو عمران القدميون يشرف على الأموال وكان عبد الله بن محمد إماما .

وكان عبد المؤمن الذي ينتمي الى هذا المجلس الشخص المفضل لابن تومرت وإثر موت هذا الأخير تم تعيين عبد المؤمن على رأس طائفة الموحدين بفضل أعضاء المجلس . وكما تجدر الاشارة أنه كان يأخذ آراءهم بعين الاعتبار ويضطر أحيانا الى الخضوع ال قراراتهم .

فمثلا أثناء الاستيلاء على مدينة مراكش ، عندما أراد عبد المؤمن أن يعفو عن أمير شاب من المرابطين بدأ أحد أصحاب ابن تومرت وهو أبو الحسن بن وقاف يصرخ ويصيح «أيها الموحدون إن عبد المؤمن يريد أن يعارضنا» .

وهكذا إضطر عبد المؤمن أن يداري عائلة المهدي . وقد سمح ابن عم هذا الأخير لنفسه بسب صهر الخليفة وتركه يواجه وحده بني هلال القادمين من افريقية الأمر الذي أدى الى موته . وكان عبد المؤمن لم يتخذ أي عقاب ضده على الفور ولم يتمكن من القضاء عليه الا بعد مرور مدة زمنية ومع أخذ احتياطات وحذر كبير . وكان أخوان المهدي من ناحيتهم قد تسببوا في هموم جمة لعبد المؤمن . ولما شعروا أنهم في أمن من كل ملاحقة سمحوا لأنفسهم بأعمال تخريب عديدة في بلاد الأندلس وذهبوا الى حد القيام بمحاولة إغتيال الخليفة . وعندما كانوا قد وضعوا تحت الاقامة الجبرية في مدينة فاس تمكنوا من الفرار منها وحاولوا أن يقرو مراكش وماتوا أثناء المعركة التي شنوها ضد ثكنة عاصمة الموحدين .

وكذلك فإنه في بداية حكمه حافظ عبد المؤمن على المؤسسات التي ورثها عن المهدي . ولم يتمكن الا بعد معركة سطيف من تجهيز إمبراطوريته بتنظيم اداري جديد يضم الى جانب الخليفة الشيخ أبا حفص عمر ولي العهد المنتظر والوزير والكتاب والقضاة والطلبة والحفظية وولاة المحافظات والمحاسبين .

أ) **الخليفة** : يوجد على رأس الامبراطورية الموحدية خليفة وهو الرئيس الديني والدنيوي الذي له اليد العليا على أمور الدولة وهو الذي يعين ويعزل الموظفين السامين ويشرف على الجيش ويرأس الصلوات والحفلات الدينية التي تقام بمناسبة الأعياد مثل عيد الفطر وعيد الأضحى وله وحده الحق والنفوذ في سك النقد .

ب) **الشيخ أبو حفص عمر** : وهو الشخصية الثانية للدولة وعضو في مجلس العشرة ويعتبر أقدم أصحاب المهدي وحسب المراكشي كان عبد المؤمن قد عينه أولا كوزير ثم ما برح أن لاحظ أنه فوق هذه المهمة .

واذا وثقنا بابن الأثير تم الاتفاق بين عبد المؤمن وأبي حفص بأن يكون هذا الأخير خلفا له . ولكن هذا المؤلف صاحب كتاب «الكامل» أضاف قائلا «عندما أصبح حاكما ورزق بعدة أولاد ، كان يرغب في أن يخلفوه وهكذا فانه استدعى الأمراء الهلاليين القاطنين في افريقية وغمرهم بالهدايا وحثهم بواسطة رسله أن يعلنوا بأنهم يطالبون بأن يكون أحد أبناء الخليفة وليا للعهد ولكنه تظاهر بأنه لم يوافق على مطالبهم وذلك إحتراما لأبي حفص عمر ونظرا للمكانة التي يحظى بها هذا الأخير لدى الموحدين أجاب بأن هذه الموافقة ترجع الى

عمر ولكن عندما رأى هذا الأخير ما يجري حوله انتابه خوف وسارع الاعلان الى عبد المؤمن أنه تنازل عن ولاية العهد وهكذا تم أداء اليمين من قبل محمد أكبر أولاد الخليفة » ولم ينل تعيين خلف منظر من هيبة أبي حفص عمر الذي شغل أعلى المناصب في الامبراطورية حيث تم تعيينه واليا على قرطبة . وعندما ذهب عبد المؤمن في سفر لفتح افريقية تركه هو كنائب على مراكش .

ج — ولي العهد : وأثناء الاحتفالات الرسمية ، كان ولي العهد يجلس مباشرة وراء الخليفة وكان إسمه يذكر في خطبة الجمعة وأيام الأعياد ، غير أنه يبدو أنه لم يشغل مهام ادارية أو عسكرية هامة . لا شك في أنه كان واليا على مراكش ولكن عبد المؤمن لا يعتمد عليه حيث أنه كما رأينا قبل ذهابه لفتح افريقية ترك الخلافة للشيخ أبي حفص . وعندما رأى الخليفة أن نهايته إقتربت عزل محمدا لأنه كان يرىٔ أنه ليس أهلا لأن يكون خليفة له . ولقد ذكر المراكشي بهذا الصدد بأن ولي العهد محمد لم تكن لديه أي كفاءة للقيادة بسبب حبه للخمر وقلة حكمته وسطحية طبعه وجبنه .

د — الوزير : كان الوزير الأول بعد أبي حفص هو أبو جعفر أحمد بن عطية الذي ولد في مراكش في سنة (516 — 1122) وبعد أن زاول دراسته دخل في الادارة المرابطية حيث كان أبوه يشغل منصب كاتب العاهل علي بن يوسف وبعد اشتغاله بعمل ثانوي استطاع أن يتفوق ويجلب الأنظار اليه بفضل ثقافته ونبوغه في مجال الكتابة الأمر الذي سمح له بأن يتزوج ابنه أخ تاشفين ولي عهد علي بن يوسف .

وأثناء الاستيلاء على مدينة مراكش تمكن أبو جعفر من الفرار من الموت بمعجزة وانخرط في صفوف الجيش الموحدي وشارك في الهجوم الموجه ضد ابن هود في جنوب المغرب تحت قيادة الشيخ أبي حفص عمر وذلك في سنة (541 — 1147) ولقد أراد هذا الأخير أن يخبر الخليفة بانتصاره وبعد أن قام أبو جعفر بالتعريف بنفسه ، وتولى كتابة الرسالة ووجد عبد المؤمن الرسالة مكتوبة بأسلوب جميل الأمر الذي دفعه الى معرفة كاتب الرسالة الذي وظفه كسكرتير له وأظهر أبو جعفر تفوقه الى درجة جعلته يحصل على رتبة وزير . ويذكر ابن خلدون أن أبا جعفر بن عطية « جعل سلطته تتسع الى حدود الامبراطورية حيث كان يشرف على الجيش ويجمع الأموال التي ينفقها بسخاء وبلغ في نهاية المطاف مكانة مفضلة لدى السلطان لم يحظ بها أحد قبله» .

وبقي أبو جعفر في الحكم لمدة عشر سنوات ورافق الأمير أبا يعقوب الى مدينة اشبيلية وشارك الى جانبه في عدة معارك انتصر فيها . وأثناء هذا الوقت خضع صهره الصحراوي لعبد

المؤمن ومكث بمدينة مراكش في سنة (550 — 1155) وفي السنة الموالية ، علم الخليفة بموقف الصحراوي المشكوك فيه وأمر بفتح تحقيق . وعلم أبو جعفر بذلك ونصح صهره بالفرار الى جزيرة ميروقة (Ile de Mayorque) التي كانت لاتزال بين أيدي المرابطين للصحراوي متسع من الوقت لانجاز مشروعه وتم اعتقاله وسجن حتى مات في السجن . وكان أبو جعفر يعرف التهم الموجهة له فسافر الى مراكش لتقديم الحجج لكنه اعتقل مع أخيه الصغير أبي عقيل وتبع عبد المؤمن في رحلته الى تنمال (Tinmal) وأثناء العودة قتل الاخوان بالقرب من مدينة مراكش وخلفه أبو السلام الكومي في منصب الوزير وكان ابن محمد الكومي الذي تزوج في عرش تان أم عبد المؤمن عندما أصبحت أرملة على أبي الخليفة ، وشارك عبد السلام الكومي في حملة افريقية الى جانب عبد المؤمن وساهم بقسط وافر في عملية الاستيلاء على تونس التي كان واليا عليها بعد سفر الخليفة الى المهدية . وكان حسب ابن الابار « متكبرا وعنيفا وفي المكانة التي توصل اليها كان يعتمد على علاقته بالحاكم وكذلك على أهله ويبتزّ الأموال » وسجن في تلمسان بعد رجوعه من الهجوم على افريقية ومات سجينا أو بسبب الضرب بالأقدام .

ويروي لنا ابن الأبار « إن عبد السلام عندما كان وزيرا استقبل جماعة من الناس أتو من سلا (Salé) ولكنه لم يحسن معاملتهم . فكتب اليه أحد هؤلاء الناس « أيها الرجل الذي تعتقد أن إهانة الناس هي إكرامهم وأن خيبة آمالهم هي تلبية رغباتهم ! مهلا إنك بين أيدي الزمن كنسيج خام لن يفتأ أن يتغير لونه ويداس » وختم المؤرخ : قتل عبد السلام بالركل بالأرجل في اليوم الثاني بعد وصول هذه الرسالة . وبعد عبد السلام الكومي أسندت مهام الوزير الى أبي العلا إدريس بن جامع تحت قيادة أبي حفص بن عبد المؤمن وكان أبو أبي العلا من مواليد طليطلة (Tolède) ثم التحق بالمغرب الأقصى حيث اتصل بابن تومرت وكان من حاشية المهدي « أهل الدار » .

أما عن أبي العلا نفسه فقد شغل منصب الوزير في عهد عبد المؤمن ثم في عهد خليفته أبي يعقوب لغاية سنة (577 — 1181) وهو تاريخ حصر أمواله .

هـ) **الكتاب** : ندرج أسماؤهم في الرسائل الرسمية وفي كتب المؤرخين . وكان عدد كتاب عبد المؤمن الذين ظهرت أسماؤهم في رسائل الموحدين خمسة : أبو جعفر بن عطية ، وأبو عقيل عطية بن عطية ، وأبو الحسن بن عياش ، والمؤرخي والقلمي .

— **أبو جعفر بن عطية** : كان يشغل أيضا منصب الوزير ونجد إسمه مسجلا في أربع عشرة رسالة .

ــ أبو عقيل عطية بن عطية : وهو أخو الكاتب المذكور سابقا وهو من مواليد (530 ــ 1153) وكان سنه 22 سنة عندما قتل مع أخيه أبي جعفر كان إسمه مسجلا في ثلاث رسائل .

ــ أبو الحسن عبد المالك بن عياش : كان أبوه من أصل برتغالي واستوطن بقرطبة حيث شغل مهام الامام والمدرس لغاية موته . كان عبد المالك أولا كاتبا لبني حمدين بقرطبة ودخل إثر ذلك في خدمة عبد المؤمن وكان ناسكا مثاليا الأمر الذي جعل الناس يسمونه الزاهد . كان يتمتع بثقافة عالية ويملك براعة حقيقية في فن الخط . وبعد موت الخليفة الاول بقي يشغل منصبه في عهد أبي يعقوب لغاية سنة (568 ــ 1172) وهو تاريخ موته وظهر أسمه في رسالتين .

ــ المؤرخي : وهو أبو الحسن علي بن محمد اللخمني الملقب بالمؤرخي وكان ابنا لأحد سكان اشبيلية المستوطنين في قرطبة ولقد دخل في خدمة عبد المؤمن وساهم في الهجوم ضد افريقية . ويوجد إسمه في الرسالة التي تخبر المواطنين في قرطبة بالاستيلاء على قفصة .

ــ القلمي : وهو أبو القاسم بن عبد الله القلمي وكان ينتسب الى قلم وهي قرية صغيرة واقعة بالقرب من بجاية ودخل في خدمة عبد المؤمن بعد فتح مدينة بجاية . ونجد إسمه مسجلا في احدى الرسائل المؤمنية والى جانب الكتاب الخمسة الذين ذكرناهم يحسن بنا أن نضيف أربعة أخرين وهم أبو محمد عبد الله بن جبل وميمون الهواري وأبو علي العشيري وأبو القاسم اخيال بن إدريس الرندي وكان إبو محمد بن جبل حسب المراكشي الذي جعل منه قاضيا من أصل مدينة وهران مشهورا بطلاقة لسانه .

وميمون الهواري وهو من مواليد قرطبة (Cordoue) كان رجل أدب وعالما في الفقه وألف أشعارا حول الخلاف الذي تسبب في التشاجر الذي وقع بين أبي الوليد بن رشد وأبي محمد بن أبي جعفر بشأن التفوق الذي يجب أن يعطى للتهليلة أو الحمد لله وتخبر في نهاية الأمر الى ابن رشد وكان أبو علي العشيري مولودا في مدينة تلمسان . ولقد ذكر البيذق أنه شارك في المعركة التي نشبت بين الموحدين والمرابطين في تلمسان وتولى أبو القاسم اخيال في إدريس الرندي مهام كاتب لدى الوالي المرابطي في الأندلس ثم لدى ابن حمدين الذي كان حاكما بقرطبة . وفور وصول ابن غانية الى هذه المدينة فرّ الى رندة (Ronda) حيث طرد . وبعد هذا توجه الى مراكش واتصل بالوزير أبي جعفر الذي عينه قاضيا بقرطبة ثم باشبيلية وكان عضوا في وفد الأعيان الأندلسيين الذين استقبلهم عبد المؤمن بجبل طارق ولقد تم نفيه لبعض الوقت في مدينة مكناس لانه قال أن الخلافة لا تمنح الا للقرشيين ومات في اشبيلية في سنة (560 ــ 1165) أو خلال السنة التي بعدها .

3 ـــ **القضاء** : حسب المراكشي كان أبو محمد بن جبل من قضاة عبد المؤمن وكذلك كان عبد الله بن عبد الرحمن المالقي يشغل هذا المنصب أيضا في عهد أبي يعقوب وحسب ابن القطان وابن صاحب الصلاة كان قضاة الخليفة الأول الموحدي أبا عمران موسى بن سليمان وأبا يوسف الحجاج بن يوسف الهواري . كان الاول صهر عبد المؤمن . وأنجبت بنته زينب أميرين : أبو حفص وأبو يعقوب . وكان أبو عمران شيخا لتنمال وعضوا في مجلس الخمسين وكان ينوب أحيانا عن عبد المؤمن عندما يتغيب هذا الأخير عن مدينة مراكش ، أما عن الثاني فكان من بجاية وشغل مهام القاضي بمدينة مراكش ومات أعمى أثناء وباء الطاعون الذي اجتاح المغرب الأقصى في سنة (572 ـــ 1162) وأخيرا يضيف ابن إبي زرع الى عدد هؤلاء القضاة أبا بكر بن ميمون القرطبي الذي يعطينا ابن صاحب الصلاة بعض المعلومات حوله . فهو من قرطبة . وكان القرطبي قد ذهب الى مراكش حيث عاش حياة سعيدة حتى جعله ذلك ينسى مدينة مسقط رأسه ولقد إشتغل كأستاذ وكانت دروسه يحضرها العديد من الطلبة القادمين من كل الأنحاء وكان أيضا شاعرا .

4 ـــ **الطلبة أو الخطباء** : يعطينا ابن القطان في الفقرة التي خصصها للطلبة ثلاثة أسماء للخطباء وهم : أبو محمد بن جبل وأبو الحسن الاشبيلي وأبو بكر بن مسمون . ولقد سبق أن تحدثنا عن الأول بصفته كاتبا والثاني تحدث عنه ابن صاحب الصلاة وكان شيخ الطلبة والمتحدث باسم الخليفة لدى الوفود التي تأتي لملاقاته . كان يعرف مؤلفات المهدي تمام المعرفة . وكان ينتمي الى المجلس الأعلى حيث كانت أراؤه معتبرة ومسموعة وقد عامله عبد المؤمن بكرم وسخاء وهو من ناحيته كان يغدق الأموال على الطلبة وواصل ممارسة مهامه في عهد أبي يعقوب . وأما عن أبي بكر بن ميمون القرطبي فقد تحدثنا عنه عندما تعرضنا لموضوع القضاة و الى جانب هؤلاء الأشخاص الثلاثة يمكن أن نضيف أبا يوسف الحجاج ابن يوسف الهواري الذي ذكرناه ضمن عدد القضاة والذي ذكره ابن الأبار حيث قال أنه كان قاضيا وخطيبا بمدينة مراكش .

5 ـــ **الحفظة** : كان عبد المؤمن يريد أن يعطي لامبراطوريته إطارات قديرة وذات كفاءة عالية حيث أنه أسس مدرسة للحفاظ وكان الحفظة موجودين في عهد ابن تومرت . كانوا شبابا يدرسون العلوم الدينية للتخرج كطلاب ولقد أنشأ الخليفة الأول الموحدي لهؤلاء الطلبة معهدا جمع ثلاثة آلاف طالب ينتمون الى كل طبقات المجتمع وكان اختيارهم يتم حسب استعدادهم الثقافي والفيزيائي . وفي هذه المؤسسة يدرس الطلبة العلوم الدينية مع التركيز على مؤلفات ابن تومرت وكانوا أيضا يتعلمون ركوب الخيل والرمي بالقوس والسباحة .

وكان عبد المؤمن يأخد على نفقته كل تكاليف تكوين وتدريب الحفظة وكان يدعوهم كل يوم جمعة بعد الصلاة الى قصره ، وعندما تنتهي دراستهم تسند اليهم المهام التي تمنح للشيوخ الموحدين . ويوجد بينهم ثلاثة عشر إبنا لعبد المؤمن .

6 ــ ولاة المحافظات : لقد سبق أن أشرنا أنه بعد معركة سطيف ، عين عبد المؤمن ابنه الأكبر خلفا له ثم عين أبناءه الآخرين على رأس المحافظات . واذا رجعنا الى ابن الأثير فإننا نرى أنه توخى الطريقة التالية : كما كتب مؤلف « الكامل » « كان من الصعب عليه أن يعزل الشيوخ الموحدين المعروفين والذين كانوا رفقاء المهدي محمد بن تومرت والذين أسند اليهم الحكم في عدة مقاطعات ولقد استبقى ابناءهم قربه بغية تمكينهم من متابعة الدرس وعندما حصل هؤلاء الطلبة على قدر كاف من العلم قال لابائهم «إنني أرغب في أن تكونوا بالقرب مني حتى تدعموا خططي بفضل نصائحكم ، والآن أبناؤكم الذين أصبحوا علماء وفقهاء يستطيعون أن يحكموا في مكانكم» وقد قبلوا هذا الطلب بكل رضى لأن أبناءهم سيحلون محلهم . وعندئذ كلف عبد المؤمن رجل ثقة قد خاطبهم «إنني أعتقد أن في مثل أمر هام كهذا كان سلوككم غير موفق وكيف هذا ؟ إن أبناءكم أصبحوا ولاة بينما أبناء أمير المؤمنين رغم أنهم علماء وخبراء في مجال تسيير شؤون الدولة لم يحصلوا على أي منصب فقد تفقدون بسبب تصرفكم هذا تقدير الأمير اذا لفتت إنتباهه هذه النقطة» وعندما أثرت فيهم هذه الملاحظة التي أتت في محلها توجهوا الى صاحب الأمر والنهي وطلبوا منه أن يمنح مناصب ولاة لابنائه ولكن تظاهر عبد المؤمن بالرفض ولما الحوا عليه كثيرا وافق على طلبهم .

ويعطي لنا الكاتب غير المعروف للحلل الموشية رواية حول هذا الموضوع قريبة تماما من هذه الرواية حيث ذكر «عندما انتهى الحفظة من الدراسة عزل عبد المؤمن الشيوخ الموحدين من منصب الولاية على المحافظات قائلا «إن العلماء لأقدر منكم ، أتركوا لهم الحكم» ثم تركهم بقرية كمستشارين ونظرا لان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولدا يتمتعون كلهم بالصفات المطلوبة في حاكم مناسب ، طلب شيوخ الموحدين منه أن يوكل إدارة المحافظات الى أبنائه وتظاهر بالرفض ولكنه وافق في النهاية على طلبهم وعين أبناءه كولاة ووظف أبناء شيوخ الموحدين معهم ، وحصل الأوائل على مرتبة سيد والآخرون على رتبة شيخ . نلاحظ أن هناك نوعا من التسلسل في الحكم فعلى رأس الدولة الموحدية يساعد الخليفة الشيخ أبا حفص عمر وهذا التعاون الوثيق بين عائلة الخليفة والشيوخ الموحدين وهم أصحاب المهدي هو الذي جعل الادارة المؤمنية تتميز بطابعها الخاص فالمحافظات الأولى التي أسندت الى أبناء عبد المؤمن كانت محافظات المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وكان لكل سيد ولكل شيخ مساعد وهو الكاتب .

وبهذا الصدد نجد في مدينة تلمسان السيد أبا حفص والشيخ أبا محمد بن وندوف والكاتب أبا الأصبع بن عياش وفي بجاية السيد أبا محمد عبد الله والشيخ أبا سعيد يخلف بن الحسن والكاتب أبي بكر بن جيش وفي مدينة فأس السيد أبو الحسن على والشيخ أبو يعقوب يوسف بن سليمان والكاتب أبو عباس بن مدعة . وهناك أبناء آخرون لعبد المؤمن تولوا الحكم وهم : أبو الربيع سليمان والي تادلة وأبو زيد عبد الرحمن في السوس ولا نعرف أسماء الشيخين اللذين كان في مساعدتهما وكذلك الكتاب . وكان ثاني هذين الأمرين لم يلتحق بمنصبه بسبب صغر سنه وأخيرا في مراكش ، نجد بجانب ولي العهد محمد الأمير أبا عمران موسى . لقد رأينا أن عبد المؤمن لم يبق أي وال من المرابطين الحماديين في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط لكن الأمر كان عكس ذلك في كل من افريقية والأندلس . بالنسبة لافريقية رأينا أن ولاة المحافظات الذين قاوموا الموحدين قد تم عزلهم ونفيهم ، وهكذا نرى أن بني خراسان أبعدوا من تونس وأن بني رند أبعدوا من قفصة الى بجاية ونفي مدافع بني رشيد من قابس الى فاس . غير أن الذين خضعوا للموحدين بدون اللجوء الى الدفاع بقوا في مناصبهم وهكذا نرى مثلا عمر الفرياني حافظ على منصبه كوال على صفاقص وابن مطروح بقي واليا على طرابلس .

وتعتبر حالة بنزرت وسوسة فريدة من نوعها فبنوا الورد الذين حكموا المدينة الأولى والذين خضعوا لعبد الله بن عبد المؤمن طلبوا تعيين أحد الحفاظ الموحدين . أما عن والي سوسة جبارة بن كامل بن سرحان الفادحي الذي خضع بدون مقاومة للموحدين فلم يبق ولكن تم استبداله بمحافظ موحدي وبدون شك لأنه لم يثر على النرمنديين (   ) القادمين من صقلية .

وأخيرا فاننا نجهل مصير بني بروغزان في زرعة وبني علال في تيربة وكذلك اللخميين بجبل زغوان وبني عياد بشقبنارية وإذا رجعنا الى المراكشي فإنه يؤكد أن عبد المؤمن عندما أنهى فتح افريقية عين إبنه أبا إسحاق إبراهيم على رأس افريقية وعين الشيخ أبا محمد عبد الله ابن أبي بيرفيان واليا على تونس .

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن الخليفة عين بالمهدية أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وترك الى جانبه الأمير الزيري الحسن كمستشار وعين على سوسة الحافظ عبد الحق بن علناس الكومي .

وفيما يتعلق بالأندلس أبقى عبد المؤمن مكانه كل الأمراء الذين انفصلوا عن الحكم المرابطي : مثل ابن ميون وابن قاسي وابن عزون وابن الحجام ويوسف بن سليمان ويحيى بن يغمور .

وخوفا من ثورة أمراء الأندلس الذين سبق أن ثاروا عليه مرة أولى فانه استدعاهم الى مدينة مراكش وتركهم بقربه وعين إبنه أبا سعيد عثمان والي سبتة على غرناطة إثر خضوع المرابطي ميمون بن بدر ، وكان لأبي سعيد شيخ يساعده وهو أبو عبد الله بن سليمان والكاتب أبو الحسن بن هردوس وعين إبنه أبا يعقوب كوال على اشبيلية إثر محاولة قام بها شيوخ المدينة وحسب ما جاء في قول المراكشي «عين مساعدين لابنه وهم الشيوخ الموحدون وكذلك مستشارين أكفاء تمكن بفضلهم من إدارة شؤونه بشكل صحيح» .

وأخيرا فإنه حسب نفس المؤرخ أسند ولاية قرطبة والمناطق التابعة لها الى الشيخ أبي حفص عمر .

7 ـــ **المحاسبون** : ليس لدينا سوى القليل من المعلومات حولهم من المحتمل أن يكون لدى كل وال محاسب أو قابض للضرائب وهكذا نرى مثلا في تونس أن إدارة الجمارك التابعة للدولة أسندت الى أبي حفص عمر بن فاخروان براز تسلم مسؤولية المراقب .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عهد المرابطين والموحدين

د. عبد الحميد حاجيات

1 ــ الأوضاع المالية للدولة المرابطية :

وأما فيما يتعلق بالنظم المالية فقد إتبعت الدولة المرابطية في البداية نظرا لنشأتها الدينية حكم الشرع في شؤون الجباية ، فكان يوسف بن تاشفين يقتصر أولا على تحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة . بيد أنه لما ضخمت الدولة المرابطية وتضاعفت جيوشها ومسؤولياتها ولا سيما بعد إفتتاح الأندلس واتساع نطاق أعمال الجهاد في شبه الجزيرة لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفي لمواجهة مسؤولياتها العظيمة ، إضطر يوسف بن تاشفين الى فرض الأتاوات على أهل المغرب والأندلس للمساهمة في أعمال الجهاد ولجأ أيضا الى تحصيل الأموال من اليهود بمختلف الطرق والوسائل . ولجأ علي بن يوسف الى فرض القبالات والأتاوات على مختلف الصنائع والسلع فكانت القبالات تفرض على الصابون والعطور والنحاس ... الخ كما لجأ علي الى استخدام النصارى والروم في تحصيل الجبايات . ولما اضطربت أحوال الدولة المرابطية على إثر قيام حركة المهدي إشتد نفوذ النصارى في الجيش وفي شؤون الجبايات لما كان يحبوهم به علي بن يوسف من ثقة وحماية وأساؤوا معاملة المسلمين واشتطوا في تحصيل المغارم والفروض وغلبت الفوضى على شؤون الدولة المالية كما غلبت على غيرها .

2 ــ الحياة الاجتماعية للدولة الموحدية :

لقد ذكر الكاتب غير المعروف صاحب الحلل الموشية وكذلك ابن القطان أن المجتمع الموحدي كان في عهد ابن تومرت منقسما الى أربع عشرة فئة :

1) مجلس العشرة

2) مجلس الخمسين

3) مجلس السبعين

4) الطلاب أو رجال الأدب والمتعلمين

5) الحفظة أو المتعلمين الصغار

6) أهل الدار وهم عبارة عن حاشية المهدي

7) الهرغة وهم قبيلة ابن تومرت والقبيلة المتبنية لعبد المؤمن .

8) التنمال وهم من القبيلة التي استضافت المهدي حيث كانت قريتهم أول عاصمة موحدية

9) القدميون وهم من القبيلة التي يحكمها عبد المؤمن

10) الغنفيسة

11) الهنتاتة

12) القبائل وحسب المراكشي كان هذا الاسم يعطى لقبائل الحزمير والهيلانة الجزارقة .

13) الجند أو الجيش النظامي

14) الفرات أو الشباب الأمي الذي لا يحسن لا الكتابة ولا القراءة وفي عهد عبد المؤمن ، تعتبر المعلومات المتاحة لدينا حول التنظيم الاجتماعي للموحدين حسب علمنا تلك المعلومات الموجودة في الرسائل الرسمية للموحدين . واحدة من هذه الرسائل هي الرسالة رقم 1 الموجهة الى طلاب تلمسان والتي نجد فيها أن أمير المؤمنين (عبد المؤمن) قرر تقسيم الموحدين الى ثلاث طبقات :

1) موحدي الساعة الأولى (السابقون الأولون) الذين بايعوا الامام المهدي وساندوه وحاربوا الى جانبه وصلوا معه وكذلك أولئك الذين حضروا في معركة البحيرة ودافعوا من أجل القضية الوحدوية .

2) أولئك الذين أيدوا الحكم القائم بعد معركة البحيرة وقبل سقوط وهران .

3) أولئك الذين خضعوا منذ الاستيلاء على وهران .

وذكر أمير المؤمنين أن هذا التسلسل سيسمح مستقبلا لكل واحد بمعرفة الطبقة التي ينتمي اليها في المجتمع . إذن فنحن نلاحظ أن في عهد عبد المؤمن كان هناك تبسيط لتنظيم المجتمع الموحدي الذي لا يضم سوى ثلاث طبقات بدلا من أربعة عشر .

والى جانب هذا التقسيم للمجتمع الموحدي الى ثلاثة أقسام تبين الرسائل الرسمية أن هناك العديد من الطبقات في سكان مدينة واحدة . وهكذا فإننا نجد مثلا أن الرسالة رقم 1 كانت موجهة حسب النظام الى الطلاب والخاصة (وهم البرجوازيون) والعامة (وهم سواد الشعب) لمدينة سبتة .

ووجهت الرسائل رقم 3 و 14 و 17 و 21 على التوالي الى الطلاب والشيوخ والأعيان وبقية الشعب (الكافة والعامة) وأخيرا نجد أن الرسالة رقم 13 تميز في سكان سبتة وطنجة وهي الموجهة اليهم ، خمسة أقسام : الطلاب والشيوخ والأعيان والخاصة والعامة .

ومن خلال ما سبق ، نستنتج أن سكان المدن كانوا مقسمين الى عدة طبقات إجتماعية يتغير عددها حسب المدن . وأن الطبقة المحظوظة هي طبقة الطلاب .

3 ـــ الحياة الاقتصادية للدولة الموحدية :

وحسب قول ابن القطان كان عبد المؤمن يقوم مرة أو مرتين بتوزيع النقود في الشهر وذلك حسب حالة الخزينة وأضاف المؤرخ أنه كان يستخبر دائما حول الناس يؤمون قصره لقضاء حاجاتهم وكان أحيانا يغلق باب قصره ويحسب الناس الحاضرين ويعطي لكل واحد منهم عشرة دنانير . وكان يكرر هذا الفعل عدة مرات في السنة وحتى في كل شهر إن هذا الكرم الذي يتسم به الخليفة الأول يدل على أن صندوق الخزينة الموحدية كان مليئا وأن المغرب عرف فترة إزدهار كبير ولنحاول أن نحدد العوامل التي ساعدت على إيجاد هذا الازدهار وتوفيره وسنلقي بعد ذلك نظرة على الأحوال الاقتصادية .

1) العوامل التي سمحت بتوفير ازدهار اقتصادي :

حسب رأينا ، هناك خمسة عوامل لهذا الازدهار وهي : السلم والأمن اللذان يسودان كل أرجاء المغرب ، واعداد سجل المساحة والدخل المنتظم للضرائب ودفع جزء كبير من الغنائم الى صناديق الدولة وتوحيد العملة ونوع الحياة البسيطة التي يعيشها عبد المؤمن .

أ ـــ السلم والأمن عبر المغرب : بعد فتح وتجنيد القبائل الرحل مثل زناتة والهلاليين في الجيش الموحدي ، وبعد تعيين ولاة المحافظات الذين يتبعون كلهم مراكش استتب الأمن والسلم في الامبراطورية الموحدية .

ب ـ اعداد سجل المساحات والدخل المنتظم للضرائب :

حسب ابن أبي زرع أمر عبد المؤمن بقيس طولا وعرضا من رقة الى واد نون في السوس بالأميال ولقد تم طرح الثلث من هذه المساحة وذلك فيما يتعلق بالجبال والأنهار والطرق والصحاري وما تبقى فهو خاضع للضرائب العقارية والخراج ولقد تم تحديد ما يجب دفعه من قبل كل قبيلة .

ويتبين أن هذا القرار يعتبر ناجحا الى حد كبير لانه سمح للخليفة بمعرفة ما هي فائدة الضرائب بالنسبة للقبائل وما هو القدر الذي يجب أن تدفعه هذه القبائل وأصبحت الضرائب لا تحدد بشكل عشوائي من قبل الولاة بل وزعت بشكل عادل بين كل السكان ورغم أن الخراج لم يكن ضريبة قرآنية تقبلها السكان المسلمون بدون إظهار الكثير من الاحتجاج والاعتراض ، ونظرا أن هذا الاجراء لم يتسبب الى حد علمنا في أي ثورة ولقد تم إعداد سجل المساحة في أواخر عهد عبد المؤمن وبعد فتح افريقية بين سنة 555 ـ 1160) وسنة (558 ـ 1163) ويعتبر هذا السجل عاملا هاما لتوحيد المغرب .

وبالنسبة لقبض الضريبة استعمل الخليفة القبائل الرحل التي كانت معفاة من الضريبة وحصلت على اقطاعات تستخدمها للفلاحة ومقابل هذا تقدم هذه القبائل فرقا من الجنود للجهاد .

ج ـ دفع جزء كبير من الغنائم الى خزينة الدولة :

في عهد عبد المؤمن ، لم تعان المدن التي تم فتحها من السلب والنهب .

وأما الغنائم التي تنجم عن ذلك فهي ملك للجميع ويخصص منها جزء لخزينة الموحدين ، وهكذا فإننا نرى مثلا أن سكان مكناس حسب ما جاء في قول ابن أبي زرع اضطروا الى دفع خمس أملاكهم الى الخزينة وسكان تونس نصف أملاكهم .

د ـ توحيد العملة :

تم استبدال العملات المرابطية والزيرية والحمادية بالعملة الموحدية فلقد غير عبد المؤمن شكل ومظهر الدرهم والقطع الفضية وكذلك شكل الدنانير أو القطع الذهبية .والأمر الذي يجلب الانتباه أولا وقبل كل شيء فيما يتعلق بالدرهم الموحدي هو شكله المربع الذي يختلف عن شكل الدرهم السابق لهذه الأسرة الحاكمة وهو شكل مستدير . والطابع الثاني أو الميزة الثانية هو أنه لا يحمل إسم الملك ولا تاريخ سكه والميزة والخاصية الثالثة هي أن الكتابة التي تزخرف هذه العملة هي على العموم عادية .

وآخر خاصية لهذه العملة هي أن الكتابة المستديرة التي توجد فوق القطع الفضية السابقة اختفت ولم تبق سوى كتابة ممتدة على ثلاثة أسطر أفقية على الوجه الأول يمكن أن نقرأ ما يلي : الله ربنا

محمد نبينا

المهدي إمامنا

وعلى الوجه الثاني : لا اله الا الله

الأمر كله لله

لا قوة الا بالله

أما عن الدنانير فانها تتميز عن الدنانير المسبوكة من قبل الأسر الحاكمة السابقة بشكلها المربع الذي يوجد داخل الدائرة ويحدد أربعة أجزاء للدائرة ويتضح أن الكتابة المستديرة التي كانت مستمرة في الدينار السابق لعهد الموحدين انقسمت الى أربعة أجزاء أخذت مكانها داخل أطراف الدائرة ومن ناحية أخرى ، فإن الكتابة المركزية تمتد داخل مربع يوجد هو الآخر داخل مربعين وعلى الوجه الأول يمكن قراءة ما يلي : في أجزاء هذه الدائرة :

أبو محمد عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين

الحمد لله رب العالمين

وداخل المربع الصغير :

المهدي إمام الأمة مكلف بتنفيذ أمر الله

وبين المربع الكبير والمربع المتوسط : كلمة مدينة على الجزء العلوي واسم المدينة على الجزء الأسفل وعلى الظهر نجد الكتابة التالية :

في أجزاء الدائرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الله يبارك في مولانا محمد وفي أفراد عائلته الصالحين الطاهرين

وداخل المربع الصغير :

لا اله الا الله

محمد رسول الله

هـ ــ الحياة البسيطة التي كان يحياها عبد المؤمن :

حسب ابن أبي زرع كان الخليفة يعيش في بساطة ولا يهوى لا الملذات ولا التسلية «كان متواضعا تواضعا كبيرا الى درجة أنه إذا رآه المرء خيل اليه أنه لا يملك شيئا» .

2) الأحوال الاقتصادية :

وقد لبثت الأحوال الاقتصادية بالمغرب والأندلس في ظل الدولة الموحدية طيبة يدعمها الأمن والرخاء وتقدم الزراعة والتجارة وكان ذلك في عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن حتى أواخر عهد المنصور وهي فترة دامت زهاء نصف قرن بيد أنه لما تفاقم عيث بني غانية أيام ثورتهم أخذ خراب افريقية وهي أغنى أقطار الدولة يحدث إثره في إقتصاد المغرب . ولما انتهت فتنة بني غانية في أواخر عهد الناصر وعاد الأمن والرخاء لافريقية كانت حركة الناصر الى الأندلس تمهد لاعظم كارثة عسكرية منيت بها الدولة الموحدية وكان لهزيمة العقاب الساحقة فضلا على آثارها العسكرية المدمرة آثار اقتصادية بعيدة المدى فقضى بفناء الجند على الأيدي العاملة وانهارت الزراعة والتجارة وتفشت المجاعة في المغرب والأندلس . وفي عهد المستنصر ولد الناصر تفاقمت الأزمة الاقتصادية واشتدت الحال واختلت أحوال الخلافة الموحدية واضطرب الأمن . واستمرت هذه الأحوال طوال عهد المستنصر وهو في غفلة عن كل ما يجري غير مهتم بشؤون رعيته وكان صدى هذه الأزمات الاقتصادية يحدث أثره في الأندلس وكان من أثر المحن والأحداث السياسية في الأندلس أن كانت أهوال الغلاء والجوع تعصف بالناس من آن لآخر ، وحدث ذلك في بلنسية حين حصارها ووقعت شدة مماثلة باشبيلية وقت حصارها ومات كثير من أهلها بسبب الجوع . وكانت الفترة التي تلت قيام ابن هود في شرقي الأندلس وقيام ابن الأحمر في أواسط الأندلس ثم في الجنوب وما تخلل ذلك من فتن وحروب أهلية وما قام به النصارى من غزوات لأراضي الأندلس وذلك كله في النصف الأول من القرن السابع الهجري كانت هذه الفترة وما اقترن من محن وتشريد لأهل القواعد المفتوحة وضياع للأموال والثروات مليئة بالأزمات الاقتصادية وأهوال الغلاء والجوع .

الفصل الخامس

الحياة الفكرية في الجزائر في عهد المرابطين والموحدين

د. عبد الحميد حاجيات

لقد نشأت دولة المرابطين على أساس إصلاح الدين والتمسك بعقيدة أهل السنة والفقه المالكي . فحاربت البدع ، وخصوصا بدعة برغواطة . وفي عهد المرابطين ، رغم المذهب المالكي سائر أنحاء المغرب ، وكثر الاهتمام بالعلوم الدينية ، وخصوصا الفقه ، لحاجة الناس الى معرفة مختلف المسائل الدينية ، من عبادات ومعاملات ، ولحاجة الحكام الى إصدار الأحكام الشرعية لمختلف القضايا .

وفي أيام المرابطين ، تأكدت الصلة بين الأندلس والمغرب الأوسط ، وتدعمت العلاقات بين القطرين . وقد استفاد المغرب الأوسط كثيرا من الناحية الحضارية والعلمية ، إذ أن الأندلس كانت تزخر بالعلم والعلماء . ثم أن هجمات النصارى على أراضي المسلمين ، التي إزدادت خطورة بعد سقوط الدولة الأموية بقرطبة ، وتشتت السلطة السياسية أيام ملوك الطوائف ، قد ادت الى هجرة كثير من علماء الأندلس الى مختلف أقطار المغرب ، فكان لذلك أثر ملحوظ في تطور الحياة الفكرية بها .

أضف الى ذلك أن ما حل بافريقية آنذاك من كوارث ، نتيجة قدوم الهلاليين وهجمات النصارى النورمان ، قد أدى الى هجرة كثير من أهلها وعلمائها وأدبائها الى الأقطار الاسلامية الأخرى ، من مشرقية ومغربية ، فقدم كثير منهم الى المغرب الأوسط واستوطنوه .

ومما ساعد إيضا على تدعيم العلاقات بين مختلف أقطار المغرب الاسلامي ، آنذاك ازدهار الحركة التجارية فيها ، وخصوصا التجارة مع بلاد السودان . فعم الرخاء وقطعت منطقة المغرب الأوسط شوطا بعيدا نحو الرقي والتمدن . وكان لذلك ، بالاضافة الى انتصار

المذهب المالكي على غيره من المذاهب ، أثّر فعال في تغلغل الاسلام في مختلف الجهات والأوساط وإنتشار اللغة العربية بها .

غير أن دعوة المرابطين الاصلاحية ، سرعان ما فقدت طابعها التجديدي ، فلم يتفتح علماؤهم على مختلف النظريات والأراء التي نشأت في المشرق الاسلامي ، بل تمسكوا بآراء أهل الحديث الآخذة بالنصوص دون الرأي ، وأبطلوا نظريات المعتزلة والأشاعرة ، ومنعوا العامة من الاشتغال بعلم الكلام .

وتلك هي نقطة الضعف التي استغلها ابن تومرت ، فإتخذ العقيدة سلاحا حارب به المرابطين ، واعتمد على نظرية التوحيد ، التي أخذها عن المعتزلة ، لانكار آراء علماء المرابطين حول صفات الله تعالى ، وسماهم المجسمين . وعني كثيرا بالأخلاق ، وتشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفيما يخص الفقه ، فإنه اعتمد فيه على القرآن والحديث ، خاصة وذهب فيه مذهب الظاهرية ، وعاب على المالكية تقليدهم لمن سبقهم من العلماء ، وانقطاعهم لدراسة كتب الفروع ، واهمالهم للقرآن والحديث في المجال التشريعي . وقد تبعه في ذلك خلفاؤه ، فحثوا العلماء على الاهتمام بالعقائد وعلوم القرآن والحديث والأصول ، ونبذ كتب الفروع .

وفي عهد الموحدين ، ازدادت العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط ومختلف الأقطار الاسلامية الأخرى ، قوة ونشاطا وتواصلت حركة هجرة العلماء من الأندلس الى أقطار المغرب ، مما ساعد على انتشار العلم بالمغرب الأوسط ، فنبغ فيه كثير من العلماء ، الذين نبه ذكرهم وتركوا تآليف مفيدة .

وبصورة عامة ، يمكن القول أن الحياة الفكرية ، بالمغرب الأوسط ، امتازت ، في هذه الفترة بتقدم ملحوظ في مجال العلوم الدينية ، التي احتلت الصدارة ، وحظيت بعناية قصوى . وكذلك حظيت العلوم اللسانية ، وخاصة الشعر والكتابة الديوانية ، وبتشجيع خلفاء الموحدين وولاتهم ، ولا سيما أن أغلبهم كان لهم نصيب وافر من العلم ، وكانوا يرحبون بالعلماء والشعراء والكتاب ، ويعينونهم في القضاء أو الدواوين ، ويجرون عليهم الأرزاق . أما العلوم الاجتماعية والطبيعيه ، فلم تعرف نموا هاما في هذه الفترة ، وإنما ازدهرت بعد ذلك ، في عهد بني زيان .

1 ــ العلوم الدينية :

لقد كثر اهتمام علماء المغرب الأوسط بالفقه في عهد المرابطين ، ولم ينقطع اشتغالهم به أيام الموحدين ، رغم ما بذله هؤلاء من جهود لصرفهم عنه أما العلوم القرآنية والحديث ، فإنها ازدادت أهمية في عهد الموحدين ، وحظيت بعناية خاصة .

أما العلوم القرآنية والحديث ، فإنها ازدادت أهمية في عهد الموحدين ، وحظيت بعناية خاصة . وفي مجال الاعتقاد ، فقد حدث تطور هام إثر تأسيس الدولة الموحدية ، حيث انتشر مذهب الأشعري في المغرب ، وأقبل الناس على دراسة كتب الغزالي والجويني والباقلاني وغيرهم من كبار الأشاعرة .

ومن أشهر علماء المغرب الأوسط ، أثناء هذه الفترة في مجال العلوم الدينية :

— **ابن غزلون** : (توفي سنة 524 هـ) ، أبو جعفر أحمد بن علي ، من أهل تطيلة ، بالأندلس روي عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، ونبغ في الحديث ، ورحل الى المغرب ، واستقر بتلمسان ، يحدث بها ، وأخذ عنه كثير من العلماء . وبها توفي .

— **ابن أبي عرجون التلمساني** : (توفي سنة 534 هـ) ، أبو محمد عبد الله بن حليفة ، فقيه ومحدث . ولي القضاء في كثير من مدن المغرب والأندلس . وتوفي بتلمسان .

— **ابن أبي قنون التلمساني** : (توفي سنة 557 هـ) ، أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمن ، فقيه وأصولي ، رحل الى الأندلس ، وأخذ عن أبي علي الصدفي وغيره ، وجال في أقطار المغرب ، وولي القضاء بمراكش ثم بتلمسان . ومن تأليفه ، كتاب المقتضب الأشفي في اختصار المستصفى .

— **أبو محمد الأشيري** : (توفي سنة 561 هـ) ، عبد الله بن محمد فقيه ومحدث وأديب . نشأ بمدينة أشير ، ثم رحل الى بلاد المغرب والأندلس ، وأخذ عن ابن غزلون ، وأبي بكر بن العربي وغيرهما . كان كاتبا لأمراء المرابطين . ثم انتقل الى الشام ، فحدث بدمشق وحلب ، وذاع صيته ، وحدث أيضا ببغداد . وتوفي في سنة 561 هـ ، ببعلبك .

— **الورجلاني** : (توفي سنة 570 هـ) ، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم ، من أشهر فقهاء الأباضية وعلمائها . اصله من وارقلة ، نشأ بها ثم رحل الى الأندلس ، فأخذ عن أشهر علمائها ، ثم انتقل الى المشرق ، ثم عاد الى وارقلة ، واستقربها . وبها توفي سنة 570 هـ . ألف كتبا عديدة ، منها تفسير القرآن في سبعين جزءا ، والعدل والانصاف ، في أصول الفقه ، وترتيب الربيع بن حبيب ، في حديث ، وفتوح المغرب ، في التاريخ ، ومرج البحرين ، في المنطق والحساب والهندسة ، والقصيدة الحجازية ، وهي نظم لرحلته الى الحجاز .

— **أبو سوسى بن عمران** : (توفي سنة 578 هـ) ، فقيه وأديب . أخذ بتلمسان عن أبي علي بن الخراز وغيره ، ورحل الى الأندلس ، فأخذ بالمرية عن أبي القاسم بن ورد ، وولي القضاء باشبيلية ومراكش . وله قصيدة مشهورة في الوصايا والحكم .

ـ **أبو عمران الأشيري** : (توفي سنة 589 هـ) ، موسى بن حجاج بن أبي بكر ، محدث ، نشأ بتدلس ، ثم رحل الى الأندلس ، فأخذ عن أشهر علمائها ، ثم عاد الى مدينة الجزائر ، فحدث بها ، *ثم إنتقل الى تدلس ، وبها توفي سنة 589 هـ .*

ـ **أبي الصيقل** : (توفي سنة 598 هـ) ، أحمد بن سلمة بن أحمد الأنصاري ، محدث ، من أهل لورقة ، بالأندلس ، روي عن ابن الدباغ وابن بشكوال وابن الجد ، وأخذ أيضا عن أبي الربيع بن سالم ، كبير علماء بلنسية في عصره . ورحل الى تلمسان ، واستقر بها ، وسمع عنه الكثير ، وتوفي بها في محرم سنة 598 هـ .

ـ **ابن سعادة الاشبيلي** : (توفي سنة 600 هـ) ، أبو بكر محمد بن يوسف بن مفرج ، محدث ، روي بالأندلس عن أبي بكر بن العربي وأبي الحسني شريح وغيرهما ، ونزل تلمسان وعمر بها وأخذ عنه ابن أبي العيش الخزوجي وغيره . وتوفي سنة في رجب 600 هـ .

ـ **أبو عبد الله بن مروان** : (توفي سنة 601 هـ) ، محمد بن علي المهداني فقيه ، وهراني الأصل ، ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن أبي موسى بن عمران ، وولي القضاء بتلمسان ، ثم استقدمه يعقوب المنصور الموحدي ، لقضاء مراكش ، وبها توفى سنة 601 هـ .

ـ **أبو محمد بن الدباغ** : (توفي سنة 602 هـ) ، عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم اللخمي فقيه ، محدث ، من أصل مرسية أجاز الى المغرب ، فسكن مدينة فاس ، وأقرأ بها ، ثم انتقل الى تلمسان ، فاستوطنها ، وبها توفي سنة 602 هـ .

ـ **ابن حشون** : (توفي سنة 606 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن علي بن يخلف ، فقيه ، نشأ بمدينة الجزائر ، وانتقل الى بجاية ، فأخذ عن عبد الحق الاشبيلي وغيره ورحل الى الأندلس ، فأخذ عن كثير من علمائها ، ثم عاد الى الجزائر ، ودرس بها ، وبها توفي في صفر 606 هـ .

ـ **أبو عبد الله التجيبي** : (توفي سنة 610 هـ) ، محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان ، محدث ، من أهل اشبيلية ، روي عن أبي بشكوال وأبي طاهر السلفي وغيرهما . وقدم المغرب ، فحدث بفاس ، سنة 594 هـ ، ثم بسبتة ، وبتلمسان ، وبها استقر الى أن توفي في جمادي الأول سنة 610 هـ . وألف معجم شيوخه ، ومعجم شيوخ أبي طاهر السلفي ، وأربعين حديثا ، وغيرها .

ـ **أبو عبد الله الأصولي** : (توفي سنة 612 هـ) ، محمد بن إبراهيم البجائي ، فقيه ، أصله من بني مرزقان باشبيلية ، نشأ ببجاية ، ثم رحل الى المشرق لطلب العلم ، فأخذ عن كثير من العلماء والمحدثين ، ونبغ في علم الكلام وأصول الفقه ، فاشتهر

فأخذ عن كثير من العلماء والمحدثين ، ونبغ في علم الكلام وأصول الفقه ، فاشتهر بالأصولي . وولي القضاء ببجاية ومرسية ومراكش . وتوفي ببجاية سنة 612 هـ . وله تقييد على كتاب المستصفى للغزالي .

— **أبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني** : (توفي سنة 625 هـ) ، فقيه مقريء محدث ومتكلم . من أهل تلمسان ، أخذ بها عن أبي علي بن الخراز ، وأبي الحسني بن إبي قنون وغيرهما ، وعن كثير من العلماء بفاس ومراكش وسبتة واشبيلية . كان جماعة للكتب، وجيها عند الأمراء ، معظما عند الخاصة والعامة . وولي قضاء تلمسان مرتين . وأخذ عنه كثير من رجال العلم . وألف المختار في الجمع بين المنتقي والاستذكار ، في الحديث ، وكتابا في غريب الموطأ ، والاقناع في كيفية الاسماع ، ونظم العقود ورقم الحلل والبرود ، وغير ذلك .

— **أبو العباس المعافري** : (توفي في القرن السابع هـ) أحمد بن محمد بن عبد الله ، فقيه ، مقريء نشأ بقلعة بني حماد ، ثم رحل الى بجاية فأخذ عن أبي زكرياء الزواوي ، ولقي المؤرخ ابن حماد الصنهاجي وغيره . وتوفي ببجاية في أواسط القرن السابع الهجري . وألف مختصر كتاب التيسير ، في القراءات السبع ، (لابي عمرو الداني) .

2 — العلوم اللسانية :

وفي هذه الفترة ، نشطت الحياة الأدبية بعض النشاط ، في المغرب الأوسط ، فنبغ فيه كتاب وشعراء مشهورون ، كما عني العلماء أيضا باللغة العربية وقواعدها وألفوا في ذلك كتبا مفيدة . ومن شهر الكتاب والشعراء والنحاة :

— **التهارتي** : (توفي سنة 501 هـ) ، الحسن بن علي بن طريف أديب نحوي ، من أهل تاهرت . رحل الى الأندلس ، وأخذ عن كثير من علمائها ، ثم عاد الى المغرب ، واستقر بسبتة ، ودرس بها النحو الى أن توفي سنة 501 هـ .

— **ابن محرز الوهراني** : (توفي سنة 575 هـ) ، أبو عبد الله محمد أديب ، نشأ بوهران ، في آخر عهد المرابطين ، وغادرها عندما استولى عليها الموحدون ، سنة 539 هـ ، فرحل الى صقلية ثم الى الشام . وسكن دمشق . ثم زار العراق ومصر . وعاد الى دمشق ، فتوفي بها سنة 575 هـ وقد ألف ابن محرز الوهراني المنامات ، سلك فيها مسلك أبي أبي العلاء في رسالة الغفران ، وابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع ، فأجاد في المقامة ، وبرع في الهزل والسخرية . وله أيضا تأليف سماه جليس كل ظريف ، جمع فيها كثيرا من رسائله وفصوله الهزلية ، التي كتبها في نفس الأسلوب الفكاهي .

— **ابن محشوة** : (توفي سنة 598 هـ) ، أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر القيسي ، أديب وكاتب ، نشأ ببجاية ، وأخذ عن أبي القاسم القالمي . وكتب ليوسف بن

عبد المؤمن ثم لابنه يعقوب المنصور ، فأجاد فن الكتابة ، وبرع في استعمال أساليب البلاغة ، كما يظهر ذلك من خلال ما وصلنا من الرسائل الموحدية التي اسندت اليه كتابتها .

ـــ **ابن الفكرون القسنطيني** : (توفي سنة 602 هـ) ، أبو علي حسن بن علي ، شاعر ناثر ، رحل الى مراكش ، ومدح الخليفة الموحدي ، ونال جائزة سنية . وله رحلة كتبها حول سفره من قسنطينة الى مراكش . وله نظم غزير . فمن ذلك قوله في القصيدة التي نظمها في رحلته الى مراكش ووجهها الى أبي البدر بن مردنيس :

الا قل للسري بن السري — أبـي البـدر الجـواد الاريحـي
أيـا معنـى السيـادة والمعالـي — ويـا بحـر النـدى بدر النـدى
أمـا وبحـقك المبـدي حلالا — ومـا قد حزت من حسب علـي
ومـا بينـي وبينـك من دام — ومـا أوتـيت من خلـق رضى
لقـد رمت العيـون سهام عنج — ولـيس سوى فؤادي من رمـي

وفيها يقول :

فها أنا قد اتخـذت الغـرب دارا — وأدعـي اليـوم بالمـراكشي
على أن اشتياقي في نحـو زيـد — كشوقـي نحـو عمـرو بالسوى
يقاسمنـي الهـوى شرقـا وغربـا — فيـا للمشرقـي المغربـي
فلـي قلب بأرض الشرق عان — وجسم حل بالغـرب الـقصى
فهـذا بالغـدو يهيـم غربـا — وذاك يهيـم شرقـا بالعشيـي
ولـولا اللـه مت هوى وشوقـا — وكـم للـه من لطـف خفيـي

ـــ **ابن المبارك الوهراني** : (توفي سنة 615 هـ) أبو بكر علي بن عبد الله بن ناشر ، شاعر ، نحوي ، مفسر ، أصله من وهران ، ورحل الى المشرق ، واستقر بدمشق . ألف شرح شواهد الجمل (للزجاجي) في النحو ، وشرح المعلقات السبع وأعربها ، وتفسير القرآن .

ـــ **ابن عبد المعطي الزواري** : (توفي سنة 628 هـ) ، أبو الحسيني يحيى نحوي ، أديب ، رحل الى المشرق ، فسكن دمشق ، ودرس بها ثم انتقل الى القاهرة واشتغل فيها بتدريس الأدب ، وألف كثيرا في النحو واللغة ، وأشهر تآليفه ، في النحو ، وسماها الدرة الألفية في علم العربية . وله أيضا في نفس العلم كتاب الفصول ، وكتاب العقود والقوانين ، وهوامش علي ابن السراج وشرح على كتاب الجمل (للزجاجي) وله ، في

ونظم الفاظ الجمهرة (لابن دريد) وله أيضا منظومة في القراءات السبع ، والبديع في صناعة الشعر ، وديوان شعر .

3 ـ العلوم الاجتماعية :

وفي هذه الفترة ، بدأ انتشار التصوف في المغرب الأوسط ، وظهر الميل الى الزهد والتبتل والعناية بالحياة الروحية والأخلاق . وكذلك حظي التاريخ ببعض الاهتمام . هذا ويلاحظ أن الفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم الاجتماعية لم تجد اقبالا ملحوظا لدى الناس آنذاك . ومن أشهر الصوفية والمؤرخين :

ـ **عبد السلام التونسي** : (توفي حوالي 530 هـ) ، أبو محمد زاهد صالح ، أصله من إغمات ، أخذ بها عن عمه عبد العزيز ، ونزل تلمسان واستقر بها ، متمسكا بحياة الزهد والفقر والتبتل . وتوفي بها حوالي 530 هـ ، فدفن برابطة العباد . وقبره مجاور لقبر الولي إبي مدين شعيب .

ـ **البيذق** : (المتوفي بعد 550 هـ) ، أبو بكر بن علي الصنهاجي . مؤرخ ، قد يكون من صنهاجة المغرب الأوسط . رافق ابن تومرت أثناء عودته من المشرق ، وألف كتابا وصف فيه هذه الرحلة ، وضمنه بعض أخبار المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن . وهذا الكتاب أقدم مصدر وصل الينا في تاريخ دولة الموحدين .

ـ **أبو علي بن الأشيري** : (توفي بعد سنة 569 هـ) حسن بن عبد الله بن حسن ، مؤرخ وأديب ، ولد ونشأ بتلمسان ، ورحل الى الأندلس قبل سنة 540 هـ ، ونبغ في علوم مختلفة ، وكان ناظما ناثرا . ومدح يوسف بن عبد المؤمن فنال اعجاب الحاضرين ومن أشهر أشعاره قصيدة في غزوة السبطاط (569 هـ) وله مختصر في التاريخ سماه نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي .

ـ **أبو القاسم البجائي** : (توفي بعد سنة 577 هـ) ، عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن ، صوفي ، ألف كتابا في التصوف سماه قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصديقين .

ـ **أبو مدين شعيب بن الحسيني الأنصاري** : (توفي سنة 594 هـ) ، الولي الصالح المشهور ، ولد في قرية تدعى قطنيانة ، قرب اشبيلية ، ورحل الى المغرب ، فأخذ بفاس عن بعض العلماء والصلحاء ، مثل ابن حرزهم وأبي يعزي . ثم انتقل الى بجاية واستقر بها مدة طويلة ، فأخذ عنه كثير من الطلبة ، وفي سنة 594 هـ ، استدعاه يعقوب المنصور الموحدي الى مراكش ، فتوجه اليها ، ولكنه مرض في طريقه ، وتوفي قرب تلمسان ، فدفن بقرية العباد ،

خارجها . ولأبي مدين شعيب مكانة سامية في التصوف ، المغرب يشهد عليها العديد من الطرق الصوفية التي تنتسب اليه والى آرائه . وينسب اليه ديوان شعر في الزهد ، وحكم في التصوف .

ــ **أبو عبد الله بن الحجام** : (توفي سنة 614 هـ) ، محمد بن أحمد بن محمد اللخمي ، ولد بتلمسان سنة 558 هـ ، ودرس القراءات السبع بها على أبي العباس الأعرج ، ورحل الى فاس ، فأخذ على كثير من علمائها . وكان زاهدا أديبا واعظا . وتوفي بمراكش سنة 614 هـ . ألف كتابا في الوعظ سماه : حجة الحافظين ومحجة الواعظين .

ــ **ابن حماد الصنهاجي** : (توفي سنة 628 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر ، مؤرخ وأديب ، نشأ ببرج حمزة ، وأخذ العلم بقلعة بني حماد ، ثم ببجاية والجزائر وتلمسان ، ورحل الى الأندلس ، فتضلع في علوم كثيرة ، وخاصة التاريخ والأدب واللغة والفقه والحديث ، وولى قضاء الجزيرة الخضراء ، ثم قضاء سلا في سنة 613 هـ ، وتوفي بمراكش سنة 628 هـ . وله تآليف عديدة ، منها أخبار ملوك بني عبيد ، والنبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة ، وتخليص تاريخ الطبري ، وشرح مقصورة ابن دريد ، وشرح الأربعين حديثا ، وعجالة المودع وعلالة المشيع في الأدب ، وديوان شعر ، الخ ...

4 ــ العلوم الطبيعية :

وفيما يخص العلوم الطبيعية ، فإنها كانت لاتزال آنذاك ، بالمغرب الأوسط ، في مرحلة الانطلاقة . ولم تدخل في مرحلة الازدهار الا في عهد بني زيان ، كما سنراه فيما بعد . ومن أشهر الاطباء وعلماء الطبيعة :

ــ **التيفاشي** : (توفي سنة 651 هـ) ، شرف الدين أبو العباش أحمد بن يوسف القفصي ، طبيب أديب قاض ، رحل الى مصر لطلب العلم ، ثم انتقل الى دمشق ، برع في علم الطبيعة ، وخاصة في الأحجار الكريمة ، وفي الأدب . وألف كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ، وكتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، وكتاب الشفا في الطب المسند عن المصطفى ، والدرة الفائقة في محاسن الأفارقة ، وغير ذلك .

الفصل السادس

الحياة الفنية في عهد المرابطين والموحدين

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

في الميدان المعماري قام المرابطون بتأسيس مدينة تاقررت ، تلمسان ، المدية ، وسورها ، وبتشييد ثلاثة مساجد الا وهي : الجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بالجزائر والجامع الكبير بندرومة .

لم يبق لنا من سور تاقررت الا باب واحد وهو باب القرمدين الذي يتكون من برجين مستديرين ، أمامهما برجان مربعان موضوعان على يمين ويسار سور سميك فتح فيه باب ضيق ووطيء .

وبني الجامع الكبير بتلمسان في عهد الأمير علي بن يوسف في سنة 1136/530 كما تدل عليه الكتابة التي تجري على قاعدة القبة الموجودة أمام المحراب . ويمتاز هذا المسجد بدعائمه وأعمدته وأقواسه ومحرابه وقبته .

إن الدعائم مختلفة الشكل والأعمدة متوجة بتيجان من النوع المركب والأقواس متنوعة الى حد بعيد من حيث أننا نجد بجانب الأقواس المدية ، أقواسا خماسية الفصوص مثل الأقواس التي تزين الجامع الكبير بقرطبة وأقواسا ذات سبعة فصوص وتسعة فصوص واحد عشر فصا .

ومحراب الجامع الكبير بتلمسان مشكاة سداسية الشكل ، الأولى من نوعها في المغرب العربي ، مكللة بقبيبة مخددة محاطة بطنف نرى تحته خمسة الواح مزينة بثلاث نوافذ مخرمة مزينة بزخرفة نباتية رائعة الجمال منقوشة في الجص ، ثم طنفا خماسي الاضلاع تجري عليه الآيات 204 و 205 و 206 من سورة الأعراف .

« بسم الله الرحمٰن الرحيم وإذا قُرِىء القرآن فاستَمعوا له وأنصتوا لعلّكُم ترحَمون واذكُر ربّكَ في نفسك تضَرعا وخيفة ودون الجَهر من القول بالغدو والآصال ولا تكُن من الغافِلين إن الذين عند ربّكَ لا يستَكبرون عن عبادَته ويسبّحونه وله يسجُدون »

ولاطار المحراب قيمة فنية كبيرة ويمتاز قسمه العلوي بصنجته المؤثثة بزخرفة نباتية منقوشة ببراعة خارقة للعادة وبنيقتيه العلويتين المزينتين برز على شكل جذع مخروط موضوع على بساط من أوراق أنيقة الشكل . كما يمتاز بحافتيه المستطيلتين : أحداهما مزينة بكتابة كوفية جاء فيها :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم إن ربكم الله الذي خلَق السمٰوات والأرض في ستّة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النّهار يطلُبُهُ حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخَّرتٌ بأمره ألا لَهُ الخلقُ والأمرُ تبٰرك الله ربُّ العٰلمين ادعوا ربكم تضرُّعا وخُفيةً إنَّه لا يُحبُّ المعتدين »

والأخرى محلاة بمضلعات منحنية الأضلاع تتناوب مع مربعات ثمانية الزوايا تندرج فيها عناصر نباتية منقوشة بدقة نادرة . وبين الحافتين المستطيلتين نتدرج لوحة أفقية مزينة بأقواس ثلاثية الفصوص في وسطها نافذة مزخرفة بعناصر هندسية .

أما القسم السفلي لاطار محراب الجامع الكبير لتلمسان فنرى فيه لوحتين موضوعتين على يمين ويسار المحراب مكونتين بمستطيل مزين بعناصر نباتية وإطار عريض تجري عليه كتابة كوفية محاط بشريط مضفر .

إن القبة الموضوعة أمام المحراب هي أول قبة ذات تعاريق ظهرت في المغرب العربي وتمتاز بعقود زوايا مزينة بالمقرنصات وبألواح مخرمة حيث الغصون الملتوية والزهور تتشبك بانسجام تام هذا ما يجعلها تعتبر بحق من روائع الفن الاسلامي المغربي الاسباني . ولا نجد في الجامع الكبير الجزائري الزخرفة الفنية التي تزين الجامع الكبير التلمساني ولكن مازلنا نشاهد منبره الذي يعتبر أقدم منبر جزائري كما تدل عليه الكتابة التي تجري على إطار بابه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم اتم هاذا المنبر في أول شهر رجب الذي من سنة تسعين وأربعمائة (14 يونيو 1097 م) عمل محمد » ولهذا المنبر وجهان جانبيان مزينان بلويحات على شكل مثلثات ومربعات ومسطحات متوازية الأضلاع مؤثثة بعناصر نباتية أو هندسية منقوشة بدقة عجيبة .

أما الجامع الكبير الندرومي فيمتاز ببساطته وبمنبره المعروف بمتحف الأثار بالجزائر ويحتوي هذا المنبر على جانبين بدون زخرفة وصدر مزين بكتابة كوفية تعد من بين أجمل الكتابات التي يرجع تاريخها الى العصور الوسطى .

وبجانب المساجد الثلاثة التي سبق ذكرها نجد بتلمسان بناءين يرجع تأسيسها الى عهد المرابطين . أولهما بناء جنائزي ثماني الأضلاع يعرف بضريح الأميرة ويمتاز بأقواسه المفصصة والثاني هو حمام الصباغين الذي يمتاز بالقبة المخددة التي تعلو فناءه وتعتمد على إثنى عشر عمودا مكونة من أربع مجموعات من ثلاثة أعمدة موضوعة في زوايا الفناء . كما ترك لنا المرابطون آلة لضرب السكة تحمل إسم الأمير علي بن يوسف وتاريخ سنة 509 هـ (1105 م) وهي الآن معروفة في متحف الآثار بالجزائر وباب مقصورة المسجد الكبير بتلمسان المحفوظة بمتحف تلمسان .

أما الموحدين فقاموا بدون شك باصلاح الجامع الكبير التلمساني وبتأسيس قبة سيدي أبي مدين التي شاهدت اصلاحات عديدة حتى يصعب علينا أن نحدد بالضبط ما يرجع الى العهد الموحدي كما قاموا ببناء دار الصناعة بمرسى هنين التي ساهمت في صنع مراكب كثيرة استعملت في غزو الأندلس .

ومن عهد الموحدين بقي لنا أيضا عدد كبير من الدراهم والدنانير .

إن الدراهم الموحدية تمتاز بشكلها المربع وبعدم وجود إسم الخليفة وسنة الضرب . أما الدنانير فهي مستديرة مثل الدنانير التي ضربت قبلها ولكنها تمتاز بالمربع الذي يندرج في الدائرة وبعدم وجود سنة الضرب .

مراجع الباب الخامس

ـ البيذق ، **أخبار المهدي ابن تومرت** ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، 1975 .

ـ ابن أبي زرع ، **روض القرطاس** ، اباسلة 1836 .

ـ ابن عذاري ، **البيان المغرب** ، القسم الثالث . تحقيق هويسي ميرندا وغيره ، منشورات كلية الآداب بالرباط تطوان ، 1963 .

ـ الزركشي ، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** ، تونس ، 1289 .

ـ ابن صاحب الصلاة ، **المن بالامامة** ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت ، 1964 .

ـ مؤلف مجهول ، **الحلل الموشية** ، نشر علوش ، الرباط ، 1936 .

ـ عبد الرحمٰن بن خلدون ، **كتاب العبر** ، بيروت ، 1957 .

ـ ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، القاهرة ، 1303 هـ .

ـ عبد الواحد المراكشي ، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، القاهرة ، 1949 .

ـ البكري ، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** (من كتاب المسالك والممالك) ، نشر دي سلان ، الجزائر ، 1911 .

ـ ابن تومرت ، **الموطأ** ، الجزائر ، 1905 .

ـ ابن القطان ، **نظم الجمان** ، تحقيق محمد علي مكي ، تطوان ، بدون تاريخ .

ـ الادريسي ، **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** (من كتاب نزهة المشتاق) نشر هنري بيريس ، الجزائر ، 1957 .

ـ أشباخ ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين** ، ترجمة عنان ، بيروت ، 1964 .

ـ محمد عبد الله عنان ، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** ، القسم الثاني ، القاهرة ، 1964 .

Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, t. II, Paris, 1961.

A. Laroui, Histoire du Maghreb, Paris, 1970.

H. Terrasse, Histoire du Maroc, 2 vol. Casablanca, 1949 – 1960.

R. Bourouiba, Ibn Tumart, Alger, SNED, 1974.

R. Bourouiba, Abd al-Mu'min, flambeau des Almohades, Alger, SNED, 1974.

الباب السادس

التاريخ السياسي لدولة بني زيان

الدور الاول

الفصل الاول

الدولة الزيانية في عهد يغمراسن

د. عطاء الله دهينة

تاريخها السياسي وآثارها العمرانية :

كان بنو زيان في الأصل من أمراء القبائل الرحل التي تجوب صحراء المغرب الأوسط ، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة . وذلك أن بني زيان وأقاربهم من القبائل الأخرى كانوا في كل صيف يتركون الصحراء ويستقرون في سهول وهران ، ويضعون أنفسهم في خدمة عامل الموحدين بتلمسان كلما احتاج الى سيوفهم ، وكان من أعظم هذه الخدمات تدخلهم لمنع سقوط تلمسان في أيدي بني غانية الموالين لدولة المرابطين التي قضى عليها الموحدون وأقاموا دولتهم على أنقاضها فكافأهم خليفة الموحدين على ذلك وعيّن « يغمراسن بن زيان» في عام 624 هـ/1227 م عاملا على تلمسان وبلاد زناتة ، وهو منصب «لم يتوله الى حد ذلك الوقت سوى من كان من السلالة الملكية» على حد قول ابن خلدون .

وبعد نحو أربعين سنة زالت دولة الموحدين ، واستقل يغمراسن بن زيان بالاقليم الذي يحكمه وأسس دولة جزائرية تقع بين دولة بني حفص بالمغرب الأدنى (تونس) وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى (مراكش) اللتين استقلتافي نفس الوقت .

ولكن الحفصيين الحاكمين في تونس كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لخلفاء مراكش من الموحدين . وبذلك يكون لهم الحق في وراثة السلطة التي كان يمارسها هؤلاء

الخلفاء في مدينة تلمسان ، فأرسلوا جيشا في سنة 646 هـ/1248 م وأرغموا يغمراسن بن زيان على أن يعترف بسيادتهم على المدينة ، ويحكم فيها باسمهم وتحت وصايتهم .

وكذلك تعرضت دولة بني زيان منذ تأسيسها للغزو من جانب جيرانها الغربيين ونعني بهم بني مرين وهم قوم رحل قدموا من الصحراء وكانوا ينتمون مثل بني زيان الى قبيلة زناتة . وقد عاشوا مدة طويلة في الصحراء قرب أهلهم الأمر الذي يجعلنا نفترض بأنه كان هناك تنافس بين القبيلتين ونزاع حول المراعي ومنابع المياه والمرور بالممرات الخاصة وسرقة المواشي فضلا عن نزاعات التفوق وخصام رعاة المواشي الذي تسيل فيه الدماء وقيام حالات الثأر المستمرة .

وبعد أن انتزع المرينيون المغرب الأقصى من أيدي الموحدين شعروا بقوتهم فطمعوا أيضا في الاستيلاء على المغربين الأوسط والأدنى ، لاسيما أن حكام المغرب الأدنى كانوا يعتبرون المرينيين حكاما غير شرعيين ولكنهم تعرضوا لمقاومة مملكة تلمسان حيث تصادمت الجيوش المرينية مرتين في سهل أيلس مع جيوش مؤسس أسرة بني زيان التي أوقفت مسيرتها .

فاذا أضفنا الى ذلك مطالب تونس والنزاعات القائمة بين تلمسان والقبائل المقيمة في منطقة شلف وجبال ونشريس وكذلك تهديد القبائل العربية المقيمة في البلاد ، نكون قد ذكرنا أهم الأخطار التي كانت تواجهها أسرة بني زيان والتي كانت تجعل في أغلب الأحيان من بقائها معجزة منذ الساعات الأولى لتأسيسها وكان على مؤسس هذه الدولة أن يبذل كل ما أوتي من قوة وبراعة لكي يصمد في وجه أعدائه .

ولاشك في أن يغمراسن بن زيان كان رجلا صلبا وبطلا شجاعا ويبين تاريخه بكل وضوح مدى انتقاله من حياة البدو الى حياة الحضر التي يعتبرها ابن خلدون تطورا طبيعيا للمجتمعات ولكن يغمراسن ظل يعيش قرابة الثلاثين عاما في خيمة وسط مواشيه وفرسان قبيلته حيث بقي يشارك في المعارك التي تقوم بها أسرته لاظهار تفوقها وفرض نفسها على من يخاصمها من الاقارب وكان أبوه قد لقي حتفه في احدى هذه المعارك ولكن لم يلبث قاتل أبيه أن مات في كمين نصب له وأرسل رأسه الى يغمراسن ورجال عائلته الذين وضعوا هذا الرأس في مكان النصب من الحجر الذي يستعمل في الموقد لدعم القدر عند وضعه فوق النار . وكان أخوه الذي تولى حينئذ زمام الحكم قد مات ، فتم انتخابه هو من قبل أصحابه لأن منصب القائد كان يمنح بالتصويت الشعبي . وبعد مرور وقت طويل تم تبرير هذا الاختيار بحق الوراثة ونسبه العربي وأصله الشريف وقيل أنه من سلالة النبي ﷺ عن طريق إدريس مؤسس مدينة فاس ، وعلى كل حال فقد رد هذه الأقوال بقوله : «إذا كان هذا صحيحا فتلك نعمة من عند الله ولكن في هذا العالم تنتزع السلطة بحد السيف» .

وقد وضع كلامه هذا حدا لمزاعم الاختصاصيين بالنسبة للذين كانوا يبالغون في المجاملة ، وفي الحق أنه كان يتحلى بكثير من الصفات التي يجب أن تتوفر في القائد مثل الشجاعة والكرم والحكمة والحنكة السياسية .

فتمكن هذا الشيخ البدوي من أن يصبح أميرا لدولة يلبس أوسمة المملكة ويسمي الولاة في المدن والأقاليم التي تخضع لحكمه وكانت حاشيته وأتباعه يتكونون من أفراد أسرته ومن الرؤساء القدامى للقبائل الرحل مثله. ولكن هذه الحاشية كانت تضم أيضا أجانب لهم خبرة من شأنها أن تساعده. وبالمثل كان أصحابه القدامى يشكلون أغلبية جيشه ، ومع ذلك فقد أستأجر جنودا مسيحيين لهم كفاءة كبيرة في الحرب واستأجر فرسانا أتراكا مسلحين بالقوس وفرسانا مسيحيين بالرماح وقد اتخذ من هؤلاء الفرسان حرسه الخاص الذين ذكرهم ابن خلدون « بأنهم يقومون أيضا بالاستعراضات العسكرية » وقد حدث في سنة 652 هـ / 1254 م أن شهدت تلمسان أو بالاحرى احد أبوابها مأساة دموية تسبب في وقوعها قائد الفرقة المسيحية في هذا الحرس .

ففي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة الحالية خارج السور وليس بعيدا عن الطريق المؤدية الى المقبرة اليهودية ، تظهر الآثار التاريخية لباب القرمادين .ونحن نعلم أن باب القرمادين قد تعرض لمختلف الهجومات لا سيما من طرف الاسبان في سنة 1518 م مما اضطر سكان المدينة الى تعزيز مراكز الدفاع عدة مرات . وربما كان هذا الباب يلعب دور الحصن الأمامي الذي يحمي مدخل المدينة ويسمح بتجمع الجنود قبل خروجهم من الثكنة المحصنة ولا زال مجموع هذه البنايات يحافظ على شكله الأصلي بأبراجه المربعة والمستديرة وجدرانه المبنية من الآجر المدكوك التي ترتفع فوق الأساس المبني بالحجارة . وتبين بقايا التراب المخلوط بقطع الخزف وحطام الآجر أن هذا الموضع ، أو الأماكن المحيطة به كان مركزا لصناعة الخزف والفخار والقرميد وهذا ما أعطى لهذا الباب اسمه على أنه كان لهذه الصناعة مركزا آخر عند باب العقبة الموجود في الطرف الآخر من المدينة فقد وجدنا هذا الباب محاطا كذلك بأفران الخزف وكان يمتد أمام باب القرمادين السهل الواسع المسمى بالمنيا وهو المكان الذي تتجمع فيه الجيوش في خيام قبل تحركها الى الميدان وكان من عادة السلطان أن يستعرض جيشه قبل انطلاقه للميدان وحدث في سنة 652 هـ/1254 م أنه بينما كان يغمراسن يشاهد من فوق حصانه أحد هذه الاستعراضات المقامة في مكان قريب من باب القرمادين أن طلب رئيس الفرقة المسيحية محادثته في سرية . فغادر الأمير حرسه الذي يرافقه واقترب منه ، وكان الضابط مضطربا فشك يغمراسن في وجود خطر على حياته ورجع الى حرسه ، ولكن المسيحيين سارعوا بقتل أخ السلطان فهاجم الجند المسلمون الجند المسيحيين وقتلوهم عن آخرهم فيما عدا رئيس الفرقة الذي تمكن من الفرار . وقد ذكر هذه الحكاية عبد الرحمن

ابن خلدون وأخوه يحيى ولكنهما اختلفا حول الدور الذي قام به القائد المسيحي : فقد ذكر عبد الرحمن أن هذا القائد أراد أن يقتل يغمراسن ، على حين ذكر يحيى بأنه حاول أن يبعد السلطان عن أخيه الذي كان موضع الخطة . وعلى كل ، ما هو مؤكد في هذا الأمر هو أنه على اثر هذه المؤامرة ، قرر يغمراسن أن يستغني عن الخدمات التي يقدمها له المسيحيون .

وتعطي هذه الحكاية فكرة عن معالم تلمسان ، من ذلك أن باب القرمادين كان موجودا في عهد يغمراسن حيث أن البناء يبدو مطابقا للنوع المستخدم في القرن الثاني عشر والذي نجده في المغرب ، خصوصا في سور الموحدين الكائن بالشمال . ومن ذلك أيضا أن المدينة التوأم أغادير ــ تاغرارت بلغت وقتذاك أقصى اتساع لها . وفرضت تاغرارت نفسها كمدينة رسمية وعسكرية . وسكنها الملك في قصره المجاور للجامع الكبير وأصبحت مدينة أغادير حيا شعبيا تربطها بسكانها ذكريات غالية . وكان النساك يفضلون الاقامة بها مثل محمد بن عيسى الذي حج بيت الله خمسا وعشرين مرة والذي كان يحظى بزيارة يغمراسن نفسه في بيته . وكانت بركة ادريس مرتبطة بالجامع الكبير بأغادير وكانت الصلاة به مفضلة وكان يغمراسن يحرص على الصلاة بهذا الجامع الكبير محافظة على هذا المظهر الديني ، ولكنه كان في نفس الوقت يعني بالمسجد الكبير بتاغرارت الذي يتصل بقصره بطريق خاص فكان يحضر به صلاة الجمعة وقد أمر ببناء مئذنتين في كلي المصليين . ولحسن الحظ لا تزال هاتان المئذنتان قائمتان الى يومنا هذا . ويعتبر هذان البرجان المشيدان في القرن الثالث عشر أجمل مباني المدينة .

وللنمط المعماري في المسجد والمئذنتين قيمة تاريخية كبيرة لأننا نجد نفس النمط في الأندلس وسوريا ، مما يذكر زائر هذه الآثار بالمرابطين كما نجد لهذا النمط قيمة أثرية اذ أنه أثر في نظام البناء والزخرفة في الأبراج المربعة التي لها جدران متوجة فواصل محيطة بسطح صغير يستخدمه المؤذن للنداء الى الصلاة ، ويوجد في وسط هذا السطح برج صغير مربع يغطي أعلى الدرج المؤدي للمئذنة ، ونجد في مئذنة أغادير قاعدة من الحجرة المنقوش المأخوذ من المباني والقبور الرومانية وفوق هذه القاعدة يقوم البناء من الآجر . لكن مئذنة الجامع الكبير بتلمسان مبنية من الآجر وتتكون الزخرفة القاعدية من الآجر كذلك وهي تكسو الجدران من الجهات الأربع .

وهناك بعض الأجزاء المصنوعة من التراب الخزفي تشكل التشبيك الزهري بألوانها .

أما بقية البناء فهي مغطاة بطلاء الجبس ، بينما نجد اللون البني المائل الى الاحمرار مستخدما في طلاء أسفل المباني . ولا تزال مئذنة الكتبية بمراكش محتفظة ببعض الزخرفة الجميلة . ونجد كذلك آثار من الزخرفة في مسجد سيدي بومدين . أما أنواع الزخرفة الموجودة بقرطبة منذ القرن العاشر والتي اتضحت في القرن الثالث عشر بصفة خاصة في المآذن

الكبرى للموحدين في اشبيلية والرباط ومراكش فهي مستوحاة من التقويس الذي تصعد فروعه رأسية مكونة شبكة معينة .

وهكذا ترتفع منارتا تلمسان وأغادير في سماء المدينتين على نحو يثير الاعجاب بجمال شكلهما ويدل على تقوى يغمراسن واهتمامه بإكمال أشغال المباني التي بناها أسلافه ، واقترح عليه بعض المقربين اليه كتابة اسمه على مسجد تلمسان فأجابهم بقوله : « سيعلمه الله » وكان تقواه وكرمه واسعين فهو الذي أهدى الثريا الموجودة الى المسجد الكبير بتلمسان ويحتفظ متحف المدينة حاليا ببقايا منها ، عبارة عن أربع حلقات من خشب الأرز مطلية بالنحاس المنقوش وكانت تحمل عددا كبيرا من المصابيح . كما كان محيط التاج الداخلي ثمانية أمتار وكانت هذه الثريا النحاسية الضخمة متصلة بسلسلة مثبتة في القبة الوسطى للمسجد .

وكان يغمراسن يميل الى الجلوس في المسجد لكي يستمع الى الدروس التي يلقيها العلماء . ولكنه لم يلبث أن هجر القصر القريب من المسجد لما علم أن المئذنة التي بناها تطل على داخل القصر بشكل قد يعرض حريمه لنظرات المتطفلين يضاف الى هذا رغبته في السكن في قصر يملكه وفق عادات الأمراء المسلمين .

وهكذا شيد يغمراسن قصر المشور الذي سكنه وأدار شؤون دولته من داخله . وكانت جدران هذا القصر أو على الأصح هذه القلعة متصلة داخليا بالسور الجنوبي للمدينة وقد عاشت فيه كذلك الأسرة الملكية في أبهة وبذخ عظيم . غير أن بعد يغمراسن عن المسجد الكبير لم يمنعه من أداء الصلاة به والتبرك به حتى تم دفنه فيه ، وقد بني قبره في قاعة صغيرة ذات مدخل في الجدار الخلفي للمسجد . وفي سنة 1860 م قام بروسلار (Brosselard) بحفريات في هذه المنطقة فوجد على عمق ثلاثة أمتار قبرا ملكيا لم ينقش عليه اسم صاحبه وقد افترض في ذلك الوقت أنه للأمير يغمراسن . ولكنه بعد مرور سبع سنوات ، تمت حفريات جديدة أدت الى اكتشاف جزء من رخام الشاهد كان ناقصا في الحفريات الأولى فتم التعرف على اسم صاحب المقبرة وهو أبو حمو موسى الثاني ، حفيد يغمراسن . وعلى العموم فالأرض المجاورة للمسجد بالقرب من المحراب ومن الجهة الغربية ممثلة بالأجساد التي دفنت فيها لمدة تزيد عن خمسمائة سنة . وقد وضعت هذه الجثث جنبا لجنب أو واحدة فوق الاخرى حسب الأجيال . ويرجع تاريخ آخر القبور الى أوائل القرن الرابع عشر وبذلك تعتبر جبانة ملكية ضخمة هي عبارة عن مدينة للموتى حدد موضعها كل من القصر والمسجد الكبير . ولا يعتبر القصر العتيق لمدينة تلمسان السكن الملكي الوحيد الذي يتبعه مدينة موتى خاصة ولهذا ما يشبه في القصر الملكي بقرطبة والقصبة بمراكش والحمراء بغرناطة وعادة تضم هذه المقابر أيضا رفات الرجال الصالحين الذين يرغبون في أن يدفنوا بمقبرة من أماكن العبادة . فنرى أن الناسك الجزولي قد تم دفنه وسط الأشراف السعديين بمدينة

مراكش . ونجد كذلك رفات ابن مرزوق الحفيد (766—842 هـ) سادس المرازقة المحمديين المحدث الأصولي الفقيه الأديب في المقبرة الخاصة بالأسرة الملكية بتلمسان . وقد بني ضريحه على شكل قبة مثمنة الزوايا . وما يزال هذا الضريح قائما في الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الكبير . ويعتبر تبجيل ذكرى هذا الرجل الصالح شهادة على تطور الفكر الديني في المغرب الكبير في مجال احترام الأولياء الصالحين الذين بقيت ذكراهم خالدة بحب يفوق الذكرى الدنيوية لملوك البلاد . ففي العادات والتقاليد الشعبية نجد أن يغمراسن أو غمراسن ما هو الا مجرد اسم حاكم لا ترتبط به أي ذكرى ولكن شخصية سيدي مرزوق لا تزال تتجدد ذكراها دوما حتى أن كل فرد يستطيع أن يرشدك الى قبره . وهذا ينطبق أيضا على سيدي أحمد بلحسن الغماري الذي اشتهر بتقوى يقتدى بها وكان يعيش في خلوة وهي عبارة عن غرفة صغيرة مجاورة للمسجد ، يدخل في المساء الى المصلى ويقضي ليلته في المقصورة يتلو القرآن . وفي صباح أحد الأيام من سنة 874—875 هـ/1470 م ، عثر عليه ميتا وهو في وضع الصلاة . فتم دفنه في المكان الذي عاش فيه في حياته . وقد اعتبر قبره ملجأ للفقراء وقد كتب على أعلى الباب هذه الكلمات : «إن فضائل هذا المعبد تنتشر على الدنيا مثل أشعة الفجر أو ضياء النجوم الذي يهتدي به المسافر .» .

ويعتبر هذا الرجل التقي «أحمد بلحسن الغماري» بالنسبة الينا بمثابة مقدم في مكان كان كثيرا ما يشرفه بزياراته العديدة وهذا المكان هو حمام الصياغين الموجود في الحي الشمالي الشرقي للمدينة الذي ينفتح بابه على نهج صغير يربط نهج خلدون بنهج معسكر . وكان سيدي الغماري يحب الذهاب الى هذا الحي وما زال الناس يذكرون المكان الذي كان يجلس فيه ، وبدلا من اسم حمام الصياغين يفضل التلمسانيون القدامى تسميته عادة باسم حمام سيدي بلحسن .

إن الطهارة الكبرى التي لا يستغني عنها المسلم والتي لا يمكنه أداء صلاته بدونها تجعل المحدث في حاجة ماسة الى افاضة الماء على كل جسده .

ومن فوائد الاختلاف الى الحمام تعهد الجسم بالتنظيف والتطهير لأداء العبادات على الوجه الأكمل . ولأجل ذلك التحق بناء الحمامات بسائر المؤسسات الدينية والاجتماعية بما فيها المساجد .

وتعد الحمامات من مرافق الحياة الحضرية ومن محاسنها . ومما هو معروف ومشاهد حرص سكان الأرياف على غشيان الحمامات عند وجودهم بالمدينة لفرط حبهم لها والاستمتاع بالاغتسال فيها بالماء الحار وتلعب الحمامات دورا اجتماعيا ودينيا بالغ الأهمية علاوة على المتعة التي توفرها للناس كافة .

الفصل الثاني

الحصار الطويل

د. عطاء الله دهينة

« كانت مدينة تلمسان محاطة بسبعة أسوار وكان سكانها لا ينامون لا في الليل ولا في النهار » هذا قول مأثور يردده سكان المدينة وهو يعبر في الواقع عن التهديد الدائم الذي يخيم على عاصمة المغرب الأوسط ويعبر عن القلق الشديد الذي تعيشه مقابل المحافظة على كرامتها . وفي الحق أنه منذ وقت طويل وقبل أن تصبح تلمسان مدينة الملوك عرفت أياما شديدة وذلك أنها في مطلع كل قرن تقريبا كانت تسقط بين أيدي الأعداء . بل كانت تسقط أكثر من مرة في القرن الواحد . وقد تم الاستيلاء عليها في نهاية القرن العاشر الميلادي واجلاء سكانها من طرف قبيلة صنهاجة المناصرة للحكم المرابطي كان المرابطون الذين بنوا معسكرهم في منطقة تاغرارت على مقربة من مدينة أغادير قد تمكنوا من السيطرة على القلعة العتيقة لكن في منتصف القرن الثاني عشر تمكن الموحدون من السيطرة على المرابطين ، وبغية التخلص منهم نهائيا خربّوا المدينة ودمروها ، وبعد مضي مائة سنة أي سنة 639 هـ/1241 م هاجمها الأمير الحفصي من تونس حيث كانت مدينة تلمسان في الواقع قد أصبحت عاصمة لأسرة بني زيان على يد يغمراسن ولكن لم يكن الخطر الحقيقي يتمثل في الأمير القادم من الشرق لأن المدينة قاومت العدو ولم تتركه يتجاوز الحدود ، وانما الخطر الكبير الذي كان يهددها كان من طرف المارينين جيرانها من الناحية الغربية كما سبق أن أشرنا وحتى في عهد يغمراسن كانت المدينة قد نجت بمعجزة من الاحتلال المغربي ، بينما كان واضحا بأن هذه المعجزة سوف لا تتكرر دائما . ويقال أن يغمراسن السلطان الطاعن في السن وهو في فراش الموت حذر ولي العهد عثمان بقوله : «إعلم يا بني أن الأمر أصبح في مقاومة المرينيين . أما أنا فقد حاربتهم كي أتفادى العار . لا تذهب لمنازلتهم ، إذا قدموا لمحاربتك ، أمكث وراء

أسوار المدينة ، وركز جهودك على غزو المحافظات الحفصية المجاورة لمحافظاتنا وذلك عن طريق الجيوش التي تتوفر لك ، وبذلك تستطيع أن تصمد في وجه أعدائك ، وربما تسقط إحدى القلاع الشرقية تحت سلطتك وتصبح مخزنا لكنوزك » .

ومهما كانت درجة أصالة هذه الوصية الرسمية ، فانها وجهت سياسة خلفاء يغمراسن لمدة ثمانين سنة والتي تمثلت في موقفهم من الدفاع بشكل أساسي من ناحية المغرب وفي رغبتهم في التوسع على حساب مملكة تونس ومحاولتهم للهجوم على بجاية .

اننا نعرف رسم الأسوار المحيطة بالمدينة والتي توحّد أغادير مع تاغرارت ومنذ مطلع القرن الثاني عشر بلغ التوسع أوجه حتى أصبح يفوق إحتياجات السكان ، ورغم أنه غداة نشأة مدينة تاغرارت بدأت مدينة أغادير تخلو من سكانها الا أنهما كانتا تمثلان مدينة واحدة بفضل المحافظة بالخندق العميق المقام على وادي متشكانة الذي يحدها من الجنوب والشرق بالاضافة الى المنحدرات الموجودة من ناحية الشمال . ومن الناحية الطبوغرافية والاستراتجية ، كانت المدينة الموحدة منيعة بحيث تصبح مهاجمتها عملية تكتنفها المخاطرة ولم تلبث أغادير أن تحولت الى قرية شعبية ذات بنايات مخربة ولكنها تحوي ذكريات غالية . وبقيت تطل بأسوارها على المساحات الريفية التي تحيط بها ، ومع ذلك فإن مدينة تاغرارت التي أصبحت تتمتع بحيوية أكبر لم يتم بناؤها كلياً . وكان الحي الغربي منها يدعى «المتمر» وكانت هناك مخازن محفورة في الأرض تخزن فيها المؤونة من الحبوب التي تصبح ثمنة جدا في حالة الحصار . وقد كان للمدينة سور يمتد مع الحافة الداخلية لكل الانخفاضات المحيطة بها . ثم في الجهة الجنوبية حيث تنعدم هذه الانخفاضات تم حفر خندق يدعمه جدار مبني من الطين والرمل والكلس المدكوك بين لوحين من الخشب بحيث تشكل هذه المواد المخلوطة بعد إزالة الهيكل الساند لها رهوصا عالية . وكان هذا السور متوجا بطريق يستخدم للحراسة يحميه حاجز ذو فتحات وقد بنيت على جوانبه أبراج صغيرة مربعة تمكن من مراقبة الأماكن المجاورة مراقبة مباشرة . وكانت الأبواب مدعمة بحصون قوية بارزة . ولقد ذكر يحيى بن خلدون خمسة من هذه الأبواب وهي كالتالي : في الشرق الباب العتيق المسمى باب العقبة ، وفي الشمال الباب العلوي الذي يسمى أيضا باب الزاوية ، ثم باب القرمادين الذي يظهر بارزا في الزاوية الشمالية الغربية ، وفي الغرب باب قشوط الذي حل محله باب فاس وفي العهد التركي كان يسمى بتشاؤم مثير للاعجاب باب الأرجوحة إشارة الى المعدمين شنقا الذين كانت تنصب لهم المشنقة بقربه ، ثم على الجهة الجنوبية للمدينة يوجد الباب الأخير الذي ذكره المؤلف وهو باب الجياد ومن الصعب حاليا تحديد مكانه بدقة فقد يكون بعيدا من الباب الحالي المسمى بباب سيدي بومدين وقد يكون مكانه في « بيت الريح» حيث تتلاقى العباد مع وادي متشكانة .

وقد عاش يحيى بن خلدون في مدينة تلمسان ويليق بنا أن نثق به ، غير أنه ليس هناك شك في وجود أبواب أخرى للمدينة ولكنها أقل أهمية ، فقد ذكر منها أبو الفداء وهو مؤرخ شرقي ثلاث عشرة قد يكون بعضها أبوابا خفية للنجاة مفتوحة للجنود المشاة فقط مثل تلك الأبواب المجودة نحو الشمال ، مثل باب الرواح الذي يتقدمه ممشي مغطى بأقواس يصل تلمسان بأغادير ومن الممكن أيضا أن نفترض بأن من بين هذه الأبواب الثلاث عشرة تلك الممرات القائمة داخل الاسوار أي في الساحة الوسطى .

ويمكننا أن نتعرف على نظام متماسك للتحصين ، لا يزال في تلمسان حيث تظهر آثاره في الجدران الضخمة المبنية بالآجر الوردي في حدائق ضواحي المدينة . ويبدو أنه حسب طرق التحصين الموروثة عن البيزنطيين كانت أسوار تلمسان مضعفة على مسافة كبيرة من حدودها الخارجية بحيث تتكون من جدار خلفي رئيسي وجدار أمامي في الأماكن المسطحة بعيدا عن القوم المنحدرة من مدخل المدينة وحيثما توجد الضعيفة أو الحساسة من ناحية الدفاع تضاف اليها أسوار أخرى . فالعمري يذكر أن عدد هذه المراكز يبلغ ستة من ناحية القلعة أي في اتجاه الجنوب حيث تتعرض المدينة للخطر ولا تحميها الطبيعة بل تتحكم فيها المرتفعات . واذا كانت هذه الأسوار غير متصلة فإنه كان يتحتم أن تكون الضواحي محصنة ببناء أمامي يحمي مراكز الحراسة وقد بني على الجهة الجنوبية برج القشاقش على مقربة من وادي متشكانة ، وهناك طريق مغطاة بأقواس تربط هذا البرج بالمدينة . وفي نفس الجهة ومع المسلق الجبلي المؤدي الى هضبة لالّة ستي نجد برجا آخر عرف باسم برج الطاحونة ، يراقب هذا الموضع الاستراتيجي المهدد ويحمي الطاحونة القائمة على المرتفع والتي تزود سكان مدينة تلمسان بالدقيق .

وكان أهم الأبراج في الناحية الغربية ، قلعة أمامة وهو قصر على شكل قلعة ولذلك يسمى قصر قلعة أمامة . ولقد مرت قلعة أمامة بالمحن وعرفت كذلك أيام المجد . وفي سنة 689 هـ/1290 م حاصرها السلطان المريني مدة أربعين يوما واضطر في النهاية أن ينسحب لأنه كما يبدو لم يستطع قهرها .

وهكذا ظلت عاصمة أسرة بني زيان معتصمة ومتدرعة بمرافقها الدفاعية ومحاطة بأسوار وأبراج وساحات عسكرية هامة ، ومن ناحية أخرى كانت تمتد حول المدينة البساتين وخزانات المياه ، حيث تم بناء الصهريج الكبير وهو حوض واسع مستطيل تبلغ قياساته مائتي متر على مائة متر ويبلغ عمقه حوالي ثلاثة أمتار وكان يتم ملؤه بواسطة خزان ماء للتوزيع ظلت آثاره ظاهرة حتى بداية القرن الحالي . ويقع هذا المبنى على يسار طريق المنصورة ، وحسب المؤرخ التنسي ، يرجع الى عهد أبي تاشفين (718هـ/1318م — 738هـ/1337م) . وكان محصنا بالجدار الأمامي ويستخدم لتزويد سكان المدينة بمياه الشرب في حالة الحصار وربما ايضا لري

الحدائق ، غير أن العادات الاسلامية وشخصية السلطان أبي تاشفين الذي ضاعف من عدد المباني الكمالية فرضت إستخداما آخر لصهريج تلمسان مثلما كان عليه الحال بالنسبة للأحواض الواسعة التابعة لقصور الأمراء في تونس والأحواض الكائنة بالأندلس (مثل بركة القصر بغرناطة) ونعني بذلك أن الصهريج التلمساني ، الذي كانت تحيط به الأراضي المزروعة ، كان بمثابة زينة للمدينة الملكية ومكانا للنزهة وللتسليةبالرياضة المائية .

ومما يروى عن صهريج تلمسان أنه كان مسرحا للمأساة المؤلمة التي عجلت بسقوط أسرة بني زيان . ففي سنة 923هـ/1517م كانت المملكة مهددة من قبل الأسبان الذين تمكنوا من التسلط على مدينة وهران ، ومهددة من قبل الأتراك في الجزائر العاصمة على يد الأخوين عروج وخير الدين . وأما في تلمسان فإن السلطان أبا حمو الثالث عزل ابن أخيه أبا زيان وسجنه ووضع نفسه تحت الحماية المطلقة للمسيحيين . وقد تمكن الأمير المسجون من الاستنجاد بأتراك الجزائر ، فسارع عروج ودخل مدينة تلمسان ورحب بقدومه السكان حيث تمكن من تحرير أبي زيان وأسبغ عليه مظاهر التقدير والاحترام . وتجدر الاشارة الى انه ، كما قال لنا مرمول ، «أقسم بالقرآن بألا يعذب الأثرياء من الطبقة الحاكمة وانه لا يلحق بهم أي ضرر وانه سيحرر الأمير الصغير ويرجع له التاج» وواصل المؤرخ يقول : « بعد أيام قليلة تظاهر بأنه انسحب بغية الرجوع الى الجزائر العاصمة ولكنه قبض على الأمير وشنقه في نفس اليوم كما علق أبناءه السبعة في أعمدة الأروقة حيث تم إعدامهم شنقا بواسطة قماش عمائمهم . ولم يكتف بهذا بل أمر بإحضار كل أقاربه وألقى بهم في بركة حيث غرقوا ، وكان يستمتع برؤية وضع أجسامهم وأثار التألم البادية على وجوههم» . وربما أرادت التقاليد أن تكون البركة التي غرق فيها هؤلاء الناس هي بركة الصهريج الكبير ، المرآة الجميلة للمياه التي طالما أعجب بها اسلافهم اثناء استحمامهم .

وكانت المنطقة العسكرية التي تم فيها حفر هذه البركة تستقطب ايضا الأثرياء في تنزهاتهم وكذلك الطبقة البسيطة من الشعب وكانت تمتد المقبرة الخاصة بمسلمي أغادير ، بين القلعة الرئيسية والقلعة الأمامية . وأما مقبرة اليهود ، التي تبدو قديمة جدا فكان يحيط بها خط من الاسوار التي تجاور الزاوية الشمالية الغربية للمدينة . وحسب التقاليد التي تبدو عامة في دار السلام تعتبر الأماكن المجاورة للأبواب تابعة للمقبرة ، وعادة ما تتجمع القبور حول ضريح كبير لشخصية بارزة ويتمتع ضيف هذه القبور بالمكانة المرموقة اللائقة بهم وكان الناس يعتقدون أن المدفون أمام كل مدخل من مداخل المدينة أصبح كحارس عليها ، وهناك أسطورة جاءت في كتاب البستان توضح هذا الاعتقاد الديني إذ تقول الأسطورة بأن سلطان تونس أتى وحاصر تلمسان وعقدا إجتماعا مع وزرائه وسألهم : من أين يدخل الى هذه المدينة ؟ فذكروا له عدد الأبواب ، ثم سأل : من هو الولي الذي يحمي باب الجياد ؟ فأجابوا

أنه سيدي الحلوي . وباب العقبة ؟ سيدي أحمد الداودي . وباب الزاوية ؟ سيدي الحلوي . وباب القرمادين من يحميه ؟ فأجابوه أنه ليس هناك أي ولي يحميه ، فقال لهم : إذن فمن هذا الباب سأدخل . وتضيف الأسطورة بأن الولي الذي كان لايزال حيا ، وهو سيدي عبد الله بن منصور ، تولى حراسة باب القرمادين لكي يمنع سقوط مدينة تلمسان في أيدي الأعداء .

وهكذا ظل سكان مدينة تلمسان يثقون بحراسة الأولياء الصالحين أكثر مما يثقون بصعوبة أسوارها . ففي مطلع كل سنة وعند عودة فصل الربيع يكتنف المدينة خوف وينتابها هلع عندما يشاهد سكانها من أعلى الجدران محلة ملك فاس تخرج من ممر اليهود (Col du Juif) حيث تعبر الطريق الرابطة بالمغرب ، شعب بأسره يمشي ، من مشاة وخيالة وبغال وجمال تحمل الذخيرة والأمتعة ؛ وتنتشر الخيام المبنية عبر الهضاب الممتدة من سفح منحدرات لالة ستي الى السهول المجاورة . ويطلق العدو مواشيه عبر المزارع ويقطع أشجار البساتين ويقيم حظائر للحيوانات ويبني الأماكن المستخدمة في الحصار والسياج . وهكذا يبدأ الحصار الذي تتخلله الهجمات ضد المرافق الأمامية والأبواب باستخدام قذفات المنجنيق التي تهز الجدران وتخرب الأبراج ؛ ويحتفظ متحف تلمسان ببعض كتل الرخام أو الحجر الرملي التي قذفها منجنيق المرينيين . ويفترض بأن هذه الآلات وكذلك شظايا القطع الحديدية التي كان يتم قذفها بواسطة المسحوق المشتعل ظهرت في بلاد المغرب منذ أواخر القرن الثالث عشر ولها أثر بالغ على أعصاب المحاصرين . فهل كانت من النوع الذي عجل بسقوط المكان ؟ يمكننا أن نشك في ذلك ، فقد كان الجهاز الدفاعي للمدن الاسلامية مشابها للجهاز التابع للقلاع المحصنة في العهد الاقطاعي الأوروبي وهو جهاز يفوق في صلابته الجهاز المستخدم للهجومات . والرأي الأرجح أن الحصار نفسه يعتبر أنجع إذا واصل العدو تمديده وبذلك يعزل المدينة عن بقية العالم ويعوق عمليات النجدة والتموين . وكانت مدينة تلمسان قد مرت بهذا المحنة القاسية عندما قام السلطان المريني أبو يعقوب يوسف في سنة 699 هـ/1299 م بمحاصرتها حصارا دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر .

وفي ضواحي المدينة تم بناء سور للوقاية وهو حسب ما يصفه المؤرخون يشبه في شكله هلال القمر . فهو بمثابة جدار عال يحيط به خندق عميق تتخلله ممرات مهيئة لكي تستخدم تلك الهجومات وتقوم بحراستها مراكز الحراس ولقد ذكر ابن خلدون : «أنه يصعب على الروح أو على شخص مخفي أن يدخل المدينة ليس هناك سكان عانوا من الآلام بالقدر الذي عانى منه سكان مدينة تلمسان .» هكذا يتكلم ابن خلدون الذي يعطينا قائمة للأسعار الخيالية التي بلغتها المواد الغذائية ، كما يعطينا تصويرا دقيقا لمناعة أسوار المدينة .

نشأة تلمسان الجديدة :

فبينما كانت مدينة تلمسان تعاني من آلام الجوع والسوق السوداء كان الخير وافرا في معسكر المرينيين . وكان التنظيم المؤقت للجيش يظهر بمثابة مدينة جديدة تقابل مدينة تلمسان . وعند حلول فصل الشتاء من نفس العام (699 هـ/1299 م) ، قام سلطان بني مرين أبو يعقوب ببناء قصر ومسجد كبير في المدينة الجديدة . وتم تشييد مبان وعمارات السكن للحاشية والخدم وبنيت فنادق يؤمها التجار الذين كانوا يسافرون الى تلمسان لبيع بضائعهم . وخلال السنة الثانية من الحصار قام السلطان المريني ببناء سور ثان حول مدينته التي سماها المنصورة تيمنا بالنصر والتي تسمى أيضا تلمسان الجديدة .

وفي ذلك العهد كانت الجيوش المرينية تجوب البلاد وتعزل الحكام وتضم المحافظات الى مملكة فاس .

وبالاضافة الى قوافل التجار المتوجهة الى مدينة المنصورة كانت هناك السفارات القائمة تمثيل الملوك الذين يرغبون في تمتين الصداقة مع السلطان المريني .

وكانت البعثات الدبلوماسية تجوب الطرق المؤدية الى المدينة الجديدة . ومن ذلك موكب ممثلي سلطان مصر المملوكية يضم فيلة وزرافات وموكب آخر من الحجاز محمل بهدية الى السلطان المريني تتمثل في القماش الذي تغطى به الكعبة بمكة المكرمة ، وهي هدية من الأشراف بالمدينة المنورة . وبينما كان مسجد المرينيين يشع على كل البقاع والأصقاع التي بلغها الاسلام ، كانت مملكة بني زيان التي أصبحت حدودها لا تتجاوز أسوار المدينة ، تنظر بقلق بالغ الى مواردها وهي تقل وتتضاءل من شهر لآخر .

إنقاذ تلمسان القديمة :

ولم يكن ربيع سنة 707 هـ/1307 م إلا وكانت مدينة تلمسان قد أوشكت على السقوط ولكن الله العلي القدير أنقذها بفضل رحمته . ولنترك من جديد الكلمة لابن خلدون أوبالأحرى للآبلي أستاذه الذي نقل عنه الرواية . إنه ينقلنا الى قصر المشور الذي يسكنه أبو زيان الأول مع أخيه أبي حمو موسى الأول وجميع أفراد أسرته : « في صبيحة هذا اليوم الذي كان يوم الأربعاء ، ذهب السلطان أبوزيان ليجلس وحيدا في غرفة القصر . وبعد أن طلب حضور ابن حجاف أمين مخزن الحبوب قال له : كم بقي من مخزن مليء بالحبوب فأجابه هذا الأخير بأن هناك كمية ضئيلة لا تكفي ليومين فقط . وعندئذ قال له : أكتم هذا الخبر . وفي نفس الوقت دخل عليه أخوه أبو حمو فأحاطه علما بهذا النبأ غير السار ، فأحس الرجلان بألم كبير . » ثم دخلت جارية وهي تدعى دعد وهي مربية بنت ابي اسحاق ، والتي تزوجها

بيهم وخرجت من قصر سيدتها وحضرت أمامهم ثم قالت : «إن نساء قصركم وأميرات أسرة زيان وكذلك جميع نساء داركم كلفتني بإبلاغكم هذا الخطاب : ما هي لذة العيش طويلا ؟ إنكم على وشك النهاية والعدو يستعد لابتلاعكم . لم تبق سوى بضع ساعات من الراحة بعد ذلك تسقطون بين أيدي الأعداء . إذن يجب حمايتنا من العار الذي ينجم عن الأسر حافظوا على شرفكم بواسطة قتلنا ، فالعيش في الخزي والعار هو عذاب والعيش بعدكم نعتبره أسوأ من الموت» وكان أبو حمو متأثرا أشد التأثر والتفت الى أخيه وقال له : «إنهن على صواب و لا ينبغي أن ينتظرن» . فأجابه أبو زيان قائلا : «يا عزيزي موسى اصبر ثلاثة أيام ، فربما بعد كل هذه المحن الجمة يأتي الله لاعانتنا . وبعد انتهاء هذا الموعد لا تسألني أن أعطيك نصيحة بشأن هاته النساء بل اذبحهن بواسطة اليهود والنصارى وبعد ذلك التحق بي وسنخرج على رأس رجالنا ونكافح ونقاتل حتى الموت ونخضع لارادة الله» . واغتاظ أبو حمو لسماع كلام أخيه ولم يقبل تحديد أي موعد وصرخ فيه ثم وقف قائلا : «يا الله انك ستنظر وتترك العار يلحقهن ويلحق بنا ؟» فخرج ساخطا ناقما وسكبت الدموع من عين السلطان أبي زيان . وأثناء هذا الوقت ، كما جاء في قول ابن حجاف ، كنت ساكتا امامهم ولكن لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة لا الى الأمام ولا الى الخلف . وبعد هذا نام السلطان لكن الحارس الذي كان في الباب أومأ اليّ وقال : «أخبرهم بأن رسولا اتى من المعسكر المريني وهو بباب القصر» ولم استطع أن أجيب على سؤاله إلّا بإشارة . ولكن صوت هذه الحركة تسبب في تيقظ السلطان من نومه حيث نهض مذعورا ، وبلغت له الخبر ودخلت عليه الرسول ، ووقف هذا الرجل أمام الأمير وخاطبه بهذه الكلمات : «إن أبا يعقوب يوسف قد مات في هذه اللحظة بالذات وأنا أحمل اليك خطابا من حفيده إبي ثابت» . فهش السلطان واستدعى أخاه وأعيان أسرة بني زيان ليقرأ السفير الخطاب المحمل به أمامهم . وكان الأمير المريني الصغير وريث العرش مستعجلا للجلوس على هذا العرش بغية تفادي حدوث أزمة بسبب عملية الخلافة وقد طلب رفع الحصار بشرط أن يوفر التلمسانيون له معدات ملكية وفي حالة الهزيمة ملجأ . وهنا سارع السلطان الزياني بالقول : قال الراوي «كان هذا فضلا عظيما من عند الله يمنحه لعباده» وكنّا قرأنا من ناحية أخرى أنّ مائة وعشرين ألفا هلكوا ، أما الأحياء فكأنهم خرجوا من القبور . وخرجت الجيوش من المنصورة وحسب يحيى بن خلدون ، كان التلمسانيون قد تعهدوا باحترامها .

عودة المرينيين الى حصار تلمسان القديمة :

لكن المنافسة المتبكرة لمدينتهم كانت تذكرهم بذكريات أليمة وتقدم تسهيلات كبيرة لأعدائهم القدامى الأمر الذي دفعهم الى عدم التزامهم المعاهدة لوقت طويل . والشيء المؤكد هو أنه بعد مرور سبع سنوات وعندما أقدم المرينيون على اقامة حصارهم لم يفكروا في احتلال

المنصورة ولكن بنوا معسكرهم في منطقة قريبة من تلمسان كانت تستعمل لسباق الخيل . وفي سنة 705 هـ/1335 م في عهد أبي تاشفين الأول استرجعت المدينة المغربية وظيفتها . وكان السلطان المريني أبو الحسن قد تميز بأكبر توسع للملكة المرينية . وفي عهده بلغت تلمسان الجديدة أوج أزدهارها .

إنقاذ المدينة للمرة الثانية :

ومع ذلك فقد تم فك الحصار بفضل بذل الطاقة الأخيرة . وقد ذكر العمري أنه في هذه المرة ايضا «ضيق المحاصرون الخناق على مدينة تلمسان» وتمثل ذلك في بناء الحواجز وحفر الخنادق واستخدام المنجنيق . وامام الابراج المحيطة بمدينة تلمسان تم بناء ابراج اخرى اضافية ذات علو اكبر حيث اصبحت شبيهة بالابراج الخشبية المستعملة قديما في الحصار خاصة في القرون الوسطى الأوروبية . وكان بعض هذه الأبراج شديد القرب من السور ، الأمر الذي يجعل المحاصِر (بكسر الصاد) والمحاصَر (بفتح الصاد) يتقاتلان بالسيف ، وكان السلطان أبو حسن نفسه يتفقد كل صباح هذه الأبراج . وفي صباح أحد الأيام كان الفرسان الزيانيون في انتظاره وانقضوا عليه فأفلت من قبضتهم وفر الى الجبل وأوشكوا أن يلحقوا به . ولكن عندما بلغ الخبر الى رجاله هبوا كلهم في جماعة ، وتحت قيادة ابن ابي الحسن وتمكنوا من صد التلمسانيين الذين لم يتمكنوا من دخول تلمسان وقد سقط الكثير ومنهم بعض أخيارهم في الخندق الفاصل بين المدينتين وتهشمت رؤوسهم في اسفل السور وحسب المؤرخ كان وادي متشكانة مملوءا بالاجسام الملوثة بالدماء .

سقوط تلمسان نهائيا في أيدي المرينيين :

ولكن رغم الخسائر التي لحقت بأهل تلمسان القديمة في هذه المعركة الطاحنة واصلوا تمديد مقاومتهم لمدة سنتين ، ولكن حسب رواية العمري استطاع المحاصر المريني أن يغير اتجاه القناة التي تزود المدينة بالماء حتى سلمت نهائيا في أول ماي 738 هـ/1337 م وسقطت بعد هذه المقاومة الشديدة التي استغرقت عدة سنوات أمام هذا الحصار ، وكان السلطان أبو تاشفين يحارب بكل شجاعة على باب قصره وهو محاط بأقرب معاونيه وقد شاهد سقوط إبنيه أمام عينيه ، وأما هو فقد أسر حيث قتله أمير مغربي ، وذكر ابن خلدون أن ابا الحسن كان ساخطا وناقما على هذا التصرف الذي حرمه من لذة شتم عدوه القديم والنيل منه والتهجم عليه بالذم والشتم وهكذا عرفت تلمسان كل انواع المحن والآلام التي تسببت فيها جيوش الغاصبين حتى تدخل ابنا الامام ــ وكانا عالمين فذين في هذه المدينة ــ لدى المنتصر وتحصلا منه على مبادرة عفو أكسبته تعاطف رعيته مستقبلا ولمدة احدى عشرة سنة كانت مدينة تلمسان ضمن أملاك الحكام المرينيين ، ولكن كانت المنصورة أكبر من تلمسان ، فهي

مدينتهم ، مدينة مغربية في قلب المملكة المحتلة ، مثلما كانت في الماضي ، تاغرارت على باب أغادير . أصبح فيها المعسكر المحصن مركزا للنشاط الرسمي لأبي الحسن الذي سكن فيه وبنى فيه أجمل المباني وفي سنة 1344 م بنى فيه قصر النصر . ويفترض بأنه في نفس العهد أنهى بناء المسجد الكبير الذي بدأ فيه عمه أبو يعقوب يوسف وتبين الكتابة الموجودة على الباب أن هذا الأخير قد اعطى أمرا ببناء المسجد ، لكنها تنعت المؤسس (بالمرحوم) ويبدو أن هذا المعبد قد انتظر على الأقل سنة لكي يتم بناؤه . ففي النصف الأول للقرن الرابع عشر تم فتح الورشة والانتهاء من الاشغال وكذلك تجزئة المباني الفخمة التابعة لمدينة المنصورة وهذه الدقة التاريخية النسبية تعطي لآثار هذه المدينة قيمة وثائقية عظيمة مع أن تأسيس هذه المدينة كان يهدف الى تلبية احتياجات عابرة . وتبدو المنطقة الجنوبية الشرقية لمدينة المنصورة محصنة أحسن تحصين كما اتبين الآثار المتبقية والعديدة من جدرانها . وليس بعيدا عن هذا المكان ، وفي وسط المدينة يظهر للانظار قصر النصر يعلوه تاج جميل من الرخام فيه نقوش توضح كتابتها تاريخ سنة 1344 م . وهناك عدة مبان لا تكاد تعرف من جراء القدم ، غير أننا كنا نشاهد منذ ماض قريب أحواضا متوازية من بينها حوض تبلغ قياساته 35 مترا للطول و 9 امتار للعرض ويغطي جدرانه الخزف و تحيط به أعمدة . وقد لعبت المياه الصافية النابعة من الجبل دورها الطبيعي في ادخال جمال وزينة بديعه على هذا القصر الملكي الفاخر .

واذا كان قصر ابي الحسن قد فقد جزءا هاما من الرخام الذي نزعه المرينيون أنفسهم واذا تظاهر سكان تلمسان بعدم اكتراثهم بالمحافظة على الجدران التي لا تزال قائمة وسارع المعمرون الأوروبيون بإزالة البساتين فإن المسجد الكبير قد حافظ على بنائه بفضل طابعه الديني أكثر من كونه بناء متينا وهو بذلك لايزال الى يومنا هذا يعبر عن الآثار الضخمة . ليس هذا سوى مظهر ، فان مسجد المنصورة لم يبق منه سوى الهيكل الفارغ حيث لم تبق سوى الجدران المبنية من التراب المذكوك والآجر قائمة وتحيط به من كل جانب يتخللها اثنا عشر بابا من الحجارة والجزء الأمامي لصومعته . وبفضل الحفريات التي قامت بها مصلحة المباني المدنية في الماضي تمكنا من الحصول على مخطط للمعطيات التي يستحيل مراقبتها حاليا ويعتبر هذا المخطط متناسقا من حيث القياسات التي تنمّ عن طابعها الكلاسيكي الممتاز بالتنظيم المنسجم وهناك سور مستطيل تبلغ قياساته 60 مترا للعرض و 85 مترا للطول يشغل مساحة مربعة تقدر ب 30 مترا للضلع الواحد والى جانب هذا هناك رواق يمتد مع الحائط الداخلي من الجهة الأمامية ومجموعتان تقيم كل واحدة ثلاثة أجنحة تمتد مع الجدران الجانبية التي تحيط بهذه المسافة التي تتوسطها فسقية من رخام . وهناك ثلاثة عشر جناحا تشكل قاعة الصلاة وتلتقي في نهايتها بثلاثة أجنحة جانبية تمتد مع الجدار الخلفي والى جانب ذلك هناك مساحة فارغة يغطيها سقف هرمي يفصل بين هذه الأجنحة الثلاثية الأمامية المتصلة بالمحراب . إن الكثير من مظاهر هذه البناية يذكرنا بمسجد الحسن بالرباط الذي تم

بناؤه في اواخر القرن الثاني عشر من قبل الموحدين ويتبين من تنظيم الصومعة هذا التشابه الذي يغلب على الظن أنه متعمد .

إن هذا البرج الفخم المبني من الحجارة ، رغم أنه مخرب في جزئه العلوي وذو علو يبلغ 38 مترا ، يشكل آية فريدة من نوعها في الهندسة المعمارية الاسلامية ، لأن موضعي الزخرفة الخارجية الوحيدين فيه هما المدخل الرئيسي والصومعة ويتميز الباب الأساسي بواسطة قوسه الشبيه بحدوة الجواد على شكل هلال والمغطاة بقبتين يحيط بهما مستطيل مكون من تشبيك زهري ، وهناك نقوش تهبط منه رواسب كلسية متحجرة على طول السقف ويعلوه افريز وقد اندثر هذا الافريز ولكننا لانشك في أنه كان قائما هنا كما على الجدران الأمامية التي تبعد عنها بمسافة معينة ونظرا للعلو الذي بني عليه فانه لا يستخدم الا لحماية وهمية لدى المدخل حيث تم وضعه للزينة وليتوج المبني الكلاسيكي وهو شبية بالكرنيش في البنايات الافريقية . وتبدأ الزخرفة الحقيقية للصومعة فوق هذا المبنى بسطح منخفض شبيه بالسطح الموجود في الجهة الشمالية لبرج حسن ويعلوه قوس فيه زخرف من خشب مهذب ومخرم استعمل لتزيين أعالي هذا القوس وعلى بعد من ذلك يمتد اللوح المعين للصومعة ذات الطابع المغربي ولكن هنا بنيت في الوسط نوافذ لاضاءة المبنى من الداخل وهي غير مزخرفة مثل تلك الموجودة في إشبيلية . وهناك رواق ذو قويسات فوق أعمدة من الرخام تعلو هذه المشتبكات من الحجر وتشكل نهاية المبنى ، غير أننا نفترض أن زخرفة البرج لا تنتهي هنا ، فهناك ثلاثة أمتار من السطح بقيت عارية ويمكن أن تزينها زهور الخزف مرصعة مثل تلك الموجودة في المنارات الأخرى المرينية وتلعب التربة الخزفية في الواقع دورا هاما في عملية تزيين هذا البرج الشيء الذي يساهم في اصالتها القوية . ويبدو أن الجدران الأمامية تكاد تكون كلها مرصعة بالألوان التي تتخللها نشوات حجرية وحيث ترك النحاس لتزيين خلفية محضرة بالخزف والمينا وذات معينات مرسومة باللون الأخضر وبخطوط رأسية وهناك بعض الأجزاء لاتزال موجودة في قوس الباب الرئيسي وفي الشبكة المزخرفة بالمعينات ذات اللون الأخضر والبني والأزرق . أما ما تبقى من هذا المبنى الأثري الرائع يجعلنا نتأسف على اندثار البناء الصغير الموجود على الطريق العام والذي يتوج الجهة الشرقية التي تكمل مجموع البنايات برمتها ، اننا لا نرى اليوم سوى نصف المؤذنة ، ومن المحتمل أن تكون هناك قطع خشبية مستخدمة كسوالف للفتحات الجانبية وتسبب انكسارها في تخريب وتهديم النصف الآخر والأجزاء الداخلية للمحور المركزي للغرف الست المجاورة وللحاجز المحيط بها ست مرات ، وهناك أقواس تغطي هذا الطريق الحلزوني الذي يشبه تلك الطرق الكائنة في قصر حسن بالرباط وجيرالدا . لقد كان يمتد عبر منحدر خفيف ومتسع يستطيع جوادان المرور به جنبا لجنب . ويروي لنا الكاتب ابن مرزوق كيف صعد عدة مرات هذا الطريق صحبة وزير لأبي الحسن حيث كان الوزير يركب جوادا وكان هو نفسه يركب بغلة و هي المطية المناسبة لرجل مثقف مثله .

وكان سقوط نصف البرج وذلك ما نفسره بعيب في البناء قد أثر في مخيلة الجماهير التي لم تلبث أن وجدت له تفسيرا في أسطورة . لقد كان السلطان المؤسس لهذا البناء مستعجلا في اتمام البناء فكلف مهندسين معماريين واحد منهما مسلم والآخر يهودي حيث بنى كل واحد منهما نصف المئذنة وكان النصف الذي بناه اليهودي قد انهار بعد وقت قصير بينما بقي النصف الذي بناه المسلم قائما . ولقد تجاوزت الحركة العمرانية للأمراء المرينيين نطاق المنصورة حيث انتشرت عبر الزمن بقوة جمالها . لقد استولوا على مدينة تلمسان مرتين وكان الاحتلال الأول قد انتهى في أواخر سنة 1348 م واثر الهزائم التي تعرض لها في تونس الأمير المريني أبو الحسن استولى على المدينة أمير من أسرة بني زيان وبعد مرور أربع سنوات ، وبالتحديد في سنة 1352 م قام ابن ابي الحسن أبو عنان بالاستيلاء من جديد على مدينة تلمسان حيث انتزعها من أسيادها الشرعيين ولم يرجع اليها هؤلاء إلا بعد مرور سبع سنوات . وقد ذكر أبو حمو موسى الثاني صاحب هذا الانتصار مراحل هجومه المظفر الذي انتهى باسترجاع مدينة تلمسان حيث قال : «ذهبنا في الصباح والنصر أمامنا يرفرف مع رفرفة الاعلام على رؤوسنا كالعمامات» . ولا شك في أن المملكة استرجعت استقلالها ولكنها خرجت ضعيفة من المحن التي مرت بها وكانت القبائل العربية قد ساعدت على استرجاع تلمسان وكان من الواجب أن يتلقى هؤلاء العرب الرحل أجرا مقابل الخدمات التي قدموها وكذلك الخدمات التي سيقدمونها مستقبلا وفعلا أعطيت لهم حصة معتبرة من الخزينة وأصبحت الأراضي الموروثة عن الأجداد تتقلص حول تلمسان . وكانت هناك عدة محاولات لاعادة غزو المدينة لكنها باءت بالفشل الذريع على أن الطبيعة الدفاعية نفسها للمدينة لا تضمن أمنا مؤكدا للمملكة وكان السلطان الزياني قد اضطر عدة مرات أن يترك المدينة رغم حماية أسوارها وكان يلجأ أمام التهديد المريني الى القبائل طلبا للحماية حيث كانت هذه القبائل حليفة له وأحيانا كان يفر الى الصحراء مسقط رأس أجداده .

ومع هذا صمدت مدينة تلمسان وأعطت منظرا كمدينة ملكية وذلك لغاية بداية القرن السادس عشر . وشاءت الأقدار أن تنسى هذه المدينة أمجادها العريقة الممتدة عبر القرون الوسطى وهو العهد الذي كانت فيه حقا (مدينة الفرسان) كما جاء في أقوال السكان ولا تشهد على هذه الأمجاد سوى المباني الفاخرة التي بناها اعداؤها على بابها .

الفصل الثالث

العصر الذهبي للزيانيين

د. عطاء الله دهينة

منذ بداية سنة 707 هـ/1307 م التي كانت نهاية الحصار الشهير ، انبعثت المملكة الزيانية من جديد ونالت استقلالا تاما على غرار الدول المغربية الأخرى حيث كان الاستقلال هذه المرة حقيقيا نظرا لأنه حتى سنة 627 هـ/1299 م كان التلمسانيون يعترفون بسيادة الحفصيين . وبعد هذا أصبحت المدينة أحد المراكز الرئيسية سواء أكان ذلك على الصعيد الاقتصادي أم السياسي للمغرب الاسلامي . وظهر هذا الانبعاث من جديد سنة 707 هـ/1307 م بفضل أبي زيان الأول (703 هـ/1303 م — 708 هـ/1308 م) الذي خلف أباه عثمان (681 هـ/1282 م — 703 هـ/1303 م) في العاصمة المحاصرة منذ سنة 707 هـ/1307 م — 708 هـ/1308 م . استرجع سلطة دولته على المغرب الأوسط من وادي ملوية الى ضواحي الجزائر العاصمة . وخلفه أخوه أبو حمو موسى الأول في سنة 708 هـ/1308 م . وأثناء السنين العشر لحكمه تمكن هذا الأمير من تدعيم وتوسيع انجازات سلفه ، ولكن أبا تاشفين الابن وخلف أبي حمو قام بثورته وطرد أباه من العرش وحكم البلاد تحت اسم أبي تاشفين الأول من سنة 718 هـ/1318 م — 738 هـ/1337 م .

تعتبر هذه العشريات الثلاث (707 هـ/1307 م — 738 هـ/1337 م) هامة نظرا للاستقلال التام الذي عرفته مملكة تلمسان ، هذه المملكة القائمة على الأرض المسماة اليوم بالجزائر وكانت هذه المملكة مستقلة تماما ومنفردة بكل وضوح عن جارتيها في الشرق والغرب وكانت تسعى الى تنظيم نفسها غداة الحصار الطويل الذي كاد يأتي عليها ، وسنحاول أن نبين في الصفحات التالية كيف كان هذا الاستقلال وكيف عادت الدولة من جديد الى

الوجود وما هي مؤسساتها وهياكلها وما هي الفوائد التي جنتها البلاد من هذا الاستقلال في شتى المجالات .

ا ـــ المؤسس الحقيقي لدولة المغرب الأوسط التلمسانية الجزائرية ، أبو حمو موسى الأول (708 هـ/1308 م ـــ 718 هـ/1318 م).

كانت المملكة الزيانية قد تم احتلالها من قبل المرينيين ابتداء من سنة 699 هـ/1299 م حيث أصبحت محاصرة في عاصمتها تلمسان ، ولكنها قاومت هذا الحصار لمدة ثماني سنوات (ماي 699 هـ/1299 م ـــ ماي 707 ه/1307 م) واثر اغتيال السلطان المريني وقيام خليفته أبي ثابت رفع الحصار عنها . وكان أمراء هذا الخروج من عهد الاحتلال أبناء عثمان الذي مات أثناء الحصار : أبو زيان الأول وخاصة أبو حمو موسى الأول . وهنا نحاول أن نعرف شخصية وشجاعة أبي حمو . كتب يحيى بن خلدون يصف هذا الأمير بهذه العبارات « كان ملكا شهما شبيه باللهب المتقد أو السيف الرهيب ، كان بطلا شجاعا وأسدا مقداما لا يقهر . لقد أرجع الماضي وأزال آلآم شعبه حارب المتمردين وكان حازما في حكمه متسامحا في تنفيذ العقاب . لقد كان ينهى عن الظلم ويأمر بالمعروف أن المؤسس الدولة الزيانية يغمراسن قضى جزءا كبير من حكمه في خوض المعارك ضد العدو ولم يكن لذيه لا الوقت ولا الذوق ليسلك سلوك ملك . وابنه أبو سعيد عثمان هو الآخر الذي ما انفك يخوض المعارك ضد أعدائه حيث لقي حتفه أثناء محاصرة تلمسان . وعاش ابنه أبو زيان الأول لمدة أربع سنوات وبعد رحيل المرينيين كان قد انعكف على نشر السلام والامن في المدن بين القبائل التي استفادت من ثماني سنوات من الحصار واستغلت هذه الفرصة السانحة للتمرد ؛ ولكن لم يمر وقت طويل حتى وافته المنية في سنة 708 هـ/1308 م ، ومن ثم أصبح باعث الدولة الحقيقي هو أبو حمو موسى الأول . فهو الذي بسط نفوذه على القبائل المتمردة المسمات توجين ومغراوة ، المقيمة في سهول الشلف والجبال المجاورة على الجهة الشمالية والجنوبية . ووصلت جيوشه المظفرة شرقا حتى بجاية وقسنطينة اللتان كانتا وقتذاك تابعين للملكة الحفصية ؛ كما أن هذه الجيوش منعت قوات المرينيين من تجاوز مدينة وجدة غربا . وكان هذا الرجل الذي انتهى تحت الضربات الاجرامية لصالح ابنه أبي تاشفين الأول ، يقدر رجال العلم والدين . فعندما التمس أبو زيد وأبو موسى وهما عالمان (أبناء الامام) منه الضيافة خصص لهما أحسن استقبال بتلمسان (وأغدق عليها بالاحترام والاكرام) . ولكي يسمح لهما بالتدريس في أحسن الظروف أمر بأن يبني مدرسة تحمل اسميهما (مدرسة أولاد الامام) . وكان أبو حمو يطيب له أن يتجاذب أطراف الحديث معهما . وكان هذان العالمان من مدينة

برشك حبث ذهبا الى الشرق طلبا للعلم . وأسندت لهما مهاما سياسية وكان يتمتعان بسمعة طيبة سواء في سوريا أم في الحجاز أم في مصر وفي نهاية المطاف رجعا الى المغرب ومكثا بمدينة تلمسان . وبصفة عامة كان عهد أبي حمو موسى الأول يتميز بارادة هذا الأمير في أعطاء مراسيم للمملكة ، وبصرامته إزاء أولائك الذين لا يطيقون أوامره ، وهذا ما يفسر تمرد ابنه وصلابته ادارته التي يشرف عليها ويوجهها الى العلم والدّين واحترام رجال العلم والدين .

ب ـ البطل الطموح في ازدهار مطرد ، أبو تاشفين الأول (718 هـ/1318 م ـ 738 هـ/1337 م) .

كان أبو تاشفين الأول هو خامس ملوك الأسرة الزيانية وجلس على العرش سنة 718 هـ/1318 م ، وكان عمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين عاما عندما اغتال أباه لكي يستولي على الحكم . ومنذ بداية حكمه نفى الى الأندلس كل افراد عائلته الذين قد يطالبون بالعرش . ويقول عبد الرحمان بن خلدون في هذا الصدد أن الملك الجديد «بدأ في ممارسة الحكم بنفي كل خلف يغمراسن وكل أفراد هذه الأسرة الموجودين في تلمسان الى الأندلس ، بهذا العمل كان يريد القضاء على تأثيرهم وتفادي المتاعب التي قد يتسببون فيها ضد الأمبراطورية» . وفيما يلي الوصف الرسمي يعطيه لنا يحيى بن خلدون حول هذا الملك «كان أميرا يمتاز بروح مرحة ولكن هذا لا يمنع من أن يكون صارما ووقورا . كان يتمتع بكل شرف النسب والقلب حيث أنه جمع بين الشرف ونبل الروح . كان يعرف كيف يحمل عبء الحكم والدفاع عن امبراطوريته . كان موضع كل الرغبات والآمال ورمزا للعظمة الملكية وكان يحب الفن والأشعار» . وفي الواقع ماذا نستنتج من هذا ؟ طموح الملك ؟ (مجيئه يثبت ذلك) أضف الى ذلك حزمه وحذره وربما ارادته التي لا تنثني . والى جانب هذا فان يحيى بن خلدون لمّح الى أنه «كان صاحب المتع العابرة وشغوفا بمباهج وملذات هذه الدنيا» .

كان هذا الرجل حذرا ومتحررا ولا يمكن التأثير عليه وهو صاحب التمتع والملذات وكان أيضا رجل بناء وعظمة ومحبا للثقافة ومدافعا عنها ولكنه كان لا يميل خاصة الى الاشياء المتعلقة بالدين . وباستثناء بناء مئذنة المسجد الكبير للجزائر (العاصمة) التي شرع في بنائها سنة 1322 م ، لا نجد له أي بناء آخر أو اصلاح للمساجد . وما من شك في أننا مدينون له ببناء مدرسة سميت إحياء لمؤسسها بالمدرسة التاشفينية . وببناء هذه المؤسسة . كان هذا الملك يريد أن يظهر أنه يقدر قيمة رجال العلم الذين قربهم الى بلاطه والذين تغنوا بفضله ومحاسنه . ولكنه لم يكترث كثيرا ، كما يبدو بتشجيع بناء المؤسسات من أجل الدين نفسه .

ويذكر يحيى بن خلدون أنه «كان رساما بارعا ومهندسا معماريا قديرا» . فلقد استأنف عمل تجميل العاصمة ضمن المخطط الذي صممه والده حيث عرفت مدينة تلمسان عصرا مزدهرا . من ناحية أخرى فان أبا تاشفين كان طموحا الى حد بعيد . فقد وجه عدة هجومات ضد بجاية بغية الاستيلاء عليها والتمكن منها وهدد تونس نفسها . ولقد كلفت هذه العملية المملكة الزيانية ثمنا باهظا وأعطت فرصة لاتفاقية مرينية حفصية ضد تلمسان وأدت جسارة أبي تاشفين الى خسارته .

الفصل الرابع

الغزو المريني

د. عطاء الله دهينة

أ ــ أبو الحسن (732 هـ/1331 م ــ 752 هـ/1351 م» بالمغرب الأوسط وبإفريقيا

لكي يساند صهره الخليفة الحفصي بتونس ، أبو بكر ، ضد الهجومات المتكررة التي قام بها ملك تلمسان أبو تاشفين الأول ، أعرض أبو الحسن عن الجهاد ضد الاسبان ووصل الى تلمسان في سنة 736 هـ/1335 م وأعاد بناء المنصورة وبنى بها مسجدا رائعا كما أسلفنا لا تزال آثاره قائمة بشكل واضح وبنى أيضا مدرسة كبيرة للعبادة فوق ضريح الولي الصالح سيدي بومدين ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على تلمسان الّا في فاتح ماي 738 هـ/1337 م ، وقد قتل أبا تاشفين وفكر في الاستيلاء على تونس نفسها ، وبدأ بأن تزوج بنتا ثانية للخليفة الحفصي أبو بكر ، فلما توفي هذا الخليفة دخل أبو الحسن تونس باحتفاء الجميع في سنة 738 هـ/1337 م .

ولقد بعث الأوروبيون سفراءهم الى أبي الحسن المنتصر واتصل بتهاني وهدايا ملك قشتالة وسلطان مالي وظن أبو الحسن أنه قوي جدا لكي يعلن عن المساواة في تونس . وهكذ ألغى الضرائب التي فرضها الحفصيون بواسطة القبائل العربية التي تطالب الفلاحين بأدائها وأراد أيضا أن يلغي الاقطاع الذى فرض عليهم ، ولكن المعارضة التفت حول أحد المغاربة وهو ابن الخليفة الموحدي ما قبل الاخير : أبو دبوس الذي اصبح تاجرا بسيطا في واحة توزر . ولقد التقى أبو الحسن بالجيش البسيط الذي اعده خصمه قرب القيروان في سنة

749 هـ/1348 م ، ولكن القبائل العربية المصاحبة له قد خذلته وانضمت الى صفوف أبي دبوس في خضم المعركة وكانت تلك المعركة كارثة حقيقية لأبي الحسن الذي اضطر الى الفرار والاختفاء لعدة أيام وشاع الخبر بموت السلطان وتسبب في انهيار حقيقي للامبراطورية المرينية .

ب ــ ثورة أبي عنان (752 هـ/1351 م ــ 760 هـ/1358 م)

كان الخلف الذي عينه أبو الحسن يوجد في تلمسان ، وكان أميرا شابا يبلغ من العمر تسعة عشر سنة وكان ابنا لجارية مسيحية اسبانية وكان مشهورا بثقافته ووسامته ، وكان شاعرا ، هذا الى جانب أنه كان جنرالا ناجحا وكان اسمه أبو عنان . بادر أبو عنان الى الرجوع الى فاس لكي يعرف بنفسه كعاهل جديد للبلاد . ولكن الزيانيين عينوا ملكا على تلمسان ، بمجرد سفره ، هو الامير الزياني أبو ثابت ودخل الحفصيون قسنطينة وبجاية وكانت الوحدة التي تمت بين أجزاء المغرب الكبير منذ سنةتقريبا قد تفككت نهائيا ولم يجد حلم الموحدين متسعا من الوقت لكي يتحقق . ولقد ارتكب أبو الحسن خطأ فادحا ، حيث أراد أن يسترجع سلطته أولا على تونس ثم على المغرب الأوسط وتمكن بالفعل من السيطرة على سوسة ثم على مدينة تونس وحاول وضع سلطته من جديد على افريقيا ولكن أمام حدة التمرد اضطر الى الاستنجاد بالمغرب الأوسط وتحطم أسطوله بسبب عاصفة بحرية ووصل عن طريق السباحة وبلغ الجزائر (العاصمة) حيث استقبل وتم الاعتراف به واحتفى به ابنه الناصر بكل عطف وكون له جيشا صغيرا . وبهذا الجيش اراد أبو الحسن استرجاع تلمسان وانهزم في الشلف ولكنه واصل هجومه واتجه الى تافيلالت . ووجد دعم ومساعدة عناصر عربية رحل قادمة من الصحراء وأخبر أبو الحسن ابنه بمتاعبه وطلب منه إرسال الدعم . ولكن أبا عنان الملك المتكبر قرر أن يبقى هو السلطان ولم يرد على طلب أبيه بل بلغ به الأمر الى التصدي له فاضطر أبو الحسن الى الفرار بينما دخل أبو عنان سجلماسة وكاد أبو الحسن ان يلقى حتفه على يد رسول من ابنه العاق ولم يكن بجانب هذا الأمير البائس سوى الشيخ حنطاطة عبد العزيز الذي ظل يواسيه على محنه والخيانة العامة التي تعرض لها .

وتمكن أبو الحسن بفضل مساندة هذا الصديق الوفي من الدخول الى مراكش التي لم يعرف فيها سوى فترة قصيرة من الراحة . فلقد تقدم أبو عنان بجيش قوي الى خوض معركة ضد أبيه وتمت المعركة في منطقة أم الربيع . وانهزم أبو الحسن وجرح ولاذ مرة أخرى بالفرار في الأطلس ولم يكن لديه أي حليف ما عدا صديقه الوفي شيخ حنطاطة الذي ظل وفيا بعهده ولم يفشل عبد العزيز أمام الحصار الكبير الذي عزل الأطلس عن السهول ، وبعد أن تعب

وكل قرر السلطان البائس تخليه عن الحكم لصالح ابنه مقابل قليل من النقود والملابس وأثناء هذه المفاوضات المأسوية مرض أبو الحسن ومات بائسا بعد أن كان ملكا مظفرا لمدة خمسة عشر سنة في المغرب الكبير .

ولما علم أبو عنان بموته ، تأسف وأمر بأن تقام له جنازة تناسب مقامه وأن تتلى عليه الصلوات في جميع المساجد وأن تعطى الصدقة للمساكين ترحما عليه . وهكذا تم دفنه في ضريح هائل هيأه أبو الحسن في حياته في منطقة شالة . ولما تيقن هذا الخصم العنيد أنه ليس أمامه احد يخاصمه وينافسه أعطى لنفسه لقب أمير المؤمنين (وهو ثاني ملك في أسرة المرينيين يعطي نفسه هذا اللقب) .

وكان هذا السلطان العظيم سيء الحظ لكنه كان أحسن واحد تنجبه الأسرة المرينية . فلم يكن قائدا فذا وجنديا باسلا فحسب بل عرف كيف يكون نصيرا للأدباء والعلماء ومحاميا يتذوق الفنون الجميلة . وكانت خيبته تكمن في الظروف غير الملائمة أكثر مما تكمن في أخطاء سياسية .

ج ــ أبو سعيد عثمان وأبو ثابت الزعيم .

وجدد الدولة الزيانية أبو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن . تحلل بقومه من جيش أبي الحسن في واقعة القيروان الى العرب . وبايعه قومه ظاهر تونس آخر ربيع الأول سنة 749 هـ فاتحد مع مغراوة وتوجين وارتحلوا الى بلادهم في زهاء خمسمائة فارس ، وقد انتثر سلك الأمن فخلصوا من غارة بني ونيفن ناحية باجة ، وثربة ناحية بونة وبني ثابت بجبلهم وزواوة بجبل الزان . وبلغ عثمان وقومه تلمسان في جمادي الثانية ، فولى شؤون دولته أخاه أبا ثابت الزعيم فمهد المملكة ، وما كاد يستريح حتى قصدهم أبو عنان ، فاستولى على دولتهم وقتل عثمان في جمادي الاولى سنة 753 هـ ثم ادرك أخوه أبو ثابت وقتل . فكان من حديثه مع أبي عنان : «إننا غلبناكم رجلة فغلبتمون بخنا» . وكان معروفا بالبسالة والفتوة ، وكان عثمان شيخا محنكا ذا عبادة ونسك .

د ــ أبو عنان .

أصبح أبو عنان ملكا وهو في سن التاسعة عشر ومات في سن التاسعة والعشرين . وكان شاعرا ونصيرا هو ايضا للأدباء والعلماء وكان فارسا مغوارا ولواء فذا ولكنه كان متكبرا بشكل كبير وعصبيا .

كان مضطرا للكفاح في المغرب الاقصى نفسه ضد تمرد قام به أخوه أبو الفضل الذي التجأ في بداية الأمر الى غرناطة ثم الى قشتالة . ومنحه ألفونس العاشر (Alphonse X) أسطولا لكي يرسي في السوس وبعد تلقيه هزيمة نكراء لجأ الى درعة وانهزم من جديد وتم القبض عليه أسيرا وقتله أخوه أبو عنان بعد وصوله الى فاس .

كان أبو عنان مقلدا أباه ، حيث أراد أن يسترجع أولا وقبل كل شيء تلمسان ، وقد انتصر على الزيانيين في سهل انقاد واستولى بعد ذلك على تلمسان ثم على الجزائر وأخيرا على بجاية ، بعد أن عاقب القبائل واستولى على قسنطينة ثم على تونس خلال صيف 1357 م . ولكن سرعان ما تمرد عرب إفريقيا ضده مثلما تمردوا ضد أبيه واضطر أبو عنان الى الجلاء عن تونس حيث قام الأمراء الحفصيون باسترجاع تونس .

ومن فاس حيث رجع ، أعد أبو عنان هجوما جديدا ضد إفريقيا . وقد قاد أحد وزرائه هذا الجيش وأخضع لوقت قصير الأوراس ، واستعد أبو عنان للانضمام اليه لكنه مرض في قصر فاس الجديد وانقسم الوزراء الى قسمين كل قسم يساند واحدا من ابني السلطان . وكان الابن الذي سانده الوزير الفودودي واعترف به المخزن والعلماء هو الأمير الشاب البالغ خمس سنوات أبو بكر السعيد بينما كان أبو عنان قد اختار ابنا آخر هو أبو زيان . وتمكن الفودودي من قتل الطفل التعس ولكن أبا عنان شفي شيئا فشيئا من مرضه . وخاف الفودودي أن يقتله الخليفة اذا تم له الشفاء من مرضه انتقاما من جريمة قتل ابنه المفضل فذهب اليه وقتله شنقا . وهنا يتشابه الوضع بالأحداث الدموية للملوك الميروفنجيين بفرنسا قبل هذا العهد بثمانية قرون وبدأت الأزمة ودامت لغاية سقوط الأسرة المرينية بعد مرور مائة سنة .

وجدد الدولة الزيانية أبو حمو موسى الثاني بن يوسف أخو عثمان الثاني .

الباب السابع

التاريخ السياسي لدولة بني زيان

الدور الثاني

الفصـل الاول

إحياء الدولة الزيانية

د. عبد الحميد حاجيات

أبو حمو موسى الثاني
(760 — 791 هـ/1359 — 1389)

1) الأوضاع السياسية بإفريقية والمغرب الأوسط قبيل سنة 760 هـ

لقد استغل الأمراء الزيانيون فشل حركة أبي الحسن المريني الى افريقية لبعث دولتهم ، مرة أولى ، سنة 749 هـ . فدامت إمارة أبي سعيد الثاني وأخيه أبي ثابت حالي أربع سنوات . ولكن أبا عنان المريني لم يمهلهما ، وقضى على إمارتهما قبل أن تستعيد الدولة الزيانية كل قوّتها ونفوذها (753 هـ) . وعاد المغرب الأوسط تحت الحكم المريني ، وكذلك جزء من بلاد الحفصيين ، يشمل إمارة بجاية (أواخر سنة 753 هـ) ، ثم إمارة قسنطينة (أواسط 758 هـ) ،ثم تونس (رمضان 758 هـ) .

غير أن أبا عنان لم يتمكن بدوره من اخضاع عرب جنوب افريقية ، فطاردهم ، وتبعهم بجيشه الى نواحي بسكرة ، بدون جدوى ، وأخيرا سئم جنوده الحرب ، لما أصابهم من التعب والعناء ، ونادوا بالرجوع الى الغرب ، وانفضّ الكثير منهم من حوله ، فاضطر الى العودة الى بلاده .

أما السلطان الحفصي أبو إسحاق ، فإنه كان قد غادر تونس قبيل احتلال أبي عنان لها ، واتجه صحبة الحاجب ابن تافراجين نحو الجنوب ، واستقرا مدة بالجريد . وعندئذ بعث الدواودة الى أبي إسحاق يعرضون عليه طاعتهم والتحالف ضد أبي عنان ، عدوهم المشترك .

فتقوي بذلك جانب السلطان الحفصي ، وأصبح يطارد الجيش المريني ، المتراجع نحو شمال البلاد ، الى أن انفضت معظم قوات أبي عنان من حوله ، فعاد الى المغرب الأقصى ، تاركا في كل مدينة حامية تردّ عنها هجمات الحفصيين وحلفائهم من العرب .

وكان بعض الأمراء الزيانيين قد هاجروا الى افريقية ، إثر سقوط إمارتهم سنة 753 هـ ، ومن بينهم أبو حمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يغمراسن ، وهو ابن أخي الأميرين أبي سعيد الثاني وأبي ثابت . وكان قد غادر تونس في رجب 758 هـ ، ثم التحق بالسلطان أبي إسحاق في أواخر شعبان 758 هـ ، وتوجّه معه نحو الجنوب . ولمّا عزم أبو اسحاق وحاجبه العودة الى تونس لطرد بني مرين عنها ، لم يرافقهما أبو حمو اليها ، بل صحب الدواودة الى أراضيهم . وأصبح هؤلاء يشنون الغارات على مدن منطقة قسنطينة ، ويحاولون إجلاء بني مرين عنها وعن الأراضي التي اعتادوا ارتيادها لماشيتهم ، وأغار أبو حمو ورفاقه معهم على مدينة ميلة ، فاحتلوها في أواخر شوال 758 هـ .

ثم ساهم أبو حمو مع الدواودة في مضايقة بني مرين بناحية قسنطينة ، إلى أن قدمت أمداد قوية من المغرب الأقصى بقيادة سليمان بن داود العسكري ، لتعزيز الحاميات المرينية ، والقيام بحملة جديدة في اتجاه تونس والجنوب (رمضان 759 هـ) . وعندئذ ، غادر أبو حمو الدواودة ناحية ميلة ، قاصدين الى الجنوب الشرقي ، فنزلوا ناحية تبسة . وهناك انقسم الدواودة الى فرقتين ، اتجهت إحداهما ، وهم أولاد عثمان بن سبّاع نحو الحضنة ، فرافقهم أبو حمو ، وكأنه كان يرغب في الاقتراب من وطنه ، ويحن الى بلاده وذويه . وفي قرية بريكة ، من بلاد الحضنة ، لقي بنيّ عامر وشيخهم صغير وكانوا قد طردوا من أراضيهم بالمغرب الأوسط ، وحلّ محلهم أعداؤهم من سويد ، فغادروا القطر والتجأوا الى تلك الناحية (منتصف شوال 759 هـ) .

وقد وقد ذكر عبد الركمٰن بن خلدون ، في هذا الصدد ، أن الدواودة اجتمعوا «الى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته ، وأنهم ركابه لذلك ، ليجلب على نواحي تلمسان ، ويحصل السلطان أبي عنان شغلا عنهم» . ولا شك أن مسيرة أولاد عثمان بن سبّاع مع أبي حمو ، في اتجاه الحضنة ، كانت ترمي الى ذلك . ثم ان اللقاء مع قوم صغير بن عامر كان من شأنه أن يقوّي عزيمة الجميع للاغارة على بني مرين وحلفائهم .

وانتقل أبو حمو ورفاقه الى مقّرة لتجسس أخبار الجيش المريني . ثم توجهوا نحو الزاب على ثنية غنية ، بين جبل أوراس وجبل عياض ، ونزلوا بريغ . ثم واصلوا سيرهم الى الجنوب ، واستقروا مدة بوارقلة . والظاهر أن هذه المسيرة كانت ترمي الى الابتعاد عن العدو المريني ، وإيهامه بالتوجه نحو الشرق ، ممّا يجعل حدّا لمطاردته .

ولكن أبا حمو وأحلافه اتجهوا بعد ذلك نحو الغرب ، فمرّوا بمنطقة مزاب ، ومن ثم قصدوا الى الشمال الغربي ، سالكين طريق وادي زرقون . وهناك حل موسم عيد الأضحى ، فأقاموا بتلك الناحية أياما ، الى أن بلغهم نبأ استقرار سويد بوادي ملال . فأغاروا عليهم وفاجأوهم بذلك الموضع ، فهزموهم وقتلوا بعض أبطالهم ، وسبوا النساء ، وغنموا الابل والمال ، فنال بنو عامر ما كانوا يصبون اليه من الانتصار على أعدائهم ، والانتقام منهم (أواخر ذي الحجة 759 هـ) .

وهكذا كانت الأوضاع السياسية بإفريقية والمغرب الأوسط ، في آخر سنة 759 هـ ، تتسم بتقلص ظل بني مرين في معظم بلاد إفريقية ، وخصوصا في المناطق الجنوبية ، وبداية تناقص نفوذهم في بعض نواحي جنوب المغرب الأوسط ، نتيجة فشلهم بإفريقية وتراجع جيشهم عنها .

2) حركة أبي حمو لاحياء الدولة الزيانية :

كان الغرض من مسيرة أبي حمو ، رفقة أولاد عثمان بن سبّاع وبني عامر ، شن الغارات على جنوب المغرب الأوسط وعلى ناحية سجلماسة ، وذلك لشغل أبي عنان عن مهاجمة بلاد افريقية .

وبينما كانوا مستقرين بوادي ملال ، في موضع يدعى الدنانير ، اذ ورد عليهم نبأ وفاة أبي عنان . وعندئذ ، أدرك أبو حمو ورفاقه من بني عامر أن الفرصة سانحة للقيام بحركة في اتجاه تلمسان . أمّا أولاد سبّاع ، من الدواودة ، فإنهم قرروا العودة الى أراضيهم بإفريقية الغربية ؛ وكانت وفاة أبي عنان تنبىء باضمحلال النفوذ المريني بإفريقية كلها .

فسار أبو حمو وجماعته في اتجاه الغرب ، ونفذوا الى التل عن طريق ثنية فرتون ، ثم بلغوا ناحية وادي يسّر ، وهو من روافد وادي تافنا . ثم قصدوا الى تلمسان ؛ ولمّا دنوا منها ، تصدّت لهم حصّة من الحامية المرينية ، بوادي الصفصيف ، على مسافة 5 كم من المدينة ، فلم تستطع مدافعتهم وولت منهزمة ، واعتصمت بتلمسان (25 صفر 760 هـ) .

كان على تلمسان ، آنذاك ، محمد بن السطان أبي عنان ، يتولى شؤونها بمساعدة مربيه سعيد ، والأمير يغمراسن بن عثمان بن سليمان المريني . ولم يكن الاستيلاء عليها بالأمر الهين ، وذلك أن عدد جنود الحامية كان لا يقل عن ثلاثة آلاف ، من بينهم 1800 من بني مرين .

وقسم أبو حمو جيشه الى فرقتين : إحداهما تضم بني عبد الواد وغيرهم من الزيانيين ، بقيادة ابن برغوث ، والثانية تشمل عرب بني عامر . وكانت هذه الخطة تهدف الى شغل

معظم الحامية المرينية في الجهة الغربية ، ليتسنى لابن برغوث وجماعته إقتحام تلمسان من الجهة الشرقية ، بأجادير .

ولمّا ظهرت جموع العرب ، بقيادة أبي حمو ، تصدّى لمدافعتهم جنود الحامية المرينية ، وهم يطلون عليهم من شراريف الأسوار بعد أن أغلقوا أبواب المدينة . فتوجه ابن برغوث ومن معه نحو باب العقبة ، ولم يمض قليل من الوقت حتى ملكوا أجادير . وانتهى الأمر باستلام الحامية المرينية ، ودخول أبي حمو مع أنصاره تلمسان ، محققا بذلك آمال قبيلته وأهالي بلاده في الخلاص من الاحتلال المريني ، واحياء الدولة الزيانية . (فاتح ربيع الأول سنة 760 هـ) .

3) بسط نفوذ الدولة الزيانية على سائر المغرب الأوسط :

وبعد أن استولى أبو حمو على تلمسان ، كان عليه أن يبذل مجهودات كبرى لتنظيم شؤون دولته واصلاحها ، وبسط نفوذها على باقي أنحاء المغرب الأوسط .

فكان بنو مرين لا يزالون يحتلون وهران والجزائر ، وكثيرا من نواحي المغرب الأوسط . وكانت معظم المناطق الشرقية (جبل وانشريس وناحية شلف ومتيجة وجبال تيطري) خاضعة لنفوذ سويد ومغراوة وبني توجين وغيرهم من قبائل تلك النواحي ، المتحالفة مع السلطات المرينية ، التي كان يمثلها القائد يحيى بن علي البطيوي ، والمستعدة لمحاربة الدولة الزيانية .

أما بيت المال ، فكان في أسوأ حال . ولم يكن ما وجده فيه أبو حمو ، عندما دخل تلمسان ، أو ما يمكن الحصول عليه ، آنذاك ، عن طريق الجباية ، كافيا لتنظيم الدولة وإعادة قوتها وورنقها ، إذ أن أغلب المناطق كانتْ خارجة عن سلطة أبي حمو ، ولا تدفع شيئا لبيت المال .

فلم يتوان أبو حمو ، بل شرع في تنظيم شؤون دولته بما توفر لديه من الوسائل ، وفي بسط سلطته على النواحي المجاورة لعاصمته ، وحصل على تأييد قبيلة المعقل القاطنة في ناحية الحدود الغربية . ولم تمض الّا أيام قلائل حتى وردت اليه بيعة وجدة وندرومة وهنين ، وهي أقرب المدن . ثم قدمت وفود مستغانم وتمزّغران والبطحاء ، ثم تلاهم وفد قلعة هوارة .

غير أن المدن الأخرى ، مثل وهران ومليانة والمدية والجزائر ، كانت لا تزال تحت احتلال بني مرين . ولذا ، فكان خطر هؤلاء يشكل الشغل الشاغل ، في تلك الظروف . وبدأ أبو حمو بمحاولة أولى لاسترجاع وهران ؛ فبعث جيشا ، بقيادة الوزير ابن برغوث ، في 28 ربيع الأول 760 هـ ، لمنازلة وهران . وبعد أيام ، خرجت اليه حاميتها ، ولكن انفض الناس من حول ابن برغوث ، فقبض عليه وهزم من بقي معه (8 ربيع الثاني 760 هـ) .

وفي تلك الأثناء ، قرر الوزير المريني ، الحسن بن عمر الفودودي ، حشد الجنود قصد استرجاع تلمسان وما يليها من الأنحاء . وأنهض اليها القائد مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي ، في جيش يبلغ تسعة آلاف مقاتل ، وحينما بلغوا البلاد العبد الوادية ، وحلّوا قرب وادي الزيتون ، رأى أبو حمو أن يغادر عاصمته ، لقلة ما كان لديه من الجنود ، وأن يلتحق بقبيلة بني عامر في الجنوب (أوائل جمادى الأولى 760 هـ) .

وبعد ذلك بقليل ، استولى ابن ماساي على تلمسان ، وأخذ يعمل على إعادة النفوذ المريني في سائر أنحاء المغرب الأوسط . أما أبو حمو ، فإنه عسكر أولا بعيون يسّر ثم توجه نحو الجنوب . وفي درج لقي بني عامر ثم استقر بتامحلت ، وأرسل الى المعقل يأمرهم بشن الغارات على بني مرين ، وقطع الطريق الواصلة بين تلمسان وفاس . فساءت أحوال ابن ماساي وجموعه ، وسيّر ابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي ، قائد حامية وهران ، لمحاربة قبيلة المعقل ، ولكن هؤلاء انتصروا على القائد المريني وقتلوه وعادت جنوده في أسوأ حال الى وجدة .

فكان لهذا الحادث وقع سيّىء على الجيش المريني بتلمسان ، الذي سئم من استبداد الوزير الحسن بن عمر على الحكم ، وشق عصا الطاعة . وعندئذ خشي ابن ماساي على نفسه أمام تطور الوضع ، فلجأ الى تنصيب أمير مريني آخر ، اجتمعت كلمة الجيش عليه ، وسالم أبا حمو وغادر تلمسان متوجها نحو فاس . فأسرع أبو حمو الى عاصمة ملكه ، ودخلها في غرة جمادى الثانية سنة 760 هـ ، ثم واصل الجهود للقضاء على الخطر المريني في سائر أنحاء الدولة الزيانية .

وكانت الظروف ملائمة ، اذ كان بنو مرين منقسمين على أنفسهم بالمغرب الأقصى ، وأصبحت حامياتهم بالمغرب الأوسط تعيش في جو قلق وارتباك ، لا تصلها الأمداد من فاس ، ولا تطمئن على مصيرها .

وفي 4 شعبان 760 هـ ، خرج أبو يعقوب ، والد أبي حمو ، بجيش في اتجاه المناطق الشرقية ، قصد اجلاء بني مرين عنها ، ونزل البطحاء أياما ، ثم اتخذ طريق جبل وانشريس ، حيث لقي القائد المريني يحيى بن علي البطيوي وأحلافه من توجين ، فهزمهم . ثم اعتصم القائد المريني بمليانة وانضمت اليه فرقة من حامية الجزائر ، فقوي بذلك ساعده .

وفي أواسط شوال 760 هـ ، قدم الى تلمسان عبد الله بن مسلم الزردالي ، بعد أن غادر ناحية درعة . حيث كان واليا لبني مرين ، وعاد الى موطن أجداده ، حاملا معه جباية درعة . ففرح أبو حمو لقدومه ، واستعان بما جاء به من المال وقلده وزارته ، وأرسله في جيش لمساعدة أبي يعقوب على تمهيد البلاد الشرقية وتطهيرها من بني مرين .

وبينما كان أبو يعقوب يتابع سيره نحو الشرق ، مستوليا على المدية (فاتح ذي القعدة 760 هـ) ، توجه ابن مسلم الى مليانة فحاصرها الى أن استسلم القائد يحيى بن علي البطيوي وفتح أبواب المدينة (7 ذي القعدة) ، وأسر مع سائر جنود الحامية .

ثم اجتمع أبو يعقوب بابن مسلّم بمليانة ، واتجها معًا نحو الجزائر ، قصد إجلاء بني مرين عنها ، ولكن محاولتهما فشلت ، وعاد الى مليانة ، وهناك بلغهما أمر من أبي حمو يستدعي الوزير ابن مسلّم الى تلمسان ، فرحل هذا الأخير اليها (أوائل ذي الحجة 760 هـ) . وكان سبب هذا الاستدعاء أنّ السلطان المريني أبا سالم تمكن من التغلب على منافسيه وصفا له الجو فأصبح الخطر المريني أشدّ من ذي قبل .

وبدأ أبو سالم بتحريك أحلافه في المغرب الأوسط ، فثار زيان بن أبي يحيى في قومه بني راشد داعيا للأمير العبد الوادي أبي زيان حفيد السلطان أبي تاشفين الأول ، والملقب بالقُبّي . وكان هذا الأخير قد ظهر في الحدود الغربية بجبل بني يزناسن ، وقد اجتمع اليه بعض أتباع بني مرين من المعقل وبني يزناسن .

فوجّه أبو حمو الى زيان الراشدي جيشا بقيادة ابنه أبي تاشفين والشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي (ربيع الأول 761 هـ) ، كما وجّه ، لمحاربة أبي زيان القبّي ، الوزير ابن مسلّم بعسكر بني عبد الواد الغربي ، فهزمه شرّ هزيمة (12 ربيع الأول 761 هـ) .

ولمّا اطلع أبو حمو على نشاط أبي سالم المريني لاستكمال عدة جيشه قَصْد النهوض الى تلمسان ، عزم على مغادرة عاصمته مرة ثانية ، وبدأ بتوجيه أحلافه من بني عامر والمعقل تحت قيادة ابن مسلّم نحو الجنوب (4 جمادى الثانية 761 هـ) ، فنزلوا بأميسون . ولمّا حل أبو سالم بتاوريرت ، في الحدود بين القطرين ، غادر أبو حمو تلمسان والتحق بالوزير ابن مسلّم (29 رجب) .

ثم زحف أبو سالم وجموعه الى تلمسان ، فدخلوها في 6 شعبان 761 هـ ؛ وعندئذ خالفهم أبو حمو وأتباعه الى بلادهم ، واحتلوا أجرسيف وناحيتها ، وأفسدوا عمرانها ، الأمر الذي أقلق أبا سالم وجعله يتخوف من هذا الهجوم ويخشى أن يتجه أبو حمو الى فاس ، ويتفاقم الأمر ، فقرر العودة الى المغرب الأقصى واخلاء المدينة (12 شعبان) ، تاركا عليها أبا زيان القبّي .

وبلغ أبو حمو خبر مغادرة أبي سالم لتلمسان ، فقفل راجعا اليها ، وأرسل وزيره ابن مسلّم في مقدمته ، بعسكر للاستلاء عليها وطرْد أبي زيان القبّي ، فلم يسع هذا الأخير الّا الفرار والالتحاق بأولاد عريف من قبيلة سويد ، بجبل وانشريس (4 رمضان 761 هـ) .

ثم دخل أبو حمو عاصمة ملكه (8 رمضان) . وبعد أيام غادرها وقصد الى جبل وانشريس ، فحاصر أبا زيان القبّي وأنصاره أولاد عريف ، ثم اقتحم الجبل ، وعندئذ لجأ أبو زيان وجمعه الى الفرار نحو الصحراء (أوائل ذي القعدة 761 هـ) . ثم التحق أبو زيان بالحدود الغربية واستجار بذوي عبيد الله ، من قبيلة المعقل ، الذين كانوا قاطنين بسهل أنجاد قرب وجدة فأجاروه .

ثم نهض أبو حمو الى ناحية شلف لطرد بني مرين عنها ، ولقتال حلفائهم من مغراوة ، فاعتصم أشياخ مغرواة بتنس ، وكان عليها القائد المريني عثمان بن أبي تجلّاء ، فحاصرها أبو حمو ثلاثة أيام ثم فتحها عنوة وقتل قائدها (آخر سنة 761 هـ) .

وبعد أن استرجع ناحية شلف الى طاعته ، عاد أبو حمو الى عاصمته ، فدخلها في 2 صفر 762 هـ . ثم أشخص والده أبا يعقوب الى الشرق لاستفتاح الجزائر ؛ وارسل وزيره ابن مسلم الى الغرب للاغارة على ذوي عبيد الله ، فالتقى بهم بسهل أنجاد ، فانهزمت عبيد الله وتفرق شملها (أوائل ربيع الأول 762هـ) . وفر أبو زيان القبّي الى تاوريرت حيث التحق بالدولة المرينية بعد أن فشلت محاولته .

وحينئذ اتجهت رغبة أبي حمو وأبي سالم نحو إجراء مفاوضات قصد اقرار السلم بين البلدين . غير أن اصرار أبي سالم على الاحتفاظ بوهران والجزائر جعل الوضع يتأزم من جديد ، فقرر أبو حمو الزحف الى وهران ، وحاصرها ستة أيام ثم فتحها عنوة (13 شوال 762 هـ) ، وعاد الى تلمسان بعد أن هدم سور القصبة .

وفي تلك الأثناء ، قدم الى تلمسان الشيخ ونزمار بن عريف السويدي ، في شأن تسوية الأزمة ، والتزم اقناع أبي سالم بتسليم الجزائر لأبي حمو . وفعلا ، بعث أبو سالم بعد ذلك أرسله الى قائد الجزائر علي بن يعلى ، والى أبي حمو ، برسم تسليم الجزائر الى بني زيان . فبعث أبو حمو الى والده أبي يعقوب بمليانة ، طالبا منه أن يسير الى الجزائر ، وأن يتخذها مقرا لولايته على المناطق الشرقية ، فدخلها في ذي القعدة 762 هـ .

وفي 19 ذي القعدة 762 هـ ، خلع أبو سالم المريني ، وتلا ذلك فتن واضطرابات في المغرب الأقصى ، فأمن أبو حمو عادية بني مرين لمدة ، واغتنم هذه الفرصة لتوجيه اهتمامه نحو الناحية الشرقية .

وكان أشياخ مغراوة قد التجأوا عند فتح الجزائر ، الى بجاية فأجارهم أميرها أبو إسحاق إبراهيم بن السلطان أبي يحيى الحفصي . وكان أبو حمو قد ساعد هذا الأخير على اجلاء بني مرين عن بجاية ، قبل ذلك . فطالبه بتسليم من التجأ عنده من مغراوة ، ولكن الأمير أبا إسحاق رفض تلبية طلبه .

وعندئذ أمر أبو حمو قواد الناحية الشرقية باقتحام إمارة بجاية ، فاستولى عمر بن موسى المطهري على تدلّس عنوة في أوائل سنة 763 هـ ، وحاول أبو اسحاق استرجاع تدلّس ، فضايقها مضايقة شديدة . فأنهض أبو حمو وزيره ابن مسلّم الى الشرق لردّ عادية أبي اسحاق وحماية تدلّس ، في 21 رجب 763 هـ ، فاستولى ابن مسلّم على فحص حمزة وعلى بلاد بني حسن والنواحي المجاورة (شوال 763 هـ) .

وفي تلك الأثناء ، كانت الفتن ضاربة أطنابها في المغرب الأقصى ، مما أضعف شأن العرش المريني . وأبدى الوزير المريني عمر بن عبد الله رغبته في عقد الصلح بين الدولتين . وبعد تبادل السفارات ، انعقد الصلح في 15 رجب 763 هـ ، وبموجبه أطلق سراح بني عبد الواد الذين كانوا لا يزالون بفاس ، إلّا أبا زيان بن السلطان أبي سعيد الثاني ، ابن عدم أبي حمو الثاني ومنافسه في العرش الزياني ، فإنه أبقي في السجن .

ولا شك أن عقد هذا الصلح يكتسي أهمية كبرى بالنسبة للدولة الزيانية ، إذ أنه يعبر عن إعتراف المرينيين بالسيادة الزيانية على سائر أنحاء المغرب الأوسط من جهة ، بإمارة أبي حمو الثاني من جهة أخرى . وتأكد بذلك أن الدولة الزيانية قد استأنفت عصرا جديدا من عصورها بفضل حركة أبي حمو الموفقة وجهوده الجبارة .

وقد أطلنا شيئا ما في عرض حوادث هذه المرحلة الأولى من مراحل عهد أبي حمو الثاني ، لنتبيَّن الأوضاع السائدة آنذاك والقوى السياسية التي كان أبو حمو يعتمد عليها أو يتعرض لعدائها ، ولنطلع بوضوح على حدود البلاد الزيانية في ذلك العهد ، وعلى أهم المناطق التي كانت تشملها . ويمكن لنا بفضل ذلك أيضا ، حصر القضايا الرئيسية التي كان لها تأثير بالغ في تطور الأوضاع السياسية أيام أبي حمو الثاني ، وتفهم أسباب نجاح هذا الأخير أو فشله .

4) منافسة الأميرين أبي زيان بن أبي سعيد الثاني ، وأبي زيان القبّي لأبي حمو الثاني :

أ ـــ إبتداء منافسة أبي زيان بن السلطان أبي سعيد الثاني :

كان هذا الأمير يرى أنه أحق بالامارة من أبي حمو ، ولم يتمكن من اعلان حقه في الامارة لأنه لم يلبث سجينا عند بني مرين بفاس ، منذ سقوط إمارة أبيه سنة 753 هـ . وبعد انعقاد الصلح بين أبي حمو وبني مرين ، وإطلاق سراح بني عبد الواد ، تمكن أبو زيان هذا من الفرار من السجن بأولاد حسين من المعقل ثم بخالد بن عامر . وكان هذا الأخير ساخطا على أبي حمو لأنه لم يعينه على قبيلة بني عامر بعد وفاة أخيه صغير سنة 761 هـ ، وإنما عين أخاه شعيبا في هذا المنصب . ورأى خالد بن عامر أن الفرصة سنحت لاقامة منافس لأبي

حمو ، وجعل أمير يرتضيه على العرش الزياني ، فبايع أبا زيان بالامارة وقدم به من المنطقة الغربية زاحفا الى تلمسان من جانبها القبلي .

وكان الجيش الزياني آنذاك يغير على الأراضي التابعة لامارة بجاية بقيادة الوزير ابن مسلّم . فاضطر أبو حمو الى استدعاء هذا الأخير فورا ، وأسرع الى جمع عسكر من فرسان تلمسان وأحوازها ، وأرسله بقيادة الشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي لمدافعة خالد بن عامر ، فلقيه بجبل بني ورنيد ، جنوب تلمسان ، فانهزم خالد وجماعته (منتصف شوال 763 هـ) . ثم رأى أبو حمو أن يصانع الثوار من بني عامر ، فبذل لهم من المال ما أرضاهم .

أمّا خالد بن عامر ، فانه رافق أبا زيان بن أبي سعيد الى بلاد الدواودة ، فأجاره شيخهم يعقوب بن علي . ثم التحق أبو زيان ببجاية عند الأمير أبي اسحاق الحفصي ، وطلب منه المساعدة .

غير أن الظروف لم تكن ملائمة . وذلك أن الأمير أبي إسحاق كان يعاني آنذاك من منافسة ابن أخيه أبي عبد الله قد طلب المساعدة من أبي عنان في شهر صفر 467 هـ فارسل أبو محمد بن أبي زكرياء ، أمير بجاية قبل استلاء أبي عنان عليها سنة 753 هـ . وكان أبو عبد الله قد طلب المساعدة من أبي عنان ، في شهر صفر 764 ، فأرسل أبو إسحاق الى أبي حمو رسولا يعرض عليه الصلح ، ويطلب منه ألّا يساعد أبا عبد الله ، ويلتزم بدوره باعتقال أبي زيان ، فوافق أبو حمو على هذا العرض .

ولكن أبا زيان غادر بجاية في تلك الأثناء واتجه الى فحص حمزة عند شيخ بني يزيد ، أبي الليل بن موسى . وكان هذا الأخير حانقا على أبي حمو لما قام به الوزير ابن مسلّم من غارات في تلك الناحية قصد اخضاع بني يزيد . فبايع الشيخ أبو الليل أبا زيان ، وخلع طاعة أبي حمو وبدأ يغير بقومه على نواحي المدية .

فأرسل أبو حمو وزيره ابن مسلّم مرة أخرى الى الشرق ، واعتصم أبو الليل وقومه بجبل جرجرة ، فحاصرهم الجيش الزياني الى أن أذعن أبو الليل للطاعة ، والتزم صرف أبي زيان عن بلاده . فسار هذا الى تونس (رمضان 764 هـ) ، وعاد ابن مسلّم الى تلمسان ، بعد أن أعاد السلطة الزيانية في فحص حمزة .

ب ــ منافسة أبي زيان القبّيّ لأبي حمو الثاني :

وفي أوائل سنة 765 هـ ، ساءت الأحوال بين أبي حمو الثاني والسلطان المريني المتوكل على الله ، وذلك أنّ بعض أمراء بني مرين ثاروا بسجلماسة ضد المتوكل على الله ، وخلعوا طاعته ، وطلبوا مساعدة أبي حمو ، فمنحهم اياها . فكان رد فعل السلطان المريني أن أقام أبا زيان القبّيّ منافسا لأبي حمو ، وأنهضه بجيش يتألف من عرب أولاد حسين ، وحصّة مرينية

وأرسله الى منطقة الحدود مصحوبا بابن برغوث وبعض وجهاء بني عبد الواد الذين كانوا مستقرين بفاس .

فنهض أبو حمو الى لقاء منافسه ، الذي كان قد نزل بعين الصفاء من جبل بني يزناسن ، فلم يظفر به وتبعه الى جبل دبدو في الجنوب ، ثم عاد الى عاصمته فدخلها في 8 شعبان 765 هـ .

ثم سرّح أبو حمو ابنَ مسلّم بالجيش لمطاردة أبي زيان القبّي وأتباعه ، فاعترضهم في ناحية منداس ، وأرغمهم على الفرار نحو الشرق ، ثم تبعهم الى ناحية المسيلة ، حيث استجاروا بقبيلة رياح ، فأقام ابن مسلّم معسكره بوادي الجنان وشرع في محاولة اقناع رياح بالتخلي عن أبي زيان القبّي وأنصاره ، ولكنه مرض بالطاعون في آخر ذي القعدة سنة 765 هـ ، فرجع به أفراد عشيرته وتوفي في طريقه . وبوفاة ابن مسلّم ، فقد أبو حمو أخلص مناصر لعرشه وأمهر قائد لجيوشه .

وكان لنبإ وفاة ابن مسلّم أسوأ الأثر في نفوس مقاتلة الجيش الذي كان يقوده ، فانحاز الكثير منهم وخاصة العرب (سويد وبنو عامر) الى جانب ابن زيان القبّي ، وتراجع باقي الجيش في اتجاه منطقة شلف ، فأرسل أبو حمو عثمان بن مسلّم ، أخا الوزير الفقيد ، للقاء العساكر والربط من جأشها . ثم بعث لمساعدته جيشا آخر بقيادة ابنه أبي تاشفين .

ثم خرج أبو حمو نفسه في اتجاه الأعداء . وعندما قرب من البطحاء ، لقي جيوشه راجعة ، فثناها عن وجهتها ، وأقام عسكره بالبطحاء بينما كان جيش أبي زيان القبّي متمركزا بإغيل إيزان قريبا منه .

وفي 25 ذي الحجة 765 هـ ، وقعت معركة البطحاء التي شنها أبو زيان وجموعه على جيش أبي حمو ، فانهزمَ هذا شرّ هزيمة ، وغادر ساحة الحرب تاركا متاعه للعدو ، وقصد عاصمته يبغي النجاة ، فدخلها في 28 ذي الحجة .

أما أبو زيان القبّي ، وأنصاره من أولاد حسين وسويد وبني عامر ، فإنهم ساروا في أثر أبي حمو ، عازمين على اقتحام عاصمته والاطاحة بعرشه . وكان لأولاد حسين حظوة لدى أبي زيان ؛ فكان يشاورهم في أموره دون بني عامر ، ممّا جعل هؤلاء يغضبون من ذلك ويسخطون من استبداد المعقل عليهم .

وكان خالد بن عامر آنذاك ، معتقلا في تلمسان ، بأمر من أبي حمو . وبحث هذا الأخير عن مسلك لانقاذ عرشه ، فلم يجد أحسن من استعمال خالد بن عامر ، فأطلق سراحه وشرط عليه أن يصرف قومه عن طاعة أبي زيان . ولم يجد خالد أيّة صعوبة في الوفاء بما التزم به اذ كان الشقاق قد دبّ بين أولاد حسين وبني عامر .

ولمّا ضرب أبو زيان ، ومن بقي معه من المعقل وسويد خيامهم بذراع الصّابون من ظاهر تلمسان ، نزل بنو عامر بوادي يسّر ، ثم انصْرفوا نحو الصحراء ، آخذين على ثنية فرتون طريقهم المعتادة الى الجنوب .

وبانخدال بني عامر عن أبي زيان القبّيّ ضعف حزبه ؛ وانتهى أمره بانقضاض جموعه من حوله بدون قتال . والتحقت حاشيته من وجهاء بني عبد الواد بأبي حمو ، بعد أن عفا عنهم .

وبعد أن تمكن أبو حمو من إحباط محاولة أبي زيان القبّيّ ، اعتقد أنه حسم مادة الخلاف في بلاده ، وأخذ يتطلع الى منطقة الحدود الشرقية ويفكر في معالجة شؤونها ، ومدافعة هجوم أمير بجاية عليها .

جـ — نهوض أبي حمو الثاني الى بجاية :

وذلك أن الأمير أبا عبد الله الحفصي كان قد استولى على بجاية سنة 765 هـ ، ثم اغتنم فرصة هزيمة أبي حمو في البطحاء للاستيلاء على تدلّس واجلاء بني زيان عنها . وعندئذ أنهض أبو حمو وزيره عمران بن موسى لاسترجاعها ، فحاصرها أياما ، ولكنها امتنعت عليه ، وعاد الى تلمسان من دون أن تسفر مهمته عن أيّة نتيجة)أوائل 766 هـ) .

ولكن الأمير أبا عبد الله تعرض في تلك الأثناء الى هجمات ابن عمه أبي العباس ، أمير قسنطينة ، الذي هزمه مرتين ، الأولى بفرجيوة ، في آخر سنة 766 هـ ، والثانية قرب سطيف ، في أوائل سنة 767 هـ ، ولم يستطع أبو عبد الله أن يواجه الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية ، فآثر أن يغير موقفه إزاء أحد الجانبين ليستعين به على مقاومة الآخر .

وعزم أبو عبد الله على تحسين علاقاته مع أبي حمو ، وتسوية الخلاف الذي نشأ بينهما في شأن تدلّس . فتنازل له عنها وأصهر له في إحدى بناته ، وتم الزفاف في أوائل ربيع الثاني 767 هـ .

الا أن الأحوال لم تتحسن في امارة بجاية ، ولم يفتأ الوضع يتدهور بها الى أن أغار أبو العباس عليها ، فاحتل بجاية في 20 شعبان 767 هـ ، وتقبّض جنوده على الأمير أبي عبد الله فقتلوه .

وعندئذ قرر أبو حمو الزحف الى بجاية مظهرا أنه يريد الثأر لصهره الأمير أبي عبد الله (شوال 767 هـ) ، ويبدو أن بعض أهالي بجاية كاتبوه آنذاك ، ووعدوه بالمساعدة على افتتاحها . وكان معظم جيش الأمير أبي العباس الحفصي مستقرا بقسنطينة ، بقيادة مولاه بشير . فظهر لأبي حمو أن الظروف ملائمة لنجاح محاولته .

أما الأمير أبو العباس ، فإنه حينما علم بحركة أبي حمو ، استقدم القائد بشيرا بجيشه وطلب منه أن يضم اليه الأمير أبا زيان بن أبي سعيد الثاني ، الذي كان آنذاك رهين السجن بقسنطينة .

واصطدم أبو حمو وجموعه بجيش القائد بشير قبل أن يصل الى بجاية . فالتقى الجمعان ، وأبدى جيش قسنطينة مقاومة شديدة ، ولم ينهزم أمامهم ، فأقلع أبو حمو عنه وراح يضرب الحصار على بجاية ، ظانا أنه يفتحها بعد قليل بمساعدة الساخطين على أبي العباس من سكانها .

ولكن أمل أبي حمو لم يتحقق ، ولم يحرز على النصر الذي كان يرجوه ، بل أصبح جيشه بين نارين . فتراجع العرب من أتباعه ، واختل نظام عساكره وانقلب هجومه الى هزيمة شنعاء ، أسر وقتل فيها كثير من جنوده ، وهام كثيرون على وجوههم ، والتحق الباقون بمنافسه أبي زيان ، ولم يسع أبا حمو الا الفرار بنفسه ، تاركا للعدو حرمه وكثيرا من المال والعتاد . فكانت أكبر هزيمة عرفها في حياته (8 ذي الحجة 767 هـ) .

ولا شك أن هزيمة بجاية أضعفت أبا حمو بصفة محسوسة ، فثبّطت عزائم أنصاره ، وقضت على كثير من أبطال فرسان بني عبد الواد . وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذ أبي حمو في كثير من نواحي المغرب الأوسط ، وزالت هيبته من نفوس قبائل العرب ، واتضح للجميع أن الجيش الزياني أحوج ما يكون الى قيادة عسكرية ذات كفاءة وخبرة ، وأنه منذ وفاة ابن مسلّم لم يجد قائدا يتولى تنظيمه ، ويسهر على إحكام الخطة الحربية ويسير به الى النصر .

وأخذت قبائل العرب ، في المغرب الأوسط توجه أنظارها نحو أراضي التل الخصبة ، وترى أن الفرصة قد سنحت لها للاستيلاء على تلك الأراضي وانماء ماشيتها وأموالها ، بعد أن ذاقت حياة الشظف والعناء في الجنوب .

د ــ عودة أبي زيان بن أبي سعيد الثاني الى منافسة أبي حمو :

وسرعان ما انحازت الى جانب أبي زيان بن أبي سعيد الثاني قبيلة حصين ، من عرب زغبة ، وكانت تقطن ناحية تيطري الجبلية . فزحف بها الى المدية ، في أوائل سنة 768 هـ ، واستولى عليها . فاضطرّ أبو حمو الى حشد العساكر ، وإرسالها الى تلك المنطقة لمدافعة الثوّار وصدّهم عنها .

وعندئذ ، غادر أبو زيان المدية واعتصم بجبل تيطري ، فتبعته عساكر أبي حمو ، وحاصرته في معقله مدّة ؛ وأخيرا فوجئت هذه ليلا بهجوم الثوار ، فاضطرب أمرها ، وانهزمت أمامهم تاركة الأخبية والذخائر ، واعتصم بعضها بالمدية ، وآخرون بمليانة ، وتقهقر البعض

نحو الغرب ، بينما التحق عسكر بقيادة عثمان بن مسلّم بالثوار ، فقوي بذلك جانب أبي زيان ، واستفحل أمره ، وزحف الى المدية ومليانة ، فهزم جيوش أبي حمو التي اعترضت طريقه ، واحتل المدينتين . وفي تلك الأثناء ، انضمت الى أبي زيان قبيلة الثعالبة ، من المعقل ، وكانت تقطن سهل متيجة ، كما أطاعه أهل الجزائر ، وخلعوا طاعة أبي حمو .

وحينئذ نهض أبو حمو في أواسط سنة 768 هـ ، وبثّ رسله في قبائل العرب ، يعرض عليهم الأموال والاقطاعات . ولكنه لم يحصل على مشايعة أبي بكر بن عريف وخالد بن عامر وقومهما . فطاردهما قصد إرغامهما على طاعته ، وتبعهما الى ناحية جرجرة ووادي الدوم ، ولكنه لم يظفر بشيء ، وعاد أدراجه الى تلمسان بعد أن شنوا عليه الغارة وهزموا عسكره ونهبوا ذخائره .

ثم التحق بنو عامر وسويد والدّيالم والعطّاف بأبي زيان ، فاعتقد أن الأمر أصبح هيّنا ، وأن أيام أبي حمو صارت معدودة ، فقصد تلمسان والمدن في طريقه تنحاز الى جانبه ، مثل تنس ومستغانم ومزغران ووهران ، الى أن بلغ وادي مينة ، فعسكر قرب البطحاء ، منتظرا قدوم أبي حمو وعازما على القضاء عليه .

وفي 6 ذي القعدة 768 هـ ، خرج السلطان الزياني من تلمسان ، وتوجه بما اجتمع لديه من الأتباع نحو البطحاء ، وعندما بلغ معسكر أبي زيان ، انقض على مقدمة جيشه في حين غفلة ، فتراجعت مهزومة ، وأحدث ذلك اضطرابا وفوضى وسط باقي جيش أبي زيان وأحلافه ، فانفضوا من حوله ، وانصرفوا الى مناطقهم المختلفة .

ثم وفد أشياخ سويد والديالم والعطّاف على أبي حمو ، والتمسوا منه العفو ، وأعربوا له عن إذعانهم لطاعته ، كما بعثت المدن بيعاتها ، إلّا مدينة الجزائر . وانقلب الوضع ، فبينما كان أبو حمو ، عندما غادر عاصمته يقوم بمحاولة يائسة للدفاع عن عرشه ، أصبح ، بعد انتصاره في البطحاء ، يطارد عدوه ويسترجع نفوذه في المنطقة الشرقية .

وقصد الى ناحية شلف ، ثم الى مليانة ، ففتحها (محرم 769 هـ) ، وأصلح أحوالها . وبعث الى الدواودة يعرض عليهم التحالف ، وكان هؤلاء في نزاع مع الأمير أبي العباس الحفصي ، صاحب قسنطينة وبجاية ، فاستجابوا الى طلبه . ثم عاد الى تلمسان في 15 ربيع الثاني 769 هـ .

وفي شعبان 769 هـ ، نهض أبو حمو بجيشه متوجها نحو المنطقة الشرقية . وانضم اليه الدواودة . فقصدوا الى جبال تيطري ، حيث اعتصم أبو زيان وأحلافه من بني عامر وسويد . وحاول أبو حمو ضرب الحصار عليهم ، ولكن هؤلاء هاجموه بغتة ، فانهزم شر هزيمة ، ولجأ بنفسه الى تلمسان ، عن طريق الجنوب . ورجع الدواودة الى بلادهم (شوال 769 هـ) .

وتراجع جيش أبي حمو يتبعه أبو زيان وجموعه . وتوغل هؤلاء في البلاد الى أن بلغوا سيرات ، قبلة مستغانم . ومرة أخرى ، تتكرر الأحداث متشابهة ، وذلك أن أبا حمو لم يجد حلّا لما حلّ به من هزيمة وفشل إلّا إرضاء خالد بن عامر وقومه بالأموال والاقطاعات . فانصل بنو عامر عن أبي زيان ، وانفضّ من حوله كثير من أتباعه الآخرين ، فعاد الى معتصمه بالمنطقة الشرقية ، في ذيّ الحجة 769 هـ ، وحظي بعد ذلك بتأييد أبي بكر بن عريف وقومه من سويد .

وقد نتج عن موقف أبي بكر بن عريف هذا ، أن غضب أبو حمو على سويد . وأغراه خالد بن عامر عليهم ، فأغار أبو حمو وأتباعه على أراضي سويد في أوائل صفر سنة 771 هـ ، وانتسف قلعة بني سلامة ، وكانت أهم مقر لهم . وإثر ذلك ، غادرت سويد المغرب الأوسط وانصرفت الى المغرب الأقصى ، حيث سعت في افساد العلاقات بين بني مرين وبني زيان . فكان ذلك من أهمّ العوامل التي أدت الى حركة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني الى تلمسان ، واستيلائه عليها ، في أوائل سنة 772 هـ .

وهنا تنتهي مرحلة أخرى من عهد أبي حمو الثاني ، امتازت بتلاشي نفوذ قبيلة بني عبد الواد ، وسيطرة عناصر قبيلة زغبة على الموقف ، سواء في شرق القطر أو في غربه . وأصبح الصراع القديم بين بني عامر وسويد ، هو الذي يحتل الصدارة في واجهة الأحداث السياسية . أما المنافسة بين أبي حمو وابن عمه أبي زيان ، فلم تعد بعد ذلك تتخذ شكلا حادا ، بل صارت تحتل مكانة ثانوية .

5) إستيلاء عبد العزيز المريني على المغرب الأوسط :

كان لتخريب أبي حمو قلعة بني سلامة وقع سيّىء في نفوس سويد ، فعزموا على الثأر لما أصاب أهل القلعة من اخوانهم . والتحق أبو بكر بن عريف مع قومه وأحلافه من الديالم والعطّاف بالمغرب الأقصى ، مستغيثا بالسلطان عبد العزيز المريني . وكان أخوه ونزمار يحتل مكانة سامية في البلاط المريني ، فبذل كل جهده في اقناع السلطان عبد العزيز ، ورغّبه في الاستيلاء على تلمسان والمغرب الأوسط ، الأمر الذي يرفع من شأن الدولة المرينية ، ويمكّن سويد من الثأر لقبيلتهم .

وكان عبد العزيز آنذاك ناقما على أبي حمو ، لأن هذا الأخير كان قد حصل على خدمة المعقل ، الخارجين عن طاعة بني مرين . وبعث اليه عبد العزيز مرارا في شأنهم ، فلم يلبّ طلبه .

وبعد مدّة ، حصل ونزمار وأبو بكر ابنا عريف على موافقة السلطان المريني . فأمر هذا بحشد الجيوش وتجهيزها ، وبعد قضاء عيد الأضحى لسنة 771 هـ ، ارتحل بها متجها نحو تلمسان .

وعندما اتصل أبو حمو بالخبر ، كان معسكرا بالبطحاء ، فأغذّ السير نحو عاصمته ، وأجال الفكر مع مستشاريه ، فاستقرّ رأيهم على مغادرة تلمسان بالجيش والذخائر والاتجاه الى الجنوب الشرقي من القطر .

وفي غرة محرم 772 هـ ، خرج أبو حمو من تلمسان مشرقا ، والتحق ببني عامر . ثم أخذ يترقب أخبار بني مرين . أما عبد العزيز المريني ، فإنه احتل تلمسان في 10 محرم ، وسرّح وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس في أثر أبي حمو الذي كان قد بلغ البطحاء . وفي تلك الأثناء ، التحق ونزمار بن عريف مع قومه وأحلافه بابن الكاس ، وساروا جميعا لمطاردة أبي حمو وبني عامر .

وكان هؤلاء قد اتجهوا نحو الزاب ، الى أن حلوا بظاهر قرية الدوسن ، قريبا من نهر شدّي (نهر جدّي حاليا) ، فحاول أبو حمو استمالة أولاد محمد ، من رياح الى جانبه . وعندئذ فاجأهم الجيش المريني ، ففر بنو عامر أمام العدو ، وانهزم أبو حمو ومن بقي معه هزيمة كبرى ، وترك معسكره وذخائره للعدو ، وانسحب عن ساحة الحرب ، في اتجاه الجنوب يبغي النجاة (أوائل ربيع الأول 772 هـ) .

ومنذ ذلك الزمان ، كانت المحنة الكبرى عبر الصحراء ، وجنود بني مرين تطارد السلطان الزياني وأهله وأتباعه ، غير أنه تمكن من اتّقاء شرهم وشرّ سويد .

ثم أعاد أبو حمو الكرة ، في أواسط سنة 773 هـ ، وحاول الاغارة على ناحية تلمسان ، مع من بقي معه من الأتباع . ولكن بني مرين داخلوا خالد بن عامر في شأن الالتحاق بهم ، والانفصال عن أبي حمو . ووافق ذلك فتورا في العلاقات بين خالد وأبي حمو ، فانخذل شيخ بني عامر ، مع كثير من قومه ، عن أبي حمو ، وتبعهم الوزير عمران بن موسى وغيره من الوزراء ، منحازين الى الجانب المريني .

ولم يشأ أبو حمو أن يتراجع عن محاولته تلك ، بعدما حدث في صفوف رجاله من تخاذل ، بل تابع سيره نحو عاصمته ، قاصدا عدوه ، ومواجها ما كان في تلك المنطقة من القوات المرينية ، فلقيها بأوماكرا . ولكنه انهزم شرّ هزيمة ، واستولى العدو على ظعنه (بما اشتمل من ذخائر وأهل وولد) ، وأفلت أبو حمو من المعركة مع ابنه أبي تاشفين وقليل من الأقرباء والأتباع (25 شوال 773 هـ) .

وعاد أبو حمو الى تجواله في القفر . ثم استقر أخيرا بتيقورارين ، في جنوب الصحراء ، مما يتاخم بلاد السودان (آخر سنة 773 هـ) .

وكان السلطان عبد العزيز قد اتخذ تلمسان مقرا له . وبها أصيب في تلك الأثناء بداء خطير ، توفي منه في 22 ربيع الثاني 774 هـ . فاضطربت أحوال العرش المريني ، وانتقل رجال الدولة الى فاس ، تاركين على تلمسان أحد أمراء بني زيان ، وهو إبراهيم بن السلطان أبي تاشفين الأول .

غير أن ابراهيم هذا لم يسيطر على الموقف ، اذ اصطدم بأحد موالي أبي حمو ، يدعى عطية بن موسى ، الذي عمل على طرده من تلمسان ، وملك زمام الأمر بها ، باسم السلطان أبي حمو . وسرعان ما بلغ النبأ أبا حمو في منفاه البعيد ، فانفرجت عنه الشدة ، وعاد الى عاصمته ، فدخلها في 24 جمادى الأولى 774 هـ ، بعد غيبة دامت سنتين ، تعرض أثناءها الى أخطار لا تحصى . كادت تذهب بعرشه ، وتؤدي بحياته ، وذاق فيها ما لم يذقه معظم الملوك والأمراء من المشقة والعناء .

6) الصراع بين بني عامر وسويد :

ومرة أخرى ، وجد أبو حمو نفسه أمام مشاكل عديدة . فكان أحد أمراء أولاد منديل ، علي بن هارون ، قد انتصب أميرا بناحية شلف ، بمساعدة بني مرين ، وأخذ يجمع شتات امارة أجداده ، ويحاول إحياءها من جديد . وعاد أبو زيان من منفاه بوارقلة ، قاصدا أنصاره من حصين بجبال تيطري ، وعاملا على استرجاع نفوذه السابق في المنطقة الشرقية .

وكن ونزمار بن عريف قد نصح أخويه أبا بكر ومحمد بالتحالف مع أبي حمو ، واغتنام فرصة خديعة خالد بن عامر لاحلال سويد محل بني عامر في « مخزن » الدولة الزيانية ، ووافق ذلك حنق أبي حمو على خالد بن عامر وقومه ، فعمد الى تغيير سياسته تجاه قبائل زغبة ، وأصبح يعهد الى سويد بمهمة الدفاع على كيان دولته .

وبدأ أبو حمو بإعادة سلطته على المنطقة الشرقية . فأرسل إبنه أبا تاشفين بجيش اليها وساعده على ذلك الأحلاف الجدد من سويد ، فحاصر علي بن هارون وأتباعه في معتصمهم بجبل زاتيمة ، ثم ناجزهم الحرب ، فانهزمت مغراوة وأحلافهم (رحب 775 هـ) . ثم اقتحم المعقل الذي لجأ اليه علي بن هارون ، واستولى عليه ، ففر المغراوي الى بجاية (أوائل ربيع الأول 776 هـ) ، وركب البحر متجها الى المغرب الأقصى .

أما بنو عامر ، فلم يرضوا بجلائهم عن أراضيهم في المغرب الأوسط لفائدة سويد ، وانتهاء نفوذهم في المملكة الزيانية التي ساهموا في احيائها بعد الاحتلال المريني ، ودافعوا على كيانها مدة طويلة . ولم تفلح مساعيهم في الحصول على مساعدة بني مرين . فلما يئسوا من ذلك ، قرر عبد الله بن صغير وقومه العودة الى أوطانهم ، والدفاع عنها بالقوة . وانتهزوا فرصة غضب أبي عريف ، عندما عزل أبو حمو صديقه يوسف بن عثمان عن امارة وانشريس ،

فاستمالوه اليهم وبايعوا جميعا الأمير أبا زيان ، وأرسلوا اليه وفدا بمكانه من مجالات رياح ، فقدم اليهم .

إلّا أن جمهور سويد ومحمد بن عريف كانوا من جانب أبي حمو ، الذي خرج في أول سنة 777 هـ في اتجاه المخالفين . وزحف هؤلاء الى مازونة ، قصد مفاجأة القائد عطيه بن موسى والأمير أبي تاشفين ، ولكن محاولتهم لم تنجح ، وانهزموا هزيمة كبرى (4 ربيع الأول 777 هـ) . ولما اجتمع جيش أبي حمو بجيش عطية وأبي تاشفين ، انفض أتباع أبي زيان من حوله ، وعاد عبد الله بن صغير الى المغرب الأقصى . وأصحر أبو بكر بن عريف ، ثم عرض عليه أبو حمو ما أرضاه من المال والاقطاعات . أما أبو زيان ، فإنه رجع الى بلاد الدواودة ، وقد خاب أمله (ربيع الثاني 777 هـ) .

وواصل خالد بن عامر مساعيه في الاستنجاد ببني مرين ، ولكن بدون جدوى . فعزم بنو عامر على العودة الى أراضيهم مرة ثانية ، ومناجزة سويد الحرب عليها . وعلمت سويد بنواياهم ، فأعدت لهم ما استطاعت من عدة ، واستنفزت حلفاءها من العطّاف ، والسلطان أبا حمو ، الذي أمر ابنه أبا تاشفين ، المستقر آنذاك بجبل هوارة ، بالاستعداد لصرختهم .

ولما وصل بنو عامر الى أعالي نهر مينه ، توجه اليهم أبو تاشفين ، وضم جيشه الى سويد ، ثم التقوا ببني عامر في تلك الناحية ، في 2 ذي الحجة 777 هـ ، فبات الفريقان في انتظار المعركة الحاسمة ، واستضاؤوا بالنيران مخافة البيات . وفي الصباح نشبت الحرب بين الفئتين ، وحمي الوطيس الى بعد الظهيرة ، فانهزم بنو عامر ، وقتل كثير من أبطالهم ، كعبد الله بن صغير ، وأخيه ملوك وغيرهم .

وبهذا قطع دابر بني عامر ، وانتهى الحلف القديم بينهم وبين أبي حمو ، وأصبح السلطان الزياني ينتهج سياسة جديدة تعتمد على مصادقة سويد وإرضائهم واستعمال نفوذهم في المغرب الأوسط لنيل طاعة قبائل المنطقة الشرقية ، ونفوذهم في المغرب الأقصى لاقامة السلم مع بني مرين .

7) المنافسة بين أبناء أبي حمو الثاني .

وفي اول سنة 778 هـ ، انتقض شيخ الثعالبة ، سالم بن إبراهيم ، ووافقه خالد بن عامر على الخلافة ، ولكن هذا الأخير توفي في هذه الأثناء بالجزائر . فنهض أبو حمو الى المنطقة الشرقية ، وأخضع الثعالبة (أواخر رمضان 778 هـ) . ولما انتهى من تهدئة هذه المنطقة ، وعزم على الرجوع الى عاصمته ، عين الوزير السابق إبن برغوث واليا على الجزائر ، ثم عقد على مليانة وأعمالها لابنه المنتصر ، وجعل معه أخاه الصغير عمير ، كما عقد على وهران لابنه أبي زيان .

ولم يرتض الأمير ابو تاشفين تعيين أبي زيان على وهران ، لأنه كان يريد ولايتها لنفسه ، فغضب لذلك ، وظهرت عندئذ منافسة شديدة على الحكم بين أبناء أبي حمو الثاني . وطلب أبو تاشفين من أبيه ان يعقد له على وهران عوض أخيه أبي زيان .

وكان أبو تاشفين أكبر إخوته ، وولي العهد ؛ وقد أشركه أبوه في الحكم بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني ، حين عودته الى عاصمته . إلّا أن أبا حمو كان يعطف بصفة خاصة على المنتصر وأبي زيان وعمير . وربما كان يفضل أبا زيان لما امتاز به من تفوق في العلم والأدب؛ وقد حفظ القرآن ، وبمناسبة اختتامه له أقام أبو حمو حفلا مشهورا في رجب 776 هـ ، ونظم أبو زيان الشعر مثل أبيه ، فكان يحظى مع أخيه بمجالسة والده ومناجاته ، مما كان يثير غيرة أبي تاشفين وامتعاضه .

ولم يشأ أبو حمو أن يرجع عن قراره ، كما أنه لم يقدم على فرض إرادته واجابة طلب أبي تاشفين بالرفض ، وانما أسعفه ظاهرا ، وعهد الى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابة العقد حتى يجد مخلصا من ذلك .

وكان في بطانة أبي تاشفين ، من حسّاد يحيى بن خلدون ، من أوهم الأمير أن كاتب أبيه كان بمماطلته تلك ، يعمل في صالح أبي زيان ، ويؤثره عليه .

فغضب أبو تاشفين لذلك ، وعزم على التخلص من يحيى بن خلدون ودبر مقتله ، على يد أتباعه ، في احدى ليالي رمضان سنة 780 هـ ، بعد خروجه من القصر . وعندما اكتشف أبو حمو الحقيقة في مقتل كاتبه ، لم يسعه إلّا الاغضاء ، وإرضاء أبي تاشفين بتعيينه على وهران . وبعد ذلك بقليل ، طلب أبو تاشفين من أبيه أن يضيف اليه ولاية الجزائر ، فأقطعه اياها ، واستناب الأمير فيها أخاه يوسف بن الزابية .

وهكذا بدأ نجم أبي تاشفين يعلو في سماء المملكة الزيانية ، وظهر منه من الحزم والشدة ما جعل والده يتفادى شره بإسعافه في جميع مطالبه ، وتلبية رغباته ، مما خفف من ثائرة ابنه ، وأخمد نار عيظه .

وأخذت الأحوال تسير سيرها الطبيعي ، بعد أن شمل المغرب الأوسط الهدوء والاستقرار ، وتواصل تنظيم شؤون الدولة ، وتحسين العلاقات مع مختلف القبائل ، الى أن تأزم الوضع في المغرب الأقصى في سنة 784 هـ ، وقام ضد السلطان أبي العباس المريني ابن عمه عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن ، ينافسه على سجلماسة ومراكش ، فتحالف أبو حمو مع هذا الأخير وظاهره على خصمه ، مما أثار حنق أبي العباس على أبي حمو ، وأدى الى هجومه على تلمسان .

8) استيلاء أبي العباس المريني على تلمسان ومغادرته لها :

كان عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بمراكش ، يعاني من حصار السلطان أبي العباس منذ أشهر . فاستصرخ بأبي حمو ، وأرسل اليه ابن عمه أبا العشائر ، رفقة يوسف بن علي بن غانم ، شيخ أولاد حسين ، من المعقل . وأجاب أبو حمو صرختهما ، فأرسل معهما ابنه أبا تاشفين ، وتوجهوا الى ناحية مكناسة ، لشن الغارة عليها ، بينما أغار أبو حمو على ناحية تازا ، قصد شغل أبي العباس وحمله على رفع الحصار عن مراكش والافراج عليها .

الا أن أبا العباس اقتحم مراكش في تلك الأثناء ، واستولى عليها ، وقضى على منافسه (أواسط سنة 785 هـ) . فرجع أبو تاشفين وجماعته الى تلمسان ، كما عاد اليها أبو حمو مسرعا ، بعد أن هدم قصر تازروت ومسجدها قرب تازا ، وخرب قصر مرادة الذي كان بناه ونزمار بن عريف السويدي في ناحية بطوية من أحواز تازا .

وقد أدت حركة أبي حمو هذه ، وما صحبها من تخريب ، الى تأزم الوضع بينه وبين أبي العباس المريني ، من جهة ، والى استياء سويد الشديد وغضبهم ، من جهة أخرى . فما عاد السلطان المريني الى عاصمته ، بعد القضاء على فتنة منافسه في الجنوب ، حتى أخذ يعد العدة للنهوض الى تلمسان ، انتقاما لموقف أبي حمو العدائي .

وعندما اطلع أبو حمو على ما كان يدبره أبو العباس المريني من استعدادات للزحف ، استنجد بابن الأحمر . وكان لهذا الأخير نفوذ كبير على الدولة المرينية ، فحث أبا العباس على مسالمة أبي حمو . ولكن السلطان المريني لم يتأخر عن تنفيذ خطته ، فهاجم المملكة الزيانية ، واستولى على تلمسان ، بعد أن غادرها أبو حمو متوجها الى البطحاء ، ثم الى البطحاء ، ثم الى حصن تاجحمومت ، في أراضي بني سعيد .

وكان رد فعل ابن الأحمر أن أنهض منافسا لأبي العباس ، يدعى موسى بن السلطان أبي عنان ، وبعث معه الجنود ، ونزلوا سبتة ، في غرة ربيع الأول 786 هـ ، ثم توجهوا صوب فاس ، فحاصروها ، ثم استولوا عليها في 19 ربيع الأول .

ولمّا بلغ الخبر الى السلطان أبي العباس بتلمسان ، غادرها فورا . وقبل الخروج منها ، أمر بإيعاز من ونزمار بن عريف السويدي ، بهدم قصور بني زيان بالمدينة وقسم كبير من أسوارها ، انتقاما من تخريب أبي حمو لقصر تازروت وقصر مرادة (أواخر ربيع الأول 786 هـ) .

ثم عاد أبو حمو الى عاصمته ، فتألم كثيرا لما أصابها من خراب ولهدم أسوارها الشاهقة ، وقصورها البديعة ، مما أودى بحصانتها ومناعتها ، وذهب بجمالها ورونقها . ولا شك أن إقدام أبي حمو وبني عامر على تخريب قصر مرادة كان خطأ فادحا ، تمخضت عنه حوادث

ونزل أبو حمو بجاية ، فاستقبل أحسن استقبال من طرف أميرها الحفصي ، الذي بالغ في اكرامه ومساعدته (أواخر سنة 789 هـ) . ثم غادرها وقدم الى ناحية متيجة ، حيث شرع يحشد العساكر ويستنفر العرب ، وقصد بهم الى تلمسان ، تاركا ابنه أبا زيان على ناحية شلف . وسلك أبو حمو وأنصاره طريق الجنوب ، متجهين نحو المنطقة الغربية ، الى أن بلغوا قرية تامة ، الواقعة غربي تلمسان .

وعزم أبو تاشفين من جهته ، على توجيه ضرباته الى الجهتين الشرقية والغربية ، للقضاء على منافسيه من اخوته وعلى أبيه . فأرسل جيشا الى شلف بقيادة ابنه أبي زيان ووزيره محمد ابن عبد الله بن مسلّم ، وسار هو بجيش آخر نحو أبيه .

أما أبو زيان بن أبي تاشفين ، فإنه انهزم أمام عمه أبي زيان ، وقتل معه جماعة من بني عبد الواد كانوا رافقوه ، منهم محمد بن عبد الله بن مسلّم . فكانت ضربة شديدة ، أصابت أبا تاشفين في الصميم ، وجعلت الصراع بين الفريقين يزداد خطورة وعنفا ، ويتحول الى عداء لا مجال لانتهائه الا بانهيار أحدهما وانقراضه .

وأما أبو حمو ، فانه توجه الى وادي زا ، واستنجد بعرب المعقل ، فلبوا طلبه ، وعاد بهم الى تامة ، فنازلها . وأقبل أبو تاشفين بجيشه فعسكر قبالته . وأقام الفريقان على تلك الحال الى أن بلغ أبا تاشفين خبر هزيمة ابنه ومقتله ، فتأثر كثيرا لذلك النبأ ، وقرر الانسحاب ، متوجها مع أنصاره من سويد الى الجنوب .

وعندئذ قصد أبو حمو الى تلمسان ، فدخلها في رجب 790 هـ ، فاستعاد عرشه ، واستدعى اليه أبناءه في المنطقة الشرقية ، فأتوه .

ثم توجه أبو تاشفين رفقة محمد بن عريف السويدي ، الى المغرب الأقصى ، واستنجد بالسلطان أبي العباس المريني ، فوعدهما بالمساعدة .

ومرة أخرى ، راسل أبو حمو حليفه ابن الأحمر ، ملك غرناطة ، ودعاه الى التدخل في الأمر ، بأن يطلب من السلطان أبي العباس أن يجيز أبا تاشفين الى الأندلس ، حيث يؤمن شره . وقد سبق أن أشرنا الى نفوذ ملوك غرناطة في المغرب الأقصى منذ وفاة أبي عنان . فأرسل ابن الأحمر الى أبي العباس المريني في هذا الشأن ، وطلب منه إجازة أبي تاشفين اليه ، فلم يطاوعه أبو العباس في ذلك ، وذكر أنه «استجار بابنه أبي فارس ، واستذمّ به» .

وكان أبو تاشفين قد لجأ الى اغراء وزير السلطان المريني ، محمد بن يوسف بن علال ، بالأموال والوعود ، ليحث سلطانه على مساعدته بالعساكر ، حتى يتمكن من الاستيلاء على تلمسان ، والانتصار على أبيه . والتزم أبو تاشفين بدفع مقدار كبير من المال للوزير مقابل تلك المساعدة ، وبالدعاء للسلطان المريني في المنابر ، ودفع اتاوة سنوية .

وتردد أبو العباس مدة في قبول هذا الاتفاق ، فبذل الوزير ابن علال كل ما في وسعه لاقناعه ، الى أن وافق السلطان على ذلك ، وأرسل العساكر بقيادة ابنه أبي فارس ، لمساعدة أبي تاشفين (أواخر سنة 791 هـ) .

ولما اتصل أبو حمو بخبر زحفهم الى تلمسان ، غادرها مع أتباعه بني عامر ، والخرّاج من قبيلة المعقل ، وقصد جبل بني ورنيد ، الواقع جنوب المدينة والمطل عليها ، وأقام بمكان من ورائه يدعى الغيران .

وفي تلك الأثناء ، ورد موسى بن يخلف الى تلمسان ، واستولى عليها مقيما بها دعوة الأمير أبي تاشفين . فأرسل اليه أبو حمو ابنه عمير ، فأسره بعد أن أسلمه سكان المدينة ، وحمله الى أبيه ، فأمر بتعذيبه وقتله .

ثم تمكن حلفاء أبي تاشفين من معرفة مقر أبي حمو ، فقصدوه ، وباغتوه في الغيران ، والتحم القتال بين الفريقين ، فلم يثبت أنصار أبي حمو أمام الجيش المريني ، الذي كان يفوقهم عدداً وعدّة . وكبا بأبي حمو فرسه ، فسقط على الأرض ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين ، فقتلوه قعصا بالرماح ، وجاؤوا برأسه الى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال (أول ذي الحجة 791 هـ/نوفمبر 1389 م) .

* * *

وبوفاة أبي حمو الثاني ، انتهى عصر هام من عصور الدولة الزيانية ، حاولت هذه أثناءه أن تستعيد عزتها وقوتها ، غير أنها أخفقت في محاولتها هذه لأسباب عديدة .

وقد استطاع أبو حمو الثاني أن يبعث الدولة الزيانية بعد اندثارها ، وأن يعيد لها جانبا من مجدها وازدهارها ، رغم تقلب الأوضاع في شتى المناسبات ، وتظافر الأسباب لازعاجه مرارا عن عاصمته وحمله على التغرب ، والتجوال في المناطق المقفرة النائية . الا أنه لم يستسلم قط لليأس ، وواجه صروف الدهر برباطة جأش وصبر وعزيمة .

وكان عهد أبي حمو الثاني فترة حاسمة في تاريخ المغرب الأوسط ، تعرضت فيها الدولة الزيانية الى أخطار جسيمة ، فجاس بنو مرين خلالها مرارا ، وحاولوا اضافتها الى مملكتهم ، فلم يوفقوا في شيء من ذلك ، لما كان يحدث في بلادهم من فتن تشغلهم عن تحقيق أمنيتهم وتمكين سلطتهم .

كما أن عرب زغبة ، من بني عامر وسويد وحصين وغيرهم ، شكلوا عاملا رئيسيا لتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب الأوسط أثناء هذه الفترة . فقاموا بدور هام في جميع الحوادث ، وانطلق منهم قوم لاثارة الفتن ، واقامة منافس للسلطان الزياني ، كما انحاز

آخرون الى جانب أبي حمو يعضدون امارته ويحمون عرشه . فكأن الأوضاع السياسية استحالت الى صراع بين عرب زغبة ، حول امتلاك أراضي التل الخصبة ، وتهافتهم عليها ، وكأن بني بني عبد الواد وغيرهم من قبائل زناتة ، أصبحوا لا يلعبون الأدوار الرئيسية ، ولا يصلون الى غرض من الأغراض الّا بما يحصلون عليه من نصرة القبائل العربية وتأييدها .

وكان تحقيق مطامح أبي حمو الثاني ، في التوسع من الجهة الشرقية : يقتضي انشاء جيش قوي ، والحصول على أنصار أوفياء وقادة مهرة ، مما لم يتوفر لأبي حمو الا في السنوات الأولى من عهده . ولقد استقامت أمور دولته مادام على رأس جيوشه الوزير الشجاع ، عبد الله بن مسلّم الزردالي .

ولكن بعد وفاة هذا الأخير ، في أواخر سنة 765 هـ ، أخذت الأحوال تضطرب . وانتشرت الفوضى في الناحية الشرقية ، ومني أبو حمو بهزائم شديدة ، أضعفته بصفة محسوسة ، وجعلت بلاده تسير بخطى حثيثة نحو الانحطاط والتدهور . ومما زاد في الطين بلّة ، ما قام بين أبنائه من منافسة على الحكم ، وتهافت على السلطة . ولما تحولت تلك المنافسة الى صراع عنيف بين أبي حمو وابنه أبي تاشفين ، كان السلطان الزياني شيخا يناهز السبعين عاما ، ولم يكن له آنذاك نفوذ واسع وأنصار أقوياء ، فاختل أمره وانهار ، وعادت تدخلات المرينيين تهدد من جديد كيان الدولة الزيانية .

الفصل الثاني

إستمرار النفوذ المريني

د. عبد الحميد حاجيات

1) إمارة أبي تاشفين الثاني :

وبعد وفاة أبي حمو الثاني ، تأكّدت تبعية الدولة الزيانية لملوك بني مرين . وخلف الأمير أبو تاشفين أباه على العرش الزياني . وبقي الجيش المريني مخيما بظاهر تلمسان ، الى أن دفع السلطان الجديد لحلفائه ما اشترطوا عليه من المال ، وعندئذ أقلعوا عائدين الى بلادهم . وأقام أبو تاشفين الدعوة على المنابر للسلطان أبي العباس المريني ، وأرسل لهم ما التزم به من ضريبة سنوية .

غير أن المنافسة التي كانت قائمة بينه وبن أخيه أبي زيان لم تنته بعد . وذلك أن أبا زيان ، الذي كان أبو حمو قد عينه واليا على الجزائر قبيل وفاته ، ثار ضد أبي تاشفين في الناحية الشرقية ، واتصل بعرب حصين وبني عامر ، ودعاهم للأخذ بثأر أبيه ، فوافقوه على ذلك ، ونهضوا الى تلمسان في رجب سنة 792 هـ ، فحاصروه أيامي ، ولكن أبا تاشفين لجأ الى اغراء رؤساء العرب بالمال ، فانفضوا من حول أبي زيان ، ولم يرجع هذا الأخير عن عزمه ، فلقي جيش أبي تاشفين بما بقي معه من الأنصار ، ولكنه انهزم أمامه (شعبان 792 هـ) ، وفر الى الجنوب ، فلحق بعرب المعقل ، ثم عاد لحصار تلمسان ، في شوال سنة 792 هـ . وعندئذ ، أرسل أبو تاشفين الى سلطان المغرب الأقصى يستغيث به ، فبعث له المدد . واضطر أبو زيان الى رفع الحصار ، والافراج عن تلمسان ، والالتجاء الى الصحراء . ثم توجه الى السلطان المريني وطلب منه مساعدته ، فرحب به ، ووعده بتلبية طلبه عندما يحين الأوان . وأقام أبو زيان مدة بفاس ، الى أن تغير أبو العباس المريني على أبي تاشفين ، وأمدّ أبا

زيان بالجنود والعتاد وسمح له ، في منتصف سنة 795 هـ ، بالتوجه نحو تلمسان . ولما بلغ أبو زيان مدينة تازة ، وصل خبر وفاة أبي تاشفين ، إثر مرض أصابه (رمضان 795 هـ) .

2) عودة بني مرين الى تلمسان :

وعندئذ نهض السلطان أبو العباس المريني من فاس بجيشه ، متوجها الى تازا . وفي تلمسان ، حاول أحد رجال الدولة الزيانية ، يدعى أحمد بن العز ، أن ينصب على العرش أحد أبناء أبي تاشفين تحت كفالته ، ولكنه أخفق في محاولته ، وذلك أن يوسف بن الزابية قدم من مدينة الجزائر ، واستولى على تلمسان ، وقتل أحمد بن العز ، والأمير الذي نصبه على العرش ، بعد تولية دامت أربعين يوما .

فغضب أبو العباس المريني لما قام به يوسف بن الزابية من الاغارة على تلمسان وتملكها . فأعاد أبا زيان الى فاس ، ووكّل به من يحرسه ، وأرسل ابنه أبا فارس عبد العزيز الى تلمسان لامتلاكها ، فاحتلها وأقام فيها الدعوة المرينية ، واستولى على معظم أنحاء المغرب الأوسط .

أما يوسف بن الزابية ، فانه اعتصم بحصن تاحجمومت ، فضرب الوزير المريني صالح ابن حمو الحصار حوله . وفي تلك الأثناء ، مرض السلطان أبو العباس المريني ، وهو مقيم بتازا ، وتوفي في محرم سنة 796 هـ . فغادر ابنه أبو فارس عبد العزيز تلمسان ، وأسرع الى فاس ليتولى عرش أبيه .

3) إمارة أبي زيان بن أبي حمو الثاني :

وأطلق أبو فارس سراح الأمير أبي زيان بن أبي حمو الثاني ، ووجهه الى العاصمة الزيانية ، فملكها . ثم طلب من أنصار أخيه يوسف بن الزابية أن يسلموه له ، وعدهم بأموال عظيمة ، فأجابوه لذلك ، وصفا له الجو ، واستتب له الأمر . وحاول أن يعيد للدولة الزيانية رونقها وازدهارها ، وكان محبا للعلم والعلماء ، مشجعا للكتّاب والأدباء ، ويتذوق الشعر وينظمه .

غير أن المرينيين واصلوا تدخلاتهم ، المتمثلة في مساعدة الأمراء الزيانيين المنافسين في الحكم لسلطانهم . فأمدوا الأمير أبا محمد عبد الله بن أبي حمو الثاني بجيش حاصر به تلمسان ، سنة 801 هـ . ولم يقو أبو زيان على مدافعة العدو ، إذ أسلمه أنصاره وانفضوا من حوله ، ففر الى الناحية الشرقية ، ومكث بها مدّة ، يتصل بعرب تلك المنطقة ، ويحاول الاستغاثة بهم ، ولكن بدون جدوى ، الى أن قتل هناك سنة 805 هـ .

4) إمارة عبد الله بن أبي حمو الثاني :

أما الأمير أبو محمد عبد الله بن أبي حمو الثاني ، فانه ولي الملك سنة 801 هـ . غير أن تصرفاته أغضبت رجال بلاطه وكثيرا من مؤيديه ، لما أظهره من حزم وعدل وجد في حكمه . ولما لم يتمكن أولئك من إرضاء أطماعهم ورغباتهم ، قرروا التخلص منه ، وطلبوا من السلطان المريني أن يرسل معهم جنودا لتنفيذ مؤامرتهم الرامية الى خلع عبد الله بن أبي حمو ، فوافقهم على ذلك ، ونجحت المؤامرة ، وألقي القبض على السلطان الزياني الذي خلع واعتقل بفاس ، وولي مكانه أخوه أبو عبد الله محمد ، المعروف بابن خولة والملقب بالواثق بالله (804 هـ) .

5) إمارة محمد بن خولة وابنه عبد الرحمٰن :

كان عهد محمد بن خولة عهد استقرار وهدوء ، تحت حماية بني مرين ورعايتهم ، وشمل الرخاء البلاد ، الى أن توفي في ذي القعدة سنة 813 هـ . فخلفه ابنه عبد الرحمٰن ، غير أنه لم يبق على العرش إلّا حوالي شهرين .

وذلك أنّ عمّه ، السعيد بن أبي حمو الثاني ، كان قد فر من السجن بفاس ، في تلك الأثناء ، والتف حوله بعض المغضبين والمغامرين ، واحتل تلمسان ، وخلع سلطانها عبد الرحمٰن بن محمد بن خولة (آخر محرم سنة 814 هـ) .

6) إمارة السعيد بن أبي حمو الثاني :

ولم يحسن السعيد التصرف في شؤون الدولة ، بل أسرف في البذل والعطاء ، وبالغ في الانفاق ، وأخذ يبذر الأموال ، الأمر الذي أدّى الى فراغ بيت المال ، واثقال الرعية بالضرائب ، وأغضب الخاصة والعامة . وبلغ سخط الناس الى السلطان أبي العباس المريني ، فأخرج أحد أبناء أبي حمو الثاني ، يدعى أبا مالك عبد الواحد ، من السجن ، وسيّره في عسكره لاحتلال تلمسان ، فاستولى عليها في رجب سنة 814 هـ ، وفرّ السعيد تاركا العرش لأخيه .

7) إمارة عبد الواحد بن أبي حمو الثاني :

وفي عهد أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني ، استرجعت الدولة الزيانية بعض قوتها ورونقها ، وامتد نفوذها الى سائر أنحاء المغرب الأوسط ، بعد أن أخضع هذا السلطان مختلف القبائل لحكمه ، وتحسنت الأحوال لما أبداه من مهارة في تدبير شؤون الدولة ، ورغبة في الحفاظ على علاقات طيبة مع بني مرين . وانتهى عهد التدخلات المرينة الرامية الى ابقاء نفوذهم في المغرب الأوسط . لكن الخطر بدأ يأتي من الشرق ، وذلك أن العلاقات مع الحفصيين دخلت بعد ذلك في فترة تأزم استمرت حوالي ستين سنة ، ونتج عن ذلك امتداد نفوذ مملكة افريقية الى المغرب الأوسط .

الفصل الثالث

إمتداد نفوذ الحفصيين الى المغرب الاوسط

د. عبد الحميد حاجيات

1) حركة أبي فارس الحفصي الى تلمسان :

وذلك أن الاستقرار الذي عرفته الدولة الحفصية منذ عهد السلطان أبي العباس أحمد (772 — 796 هـ) ، جعل السلطان أبا فارس عبد العزيز (796 — 837 هـ) يتربص بالملوك الزيانيين ، وينتظر الفرصة التي تمكّنه من بسط نفوذه على بلاد المغرب الأوسط . وفي سنة 827 هـ ، نهض بجيوشه ، في اتجاه تلمسان ، عازما على احتلالها ، بحجة أن سيرة السلطان الزياني كانت غير محمودة .

وحاول عبد الواحد مقاومة الهجوم الحفصي ، فأرسل ابنه للقاء الحفصيين ، لكنه هزم . وعندئذ قرر عبد الواحد النجاة بنفسه وذويه ، وفرّ الى الجبال ، ثم التجأ الى المغرب الأقصى .

ودخل السلطان الحفصي تلمسان في 13 جمادى الثانية سنة 827 هـ ، فأقام بها سنة ؛ ثم عقد للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين الثاني ، المعروف بابن الحمراء ، على المغرب الأوسط ، ثم توجه الى المغرب الأقصى ، قصد اخضاع سلطانه ؛ ولمّا قرب من فاس مرحلتين ، أرسل اليه أبو العباس المريني هدية سنية ، معلنا الدعوة له والاعتراف بسلطته ، فقبل منه ذلك وعاد الى بلاده .

2) إمارة محمد بن الحمراء :

وحسنت سيرة السلطان أبي عبد الله محمد بن الحمراء ، وأحبّته الرعية . وسرعان ما

قطع الخطبة للسلطان الحفصي ، وخلع طاعته ، فأنهض أبو فارس جيشه ، مرة أخرة ، قصد اثبات سلطته على المغرب الأوسط ، وأرسل صحبته أبا محمد عبد الواحد ، السلطان الزياني السابق ، الذي كان قد انتقل الى تونس ، بعد فشل محاولته استصراخ السلطان المريني ، واتصل بأبي فارس الحفصي ، وطلب مساعدته على استرجاع عرشه .

وخرج محمد بن الحمراء للقاء الجيش الحفصي ، فكان النصر حليف السلطان الزياني ، وعاد الحفصيون الى بلادهم . والتجأ أبو محمد عبد الواحد الى قبائل العرب ، وأتى بها الى تلمسان ، فاقتحمها واستولى عليها ، بعد أن غادرها أميرها ابن الحمراء ، فارّا الى الجبال المجاورة (رجب 831 هـ) .

3 ـــ عودة السلطان عبد الواحد

وعاد السلطان أبو مالك عبد الواحد على عرش تلمسان ، غير أنه تعرض الى منافسة ابن الحمراء ، الذي أخذ يجوب المنطقة الغربية ، ثم الشرقية ، ويتّصل بالقبائل القاطنة بهما ، لجمع ما أمكن من الأنصار والمؤيدين ، قصد استرجاع عرشه . ثم قدم بجماعة من الأتباع الى تلمسان ، فحاصرها ثم احتلها في ليلة 4 ذي القعدة سنة 833 هـ . وفي صباح اليوم التالي ، أتى بعمّه عبد الواحد ، فأمر بقتله .

4) عودة ابن الحمراء :

وما بلغ خبر تملك ابن الحمراء لتلمسان ، ومقتل عبد الواحد ، الى أبي فارس الحفصي ، حتى قرّر النهوض الى تلمسان مرة ثالثة ، للأخذ بثأر حليفه المقتول ، وجهز الجيوش وسار نحو الغرب ، الى أن وصل أمام العاصمة الزيانية ، فحاصرها . ولمّا اشتد الحصار على ابن الحمراء ، غادر المدينة ليلا ، وفرّ الى جبل بني يزناسن (رجب 834 هـ) . فتبعه القائد نبيل ، وحاصر الجبل الى أن أذعن بنو يزناسن للطاعة ، والتزموا تسليم ابن الحمراء . ولما وفد هذا الأخير على أبي فارس الحفصي ، راجيا عفوه ، رحب به ، ثم حمله معه الى تونس ، واعتقله بقصبتها الى أن توفي سنة 840 هـ .

وقبل أن يغادر أبو فارس تلمسان ، عيّن عليها القائد رضوان ، ثم بعد أيام قلائل ، رأى أن يولي على مملكتها الأمير أبا العباس أحمد بن أبي حمو الثاني ، فعقد له عليها .

5) إمارة أحمد العاقل :

وكان أبو العباس أحمد هذا يتصف بخصال حميدة ، من عدل وحسن تدبير ، وعطف على الفقراء ، وتشجيع للعلم والعلماء ، فعرف بالعاقل .

وبعد ثلاث سنوات من بداية حكمه ، تعرضت بلاد إفريقية لغزو النصارى ، الذين استولوا على جربة سنة 837 هـ . فاغتنم أحمد العاقل الفرصة ، وأبطل الدعوة للسلطان الحفصي . فاغتاظ أبو فارس ، ونهض بجيشه قاصدا الاستيلاء على تلمسان . ولمّا بلغ ناحية وانشريس ، مرض فتوفي يوم عيد الأضحى سنة 837 هـ ، فعاد الجيش الى تونس .

وكان عهد أحمد العاقل ، الذي دام 32 سنة ، عهد استقرار نسبي ورخاء . وازدهرت الحياة الفكرية ، وكثر الاقبال على طلب العلم ، وأصلحت أحوال الأوقاف التي كانت تستغل لفائدة المشاريع الدينية والتعليمية والاجتماعية ، وكان قد دثر الكثير منها . وبنى السلطان مدرسة جديدة بزاوية الولي الصالح الحسن بن مخلوف أبركان .

هذا ، وقد تعرض أحمد العاقل الى منافسة أقربائه ، شأنه في ذلك شأن سائر أمراء هذه الدولة في هذه الفترة . فمنهم أخوه أبو يحيى بن أبي حمو الثاني ، الذي ثار عليه سنة 838 هـ ، وملك وهران بعد فشل محاولته في اتجاه تلمسان ، واستمر تملكه لوهران الى سنة 852 هـ ، حيث فتحها جيش أحمد العاقل ، ففر أبو يحيى الى الشرق ، وتوفي بتونس سنة 855 هـ .

وفي سنة 841 هـ ، ثار عليه أبو زيان محمد بن أبي ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني ، بالمنطقة الشرقية ، واحتل مدينة الجزائر ، واستولى ابنه أبو عبد الله محمد المتوكل على الله على متيجة والمدية ومليانة وتنس . ولكن أهل الجزائر غدروا بأبي زيان وقتلوه (843 هـ) .

وفي سنة 850 هـ ، ثار الأمير أحمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني بتلمسان ، واجتمع حوله بعض الأنصار ، ولكن حركتهم فشلت وقتل الأمير الثائر . وعندئذ أمر السلطان أحمد العاقل ببناء السور الشاهق المحيط بقصره وما جاوره .

وفي سنة 866 هـ ، نهض أبو عبد الله محمد المتوكل على الله من مليانة ، وقصد الى تلمسان ، ففتح قلعة بني راشد ومستغانم ووهران ، ثم نزل تلمسان ، ودخلها في غرة جمادى الأولى سنة 866 هـ ، فاستجار أحمد العاقل بقبر الولي الصالح أبي مدين شعيب ، بالعبّاد . ولمّا أتي به الى المتوكل منّ عليه وأجازه الى الأندلس .

6) إمارة محمد المتوكل على الله :

ولمّا بلغ خبر هذه الحوادث السلطان أبا عمرو عثمان الحفصي ، نهض بجيشه قاصدا الى تلمسان . فلمّا قَرُب منها بمسافة مرحلتين ، قدم اليه وفد بعثه السلطان الزياني بعقد يتضمن البيعة لملك تونس ، فأجاب طلبه ، وقفل عائدا الى بلاده (صفر 867 هـ) .

وبعد ذلك ببضعة أشهر ، عاد أحمد العاقل الى المغرب الأوسط ، وكان قد حصل على تأييد بعض الأنصار ، فحاصر تلمسان 14 يوما ولكنه قتل أثناء لقاء حدث بين جيشه وجيش المتوكل (في 13 ذي الحجة سنة 867 هـ) .

وفي أواسط سنة 870 هـ ، وفد جماعة أشياخ بني عامر وسويد وغيرهم على السلطان الحفصي ، وطلبوا منه أن يخلع المتوكل على الله ، لما أبداه من استبداد وسوء سيرة ، وممالأة للدواودة الخارجين عن طاعة سلطان تونس . فأرسل معهم أبا زيان عبد الواحد بن أبي حمو الثاني ، وجهّزه بالعساكر والأخبية والأموال . وبعد أيام ، نهض السلطان الحفصي بجيوشه متوجها الى تلمسان ، فحاصرها ، وضرب سورها بآلات الحرب . وعندئذ أذعن المتوكل للطاعة ، وجدّد البيعة وزوج بنته للأمير الحفصي أبي زكريا بن المسعود ، دون خطبة . ورجع الملك الحفصي الى تونس ، بعد أن تأكد من امتداد نفوذه الى سائر ربوع المغرب الأوسط (9 شعبان 871 هـ) .

وهكذا ، فإن الدولة الزيانية لم تستطع ، طوال ما يقرب من ستين سنة ، أن تتخلص من السيطرة الحفصية ، التي ما فتئت تلعب دورا رئيسيا في تاريخ بني زيان ، أثناء هذه الفترة ، ولم تخفّ وطأتها الا في عهد أحمد العاقل . غير أن هذا التدخل الحفصي كان آخر تدخل لهم في المغرب الأوسط ، إذ أن الدولة الحفصية أصبحت بعد ذلك تواجه هجمات النصارى ، من أسبان وغيرهم ، على شواطىء بلادها ، فشغلهم ذلك عن شؤون المغرب الأوسط .

وبعد ذلك بقليل ، توفي المتوكل على الله الزياني (سنة 873 هـ) ، فخلفه ابنه أبو تاشفين ، ولكنه خلع من طرف أخيه أبي عبد الله محمد الثابتي ، بعد حوالي 40 يوما . وفي أيام محمد الثابتي ظهر خطر هجمات النصارى على بلاد المغرب كلها ، فأصبح الشغل الشاغل بالنسبة لدوله الثلاث .

الفصـل الرابع

الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان

د. عبد الحميد حاجيات

لقد دخل المغرب الأوسط ، بتأسيس الدولة الزيانية ، عهدا حافلا بالأمجاد في المجالات الحضارية ، وخاصة في المجال الفكري . وقد تظافرت عوامل عديدة ، أدّت الى ازدهار الحياة الفكرية ، منها ما أبداه ملوك بني زيان من تشجيع للعلم والعلماء ، طيلة ما يزيد على ثلاثة قرون ، والمنافسة التي كانت قائمة بين ملوك المغرب الاسلامي في مجال العلوم والآداب ، وعنايتهم بإنشاء المؤسسات العلمية واستدعاء أشهر العلماء للتدريس فيها ، وكذلك تفاقم الوضع في الأندلس ، ممّا أدّى الى توافد علمائها على القطر الجزائري ، واستقر الكثير منهم بتلمسان وبجاية وغيرهما من المدن . أضف الى ذلك أن الدعوة الموحدية كانت تحمل في طياتها بذور نهضة علمية حقيقية ، لما بذله أصحابها وأمراؤها من جهود كبرى ، من أجل نشر تعاليم الاسلام في سائر الأنحاء ، وفي القرى والبوادي وبين الفئات الشعبية ؛ وقد صحب تلك انتشار الاسلام في سائر الأماكن ، من جهة ، وتعميق الشعور الديني وإصلاحه من جهة أخرى .

وما انتهى القرن السابع الهجري ، حتى بدأت تلك البذور تنبت أزهارا يانعة . فنشأ جيل علماء جلّة ، خلفته أجيال من فطاحل رجال العلم ، يمكن للجزائر أن تفتخر بهم ، ينبغي على أبنائها اليوم أن يبذلوا عناية خاصة بإحياء تراثهم الفكري والتنقيب عنه ونشره .

لقد كان التعليم منتشرا في شتّى مدن الدولة الزيانية ومعظم قراها ؛ وكان ينحصر ، في مرحلة أولى ، في تعلّم الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن ، وذلك في الكتاتيب والمساجد ، ثم ، في مرحلة ثانية ، كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو واللغة والأدب والفقه ، فينالون بضاعة

وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافي لائق ، ومن معرفة تعاليم دينهم ، والالمام بالعلوم اللسانية . ثم كان الذين يريدون مواصلة دراستهم والتخلص في العلوم ، ينتقلون الى المرحلة الأخيرة ، فيدرسون العلوم الدينية ، من قراءات وتفسير وحديث وفقه وتوحيد ، والعلوم العقلية والاجتماعية والأدب ، وغير ذلك ، بمزيد من التعمق والتفصيل ، وذلك في المساجد الكبرى ، مثل المسجد الأعظم بتلمسان ، الذي كان شبه جامعة على النمط القديم ، مثل جامع القرويين ، بفاس ، والزيتونة بتونس ، والأزهر بالقاهرة .

وفي عهد بني زيان أسست مدارس تلمسان الخمس . فكانت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الاطارات في شتى المجالات ، على غرار المدارس المنظامية التي أنشئت في المشرق ، وما تمّ تشييده بعدها في سائر أنحاء العالم الاسلامي .

وأول مدرسة أسست بتلمسان هي التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول (707 — 718 هـ) في أول عهده ، وعيّن للتدريس فيها الأخوين ابني الامام . ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول (718 — 737 هـ) المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم ، فكانت تحفة فنية رائعة ، ولم تزل أفخم مدرسة في المغرب الأوسط الى عهد الاحتلال الفرنسي للقطر الجزائري . وقد قامت السلطات الاستعمارية ، منذ حوالي قرن بهدمها ، وبناء دار البلدية مكانها .

ثم شيّدت ، أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط ، مدرسة بقرية العبّاد ، خارج تلمسان ، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المزيني سنة 748 هـ ، كما أنشأ ابنه عنان مدرسة أخرى بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي ، الملقب بالحلوي ، سنة 754 هـ .

أما المدرسة الخامسة ، فهي المدرسة اليعقوبية ، أسسها أبو حمو موسى الثاني (760 — 791 هـ) ، سنة 765 هـ ، بجانب الضريح الذي أقيم على قبور أبيه ، أبي يعقوب يوسف ، وعمّيه ، أبي سعيد عثمان وأبي ثابت ، والذي دفن فيه بعد ذلك العالم الصالح إبراهيم المصمودي ، المتوفى سنة 804 هـ . ومن سوء الحظ أن هذه المدرسة قد اندثرت ، وكذلك المدارس الأخرى ، ما عدا مدرسة العبّاد ، التي لا تزال قائمة .

وكان الملوك الزيانيون يولون هذه المدارس عناية خاصة ، ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والموظفين بها .

أما طريقة التعليم الجاري بها العمل آنذاك ، فكانت طريقة الالقاء والشرح ، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور في المادة المدروسة ، ويتولى الأستاذ شرحه فقرة بعد فقرة ، حسب ما يتيسّر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه ، والطلبة يقيدون في كراريسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة .

ومن جهة أخرى ، فقد بقيت العلوم الدينية تحتل الصدارة ، غير أن معظم العلماء كانوا يعنون ، الى جانب ذلك ، بكثير من العلوم الأخرى ، من لغة ونحو وبلاغة ومنطق وتاريخ وطب وحساب وتنجيم وغير ذلك ، ويؤلفون فيها كتبا عديدة . فاتسعت دائرة العلوم بالنسبة للطلبة ، وكثرت مشاركة العلماء في علوم مختلفة ، بالاضافة الى تخصصهم في أحد المجالات العلمية أو أكثر .

وكذلك انتشرت ظاهرة تأليف المختصرات ونظم القصائد في شتى العلوم ، لتسهيل تلقينها . وذلك أن كثرة العلوم ووفرة التآليف وضخامة حجم العديد منها ، قد جعلت الطلبة لا يقدرون على استيعابها جميعا ، وأصبح الكثير منهم يكتفون بحفظ المختصرات ، ويستعينون بما ألف من الشروح عليها لايضاح ما جاء غامضا فيها .

وقد أبدى بعض علماء هذه الفترة ، مثل الآبلي وعبد الرحمٰن بن خلدون ، تحفّظهم في شأن هذا الاتجاه ، واعتبروا أن تأليف المختصرات والاعتماد عليها في التدريس ، آفة كبرى ، إذ أن ذلك يمنع من تعميق الدراسة ، ويؤدي الى معرفة سطحية ، والى الجمود في مجال البحث .

1) العلوم الدينيــة :

لقد ازدهرت العلوم الدينية ، بالمغرب الأوسط طيلة عهد بني زيان ، وكثر الاقبال عليها ، ولا سيما أنها كانت تمكن الطلبة من الحصول على وظائف هامة ، في القضاء وفي الدواوين الادارية ، وغير ذلك من المناصب التي كان يتهافت عليها الناس . ومن أشهر علماء هذا العهد في هذا المجال :

ـ أبو إسحاق التنسي : (توفي سنة 680 هـ) إبراهيم بن يخلف ، نشأ بتنس وتوجه الى بجاية لطلب العلم ، ثم رحل الى المشرق ، فأخذ عن كثير من العلماء الجلّة ، أمثال العراقي وبن دقيق العيد وشمس الدين الأصبهاني ، وبرع في العلوم الدينية ، ثم عاد الى مسقط رأسه . ولما استولى يغمراسن بن زيان على تنس ، استقدمه الى تلمسان وطلب منه أن يقيم بها لتدريس العلوم الدينية . فأخذ عنه كثيرون ، ومن تلاميذه أبو عبد الله بن مرزوق ، جدّ جدّ ، وأبو عبد الله بن الحاج العبدري ، صاحب المدخل . وأشهر تآليفه شرح كتاب تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى لأبي محمد عبد الوهاب المالكي ، في الفروع ، في عشرة أجزاء ، وقد ضاع أثناء الحصار الطويل . وتوفي أبو إسحاق التنسي سنة 680 هـ بتلمسان .

ـ أبو عبد الله بن مرزوق : (توفي سنة 681 هـ) محمد بن أبي بكر ، نشأ بتلمسان ، وأخذ عن أبي زكرياء بن عصفور وأبي إسحاق التنسي وغيرهما . ومال الى الزهد

والتبتّل ، فاشتهر بين العبّاد الصالحين . وعندما توفي ، في أوائل رجب 681 هـ ، دفن بدار الراحة من الجامع الأعظم ، ثم ، لما توفي الأمير يغمراسن بن زيان ، دفن بإزارئه ، تبركا بجواره .

ـــ **أبو إسحاق التلمساني** : (توفي سنة 690 هـ) إبراهيم بن محمد بن خلف ، ولد بتلمسان سنة 609 هـ ، ونشأ بها ودرس على علمائها ، ثم رحل لطلب العلم ، واستقرّ بسبتة ، وبها توفي سنة 690 هـ . وأبو إسحاق هذا هو العالم الفرضيّ المشهور بأرجوزته في الفرائض ، التي ألفها سنة 630 هـ ، وعمره لا يتجاوز 21 سنة .

ـــ **أبو الحسن التنسي** : (توفي سنة 706 هـ) ، أخو أبي إسحاق . قام بالتدريس بعد وفاة أخيه ، ونال حظوة عند يغمراسن بن زيان ، ثم عند أبي سعيد الأول . ومن تلاميذه أبو عبد الله الآبلي . ولما حاصر أبو يعقوب المريني تلمسان ، خرج اليه أبو الحسن التنسي والتحق به ، فاستقبله السلطان المريني بحفاوة وإكرام ، ومكث في بلاطه الى أن توفي ، قبيل انتهاء الحصار سنة 706 هـ ، وشهد السلطان أبو يعقوب جنازته بضريح الولي أبي مدين شعيب ، ولم يشهد جنازة أحد قبله .

ـــ **أبو زيد بن الامام** : (توفي سنة 743 هـ) ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، أكبر الأخوين ابني الامام . وأصلهما من برشك ، رحلا الى تونس لطلب العلم حوالي سنة 700 هـ . فدرسا العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون ، وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي ، ثم عادا الى المغرب الأوسط ، وانتحلا مهنة التدريس بالجزائر ، ثم بمليانة ، حيث اتصلا بأحد عمّال بني مرين عليها ، يدعى الكناني ، وذلك أيام الحصار الطويل . ثم ، عند انصراف بني مرين الى بلادهم عقب مقتل السلطان أبي يعقوب ، قدما الى تلمسان مع الكناني ، فقدّمهما الى أبي حمو موسى الأول ، وأثنى عليهما ، فبنى لهما المدرسة المعروفة باسمهما ، وأقاما يدرسان بها الى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان ، سنة 737 هـ ، فصحباه وحضرا معه معركة طريف ، بالأندلس ، ثم عادا معه الى تلمسان وتوفي أبو زيد بها ، بعد ذلك بقليل سنة 743 هـ . وكان لأبي زيد بن الامام منزلة سامية عند أمراء بني زيان وعند أبي الحسن المريني ، فحظي برئاسة العلماء في مجلسهم ، وأخذ عنه الكثير من العلماء المشهورين ، أمثال الآبلي والمقري الكبير ، وأبي عبد الله الشريف ، وسعيد العقباني وابن مرزوق الجدّ ، وغيرهم . ومن تآليفه ، شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع .

ـــ **شرف الدين الزواوي** : (توفي سنة 743 هـ) ، عيسى بن مسعود المنكلاتي ، فقيه محدث ، أخذ عن علماء بجاية ، ثم رحل الى المشرق ، لطلب العلم ، فأخذ عن علماء الاسكندرية ، ثم انتقل الى قابس ، فولي قضاءها مدة ، ثم رحل الى القاهرة ودرّس بالأزهر . ثم توجّه الى دمشق سنة 707هـ وشغل منصبا في القضاء وفي سنة 709 هـ ، عاد الى مصر ، حيث ناب في القضاء ودرّس الفقه بزاوية المالكية في القاهرة ، وتوفي بها . ألف شرحا

على صحيح مسلم في 12 جزء ، سماه «إكمال الاكمال» ، وشرحا على المدوّنة ، وشرحا على جامع الأمهات لابن الحاجب ، في 7 أجزاء ، ومناقب الامام مالت ، وكتابا في الوثائق ، وكتابا في المناسك .

— أبو عبد الله التميمي : (توفي سنة 745 هـ) محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو ، فقيه ، ينتمي الى أسرة عريقة من أسر تونس . أخذ بتونس عن أبي الطاهر بن سرور وغيره ، ثم قدم تلمسان ، وعيّن بها قاضيا ، ودرّس العلوم الدينية . وروى عنه أبو عبد الله الشريف والمقري الكبير وغيرهما . ومن تآليفه ، ترتيب كتاب اللخمي على المدونة .

— أبو موسى عيسى بن الامام : (توفي سنة 749 هـ) ، وقد تقدم ذكر نشأته واستقراره بتلمسان ، ثم التحاقه ببلاط أبي الحسن المريني . وبعد وفاة أخيه أبي زيد ، كانت له الصدارة بين العلماء في مجلس السلطان . ثم صحبه الى تونس ، وأذن له أبو الحسن في الرجوع الى تلمسان حين انتشار الطاعون بإفريقية . ولكنه توفي بعد عودته بقليل سنة 749 هـ . وكان يميل أيضا الى الاشتغال بالتعاليم ، أي العلوم الطبية والكونية . وتخرّج عنه الكثير من العلماء ، أشهرهم الآبلي .

— ابن قنفذ الخطيب : (توفي سنة 750 هـ) حسن بن علي القسنطيني ، وهو والد ابن قنفذ ، صاحب الفارسية وغيره من التآليف . أخذ عن علماء بجاية ، ثم رحل الى المشرق لطلب العلم ، وزار الحجاز قبل سنة 745 هـ . ألف المسائل المسطرة في النوازل الفقهية ، وكتاب المسنون في أحكام الطاعون ، تحدث فيه عن هذا الوباء وما يتعلق به من أكحام شرعية وأحاديث ونكت .

— أبو عبد الله المقّري : (توفي سنة 759 هـ) ، محمد بن محمد . ولد بتلمسان في عهد أبي حمو الأول ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها . ولما احتلها أبو الحسن المريني ، سنة 737 هـ ، قدم معه علماء فاس ، فدرس عليهم المقري ، واستفاد من عبد المهيمن الحضرمي في الحديث والعربية ، ومن السّطّي في الفقه والفرائض ، ومن الآبلي في التعاليم ، وغيرهم . ثم رحل الى بجاية وتونس لطلب العلم ، ثم عاد الى تلمسان . وما لبث أن غادرها مرة أخرى في اتجاه فاس ، فأخذ عن كثير من علمائها . ثم عاد الى تلمسان ؛ وبعد مدة ، رحل الى المشرق فلقي أشهر علماء مصر والحجاز والشام . ثم عاد الى المغرب ونزل بسجلماسة بدرعو ، ثم أجاز الى الأندلس ، فأقام مدة بغرناطة . ثم رجع الى تلمسان ، وصحب أبا عنان الى فاس سنة 749 هـ ، فولي القضاء بها ودرس بها ، وتوفي بها سنة 759 هـ ، فحمل الى تلمسان ودفن بها . ومن أشهر تلامذته لسان الدين بن الخطيب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، والشاطبي ، وابن زمرك . وله بعض التآليف ، منها كتاب الحقائق والرقائق في التصوف ، وكتاب المحاضرات ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب القواعد .

ـــ **ابن إدريس البجائي** : (توفي بعد سنة 760 هـ) ، أبو العباس أحمد ، فقيه من كبار علماء بجاية . ألف شرحا على ابن الحاجب في الفروع ، نقل عنه ابن عرفة وابن زاغو وغيرهما .

ـــ **أبو عبد الله الشريف التلمساني** : (توفي سنة 771 هـ) ، محمد بن أحمد ، ولد بتلمسان سنة 710 هـ ، ونشأ بها وأخذ عن علمائها . ثم رحل الى فاس ، فأخذ عن الآبلي وغيره ، ثم عاد الى موطنه ، ومارس مدة مهنة التعليم . ثم رحل الى تونس سنة 740 هـ ، ولازم ابن عبد السلام ، ثم رجع الى تلمسان . ولما استولى عليها أبو عنان المريني ، ألحقه بمجلسه العلمي وأخذه معه الى فاس . ولم يعد أبو عبد الله الشريف الى مسقط رأسه إلّا بعد سنوات ، في بداية إمارة أبي حمو موسى الثاني ، فانقطع للتعليم بالمدرسة اليعقوبية ، الى أن توفي سنة 771 هـ . ومن تآليفه : مفتاح الوصول في علم الأصول .

ـــ **ابن مرزوق الخطيب** : (توفي سنة 781 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التلمساني ، ولد بتلمسان ونشأ بها ، ورحل الى المشرق لطلب العلم ، ثم عاد الى بلاده سنة 733 هـ ، فوجد أبا الحسن المريني محاصرا تلمسان ، فالتحق ببلاطه وحظي عنده ، وصحبه في سائر تنقلاته . وفي سنة 752 هـ ، أجاز الى الأندلس ، فأسندت اليه الخطابة في جامع الحمراء بغرناطة الى سنة 754 هـ ، ثم عاد الى موطنه ، واتصل بالسلطان أبي عنان المريني ، ومكث في بلاطه . وفي أيام أبي سالم المريني ، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب ، وأصبح زمام الأمر في الدولة المرينية بيده ؛ ولما ثار الوزير عمر بن عبد الله ضد أبي سالم وأطاح بملكه وقتله ، أمر بسجن ابن مرزوق آخر سنة 762 هـ ، وسعى حسّاده من كبار الدولة في قتله ، فلم يسعفهم عمر بن عبد الله في ذلك ، وأطلق سراحه . ثم توجه ابن مرزوق الى تونس ، واستقر بها سنة 766 هـ ، فولاه السلطان أبو اسحاق الحفصي الخطابة بجامع الموحدين والتدريس ببعض المدارس . وأقام هناك الى عهد أبي العباس الحفصي (سنة 772 هـ) ، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها الى إقبال هذا الأخير ، في عهد أبي سالم ، على منافسه أبي عبد الله الحفصي ، وتفضيله عليه ، فأقصاه من بلاطه ، وسمح له بالرحلة الى المشرق ، فحلّ بالاسكندرية ، ثم القاهرة ، واتصل بالسلطان الأشرف ، فأكرم مثواه بمجلسه ، وولّاه التدريس وقضاء المالكية ، وأقام ابن مرزوق بالقاهرة الى أن توفي بها في ربيع الأول سنة 781 هـ . ومن تآليفه شرح على ابن الحاجب الفرعي ، عنوانه إزالة الحاجب على فروع ابن الحاجب ، وشرح على عمدة الأحكام ، وشرح على الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي ، وشرح البردة . واشتهر من مؤلفاته كتاب المسند الصحيح الحسن في أخبار المولى أبي الحسن ، الذي يشتمل على عرض مفصّل لحياة أبي الحسن المريني ، وإنجازاته العمرانية ، وتشجيعه للعلماء والأدباء ، وغير ذلك .

ـ **أبو زيد الوغليسي** : (توفي سنة 786 هـ) ، عبد الرحمن بن أحمد البجائي ، فقيه أصولي ، نشأ في بجاية ، وولي بها الفتيا ، وأخذ عنه كثير من علمائها . وألف الجامعة في الأحكام الفقهية في الفروع ، وتسمّى الوغليسية . وله أيضا : المقدمة وفتاوي .

ـ **سعيد العقباني** : (توفي سنة 811 هـ) ، أبو عثمان بن محمد بن محمد ، ولد بتلمسان سنة 720 هـ ، وأخذ العلم بها ، ونبغ في علوم كثيرة من معقول ومنقول ، وولي القضاء ببجاية أيام أبي عنان المريني ، ثم نقل الى قضاء مراكش وسلا . ثم عاد الى المغرب الأوسط ، فولي قضاء وهران وهنين وتلمسان . ومكث في القضاء ما ينيف على أربعين سنة . وأخذ عنه ابن مرزوق الحفيد ، وابراهيم المصمودي وابن زاغو وغيرهم . ومن تصانيفه : تفسير سورتي الفتح والأنعام ، وكتاب الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته ، وشرح العقيدة البرهانية ، ولباب اللباب في مناظرة القباب ، وشرح على ابن الحاجب الأصلي ، وشرح على الحوفي ، في الفرائض ، وشرح البردة ، وشرح قصيدة ابن الياسمين في الجبر .

ـ **ابن مرزوق الحفيد** : (توفي سنة 842 هـ) ، أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد ، ولد بتلمسان سنة 766 هـ ، وأخذ عن جماعة من علمائها ، ثم رحل الى فاس وتونس ، لطلب العلم ، ثم توجه الى الحجاز ، ثم الى مصر ، فأخذ عن كبار علماء عصره ، وتضلع في سائر العلوم النقلية والعقلية ، وذاع صيته ، وعاد الى تلمسان ، فأخذ عنه كثير من رجال العلم ، ورحل اليه الطلبة من مختلف الأنحاء ، مثل عبد الرحمٰن الثعالبي ، والقاضي عمر القلشاني ، وأحمد بن يونس القسنطيني ، وغيرهم . ومن تآليفه : تفسير سورة الاخلاص (على طريقة الحكماء) ، ونور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين ، وأرجوزة الروضة في الحديث ، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (ابن عقيبة) ، والمعراج في استمطار فوائد الأستاذ السرّاج ، والنصح الخالص في الرد على مدّعي رتبة الكامل الناقص ، وأنوار الدراري في مكررات البخاري ، والروض البهيج في مسائل الخليج ، وإسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم ، ومختصر الحاوي في الفتاوي (لابن عبد النور التونسي) ، وثلاثة شروح على البردة ، الأكبر والأوسط والأصغر ، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية ، والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية ، ونهاية الأمل في شرح كتاب الجمل (اللخونجي) ، الخ ...

ـ **أبو العباس بن زاغو** : (توفي سنة 845 هـ) ، أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن المغراوي التلمساني ، أخذ عن سعيد العقباني وغيره ، وانقطع لتدريس العلوم واللغة والبلاغة والرياضيات ، بالمدرسة اليعقوبية . ومن أشهر تلاميذه أبو زكرياء المازوني ، وأبو الحسن القلصادي ، والحافظ التنسي ، وابن زكري ، وله : تفسير الفاتحة وشرح التلمسانية في الفرائض ، وفتاوي عديدة أوردها المازوني والونشريسي .

ـ **أبو عمران المازوني** : (توفي في أواسط القرن التاسع الهجري) ، موسى بن يحيى بن عيسى . نشأ بمازونة ، وأخذ عن كثير من علماء عصره ، وكان قاضيا . ألّف الرائق في تدريب الناشىء من القضاة وأهل الوثائق ، وحلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه ، وديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار . وهو والد أبي زكرياء المازوني صاحب الدرر المكنونة .

ـ **قاسم بن سعيد العقباني** : (توفي سنة 854 هـ) ، أخذ عن والده وغيره ، فحذف العلوم الدينية ، وولي [illegible] بتلمسان ، وتخرج على يده كثير من العلماء ، منهم حفيده محمد بن أ[illegible] العقباني ، وأبو عبد الله بن العباس التلمساني ، وأبو زكرياء المازوني ، وأبو [illegible] الونشريسي ، والحافظ التنسي ، وابن زكري . وألّف ، تعليقا على مختصر ابن الحاجب الفرعي ، وأرجوزة في التصوف .

ـ **أبو إسحاق الزواوي القسنطيني** : (توفي سنة 857 هـ) ، إبراهيم بن فائد بن موسى ، ولد بجبل جرجرة ورحل لطلب العلم الى بجاية وتونس وقسنطينة . وبها استقر . ومن تآليفه : تفسير القرآن ، وتسهيل السبيل لمقتطف أزهار روض خليل ، وفيض النيل في شرح مختصر خليل ، وتحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن اسحاق ، وتلخيص التلخيص (شرح تلخيص المفتاح) ، وشرح ألفية ابن مالك .

ـ **محمد بن أحمد بن قاسم العقباني** : (توفي سنة 871 هـ) . أخذ عن جدّه قاسم وغيره . وكان فقيها عارفا بالنوافل ، وولي قضاء الجماعة بتلمسان . وله : تحفة الناظر وغنية الذاكر ، في الحسبة .

ـ **عبد الرحمن الثعالبي** : (توفي سنة 875 هـ) ، أبو زيد بن محمد بن مخلوف . ولد بناحية وادي يسر جنوب شرقي مدينة الجزائر ، ورحل لطلب العلم الى بجاية وتونس ومصر والحجاز وغيرها من الأنحاء . ثم عاد الى الجزائر ، فولي القضاء من دون رغبة منه ، ثم استقال من منصبه وانقطع للتدريس والتأليف . ومن أهم مؤلفاته : الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، والذهب الابريز في غريب القرآن العزيز ، وتحفة الاخوان في اعراب بعض آي من القرآن ، والدرر اللوامع في قراءة نافع ، والمختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع ، والأنوار المضيئة ، وجامع الخيرات ، وكتاب الأنوار في آيات النبي المختار ، وجامع الأمهات في أحكام العبادات ، وروضة الأنوار ونزهة الأخيار (في الفقه) ، ونور الأنوار ومصباح الظلام ، وكتاب الارشاد ، وشرح على مختصر خليل ورياض الصالحين ، والارشاد في مصالح العباد ، والعلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة ، وارشاد السالك ، والأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة ، والتقاط الدرر ، والدر الفائق في الأذكار والدعوات ، ورياض الأنس ، وكتاب النصائح وجامع الفوائد ، وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي ، وقطب العارفين (في التصوف) ، وجامع الهمم في أخبار الأمم ، الخ ...

ـ **أبو زكرياء المازوني** : (توفي سنة 883 هـ) ، يحيى بن موسى . نشأ بمازونة ، وأخذ عن والده وابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وغيرهم ، وولي قضاء مازونة . وتوفي سنة 883 هـ ، بتلمسان . وأشهر بكتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه كثيرا من فتاوي علماء المغرب المتأخرين .

ـ **أبو العباس الجزائري** : (توفي سنة 884 هـ) ، شهاب الدين أحمد بن عبد الله الزواوي ، أصله من زواوة ، وسكن مدينة الجزائر ، وبها توفي سنة 884 هـ . ألّف : القصيد في علم التوحيد ، ومنظومة كفاية المريد (في علم الكلام) ، وقد شرحها الامام السنوسي .

ـ **محمد بن يوسف السنوسي** : (توفي سنة 895 هـ) . من أكابر علماء عصره . ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ بها عن أشهر علمائها ، وتفوّق في مختلف العلوم ، من معقول ومنقول ، وبرع بشكل خاص في المجال الاعتقادي ، فألّف فيه كتبا عديدة ، اشتهرت في سائر أنحاء العالم الاسلامي . ومن أهم تصانيفه : عقيدة التوحيد الكبرى ، وشرحها ، والعقيدة الوسطى ، وشرحها ، والعقيدة الصغرى ، وشرحها ، والعقيدة المختصرة ، وشرحها ، والمقدّمات المبيِّنة للعقيدة الصغرى ، وشرح جواهر العلوم للعضد ، ومختصر حاشية التفتازاني على الكشلف ، وتفسير سورة «صٓ» وما بعدها من السور ، وشرح صحيح البخاري ، ومختصر في القراءات السبع ، وشرح إيساغوجي ، ومختصر علي الخونجي ، وشرح قصيدة الحبّاك في الاسطرلاب ، وشرح مقدمة الجبر والمقابلة لابن الياسمين ، الخ ....

ـ **أبو العباس بن زكري التلمساني** : (توفي سنة 899 أو 900 هـ) ، أحمد بن محمد ، أخذ عن ابن زاغو ، وأبي عبد الله بن العباس وغيرهما ، وبرع في سائر العلوم الدينية . وأخذ عنه أحمد زروق الفاسي ، ومحمد بن مرزوق ، حفيد الحفيد ، وأحمد بن الحاج البيدري ، وغيرهم . وله : بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب ، وأرجوزة في علم الكلام ، وغاية المرام في شرح مقدمة الامام ، وهو شرح الورقات للجويني في الأصول .

ـ **محمد بن عبد الكريم المغيلي** : (توفي سنة 909 هـ) ، أبو عبد الله ، نشأ بتلمسان ، ودرس بها . ثم غادرها ، واستقر مدة بناحية توات . واشتهر بفتواه في قضية يهود توات ، وما اتسم به موقفه فيها من صرامة وشدة وتمسك بالدفاع عن الاسلام . وألّف : تفسير الفاتحة ، والبدر المنير في علوم التفسير ، ومفتاح النظر ، في الحديث ، ومغني النبيل (شرح مختصر خليل) ، وتنبيه الغافلين عن مكر الملبسين ، ومصباح الأرواح في أصول الفلاح (وهي رسالته حول قضية يهود توات) ، وشرح جمل الخونجي ، الخ ... وتوفي سنة 909 هـ بناحية توات .

ـــ **الحوضي التلمساني** : (توفي سنة 910 هـ) ، محمد بن عبد الرحمن ، عالم وشاعر ، ألف منظومة في العقائد ، وشرحها الامام السنوسي .

ـــ **أبو العباس الونشريسي** : (توفي سنة 914 هـ) ، أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد التلمساني ، نشأ بتلمسان وأخذ عن علمائها . وغادرها سنة 874 هـ ، فاستقر بفاس ، ودرّس فيها الى أن توفي سنة 914 هـ ، وعمره 80 سنة . ألّف كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، وإيضاح المسالك الى قواعد الامام مالك ، وغنية المعاصر والتالي في شرح وثائق القشتالي ، والفائق في أحكام الوثائق ، الخ ...

ـــ **شقرون المغراوي** : (توفي سنة 929 هـ) ، أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة ، له : تقييد على مورد الضمآن ، في القراءات ، والجيش الكمين في الكر على من يكفر عوام المسلمين .

ـــ **أحمد بن الحاج البيدري** : (توفي حوالي سنة 930 هـ) ، أخذ عن ابن زكري ، والحافظ التنسي ، والامام السنوسي . واشتغل بالتدريس والتأليف . له : نظم عقيدة السنوسي الصغرى ، وشرح سينية ابن باديس ، وشرح البردة ، الخ .....

ـــ **أحمد بن أبي جمعة الوهراني** : (توفي حوالي سنة 930 هـ) ، من علماء أوائل القرن العاشر الهجري وفقهائه . ألّف : جامع جوامع الاختصاص والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان .

2 ـــ العلوم اللسانيـة :

وفي مجال العلوم اللسانية ، فقد حظيت الدراسات اللغوية وما يتفرع عنها من العلوم والآداب ، بإقبال كبير من طرف طلبة العلم بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان ، حيث نبغ كثير من الكتّاب والشعراء . واهتمّ أيضا علماء الدين باللغة والبلاغة وغيرهما من العلوم ، لما لها من اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث . ومن أبرز العلماء في هذا المجال :

ـــ **أبو عبد الله التميمي القلعي** : (توفي سنة 673 هـ) ، محمد بن الحسن بن علي بن ميمون . أصله من قلعة بني حماد ، ونشأ بمدينة الجزائر ، فأخذ العلم بها ، ثم رحل الى بجاية ، واستقر بها . وبرع في العلوم اللسانسة . ومن تلامذته أبو العباس الغبريني . ومن تآليفه : الموضح في علم النحو ، وحدق العيون في تنقيح القانون ، ونشر الخفي في مشكلات كتاب الايضاح لأبي علي الفارسي .

ـ **ابن العطار الجزائري** : (توفي بعد سنة 707 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ولد بالجزائر ، ونشأ بها ، ونبغ في الفقه والأدب ، وولي القضاء بها . وله شعر في مدح الرسول ، ورد في تأليفين هما : نظم الدرر في مدح سيد البشر ، والمورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين .

ـ **ابن خميس التلمساني** : (توفي سنة 708 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن عمر . ولد بتلمسان سنة 650 هـ ، ودرس على علمائها . وأشرف على ديوان الانشاء أيام السلطان أبي سعيد الأول ، ثم غادر تلمسان أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة ، ثم رحل الى غرناطة في أواخر سنة 703 هـ ، فأقام بها في خدمة الوزير ابن حكيم الى أن توفي سنة 708 هـ . وابن خميس شاعر مطبوع من أعلى طراز . وقد أثنى عليه العبدري في رحلته ، وذكر بعض قصائده وكذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد ، ووصفه هذا الأخير بأنه « شاعر المائة السابعة » ومن نظمه في اعتنائه بالفلسفة والتصوف ، قوله :

أنا من بقيـة معشر عركتهم ... هذي النوى عرك الرحى بثفالها
كرم بها فئة أريق نجيعها ... بغيا فراق العين حسن مآلها
حلّت مدامة وصلها وجلّت لهم ... فإن انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس ، غاية ما نالها ... أحد ، وناء لها لبعد منالها
وعدت على سقراط سورة كأنها ... فهريق ما في الدن من جريالها
وسرت الى فاراب منها نفحة ... قدسية جاءت بنخبة آلها
يصوغ من ألحانه في حانها ... ما سوّغ القسيس من أرمالها
وتغلغلت في سهر ود فأسهرت ... عينا يؤرقها طروق خيالها
فحيا شهاب الدين لما أشرقت ... وخوى فلم يثبت لنور جلالها
ما جنّ مثل جنونه أحد ولا ... سمحت يد بيضاء بمثل نوالها
وبدت على الشوذي منها نشوة ... ما لاح منها غير لمعة آلها
ظلت حقيقتها وحالت حاله ... فيما يعبر عن حقيقة حالها
هذي صبابتكم ترق صبابة ... فيروق شاربها صفاء* زلالها

ـ **أبو عبد الله بن هدية** : (توفي سنة 735 هـ) ، محمد بن منصور القرشي التلمساني ، من نسل عقبة بن نافع . كان كاتبا أديبا فقيها مؤرخا ذا بصر بالوثائق ، أنشأ ديوان الرسائل بتلمسان في عهد أبي حمو الأول . وله : شرح على قصيدة لابن جميس ، وتاريخ تلمسان .

ـ **أبو عبد الله محمد بن البنّاء التلمساني** : (عاش في أواسط القرن الثامن الهجري) . كان فقيها أديبا شاعرا ظريفا . ذكر له يحيى بن خلدون موشحه مطلعها :

من أطلـــع فوق مائس الريحـــــان بدر الأفـــــــــــــــــــــق
يهتــز منعمـــا علـــى كثبـــان تحت الـــــــــــــــــغسق

وتاريخ وفاته مجهول .

ــ **أحمد بن العباس النقاوسي** : (توفي بعد سنة 765 هـ) . أخذ العلم ببجاية وتلمسان وتونس ، واستقر بها ، واشتغل بالتدريس . وله : الروض الأريض في علم القريض ، وحديقة الناظر في تلخيص المثل السائر ، في البيان ، وشرح المصباح (لابن مالك) ، وإيضاح السبيل الى القصد الجليل في علم الخليل ، وهو شرح على عروض ابن الحاجب .

ــ **أبو عبد الله التلالسي** : (توفي في أوائل القرن التاسع الهجري) ، محمد بن أبي جمعة بن علي ، من أهل تلمسان . كان طبيب السلطان أبي حمو الثاني ، وشاعرا بارزا من شعراء بلاطه . نظم قصائد عديدة في مدح السلطان ، وكان يجيد التوشيح . فمن نظمه موشحة مطلعها :

يا ويح صب بان عنـــه الشبـــاب وأودع
لهـــــيب وجــــــد عندمـــــا ودعوا

وموشحة أخرى مطلعها :

لي مدمـــــــع هتــــــــان ينهــــــــل مثــــل الــــــدرر
قد صيـــــــر الأجفـــــــان ما إن لهــــا من أثـــــــر

ــ **أبو عبد الله الثغري** : (توفي في أوائل القرن التاسع التاسع الهجري) ، محمد بن يوسف القيسي ، ولد ونشأ بتلمسان ، ونبغ في فنون الأدب ، فنظم القصائد الغراء ، وكان يلقيها في الحفلات الدينية التي كان يقيمها أبو حمو موسى الثاني في قصره للاحتفال بالمولد الشريف ، وفي غير ذلك من المناسبات . وكان من جملة كتّاب الدواوين ، يشغل منصب شاهد في بيت المال . ومدح أبا حمو الثاني ، وابنيه أبا تاشفين (791 ــ 795 هـ) ، وأبا زيان (796 ــ 901 هـ) .

ــ **شرف الدين العجيسي** : (توفي سنة 862 هـ) ، يحيى بن عبد الرحمٰن ، نشأ ببجاية ، وتعلم بها ، ثم رحل لطلب العلم الى تونس ، ثم الى مصر ، واستقر بالقاهرة ، ودرّس بها الى أن توفي سنة 862 هـ . له : التذكرة ، وشرحان على الألفية ، أحدهما نثر والآخر نظم .

ــ **أبو عبد الله بن العباس التلمساني** : (توفي سنة 871 هـ) ، محمد بن العباس العبّادي ، من أشهر علماء تلمسان في زمانه ، ولي الافتاء بها . وتوفي سنة 871 هـ

بالطاعون ، ودفن بالعبّاد . ألّف : تحقيق المقال وتسهيل المنال ، في شرح لامية الأفعال ، والعروة الوثقى في تنزيه الأنبياء عن فرية الالقا ، وشرح جمل الخونجي .

ـــ أبن يوسف القسنطيني :)توفي سنة 878 هـ) ، شهاب الدين أحمد بن يونس ، ولد بقسنطينة وأخذ عن علمائها ثم رحل الى المشرق مرارا ، واستقر بالمدينة المنورة الى أن توفي سنة 878 هـ . وبرع في العربية والحساب والمنطق . ومن تآليفه : رسالة في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة على النبي ﷺ ، وله ديوان شعر .

3 ـــ العلـوم الاجتماعيـة :

وفي عهد بني زيان ، ازدهرت معظم العلوم الاجتماعية ، بالمغرب الأوسط ، فانتشر التصوف انتشارا كبيرا ، في صورته المعتدلة ، التي تضمّنتها بعض تآليف الغزالي وغيره ، وكثر الاشتغال بالتاريخ والتراجم والمنطق ، وعمّ الاهتمام بهذه العلوم ، وقد تقدم ذكر مصنّفات عديدة ، في التصوف والمنطق والتاريخ ، ضمن مؤلّفات من سبق من العلماء في مجال العلوم الدينية واللسانية . ومن أشهر من نبغ في العلوم الاجتماعية على الخصو :

ـــ عبد الحق البجائي : (توفي سنة 675 هـ) ، أبو محمد بن ربيع الأنصاري ، أصله من أبدة بالأندلس . ولد ونشأ ببجاية ، وحذق العلوم الدينية والمنطق والحساب ومال الى التصوف . وله قصيدة صوفية ، لخصها أبو الحسن الحرالي .

محمد بن أبي بكر الأنصاري : (توفي بعد سنة 676 هـ) ، ولد ونشأ بتلمسان ، ورحل الى المشرق ، فزاّر مصر والحجاز والشام ، وله : وصف مكة والمدينة وبيت المقدس .

ـــ أبو زكياء السطيفي : (توفي سنة 677 هـ) ، يحيى بن زكرياء القرشي ، أصله من سطيف ونشأ ببجاية وأخذ عن علمائها ثم رحا الى مصر لطلب العلم ، ثم عاد الى بجاية ، وبها توفي سنة 677 هـ . ألّف : شرح أسماء الله الحسنى ، وتقييدات في التصوف .

ـــ أبو العباس الغبريني : (توفي سنة 704 هـ) ، أحمد بن أحمد بن عبد الله ، أخذ عن علماء بجاية وتونس والأندلس ، وولي قضاء بجاية الى أن توفي سنة 704 هـ . وله : عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية .

ـــ إبراهيم بن موسى المصمودي : (توفي سنة 804 أو 805 هـ) ، أصله من صنهاجة المغرب ، قرب مكناسة . أخذ العلم بفاس عن العبدوسي والآبلي وغيرهما ، ثم نزل تلمسان ، ولازم أبا عبد الله الشريف ، بالمدرسة اليعقوبية ؛ وبعد وفاته ، أخذ عن سعيد العقباني ، بالمدرسة التاشفينية . ثم انقطع للعبادة والتدريس . ومن تلاميذه ابن مرزوق الحفيد . وتوفي سنة 804 أو 805 هـ ، فدفن بضريح الأمراء الزيانيين بجانب المدرسة اليعقوبية . وقد سمي المسجد المحاذي للضريح باسمه (مسجد سيدي إبراهيم) .

ـــ **ابن قنفذ القسنطيني** : (توفي سنة 810 هـ) ، أحمد بن حسن بن علي ، ويعرف بابن الخطيب ، ولد ونشأ بقسنطينية ، وأخذ العلم عن والده وغيره ، ورحل الى المغرب لطلب العلم ، وولي قضاء بعض المدن ، ثم عاد الى مسقط رأسه ، سنة 786 هـ ، وعيّن في القضاء والفتيا . وأخذ عنه الكثير الى أن توفي سنة 810 هـ ، وقيل سنة 809 هـ . ألّف : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، وكتاب الوفيات ، وطبقات علماء قسنطينة ، وأنس الفقير وعز الحقير ، والمسافة السنية في الرحلة العبدرية (وهو مختصر لرحلة العبدري) ، ووسيلة الاسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام (وهو مختصر في السيرة النبوية) ، وتلخيص العمل في شرح الجمل ، في المنطق ، وأنوار السعادة في أصول العبادة ، وتفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب ، وعلامة النجاح في مبادىء الاصلاح ، وشرح الأجوزة التلمسانية في الفرائض ، ومعاونة الرائض في مبادىء الفرائض ، وبغية الفارض من الحساب والفرائض ، واللباب في اختصار الجلاب ، وهدية السالك في بيان ألفية ابن مالك ، وبسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية ، وتسهيل المطالب في تعديل الكواكب ، وتحصيل المناقب وتكميل المآرب ، وهو شرح عليه ، وشرح منظومة ابن أبي الرجال ، في الفلك ، وسراج الثقات في علم الأوقات ، ووقاية الموقت ونكايت المنكت ، والقنفذية في أبطال الدلالة الفلكية ، وحط النقاب عن وجوه أعمال الحساب ، وهو شرح على تلخيص ابن البناء ، والتمحيص في شرح التلخيص ، وأنس الحبيب عند عجز الطبيب ، الخ .....

ـــ **ابن الأستاذ الندرومي** : (توفي بعد سنة 830 هـ) ، شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن . من أهل ندرومة ، أخذ بتلمسان عن ابن مرزوق الحفيد وغيره ، ورحل الى القاهرة ، ودرّس بها . وألّف : كفاية العمل ، اختصر فيه شرح جمل الخونجي (لابن مرزوق الحفيد) ، في المنطق .

ـــ **الهـــوّاري** : (توفي سنة 843 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن عمر ، أصله من مغراوة . وأخذ العلم ببجاية ، وفاس والقاهرة . وجاور مدة بالحرم الشريف . ثم زار بلاد الشام ، وعاد الى موطنه ، فاستقر بوهران الى أن توفي سنة 843 هـ . والهوّاري من الزّهاد المتبتّلين وعلماء الصوفية المشهورين . ألّف : تبصرة السائل ، والتبيان ، والتسهيل ، الخ ...

ـــ **أبو عبد الله التنسي** : (توفي سنة 899 هـ) ، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني ، الحافظ المؤرّخ الشاعر الأديب . نشأ بتلمسان ، وأخذ عن قاسم بن سعيد العقباني وغيره ، ونبغ في الحديث والفقه والأدب ، واشتغل بالتدريس ، فقصده طلاب العلم . ألّف : نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان ، وراح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح ، والطراز في رسم الخراز ، وفهرسة مشائخه ، الخ .....

ـ ابن صعد التلمساني : (توفي سنة 901 هـ) ، محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن سعيد ، ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن علمائها ، ثم رحل الى المشرق ، وتوفي بمصر سنة 901 هـ ؛ ألّف كتاب النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب ، جمع فيه أخبار الصوفية من مشارقة ومغاربة .

4 ـ العلـوم الطبيعيـة :

وتشمل علم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء وغيرها . وقد انتشرت هذه العلوم بالمغرب الأوسط انتشارا كبيرا ، في عهد بني زيان . وقد عني بها كثير من العلماء الذين سبق ذكرهم ، مثل أبي عبد الله الشريف ، وسعيد العقباني ، وابن قنفذ القسنطيني ، وابن مرزوق الحفيد ، والامام السنوسي . هذا وقد نبغ بعض العلماء في هذا المجال ، وفاقوا فيه غيرهم . ومن أشهرهم :

ـ أبو عبد الله بن النّجار التلمساني : (توفي سنة 749 هـ) ، محمد بن علي ، مراكشي الأصل ، ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلي ثم رحل الى المغرب الأقصى ، فدرس على أبي عبد الله محمد بن هلال ، شارح المجسطي ، بسبتة ، ثم أخذ بمراكش عن أبي العباس ابن البنّاء . فنبغ في العلوم العقلية والتعاليم ، وعاد الى تلمسان . فدرّس بها . ثم التحق ببلاط أبي الحسن المريني ، أيام احتلاله للمغرب الأوسط ، وصحبه الى أفريقية ، وتوفي بتونس سنة 749 هـ ، بالطاعون . ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف ، والمقري الكبير ، وأبو الحسن ابن الفحّام ، صاحب المنجانة .

ـ الآبلـي : (توفي سنة 757 هـ) ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التلمساني . أصل أجداده من آبلة بالأندلس . بتلمسان سنة 681 هـ ، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون . ودرس على أبي الحسن التنسي ، فحذق التعاليم ، ثم كان الحصار الطويل ، فغادر تلمسان أثناء ذلك قاصدا المشرق ، فحج ولقي كثيرا من العلماء الجلة ، ثم عاد الى بلاده ، وأخذ عن أبي موسى بن الامام علما غزيرا ؛ ثم استعمله أبو حمو الأول في ضبط الجباية ، ولم يستطب الآبلي هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ورحل الى المغرب الأقصى ، وأخذ عن أبي العباس بن البنّاء ، بمراكش . ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، على بن محمد بن تروميت ، وأقام عنده مدة ، ثم استقرّ معه بفاس ، واتصل بأبي الحسن المريني ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه . ثم صحبه مع غيره من العلماء في حركته الى الأندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه الى افريقية ، سنة 748 هـ ، ومكث بتونس الى أن استدعاه أبو عنان ، بعد استيلائه على المغرب الأوسط ، سنة 753 هـ . فغادر تونس ، ووفد على أبي عنان بتلمسان ، ونال عنده حظوة كبرى ، ثم سار معه الى فاس ، وواصل التدريس بها الى

أن توفي سنة 757 هـ . ويعدّ الآبلي من أنبغ رجال عصره في التعاليم. وقد ساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من كبار العلماء . فمن تلامذته : عبد الرحمٰن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقري الكبير ، وأبو عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الخطيب ، وسعيد العقباني ، وابن الصباغ المكناسي ، وغيرهم .

ـــ **ابن الفحّام** : (توفي في أواخر القرن الثامن الهجري) ، أبو الحسن علي بن أحمد . أخذ عن أبي عبد الله بن النجّار . واشتهر بصنع المنجانة التي ازدان بها قصر أبي حمو موسى الثاني ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه .

ـــ **علي البجائي** : (توفي سنة 816 هـ) ، ابن موسى بن عبد الله بن محمد بن هيدون ، أصله من تادلا . ونشأ ببجاية ، نبغ في الحساب والفرائض ، وهو من شيوخ عبد الرحمٰن الثعالبي . ألّف : شرحا على تلخيص ابن البنّاء ، وتقييدات على رفع الحجاب عن علم الحساب لابن البنّاء أيضا .

ـــ **أبو عبد الله الحبّاك** : (توفي سنة 867 هـ) ، محمد بن أحمد ، أشهر من ألف في علم الفلك بالمغرب الأوسط . ونبغ أيضا في الحساب والفرائض . ومن تلامذته في هذه العلوم الامام السنوسي . ألّف : أرجوزة بغية الطلّاب في علم الاسطرلاب ، وشرح تلخيص ابن البنّاء ، وشرح التلمسانية في الفرائض .

ـــ **أبو الحسن القلصادي** : (توفي سنة 891 هـ) ، علي بن محمد القرشي البسطي ، نزيل تلمسان . نبغ في الرياضيات والفرائض وغير ذلك . وأصله من الأندلس ، غادر بلاده وتجوّل في معظم أنحاء المغرب والمشرق ، وأخذ عن أشهر علماء عصره . واستقرّ مدة بتلمسان ، فأخذ عنه السنوسي والملالي وغيرهما . وألّف كثيرا في الحساب والفرائض . ومن ذلك كتاب كشف الحجاب عن قانون الحساب ، وكشف الأستار عن علم حروف الغبار ، وشرح تلخيص ابن البنّاء ، وشرح ابن ياسمين في الجبر والمقابلة ، ومختصره ، وشرح فرائض مختصر خليل ، وشرحان على التلمسانية ، الأكبر والأصغر ، والغنية ، في الفرائض ، وشرح الحوفي . كما ألّف في علم الفلك شرحا على رجز أبي مقرع ، وعلى رجز أبي إسحاق ابن فتوح ، وفي المنطق شرح إيساغوجي ، مما يشهد على نبوغه وعلى ازدهار العلوم الطبيعية في عصره .

الفصل الخامس

خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية

د. عبد الحميد حاجيات

1) إمارة محمد الثابتي :

في عهد محمد الثابتي ضعف شأن الملوك الزيانيين ، وأخذت بعض المدن ، مثل تنس ، والجزائر ، وتدلس (دلس) ، تستقل عن السلطة المركزية . كما أن كثيرا من قبائل العرب خلعت طاعة السلطان ، وأصبحت تنضمّ الى أعدائه كلما هجموا على أراضيه .

وفي سنة 897 هـ/1492 م ، استولى الاسبان على غرناطة ، وقضوا بذلك على آخر دولة إسلامية بالأندلس . وكان قد قدم منها أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل ، من أمراء بني الأحمر ، فنزل وهران ، ثم تلمسان ، واستقبله محمد الثابتي بحفاوة وإكرام ، وتوفي أبو عبد الله الزغل بتلمسان بعد ذلك بسنوات قليلة . كما هاجر عدد كبير من الأندلسيين الى المغرب ، فتبعهم النصارى اليه ، وأخذوا يغيرون على سواحله ، يحاولون الاستيلاء على الموانىء والاكثار من النهب والسبي .

وفي سنة 906 هـ/1501 م ، هاجم البرتغاليون المرسى الكبير ووهران ، ولكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه ، وفشل هجومهم . وكان البرتغاليون قد احتلوا كثيرا من موانىء المغرب الأقصى ، مما جعلهم يستحوذون على قسم كبير من تجارة السودان .

ثم تعرّض ميناء المرسى الكبير ، سنة 910 هـ/1505 م ، الى هجوم الاسبان ، فقاتلهم أهله بكل ما أوتوا من قوة وإمكانيات ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، فالتجأوا الى وهران . وكان السلطان الزياني ، عندما وصله خبر الهجوم ، قد أسرع بإرسال جيش لحماية المرسى الكبير ، فاعترضه الاسبان بمسرقين ، وهزموه ، ونهبوا أمتعته كلها .

وقد تأثر محمد الثابتي لذلك كثيرا ، وحزن حزنا شديدا ، وتكدّر صفو عيشه ، وتوفي بعد ذلك بقليل (سنة 910 هـ) ، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد .

2) إمارة محمد الخامس بن محمد الثابتي :

في عهد محمد الخامس هذا ، تفاقم الوضع السياسي واشتدّ خطر النصارى . وفي سنة 1509/914 ، استولى الاسبان على مدينة وهران ، ثم احتلوا بجاية سنة 915 هـ/1510 م ، وانتهكوا الحرمات في المدينتين ، فخشيت المدن الأخرى سطوتهم ، وقدمت تدلّس والجزائر وتنس طاعتها لهم .

وأما محمد الخامس ، فإنه رأى أن يفاوض الاسبان ويصالحهم ، فوفد على ملك قشتالة بإسبانيا ، سنة 918 هـ/1512 م ، وقدم له هدايا سنية ، وعقد معه صلحا التزم فيه بالتبعية له ، وبدفع ضريبة سنوية ، وتموين حامية وهران الاسبانية بما تحتاج اليه من المؤن ، والمساهمة في الدفاع عن ممتلكات اسبانيا بجانب جيوشها .

وفي سنة 920 هـ/1514 م ، استولى بابا عروج على مدينة جيجل ، مبتدئا جهاده البطولي ضدّ الاسبان . ثم احتل الجزائر ، بطلب من أهلها ، وكذلك مليانة والمدية وتنس . وأصبح الأتراك العثمانيون يشكّلون قوة يحسب لها حسابها بجانب الاسبان ، في الأوسط . وتوفي محمد الخامس سنة 1516/922 ، فخلفه أخوه أبو حمو الثالث .

3) إمارة أبي حمو الثالث بن محمد الثابتي :

وركّز السلطان أبو حمو الثالث سياسته على مبدأ مسالمة الاسبان ومصالحتهم ، متّبعا في ذلك أخاه محمد الخامس ، وملتزما بمثل ما التزم به هذا من الشروط .

غير أن أهل تلمسان لم يرضوا بذلك ، فثاروا عليه ومكّنوا بابا عروج من المدينة . فاستنجد أبو حمو الثالث بحلفائه الاسبان ، وحاصروا بابا عروج بتلمسان ، ثم هزموه وقتلوه (سنة 924 هـ/1518 م) . ثم قدم أخوه خير الدين بجيش عثماني ، فاستولى على الشرق الجزائري . وعندما توفي أبو حمو الثالث ، سنة 934 هـ/1528 م، كان ظل الزيانيين قد تقلّص ، ونفوذهم قد تضاءل بشكل ملحوظ ، وأصبح أمراؤهم يرغبون في مصالحة أعدائهم النصارى ، ويرضون بالتبعية لهم ودفع الضريبة تفاديا لشرهم .

4) إمارة أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي :

خلف أخاه على العرش الزياني . وفي عهده قوي نفوذ الأتراك ، واستولى خير الدين على البنيون ، المقابل لمرسى الجزائر ، من يد الاسبان . ثم احتل تونس سنة 941 هـ/1534 م . واضطرّ السلطان الزياني أبو محمد عبد الله الى اجراء اتفاق سرّيّ مع خير الدين ، تحت ضغط أهالي مملكته . وصادف ذلك قيام اضطرابات بإسبانيا ، فانشغل عنه الاسبان ، ولم يتعرض لأذاهم الى أن توفي سنة 947 هـ/1540 م .

5) انهيار الدولة الزيانية :

وكان أبو محمد عبد الله قد ترك ولدين ، أكبرهما أبو عبد الله محمد ، والأصغر أبو زيان أحمد . فثار أبو زيان على أخيه ، بتشجيع من الأتراك والعلماء وخلعه .

فاستجار أبو عبد الله محمد بالاسبان ، ووضع نفسه تحت حمايتهم . فأمدّه الملك «كارلس الخامس» بجيش وأرسله الى تلمسان ، ولكن ذلك الجيش انهزم بمكان يدعى شعبة اللحم ، قرب عين تموشنت ، وقتل معظم جنوده (أوائل سنة 950 هـ/1543 م) .

وعندئذ صمّم الاسبان على أخذ الثأر لقتلاهم ، فأغاروا على تلمسان ، واحتلوها ، وقتلوا معظم أهلها ، ونهبوا وسلبوا وخرّبوا كثيرا ، وأعادوا أبا عبد الله محمد على العرش الزياني . وفرّ أبو زيان الى صحراء أنجاد . ثم تبعه الاسبان ، وهزموه قرب وادي ملوية .

ثم جمع أبو زيان كثيرا من الأنصار ، وقدم بهم الى تلمسان ، ولكن أبا عبد الله خرج اليه وهزمه . ولما عاد السلطان الزياني أبو عبد الله الى عاصمته ، أغلق أهلها الأبواب دونه وطردوه ، واستقدموا أبا زيان وأعادوه الى عرشه .

أما أبا عبد الله ، فإنه توجه الى وهران ، ولكنه قتل في طريقه اليها .

وتحالف أبو زيان مع الأتراك ، معلنا تبعيته لهم ، ومعاداته للاسبان ، الى أن توفي سنة 957 هـ/1550 م ، فخلفه أخوه الحسن .

وكانت الدولة الزيانية آنذاك عبارة عن منطقة صغيرة تشمل تلمسان والمدن المجاورة لها ، بينما كانت المنطقة الشرقية كلها تحت حكم الأتراك ، وكانت السواحل الغربية من مستغانم الى مصبّ وادي تافنا تحت سلطة الاسبان . فكان ذلك يحرمها من أهم مواردها التي كانت تأتيها من تجارة الموانىء . والحقيقة أنها كانت تلفظ آخر أنفاسها ، وأنها كانت لقمة سائغة لمن يريد أكلها .

وفعلا ، فقد حاول السلطان السعدي محمد الشيخ أن يبسط نفوذه عليها ، سنة 958 هـ/1551 م ، ولكن الأتراك أعادوا الكرّة ، وطردوا جيشه ، وجعلوا حدّا لاغارته .

وأخيرا قرّر الأتراك خلع السلطان الحسن بن عبد الله بن محمد الثاني ، آخر أمراء بني زيان سنة962 هـ/1554 م ، وبذلك انقرضت الدولة الزيانية .

الباب الثامن

الحضارة الجزائرية في عهد الزيانيين

الفصل الاول

الحياة السياسية والادارية

د. عطاء الله دهينة

1) — الملك :

كان الملك بتلمسان يستأثر بجميع السلطات حسب تصوّر الناس لمفهوم الملكية في ذلك العهد ، وكان محلّ التبجيل والاحترام حسب مراسيم مضبوطة في شيء من الدقة ، غير أن هذا الحكم المطلق لا يعني أن الملك الزياني كان يحيا على غرار خلفاء بني العباس بعيدا عن رعاياه بل كثيرا ما كان يظهر اليهم ويستقبلهم من دون صعوبة تذكر .

ولقد اقتصر الملك الزياني على التسمّي بأمير المسلمين من غير أن يجرؤ قبل ملك ابي تاشفين الأول على التسمي بالخليفة كما كان الموحدون يتلقبون به دون أن ينازعهم أحد ، على أن ملوك بني زيان عرفوا كيف يمدون سمعتهم وذلك بأبهة بلاطهم وروعة مواكبهم وعظمة مبانيهم .

وكان ملوك بني زيان يبرزون سلطانهم بما وضعوه من مراسيم أثناء استقبالاتهم العمومية وخاصة مواكبهم اذ كانوا يمرون في أبهة ومحفوفين بالحرس وسط قرع الطبول وحفيد البنود الحريرية المطرزة المتعددة الألوان يعلوها علمهم في جوّ من الاحتفالات الشعبية .

وما كان يمكن ليغمراسن مؤسس الدولة الزيانية أن يكتفي بقصر تاغرارت الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير ، فقد أمر بوضع أسس قصر أراده في نفس الوقت قلعة وهو المشوار . واتخذ أمراء بني زيان المشوار مقرا رسميا لاقامتهم ، ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الأمراء الأجانب وبين أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى .

2) ـ تلمسان وحياة الامارة ـ المشوار

يحكي لنا ابن خلدون حكاية عن صديقه الحميم الأمير عريف رئيس قبيلة سويد العربية ، يحدثه فيها عن أبي حمو الأول حفيد يغمراسن وخليفته الرابع : «لقد علم هذا الرجل شعبه مباديء الحكم الملكي اذ لم يكن الأمراء من قبله الا شيوخا بدويين» . وهكذا مضت ثلاثة أجيال قبل أن يفقد هذا البلاط طابعه البدوي حسب أقوال الأمير الملمّ بشؤون البلاط التلمساني ، ومع ذلك فان ابن خلدون الذي سجل هذه الرواية يحكي لنا بأن يغمراسن فور توليته السلطة مارس نهج الملوك ، فقد اختار كتّابا ووزراء يتقاضون رواتب ، ونحن نعرف أسماء هؤلاء . لكن نظام الدولة الجديدة لم يحدث تغييرا مباشرا في أخلاق الرئيس ومن يحيطون به . فتغير المؤسسات أسهل من تغير الرجال . إن يغمراسن الذي قضى جلّ وقته في التجوال بين أطراف مملكته لم تتح له فرصة التحلي بمظاهر السلطنة ، وهذا ولم يكن يتكلّم سوى اللهجة الزناتية التي كانت بدورها مستعملة في عهد إبنه عثمان الذي تولّى الزناتيون مدّة حكمه أغلب الوظائف السامية ، فعثمان هذا يظهر هو الآخر كقائد عسكري ، ولقد لقي مصرعه سنة 703 هـ/1303 م ، أثناء حصار تلمسان الطويل الذي سبق لنا أن أشرنا إليه . ولم يلبث إبنه أبو زيان أن فرض سلطته على المدن والقبائل التي انتهزت فرصة ثمان سنوات من الحصار للثورة . وبعد أن هدأت الأوضاع عاذ أبو زيان الى عاصمته . لقد قال ابن خلدون في هذا الشأن : «ومنذ ذلك الوقت بدأ إحياء القصور والحدائق واصلاح كل الخسائر التي لحقت بالمدينة» . وتوفي أبو زيان مباشرة بعد هذا ولم يجد الوقت إذن لمتابعة التمدن الذي شرع فيه . وقد بدأ خليفته أبو حمو الأول بوضع عاصمته تلمسان في حالة تسمح لها بمواجهة حصار مريني جديد مرتقب . ومن ذلك أنه جمع الذخيرة والمعدات العسكرية حسب ما روى لنا ابن فضل الله العمري ، وأنه ذهب الى تذويب الشحم وجعله في أوان كثيرة وملأ المخازن بالملح والفحم الخشبي وامتلأت المدينة بالحبوب . وبعد أن أمن تلمسان ضدّ المجاعة أراد أبو حمو الأول أن يعطيها مظهر عاصمة حقيقية . ويروى لنا أنه أعطى لبلاطه طابع مملكة جديرة بهذا الاسم ، ويبدو أنه انتهج سياسة داخلية أقلّ ما يقال عنها أنها استبدادية . قال ابن خلدون : «لقد ركع كبار الامبراطورية أمام جلالته وأسلكهم الطريق خاصة طريق الأخلاق التي يجب أن يتحلّوا بها» . لقد أظهر له ذكاؤه أن التطور ممكن ، ولكن يمكننا أن نتصور أن حاشيته قد ساهمت في تكوين هذه الفكرة لديه . وقد استبدل موظفي الحكومة بآخرين . وهكذا أصبحت وظائف الوزير والحاجب التي كانت حتى الآن مخصصة لرجال تربطهم قرابة بالأسرة المالكة في أيد أندلسيين من عائلة بني الملّاح . فسابقات هؤلاء تجعل منهم موظفين مثاليين للدولة الزيانية . ففي قرطبة مدينة الخلفاء العتيقة التي غادروها حين استولى عليها الاسبان المسيحيون كان بنو الملّاح مكلّفين بصرف العملات وقد عرفوا بنزاهتهم حتى عيّن بعض أفرادهم وكلاء على صرف العملات . وهذه الخبرة الطويلة في ميدان العملة استفادت منها تلمسان التي أصبحت مركزا للتجارة الدولية ، والمعروف أن يغمراسن عيّن منهم وزيرا للمالية كما احتل العديد من أفراد العائلة مناصب في الحكم .

ولكن في عهد أبي حمو موسى الأول بصفة خاصة أصبحوا شخصيات هامة ولعبوا دورا حاسما في توجيه سياسة المملكة خاصة محمد الملاح ثم إبنه ثم حفيده الذين أصبحوا على التوالي وزراء وحجّاب فيما بعد . وبدأت العوائد الزناتية تختفي مع الزمن بينما أضحت العوائد الأندلسية تحلّ محلّها في القصور التلمسانية سيّما أنهم لم يكونوا الممثلين وحدهم للأندلس . ففي هذا العصر نفسه كانت تعيش مجموعة من المتعوقين الذين جيء بأهلهم أرقاء من الأراضي المسيحية ، وكان من أبرز هؤلاء شاب من أصل قطلوني إسمه هلال . وقد ترعرع هذا الشاب في قصر الحمراء عند ملك غرناطة الذي بعثه فيما بعد الى عثمان ملك تلمسان وكبر بين الأمراء الزيانيين ، وكان هو وأصحابه يكوّنون بلاطا صغيرا حول الأمير الشاب أبي تاشفين ابن أبي حمو موسى الأول وولي عهده . فلما تولى أبو تاشفين الحكم بعد مصرع والده ، عين كحاجب هلال القطلوني الذي استبدل جميع موظفي الادارة ، وقد طمح أبو تاشفين الى توسيع إمبراطوريته واستأنف السياسة التوسعية تجاه مملكة تونس ولكنه فشل في أن ينتزع منها مدينة بجاية . وكان شجاعا وقد لقي مصرعه أمام قصره حيث كان يقاتل مع البعض من رجال دولته حين سقطت تلمسان في يد سلطان فاس . والشيء الذي يهمنا كما سبق أن ذكرنا ، أنه كان ملكا فنّانا ومشيّدا نشيطا . وقد عرفت تلمسان آنذاك أعظم ازدهارها . وقد زعم حسن الوزان أنها بلغت في عهده (718 هـ/1318 م ـــ 738 هـ/1337 م) ، 16 ألف نار الشيء الذي يمكننا من تصور سكان بلغ عددهم مئة ألف نسمة . ولعب أبو تاشفين في هذا التطور دورا لا يستهان به . ويقال لنا أنه : « شجّع كبار المملكة على بناء قصور وحدائق جميلة» . ونعلم أن تلمسان مدينة له بمدرسة كانت تحمل إسمه «المدرسة التاشفينية» التي قضي عليها تمدّن فوضوي . ولا نعرف غير ثلاثة أسماء من قصوره هي : ـــ دار الملك ودار الفتح ودار أبي فهر . كيف كانت هذه القصور ؟ وأين كانت قائمة ؟ نحن نجهل كلية أخبارها مع تقديرنا أنها أقرب الى أن تكون سرادقات تشبه تلك الموجودة بباليرما (Palerme) في إيطاليا على أن تكون قصور حقيقية ، ويمكن أن نعين موقع هذه القصور الى جانب الحوض الكبير الذي يعتبر بناؤه من انجازات أبي تاشفين . ويحتمل أن تكون هذه القصور بناءات راقية تحتوي على غرف سكن خاصة الشيء الذي يدرجها في مجموعة القصور الملكية بالمشوار . وكان ملوك بني زيان قد غيروا أسلوب المشوار حسب أذواقهم وأغراضهم الشخصية . ففي عهد أبي حمو موسى الأول أصبح المشوار نوعا من السجن ، حيث جعل منه مكانا لاقامة الرهائن ، وعاش هؤلاء الرهائن تحت رعاية مشدّدة مع معاملتهم بكل تقدير وكرامة وعلى أمل أن يصبحوا يوما من الأيام أعوانا لمضيفهم الملكي وخدّاما لسياسته . وهكذا نرى أن أبا حمو كان يساير عادة منتشرة ولكنه أعطاها صبغة مفرطة . فقد ذهب كما قال ابن خلدون «حتى طلب عدة رهائن من قبيلة واحدة أو حتى عائلة واحدة وأكثر من ذلك أنه ألزم سكان المدن وكذلك الأشياخ وأفراد الشعب على تقديم

الرهائن له ، فقد ملأ حصنه من أولادهم وإخوانهم وذلك بإدخال مجموعات متتالية . وقد شيد لهؤلاء المعتقلين مساجد وسمح لهم بالزواج وبناء المساكن ... فقد كان هذا الحصن من أغرب السجون التي سمعنا عنها» .

ولقد تابع المشوار في الفترة الزيانية حرفته اللامعة : فمن سجن في عهد أبي حمو موسى الأول ، أو قفص ذهبي لأولاد-العائلات الميسورة تطور شيئا فشيئا أيام أبي تاشفين الأول السلطان الفنّان . فمن الممكن أن يكون قد تحلى بهذه القصور التي لا نعرف منها إلا أسماءها . وإذا تصورنا أنه فقد بعض ميزاته أثناء الاحتلال المريني فانه بقي في الجوهر على حالته القديمة . ولم يلبث المشوار أن عرف ازدهارا جديدا في عهد أبي حمو موسى الثاني ، مصلح الدولة . ولدينا معلومات وافية عن فترة حكم هذا الأمير ، الذي اعتلى العرش من 760 هـ/1359 م الى 791 هـ/1389 م وافانا بها يحيى بن خلدون الذي يبدو تاريخه أقرب الى مذكرات موظف مملكة منه الى عمل تاريخي مما جعلها تحمل طابع المجاملة والمدح المأثورين في هذا النوع من الأعمال ، لكنه مع ذلك يعطينا فكرة عن حياة الامارة في عهد أبي حمو موسى الثاني ، وهذه المعلومات يصعب الوقوف عليها في أي مكان آخر ، فهو يدخلنا قصر المشوار يفتح أبوابه ليلة عيد المولد النبوي ، حيث يسمح لعائلة الملك وكبار المسؤولين في الدولة وبرجوازية المدينة ، بمشاهدة تحف قاعة الشرف والاشتراك في الاحتفالات بهذا العيد فيها . لقد كانت الزرابي تبسط على السطح وعلى طول الحائط تصطف المتاكي ، ولكن المانجانا هي التي كانت تحظى بأكثر الانتباه ، فقد كانت تزين قاعة الشرف . وتتمثل هذه المانجانا في ساعة عظيمة تزيّنها رسوم ذهبية ، رسم مخططها للأمير أبي تاشفين عالم تلمساني هو ابن الفحّام . ويتجمع أفراد البلاط حول السلطان جالسين على المتاكي مقابل المانجانا ، ويجلس السلطان على كرسي عال ، بينما يجلس مباشرة على جانبيه أكابر أقاربه وعظام المملكة ، كل على حسب رتبته ، ويتجمع أفراد الشعب على الزرابي خافضين أصواتهم احتراما لجلالة الملك ، ويتجوّل بينهم خدم يلبسون حريرا مزركشا يقسّمون جميع أنواع الطيب . وكانت تسمع من حين لآخر قطعة شعر ، ويفهم عن أقوال يحيى بن خلدون بأن المشاركين في هذه المباريات الشعرية عددهم قليل ، فلم يذكر منهم سوى ثلاثة : — الأول ، تلمساني من أصل أندلسي ، يسمّى الثغري ، والثاني طبيب البلاط وهو من عائلة تلمسانية عرفت بالطب ويسمى التلسي ، والثالث ليس سوى السلطان أبو حمو موسى الثاني . وبالطبع كانت أشعار هذا الأخير تقرأ أولا ، فقد كان يقرأها اخصائي أمام الملك . وكان واجب الجميع ابداء ارتياحه لها . وفي الحقيقة لم يكن في هذه الأشعار جديد يسلّي المستمعين ، فقد كان الشاعر يشكو مشاكل اليوم التي تعوقه عن الالتحاق بالقوافل الذاهبة الى الأماكن المقدّسة في الحجاز وخاصة المدينة المنورة ، ويتبع ذلك ذكر النبي ﷺ ومدحه ، ثم ترد محاسن ومحامد السلطان أبي حمو وينتهي برجاء عفو وكرامة السلطان . وعند نهاية الليل يدخل رجال حاملون طاولات

عريضة ومنخفضة مملوءة بالطعام ، يأكل منها كل فرد ، وعندما تفرغ الصحون من الطعام تبدل بأخرى بها خضر وفواكه . ويستمر هذا الحفل حتّى الفجر . ثم يقوم السلطان لصلاة الصبح ، وبعدها يبدأ بالتسبيح ويعبر عن أسفه على انتهاء هذا العيد الجميل . ولم تكن ليالي عيد المولد النبوي الشريف هي الفرصة الوحيدة لقبول العامة في المشوار . ففي عام 771 هـ/1369 م حفظ أحد أولاد الملك عن ظهر قلب سورة البقرة التي تعتبر أطول سورة قرآنية وفقا لتقاليد المجتمع التلمساني الذي يبارك هذه المرحلة الحاسمة من حياة المسلم الناشيء ، ومن ثم أقام حفلا التقى فيه عامة الناس بأفراد العائلة المالكة ، واستمعوا معا للمطربين والمغنيين . وقد تجدّد هذا العيد خمس سنوات بعد ذلك في ظروف مشابهة كان أحفاد أبي حمو بطلا لها . وكان الأمير في اتصال دائم مع رعيته حيث يستقبل الناس كل يوم جمعة بعد الصلاة . وكان المشوار مفتوحا لجميع الناس الذين يفدون اليه من كل جهة ليعرض كل منهم مشكلته على الملك مباشرة ، وحتى المسكين منهم كان يستقبل بحفاوة ويتم له ما يريد وينتهي العرض عند غروب الشمس ، وفي بعض الأحيان يفتح المشوار بمناسبة مجاعات شديدة . وفي عام 775 هـ/1373 م ، شهدت المدينة مجاعة ، فقام الأمير بالتصدق بنصف الضرائب ، وفي كل يوم يمتلىء القصر بالناس الذين تعطى لهم اسعافات تحت اشراف أبي حمو نفسه . هذا ولم يبالغ يحيى بن خلدون في كلامه عن دور سيده في ازالة كرب شعبه . وعلى كل حال كان أبو حمو في ذلك ، يطبق تقاليد أمراء أسرته . وقد وقفنا في كتاب حسن الوزان . أنه خلال الحصار الطويل لتلمسان لم يتحمل الشعب المجاعة الكبيرة التي عانى منها واشتكى للملك الذي أجابه قائلا : «إني مستعد للتبرع بلحمي أذا كان ينفعك» ، ولم ينته من كلامه حتى قدمت له مائدة الطعام التي كانت عبارة عن لحم خيل مشوي مخلوط بشعير وورق البرتقال ، وأثر هذا في نفوس المتذمرين بحيث أنهم جعلوا الأولوية للملك على أضعف انسان في الحي .

3) — الادارة المركزية

كان بنو زيان يختارون بصفة عامة وزراءهم وحجابهم وكتابهم وقضاتهم من عائلات معيّنة ، من ذلك أن أغلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك رأسا ، اذ كان يخشى كثيرا طموحهم ، ولكن من جماعات ذات قرابة بعيدة أو موالية له .

وكان الزيانيون يعينون غالبا حجّابهم من المعتقين فهم أهل ثقتهم والمنظمون لمجالسهم والساهرين على تنفيذ العقوبات ، وكان بنو زيان يعهدون بإدارة المملكة الى كتّاب ينتسبون غالبا الى أوساط الأدباء الأندلسيين ولكنهم ينحدرون في بعض الأحيان من عائلات كانت في خدمة الموحدين سابقا ، وكثيرا ما ينتمون الى بلاطات المسلمين ، حيث حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدولة .

والوزير الزياني واسطة بين الملك والعامة ، ومعينه بالرأي ونائبه في قيادة الجيش إن لم يركب هو ولاولي عهده . ومن أشهر الوزراء بتلمسان ، بنو مقّن ، فهم إخوة بني زيان من أولاد طاع الله . استوزرهم يغمراسن ، يحيى بن مقّن ، ثم أخاه عمروش ، ومات سنة 636 هـ ، فخلفه إبنه عمر . والوزير الشهير في عهد أبي حمو الثاني ، هو عبد الله بن مسلم الزردالي ، فكان قومه إخوة عبد الواد من بني بادين . وقد لحق الزردالي بأبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب ، فقلده لحينه وزارته وفوض اليه تدبير ملكه ولم يزل في عظمته حتى توفي بالوباء سنة 765 هـ/1363 م .

والحاجب بالمملكة الزيانية ، هو صاحب الباب ، يأذن بالدخول للملك عن أمره ، ويلقّب بلسان زناتة « المزوار » . ومن أشهر الحجاب ، هلال القطلوني . كان علجا أهداه ابن الأحمر الى ملك تلمسان ، أبي سعيد عثمان الأول وصار الى أبي حمو موسى الأول فأعطاه ولده أبا تاشفين فكان من خواصه ، ولما تولى الملك أبو تاشفين ولاه حجابته ، وكان هلال مهيبا فظا غليظا استولى على أمر السلطان وزحزح منافسيه عن مناصبهم ، ثم أخذ السلطان يخفّض من صولته حتى عزله سنة 729 هـ واعتقله الى أن هلك سجينا قبيل استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان . وقد ولى أبو تاشفين الأول موسى الكردي مكان هلال وأخرجه من ذل السجن الى عز الحجابة ، ولم يزل عزيزا حتى هلك سلطانه . وكان بنو الملّاح أصحاب دولة أبي حمو موسى الأول فأضاف اليهم حجابته فتولاها محمد بن ميمون بن الملّاح ، ثم إبنه محمد الأشقر ثم إبنه إبراهيم ومعه علي بن عبد الله بن الملّاح ، وقتلوا مع أبي حمو سنة 718 هـ/1318 م ، وانتهبت أموالهم .

وصاحب الأشغال له النظر المطلق في الدخل والخرج . ومن مشاهير رجال المال بنو الملّاح الذين أشرنا اليهم الآن . لقد كانوا معروفين بالأمانة والدّين ، حرفتهم سك الدينار والدرهم . وفدوا على يغمراسن فولى منهم على أشغاله عبد الرحمان بن محمد بن الملّاح .

والكاتب يعرض على الملك كل يوم ما ورد من رسائل ويتلقى أوامره بالجواب عليها ويعقد الولايات وغيرها من الشؤون الحكومية . ومن مشاهير القلم بتلمسان ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطّاب ، ومحمد بن عمر بن خميس ، ويحيى بن خلدون . فأما ابن خطّاب فهو أندلسي من مدينة مرسية . وقد وفد على يغمراسن مع جالية شرق الأندلس فاستكتبه وصدرت عنه رسائل في مخاطبات خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحفظت . وأقام بتلمسان على خطته الى أن توفي يوم عاشوراء سنة 681 هـ/1282 م . وأما ابن خميس فتلمساني استكتبه أبو سعيد عثمان الأول ، ثم انتقل الى غرناطة فقتل بها . وكان شاعرا طويل النفس أثنى عليه العبدري في رحلته ، ورويت له قصائد وشعر كثير . وأما يحيى بن خلدون ، فأخو المؤرخ الكبير قد استكتبه أبو حمّو موسى الثاني وألف في دولته « بغية الرواد في ذكر

الملوك من بني عبد الواد» . وكان كاتبا وشاعرا ، له قصيدة في السيف والقلم ومراسلات مع لسان الدين بن الخطيب . وقد قتله أبو تاشفين الثاني في رمضان سنة 780 هـ/1378 م لمماطلته بعقد ولاية وهران رغم أن هذه المماطلة كانت تنفيذا لأمر أبي حمّو موسى الثاني .

وعلى عكس النظام الاداري الذي كان يشرف عليه الوزير في الغالب ، فإن الخلفاء في الدولة الاسلامية أخذوا علي عاتقهم الاشراف على النظام القضائي اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان ينظر في مشاكل المسلمين بنفسه ، ولا سيما وأن السلطتين التنفيذية والقضائية في الاسلام لم تكونا مميزة احداهما عن الأخرى . وبسبب انشغال الأمراء الزيانيين بالسياسية فإنهم مثل الأمراء السابقين في دار الاسلام ، فوضوا في القضاء وعينوا في الأقاليم القضاة .

ويبدو أن سلطة القاضي في الدولة الزيانية لم تكن تقتصر على الأعمال القضائية الصرفة وحدها ، وإنما امتدت أيضا الى أمور دينية ليس لها علاقة بالقضاء ولكن ضمت الى نظر القاضي بسبب معرفته للشرع الاسلامي وأصبحت مقررة في سلطته على حسب ما عرف : «بالعرف والاصطلاح» ، فكانت أعماله الاضافية تتكون غالبا من الصلاة والخطابة في المساجد والاشراف على الأماكن الدينية وعلى أموال الغائبين والمفقودين ، وعلى الذهب والفضة والمكاييل وولاية الحج وأخذ البيعة للخليفة ومصاحبة الجيش في الحروب .

ويبدو أيضا أن المكان الذي كان يجتمع فيه القاضي بالخصوم كان يعرف باسم : «مجلس الحكم» ، وكان لا يعقد في بناء خاص كما في وقتنا الحاضر وإنما في مسجد من المساجد ، وحيث أن المساجد وقتئذ لم تكن تقتصر على أداء الصلاة فحسب وإنما أيضا كانت مكانا للفصل في أمور الناس أو تعليمهم أو حتى تصريف الأمور التجارية .

أما الشرطة فهي وظيفة ظهرت في عهد الأمويين ، أوجدها معاوية بن أبي سفيان لتقوم بحراسته وقت الصلاة ، ولتصبح أداة في يد عماله لتنفيذ سياسته ، ومنذ نشأتها انفصلت عن الحرس الخاص أو حرس الليل الذي أنشأه معاوية . ولكن بعد ذلك تطوّر المقصود من الشرطة وأصبح أساس عملها أن تكون تابعة للقضاء ، مؤداها كما يقول ابن خلدون : استيفاء الحدود ، أي تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي .

ولقد تعرض السلطان أبو حمو موسى الثاني الزياني في كتابه «واسطة السلوك» لموضوع الشرطة وصاحبها الذي كان يسمى وقتذاك بـ «الحاكم» . ويمكن أن نتعرف على مهام «الحاكم» أو صاحب الشرطة بدولة بني زيان من خلال تلك الوصايا التي قدمها أبو حمو لولي عهده ، يقول له فيها : «ثم يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما يزيد في ليلتك حتى لا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك مع ضبط مملكتك . تسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمور والحقير لئلا يتوصل أهل العناية للرعية بمضرة ولا أذية ...» .

كان الجيش يتكون في معظمه من المغاربة ولكن كان يوجد فيه أيضا الأتراك والأندلسيون والأعراب وحتى من أسلم من النصارى والزنوج الذين كان يتكون منهم ومن الجنود المسيحيين حرس الخليفة .

وكانت زناتة والعرب فرسانا غالبا والأندلسيون نشابة والجنود الأتراك رماة ، ويضاف الى ذلك كتيبة نصرانية ، وكان السلطان محفوفا دائما بحرسه الخاص تحوط خيامهم بخيمته ، وعندما يتحرك الجيش لخوض غمار الحرب يبدو أن السلطان كان يسلم القائد الأعلى راية صغيرة من الكتان وهي صورة مصغرة من العلم الملكي ويرفع في أعلى الحصون المفتوحة .

وكان للجند أمتيازات ، يتمتع المشائخ حسب مراتبهم بإقطاعات وحتى بحق استخلاص الجابية لفائدتهم . وكان يعتبر هذا الجيش في نفس المستوى الرفيع الذي وصلت اليه الجيوش الأوروبية حينذاك .

وكان يغمراسن قد استقدم جند النصارى الذين كانوا مع الخليفة الموحدي السعيد في وقعة تامزردكت وهم زهاء ألفي فارس ، ورفع من قدرهم الى أن حاولوا قتله كما أسلفنا لمّا استعرض الجند بباب القرمادين سنة 652 هـ ، وقتلوا أخاه فأحاط بهم الجند والرعية واستأصلوا شأفتهم ولم يستخدم يغمراسن منذ ذلك الحين النصارى بهذه المملكة .

وأشهر قائد جيش بتلمسان هو موسى الكردي . وكان من بيت نبيه في الأكراد الذين فروا أمام التتار ونزلوا على الخليفة الموحدي المرتضى بمراكش ، فأكرم مثواهم ، وبعد دخول بني مرين مراكش انضم بعضهم ، ومنهم موسى الى السلطان المريني يوسف ، ولما نزل هذا الأخير محاصرا لتلمسان اغضبه ذات يوم فلحق موسى بالأمير الزياني أبي سعيد عثمان الأول الذي عرف فضله . وبالغ في إكرامه ثم تولى بعد ذلك قيادة جيوش أبي حمو موسى الأول .

ويأتي في الشهرة بعد موسى الكردي في قيادة جيش تلمسان ، يحيى بن موسى ، وأصله من بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كومي بن عبد الواد ، وخدموا يغمراسن . وظهر فضل يحيى هذا أيام الحصار الطويل . فولّاه أبو موسى مراقبة الحرس الليلي وضبط الأبواب . وكان له اقدام في الحرب فرفعت منزلته بعد الحصار .

ولقد كانت صناعة السفن تقتضي توافر في الخشب ، وهذا وجد في أماكت متعددة من المغرب الأوسط ولا سيما غابات القطاع القسنطيني التي اشتهرت بأشجارها الصالحة لعمل المراكب .

ويبدو أنه ظهر من المراكب في العهد الزياني أنواع متعددة وأشكال مختلفة . فمنها قطع الأسطول الحربية الكبيرة الشهيرة بـ «الشواني» ، وهي مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، ومنها «الحراربن» ، وتعتبر من كبار المراكب وتستعمل على الأخص في حرق سفن العدو ،

ومنها «الطرائد» التي تستخدم في نقل الخيل ، ومنها «القواقير» وهي من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول ، ومنها «الحاملات» التي تحمل الذخيرة للأسطول ، ومنها «الطرادات» ، وهي سفن حربية صغيرة على هيئة البراميل بدون سطح تستعمل في مطاردة العدو لسرعتها .

أما أسلحة الأسطول الزياني فيعتقد أنها كانت تشبه من أوجه كثيرة أسلحة الجيش . فكانت المراكب الكبيرة تزود على الخصوص بالمنجنيقات لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة . وكان ضمن معدات السفن الحربية أيضا أدوات الحصار مثل : الأبراج والسلالم وحتى الحبال .

4) ــ الادارة المحلية :

وكان للادارة الجهوية ثلاثة أشكال متميزة سواء تعلق الأمر بالقبائل أو بالمدن البعيدة عن العاصمة أو المدن والجهات الراجعة بالنظر الى سلطة الملك المباشرة . وكانت القبائل العربية في معظمها تخضع للمشائخ المعينين منهم . فإذا كانت علاقاتها طيبة مع السلطة المركزية قام مشايخها بدور مزدوج من جهة كأعوان للحكومة ولدى منظوريهم ، ومن جهة أخرى كممثلين لهؤلاء لدى الحكومة . واضطر الضعفاء من ملوك بني زيان في المدن البعيدة عن العاصمة الى غض النظر عن ضغط الجماعات أو البيوت المحلية . أما أشداؤهم فإنهم لاقوا صعوبات في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية . وأخيرا كان يمثل السلطان وال في الجهات التي يمارس فيها الخليفة سلطته مباشرة . وكان هذا الوالي في غالب الأحيان أحد أقربائه ، وكثيرا ما كان من أبنائه يعضده موظف مجرب يتمتع مثل السلطان بمشمولات واسعة جدا .

والوالي هو نائب صاحب الأشغال في الجهات يؤدي اليه جبايات أعماله ، ولكن توليته من الملك . ومن المعلوم أن يغمراسن استعمل الزعيم يحيى بن مقن على مستغانم سنة 681 هـ/1282 م ، وما كاد يستقربها حتى ظاهر مغراوة وثار على يغمراسن فحاصره حتى دخلها ونفاه الى الأندلس . أما أبو تاشفين الأول فقد استعمل يحيى بن موسى بشلف ثم ولّاه على دلس بعد عزل الكردي .

5) ــ دولة بني زيان والقوى المسيحية :

كانت الحدود التي تفصل بين دولة بني زيان والبلدان المسيحية هي البحر ، ولكن التوسع البحري والاقتصادي والعسكري لأوروبا الغربية في العصر الوسيط قد امتد في وقت قصير ومنذ البداية الى المغرب . وهكذا كانت الاتصالات قد تضاعفت بين أسرة بني زيان والبلدان المسيحية . وكان عدد الرعايا الزيانيين المقيمين بالبلدان المسيحية قليلا وإلى حدّ

معرفتنا لم يكن هناك قنصل يمثل بني زيان في الخارج . ويبدو أن أسرة بني زيان كانت لا تسعى الى إقامة علاقات جديدة مع الدول المسيحية بل إكتفت على الصعيد الدبلوماسي ، بتبادل السفراء المؤقتين مع القوى التي تعاملها سياسيا أو تلك التي ترغب في التعامل معها . وكانت أسرة بني زيان لا تقوم إلا في النادر جدا بمبادرة المفاوضات ، وفيما يلي رسم يعطي لنا نظرة حول الطريقة التي يتم عقد الاتفاقيات وإبرام المعاهدات . ففي ذلك العهد لم يكن هناك قانون دولي يربط المسلمين بالمسيحيين . فمن الجانب الشرعي كانت حالة العلاقات العادية بين شعب مسلم وشعب مسيحي هي الحرب . ومن ثم فكل المعاهدات المتعلقة بالسلم والتجارة والصداقة المبرمة بين دول ذات أديان مختلفة تسمى «بمعاهدات الهدنة» فلم تكن الحرب هي التي تندلع بل السلم . ولكل معاهدة مدة معينة . وكانت تتخذ اجراءات الاحتياط والحذر قبل ابرامها . وعادة كان يجب اقامة عدة سفارات أولية ثم تليها سفارة مفوضة فوق العادة . وفي هذه المرحلة النهائية من التفاوض كان نص المعاهدة يتم تحريره بلغة البلد الذي يصل اليه السفير المفوض فوق العادة ، فيكون أصلا باللغة العربية اذا كان السفير المفوض فوق العادة من اسبانيا يمثل بلاده في المغرب . وكان نص المعاهدة يكتب من نسختين ويوضع في رسالتين تختم كل واحدة منهما بالشمع الأحمر .

ولم يكن السلطان يوقع بخاتمه على هاتين الرسالتين ويرجع السفير المفوض فوق العادة الى بلاده الأصلي حاملا معه الترجمة بالاسبانية أو باللاتينية ، للمعاهدة المحررة بالعربية ، كانت هذه الترجمة تكتب أيضا من نسختين تحمل كل منهما خاتم السلطان وبعد هذا يأتي دور الملك المسيحي الذي كان يصادق على المعاهدة بواسطة توقيعه بخاتمه في النسختين المترجمتين . هذه صورة موجزة عن عملية التفاوض وإن كانت لا تتبع دائما على هذا النحو ، حيث وصل الى علمنا أن هناك بعض المعاهدات لم تتم مصادقتها وبقيت حبرا على ورق . ومن الأمثلة على ذلك المعاهدة المبرمة في سنة 723 هـ/1323 م ببرشلونة بين ملك أرغون وسلطان تونس وبجاية ، ويبدو أن الأمير الحفصي في هذه الحالة لم يوقع على نسختي المعاهدة المبرمة باسمه عن طريق السفراء المفوضين فوق العادة في العاصمة الاسبانية . والى جانب هذا لم تكن طريقة التفاوض هي نفسها اذ كان السفير المفوض فوق العادة مغربيا متجها الى الأرض المسيحية وربما كان هذا لا يحمل معه أبدا نسخا بيضاء موقعة من قبل سلطانه .

وعلى كل فعندما كان يتم ابرام معاهدة ما وتوقع من طرف الجانبين المتعاقدين ، فإنه عادة ما يعلن عن هذه المعاهدة بصوت عال ، وعلى الأقل في أبواب الدولة المسيحية ، ولكن هذه الاتفاقية كانت ضعيفة نظرا لأنها لا تربط أميرين فحسب بل تربط دولتين ، فاذا مات أحد الأميرين تفسخ المعاهدة تلقائيا ويتحتم على الأمير الجديد أن يبادر بتجديد الهدنة . ومن ناحية أخرى فانه نظرا لما كان عليه الجو العام في ذلك العصر من توسيع في أعمال القرصنة

الأوروبية ورد المجاهدين من رؤساء البحر المغاربة عليها ، والسهولة الكبيرة التي يخلط بها الاسباني المغربي التابع لسلطان معين مع مواطن مغربي آخر تابع لسلطان آخر ، وكذلك السهولة الكبيرة أيضا التي يخلط بها المواطن المغربي بين الاسباني والايطالي والفرنسي فإن السلم المشروط في هذه الهدنة ، كان دائما نسبيا وغير مستقر ، كما أنه لم يقض على الخصام والحرب بين جماعات من كلتا الدولتين المعنيتين على أن خطورة هذه الملاحظة تخفف منها عوامل أخرى خاصة بذلك العصر : فنظرا لقوة الدافع التجاري وعملية النقل والابحار ، نجد أن هناك نشاطا لا يتوقف بالنسبة لعملية التنقل . هذا ولا ينحصر التنقل بين الدولتين في وقت السلم فحسب بل يستمر حتى في وقت خرق الهدنة أي وقت الحرب ، وبعبارة أخرى ، فالحرب لا تقضي على النشاطات التجارية السلمية . لقد كانت السلم ضعيفة وصعبة ولكن الحرب لم تكن مطلقة .

وفي الختام ، ينبغي أن نشير الى أنه رغم أهمية المدخول الذي توفره الجمارك البحرية لخزينة بني زيان كانت القوى المسيحية المعنية تحرص أكثر من السلطان على ضمان الملاحة البحرية وتجارة مواطنيها .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان

د. عطاء الله دهينة

اهتمت دولة بني زيان اهتماما كبيرا بإنعاش الاقتصاد الوطني حتى غدت المواد الضرورية في متناول كل المواطنين وعمّ الرخاء وازدهرت البلاد في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية باستثناء بعض الحالات الخاصة أثناء الاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية .

1) ـــ التجارة :

احتلت الدولة الزيانية مكانة قيادية في التجارة بالمنطقة لما تتمتّع به من خصائص جغرافية واقتصادية . فقد كانت مدينة تلمسان بحكم موقعها المنتهى والمنطلق في نفس الوقت لطرق التجارة : منطلقا للبضائع القادمة من أوروبا وغيرها من البلاد المسيحية ومنتهى للبضائع الصحراوية ، وعلى رأسها الذهب . وبفضل هذا الموقع توفرت الأسباب لهذه الدولة لتخوض غمار التجارة على جبهتيها الداخلية (التجارة الصحراوية) والخارجية (عبر البحر الأبيض المتوسط) . وبالرغم من الاضطرابات السياسية وعدم الاستقرار الناجم عنها فإن الدولة الزيانية عرفت ازدهارا عظيما ورخاء اقتصاديا كبيرا في فترات السلم . فهل هذا الازدهار الكبير الذي كانت تعرفه هو الذي كان يملي على الدول المجاورة للدولة الزيانية كيفية تحديد علاقاتها بهذه الدولة خاصة تلك العلاقات العدائية والحروب المستمرة ؟

أ ـــ الأهمية الاستراتيجية لمدينة تلمسان :

كانت مدينة تلمسان النقطة التي تلتقي فيها طرق التجارة الرئيسية التي تربط إفريقية (المغرب الأدنى) بالمغرب الأقصى من جهة ، والتي تربط بين البحر الأبيض المتوسط والصحراء

من جهة أخرى . وفيما يتعلق بالناحية الأولى فقد كانت الدولة الزيانية عموما تقع على الطرق الثلاثة التي تربط الشرق بالغرب وهي : طريق الساحل والطريق الداخلي والطريق البحري . وكان الطريق الداخلي يمتد عبر الهضاب العليا ويمر بالجريد (في تونس) ثم يعرّج على الأوراس وأخيرا ينتهي الى تازا في الشمال الغربي للمغرب الأقصى مارا بتلمسان . وفيما يتعلق بالطريق البحري فقد كانت الاتصالات مباشرة بين الشواطىء المغربية ــ بما فيها شواطىء دولة بني زيان ــ وشواطىء اسبانية وايطالية وفرنسا ، وذلك لوجود الموانئ الصالحة ، كما نجد عموما أن كل مدينة على ساحل المغرب تقابلها مدينة على الشواطىء الاسبانية والايطالية . وكانت تلمسان على العموم المستودع الذي تتدفق فيه البضائع القادمة من اسبانيا وغيرها من البلاد النصرانية الأخرى ، ويسمح لها موقعها القريب من البحر بأن تلعب دورا هاما في التجارة البحرية التي تفوقت فيها على التجارة البرية .

ب ــ التجارة مع الغرب المسيحي :

لم تنقطع العلاقات التجارية بين أوروبا ومملكة تلمسان وكانت تحددها معاهدات ذات نصوص واضحة تمام الوضوح . ومن جملة هذه المعاهدات نذكر :

ــ معاهدة تلمسان المؤرخة في سنة 1286 م والمبرمة مع مملكة أراغون .

ــ معاهدة تلمسان المؤرخة في سنة 1339 م والمبرمة مع ميورقة .

ــ معاهدة بيربينيون وتلمسان ، المؤرخة في سنة 1362 م لمدة خمس سنوات ، والمبرمة مع مملكة أرغونة أيضا .

وقد تم إبرام هذه المعاهدة التلمسانية الأرغونية الأخيرة يوم 25 جوان 1362 م بمدينة بيربينيون (Perpignan) بين ملك أرغونة بطرس لوسيريمونيو (Pierre le Cérémonieux ، الذي كان في ذلك الحين في حرب مع قشتالة ، وسفيرين مفوضين فوق العادة يمثلان الملك أبا حمو موسى الثاني (760 هـ/1359 م ــ 791 هـ/1389 م) هما الشيخان محمد إدريس ويوسف بن عبد الله . وقد اشتملت المعاهدة على التزامات اتخذها الملك الأرغوني إزاء أبي حمو مع هذا التحفظ المتمثل في أن صلاحيتها مرتبطة بوجود التزامات مماثلة من قبل أبي حمو إزاء الملك النصراني ولم تتضمن سوى مادتين : ــ حرية التجارة والاقامة والتنقل عبر البحر بكل أمان وعدم تقديم معونة من قبل الطرف المتعاقد الى أعداء الطرف الآخر . وكان « جواب » الزناتيين إثر وصول هذه المعاهدة من مدينة بيربينيون بتاريخ جوان 764 هـ/ 1362 م ، هو الترجمة العربية للمعاهدة المؤرخة في 18 ديسمبر 1362 م . وفي هذه الترجمة اتضحت الالتزامات التي اتخذها أبو حمو . وبالنسبة للنظم الجمركية المغربية نلاحظ بأن مدن قسنطينة وفاس وتلمسان تمثل خاصية كبيرة . ففي هذه المدن الكبيرة الموجودة داخل البلاد

يسمح للتجار الأوروبيين الدخول ، لا شك لأنها كانت حواضر . وقد تمكن السلاطين من فرض رقابة جمركية على المسيحيين خاصة لدى تعاملهم في المواني ، ولكن لا يمكن تطبيق هذه الرقابة في المدن الداخلية في البلاد والتي تتميز بتجارة نشيطة مثل مدينتي فاس وتلمسان . غير أن هذا يتسبب في صعوبة بالنسبة للباحث الذي يرغب في فهم الكيفية التي تسير بها أمور هؤلاء التجار الذين يمرون بالجمارك الموجودة بالميناء لدى وصولهم ثم يسمح لهم بدخول احدى هذه المدن «الداخلية» في البلاد . وفي الواقع فإن مستندات ميورقة (Majorque) التي تضم عدة وثائق ثمينة بالنسبة لتاريخ المغرب ، لا سيما وثيقة عثر عليها أخيرا ، تبين بإنه ليس هناك في تلمسان مجرد « مغازة » بل هناك أيضا « جمارك » ، أما الضرائب المفروضة على استيراد السلع التي تصل الى المملكة بدون أن تمر على ميناء تلمساني ، مثل وهران في البداية وحنين فيما بعد فيتم دفعها في الجمارك المركزية الموجودة بالعاصمة قرب حي الفنادق وحي القيصرية . وربما كانت السلع التي دفعت عنها الضرائب في حنين أو وهران أو في ميناء آخر «رسمي» معفاة من مثل هذه الضرائب عند وصولها الى تلمسان حيث يكتفي بإبراز الايصالات الدالة على دفعها جمرك الميناء .

واذا كان المسيحيون يلعبون دورا هاما في التجارة العالمية في المغرب الاسلامي فلم يكونوا هم وحدهم الذين يجوبون هذه السوق الواسعة . فهناك أيضا اليهود الذين يحتلون مكانة هامة حيث أنهم كانوا يشكلون مجموعة تجارية قائمة حول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فهناك الكثير منهم في المدن الرئيسية بإيطاليا وفي مارسيليا (Marseille) وميورقة وفي مصر والمغرب . وكانت بينهم قرابة عائلية الأمر الذي يسهل في العلاقات التجارية . أضف الى ذلك أنهم لم يكونوا تجارا فحسب بل كانوا حرفيين أيضا ، وهكذا فقد كان يهود ميورقة متخصصين في صنع المرجان الذي يحصلون عليه من المغرب حيث يصنعون منه الحلي والزخرفة التي يصدرونها . وفي تونس وتلمسان وفاس ، كان اليهود يشاركون في التجارة الداخلية حيث يضفون دورا هاما الى التجارة الخارجية .

أما عن تفاصيل العمليات التجارية والكيفية العملية الجاري بها العمل في التجارة ، فتبدو واضحة في وثيقة ميورقة : حيث كانت تتم المقايضة والبيع والدين داخل أرجاء مملكة تلمسان . وفي هذه الوثيقة المؤرخة في سنة 728 هـ/1327 م أبلغت المجموعة اليهودية بجزيرة ميورقة الأمير فيليب الوصي على العرش بالمملكة أن قنصل الميورقيين بتلمسان قد أمر جميع تجار ميورقة الموجودين في دولة السلطان أبي تاشفين الأول (718 هـ/1318 م — 728 هـ/1337 م) بمغادرتها في ظرف أربعة أشهر . غير أن هؤلاء التجار يذكرون أن هذا الأمير قد أعطي منذ شهر ونصف وقد قرب الأجل على نهايته ، وتذكر الوثيقة أن يهود ميورقة « يتبعون عادة سكان تلمسان» باعوا بالدين سلعهم الى المغاربة الذين سافروا الى مناطق بعيدة ليعودوا

منها بقيمة السلعة سواء « بالدفع عينا أم نقدا » ونظرا لأن هؤلاء المسلمين علموا أن أمرا قد أعطي الى تجار ميورقة لمغادرة البلاد فأنهم تأخروا عمدا في الرجوع الى تلمسان ، غير أن تجار ميورقة ، الذين ينتظرونهم في هذه المدينة مدينون لعدة تجار في ميورقة نفسها ، وليس للمجموعة اليهودية الساكنة بالجزيرة ، أي مورد آخر ما عدا التجارة التي تمارسها على هذا النحو . إذن فهي معرضة للافلاس ولن تستطيع أن تسدد ضرائبها الى ملك ميورقة . وهذا فهي تلتمس من الوصي على العرش أن يمدد من الأجل المحدد . إن هذه الوثيقة تضعنا أمام أمرين هامين للتجارة هما : البيع بالدين والمقايضة .

وهناك أمر آخر لا يقل أهمية ألا وهو أنه حدث في سنة 791 هـ/1389 م ، أن طرد السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني (760 هـ/1359 م — 791 هـ/1389 م) مؤقتا من تلمسان من قبل سلطان المرينيين ، أبي العباس (1374 م — 1384 م) ، وعندما دخل هذا الأمير المريني مدينة تلمسان وجد فيها تجارا ميورقيين ومسيحيين ويهودا يأتون بالقماش الى السلطان أبي حمو ، فاشتراه منهم أبو العباس ودفع ثمنه عينا ، أي أعطى لهم بضائع أخرى حجزها في المغارات الملكية التابعة لأسرة بني زيان . ولكن هذا الاحتلال لمدينة تلمسان من قبل المرينيين في سنة 784 هـ/1382 م ، دام وقتا قصيرا حيث استرجع أبو حمو الثاني بسرعة العاصمة وطلب من التجار الميورقيين تسديد ثمن البضائع التي سلمت لهم من قبل أبي العباس وذلك لدفع ثمن قماشهم . وإثر هذا احتج التجار الميورقيين وقد وجد بيان هذا الاحتجاج في مستندات بالما ، (Archives de Palma) .

أما الجانب الآخر للحياة التجارية فهو غير معروف لنا تمام المعرفة ، فما هو مدى توسع التجار المغاربة في الأرض المسيحية ؟ يخطىء من يعتقد أن المسلمين عامة والمغاربة خاصة لا يذهبون أبدا للقيام بالتجارة في البلدان المسيحية ، وبفضل سجلات خزينة ميورقة اتضح أن بعض المغاربة عاشوا بكل حرية أكثر من عشر سنوات في مدينة بالما (Palma) خلال الثلث الأول للقرن الرابع عشر . وقد توصلنا الى إجراء بعض التقسيمات : فهناك مثلا تونسي اسمه الطاهر بن عبد الله ، قد عاش في ميورقة على أقل من سنة 1314 م الى سنة 1322 م ، وأبرم هناك على الأقل عقدا للتجارة في سنة 718 هـ/1318 م ، حيث لعب دور « الرأسمالي » وهناك سيدة تدعى زهرة ، مسلمة حرة من مدينة ميورقة زوجة اسكافي وأم تاجر وكانت تقترض من عند هذا الرأسمالي المسمى الطاهر لكي ترسل الزيت الى تونس . وبفضل أبحاث عديدة نستطيع أن نعطي أمثلة أخرى للاقامة الحرة للمغاربة في الأرض المسيحية بإسبانيا ، ففي سنة 771 هـ/1369 م ، كان هناك تاجر من مدينة مستغانم قد أقام بمدينة ميورقة . ومن ناحية أخرى بفضل جواز مرور صادر بتاريخ 1376 م ، علمنا أن مسلمين من مدينة فاس ، كانا تاجرين حسبما يبدو ، قد غادرا ميورقة في اتجاه المغرب ويمكن

أن نجزم بأن هذين المغربيين كانا يقومان بالتجارة عند اللزوم في الأرض المسيحية . ولكن الشيء المؤكد هو أنه لم يكن يوجد أي فندق أو قنصلية زيانية أو مرينية أو حفصية في الموانئ المسيحية ، وأن اقامة التجار المغاربة في الموانئ المسيحية لم تكن سوى نتيجة لمبادرات فردية . فالدولة الاسلامية لا تشجع اقامة المسلمين في البلاد المسيحية ولا تعطيها الصبغة الشرعية لأن الفقهاء المسلمين لا يقبلون ذلك علما بأن فقهاء مدينة القيروان أكدوا في بداية القرن الثالث عشر : «إنّ المسلمين لا يستطيعون التوجه الى بلاد خاضعة لقانون الكفار مهما كانت ضرورة حاجياتهم الاقتصادية» . «واذا ذهبنا الى بلادهم فإنهم يحصلون على أموال باهضة ندفعها لهم حيث يستعملونها في الحرب ضدنا» ، وهذا ما قاله أحد الفقهاء . وما من شك في أنه هذا هو سبب عدم وجود تجارة بين السفن المغربية والمسيحية . ونحن لا نصدق روبرت برونشفيق (Robert Brunchvig) عندما يتحدث عن ضعف البحرية الاسلامية الذي يرجع الى «اثر تدهور الحالة الاقتصادية مع تأخر تقني» فهذه التقنية لم تكن حسبما يبدو متأخرة بالنسبة للسفن الاسلامية ، ولم يكن التاجر المغاربة الذين يقومون بنشاطهم التجاري داخل المدن المسيحية قد عانوا شيئا من «الضعف الاقتصادي» . وفي واقع الأمر ، ليس سوى مانع روحي أكثر منه نقص في النشاط الاقتصادي أو المقدرة التقنية وهناك برهان على مقدرة المغاربة على تحويل المحرمات الدينية التي تعرقل تجارتهم . فكانوا يشترون أسهما من السفن المسيحية ويبيعون أسهما من سفنهم الى مواطني الدول المسيحية ، فهذه بالنسبة اليهم طريقة اضافية تسمح لهم بتفادي القرصنة المسيحية . ونحن نعرف عدة أمثلة للسفن التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة . واذا صح التعبير ، فهذا نوع من «الجنسية المزدوجة» وفي سنة /1277 م أصبح أحد التونسيين مالكا لخمسة أثمان من سفينة وترجع الأثمان الثلاثة الأخرى الى تاجر من بيزة (Pise) اضطر في الأخير الى بيعها ، وفي سنة 702 هـ/1302 م ، كان العازفي أبو طالب «حاكم» سبتة يملك ربع سفينة اسبانية ، وفي سنة 732 هـ/1331 م ، كان الوزير التلمساني هيلال القطلاني مالكا الثلاثة أرباع لسفينة ميورقية ، وفي سنة 763 هـ/1361 م ، كان سلطان تونس يملك نصف سفينة اسبانية ، وفي سنة 859 هـ/1454 م ، أصبحت احدى الشركات الاسبانية التي مركزها الرئيسي في سراكوز ، مالكة لربع سفينة تونسية الخ ...

اذن فنحن نكتشف هنا كثافة ومرونة العلاقات التجارية بين الدول المسيحية والدول الاسلامية للمنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط .

ج — المنتجات التي يتم تبادلها في التجارة :

لكي نفهم مدى الأهمية التي يعطيها المغاربة والمسيحيون على السواء الى مبادلاتهم التجارية ، ينبغي لنا أولا وقبل كل شيء أن نشير الى المنتجات التي لا يستطيعون التعامل

فيها . وفي الحقيقة ، لا ينبغي أبدا أن ننسى أن خلفية علاقات القوى الأوروبية المسيحية والقوى الاسلامية ارتكزت على العداوة بين دينين وحضارتين اصطدمتا بعنف وأن المغاربة كانوا يعتبرون أنفسهم أولا وقبل كل شيء مسلمين والأوروبيين أولا وقبل كل شيء مسيحيين خاضعين روحيا لروما وملتزمين بإطاعة أوامر البابوية . ولكن نحن نعرف بأن البابا لا يقبل بسهولة أن تكون العلاقات متينة بين الأمراء المسيحيين والأمراء المسلمين . فالبابا كان يفكر أولا وقبل كل شيء في الحرب الصليبية ضد « الكفار » ولكنه في الوقت نفسه كان مضطرا للسماح بنشاط تجاري بين المسيحيين والمسلمين فيما عدا بعض السلع التي حرم على التجار المسيحيين أن يبيعوها للمسلمين لأن من شأنها أن تساعدهم على شن حرب ضد تابعي المسيح .

فما هي هذه المنتجات التي تستطيع أن تساعد هؤلاء « الكفار » ؟ هذا مثل على ذلك يعطيه لنا روبرت برونشفيق ؛ في 12 أوت 1274 م ، ذكر جاك الأول حاكم أرغونة اسبانيين بالقرار الذي اتخذه والمتعلق بمنع توفير المواد التالية الى المغاربة المسلمين : الأسلحة ، الحديد ، الخشب ، القمح ، الشعير ، الذرة البيضاء ، الخبز ، الفول ، دقيق كل الحبوب ، حبال القنب أي سلعة أخرى صالحة للاستخدام كحبال للسفن ، وكذلك الرصاص . كما نرى أن القائمة طويلة وهامة ولكن روبرت برونشفيق يشير الى أن الرقابة الصارمة كانت غير ممكنة وأن التحريات الكنيسية لم تنفذ الا في حالات نادرة . وكثيرا ما اشتكى الباباوات من الأمراء المسيحيين الذين خانوا القضية الصليبية من أجل الثراء .

وعلى سبيل المثال نذكر التوبيخ الذي وجهه في سنة 738 هـ/1337 م البابا بونوات الثاني عشر الى بطرس الرابع ملك أرغونة بسبب « علاقاته المتينة والحميمة مع المسلمين » وعلى نفس النحو ، كان الفقهاء يبدون عداوة لتجار المسلمين مع المسيحيين : أن الحاجة الى الشراء من عند هؤلاء لا يبرر الرخصة للبيع لهم ؟ اننا نملك فتوة إفريقية صادرة في القرن الثاني عشر تقضي بأن المؤمن لا ينبغي عليه أن يبيع الى المسيحيين لا الخيل « ولا شيء يمكنهم من أذاء المسلمين » . وكان مدى هذا المانع كبيرا الى حد أنه قلل أو منع السفر من أجل التجارة في اتجاه دار الحرب أوروبا المسيحية .

غير أنه رغم كل هذه الموانع ـــ الصادرة سواء عن فقهاء الاسلام أو عن الكنيسة الرومانية ـــ كان هناك نشاط تجاري مستمر وبلا انقطاع بين البلدان المغرب الاسلامي والبلدان الأوروبية المسيحية في شتى السلع بما فيها السلع المحرم المتاجرة بها من كلا الطرفين مع الطرف الآخر . وكان الاتجاه العام لهذه التجارة الكبيرة واضحا ومستقرا . فما عدا بعض الفروق الخفيفة كان المغرب الكبير برمته من طنجة الى طرابلس يلعب دورا ملموسا ومتساويا تقريبا في النشاط الاقتصادي الدولي ، فقد شكل المغرب أسواقا لبعض المنتجات الآتية من

الشرق وأوروبا ومصدرا للمواد الأولية التي تسمح بتوفير كمية اضافية من الموارد المفيدة للشعوب المجاورة وتساعد على اقامة توازن غذائي وصناعي . ولكن ما هي السلع المنقولة من المغرب الأوسط الى أوروبا ؟ كان المغرب الأوسط يبيع وبكميات كبيرة ، المنتجات الخاصة بتربية المواشي مثل الغنم والماعز ، والصوف والجلود من كل نوع ، وكان التلمسانيون يصدرون الى المسيحيين الفواكه مثل التمور ، لقد كانت كل مناطق المغرب الأوسط تبيع التمور التي كنا نعرف بأنها كانت مستوردة عبر مختلف الموانئ الاسبانية . وكان ملك أرغونة يفضلها على مائدته ، ولا ينبغي أيضا أن ننسى أهمية منتجات الصناعة التقليدية بالمغرب الأوسط لا سيما صناعة السلال ونسج الحلفاء والزرابي والجلود المنقوشة .

ونذكر بأن الاقتصاد الأوروبي للقرن الثالث عشر كان في أوج نموه ولكنه مع ذلك كان يعاني من نقص في المعادن لم يتم التغلب عليه الا في العصور الحديثة . وقبل اكتشاف أمريكا والمزارع الموجودة وراء البحار استطاعت أوروبا حل مشكلة المعادن جزئيا ولكن هذا بفضل الذهب السوداني الذي قام المغاربة بالتجارة فيه . لقد كان الذهب هو المادة الأولى التي تجلب التجار الى المغرب مثل تجار برشلونة وميورقة وجنوة والبندقية وفلورنسة ؛ وفي القرن الثالث عشر كانت مملكتا أرغونة وميورقة لا تقومان بضرب عملة الذهب ما عدا قطع من النوع العربي يصدرها ملوك اسبانيا لتسهيل عملية التجارة مع البلدان الاسلامية . وكان الاسبان لا يستخدمون سوى قطع الفضة والنقد النحاسي أو البرونزي . أما عن إيطاليا ، خاصة جنوة فكانت تحصل على كمية كبيرة من الذهب الافريقي . وفي القرن الرابع عشر دام هذا التوافد على المعادن حيث بلغت كمية المعادن المصدرة الى جنوة وحدها ما يقرب من سبعين ألف رطل مع العلم بأن الذهب الافريقي الذي وصل الى جنوة في سنة 738 هـ/1337 م كان يقدر بحوالي مائتي كيلوغراما وليس هذا سوى جزء صغير من تسعة آلاف كلغ من الذهب المستورد من إفريقيا السوداء ، من بينها خمسة أو ستة آلاف كلغ كانت تصدر حسب ما يبدو في كل سنة . ولقد اكتشف المؤرخ الاسباني فيليب ماتيو لوبيز (Philip Mathien Lopez) في المدة الأخيرة بيانات جديدة حول وصول الدينار العربي الآتي من غرناطة والمغرب الى فالونسيا (Valence) وبرشلونة (Barcelone) وبيربينيون (Perpignan) ما بين سنة 751 هـ/1350 م وسنة 791 هـ/1388 م . كان هذا الدينار قد ضرب في « دور العملة » التابعة لهذه المدن حيث استعمل الذهب المصبوب لضرب نقود فلوران (Florin) .

د ــ التقنيات التجارية :

أما فيما يتعلق بالتقنيات التجارية فلقد كانت العلاقات التجارية بين أوروبا والمغرب الأوسط مرتبطة بالمعاهدات ذات الشروط الواضحة . وكانت معاهدات التجارة والسلم تبرم على أساسين هما : الضمانات المعهودة للتجار المسيحيين وواجبات التجار المسيحيين مقابل

هذه الضمانات . لقد كان التجار المسيحيون يتمتعون بالأمن والحماية أثناء اقامتهم في موانيء المغرب الأوسط أو أثناء رحلاتهم البحرية متجهين نحو هذه المناطق ، وزيادة على ذلك فقد كانوا أحرارا في بيع أو عدم بيع سلعهم الا في بعض الاستثناءات . كما أنه لم يسمح لأية دولة أوروبية بممارسة الاحتكار التجاري . ولقد كان التجار المسيحيون يتمركزون في موانيء المغرب الأوسط ويعيشون في الفنادق . والفندق عبارة عن مؤسسة خاصة للتجار المسيحيين . ويوجد عموما في هذه الفنادق كنيسة ومقبرة . وأما مسؤولية العناية بهذه الفنادق وصيانتها فكانت تقع على عاتق السلطان . وتقع هذه المؤسسات عادة إما داخل المدن أو في ضواحيها . وتعتبر هذه الفنادق مقرا لممثلي الجاليات الأجنبية . كما أن لكل دولة فندقها وممثلها الخاص وهو ما يسمى بالقنصل وهو بمثابة واسطة بين تجار الفندق والسلطة المحلية .

وكان التجار المسيحيون في مقابل هذا القانون مطالبين بممارسة نشاطاتهم في الموانيء التي توجد بها مصالح الجمارك . وباستثناء مدينة تلمسان فإننا لا نلاحظ وجود تجار مسيحيين قاطنين داخل المغرب الأوسط . غير أن هذه الاجراءات والقيود لم تتحكم فيها أسباب سياسية بل أسباب تجارية . وقد وجب أيضا الاكثار من المكاتب الجمركية لتحديد عملية تهريب البضائع بالاضافة الى جمع أكبر قسط ممكن من الضرائب المفروضة على السلع الأجنبية .

ومصلحة الجمارك هي الواسطة بين الملك من جهة وبين التجار المسيحيين من جهة أخرى . وتعتبر من أهم الادارات الرئيسية ؛ فهي منظمة تنظيما دقيقا وتستعمل عددا كبيرا من الموظفين : المدير الذي يهتم بالأسعار ، ومفتشون ، ثم نجد رئيس المحاسبة وهو مسؤول عن العمال الذين كانوا يمسكون دفاتر الحسابات ، ويأتي الموظفون أو الضباط الملكيون المكلفون ببيع المواد الغذائية أو السلع الملكية وأيضا أكبر قسم من المشتريات ويعتبر هؤلاء موظفين سامين . ويأتي بعدهم الموظفون الصغار وأصحاب الأعمال المتعبة . في الصف الأول نجد عدة مترجمين . وأن لكل أمة مترجمها ولكن ليس من حق أي تاجر أن يحتفظ بنفس المترجم بصفة دائمة . وأخيرا يأتي الحمّالون الذين يشحنون ويفرغون البضائع تحت رقابة شديدة من طرف مصلحة الجمارك . ومجموع هؤلاء الموظفين هم من المسلمين ولكن يمكن أن نجد أيضا عمالا مسيحيين .

أين تتم عمليات البيع ؟ إن عمليات البيع تتم سواء داخل العمارات الجمركية وتحت مسؤوليتها أو خارجها ولكن في هذه الحالة الأخيرة تسقط المسؤولية . أين تتم عمليات الشراء ؟ إن عمليات الشراء مثلها مثل المبيعات ، يمكن أن تتم داخل أو خارج عمارات الجمارك .

فالبيع داخل مصلحة الجمارك يتم على شكلين :

— المزايدة : ويقوم بهذه العمليات سماسرة معينون في كل «أمة» وبحضور مفتشي الجمارك .

— بواسطة مترجمين بحضور أو عدم حضور مفتشي الجمارك ، وفي هذه الحالة يستفيد المترجمون بحق إضافي هو حق الترجمة . إن مصلحة الجمارك مكلفة بقبض المبالغ المالية المفروضة على التجار المسيحيين في الآجال المحددة .

وبصفة عامة فإن المشتريات والمبيعات تتم داخل المباني الجمركية لأنها تقدم ضمانات أكثر عن تلك التي تتم خارج هذه المباني .

والشيء المؤكد هو أن الحقوق الناتجة عن الترجمة تقدر بحوالي 0,5 % من قيمة البضائع . وهناك مجموعة من الحقوق المتنوعة : حقوق الوزن والتخزين وتدفع في شكل عيني أو نقدي . وهذه الحقوق تؤدي أحيانا الى احتجاجات . وبصفة عامة فإن مجموع هذه الحقوق الرئيسية والتابعة كانت تجبى بواسطة مستخدمين مسلمين . وكان بإمكان الملك أن يقرض حقوق الجمارك الى دولة لأجل معين . وهكذا في سنة 714 هـ/1314 م كان سلطان بجاية الحفصي أبو يحيى أبو بكر مدينا لجاك الثاني ملك أرغونة بمبلغ من المال : ولتسديد هذا المبلغ فإن سلطان بجاية أمر القنصل الأرغوني المقيم في مدينته بأن يقبض لمدة خمس سنوات نصف الحقوق المجبية عادة من طرف مصلحة الجمارك .

إن محاولة رسم هذه الخطوط العامة لاقتصاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط تبين لنا أن هذه المنطقة لم تكن في حالة انغلاق اقتصادي ، وعن طريق موانئها كانت في علاقات مع الشرق وأوروبا ، وأهم زبائنها الأوروبيين هم الاسبان والايطاليون والفرنسيون .

هـ — تجارة الذهب :

عندما اندثرت الامبراطورية الموحدية خلال القرن السابع الهجري ، حلّت السلطة الرسمية المبادرة الخاصة للدفاع عن التجارة التي تواصلت ممارستها عبر الصحراء كما كان الحال في الماضي . ورغم المشاكل المتنوعة التي كانت تلاقيها فقد تأسست شركات حقيقية وأشهرها هي تلك التي شكلها الاخوة المقري وهم أجداد مؤلف «نفح الطيب» . وأن المعلومات التي وافانا بها المقري التلمساني في هذا الموضوع هامة جدا .

يقول المقري : «ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجارة واتخذوا طبلا للرحل وراية تقدم عند المسير وكان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال فكان أبو بكر ومحمد وهما من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان وعبد

الرحمان وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بايولاتن فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الأماء وكان التلمساني يبعث الى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث اليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوزة والتبر والسجلماس كلسان الميزان يعرفها بقدر الخسران والرجحان ويكاتبها بأحوال التجار وأخبار البلدان حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم ولما افتتح التكرور كورة ايولاتن وأعمالهم أصيبت من أموالهم بعد أن جمع من كان يهامنهم الى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصديق الأحب والخلاصة الأقرب ثم صار يكاتب من تلمسان ويستقضي منهم مآربه فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبيء عن ذلك فلما استوثقوا من الملوك لهم الأرض للسلوك فخرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوت الحصر والعد لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر كانت يجلب اليها من المغرب مالا بال له من السلع فتعاوض عنه بماله بال من الثمن أي مدير دنيا ضم جنب أبي حمو شمل توباء كان يقول لولا الشناعة لم أنزل بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كان أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتي الينا بما يضمحل عن قريب ويذهب منه ما يغير من الفوائد ويجرّ السفهاء الى المفاسد ولما درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم وصادفوا توالي الفتن ولم يسلموا من جور السلاطين فلم يزل حالهم في نقصان الى هذا الزمن فها أنا اذا لم أرك من ذلك الا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشا وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب وأسباب كثيرة تعين على الطلب فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقاء وأخذت عن بعضهم عرقا والقاء سواء المقيم القاطن والوارد الظاعن.

وحسب إيف لاكوست (Yves Lacoste) الذي يدعم أراءه بما كتبه المقري في بداية القرن السابع عشر، فإن الطرق التي تنقل الذهب الى المغرب قد تركت شيئا فشيئا ابتداء من القرن الرابع عشر وتم تعويضها بخطوط أخرى شرقية حيث يتصل أحد هذه الخطوط مباشرة بطرابلس ثم مصر؛ أما الخط الآخر فيمتد مع وادي النيل. وبعد ذلك أتى البرتغاليون الذين اتجهوا بدورهم نحو الغرب وأصبحت تجارة الذهب لصالحهم حيت وجهوها نحو السواحل الغربية لافريقية. ويرى بعض المؤرخين أن تدهور وتلاشي دور هذا الملتقى الذي قام به لغاية ذلك الحين المغرب كان سببا لاستخدام متكرر لنظام الاقطاع الخطير من قبل الملوك، وهذه علامة ضعف الدول التي بدأت فيها الموارد النقدية تنقص لصالح المقطعين الذين أصبحوا أقوياء بشكل متزايد. هذه قضية نظامية الى حد بعيد وهي ليست سوى افتراض، ويبدو في الحقيقة أن وصول الذهب السوداني الى الأسواق المغربية لم ينقص، لا في القرن الرابع عشر ولا في القرن الخامس عشر. وأما قضية تحويل اتجاه طرق الذهب المسلم بها من قبل الكثير

من المؤرخين الحاليين فقد أنكرها بعض الباحثين في السنوات الأخيرة الذين كتبوا عدة مرات أنهم لا يؤمنون بتوقف وصول الذهب من الصحراء الى المغرب ؛ وحسب رأيهم تثبت المستندات الاسبانية والايطالية (les Archives espagnoles et italiennes) للقرن الخامس عشر استمرار هذا التيار .

وقد عادت هذه التجارة مع السودان على الدولة الزيانية بثروة عظيمة ونلتمس ذلك من الرسالة التي كتبها الأمير الزياني أبو تاشفين الأول الى جاك الثاني (Jacques II) ملك أرغونة يقول فيها : «اذا قبلتم بشروطنا سوف ينعقد السلام بيننا وبينكم ، واذا كنتم في حاجة الى أن نقرضكم الذهب سنفعل شرط أن تمنحونا ضمانات على ذلك وإن لم تقبلوا شروطنا فإن المعاملات بيننا ستتوقف» .

2) ــ المالية :

أ ــ النظام الجبائي :

لسنا نعرف الشيء الكثير عن نظام الزيانيين المالي اذ يبدو أن هذه الدولة استمرت تعمل في هذا الميدان على النظام الذي ورثته من الموحدين .

ويبدو أن الموارد المالية التي تدخل خزينة الدولة تأتي من أربعة مصادر : أملاك السلطان الخاصة ، والأموال العمومية ، والضرائب ، والجمارك . وكانت الحالة في الخزينة جيدة على الرغم من التغيرات المفاجئة التي كانت تطرأ على المحاصيل الزراعية من حين الى آخر وكذلك التغيرات التي كانت تطرأ على الحدود بسبب الحروب بين الدولتين الجارتين الحفصية والمرينية . ومن الحجج التي تؤكد صحة الخزانة الزيانية وثراءها أن ملك أرغونة كان يطلب مساعدات مالية سنوية من مملكة تلمسان اختلفت الآراء في تحديد قيمتها ، فيقال بأنها بلغت في البداية 20.000 دينارا ذهبيا وأصبحت بعد ذلك 500 دينارا فقط .

ب ــ الضرائب :

كان يقوم بجمع الضرائب أعوان الخزينة ، أما القبائل الرحل فكانوا يسددون ضرائبهم بواسطة شيخ القبيلة الذي يدفع لأعوان السلطان مبلغا من المال جرى الاتفاق عليه . أما جمع الضرائب من أهل القرى فكان من الأمور الصعبة لامتناع الأهالي عن دفعها ، فيضطر السلطان الى الخروج بنفسه أو ارسال إبنه على رأس فرقة عسكرية لأخذ الضرائب منهم بالقوة . وكان قسط كبير من الضرائب يدفع على شكل غلّات ومواد مختلفة ، وتجمع هذه الغلّات في مخازن الدولة لتموين الجيش وتوزيعها على الأهالي أيام المجاعة أو بيعها في الأيام العادية الأخرى .

ج ـــ سلك النقود :

ضرب كل من الحفصيين والمرينيين والزيانيين عملة خاصة بهم ، لكنه يصعب علينا في كثير من الأحيان معرفة الى أية دولة من هذه الدول تعود لأن النقود تتشابه كثيرا سواء في شكلها أو حجمها أو حتى نقوشها ، كما أن هذه النقود لم نجد عليها تواريخ . ولم تدخل تغييرات كبيرة على طريقة سكّ النقود عما كانت عليه في عهد الموحدين . وكانت الدولة على ما يبدو هي التي تضرب السكة ولكن كان هناك من يضرب النقود من الخواص فقد انتشرت في المدن الزيانية الكبرى ورشات الضرب الخاصة التي كان يحمل اليها الناس معادنهم من فضة وذهب فتسك لهم القطع النقدية التي يريدونها . والقطع النقدية التي كان يتناولها الزيانيون هي نفسها التي كانت معروفة عند الموحدين ، فنجد الدينار والدرهم وأجزاءهما المختلفة .

3) ـــ النقود الزيانية :

لدينا دينارا يعود الى عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (708 هـ/1308 م ــ 718 هـ/1318 م) . ونجد على وجه وظهر هذا الدينار دائرتين ومربعين ، فعلى الوجه وفي الدائرة كتبت عبارة « ضرب بمدينة تلمسان حرسها الله وأمنها » ، وكتب داخل المربع « بأمر من عبد الله موسى أمير المسلمين أيده الله ونصره » ، أما على ظهر القطعة ، فعلى الدائرة نقرأ العبارة « وإلهكم إله واحد لا اله الا هو الرحمٰن الرحيم » ، أما داخل المربع فقد كتب « بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على محمد وآله ، لا إله الا هو ، محمد رسول الله ، ما أقرب فرج الله » . ويبدو أن هذه العبارة الأخيرة « ما أقرب فرج الله » ، قد أصبحت فيما بعد شعار بني زيان ؛ وهذه العبارة لم تكن موجودة في البداية ويظهر أنها وجدت على نقود الزيانيين بعد مقتل أبي يعقوب المريني (683 هـ/1286 م ـــ 707 هـ/1307 م) تحت أسوار مدينة تلمسان للتعبير عن شكرهم لله الذي خلّصهم من شره .

وعلى الوجه الأمامي والخلفي لدينار ينتمي الى السلطان أبي تاشفين الأول (718 هـ/ 1318 م ـــ 738 هـ/1337 م) . نجد دائرتين ومربعين . فعلى الوجه الأمامي كتب على الدائرة « ضرب بمدينة تلمسان حرسها الله وأمنها » ، وفي داخل المربع كتب « بأمر من عبد الله المتوكل على الله عبد الرحمان أمير المسلمين أيده الله ونصره » . أما على الوجه الخلفي فقد كتب في الدائرة « وإلهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمٰن الرحيم » ، أما داخل المربع فنجد « بسم الله الرحمٰن الرحيم ، صلى الله على محمد ، لا إله الا الله محمد رسول الله ، ما أقرب فرج الله » .

وعلى الوجه الأمامي والخلفي لربع دينار من أيام السلطان أبي عبد الله محمد الثاني (827 هـ/1423 م — 831 هـ/1427 م — 844 هـ/1440 م) نجد دائرتين ومربعين أيضا . فعلى الوجه الأمامي وعلى الدائرة كتب «ضرب بمدينة تلمسان» ، أما في المربع «أبو عبد الله محمد نصره الله» ، وعلى الوجه الخلفية في الدائرة كتب عبارة «لا إله الا الله محمد رسول الله» .

لقد كان لموقع مدينة تلمسان في ملتقى طرق التجارة دور عظيم في ازدهار الدولة الزيانية ازدهارا أصبح يلفت أنظار جيرانها الحفصيين والمرينيين . فالخزينة كانت تزخر بالأموال وكان للحكومة كما رأينا معاهدات اقتصادية مع غيرها من دول الشرق والغرب . وهذه الدولة الفتية بما اجتمع لديها من امكانيات إقتصادية أصبحت تظهر في أعين جيرانها كقوة تهدد وجودهم فعملوا بكل الوسائل للقضاء عليها وهذا ما يفسر الحروب والغزوات المستمرة التي تعرضت لها الدولة الزيانية أولا مع جيرانها وأخيرا الغزو الاسباني للشواطيء الجزائرية .

4) — تقسيم المجتمع الزياني :

من ناحية تقسيم المجتمع الزياني فإنه وإن كان لا بد أن يقسم الى طبقات — شأن أي مجتمع آخر — الا أنه من المفروض ألا يقسم الى درجات لما جعلته العقيدة الاسلامية من أخوة بين المسلمين كأفراد متساوين في إطار أمة واحدة ، ومع ذلك فقد وجدنا تقسيما للمجتمع الاسلامي في أيام الزيانيين ، فهو ينقسم الى ست طبقات :

أولا : — طبقة الحكام ، وهم الأمراء والوزراء والولاة ...... الخ . وهم عادة يكونون من عصبية واحدة إذ أن إبن خلدون لا يرى رياسة بدون عصبية .

ثانيا : — طبقة رجال الدين ، وهم في الاسلام الفقهاء والخطباء والقضاة والشهود . وظهرت هذه الطبقة نتيجة لحاجة المسلمين القيام بواجبات دينهم .

ثالثا : — طبقة أرباب السيوف ، وهم كما يظهر من إسمهم يشتغلون بالحرب . ولأهمية هذه الطبقة المحاربة أصبح لها امتيازات خاصة ، مثل ركوب الخيل . وهذه الطبقة إذا ما ضعفت الطبقة الحاكمة سيطرت عادة على شؤون الحكم .

رابعا : — طبقة أرباب الأقلام وهم كما يظهر من إسمهم يعتمدون على صناعة القلم ، أي الكتابة ، وهؤلاء الكتاب كانوا يشتغلون في الدواوين بتلمسان .

خامسا : — طبقة ذوي المهن من سكان المدن وهم أصحاب الحرف والتجار ، وقد كان من أثر الفتح العربي استقرار الحياة في المدن مما أوجد نهضة صناعية وتجارية في دار السلام ، وكانت العصور الوسطى الاسلامية تتميز بالتخصيص في الصناعات والتجارة مما

أدى الى نشأة نظام النقابات الذي يعتبر النظام الشعبي الوحيد في الخلافة الاسلامية . فقد كانت كل طائفة من التجار وأصحاب الحرف بتلمسان تتجمع في مكان واحد تتسمى به . ونعرف من أسماء بعض طوائف الصنائع والتجار في المدن الزيانية العطارين والحدادين الخ ...

سادسا : ــ طبقة الفلاحين أو الزراع ، وهم غالبية سكان مملكة بني زيان حيث أن العصور الوسطى لم تكن تعتمد في حياتها الا على الزراعة ، أما الاعتماد على الصناعة فلم يظهر الا في العصور الحديثة التي يؤرخ لها بظهور حركة التصنيع .

5) ــ اليهود والنصارى :

أ ــ اليهود :

كان يعيش الى جانب المسلمين بتلمسان يهود ، ولئن ضايق الموحدون الاسرائيليين فقد تمكنوا من العيش والتحق بهم عدد من يهود اسبانيا على اثر ما نالهم من اضطهاد سنة 1391 م نتيجة قرار الطرد الذي سلط عليهم بعد استيلاء الاسبان المسيحيين على غرناطة . ولم يقم يهود المغرب الأوسط بالدور السياسي الذي كان من نصيب إخوانهم في الدين بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين ولكنهم ساهموا مساهمة فعّالة في الحركة الاقتصادية بالبلاد وشملهم ملوك بني زيان بالرعاية والعناية .

ب ــ النصارى :

أما النصارى فإنهم كانوا جميعا من أصل أوروبي اذ أن آخر ما تبقى من آثار المسيحية بالشمال الافريقي قد اندثر منذ القرن الثاني عشر تحت تأثير الحركة الموحدية . وكان منهم التجار الذين يعيشون غالبا في الموانى مجتمعين « بحسب قومياتهم » في فندق حيث يسكنون ويتاجرون تحت اشراف قنصل معتمد لدى العاهل الزياني ، ولئن كانوا عرضة للتقلبات السياسية فإن وضعهم كان في الغالب مرضيا وكان الى ذلك يوجد بالبلاط الزياني حرس نصراني متركب من بضع مئات من الرجال كادوا جميعهم في بعض الأحيان أن يكونوا من القطلونيين يقومون بحراسة شخص الأمير .

6) ــ المساجد :

لقد كانت المدينة الاسلامية تخضع لقواعد عامة محددة ، ولا ريب أن أهم شيء فيها هو المسجد ، فهو الذي يدل على طابعها الاسلامي ، وأصبح المسجد في الاسلام مكان العبادة ولذا سمي أيضا « بيت الله » . وكان المسجد في أول أمره مكانا تفصل فيه الجماعة الاسلامية في كل ما يتعلق بأمورها ، فهو ندوة للنقاش السياسي أو مجلس للقضاء أو حتى مدرسة . ولهذا أصبح المسجد يعرف أيضا بالجامع .

وقد كانت الدولة الزيانية تشرف على صيانة المساجد وتنفق على موظفيها من إمام وخطيب ومؤذن فتوقف عليها الأموال الكثيرة . ولم يبق الا ثلاثة مساجد ترجع الى بني زيان ، فزاوية سيدي بلحسن التي بناها أبو سعيد عثمان في آخر القرن الثالث عشر ، صغيرة ولكنها رائعة ، أما مسجد أولاد الامام بصفّيه وبلاطاته الثلاث فهو أصغر منها . ولم يبق من حركة أبي حمو الثاني المعمارية الا المسجد وقبر سيدي إبراهيم اللذان أعدا لاحتضان وفات والد السلطان وأعمامه .

7) ـ القصور :

وكان أهم شيء في تلمسان بعد المسجد هو القصر الملكي ، وهذا مع بساطته في أول الأمر تدرج الى الفخامة خصوصا في عهد أبي حمو موسى الثاني . وما يمكن لمؤسس الدولة الزيانية يغمراسن أن يكتفي بقصر تاكرارت الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير ولذا فقد أمر بوضع أسس قصره أراده في نفس الوقت قلعة وهو قصر المشوار الذي تكلمنا عنه سابقا والذي لم يبق له اليوم أثر يذكر ، واتخذ أمراء بني زيان المشوار مقرا رسميا لاقامتهم ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الأمراء الأجانب وبين أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى ، وكان أبو حمو موسى الثاني كما رأينا يحتفل بالمولد النبوي الشريف جالسا على عرشه في قاعة المشوار الكبرى يحف به كبار القوم بحضور عامة الناس .

8) ـ الحمامات :

كانت تلمسان مزودة بحمامات كثيرة . والحمامات في معناها اللغوي تعني الماء الحار ، وهي ليست من ابتكار المسلمين ولكنها أخذت من الشعوب التي قبلهم وبخاصة اليونان . وقد دخل الحمام ضمن نظم الاسلام منذ عهد مبكر لارتباطه على الخصوص بفريضة الوضوء بحيث أن الفقهاء اعتبروه من الأماكن الدينية فقد نص الاسلام على النظافة واعتبرها من جوهر العقيدة كما وردت في القرآن والأحاديث النبوية دعوة الى التزين والتطيب .

وفي الختام انتشرت في مملكة بني زيان الفنادق والحوانيت والحمامات والقيسريات ودور سك العملة ودور الصناعة مما يؤكد الرخاء وازدهار المجتمع بالرغم من أن الزيانيين قد شغلوا بحروب طويلة غير متكافئة القوة مع العدو .

الفصل الثالث

الحياة الفنية في عهد الزيانيين والمرينيين

د. رشيد بورويبة

تعريب: د. محمد بلقراد

1 . المباني العسكرية :

في ميدان العمارة العسكرية قام الزيانيون بتأسيس معسكر تامزردكت الذي مازلنا نشاهد آثاره بالقرب من مدينة القصر الواقعة على بعد 25 كلم من بجاية . فشيّد هذا المعسكر بأمر من السلطان الزياني أبي تاشفين الأول في سنة 525 هـ/1325 م ، أثناء حصاره لمدينة بجاية التي كانت انذاك بين أيدي الحفصيين .

ولمعسكر تامزردكت سور غير منتظم الشكل يبلغ طوله 400 م وعرضه 100 م وارتفاعه 7 م وسمكه 1,5 م . وكان هذا السور مبنيا بالطوب ومحاطا بخندق يساوي عرضه 15 م . وكانوا يدخلونه من باب محصن ببرجين موضوعين على يمينه ويساره ، أمامهما سور أمامي بينه وبين السور الرئيسي 4 م .

وشيد المرينيون من جهتهم ، أثناء حصارهم لتلمسان ، مدينة المنصورة التي كانت محاطة بسور مربع الشكل مبني بالطوب يبلغ سمكه 1,5 م . وكان هذا السور مكللا بمطاف الحرّاس وشرفات ومحصنا بأبراج مستطيلة يساوي عرضها 7 م وبروزها 3,75 م . كما قام المرينيون ببناء برجين : البرج الأحمر بوهران وبرج المرسى بمرسى الكبير .

واعتنى الزيانيون والمرينيون بتحصين مرسى هنين بالقرب من تلمسان الذي لعب دورا هاما في عهدهم ، ويمتاز ببابه الذي كان يشابه باب البحر لمدينة بجاية .

2 . المباني الدينية الزيانية :

من المباني الدينية التي يرجع عهدها الى الزيانيين نذكر : مساجد سيدي أبي الحسن وأولاد الامام وسيدي إبراهيم وقبّتي سيدي مرزوق وسيدي إبراهيم وعددا كبيرا من المآذن .

أ ــ مسجد سيدي أبي الحسن :

أسس مسجد سيدي أبي الحسن في سنة 696 هـ/1296 م ، كما تدل عليه كتابتان تجري احداهما على لوحة رخامية مرصعة في الجدار الغربي لبيت الصلاة ، والأخرى على لوحتين من الجص موضوعتين على يمين ويسار المحراب . فجاء في هاتين الكتابتين :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما ، بني هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم بن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيّان في سنة ست وتسعين وستمائة من بعد وفاته ، رحمه الله » .

إن هذا المسجد أخذ اسم العالم أبي الحسن يخلف التنسي الذي عاش في عهد أبي سعيد . فيبلغ طول المسجد 10 م وعرضه 9,70 م ويحتوي على بيت صلاة مكونة من ثلاث بلاطات عمودية على جدار المحراب تحددها صفّان من أعمدة من الرخام تعلوها تيجان تعد من أجمل تيجان العالم الاسلامي .

ولمحراب مسجد سيدي أبي الحسن مشكاة سداسية الأضلاع مثل مشكاة محراب الجامع الكبير التلمساني وهي مكللة بقبية مزينة بمقرنصات رائعة الرونق محاطة بطنف تجري عليه كتابة بالخط اللين نرى تحته الواحا مستطيلة مؤثثة بأقواس مذبذبة تعتمد على عميدات من الجص أنيقة الى حد بعيد . وبنائق هذه الأقواس مزينة بأنواط تندرج فيها العبارة « العز لله » .

أما اطار المحراب فهو على قول جميع علماء الآثار من روائع الفن الاسلامي . بصنجه التي تتناوب فيها الزخرفة النباتية والزخرفة الكتابية وحافاته المذبذبة المزينة بكتابات بالخط اللين وحافته المستطيلة المحلاّة بكتابة كوفية نادرة الأناقة ونوافذه المخرمة بدقة خارقة للعادة يمثل هذا المحراب أوج الفن الأندلسي ــ المغربي .

كما يمتاز مسجد سيدي أبي الحسن بسقفه من الأرز المنقوش والزخرفة التي تزين جدرانه وتنتظم حول ثلاث أقواس مذبذبة مندرجة في حافة مستطيلة تجري عليها كتابة بالخط اللين .

ولهذه الأقواس بنائق محلّاة بأوراق وزهور أنيقة الشكل تدور حول الألفاظ التالية : « الله » و « يمن » و « اليمن » أو أنواط موضوعة على بساط من الأوراق . وفوق هذه الأقواس نجد نوافذ وافريزا مزينا بعناصر هندسية .

ب ــ مسجد أولاد الامام :

شيّد مسجد أولاد الامام أربع عشر سنة بعد مسجد سيدي أبي الحسن من طرف الأمير الزياني أبي حمو بجانب المدرسة القديمة حيث كان يدرّس عالمان كانا ابني امام مدينة برشك التي تقع بالقرب من مدينة تنس . ففقد هذا المسجد زينته الزيانية ما عدا القبية التي تعلو المحراب . وتمتاز هذه القبية المزينة بالمقرنصات بقاعدتها التي ترتدي شكل مضلع سداسي الأضلاع ، بينما كانت القبيبات الأخرى ثمانية الأضلاع . وبقي لنا أيضا من هذا المسجد قطع من الجص المنقوش التي كانت تزخرف اطار المحراب . إن هذه القطع المعروضة الآن بمتحف تلمسان تشتمل زخرفتها على حافة مذبذبة وحافتين مستطيلتين احداهما مزينة بمشبكات هندسية والأخرى بكتابة وعناصر نباتية طريفة ؛ أوراق مزدوجة تندرج فيها غصون ملتوية وزهور ذات ثلاثة ، أربعة أو خمسة فصوص ، وثمار الصنوبر مزينة بمعينات .

ج ــ مسجد سيدي إبراهيم :

أسس مسجد سيدي إبراهيم السلطان أبو حمو موسى الثاني . فيمتاز هذا المسجد بأبوابه البارزة التي تماثل أبواب مسجد نينمل بالمغرب الأقصى ، وبسقوفه التي ترتدي شكل جذع هرم أو قبو مهدي الشكل وبالقبة المخدّدة الموجودة أمام محرابه التي تماثل قبة حمام الصباغين غير أن عدد أخاديدها يساوي أربعة وعشرين أخدودا عوضا عن ستة عشر في قبة حمام الصباغين .

د ــ قبة سيدي مرزوق وقبة سيدي إبراهيم :

ليس لقبة سيدي مرزوق الموجودة بزاوية من زاوية الجامع الكبير بتلمسان أهمية فنية كبيرة . بالعكس ، قبة سيدي إبراهيم جديرة بالذكر . إنها تتكون من صحن مربع يبلغ طول ضلعه 6 م ، محاط بأروقة تعتمد على أعمدة أسطوانية الشكل ، والقبة في ذاتها التي تمتاز بما بقي من الزخرفة الفنية المتنوعة التي كانت تزينها في عهد الزيانيين .

تنتظم هذه الزخرفة حول قوس ، تشغل وسط الجدار وتحتوي على حنية محلّات بافريز من الأقواس المشتبكة وأقواس مذبذبة تعتمد على عميدات من الجص مكللة بتيجان منقوشة بدقة كبيرة . وتتميز بنائق هذه الأقواس المذبذبة بزخرفتها المكونة من بساط نباتي تتوسطه قبية ذات ستة عشر اخدودا مندرجة في نجم ثمانية الزوايا . وبجانب الأقواس نجد الواحا

«الحمد لله ربّ العالمين والعاقبة للمتقين ، أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، المقدّس المرحوم ، أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله» .

وفوق هذا الاظار نرى ثلاث حنايا ، الأولى مزينة بأقواس نفلية الفصوص والثانية بأقواس مشبكة ومدببة والثالثة بأقواس نصف دائرية ومدببة بالتناوب . وبنيقتا القوس الخارجية محلاّة بسعيفتين تتوسطان بساطا نباتيا رائع الجمال .

ثم نرى بناء بارزا مزينا بالمقرنصات على يمينه ويساره حاملة منقوشة بدقة عجيبة والحاملتان والمقرنصات تكوّن قوسا متنوعة الفصوص مزينة بلفظة «اليمن» مكتوبة على بساط نباتي أنيق .

هذا فيما يخص زخرفة الباب . أما المئذنة فتتركب زخرفتها من ثلاث ألواح مستطيلة موضوعة بعضها فوق بعض . إن اللوحة الأولى مزينة بقوس متنوعة الفصوص والثانية بشبكة من المعينات تعتمد على قوسين مفصصتين والثالثة مكونة من خمس أقواس ثلاثية الفصوص موضوعة على عميدات تعلوها تيجان جميلة .

وفوق هذه اللوحة الأخيرة كنا نجد ، بدون شك المسطح الذي يكلل البرج الرئيسي .

وما يزيد في القيمة الفنية لمئذنة المنصورة هي الألوان المختلفة التي تمتاز بها العناصر الزخرفية التي تزينه حيث نجد بجانب غمرة الحجر قطع خزفية خضراء وبيضاء وبنفسجية رائعة البهاء .

ب ــ مصلى المنصورة :

يقع مصلى المنصورة على حوالي خمسن مترا من الزاوية الجنوبية ــ الشرقية للمدينة وهو عبارة عن حقل مستطيل محاط بسور من الطوب يبلغ طوله 104 م وعرضه 91 م .

فندخله من ستة أبواب بارزة فقدت الزخرفة التي كانت تزينها في العهد الزياني ما عدا القوسين المدببتين اللتين تزينان دعامة من دعائم أحد الأبواب .

ج ــ مسجد سيدي أبي مدين :

قام بتأسيس مسجد سيدي أبي مدين السلطان المريني أبو الحسن . فأخذ هذا المسجد إسم الولي الذي دفن بالقرب منه وامتاز بمدخله وبابه البرنزي ومحرابه وقبته وسقوفه والزخرفة التي تزين جدرانه وأقواسه وصحنه ومئذنته وميضائه وحمّامه .

تعتبر واجهة مدخل مسجد سيدي أبي مدين من روائع الفن الاسلامي . فتنتظم زخرفتها حول قوس مدببة يبلغ ارتفاعها 7 م ، محاطة بثلاث أقواس مذبذبة مندرجة في إطار مستطيل ومؤثثة بمشبكات مستقيمة منحنية . أما بنائق الأقواس فهي مفرشة بخزف مزين بعناصر نباتية حيث الغصون الملتوية والأوراق تختلط بانسجام تام . تعلو الاطار المستطيل لوحتان أفقيتان مفرشة بالخزف . على الأولى تجري كتابة بالخط اللين جاء فيها :

«الحمد لله وحده ، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيّده الله ونصره ، عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ، نفعهم الله به» .

إن اللوحة الثانية مفرشة بآخر مغطى بمينا أسمر ومزين بأشرطة خضراء تشكل خمسة ورود ثمانية الفروع في وسطها مربع ثماني الزوايا مندرج في نجم ثماني الأسنان . أما الظلة التي تكلل واجهة المدخل فهي من القرميد المبرنق وتعتمد على حاملات مزدوجة أنيقة الشكل .

وعندما نصعد السلم الذي يؤدي الى السقيفة نتعجب من الزخرف التي تزين باطن القوس والدعامتين اللتين يعتمد عليهما وجدران السقيفة . إن باطن القوس مؤثث بشبكة من المعينات من الخزف تعتمد على قوس متنوعة الفصوص موضوعة على تسعة عميدات . والانتقال من الدعامة الى القوس يتم بواسطة زينتين مقعرتين موصوعتين على يمين ويسار الباب تجري عليهما الكتابتين التاليتين : «مما أمر به مولانا أبو الحسن عبد الله علي» ، «أيده الله بالنصر والتمكين والفتح المبين» . وفوق هاتين الكتابتين نجد افريزا من الشرفات ثم شبكة من المعينات تماثل الشبكة التي تزين باطن القوس .

وللجدارين الجانبين للسقيفة بابان ، أحدهما يؤدي الي المدرسة والآخر الى حجرة خاصة لايواء الزائرين . وتتنظم زخرفة الجدارين الجانبين للسقيفة حول هذين البابين ، فتبدأ بحافتين أفقيتين . إن الحافة السفلية مكونة من لويحات مستطيلة تجري عليها العبارة «الحمد لله على نعماته» بالخط الكوفي ، ولويحات مربعة مزينة بعناصر نباتية محاطة بشريط مزين بكتابة بالخط اللين جاء فيها : «يا ثقتي يا أملي أنت الرجا أنت الولي أختم بخير عملي» وهي نفس الكتابة التي تزين مئذنة المشوار . والحافة العلوية أضيق من السفلى وتقدم هي الأخرى لويحات مستطيلة ومربعة مؤثثة بزخرفة كتابية .

على يمين ويسار كل باب نجد لوحة مستطيلة مزينة بقوسين نصف دائريتين مفرشتين بمعينات حيث تبرز لفظة «بركة» على بساط من الأوراق الأنيقة . وفوق الباب والألواح المستطيلة نرى افريزا مكونا من خمس أقواس محلّاة بمشبكات نباتية ثم عنصرا معماريا بارزا مزينا بالمقرنصات وشريطا تجري عليه كتابة وأخيرا قبة مزينة بالمقرنصات تعتبر بحق من روائع الفن الأندلسي المغربي .

يقال أن الباب البرنزي الذي يفصل السقيفة عن صحن المسجد أهدي للسلطان المريني لفداء أسير مسيحي . على كلّ لم نجد أبوابا كثيرة منقوشة بالدقة والذوق اللذين يمتاز بهما . تتكون زخرفته من قضبان من البرنز يساوي عرضها 2 سم تشكل على كل دقّة أربع ورود ذات ستة عشر فرعا يشغل وسطها نجم ذو ست عشرة زاوية . إن المضلعات المختلفة المشكلة تقدم زخرفة غنية مكونة من غصون ملتوية وأوراق أنيقة .

وكيف لا نذكر مطرقة الباب التي تتكون من جزء ثابت على شكل حاملة وجزء متحرك على شكل قوس مذبذبة تنتهي بمقبض يمثل زهرة ثلاثية الفصوص .

وبعدما نفتح الباب البرنزي كم من مفاجأة أخرى تنتظرنا . نذكر في مقدمتها المحراب الذي يمتاز بالأخص بالتاجين اللذين تعتمد عليهما قوسه ويعتبران أجمل التيجان الرخامية الموجودة بالعالم الاسلامي . ويمتاز هذان التاجان بالكتابتين اللتين تجريان عليهما :

« هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين » ، « ابتغاء وجه الله العظيم ورجا ثوابه الجسيم كتب الله له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجات » .

إن اطار محراب مسجد سيدي أبي مدين يشابه اطار محراب مسجد سيدي أبي الحسن ، ولكن لا يساويه في دقة النقش وأناقة العناصر الزخرفية .

ونجد أمام المحراب قبة مخرمة مزينة بعناصر نباتية تمتاز بقاعدتها الأسطوانية المزخرفة بقطع زجاجية مختلفة الشكل واللون . أما السقوف فهي فريدة من نوعها لأنها محلاّة بورود ونجوم ومضلعات تختلف من سقف الى آخر .

وهناك شيء آخر ينال اعجابنا ، الزخرفة الجصية التي تزين جدران وأقواس بيت الصلاة التي تفوق ما شاهدناه في المساجد الأخرى في الأناقة والرونق ودقة النقش .

ولمسجد سيدي أبي مدين صحن مربع مفرش بالخزف في وسطه حوض على شكل صدفة . ومن هذا الصحن نرى المئذنة التي تشابه المآذن الزيانية ولا تختلف عنها الا بالفسيفساء الخزفية التي تزين القسم العلوي لبرجها الرئيسي وبشرفاتها المزخرفة والعناصر النباتية التي تزين الجوسق .

د ـــ ميضاء وحمّام سيدي أبي مدين :

يوجد الميضاء بالقرب من المسجد وهو أقدم ميضاء وصل الينا على حالته الأصلية . فيشتمل على قاعة مربعة يساوي طول ضلعها 4,20 م ، مغطات بقبة مكونة من جذع هرم ثماني القاعدة يعلوه هرم مزين بورود وفرج ثمانية الأضلاع . وفي القاعة نجد حوضين مستطيلين ومراحيض .

أما الحمام الموجود بجانب الميضاء فمازال يستعمل الى الآن . فيحتوي على ممر وقاعة يبلغ طولها 8 م وعرضها 6 م ، مغطاة بقبة ثمانية القاعدة والوجوه وثلاث غرف متوازية تعلوها أقبية مهدية الشكل .

هـ ـــ قبة سيدي أبي مدين ومدرسته :

قد ذكرنا أن هذه القبة بنيت في عهد الموحدين ولكن المرينيين أدخلوا فيها اصلاحات هامة منها الأعمدة والتيجان التي تزين الصحن الموجود أمام القبّة .

أما المدرسة فهي أقدم مدرسة شيدت في الجزائر ووصلت إلينا على حالها الأصلي . فندخلها من باب رائع الجمال تعلوه ظلة تعتمد على حاملات مغبرة مزدوجة . ويؤدي هذا الباب الى صحن المدرسة المحاط بأروقة من جهاته الأربع . تطل حجر الطلبة على الرواقين الشرقي والغربي . في كل حجرة نرى نافذة موجودة فوق الباب ومشكاة كان يضع فيها الطالب مصباحه وكتبه ونرى في الصحن سلما يؤدي من الصحن الى حجر الطابق الأول وممر يؤدي الى الميضاء . وفي مؤخر الصحن يوجد باب المدرسة وهي قاعة مربعة يبلغ طول ضلعها 5,8 م ، كانت تستعمل أيضا كبيت صلاة ، كما يدل عليه المحراب الموجود في وسط الجدار الجنوبي . إن هذه القاعة فقدت زينتها الأصلية ما عدا بعض القطع الجصية والقبة . فقامت ادارة الآثار الجزائرية في هذه السنين الأخيرة بإصلاحها اعتمادا على الآثار التي كانت مازالت موجودة . ولهذه المدرسة قبة خشبية قاعدتها مزينة بكتابة تعطينا اسم المؤسس وهو السلطان أبو الحسن وتاريخ البناء ، عام 747 هـ/1347 م .

و ـــ مسجد سيدي الحلوي :

أسسه السلطان المريني أبو عنان المريني كما تدل عليه الكتابة التي تزين واجهة مدخل المسجد :

«الحمد لله وحده ، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فارس بن مولانا السلطان أبي الحسن علي بن مولانا السلطان أبي عثمان بن مولانا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام أربع وخمسين وسبع مائة» .

يشابه هذا المسجد مسجد سيدي أبي مدين . فله مثله بيت صلاة مكون من خمس بلاطات عمودية على جدار المحراب ، وصحن مربع ومئذنة موضوعة في الزاوية الشمالية الغربية ، ومدخل مزخرف ولا يختلف عنه الا في بعض العناصر المعمارية .

كانت أقواس مسجد سيدي أبي مدين تعتمد على دعائم بينما نرى أقواس مسجد سيدي الحلوي تعتمد على أعمدة وتيجان . ومن جهة أخرى كانت سقوف مسجد سيدي

أبي مدين من الجص المنقوش ، بينما نشاهد أن سقوف مسجد سيدي الحلوي من الخشب المنقوش . وأخيرا القبة الموجودة أمام محراب مسجد سيدي أبي مدين لا توجد بمسجد سيدي الحلوي .

وبجانب مسجد سيدي الحلوي نرى ميضاء يرجع تاريخه الى العهد المريني وهو مكون من قاعة مربعة يبلغ طول ضلعها 3,40 م فيها حوضان وسبعة مراحيض . فتعلوها قبة نصف كروية الشكل مزينة بمضلعات منجمة وورود منقوشة في الجص مخرمة بفرج على شكل نجوم سداسية أو ثمانية الزوايا تدور حول فرجة على شكل نجم ذي إثنى عشر فرعا .

4 . القصــور :

أ ــ القصور الزناتية :

لم تبق آثار للقصور التي بناها أبو تاشفين الأول وهي « دار السرور » و « دار الملك » و « دار أبي فهر » . ومن قصر المشوار الذي شيده يغمراسن مازال لنا الا السور الذي ادخلت عليه اصلاحات عديدة .

ب ــ القصور المرينية :

لم يبق لنا من قصر الفتح الذي شيده أبو الحسن في سنة 744 هـ/1344 م بمدينة المنصورة الا الأعمدة والتيجان المعروضة بمتحف تلمسان وبصحن قبة سيدي أبي مدين .

وأما قصر العباد الموجودة بالقرب من مسجد سيدي أبي مدين مازلنا فشاهد آثاره . إن القسم الذي زرناه يتكون من ثلاث مجموعات من المباني موزعة حول ثلاثة صحون .

إن الصحن الأكبر على شكل مستطيل ومحاط بأربع غرف مسطولة مغطاة بأقبية مهدية الشكل . والصحن الثاني محاط بثلاث غرف ينطلق منها سلّمان أحدهما يؤدي الى الطابق الأول والآخر الى الحمّام . والصحن الثالث مربع الشكل وتطل عليه غرفة وحيدة .

هذا فيما يخص التصميم ، أما فيما يتعلق بالزخرفة فمازلنا نشاهد أقواسا بواطنها مزينة بطيات أفقية تذكرنا ببواطن أقواس قصر الحمراء بغرناطة . كما وصلت الينا قطع جصية مزينة بزخرفة رائعة الجمال .

5 . أعمــال الري :

قام السلاطين الزيانيون بعدة أعمال في ميدان الريّ . فمازلنا نعثر في ضواحي مدينة تلمسان ، على قنوات من الطوب كانت تنحدر من الجبل وتؤدي الماء الى الأحواض التي كانت تستعمل لسقي البساتين .

وأهم حوض ورثناه من العهد الزياني هو الصهريج الكبير الموجود غربي المدينة بين السور الرئيسي والسور الأمامي والذي يبلغ طوله 200 م وعرضه 100 م وعمقه 3 م . وقيل أنه كانت تلعب فيه الزوارق في عهد مؤسسه أبو تاشفين الأول وخلفائه .

6 . التحـــف :

من بين التحف التي ورثناها من الزيانيين نذكر حوض الجامع الكبير التلمساني والثريّا التي أهداها يغمراسن لنفس المسجد والذراع الملكي وشواهد قبور من الرخام وقطع من الجص المنقوش المحفوظة بمتحف تلمسان وقطع من الفسيفساء الخزفية التي كانت تزين المدرسة التاشفينية والمعروضة بمتحفي تلمسان والجزائر وبعض الدنانير التي نشاهدها بمتحف الجزائر .

أما بالنسبة الى التحف التي يرجع تاريخها الى عهد المرينيين فأهمها هي الأعمدة والتيجان التي عثر عليها بالمنصورة وقطع من سقف مسجد سيدي الحلوي المعروضة بمتحفي تلمسان والجزائر .

أهم الأحداث التاريخيــة

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
					1227/624 وفاة جنكيز خان
		/647 — 625 1228 — 49 أبو زكرياء يحي الحفصي			
681 — 633 1235 — 82 يغمراسن بن زيان			1231/628 تأسيس دولة بني الأحمر		1225 — 1275 توماس أكويناس
			1235/633 استيلاء الاسبان على قرطبة		
			1238/635 بداية تشييد قصر الحمراء بغرناطة		
					1240/638 تأسيس إمبراطورية مالي
			1240/638 وفاة محي الدين ابن العربي		

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
			1248 — 645 استيلاء الاسبان على اشبيلية		
	1248/646 يغمراسن بن زيان ينتصر على السعيد الموحدي				
		647 — 675/ 1249 — 77 محمد المستنصر			
	656 — 685/ 1258 — 86 أبو يعقوب يوسف المريني			1258/656 سقوط بغداد واستيلاء المنغول عليها	
				1260/658 بيبرس على رأس دولة المماليك بمصر	
	1269/668 استيلاء بني مرين على مراكش وانقراض دولة الموحدين				

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
					1270/669 فشل لويس التاسع في الحملة الصليبية الخامسة ضد تونس
	1274/672 استيلاء بني مرين على سجلماسا			1273/672 وفاة جلال الدين الرومي ووفاة ناصر الدين الطوسي	
	1276/674 تأسيس فاس الجديد	675 ـ 678 1277/79 الواثق الحفصي			
		678 ـ 683/ 1279 ـ 84 أبو اسحاق الحفصي		1279/678 قلاون على رأس دولة المماليك بمصر	
					679 ـ 769/ 1280 ـ 1368 اسرة يوان بالصين
68[illegible] ـ 703/ 1282 ـ 130[illegible] أبو سعيد عثمان بن يغمراسن					

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الأندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
		683 — 694/ 1284 — 95 عمر المستنصر الحفصي			
		1284 — 683 استيلاء نصارى صقلية على جربة			
	685 — 706/ 1286 — 1307 أبو يعقوب يوسف المريني				
				1291/690 استيلاء المسلمين على عكة . آخر مركز للصليبيين في المشرق	
				1292/691 وفاة الشاعر الايراني سعدي	
					1294/693 وفاة روجي باكون الانجليزي

المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
				1305/705 بداية عهد البابا كليمان الخامس
	1306/706 بداية رحلة التيجاني			
710 — 731/ 1310 — 31 أبو سعيد ابن يعقوب				
	1311/711 وفاة ابن منظور			

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
					1321/721 وفاة دانتد
	1325/725 بداية رحلة ابن بطوطة				
				1326/726 وفاة عثمان مؤسس الدولة العثمانية	
				1328/728 وفاة بن تيمية	
	731 — 752/ 1331 — 51 أبو الحسن المريني	732 — 808/ 1332 — 1406 عبد الرحمان ابن خلدون			
1357/737 استيلاء أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط					1337/737 حرب مائة سنة بين فرنسا وانجلترا

الجزائر	تونس ليبيا	المغرب الأقصى	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
		1347/748 استيلاء أبي الحسن المريني على افريقيا			
/753 — 1348 — سعيد الثاني	/759 — 749 1348 — 58 أبو عنان المريني				
1352 — أبي عنان المغرب					1352/753 ثورة الصين الجنوبية ضد دولة أسرة يوان
/791 — 1359 — حمو موسى	/762 — 760 1359 — 61 أبو سالم بن أبي الحسن				
					1360/761 معاهدة كالي بين فرنسا وانجلترا
	/767 — 763 1362 — 66 أبو زيان المنتصر				

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	/800 — 799 1396 — 98 أبو عامر عبد الله بن أحمد				
	/823 — 800 1398 — 1430 أبو سعيد عثمان الثالث				
/804 — 801 1399 — 1402 عبد الله الأول					
	1399/803 هجوم الاسبان على تطوان			— 1401/803 1400 تيمورلنك بالعراق والشام	
/813 — 804 1402 — 11 محمد بن خولة				1402/804 انتصار تيمورلنك على الأتراك في أنقرة	
/814 — 813 1411 — 12 عبد الرحمان بن محمد بن خولة				1405/807 وفاة تيمورلنك	

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
/827 — 814 1412 — 24 أبو مالك عبد الواحد الزياني					
	1415/818 استيلاء البرتغاليين على سبتة				
	1420/823 سقوط الدولة المرينية				
	/863 — 823 1420 — 58 أبو زكرياء يحيى الوطاسي				
					/855 — 824 1421 — 55 مراد الثاني العثماني
/831 — 827 1424 — 28 محمد الثاني الزياني					
/833 — 831 1428 — 30 عبد الواحد (ثانيا)					
/834 — 833 1430 — 31 محمد الثاني (ثانيا)					

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
834 — 866/ 1431 — 62 أبو العباس أحمد العاقل					
	839 — 893/ 1435 — 88 أبو عمرو عثمان الحفصي				
				1442/845 وفاة المقريزي	
				855 — 886/ 1451 — 81 محمد الثاني العثماني	
					856 — 925/ 1452 — 1519 ليونار دو فانسي
				1453/857 فتح العثمانيين للقسطنطينية	1453/857 جوتمبرج يخترع الطباعة بماينس
866 — 873/ 1462 — 68 محمد الثالث المتوكل على الله					
	1465/869 وفاة الجزولي				

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
/910 — 873 1468 — 1505 محمد الثابتي					
	1471/875 استيلاء البرتغاليين على طنجة				
	/910 — 875 1471 — 1505 محمد الشيخ بن يحيى الوساطي				
				/918 — 886 1481 — 1512 أبا يزيد الثاني العثماني	
	1497/892 استيلاء الاسبان على مليلة				
		/894 — 893 1488 — 89 أبو زكرياء يحيى الثالث			
		/895 — 894 1489 — 90 عبد المؤمن بن إبراهيم الحفصي			

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
		895 — 899/ 1490 — 95 زكرياء الثاني			
			1492/897 انقراض دولة بني الأحمر بغرناطة		
		899 — 932/ 1495 — 1526 محمد الخامس بن الحسن			
	1500/906 استيلاء البرتغاليين على أغادير				
1505/910 استيلاء الاسبان على المرسى الكبير	910 — 931/ 1505 — 24 محمد البرتغالي				
910 — 922/ 1505 — 16 محمد الخامس بن محمد الثاني					1505/911 وفاة السيوطي
	1507/913 استيلاء البرتغاليين على آسفي				

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
1509/914 استيلاء الاسبان على وهران					
1510/915 استيلاء الاسبان على بجاية					1509/915 احتلال البرتغاليين للبرازيل
				918 — 926/ 1512 — 20 سليم الأول العثماني	
922 — 934/ 1516 — 28 أبو محمد الثالث بن محمد الثابتي					
				926 — 974/ 1520 — 66 سليمان القانوني	
				1524/930 وفاة المؤرخ ابن إياس	
	1525/931 استيلاء السعديين على مراكش				
	931 — 955/ 1524 — 48 أحمد بن محمد البرتغالي				

الجزائر	المغرب الأقصى	افريقية	الاندلس	المشرق الاسلامي	بلدان أخرى
	/965 — 932 1517 — 57 محمد الشيخ السعدي	/950 — 932 1526 — 43 الحسن الحفصي			
					1529/933 حصار العثمانيين لفيينا
/947 — 934 1528 — 40 عبد الله بن أبي حمو الثالث					
/957 — 947 1540 — 50 أبو زيان بن عبد الله					
1541/948 فشل هجوم كارس الخامس على الجزائر					
		/976 — 950 1543 — 69 أبو العباس أحمد الثالث الحفصي			
/964 — 957 1550 — 56 الحسن بن عبد الله الزياني					
1556/964 انقراض الدولة الزيانية					

مراجع الباب الثامن

ـــ ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، 14 ج القاهرة ، 1303 هـ .

ـــ أحمد بابا التنبكتي ، **نيل الابتهاج في تطريز الديباج** ، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ .

ـــ حاجيات عبد الحميد ، **أبو حمو موسى الزياني** ، حياته وآثاره ، الجزائر ، 1974 .

ـــ ابن حجر العسقلاني ، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، 4 ج ، حيدر أباد ، 1348 ـــ 1350 هـ .

ـــ الحفناوي ، **تعريف الخلف برجال السلف** ، جزآن ، الجزائر ، 1906 .

ـــ أبو حمو موسى العبد والوادي ، **واسطة السلوك في سياسة الملوك** ، تونس ، 1279 هـ .

ـــ ابن خلدون (عبد الرحمان) ، **كتاب العبر** ، 7 ج ، بيروت ، 1957 .

ـــ ابن خلدون (يحيى) ، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، ج 1 ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، 1980 .

ـــ ابن خلدون (يحيى) ، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، **في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، ج 2 ، نشر الفرديل ، الجزائر ، 1913 .

ـــ ابن خميس ، **المنتخب النفيس في شعر أبي عبد الله بن خميس** ، تقديم عبد الوهاب بن منصور ، تلمسان ، مطبعة ابن خلدون ، 1365 هـ .

ـــ ابن أبي دينار القيرواني ، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، 1967 .

ـــ ابن أبي زرع ، **الأنيس المطرب بروض القرطاس** ، فاس ، 1303 هـ .

ـــ الزركشي ، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ، 1966 .

ـــ السخاوي ، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** ، 12 ج ، القاهرة ، 1353 هـ .

ـــ ابن الشماع ، **الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية** ، تحقيق الكعّاك ، تونس ، 1936 .

ـــ الطمّار ، **تاريخ الأدب الجزائري** ، الجزائر ، 1969 .

ـــ العبدري ، **الرحلة المغربية** ، تحقيق ابن جدو ، قسنطينة ، 1964 .

ـــ الغبريني ، **عنوان الدراية** ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1910 .

ـــ ابن فرحون ، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، القاهرة ، 1951 .

ـــ ابن قنفد القسنطيني ، **الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية** ، تونس ، 1968 .

ـــ ابن قنفذ القسنطيني ، **الوفيات** ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، 1971 .

ـــ ابن مرزوق التلمساني ، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، الجزائر ، 1981 .

ـــ ابن مريم ، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1908 .

ـــ المقّري ، **نفح الطيب** ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، 10 ج ، القاهرة ، 1949 .

ـــ المقّري ، **أزهار الرياض** ، 3 ج ، القاهرة ، 1939 ـــ 1942 .

ـــ مؤلف مجهول الاسم ، **الذخيرة السنة** ، نشر محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1921 .

ـــ مؤلف مجهول الاسم ، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ، نشر علوش ، الرباط ، 1936 .

ـــ النصاري السلاوي ، **الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى** ، 9 ج ، الدار البيضاء ، 1954 ـــ 1956 .

ـــ الونشريسي ، **المعيار المغرب والجامع المعرب عما تضمنه فتاوي علماء إفريقية والمغرب** ، 12 ج ، فاس ، 1314 ـــ 1315 هـ .

Brunschvig (Robert), Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XV^e siècles : Abd-albasit b. Khalil et Adorne, Paris, 1936.

Bargès (J.J.L.), Histoire des Béni Zeiyan, Rois de Tlemcen, trad. part. du Nazm al durr wa'l-Iqyan d'al-Tanasi. 1 vol, Paris, 1852.

Bargès (J.J.L.), Complément de l'Histoire des Béni Zeiyan, Rois de Tlemcen, Paris, 1887.

Bel (Alfred), La religion musulmane en Berbérie, I, Paris, 1938.

Bourouiba (Rachid), L'art religieux musulman en Algérie, Alger, 1973.

Marçois (Georges), Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècles, Constantine — Paris, 1913.

Marçois (Georges), La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946.

Marçois (William & Georges), Les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903.

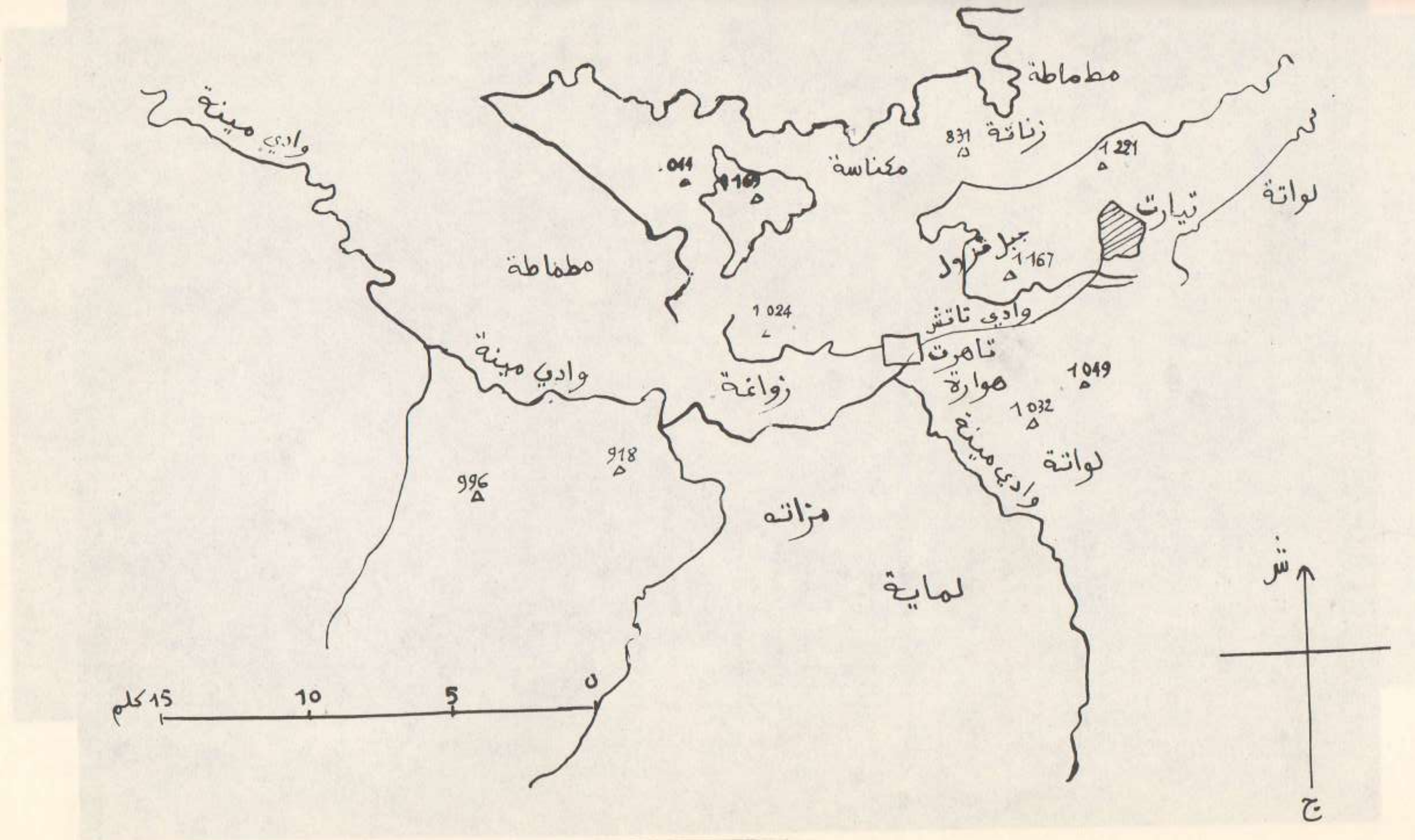
Julien (Ch-A.), Histoire de l'Afrique du Nord, II, Paris, 1961.

Laroui (A.), l'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse, Paris, 1970.

الخرائط والصور

خرائط وصور

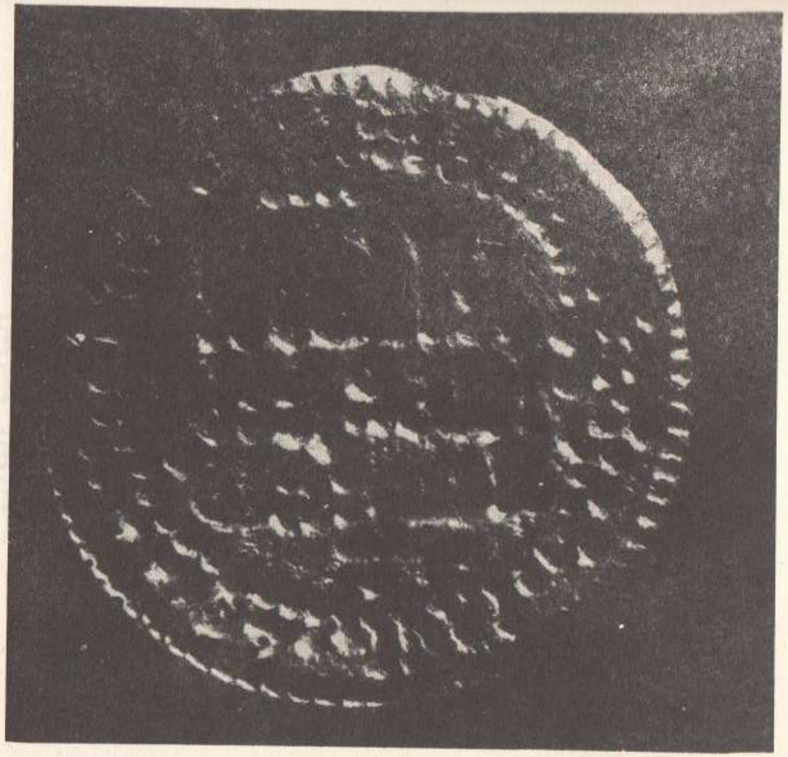
الباب الثاني



تاهرت ونواحيها (عن A. Nègre)



آثار تاهرت

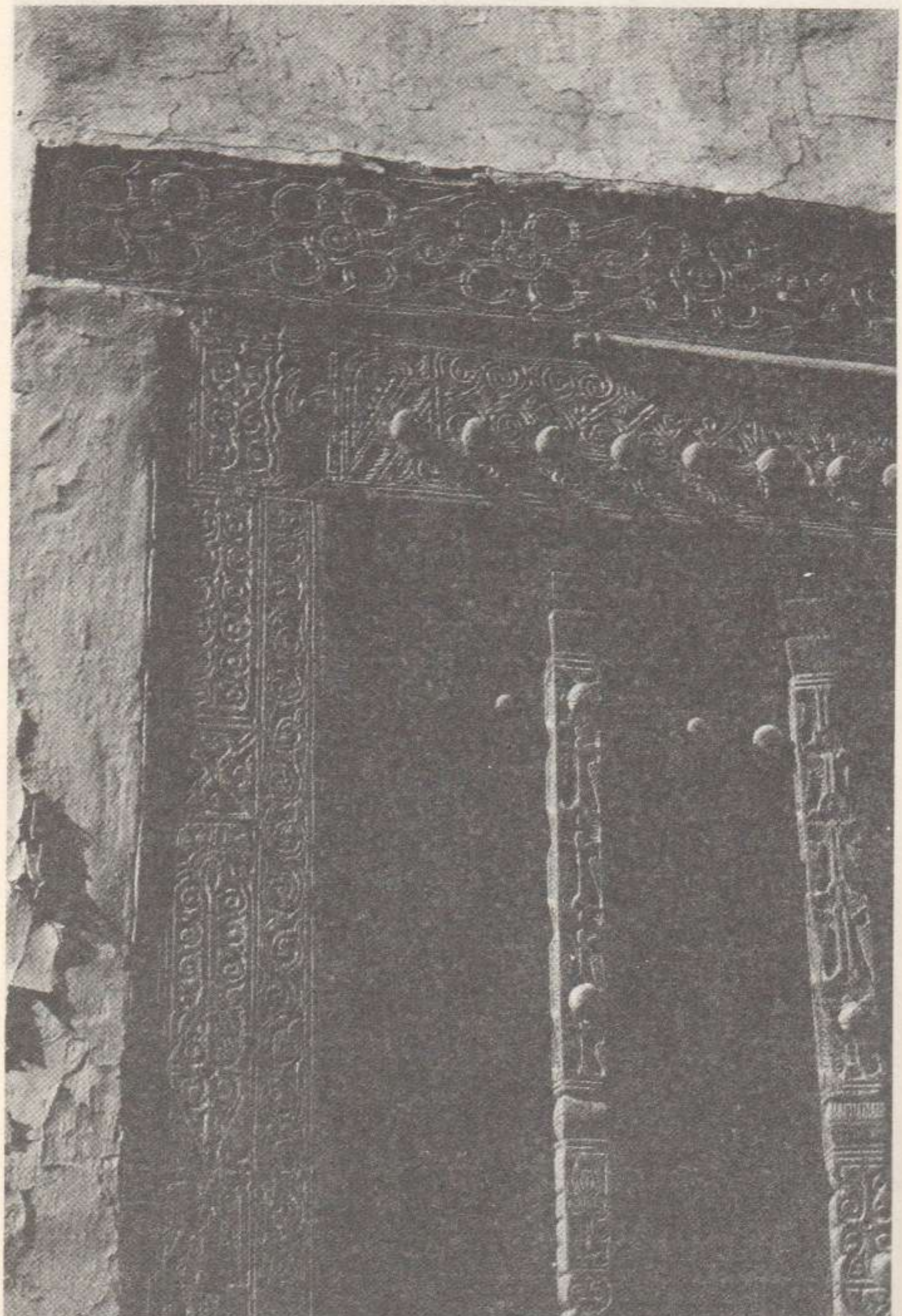


دينار أغلبي



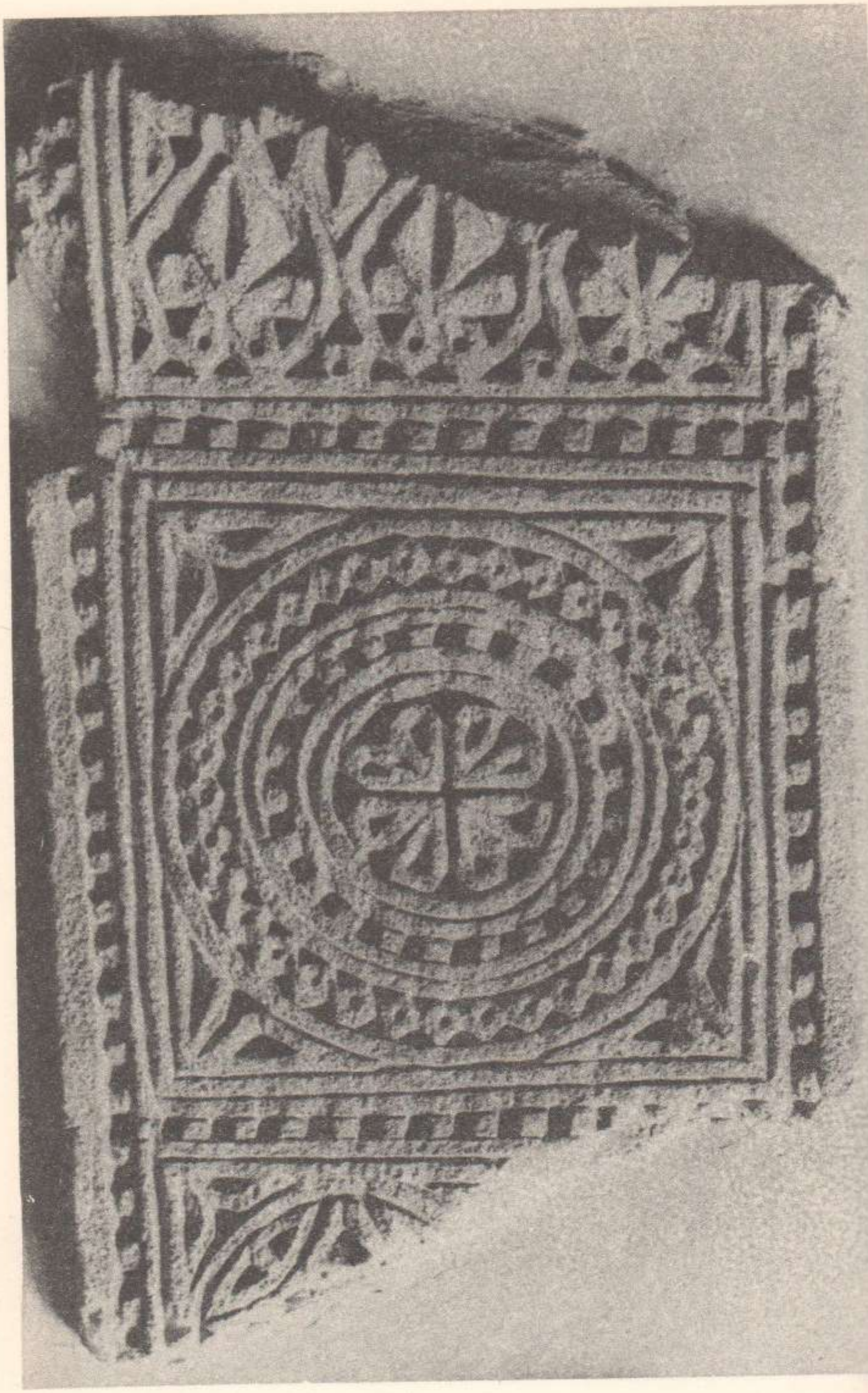
دينار أغلبي

خرائط وصور
الباب الثالث


باب ضريح سيدي عقبة



آثار قصر زيري بن مناد بأشير



لوحة من الجص المنقوش لمدينة سدراته

خرائط وصور
الباب الرابع



وادي فرج بقلعة بني حماد



تاج من قصر المنار بقلعة بني حماد



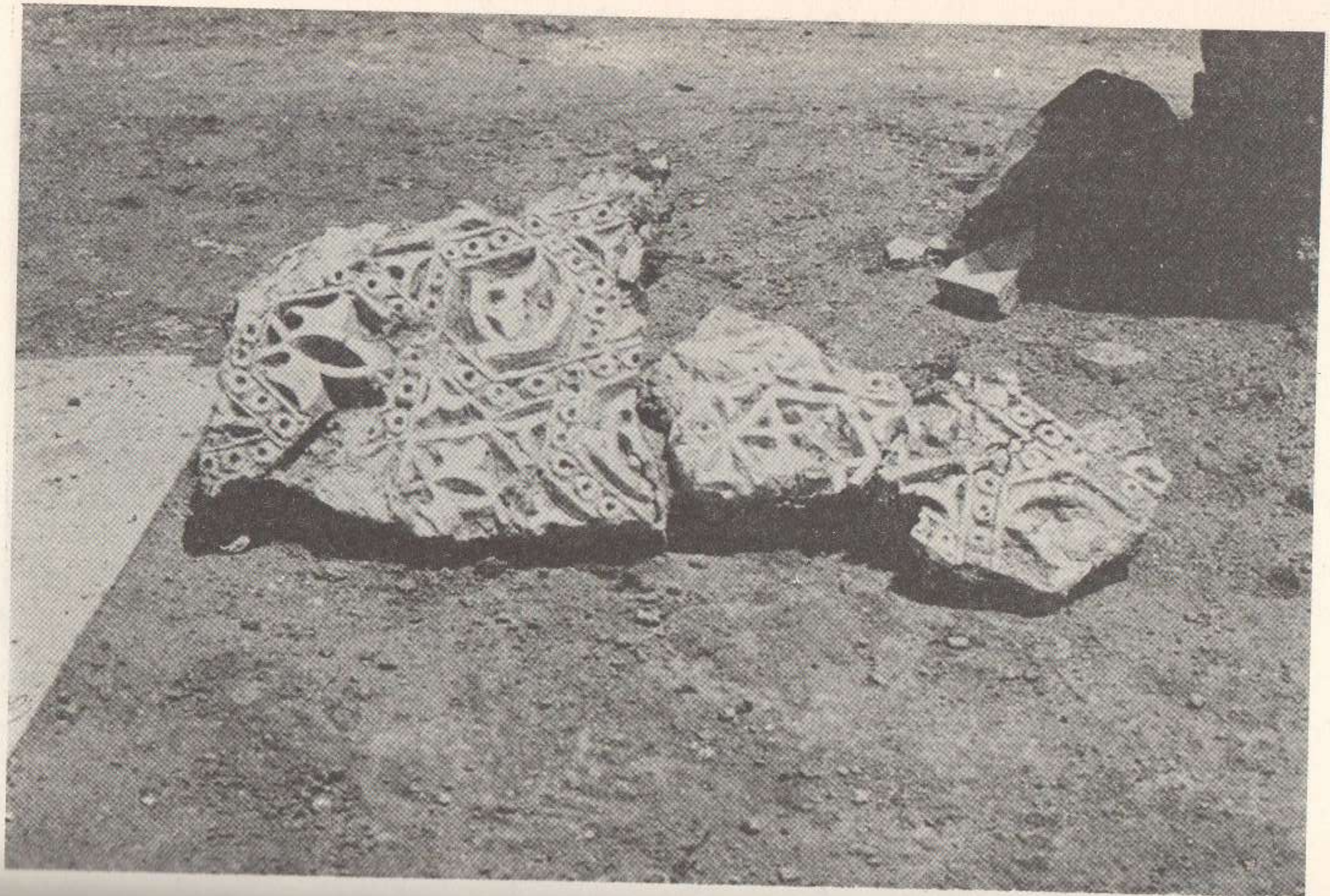
آثار قصر المنار بقلعة بني حماد



تاج القاعة الشرفية لقصر المنار بقلعة بني حماد



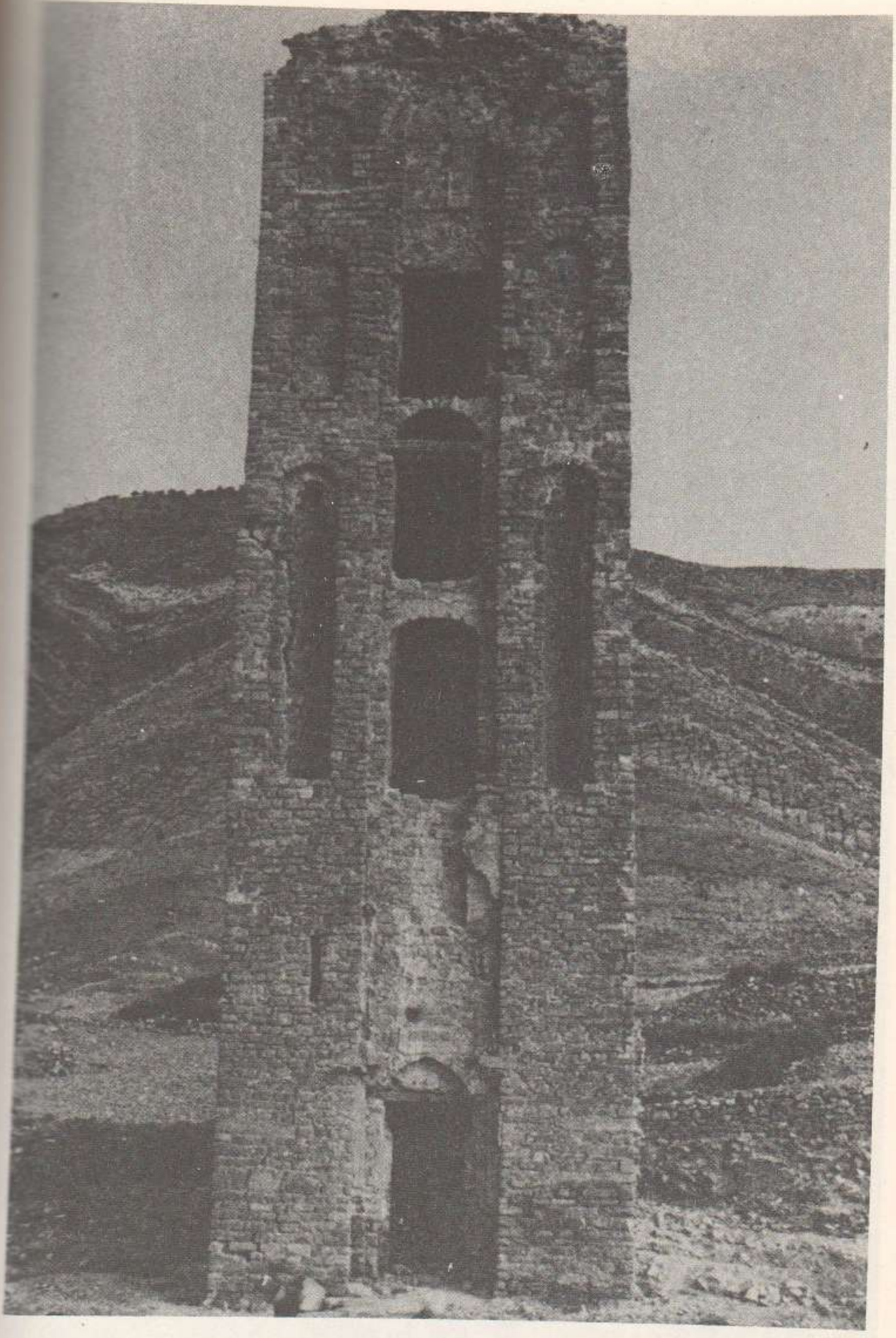
قطعة من الجص الملون عثر عليها بقلعة بني حماد



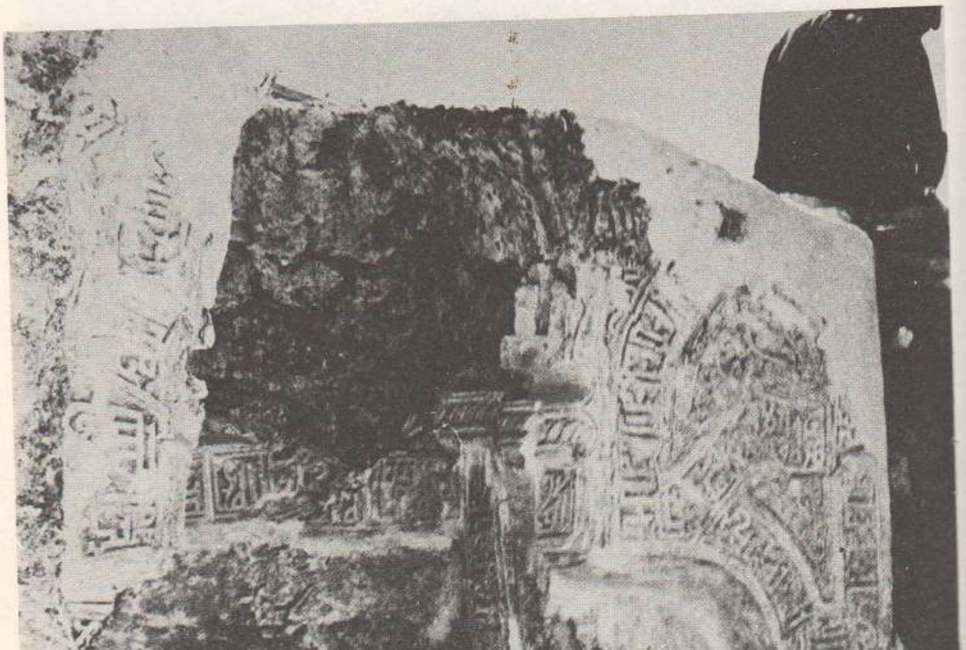
قطع من الجص المنقوش عثر عليها بقلعة بني حماد



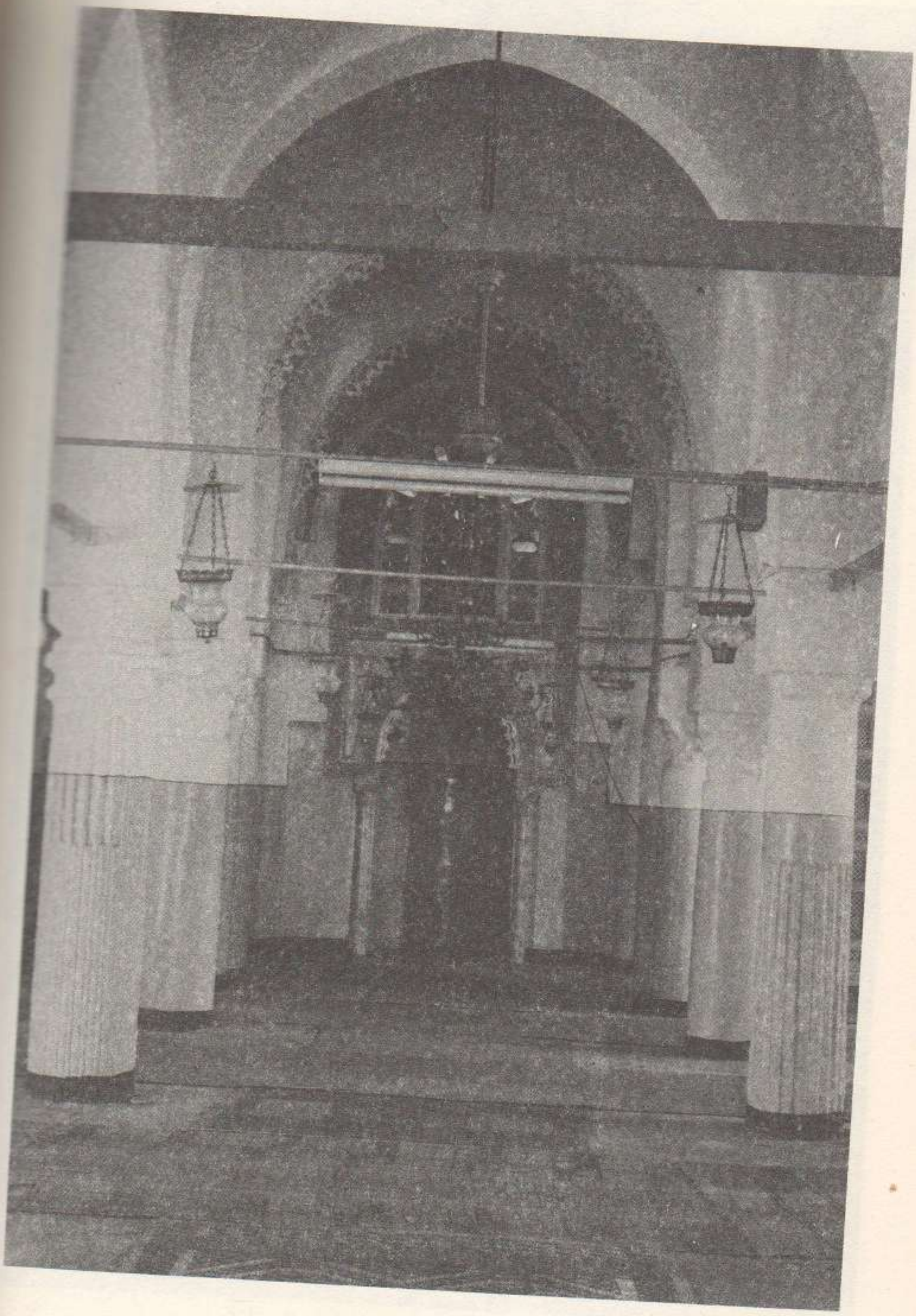
آثار الجامع الكبير بقلعة بني حماد



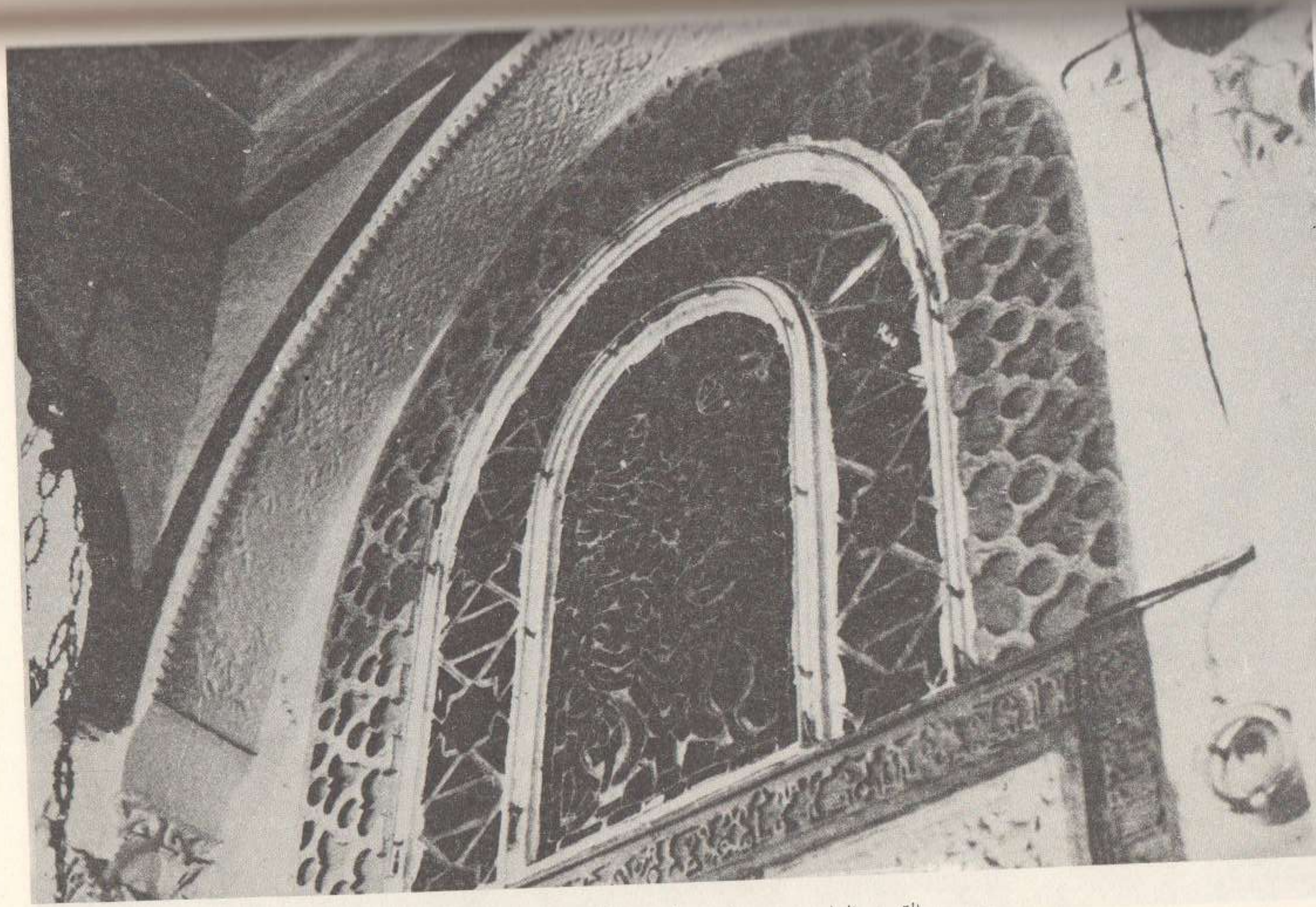
مئذنة الجامع الكبير بقلعة بني حماد



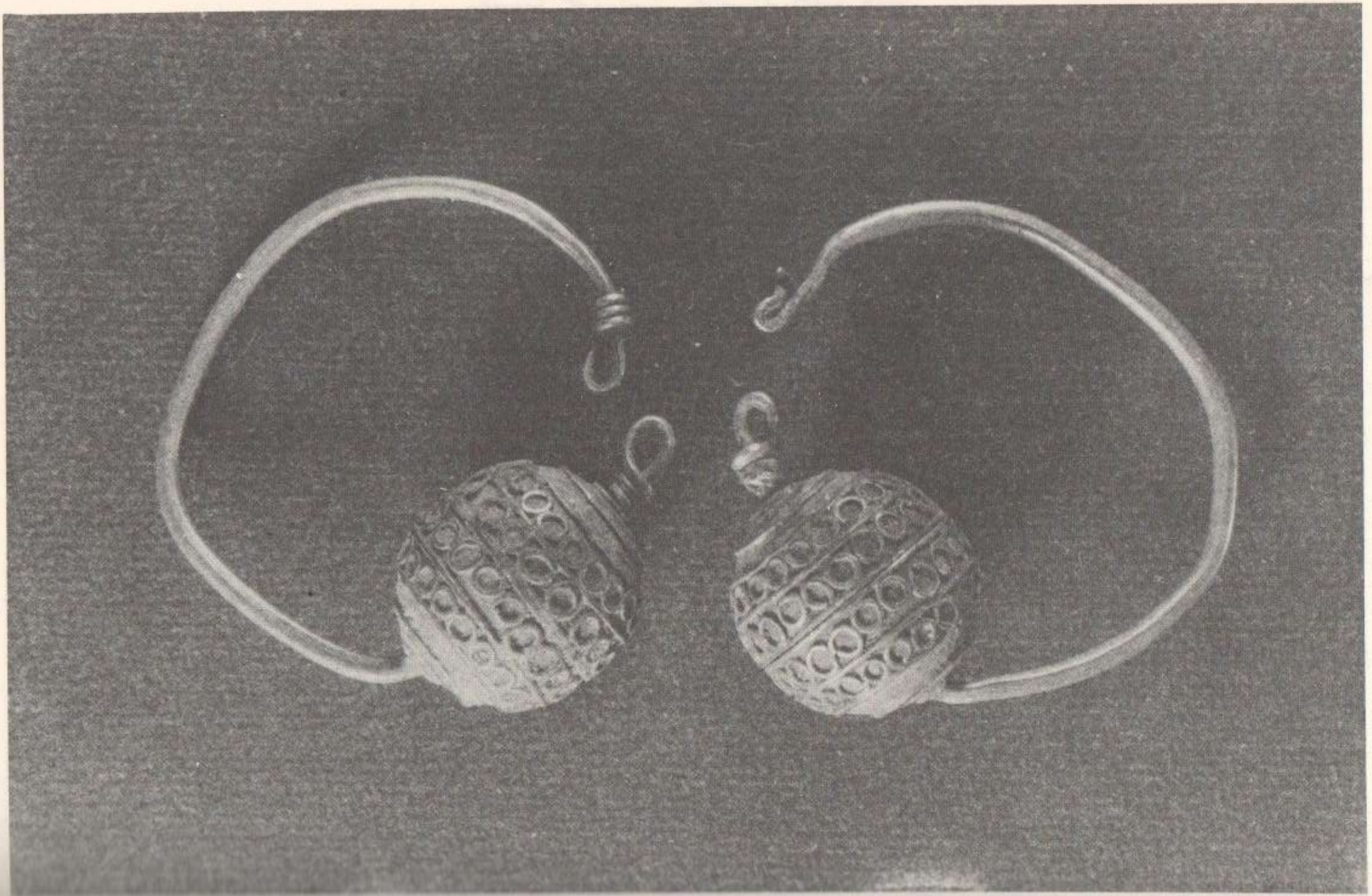
محراب مسجد قصر المنار بقلعة بني حماد



محراب الجامع الكبير بقسنطينة



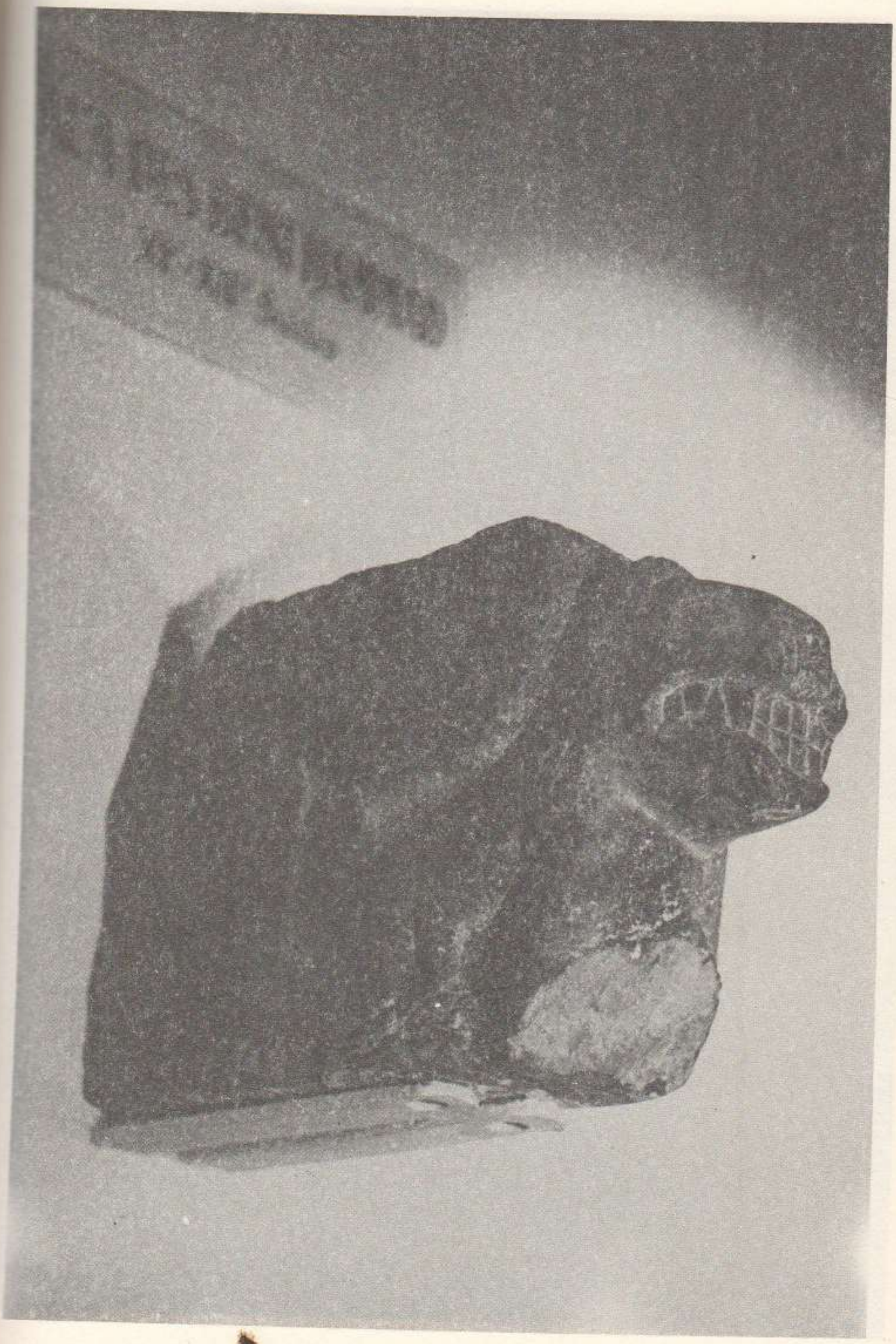
القسم العلوي من محراب الجامع الكبير بقسنطينة



قرطان من الفضة عثر عليهما بقلعة بني حماد



نوط عثر عليه بقلعة بني حماد

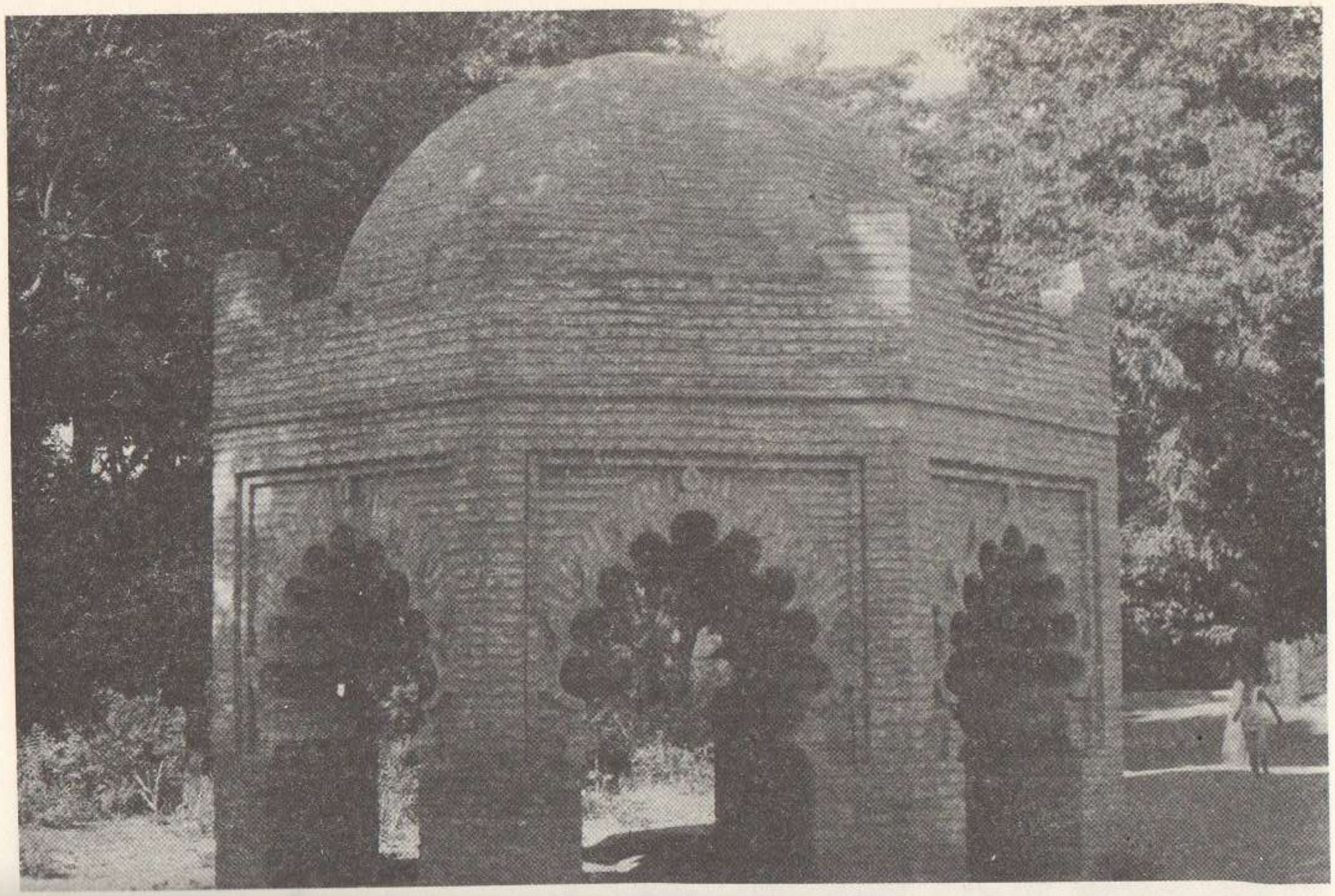


أسد من الرخام عثر عليه بقلعة بني حماد

خرائط وصور
الباب الخامس



بيت الصلاة للجامع الكبير بتلمسان

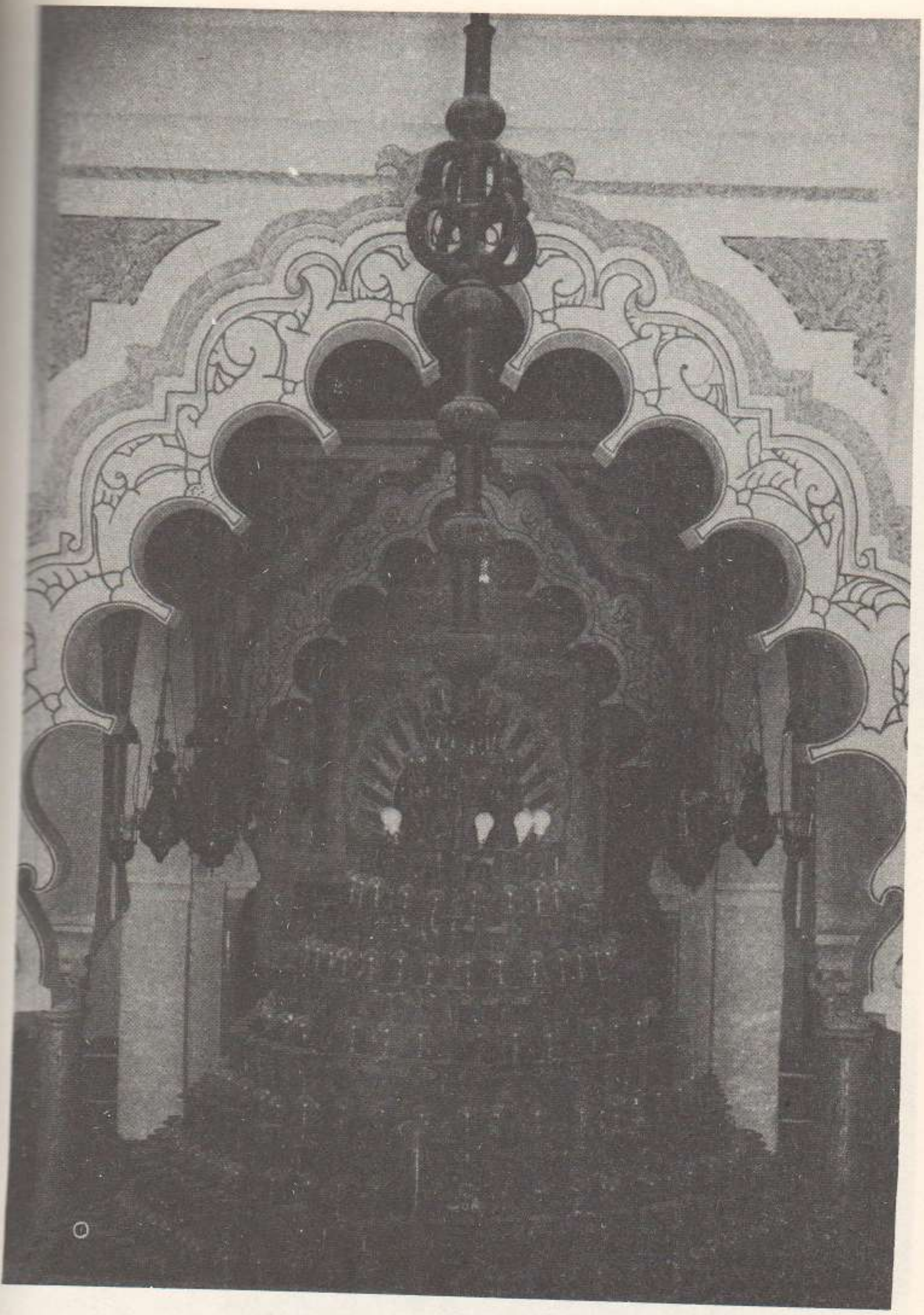


ضريح السلطانة بتلمسان

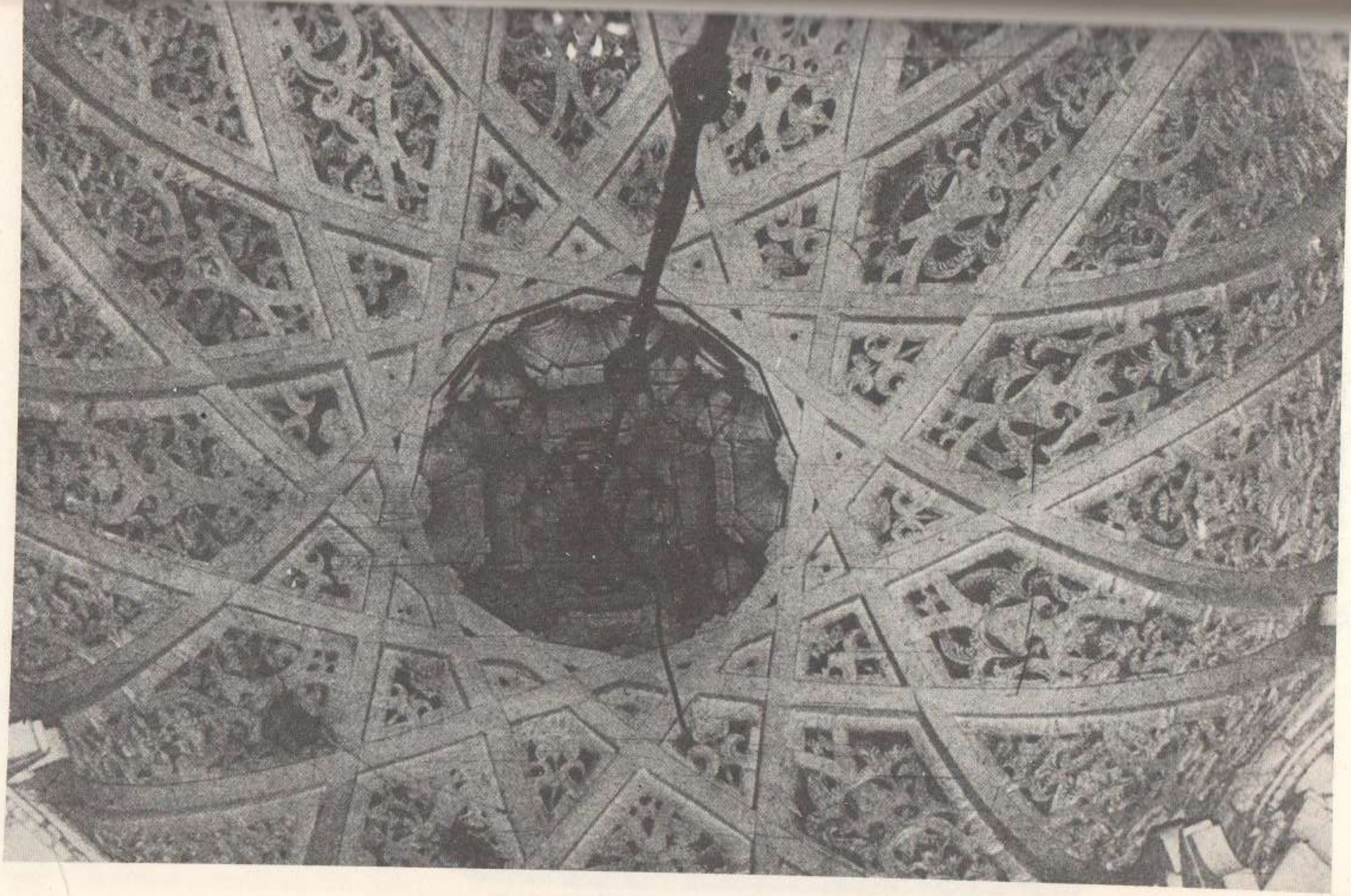
ضريح السلطانة بتلمسان



بيت الصلاة للجامع الكبير بالجزائر



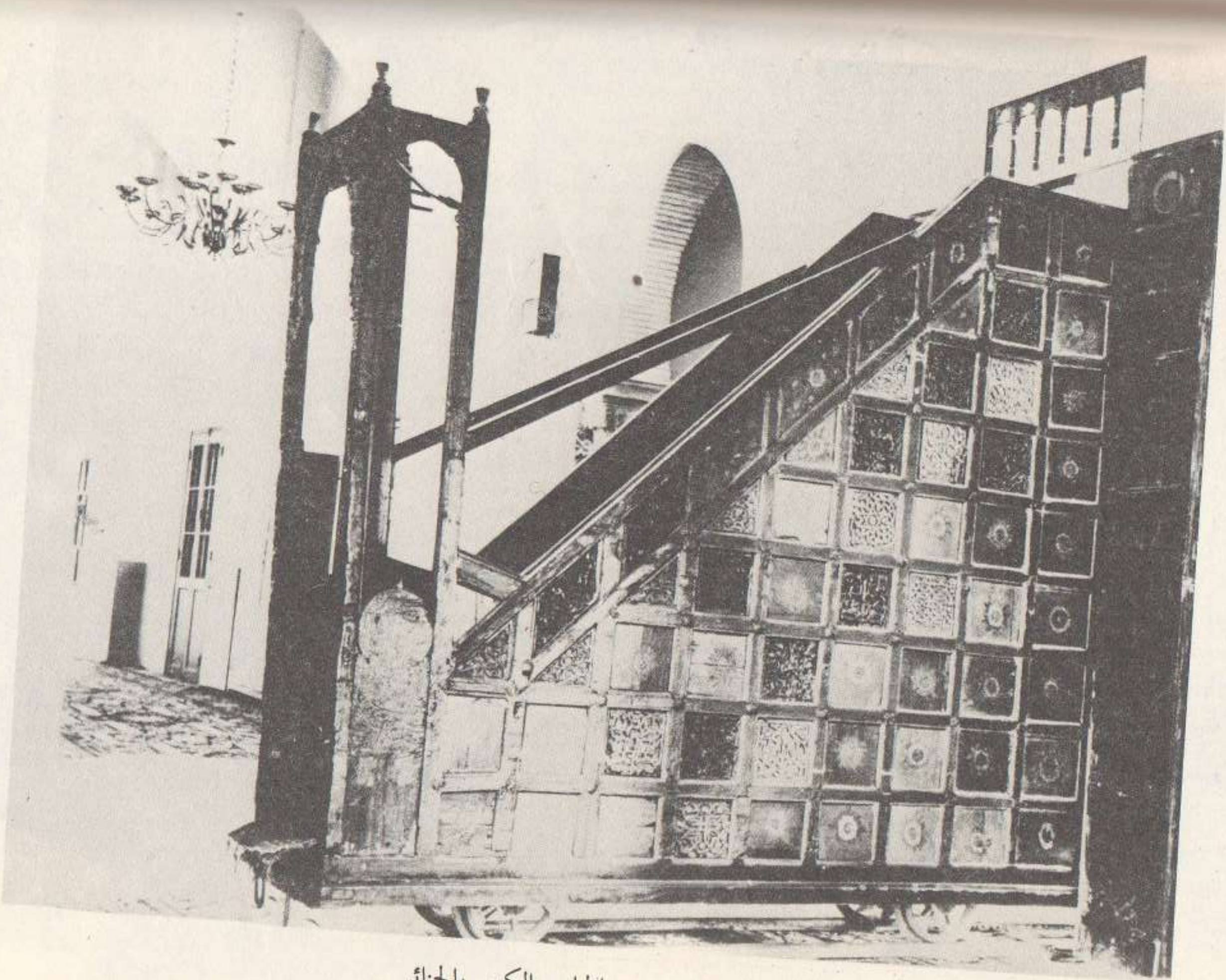
محراب الجامع الكبير بتلمسان



نقش قبة الجامع الكبير بتلمسان



ظهر منبر الجامع الكبير بندرومة



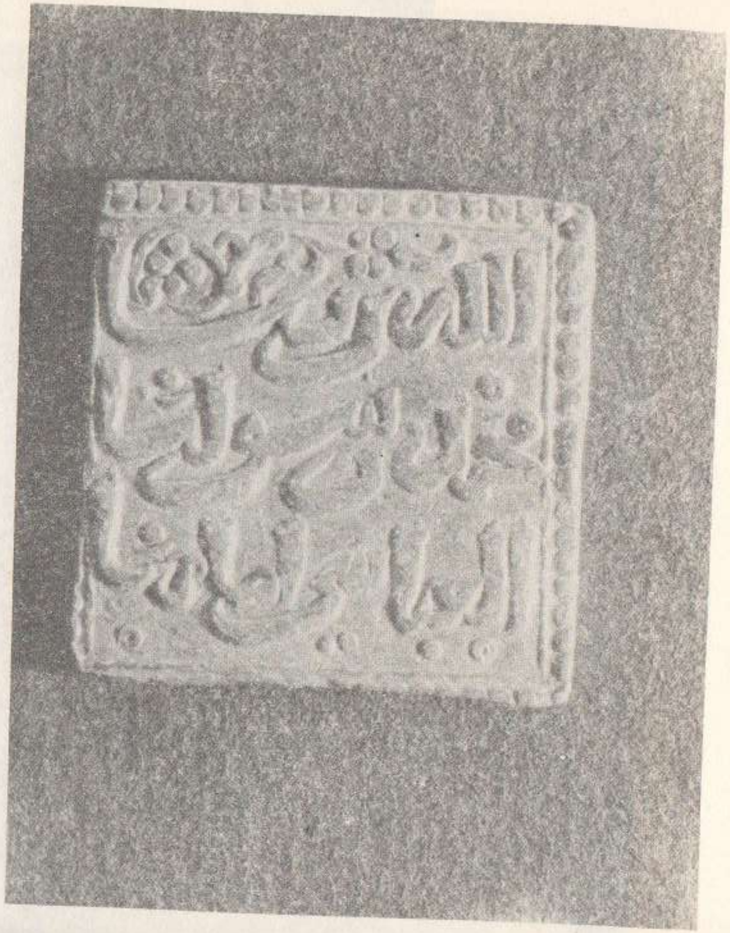
منبر الجامع الكبير بالجزائر



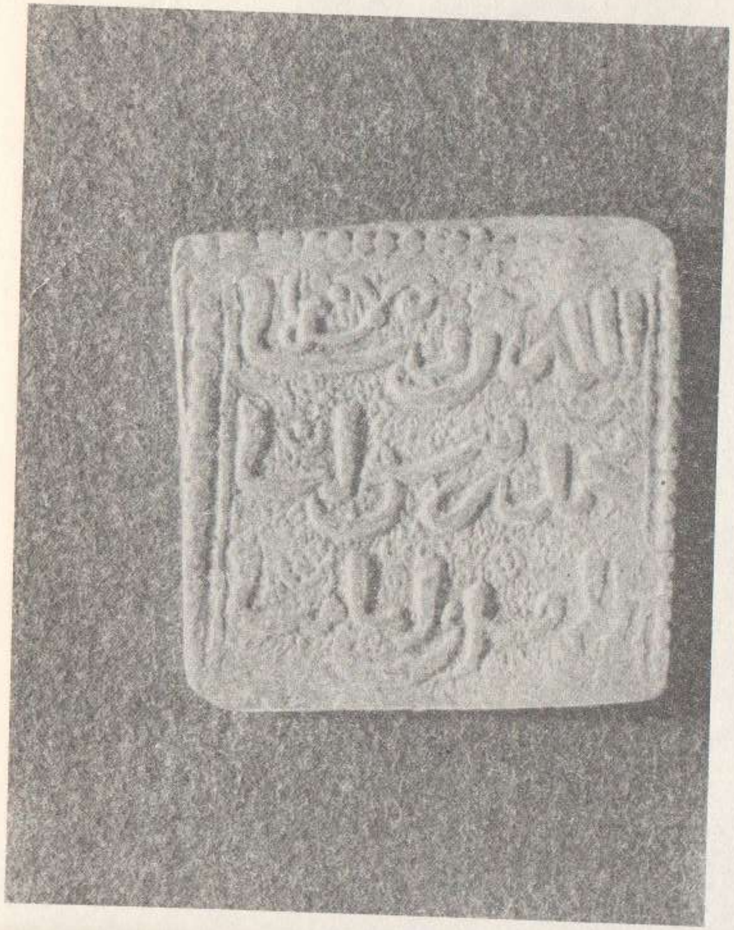
مقصورة الجامع الكبير بتلمسان



حوض الجامع الكبير بتلمسان



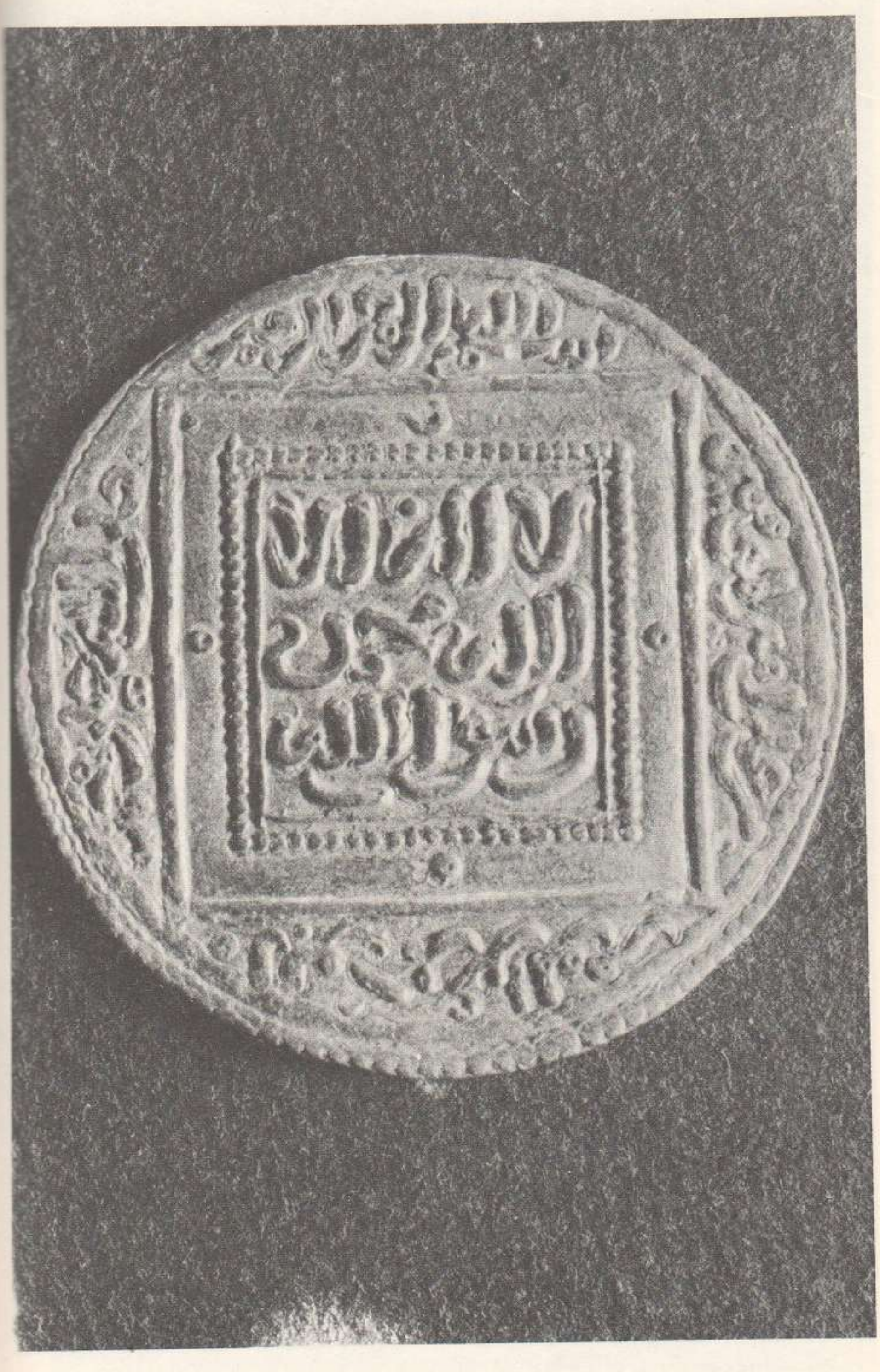
وجه درهم موحدي



ظهر درهم موحدي

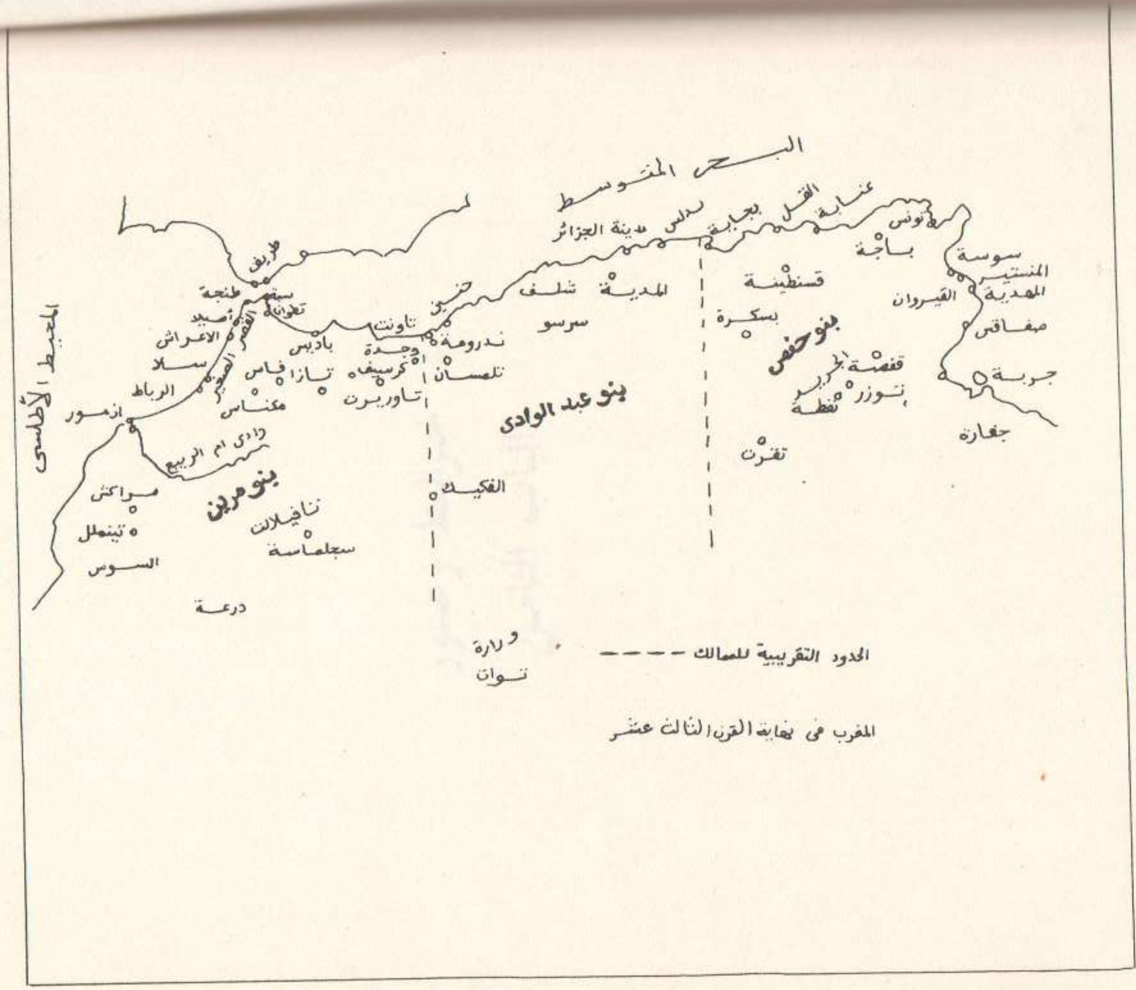


وجه دينار موحدي



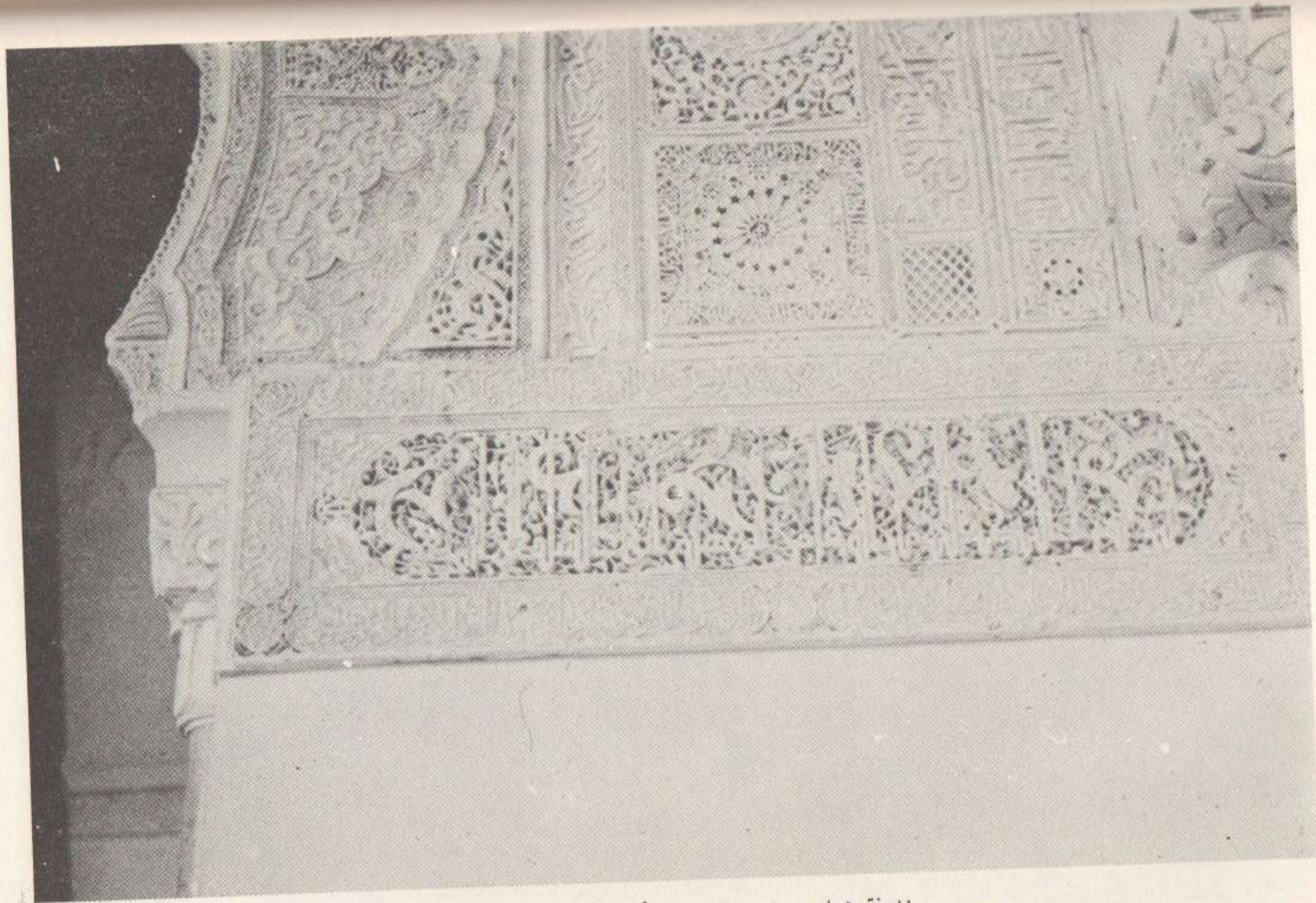
ظهر دينار موحدي

خرائط وصور
الباب السادس

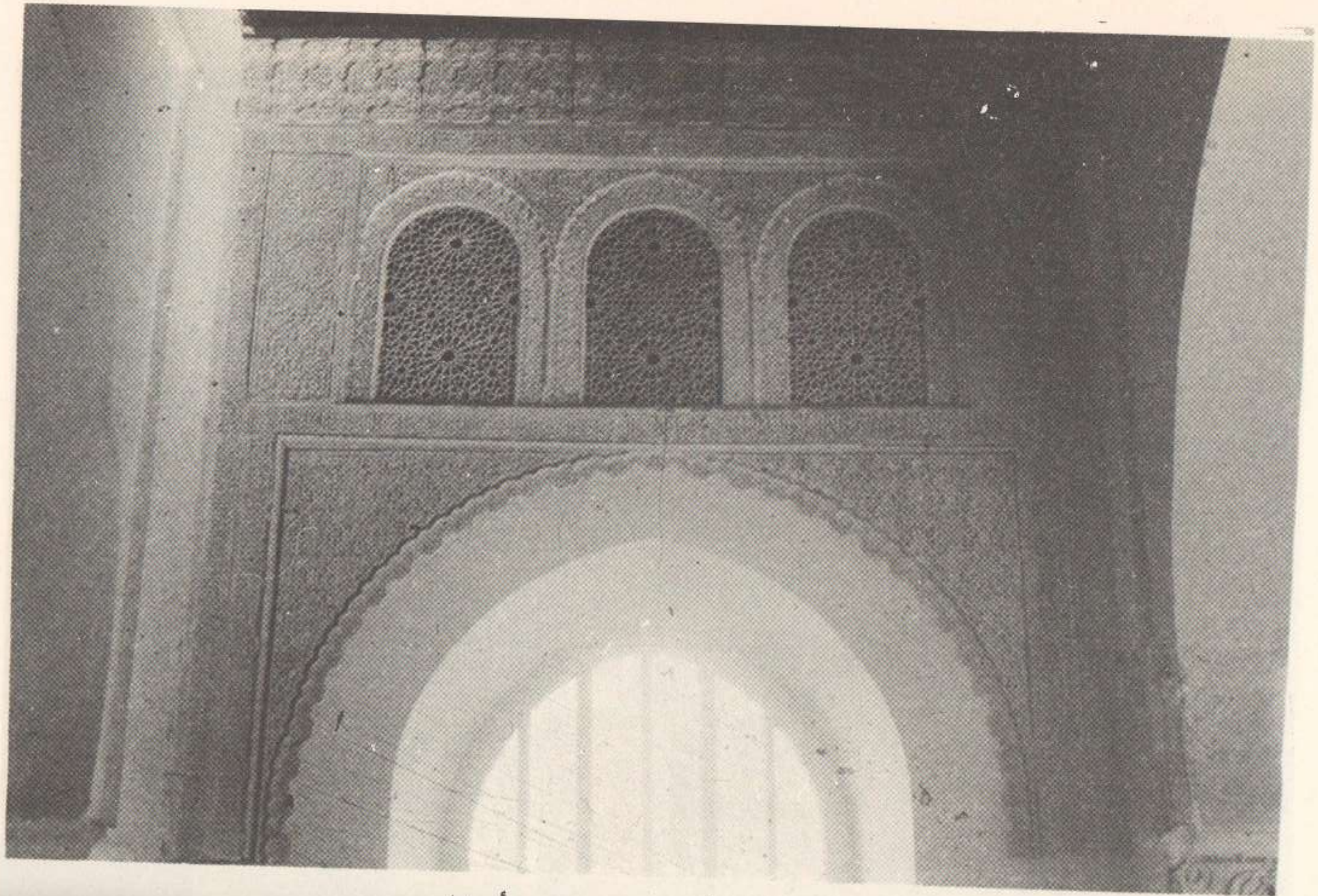


مئذنة الجامع الكبير بقلعة بني حماد

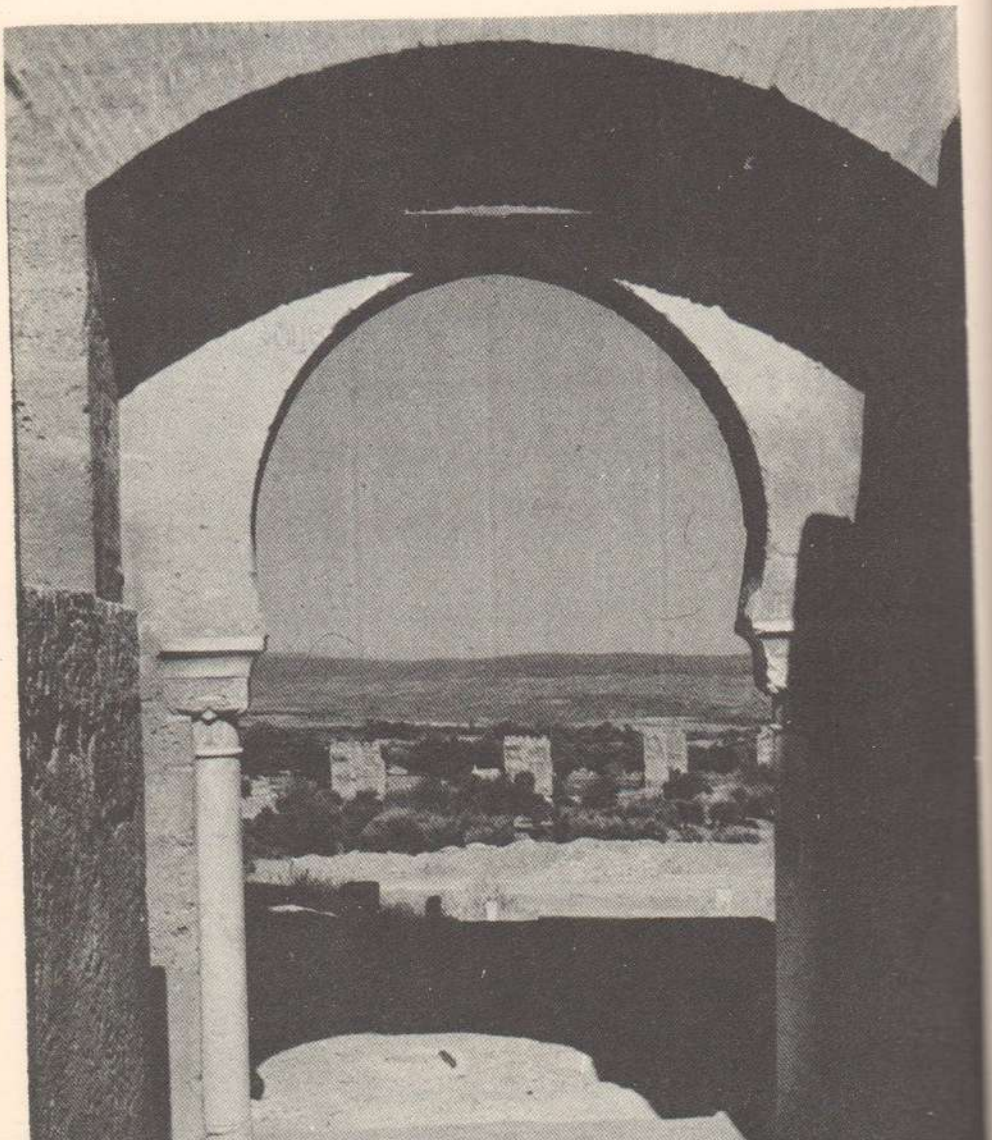
خرائـط وصـور
الباب الثامـن



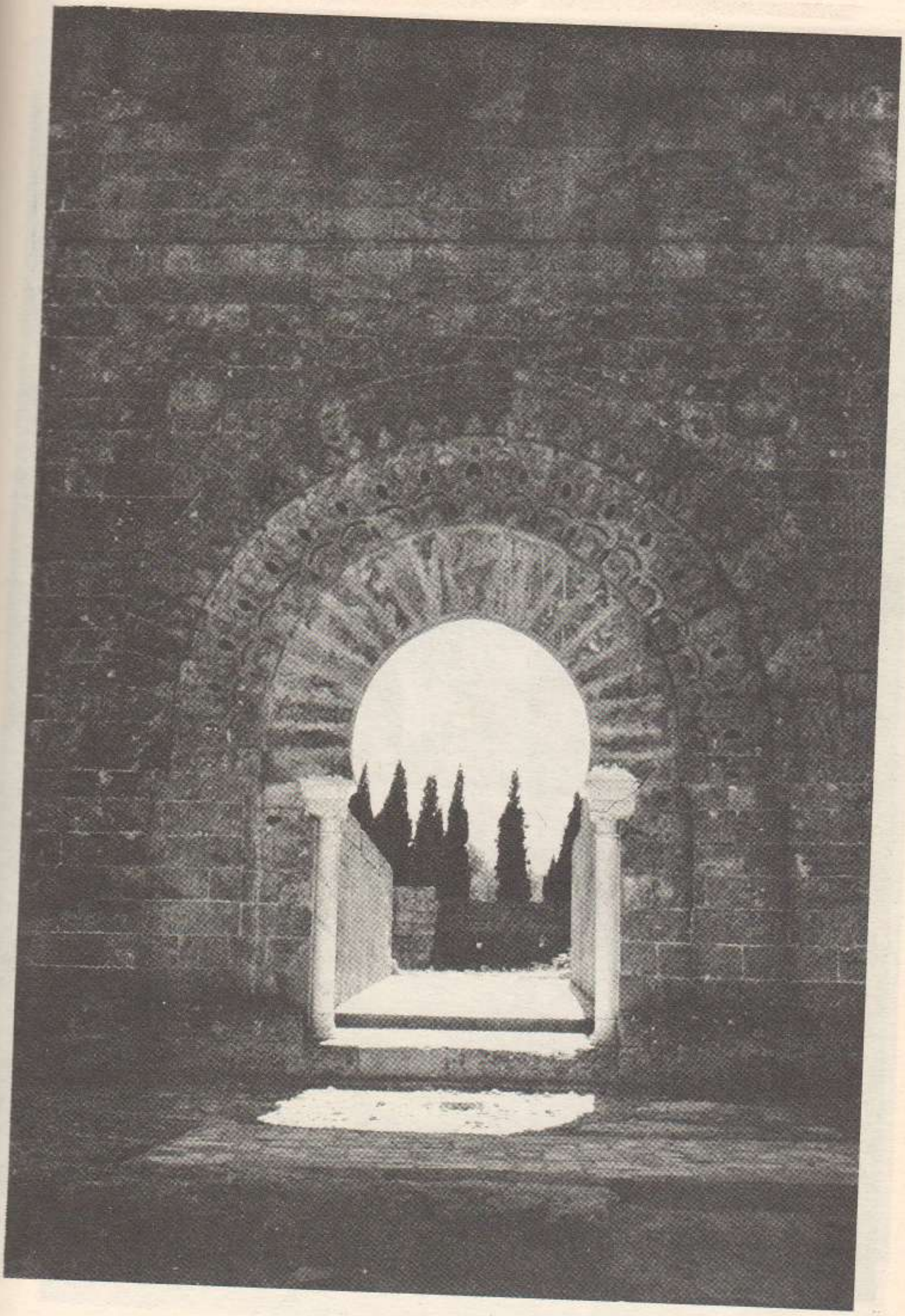
زخرفة محراب مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان



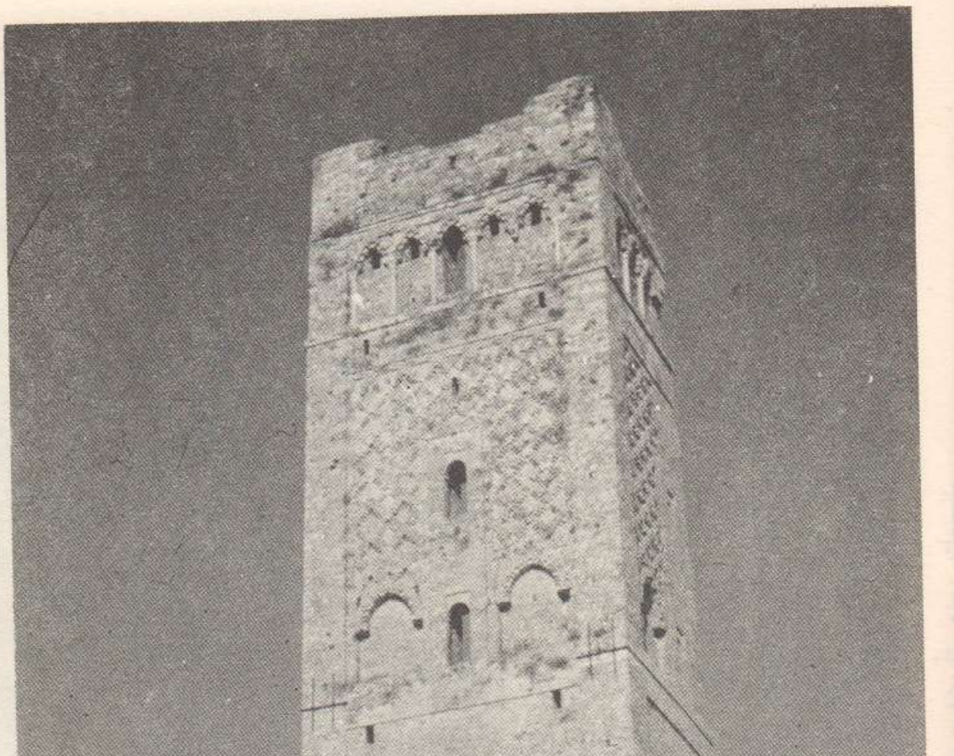
زخرفة باب من أبواب مسجد سيدي أبي الحسن



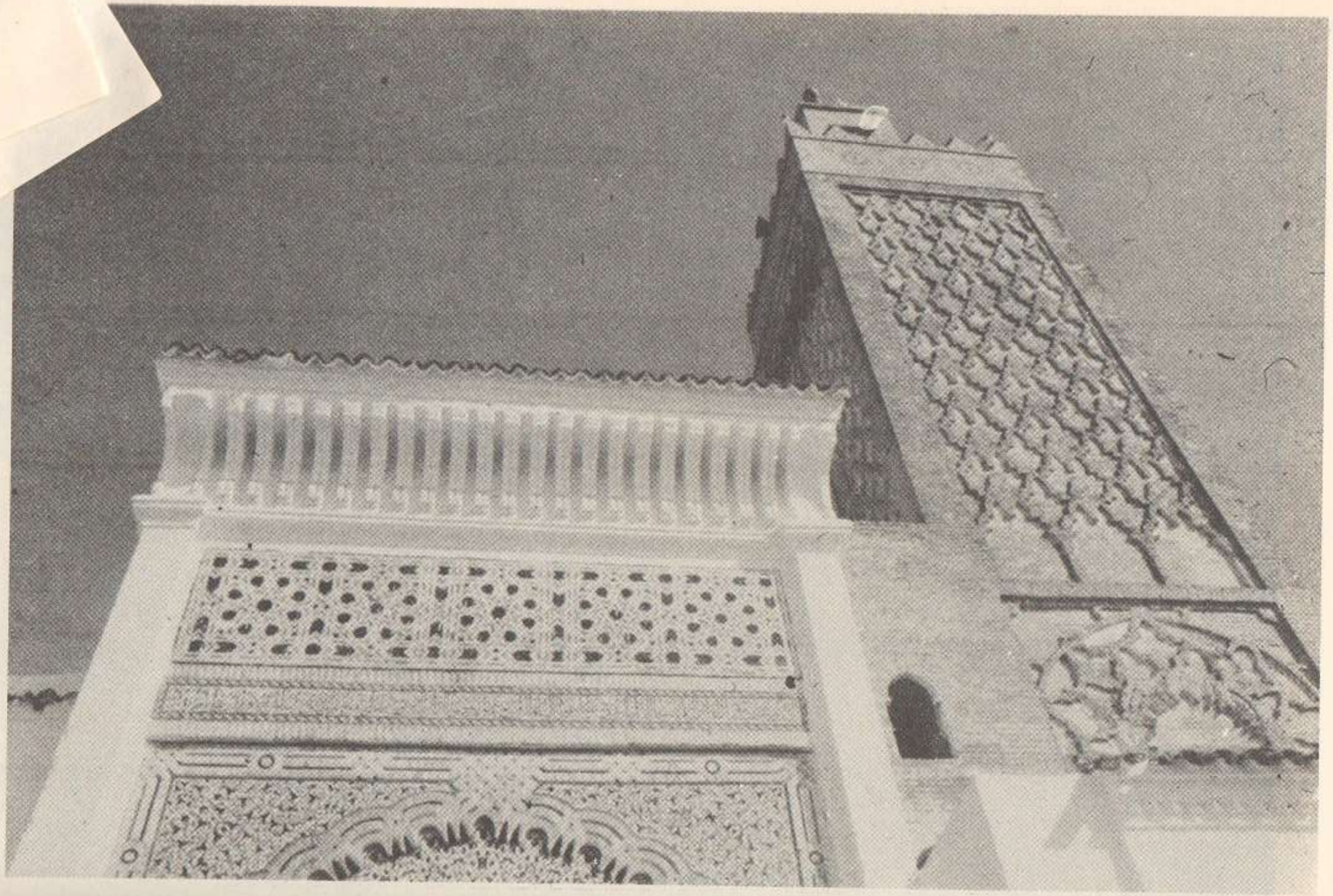
باب مسجد المنصورة بتلمسان



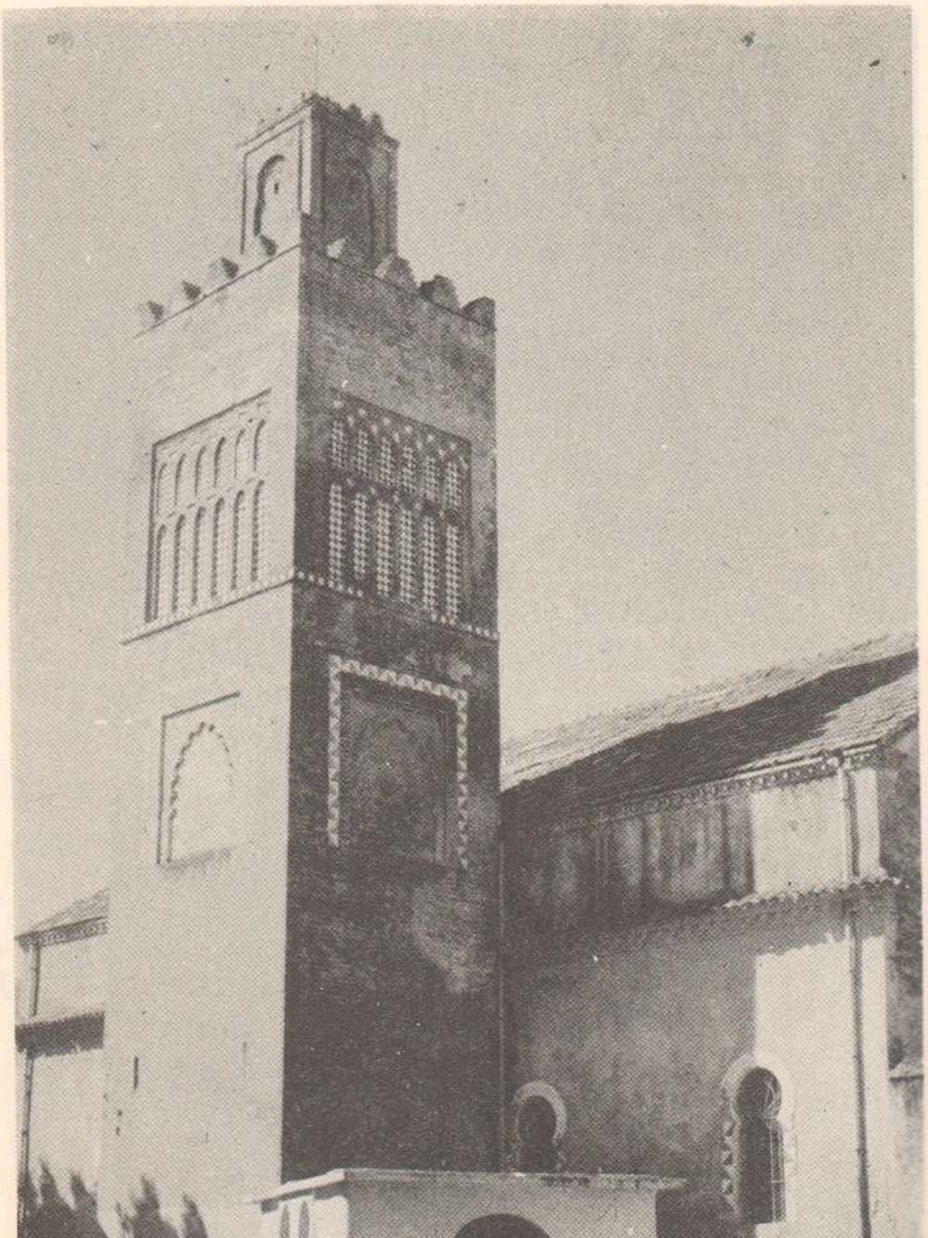
باب مسجد المنصورة بتلمسان



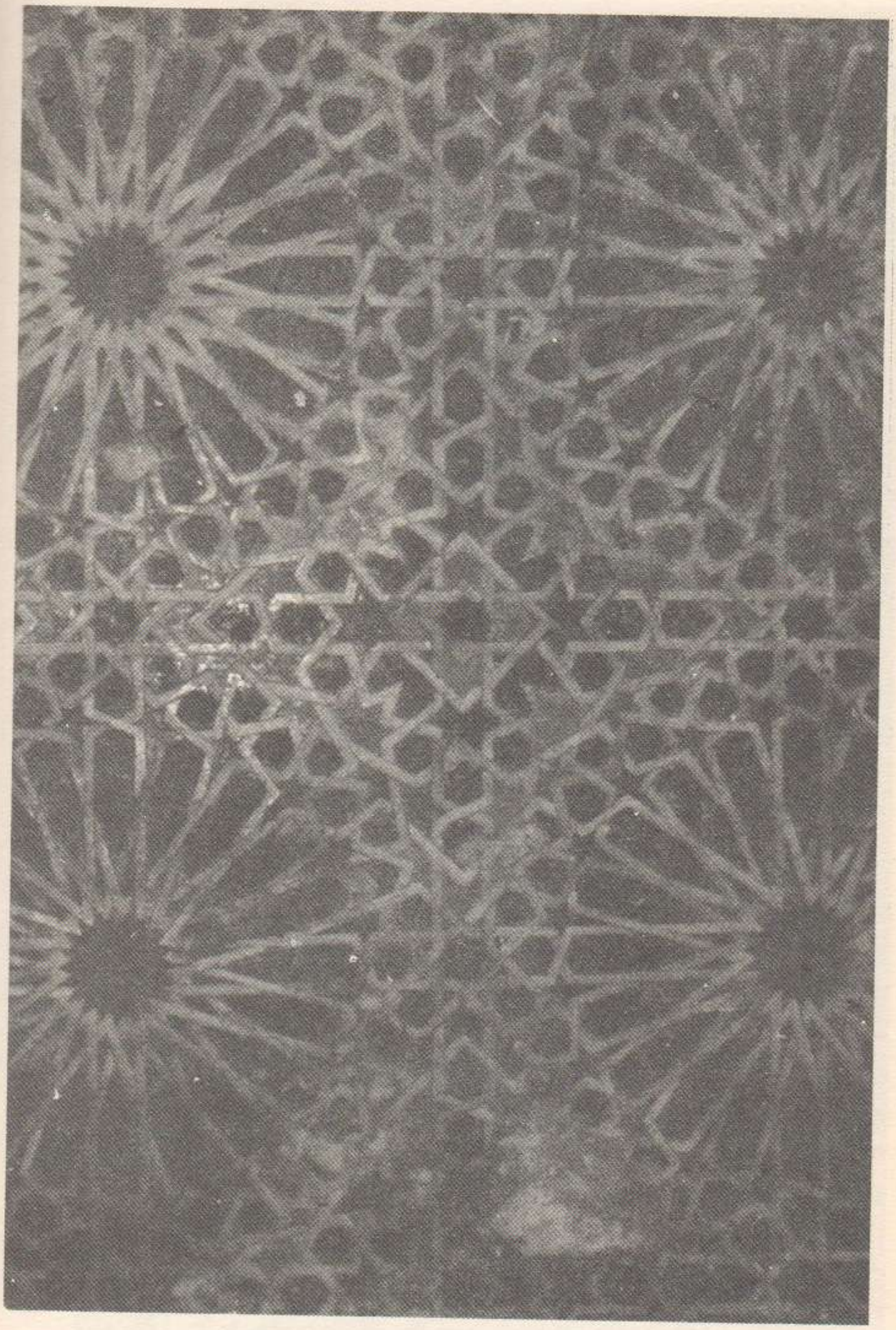
مئذنة مسجد المنصورة بتلمسان



مدخل ومئذنة مسجد سيدي أبي مدين بتلمسان

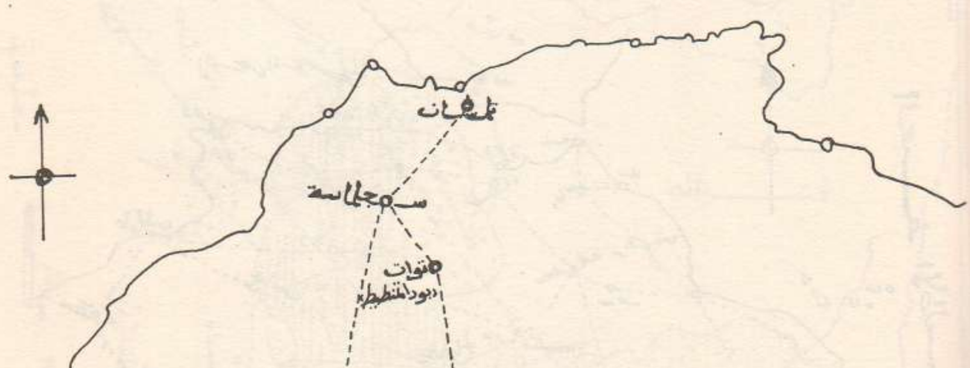


مئذنة مسجد المشور بتلمسان



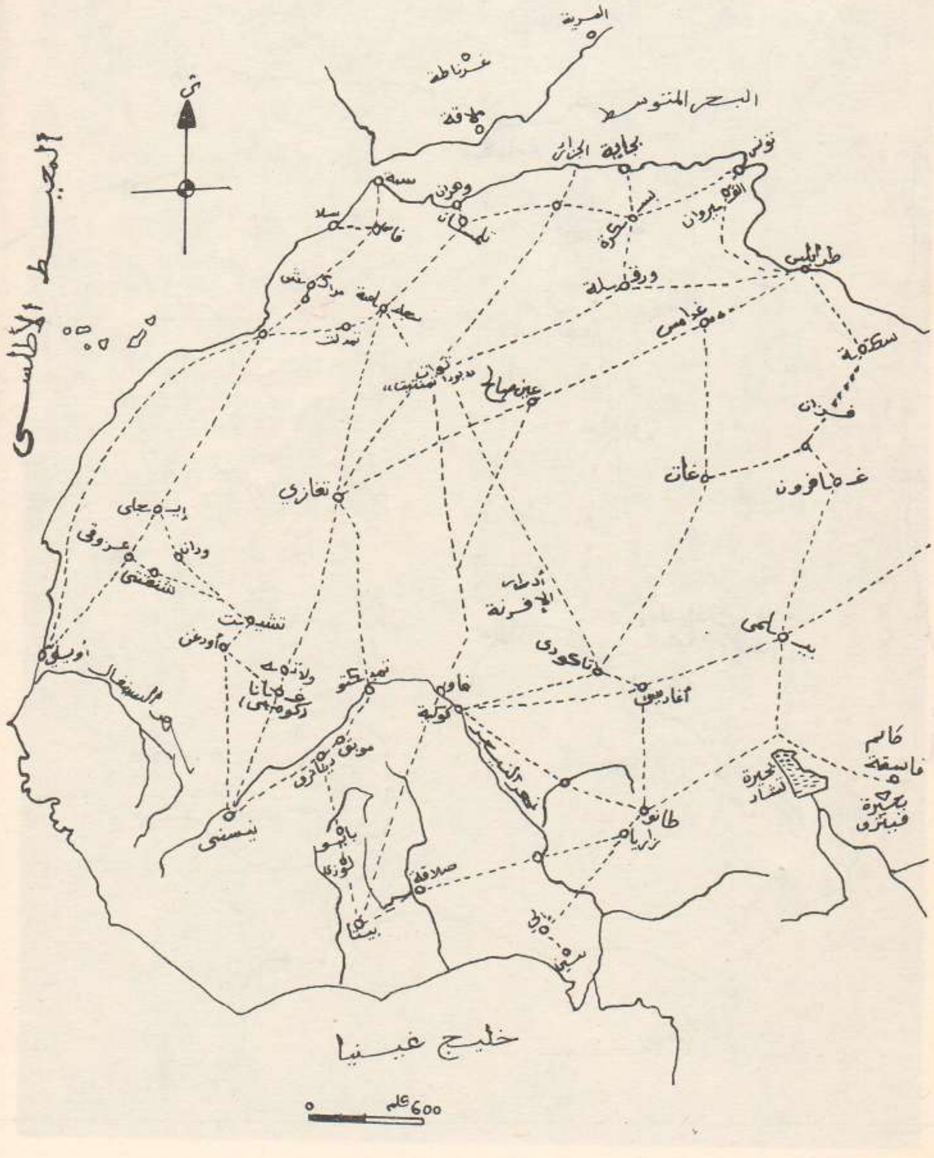
زخرفة المدرسة التاسفينية

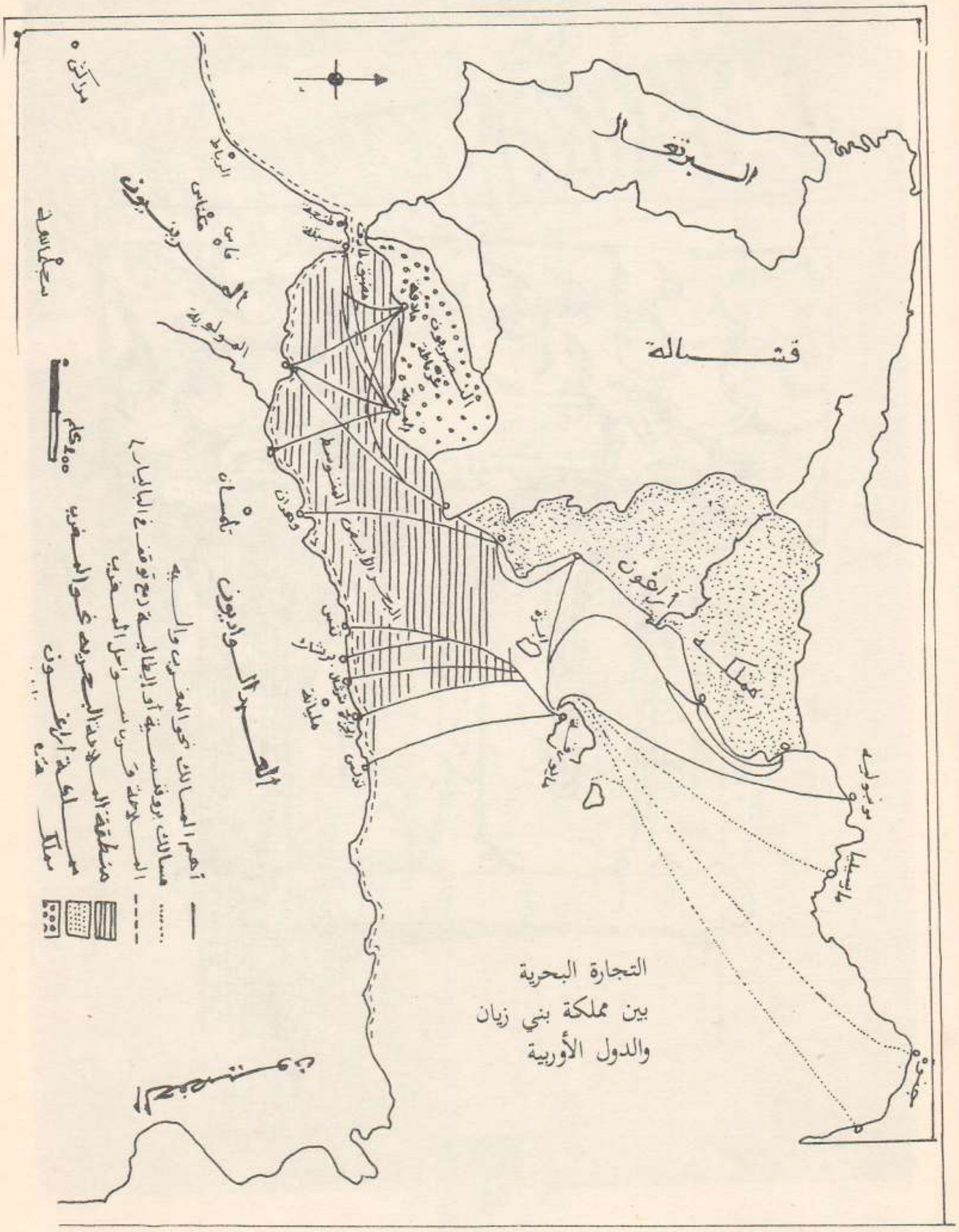
مسالك مرور تجار تلمسان نحو افريقيا.



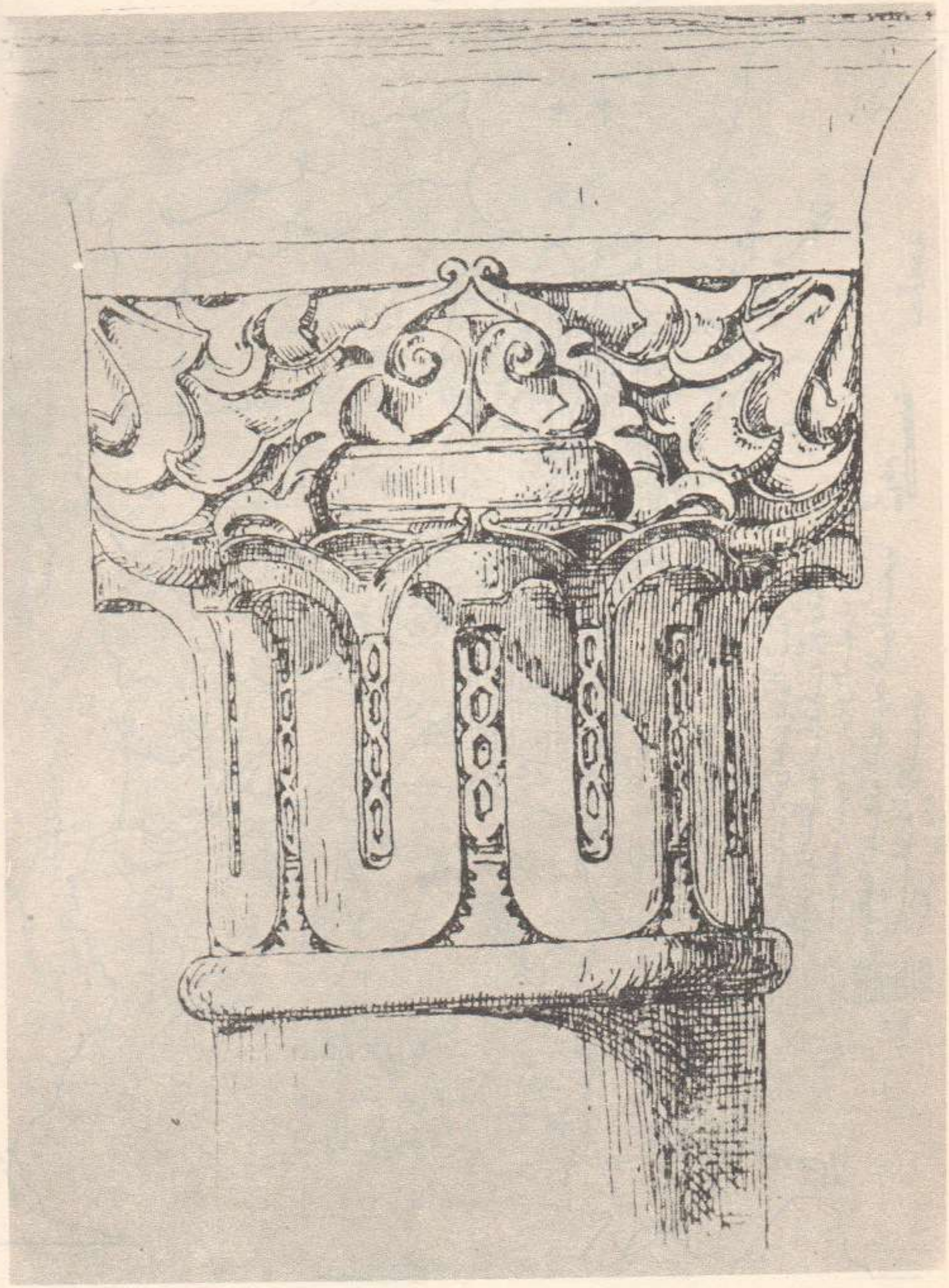
الطرق التجارية عبر الصحراء

في العصور الوسطى

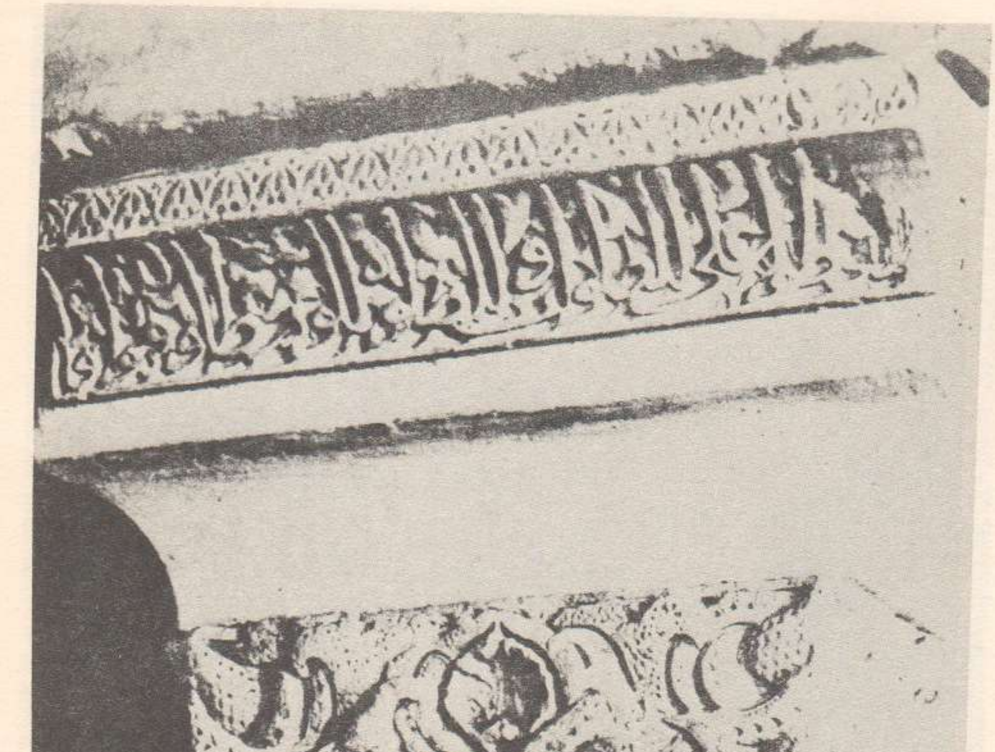




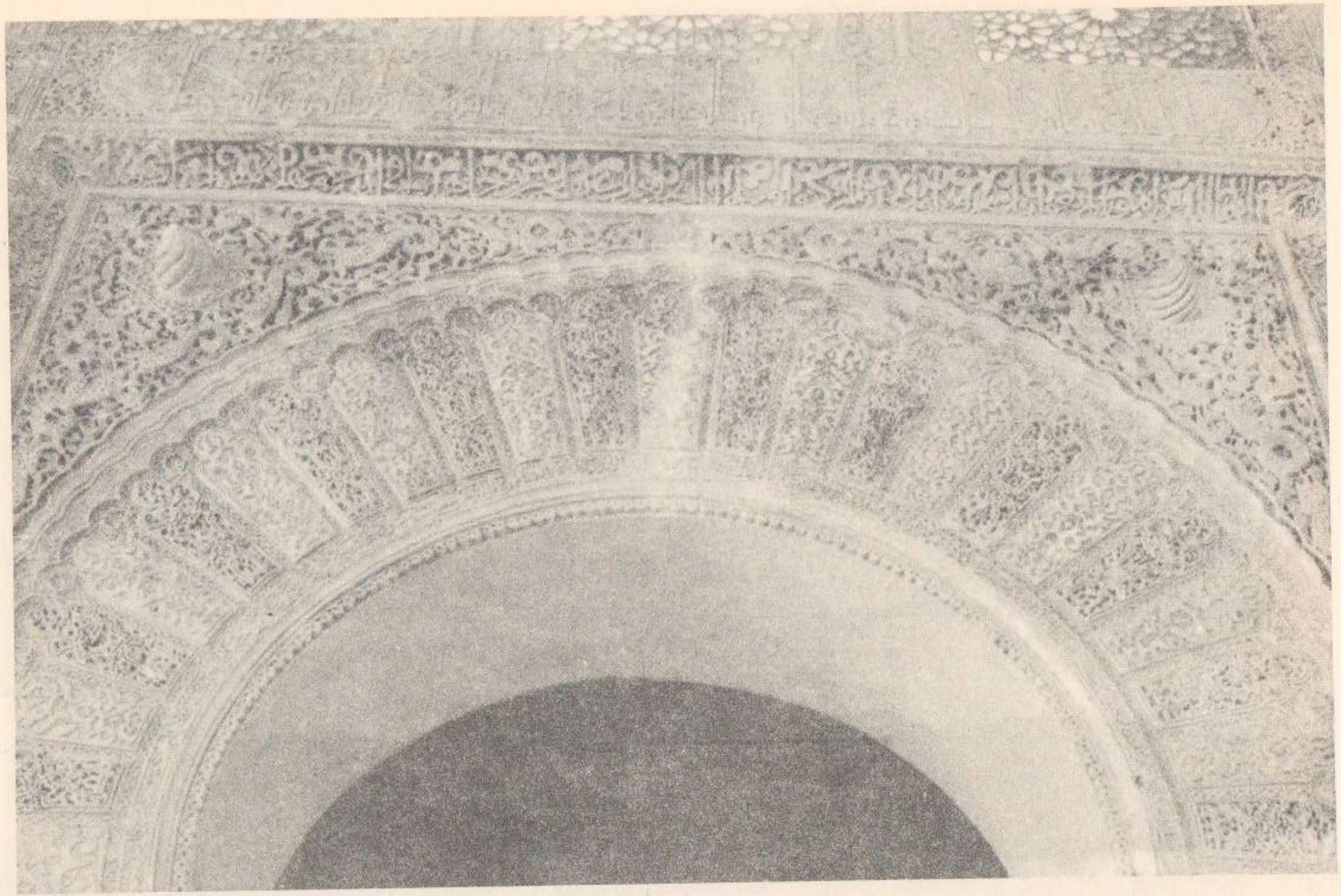
التجارة البحرية
بين مملكة بني زيان
والدول الأوربية



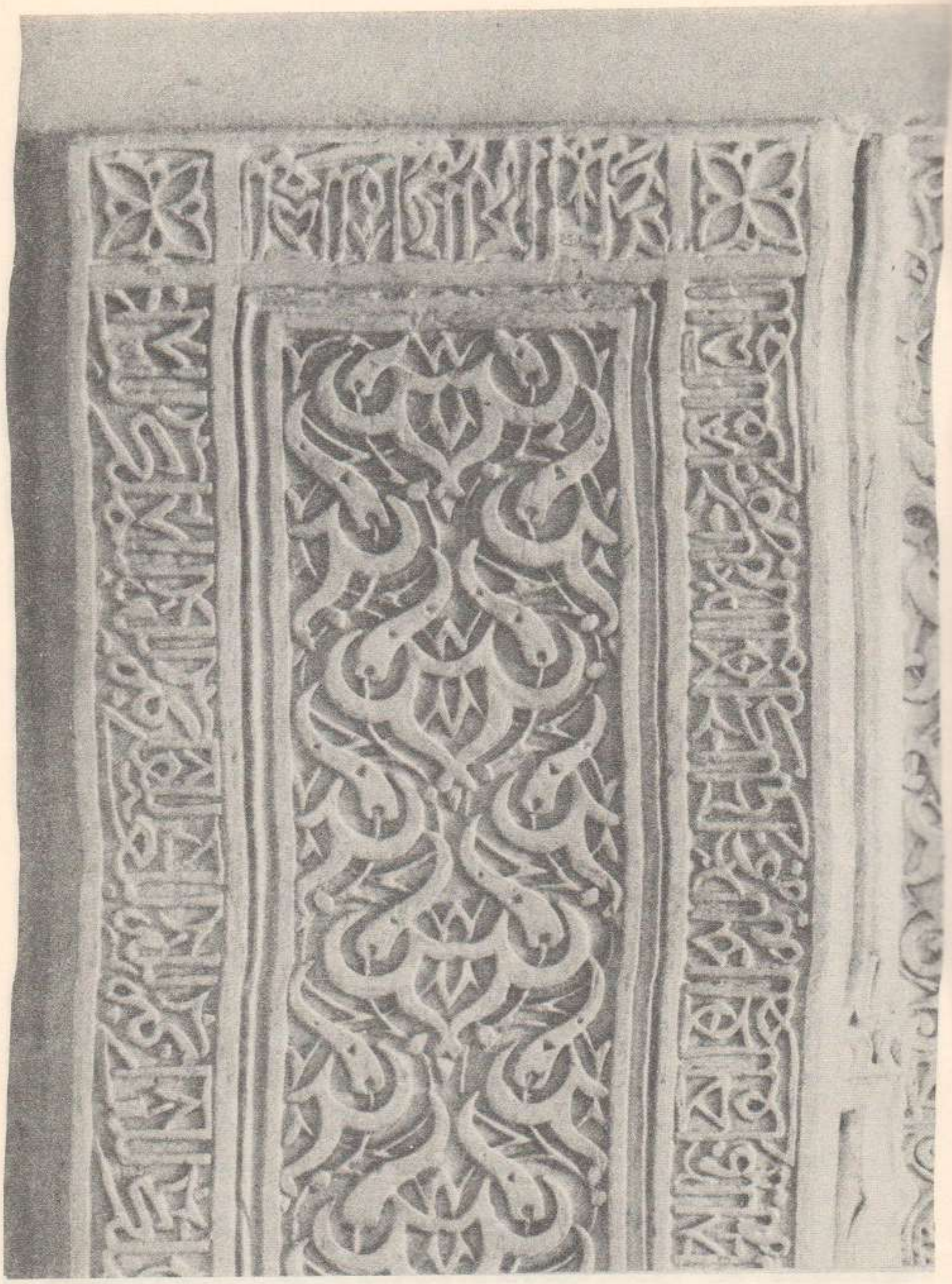
تاج من تيجان مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان



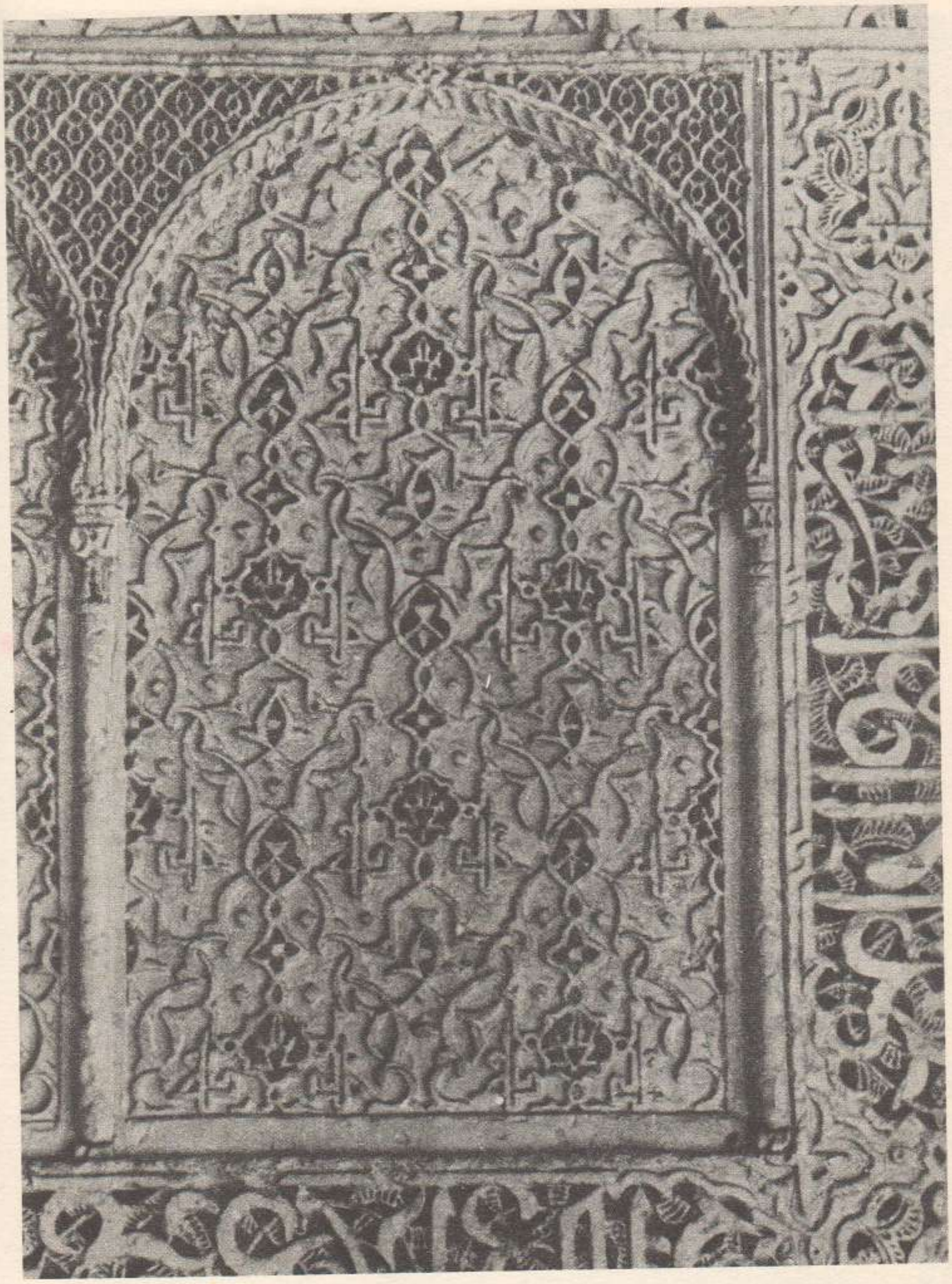
تاج محراب مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان



زخرفة محراب مسجد سيدي أبي مدين بتلمسان



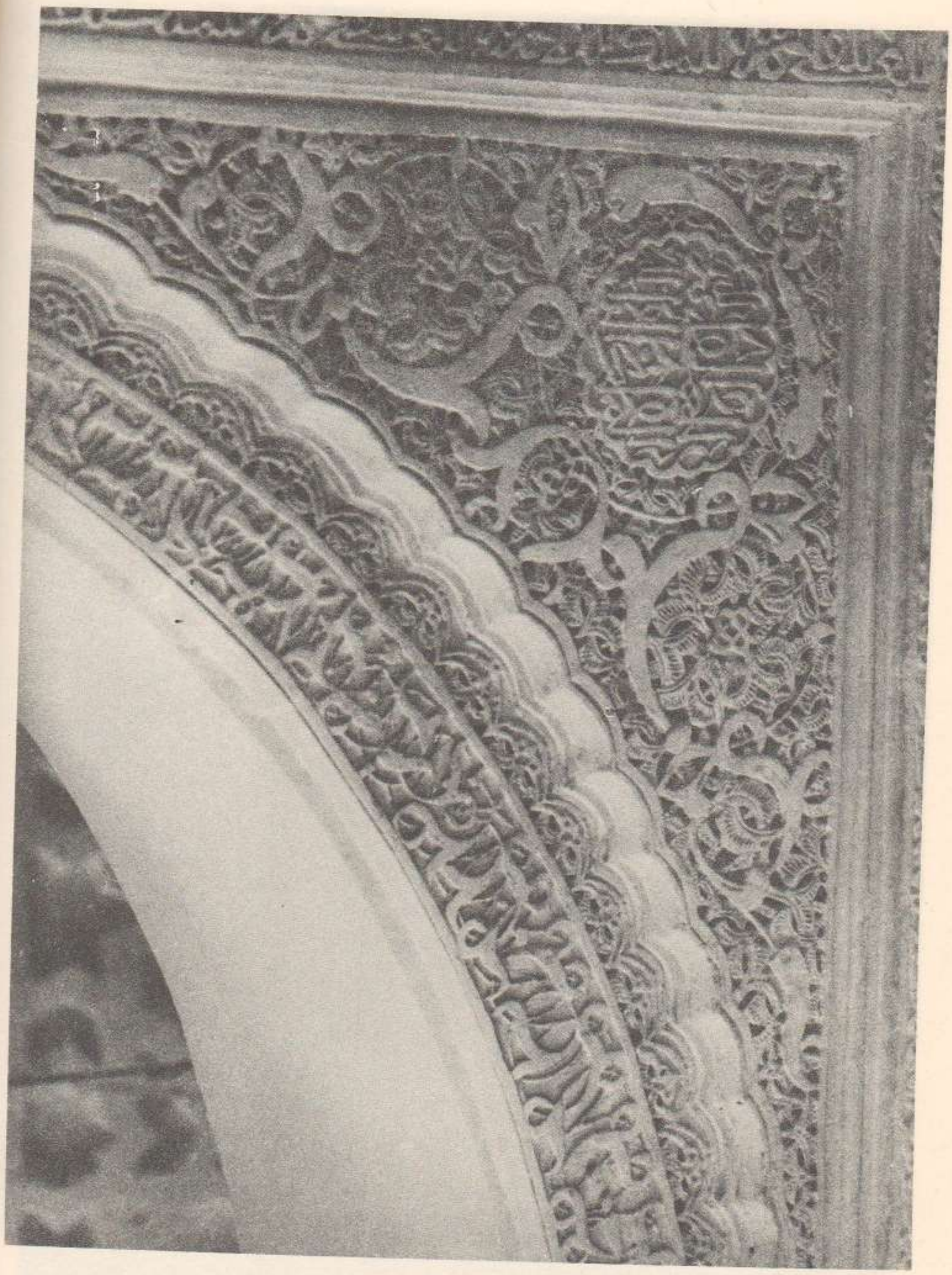
زخرفة جدار من جدران مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان



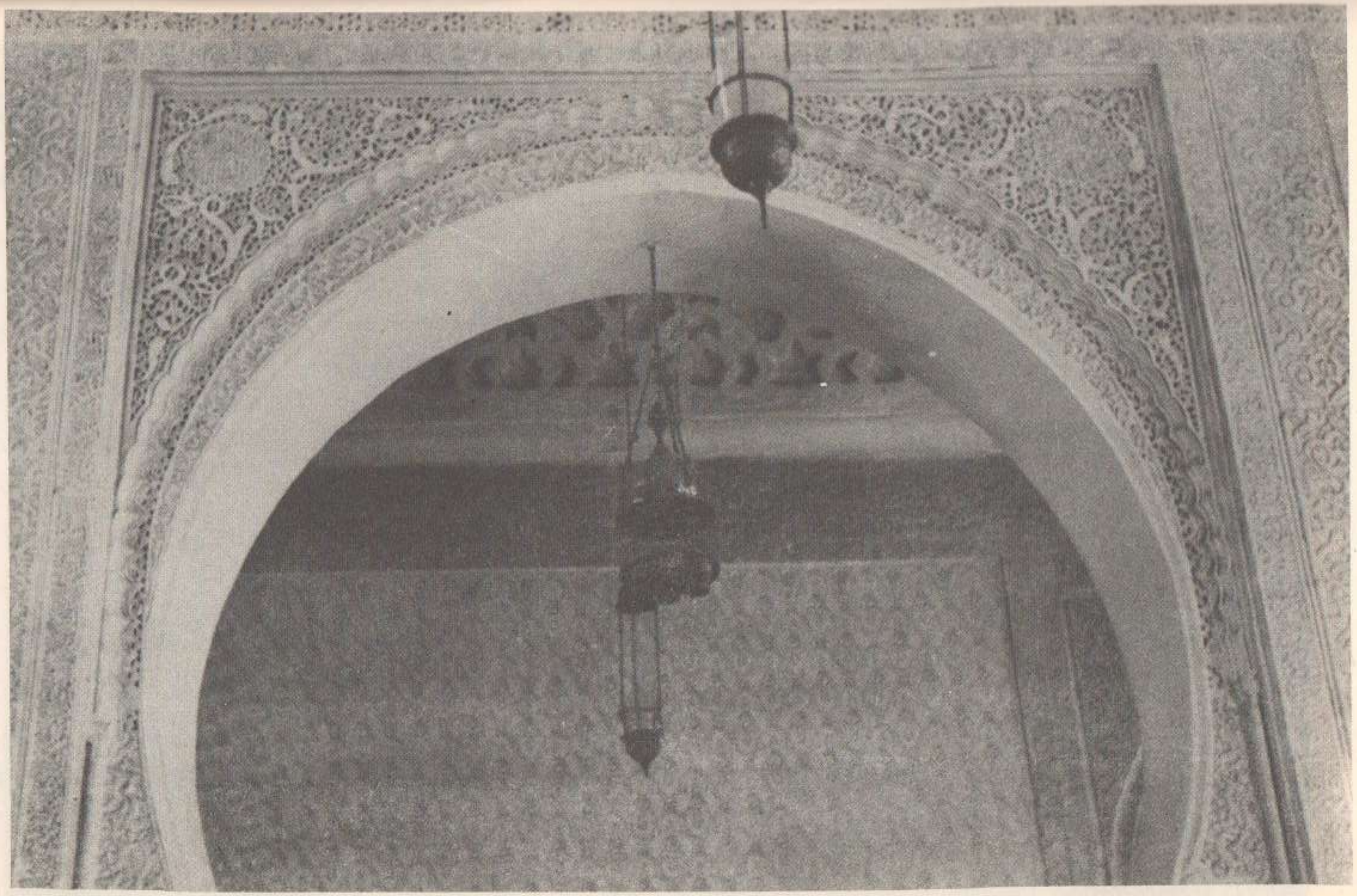
زخرفة جدار من جدران مسجد سيدي أبي الحسن بتمسان



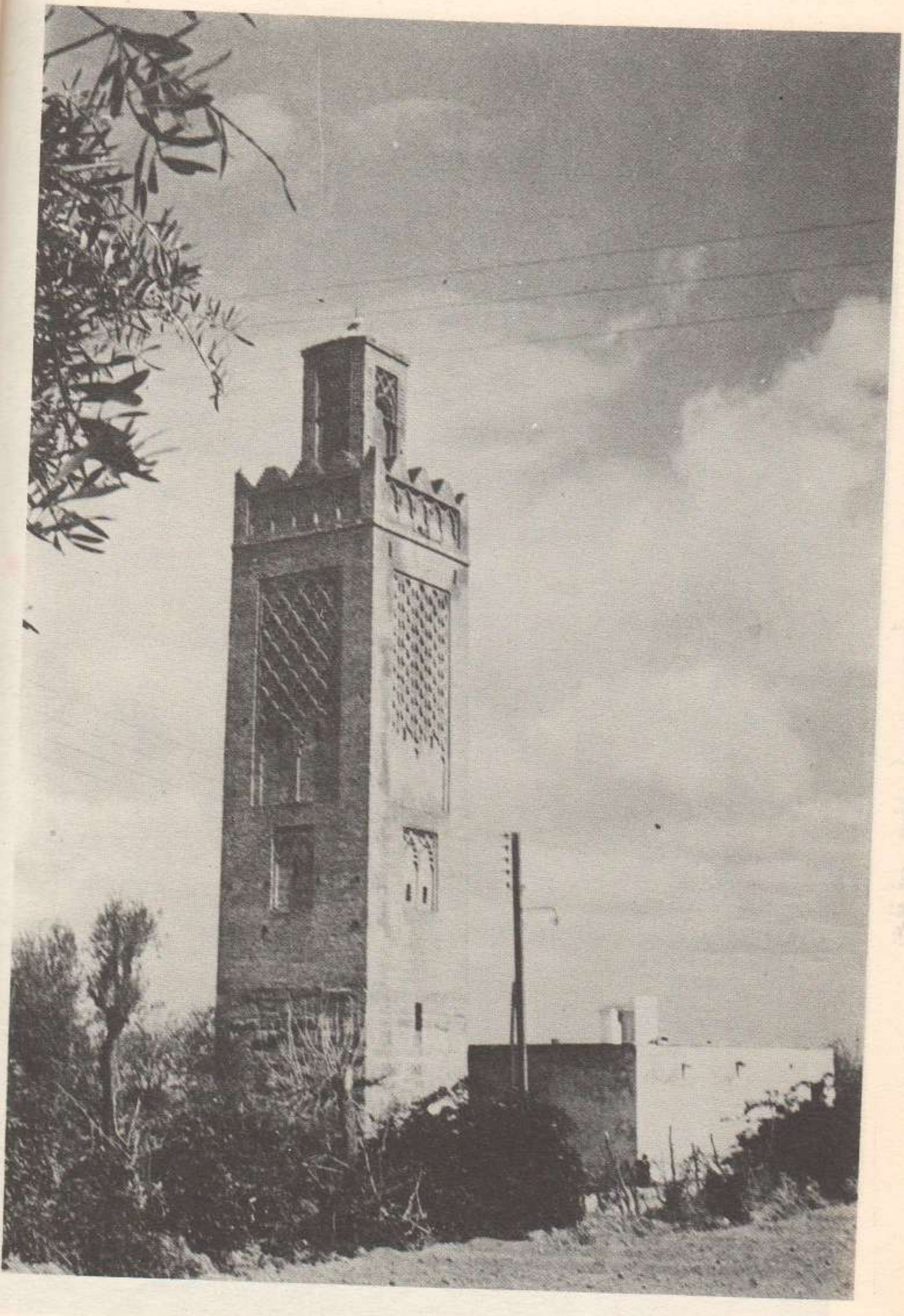
تاج مئذنة الجامع الكبير بتلمسان



زخرفة قوس من أقواس مسجد سيدي أبي مدين بتلمسان



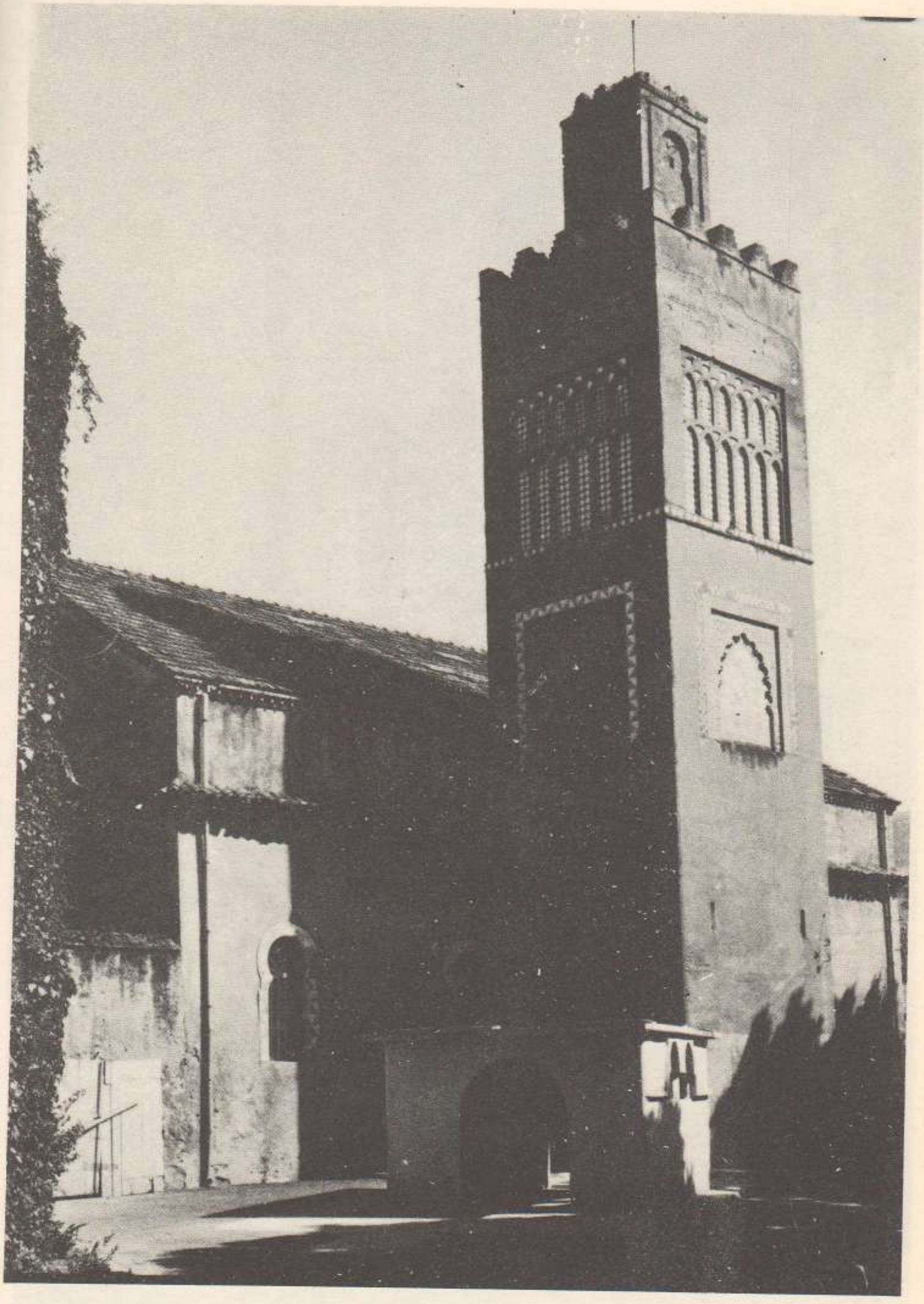
زخرفة قوس وسقف لمسجد سيدي أبي مدين بتلمسان .



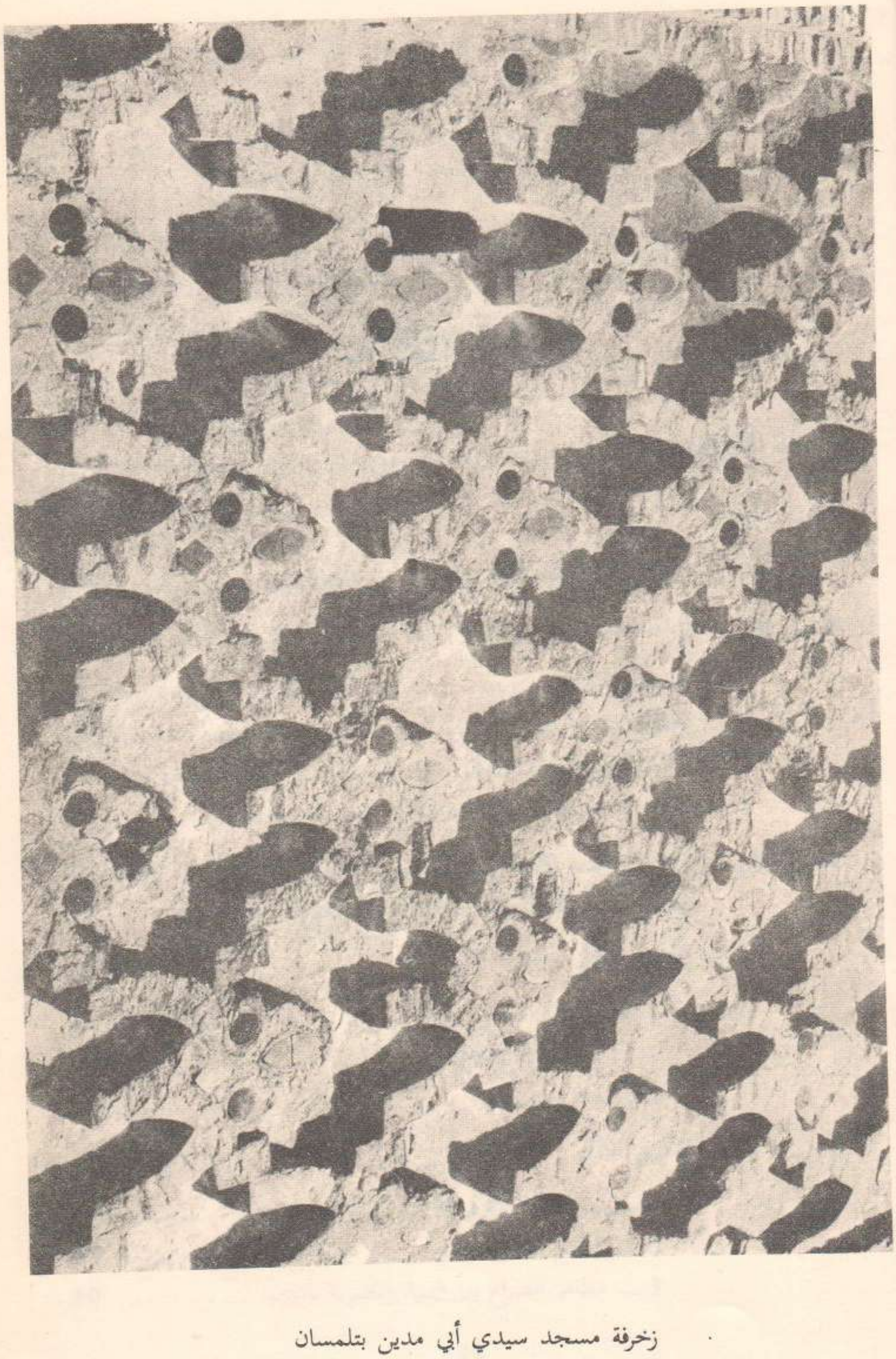
مئذنة مسجد أقادير بتلمسان



مئذنة مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان



مئذنة مسجد المشور بتلمسان



زخرفة مسجد سيدي أبي مدين بتلمسان

محتويات الكتاب

السعر في الجزائر : 96,20 د. ج.